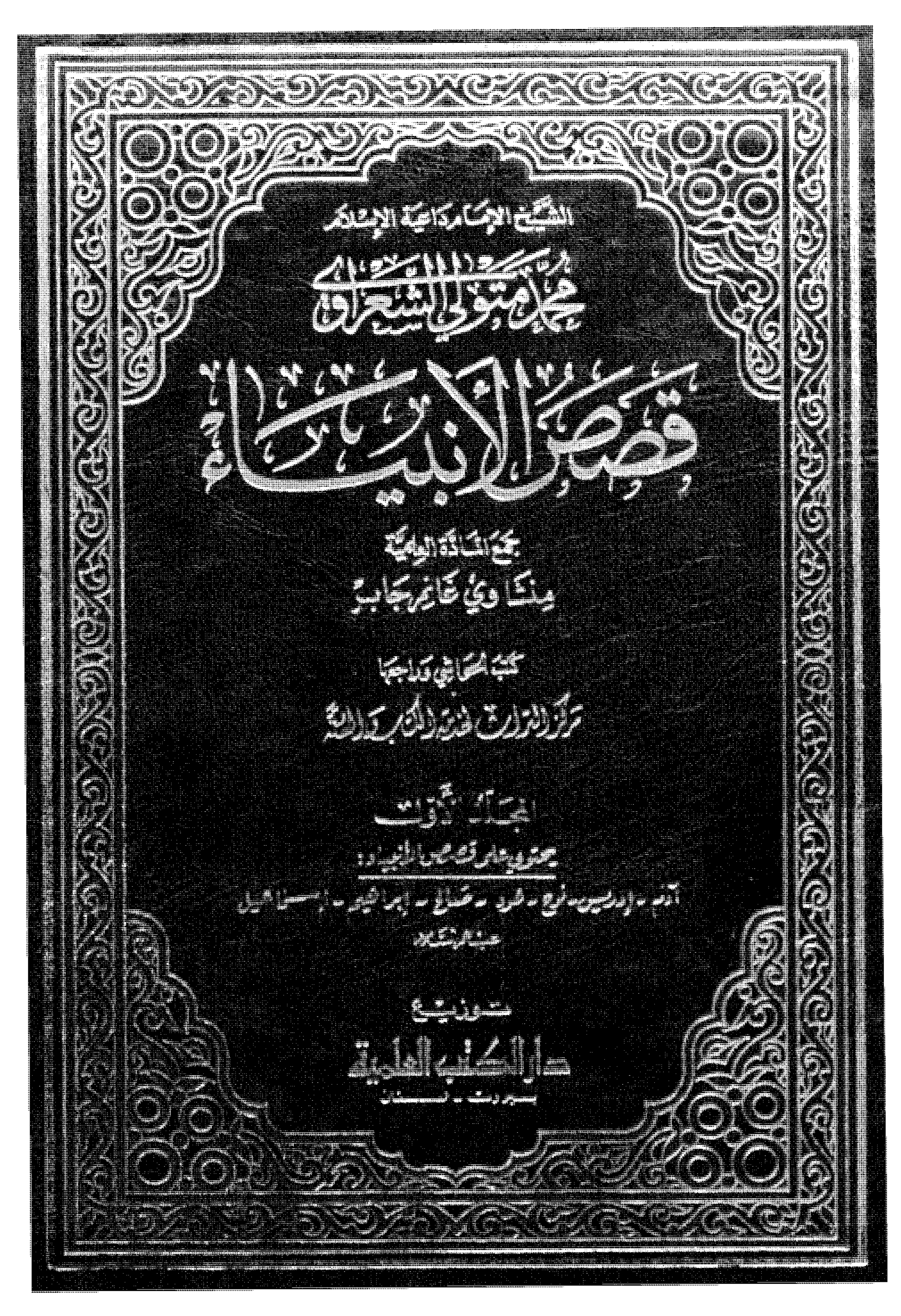

الشيخ الإمام داعية الإسلام
محمد متولي الشعراوي
قصص الأنبياء
جمع المادة العلمية
منشاوي غانم جابر
كتب الحواشي وراجعها
مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة
المجلد الأول
يحتوي على قصص الأنبياء
آدم - إدريس - نوح - هود - صالح - إبراهيم - إسماعيل
توزيع
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الشيخ الإمام داعية الإسلام

محمد متولي الشعراوي



قصص الأنبياء

جمع المادة العلمية

منشاوي غانم جابر

كتب الحواشي وراجعها

مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة

الجزء الأول

يحتوي على قصص الأنبياء:

آدم - إدريس - نوح - هود - صالح - إبراهيم - إسماعيل

عليهم السلام

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧



مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ . [آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ . [النساء: ١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ . [الأحزاب: ٧٠ - ٧١]

وبعد فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ،وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار[١].

---

(١) هذه هى خطبة الحاجة التى كان رسول الله ﷺ يفتتح بها خطبه ومواعظه. انظر رسالة الشيخ الألبانى: خطبة الحاجة .

أما بعد :

فإن القصص فى القرآن الكريم يمثل موكب الإيمان فى طريقه الممتد الواصل الطويل ، ويعرض قصة الدعوة إلى الله واستجابة البشرية جيلا بعد جيل ، وكذلك إعلانًا وإخبارًا لنبينا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين كما فى قوله تعالى: ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ﴾ . [يوسف : ٣]

كذلك تسرية وتثبيتًا له ﷺ على تكذيب أمته وما لاقاه من عنت وجحود: ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾. [هود : ١٢٠]

وكذلك عبرة وعظة لأمة الحبيب ﷺ حتى يتحقق فيها قول الله سبحانه : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ . [البقرة : ١٤٣]

كما فى قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ . [يوسف : ١١١]

ثم هى فى النهاية دليل على أن رسول الله ﷺ لم يكن بدعًا من الرسل وإنما جاء صلوات الله وسلامه عليه متممًا لما بدأوه، وخاتمًا لمنهج السماء ؛ فالحبل متصل والأمة واحدة والرب جل فى علاه واحد أحد لا إله سواه كما فى قوله تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ** ﴾ . [الشورى : ١٣]

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون:٥٢]

وقد لخص الشيخ جمال الدين القاسمى كل ذلك فقال:

اعلم أن قصص القرآن الكريم لا يراد بها سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص، وإنما هى عبرة للناس. كما قال تعالى فى سورة هود، بعدما ذكر موجزًا من سيرة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾. [هود: ١٢٠] إلخ، ولذلك لا تذكر الوقائع والحوادث بالترتيب، ولا تستقصى فيذكر منها الطمّ والرمّ، ويؤتى فيها بالجرة وأذُن الجرة، كما فى بعض الكتب، التى تسميها الملل الأخرى مقدسة. وللعبرة وجوه كثيرة. وفى تلك القصص فوائد عظيمة، وأفضل الفوائد وأهم العبر فيها التنبيه على سنن الله تعالى فى الاجتماع البشرىّ، وتأثير أعمال الخير والشر فى الحياة الإنسانية. وقد نبه الله تعالى على ذلك فى مواضع من كتابه كقوله: ﴿ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾. [الحجر: ١٣]

وقوله: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾. [غافر: ٨٥]

يذكر أمثال هذا بعد بيان أحوال الأمم فى غمط الحق والإعراض عنه، والغرور بما أوتوا، ونحو ذلك.

فالآية الأولى: جاءت فى سياق الكلام عن المعرضين عن الحق لا يلوون عليه ولا ينظرون فى أدلته لانهماكهم فى ترفهم وسرفهم، وجمودهم على عاداتهم وتقاليدهم.

والآية الثانية: جاءت فى سياق محاجّة الكافرين والتذكير بما كان من شأنهم مع الأنبياء، وبعد الأمر فى السير فى الأرض والنظر فى عاقبة الأمم القوية ذات القوة والآثار فى الأرض، وكيف هلكوا بعدما دعوا إلى الحق

والهدى فلم يستجيبوا، لما صرفهم من الغرور بما كانوا فيه، ولم ينفعهم إيمانهم عندما نزل بهم بأس الله وحَلّ بهم عذاب التفريط والاسترسال فى الكفر وآثاره السَّوْءَى. وليس المراد بنفى كون قصص القرآن تاريخًا ، أنّ التاريخ شيء باطل ضارّ ينزه القرآن عنه ، كلا ، إن قصصه شذور من التاريخ تعلم الناس كيف ينتفعون بالتاريخ. أ. هـ .

التكرار فى القصص القرآنى :

القرآن الكريم كتاب دعوة ودستور نظام ومنهج حياة لا كتاب رواية أو تسلية أو تاريخ وفى سياق الدعوة يجيء القصص المختار بالقدر والطريقة التى تناسب السياق ؛ وأنه حيثما تكررت حلقة كان هناك جديد تؤديه ينفى حقيقة التكرار.

قال العلامة جمال الدين القاسمى :

فتكرير صفات الله دال على الاعتناء بمعرفتها، والعمل بموجبها. وتكرير القصص دالّ على الاهتمام بالوعظ للإيقاظ والاعتبار. وفائدة تكرير القصص تطرئة المواعظ وتشديدها، لأن منها: ما يحث على الطاعة والإيمان ، ومنها : ما يزجر عن الكفر والعصيان.

وكذلك تكرير الوعد والوعيد، وكذلك تكرير ذكر الأحكام ، وكذلك تكرير المدح والذم، وما يترتب على المأمورات والمنهيات من المؤكدات المذكورات. فتكرير الوعد يدل على الاهتمام بفعل الطاعات ترغيبًا فى ثوابها، وتكرير الوعيد يدل على الاهتمام بترك المخالفات ترهيبًا من عقابها. وتكرير القرآن بين الوعد والوعيد يدلّ على الاهتمام بوقوف العباد بين الرجاء والخوف ، فلا يقنطون من رحمة الله وأفضاله، ولا يغترُّون بحلمه وإمهاله . وتكرير الأحكام يدلّ على الاعتناء بفعل الطاعات واجتناب المخالفات. وتكرير الأمثال يدلّ على الاعتناء بالإيضاح والبيان. وتكرير تذكير النعم يدلّ على الاعتناء

بشكرها.

واعلم أنه لا تؤكد العرب إلا ما تهتم به؛ فإن من اهتم بشيء أكثر ذكره. وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد، وكلما خفّ، خفّ التأكيد. وإن توسط الاهتمام، توسط التأكيد. فإذا قال القائل: زيد قائم، فقد أخبر بقيامه. فإن أراد تأكيد ذلك عند من يشك فيه، أو يكذبه، أو ينازعه فيه، أكّده فقال: إن زيداً قائم. فإذا جاء بـ (إن) فكأنه قال: زيد قائم، زيد قائم. فإن زاد فى التأكيد قال: إن زيداً لقائم، فيصير بمثابة ما لو قال: زيد قائم، ثلاث مرات.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى سر تكرير قصة موسى مع فرعون:

وثنى فى القرآن قصة موسى مع فرعون لأنهما فى طرفى نقيض، فى الحق والباطل. فإن فرعون فى غاية الكفر والباطل، حيث كفر بالربوبية وبالرسالة، وموسى فى غاية الحق والإيمان من جهة أن الله كلمه تكليمًا. لم يجعل الله بينه وبين خلقه واسطة من خلقه، فهو مثبت لكمال الرسالة، وكمال التكليم، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت؛ وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار، فإن الكفار أكثرهم لا يجحدون وجود الله؛ ولم يكن أيضًا للرسل - من التكليم - ما لموسى. فصارت قصة موسى وفرعون أعظم القصص، وأعظمها اعتبارًا لأهل الإيمان ولأهل الكفر. ولهذا كان النبى ﷺ يقص على أمته عامةَ لَيْلِه عن بنى إسرائيل، وكان يتأسّى بموسى فى أمور كثيرة، ولما بُشِّرَ بقتل أبى جهل يوم بدر قال: «هذا فرعون هذه الأمة». وكان فرعون وقومه من الصابئة المشركين الكفار؛ ولهذا كان يعبد آلهة من دون الله، كما أخبر عنه بقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]

ولقد كان عالماً بما جاء به موسى، مستيقنًا له، لكنه كان جاحدًا مثبورًا، كما أخبر الله بذلك فى قوله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾. [النمل: ١٣ – ١٤]

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾.

ولقد كان من حسن طالع هذا الجيل والأجيال القادمة أن تتعلم وتتتلمذ على يَدَىْ الشيخ الجليل سماحة الإمام داعية الإسلام "**محمد متولى الشعراوى**" الذى يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه.. وتتلألأ مجالس علمه بنور الله، وشفافية الحق، ونصاعة الحجة، وطلاقة البيان، وطهارة المنطق، وعفة العبارة، وجلال المعانى، وسمو المفاهيم.. فهو يستلهم كتاب الله... فتتفتح له أبواب الإلهام رحبة مضيئة تتهادى منها المعانى موشاة بالرواء والبهاء.. ومن فضل الله ورحمته بهذه الأمة أن جعل وسائل الإعلام ميسرة فى كل بيت .. حتى يعيش المسلمون عقولاً وقلوبًا مع إلهامات شيخهم، ولمحات إمامهم، وخواطر معلمهم... فأصبح مجلس علمه ممتدًا على الساحة الإسلامية كلها ... متدفقًا كما يتدفق النمير الصافى من نبع فوار لا يأسن ماؤه ولا تنضب روافده، فيسقى الهيم الظماء، ويخرج النبات المثمر الزاكى من الأرض الطيبة... فى عقول وقلوب الملايين، بما آتاه الله من فضل، وما وهبه من حكمة، وما منحه من علم.

والداعية الإمام العارف بالله الشيخ "**محمد متولى الشعراوى**" شاء الله له أن يكون متعدد المواهب، متنوع الطاقات.. إذا تكلم فى اللغة حسبته متخصصًا فيها وحدها لعلمه الواسع الغزير بحقائقها.. وإذا تحدث فى الفقه

بهرك بما تضمه واعيته الحافظة من شتى المسائل والأحكام . . وكأنه عاكف فى محراب الشريعة لا يبرحه، وإذا تناول كتاب الله بالشرح والتفسير خشع قلبك وتعلقت أنفاسك. . حتى لا تفوتك خاطرة من خواطره الفياضة. فكأنه ترجمان القرآن فى عصرنا .

وهكذا فى كل علم من علوم الدين تحس أن إمامنا الداعية القدوة ، تبوأ مكانة تتدنى حيالها مكانة الكثير من العلماء. ورغم ذلك فهو متواضع كأشد ما يكون التواضع ، يحاور الناس وكأنه لا يزيد عليهم علمًا ، ولا معرفة، ولا يفوقهم فهمًا ، وقد اجتمع له من الخصال ما جعله نسيجًا وحده حتى عجز الحاقدون عليه من أعداء الدين أن يلصقوا به شائبة ، أو يوجهوا له اتهامًا.

فهو قد وضع الدنيا بكل ما فيها من زينة ومتاع تحت قدميه. . أقبلت عليه فأعرض عنها. . ولم يأخذ منها إلا ما يقيم صلة بينه وبين السماء.

ورحمة من الله بهذه الأمة أن هيأ لها هذا الإمام العظيم فى عصر تضافر فيه الملحدون والضالون وأرباب البدع، وسماسرة السياسة على محاربة الإسلام ، تارة بسلاح الفكر، وطورًا بسلاح الجبروت والبطش ، فكان ولايزال فضيلته درع هذه الأمة وحصنها الحصين ، بل لا نتجاوز القول إن قلنا : إنه أعزه الله أمة وحده ، يجاهد الكفار والمنافقين والكارهين ، ويدمغ دعاواهم الزائفة الباطلة بحقائق الإسلام الناصعة ، حتى جعلهم فلولًا لا تقوى على شىء .

إننا إذا كنا فخورين بأسلافنا العظام من الأئمة الذين ملأوا الدنيا علمًا وحكمة أمثال: المحاسبى والغزالى وابن تيمية وابن القيم ، فإننا نفخر بمُلْهَم عصرنا داعية الإسلام الشيخ الإمام "**محمد متولى الشعراوى**" . . فقد أضاف إلى تراثهم ما يزهى به التراث. . وأزال عن وجه العصر كل ما انساح عليه من ريب وشبهات. . وكانت كل كلمة منه بمثابة مشعل ذاتي النور يضيء

طريق السالكين ، ويهدى الحائرين. . فطوبى لعصر بورك بالإمام الشعراوى. . وطوبى للسائرين على هداه تحت راية الحق والتقوى والشفافية والطهر والنقاء.

وإنه لشرف لا يدانيه شرف أن أكون خادمًا أمينًا فى نشر القليل من علم فضيلته الغزير الذى أسأل الله أن ينفع به الناس أجمعين. ودعوانا إلى الله جميعًا أن يبارك لنا فى عمره وصحته حتى يأخذ بأيدى الناس إلى رب الناس.



بعد أن قدم لنا الأخ الأستاذ منشاوى غانم جابر المادة العلمية التى قام بجمعها قمنا بعمل الآتى :

١ ـ ضبط الآيات ومراجعتها على المصحف الكريم قدر الاستطاعة .
٢ ـ مراجعة الأحاديث الواردة بالكتاب وضبطها على كتب الحديث .
٣ ـ الحكم على الأحاديث الواردة بالكتاب وتخريجها وعزوها لمصادرها.
٤ ـ مراجعة الآثار والأقوال وعزوها إلى مصادرها من الكتب .
٥ ـ شرح الغريب ، والمبهم إن وجد والتعليق عليه .
٦ ـ ترتيب القصص فى الكتاب وفقًا لكتب قصص الأنبياء كابن كثير وغيره.
٧ ـ اختيار العناوين المناسبة لكل موضوع داخل القصة .
٨ ـ فى بعض المواطن يتحدث فضيلة الشيخ بلغة الحديث ومعناه دون التصريح به ، نقوم بوضع أصل الحديث فى الهامش وعزوه لمصدره والحكم عليه.
٩ ـ بعض الكلمات قد تحتاج إلى تغيير من لغة المتكلم إلى لغة الكتابة وقد قمنا بذلك بعد استئذان الشيخ بحيث لم يؤثر على الموضوع ولا على

الأسلوب السهل الممتنع الذى يتميز به شيخنا وينفرد به دون غيره.

١٠ ـ العناية الفائقة قدر الجهد والاستطاعة بالمراجعة والتصحيح .

١١ ـ عمل فهرس أبجدى بالآيات والأحاديث والأعلام والأشعار .

١٢ ـ أبى الله أن تكون العصمة إلا لكتابه الخالد ، وقد حاولنا واجتهدنا ألا يكون فى هذا الكتاب خطأ فإذا وفقنا فمن الله ، وإن كانت الأخرى فنأمل من إخواننا من القراء الأعزاء ومحبى شيخنا أن يكتبوا إلينا لتصحيح ما وقعنا فيه فى هذه الطبعة عسى الله أن ينفع به فى طبعات لاحقة إن شاء الله تعالى وقدر .

هذا ما أردت أن أتقدم به بين يدى هذه الفيوضات والفتوحات والإلهامات التى أفاض الله بها على شيخنا ولكن بقى عزيزى القارئ أن أقدمه لك «وأستغفر الله» فالرجل غنى عن التعريف وعلمه سبق شهرته ، ولكن جرت العادة أن نتقدم بترجمة موجزة عن حياة إمامنا فنقول:

هو الإمام داعية الإسلام بقية السلف الصالح ، ترجمان القرآن فى عصرنا ، الملهم الموهوب :

الشيخ محمد متولى الشعراوى

ليلة مولده

ولد بارك الله فيه فى فجر ليلة الخامس عشر من إبريل لعام ١٩١١م بحارة الشيخ عبد الله الأنصارى بقرية دقادوس إحدى قرى محافظة الدقهلية .

وكان والده رحمه الله محبًا للعلم ومصاحبًا للعلماء .



كان من عادة والده رحمه الله أن يذهب لصلاة الفجر فى جامع سيدى عبد الله الأنصارى ، وفى الليلة المباركة ليلة الخامس عشر من إبريل لعام ١٩١١ م تأخر عن صلاة الفجر قليلاً ولما حضر سأله خال الشيخ ـ أخ لوالدته ـ

عن سبب تأخيره فبشره بالخبر السعيد ، فتهلل وجه الخال بالبشر وقال :

لقد بشرت به الليلة ، رأيت فى رؤياى على هيئة كتكوت يعتلى منبر هذا المسجد خطيبًا فى الناس .

وقد صدقت رؤيا الخال واعتلى شيخنا المنبر وهو فى سن صغيرة يعظ الناس ويعلمهم أمور دينهم .

مكان الولادة

ولد بارك الله فى عمره بقرية دقادوس ، ودقادوس هو تحريف لاسم [دقلد يانوس] وكان حاكماً من حكام الرومان وكان له قصر كبير فى النيل فى دقادوس .

ولدقادوس تاريخ ناصع فى الجهاد فهى البلدة التى تحدت صدقى باشا عام **١٩٣٠** م عندما أراد تغيير الدستور ولم تستجب له ، الأمر الذى جعل إسماعيل باشا صدقى يضعها تحت الحصار وفرض عليها حظر التجول مدة أربع سنوات بسبب قتلها حكمدار الزقازيق « الصاغ عبد المجيد شريف » الذى صدرت له الأوامر للتوجه إلى دقادوس على رأس قوة لإرغام الأهالى للخروج للانتخابات واقتحمت القوة أول ما اقتحمت منزل عبد الرحمن الشهابى وقتلوه ، فثار الأهالى وهاجموا الحكمدار ومن معه وقتلوه .

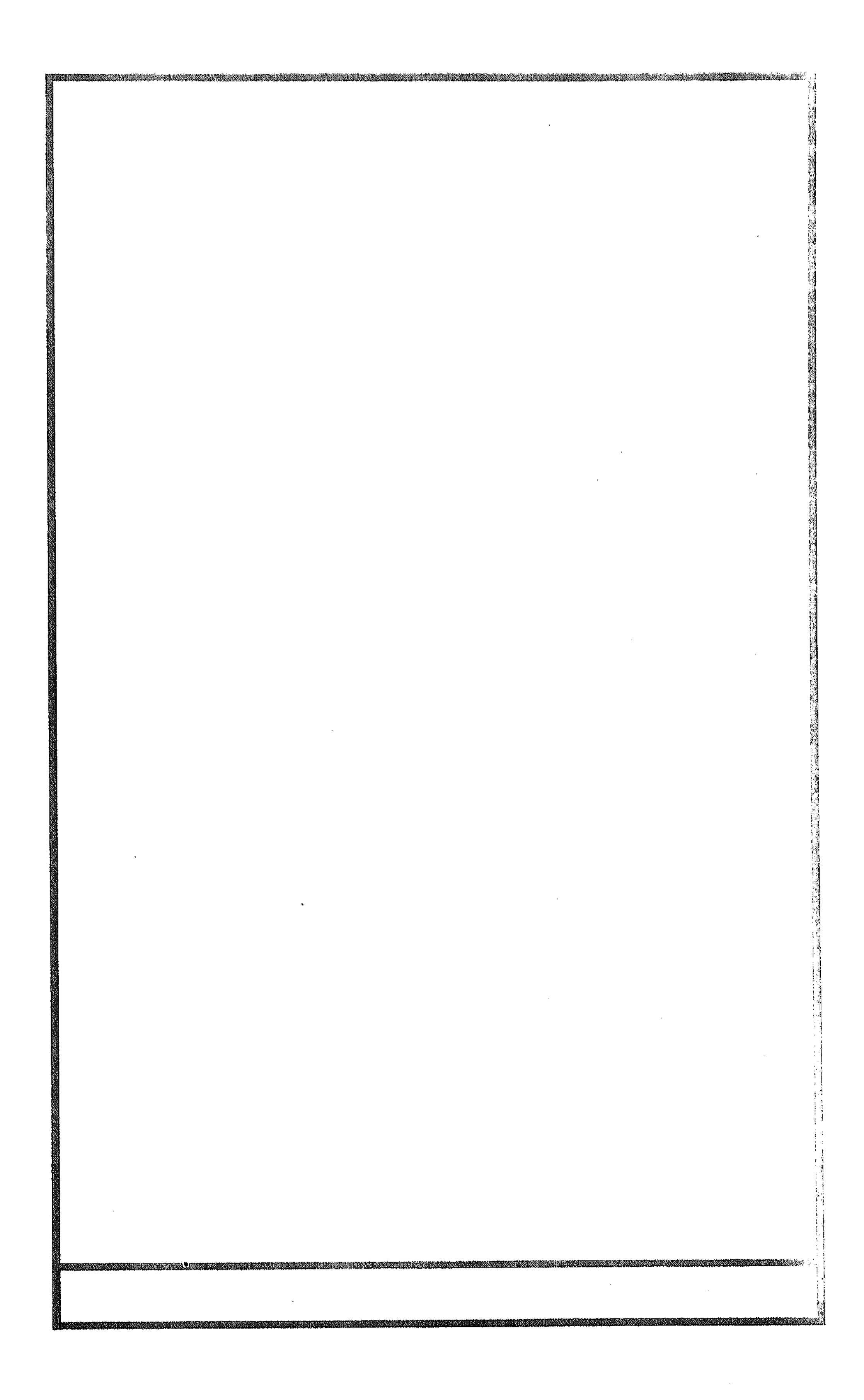
- حفظ بارك الله فيه القرآن الكريم فى قريته وتلقى التعليم فى معهد الزقازيق الدينى الابتدائى، والثانوى، ثم التحق بكلية اللغة العربية.
- حصل على الشهادة العالمية سنة ١٩٤١ م .
- حصل على شهادة العالمية «الدكتوراه» مع إجازة التدريس سنة ١٩٤٣ م .
- عين مدرسًا بمعهد طنطا الأزهرى وعمل به، ثم نقل إلى معهد الإسكندرية ثم معهد الزقازيق .

- أعير فضيلته للعمل بالسعودية سنة ١٩٥٠ م. وعمل مدرسًا بكلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة.
- عين وكيلًا لمعهد طنطا سنة ١٩٦٠ م .
- عين مديرًا للدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف سنة ١٩٦١م.
- عين مفتشًا للعلوم العربية بالأزهر سنة ١٩٦٢ م .
- عين مديراً لمكتب الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون سنة ١٩٦٤ م .
- عين رئيساً لبعثة الأزهر فى الجزائر سنة ١٩٦٦ م .
- عين أستاذاً زائراً بجامعة الملك عبدالعزيز - كلية الشريعة بمكة المكرمة سنة ١٩٧٠ م. ثم رئيساً لقسم الدراسات العليا بجامعة الملك عبدالعزيز سنة ١٩٧٢ م.
- عين وزيراً للأوقاف وشئون الأزهر بمصر سنة ١٩٧٦ م.
- عين عضواً بمجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٨٠ م .
- اختير عضواً بمجلس الشورى سنة ١٩٨٠ م .
- والآن نذر وقته لتفسير القرآن العظيم ؛ والدعوة إلى الله تعالى فى كافة مشارق الأرض ومغاربها . والله نسأل أن يتم عليه الصحة والعافية وأن يبارك لنا فيه وينفعنا والمسلمين بعلمه . إنه سبحانه سميع مجيب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

شعبان ١٤١٦ هـ
يناير ١٩٩٦ م

عبد الله حجاج



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله الذى يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أورثنا ملة سمحاء ننهل منها كيف نشاء ، وعلى آله وصحبه حملة المشاعل من بعده ، الذين بددوا الظلمات وخلفوا من ثروة العلم والفقه أسمى وأجل التركات ، جزاهم الله عنا وعن الإسلام خير ما يجزى به المجاهدين الصادقين . . وبعد .

فيعتبر **الإمام محمد متولى الشعراوى** ظاهرة من ظواهر الروح فى هذا العصر المادى من حيث سلوكه الشخصى وطريقة تناوله لموضوعات أحاديثه . فلقد أعطاه الله موهبة البيان للناس والإيضاح السلس البسيط الخالى من التعقيد ، فمنهجه فى التفسير القرآنى يعتمد على كتاب الله عز وجل وعلى السنة النبوية الشريفة ، ثم على أقوال وأفعال صحابة رسول الله ﷺ . والإمام يستقبل كل ذلك بقلب واع وعقل نافذ ، يهتدى به ضالة الحيارى فى استيضاح الحقيقة بين الآراء المختلفة .

وهذه نفحة إيمانية **للإمام محمد متولى الشعراوى** تتعلق بأمر يهم المسلمين جميعًا ألا وهو «قصص الأنبياء» معتمدًا فى ذلك على أسلوبه السهل البسيط فى تقريب حقائق الإسلام ومفاهيمه إلى الناس، وضرب الأمثلة القريبة من واقع الحياة، إنه يمهد للفكرة التى يريد إيصالها إليك، باستفهام يؤدى إلى يقظتك واستعدادك لتلقى هذه الفكرة بعقل متفتح، ولذا يجلس جميع المستمعين أمامه فى حالة يقظة وصحوة فكرية متجددة، متلهفين إلى سماع ما فتح الله به على فضيلته من إلهامات.

وإذا كان الشيخ **محمد متولى الشعراوى** قد ملأ قلوب الناس بمنهجه فى التفسير القرآنى ، فلقد برز أيضًا على الساحة الإسلامية كمفكر ومجدد

استطاع أن يجمع حوله قلوب المسلمين ، ويحقق وحدة فكرية بين الشعوب الإسلامية عجزت عن تحقيقها الحكومات .

وقد اتصلت بالإمام **محمد متولى الشعراوى** منذ بضع سنين حتى توثقت العلاقة بيننا، ففتح لى صدره وقلبه ومنزله، وقد أولانى ثقة طالما اعتزت بها أحاسيسى ومشاعرى، ولقد تبلورت هذه الثقة فى موافقة فضيلته على طبع ونشر أكثر من عشرة كتب جمعتها وأعددتها من خواطره الإيمانية .

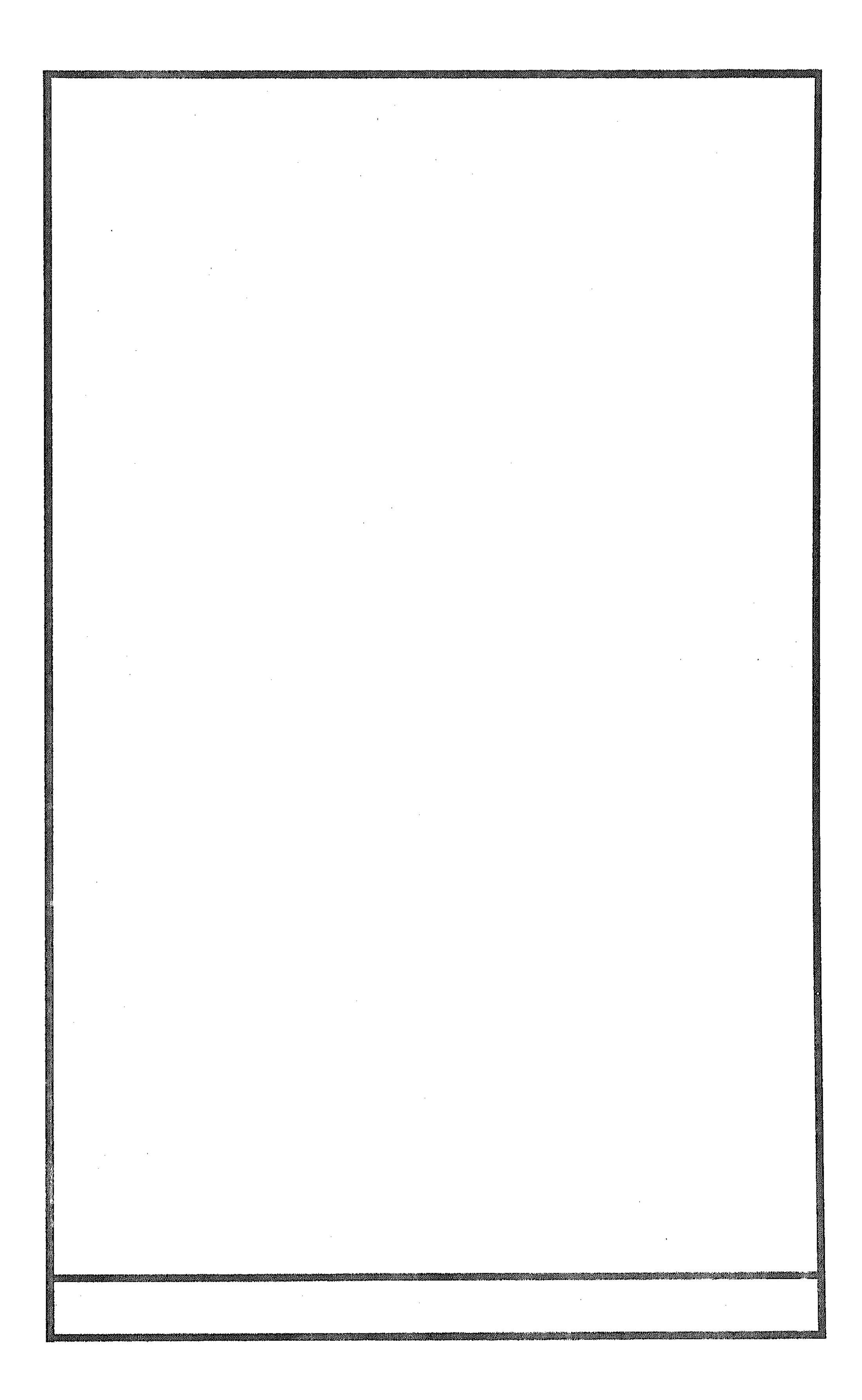
ولقد قيض الله «**مكتبة التراث الإسلامى**» لإبراز آثار سماحة الإمام الشيخ **محمد متولى الشعراوى** وإخراجها بالشكل الذى أثلج صدور محبى الشيخ وأتباعه فجزى الله القائمين عليها خير الجزاء ، وذلك من خلال سلسلة كتب ستصدر ـ إن شاء الله تباعاً ـ وبارك الله لنا فى عمر شيخنا الجليل وجزاه خيراً على ما قدم ويقدم من علم نافع للإسلام والمسلمين .

والله نسأل أن يوفقنا إلى الصواب ويهدينا سبل الرشاد.

منشاوى غانم جابر

بين يدى القصص

- قصص القرآن .. ما المقصود به ؟
- قصص القرآن .. لماذا ؟
- قصص الحق وقصص الخلق.
- القصة والسيرة .
- القصص وتثبيت الفؤاد .
- القصة والرواية .
- إن هذا لهو القصص الحق .
- قصص الأنبياء للأسوة .
- دقة المنهج القرآنى .



* قصص القرآن .. ما المقصود به ؟ *

القصص فى القرآن الكريم لا يتناول أشخاصًا بذواتهم ، أى أن القصة فى القرآن الكريم إنما هى عبرة عامة وموعظة تتكرر فى كل عصر .. ما عدا قصة مريم عليها السلام وزيد بن حارثة رضى الله عنه ، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى لم يذكر أبطال هذه القصص بأسمائهم الكاملة لنعرف أشخاصهم ، بل اكتفى باسم واحد عام، ففرعون مثلًا هو كل شخص يريد أن يجعل نفسه إلهًا يعبد فى الأرض، وذو القرنين مثلًا هو من يريد إصلاحًا فى الأرض ، وصاحب الجنة فى سورة الكهف هو كل من ينسى الله وينسب الفضل لنفسه . ولذلك فإننا نعيب على بعض الناس بحثَهم عمن هو فرعون موسى ، أو من هو ذو القرنين ، ونحن نقول: إن الهدف ليس الشخص ولكنها العبرة والعظة .

ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى فى سورة مريم عليها السلام قال : مريم ابنة عمران ولم يقل مريم فقط .. لماذا ؟ لأنه فى هذه الحالة المقصود هو مريم ابنة عمران بالذات ، وأن هذه القصة لم تحدث ولن تحدث لغيرها .

كذلك المقصود بقصة عيسى عليه السلام هو عيسى ابن مريم بالذات وليس إنسانًا آخر .. فمن اختصه القرآن بقصة تتعلق بذاته هو عيسى ابن مريم ، ومريم ابنة عمران.

أما باقى قصص القرآن فالذى يجب أن نستخلصه منها هو العبرة والعظة ، دون أن نتعب أنفسنا فى البحث عن علم لا ينفع أو جهل لا يضر ، فما الذى يتغير فى قصة موسى عليه السلام إذا عرفنا أن فرعون موسى هو رمسيس الأول أو رمسيس الثانى أو رمسيس الثالث .. ليس هذا هو المهم . ولكن المهم أن نعرف العظة مما يتعرض له أى إنسان ينصب نفسه إلهًا من دون الله فى الأرض ، وما يتعرض له الذين يتبعونه بغير علم ، ولذلك فإننا يجب أن نستخلص العبرة من قصص القرآن الكريم ، ولا نضيع الوقت فى معرفة أصحاب هذه القصص من التاريخ.

❊ قصص القرآن .... لماذا؟ ❊

إن الحق سبحانه وتعالى تحدث عن خلق الكون فى أول سورة بعد فاتحة الكتاب كما جاء فى الترتيب المصحفى وبدأت كلمات الحق عن خلقه لمن يعمر ذلك الكون فكأن القصة التى بدأ بها الله القصص القرآنى هى قصة آدم عليه السلام . . أول الخلق . ويجب أن نعلم أن كلمة «قصة»[1] قد وردت فى القرآن الكريم كثيراً

(١) (قصَّ) أثره : تتبعه ، من باب ردَّ ، و(قصصًا) أيضًا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف: ٦٤] . وكذا (اقتصَّ) أثره و (تقصَّص) أثره . و(القِصَّة) الأمر والحدث ، وقد (اقتص) الحديث رواه على وجهه .و(قَصَّ) عليه الخبر (قصصا) والاسم أيضا (القَصَص) بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه . و(القِصص) بالكسر جمع (القصة) التى تكتب . [مختار الصحاح] .

قص الكلام أو الأخبار من باب نصر : يقصها قَصًا وقصصاً : تتبعها ورواها وحكاها ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ ﴾ [القصص : ٢٥] . أى قص عليه أخباره وحدثه بها، وقال تعالى: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤]: أى ورسلًا ذكرنا لك أخبارهم ورسلًا لم نذكر لك أخبارهم.

وقص الأثر قصصًا: تتبعه ، ومنه قوله : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف : ٦٤] .

والقصص : مصدر يطلق على ما يروى من الأخبار ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١] . وقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ . [يوسف: ٣] [القاموس القويم للقرآن الكريم]

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .[آل عمران: ٦٢]

﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ . [النساء : ١٦٤]

﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ . [الأنعام :٥٧] =

لتدلنا على صدق الله فى إخبارنا بما فى تلك القصص من أحداث ومعان ،

= ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾. [الأنعام: ١٣٠]

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾. [الأعراف: ٧]

﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. [الأعراف: ٣٥]

﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾. [الأعراف: ١٠١]

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. [الأعراف: ١٧٦]

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾. [هود: ١٠٠]

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾. [هود: ١٢٠]

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾. [يوسف: ٣]

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾. [يوسف: ٥]

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾. [يوسف: ١١١]

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾. [النحل: ١١٨]

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾. [الكهف: ١٣]

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾. [الكهف: ٦٤]=

وحين يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾. [هود: ١٢٠]

إن الخالق جل وعلا يخبر الرسول الكريم أن قصص الإخبار بالرسل السابقين عليه إنما لتقوى عزم الرسول للقيام بمشاق ومهام الرسالة ، وقد جاء فى هذه الأنباء القول الحق الذى يحمل المنهج الواضح من توحيد الله وعبادته والابتعاد عما يغضب الحق جل وعلا ، وفى تلك القصص العظة التى ينتفع بها المؤمنون ، فيزدادون ارتباطاً بالإيمان وتفتح تلك القصص آفاق التوبة لجميع العصاة والعودة إلى التمسك بدين الله ، لأن ذلك كان لغفلة أصابتهم ولذلك لم يصروا على معاصيهم ، إنما تهديهم كلمات الله إلى الإيمان الحق.

ويوضح الخالق الأكرم الهدف الإيمانى من القصص القرآنى عن أنباء القرى التى جاء إليها الرسل بآيات الله ولكنهم أعرضوا عن الإيمان فذاقوا مرارة

= ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾. [طه :٩٩]

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾. [النمل: ٧٦]

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ . [القصص: ١١]

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾. [القصص:٢٥]

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾. [غافر: ٧٨]

فائدة : إن كلمة نبأ فى القرآن الكريم تعنى الخبر العظيم وغالباً ما يكون النبأ قصة مثال ذلك قوله تعالى :

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾. [النمل: ٢٢]

وقصة سليمان مع بلقيس . . . وهكذا

لكفر والشرك، وفى ذلك يقول الحق جل وعلا: ﴿ **تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ** ﴾. [الأعراف: ١٠١]

إن القصص القرآنى يفصله الله بإيضاح أن بعض من أرسل لهم الله رسلًا لم يؤمنوا بما جاءهم به الرسل من منهج، هؤلاء الذين جعل الله قلوبهم عاجزة عن الإيمان.

* قصص الحق وقصص الخلق *

الله تبارك وتعالى يوضح لنا الفرق بين القصص القرآنى وبين غيره من القصص فيقول : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ . [الكهف : ١٣]

إن الله سبحانه وتعالى فى معرض حديثه عن أهل الكهف يورد قوله الفصل بأن القرآن يحمل النبأ الحق بأنهم فتية آمنوا بالله وزادهم الحق هداية . وفى قوله تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ . أراد الله سبحانه وتعالى أن يخرج بالقصص القرآنى عن دائرة القصص التى يرويها أى كتاب آخر أو يصنعها أى مؤلف كما يحدث فى هذا العصر حيث يوجد فن قائم اسمه فن القصة، ومعظم هذه القصص إما خيالية ، أو عمل العقل البشرى على استخراجها من الواقع وأضاف إليها من الخيال .

وهذا النوع من القصص يختلف بالتأكيد عن قصص القرآن الكريم ، وكنت أحب لمن يسمون الحكايات التى يقتنصونها من الواقع ويمزجون الخيال بها . . كنت أحب أن يسموا إنتاجهم الأدبى باسم آخر غير القصة ، ولكن لأن هذا الفن وارد من الغرب ، فقد أخطأ من ترجم تلك الحكايات باسم القصص ، ذلك أن كلمة «قصة» فى اللغة العربية مأخوذة من «قص الأثر» . وقص الأثر معناه أن يسير المتتبع للأثر على الأثر نفسه ، بحيث لا يتجاوزه بدًا ليصل إلى مراده فى نهاية الأمر ، وقصاصو الأثر هم قوم كان يأتى بهم العرب ليكتشفوا آثار بشر مفقودين أو إبل ضائعة ، أو شىء مفقود ، وكانوا يرون آثار الأقدام ليعرفوا أين ذهب صاحب هذه القدم، ويميزوا قدم إنسان من قدم إنسان آخر ، وما زال هناك بعض من قصاصى الأثر موجودين فى عصرنا الحديث .

إذن فمعنى قص الأثر أى تتبع الأثر بدون تصرف ، ولذلك كان من الأجدر ألا تطلق كلمة «قصة» على أمر خيالى أو متوهم أو لا واقع له . إنما القصة يمكن أن تطلق على أمر قد وقع بالفعل لا نزيد فيه شيئًا كما علمنا الحق تبارك وتعالى ، حتى لا يصبح هدف أى قصة هو مجرد قتل للوقت أو للملهاة ، إنما لنثبت به فؤاد قارئها ، ونلفته إلى معنى من المعانى يجب أن يعيشه ولا يحيد عنه ، ذلك أن القصص الحق لا يكون لقتل الوقت أو للاتجار أو للزخرف من القول الذى يزين للإنسان الهرب من الواقع أو للغرق فى إباحية مخططة قد ينقلها الأطفال إلى حياتهم فيتم تدمير أفئدة الأطفال بها .

إن قول الحق كما ذكرنا: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . [هود: ١٢٠]

هذا القول إنما هو لإيضاح مهمة القصص فى الحياة : أن يثبت بها الفؤاد على منطق ينفع حركة الحياة ، لا على منطق يضر حركة الحياة . وحتى يكون تثبيت الفؤاد ابتعادًا عن الهزات التى تكتنف ينبوع السلوك الإنسانى ، وحتى يسير الإنسان فى الحياة سيرًا ثابتًا مستقيمًا لا التواء فيه ولا ذبذبة . هكذا كان القصص القرآنى . . قصص الحق الذى لا يمكن أن نقارنه بقصص الخلق . إن القصص بالمعنى الذى أوضحناه يعنى أن نعرف شيئًا ومعنًى ، لذلك فالقصة لون من ألوان التاريخ ، والتاريخ هو ربط الأحداث بأزمانها.

وهكذا تكون الأشخاص فى القصة جزءًا من أحداث حياة زمانها ، وما دام التاريخ هو ربط الأحداث بأزمانها سواء كان فعلًاأو فاعلًا على فعل فإن لنا أن نعرف أن الحدث التاريخى يدور حول الأشخاص . . مثلما حدث لتاريخ الإسلام مثلًا .

* القصة .. والسيرة *

الإسلام حدث هز الكون كله ، وعندما يؤرخ له أحد فإنه يبدأ بتاريخ نزول القرآن على رسول الله . ثم دعوته للمسلمين الأوائل كأشخاص داروا حول الحدث .. فنعرف تأثير الحدث فيهم .

قد نؤرخ لعمر رضى الله عنه - على سبيل المثال - فيقال: إننا أرّخنا لشخصية عمر وأوضحنا الأحداث التى دارت حول الشخص ، ونفهم من ذلك أن التاريخ حدث مرتبط بزمن .

والأشخاص التى تتحرك فى التاريخ هى أحداث أيضًا لها ميلاد وموت وتدور حولها أيضًا أحداث أخرى مرتبطة بزمن حياتهم . ذلك أنه لا يوجد شخص قديم أو أزلى فى الكون. . الأزلى فقط هو الله الباقى الموجود قبل الكون وإلى الأبد . وهكذا نفهم أن كل شيء حدث فى الكون وكل شخص فى الكون يمكن أن يكون له تاريخ، لكن الناس تنظر إلى الأحداث المهمة فى التاريخ على أساس أنها تتضمن الخلاصة التى على الإنسان أن يستوعبها. ومن هنا تولد القصة. . إن القصة تتطلب حدثًا مثيرًا وفيها عقدة وفيها الحل للعقدة .إذن فالقصة لون خاص من التاريخ .

وهكذا أراد الحق لنا أن نفهم قصص القرآن الكريم . إن معظمها عن رسل أرسلهم الله فى التاريخ الإنسانى بحدث واحد مثير وضخم هو ضرورة الالتفات إلى وحدانية الله وإلى منهج الله ، هذا الحدث يزلزل النظم ويغير من حركة الحياة، هذا الحدث الذى ينظم أمور كل أبناء الوجود ، هكذا كان أمر رواية الحق للقصص القرآنى فى سياق الحدث الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا الحدث هو الإسلام ونزول القرآن وبعثة محمد ﷺ .

ولهذا فنحن نفرق بين القصة وبين السيرة . لقد وضع الحق تبارك وتعالى كل القصص القرآنى فى رسالة رسول الله محمد ﷺ ، وذلك حتى نأخذ من سيرة رسالة رسول الله الأسوة ، تنتظم من خلالها قصص الأنبياء وغيرها من القصص؛ وهكذا نتعلم أن القصة سيرة لتاريخ ما قبلها، تروى ما حدث من قبل، وبعدها يأتى تاريخ جديد بقصة جديدة ، ولا تتفرد مسألة بعث رسول بلقب «سيرة» إلا بعثة محمد ﷺ، لأنها سيرة من جاء بالهدى للكون، فيها ما يسود أحداث الكون .

ويتضمن التاريخ أيضًا بعض الأحداث الموجزة كالتى نسميها طرفة أو نادرة وتروى ليتفكه بها الناس ويتعلمون منها أو يروحون بها عن القلوب . مثلما يروى عن أشعب والخليفة المأمون .

دخل أشعب على الخليفة المأمون ، فسأل الخليفة أشعب : أيهما أشهى اللوزنج أو الفالوذج «أى هل البالوظة ألذ أم المهلبية» ؟ . فقال أشعب: يا أمير المؤمنين لا أقضى على غائب ، وكأن أشعب بهذا القول يطلب طبقًا من كل صنف . فأمر الخليفة المأمون بإحضار طبق من الفالوذج وطبق من اللوزنج ، وأخذ أشعب ملعقة يتناول بها جزءًا من هذا الطبق ويصمت قليلًا، ثم يتناول جزءًا من الطبق الآخر ويصمت ، قال الخليفة لأشعب : ماذا أنت قاض يا أشعب ؟ أى بماذا تحكم يا أشعب ؟، فقال أشعب : يا أمير المؤمنين كلما أردت أن أقضى لأحدهما أدلى الآخر بحجته ، أى أنه لا يعرف أيا من الطبقين ألذ لأن كليهما لذيذ فعلًا . . هذه طرفة نسمعها أو نقولها لنضحك.

ولكن هناك بعض الحكايات التى تمتلىء دروسًا بليغة مثل هذه الحكاية !!!

زياد بن أبيه، حاكم به قوة وله بطش فتاك ، جاء إليه رجل يحمل وشاية بهمام بن عبد الله السالومى ، قال زياد للواشى : أأجمع بينك وبين ابن عبد الله ؟ وخاف الواشى أن يقول: لا فيناله بطش زياد، وأرسل زياد إلى همام؟ . . وجاء همام . وأدخل زياد الواشى وراء ستارة، قال زياد لهمام :

بلغنى أنك هجوتنى ، قال همام: كلا أصلحك الله ما فعلت ، ولا أنت لذلك بأهل ، فجذب زياد الستارة وقال : إن هذا الرجل قد أخبرنى . هنا نظر همام إلى الرجل فوجده صديقًا ممن يجلس معهم فذهب إليه وتفرس فى وجهه وقال له : أنت امرؤ إما ائتمنتك خاليًا فخنت ، وإما قلت قولًا بلا علمى . . فأنت من الأمر الذى كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم . هكذا قال همام متهمًا صديقه بأنه إما قد نقل كلمة قالها أمامه ليريح نفسه ، وإما قد دس له قولًا مكذوبًا ، وهنا أنعم زياد على ابن همام وأقصى عنه الواشى.

هذه نادرة ولكنها تحكى قضية يعانى منها الوجود وتعالج قضية مهمة من قضايا المجتمع ،إنها قضية الوشاية ، وترسم للحكام الطريق الذى يجب أن يتبعوه مع من يقدمون لهم الوشايات ، إن عليهم أن يتحققوا من الصدق وذلك حتى لا يشى إنسان بآخر ، وبذلك ينصلح حال الحاكم ، فيسمع الرأى الواضح من صاحبه بلا رجفة ولا خوف ، ولا يرتفع واش على كومة من الأكاذيب الملفقة .

وهناك نوع ثالث من الحكايات ، إنها النوع الذى يطلق عليه أقصوصة ، ويتسع مداها لتوضح ما وقع فيه أصحابها من ضيق أو ألم أو سرور . مثال لها أقصوصة كليب. . . وكان كليب سيدًا فى قومه ومثالًا للشجاعة ويقال عنه إنه يحمى مواقع السحاب . فقديمًا لم يكن أحد يملك الأرض ، إنما كان المطر ينزل فتنبت الأرض العشب ويرحل إليه الرعاة. وكان لكليب عزة وعظمة ، وكان الجميع يرونه وهو يشير إلى السحاب قائلًا : هذا السحاب عندما ينزل فإن الأرض التى يرويها لى ولقومى ، واختلف كليب مع شقيق زوجته واسمها جليلة واسم أخيها جساس ، وقتل كليب ناقة امرأة تحتمى بجساس ، فقتل جساس كليبًا ، وصار الأمر مأساة لجليلة ، فأخوها قد قتل زوجها ، ويروى أبو الفرج الأصفهانى عذاب جليلة ، لأن الأمر فيه عذاب من ناحيتين : وهو أمر فيه ترقب شديد من العرب لصراع بين سادة قبيلتين .

ويصور أبو الفرج الأصفهانى ذلك الأمر وعذابه بالنسبة لجليلة ، وكيف

أنها حضرت مأتم زوجها ، فطردتها شقيقة زوجها القتيل بناء على طلب نساء القبيلة. يقول أبو الفرج: «لما قتل جساس كليبًا اجتمعت نساء الحى فقلن لأخت كليب : رحّلى جليلة بنت مرة أخت جساس عن مأتمنا فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب ، فقالت لها : اخرجى من مأتمنا فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا، فخرجت جليلة وهى تجر أعطافها ، ولقيها أبوها مرة فقال : ما وراءك يا جليلة ؟ قالت : ثكل العدد ، وحزن الأبد ، وفقد خليل، وقتل أخ عما قليل ، وبين ذين غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد قال والدها لها : أو يكفى عن ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات ؟ فقالت : أمنية مخدوع ورب الكعبة ، إنك لتعلم أن تغلب لا تدع دم سيدها لك .

هكذا نعلم أن فى تلك الأقصوصة ألـمًا عميقًا وحيرة تورث حربًا ، وألـمًا خاصًا عند جليلة لا تعرف منه فكاكًا أو مهربًا حتى أنها سمعت قول أخت زوجها كليب القتيل عند خروجها من المأتم : رحلة المعتدى وفراق الشامت ويل غدًا لآل مرة من الكرة بعد الكرة . فقالت جليلة : كيف شتمت الحرة بهتك سرها ، وترقب وترها هلا قالت : نفرة بحياء وخوف الاعتداء ، إن جليلة تتساءل مستغربة أن تفرح امرأة حرة بقتل زوجها وترقب قتل أخيها.

وتساءلت جليلة لماذا لم تفسر أخت زوجها أن خروجها من المأتم بسبب الخجل. وبسبب الخوف أن يعتدى عليها أحد . ومضت جليلة تنشد قولها المشهور شعرًا :

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا فإذا	تعجلى باللوم حتى تسألى
أنت تبينت الذى	يوجب اللوم فلومى واعذلى
إن تكن أخت امرئ ليمت على	شفق منها عليه فافعلى
جل عندى فعل جساس فيا	حسرتى عما انجلت أو تنجلى
فعل جساس على وجدى به	قاطع ظهرى ومدن أجلى
لو بعينى فقأت عينى سوى	أختها فانفقأت لم أحفل
يا قتيلًا قوّض الدهر به	سقف بيتى جميعًا من عل

هدم البيت الذى استحدثته وانثنى فى هدم بيتى الأول
إننى قاتـــلة مقتـــولـة فلعل الله أن يرتاح[1] لى

هكذا تنكشف أبعاد حزن جليلة على فقد الزوج وانتظار مقتل الأخ ، إنها تتمنى أن يأخذها الله إلى الموت هربًا من كل تلك الآلام ، هذه أقصوصة فيها كثير من الشخصيات تدور حول مقتل شخص واحد هو كليب.

الأقصوصة والقصة في القرآن:

وعندما تقرأ القرآن الكريم تجد الأقصوصة وتجد القصة. الأقصوصة نسمعها فى قوله تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا** ﴾. [الكهف: ٩ ـ ١٢]

هذه هى الأقصوصة التى تحكى موجزًا لحكاية أهل الكهف حيث عاشوا فى عصر كفر أهله بالبعث ، فأوى عدد من المؤمنين إلى الكهف فرارًا من المشركين ، فتوقفت حياتهم سنين عديدة ثم بعثهم الله مرة أخرى إلى الحياة وهذا دليل قدرته المطلقة.

وبعد ذلك يروى الحق القصة بتفاصيلها بداية من قوله سبحانه: ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى** ﴾. [الكهف: ١٣]

(١) أى : أن يرحمها الله وينقذها من مصيبتها أو بليّتها ، وفى لسان العرب [٢/ ٤٦٠] قال رؤبة : فارتاح ربى ، وأراد رحمتى ونعمـــة أتمهـــا فتمّـــت
أراد : فارتاح نظر إلىّ ورحمنى، قال الأزهرى : قول رؤبة فى فعل الخالق قاله بأعرابيته؛ قال : ونحن نستوحش من مثل هذا اللفظ لأن الله تعالى إنما يوصف بما وصف به نفسه، ولولا أن الله تعالى ذكره، هدانا بفضله لتمجيده وحمده بصفاته التى أنزلها فى كتابه، ما كنا لنهتدى لها أو لنجترئ عليها ؛ قال ابن سيده : فأما الفارسى فجعل هذا البيت من جفاء الأعراب.

إلى قوله تعالى: ﴿ **قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا** ﴾. [الكهف: ٢٦]

وما بين تلك الآيتين . . الآية الثالثة عشرة وحتى الآية السادسة والعشرين تدور أحداث الأقصوصة حول أهل الكهف بتفاصيلها عن القوم المؤمنين بالله فى مجتمع مشرك بالله، وأصر المؤمنون على التوحيد بالله ، فاعتزلوا الناس ودخلوا إلى الكهف ، وعلق الخالق الأعظم حياتهم ، فجعل الشمس تنير كهفهم وحرارة الشمس لا تؤذيهم والنسيم الهادئ يملأ الكهف ، ولو نظر إليهم أحد لظن أنهم نيام يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال حتى لا تتأثر أجسادهم بالأرض ولا يمرضون وكلبهم يراه أى إنسان فيحسبه متيقظًا وهو راقد بينما هو نائم أيضًا، وأراد الله لملامحهم هيبة تجعل من يقترب منهم يهاب الاقتراب، ثم أيقظهم الله فيتشاورون محاولين معرفة كم من الوقت مضى على نومهم فلا يعرفون ، ويقررون ذهاب واحد منهم إلى المدينة لشراء طعام . وتتضح الحكاية لأهل المدينة فيؤمنون بمقدرة الخالق جل وعلا على البعث.

ويروى الله القصص الحق فى شأن عدد السنوات التى قضاها هؤلاء الفتية نيامًا أنها ثلاثمائة وتسع سنين .

هكذا قول القرآن ، وهكذا أمر الحق إلى رسوله ليوضح أن الكون كله ملك لله سبحانه المختص بعلم الغيب ، فما أعظم بصره فى كل موجود وما أعظم سمعه لكل مسموع ، ولا أحد من أهل الأرض أو السماء له أن يتدخل فى قضاء الخالق الأكرم ، بل إن أقصوصة أهل الكهف تشير فى نهايتها إلى حقيقة علمية لم يفطن لها الإنسان ولم يتوصل إليها إلا بعد الاكتشافات العلمية المعاصرة ، فقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا** ﴾. [الكهف: ٢٥]

هذه الآية تتضمن حقيقة فلكية وهى أن ثلاثمائة سنة شمسية تساوى ثلاثمائة وتسع سنوات قمرية . . هذه الآية سبقت فى دقة ما تحتويه كل علوم الفلك . وهكذا نجد أن القصص القرآنى يحفظ الآثار بعلم الله الذى هو فوق كل علم .

* القصص .. وتثبيت الفؤاد *

إن القصص القرآنى كان الهدف منه وما زال ، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها هو تثبيت فؤاد المؤمنين ، وتثبيت الفؤاد هو المهمة التى من أجلها جاءت بعض لقطات سور القرآن وهى تحتوى على ما يظنه السطحيون تكرارًا لكنه ليس تكرارًا إنما هو تثبيت للفؤاد ، ذلك أن الفؤاد عرضة لأن يهتز بالأحداث ، فيأتى قصص القرآن بلقطاته لتثبيته ، وكانت الدعوة الإسلامية ، وهى الدعوة التى أراد لها الحق تبارك وتعالى أن تحمل كل المنهج السماوى وأن تحفظه ، هذه الدعوة مر عليها من الأحداث ما يجعل أى فؤاد يرتج ويهتز ، لكن الحق تبارك وتعالى يثبت بالقصص القرآنى فؤاد النبى الكريم وفؤاد كل مؤمن بالله ؛ وعندما ينظر البعض من السطحيين إلى آيات القرآن الكريم يتساءل هذا البعض :

ولماذا تتكرر قصة موسى فى أكثر من موضع ؟ لهؤلاء نقول: إن تفاصيل قصة موسى تأتى فى أكثر من موضع لأن بها ما يريد الله أن يثبت به فؤاد رسوله والمؤمنين به . ولله المثل الأعلى .. يمكننا أن نتساءل : لماذا تحتفل الثورات بأعياد ميلادها ، وفى كل عيد يأتى بعض القادة أو الباحثين ليكشفوا بعضًا من الأسرار التى لم تكن معلنة وقت حدوث الثورة ، فما بالنا بالإسلام الذى أراد به الله أن يكون المنهج الشامل الكامل المحتوى على كل صغيرة وكبيرة فى حياة الإنسان ، إن الخالق ينزِّل من القرآن الكريم لقطات تثبِّت إيمان المؤمنين ، فمرة يكون المثل من قصة موسى عليه السلام ، ومرة يكون المثل من قصة إبراهيم عليه السلام ، ومرة ثالثة يكون المثل من قصة يعقوب عليه السلام . ولكن بعض الناس بحسن نية أو بسوء قصد يتساءلون: ولماذا تتكرر قصة موسى عليه السلام ؟ ، لهؤلاء نقول : إن قصة موسى لم تتكرر،

إنما جاء كل بيان عنها فى موضعه ، وكان قوم موسى قومًا على جهالة وضيق أفق وقلة صبر وكثير شك ، وعظيم ارتياب وندرة إيمان ، لكن الهيكل العام لقصة موسى نجده مترابطًا إذا جمعناه من القرآن الكريم .

مثال ذلك قول الحق : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ . [القصص: ٧]

إن الغرض من هذه الآية هو الإعداد للحدث قبل أن يقع ، إن الحق تبارك وتعالى يوحى إلى أم موسى بوسيلة الإنقاذ لابنها الذى اختاره الله رسولًا ، وذلك حتى لا تغرق فى الحزن لحظة وقوع الحدث، إن وحى الله هنا للتمهيد الذى يسبق الحدث، وعندما يقع الحدث فيصبح قول الحق لأم موسى متناسبًا مع ما أوحى لها به :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ . [طه: ٣٨ - ٤٠]

هنا يكلم الرحمن جل وعلا موسى عن قصة رسالته ، وكيف أن الخالق الكريم أوحى لأم موسى بكل التفاصيل وجعلها تطمئن عليه ثم التقطه فرعون الذى سيصير عدواً له .

وينبه الحق تبارك وتعالى موسى عليه السلام أن عناية الحق به سببها اختياره كرسول ، وأن التجارب التى مر بها هى لإعداده للرسالة .

وهكذا نفهم معطيات القرآن الكريم . إن لكل كلمة ميعادها ، ولكل معنى مكانه، ولكل أسلوب مجاله من حيث الرتابة للإقناع ثم السرعة للتنفيذ، فقصة الوحى الأولى لأم موسى توضح الإقناع بحدث لا يمكن أن تقتنع به أم

لتلقى بابنها فى اليم ، ولكن إرادة الله تجعلها تقتنع . وعندما يجىء وقت التنفيذ للإلقاء فى اليم يصدر الخالق الأمر بالتنفيذ . كل ذلك من أجل أن نرى الصراع بين موسى عليه السلام وفرعون . وتنمو أحداث العداء بفعل من موسى وتكبّر من فرعون وتتضح لنا أسباب الجدل ، موسى يقتل رجلًا ويفر هاربًا ويستقى لفتاتين من أهل مدين ، ويختار له الحق تبارك وتعالى الحياة فى أهل مدين لفترة من الزمن ، ثم يعود إلى فرعون فيتلقى الوحى بجانب الطور فى البقعة المباركة من الوادى المقدس ويمر باختبارات النظر إلى عصاه، فهى مرة جان لها من السرعة ما يفوق تصوره ، وهى مرة كثعبان لها قدرة ابتلاع كل الأشياء المسحورة ، وهى مرة حية لأنها سريعة الحركة .

كل هذه اللقطات تأتى فى آيات متفرقة بقصد تثبيت قلب رسول الله وقلوب الملتفين حول رسول الله . فإذا تساءلنا : لماذا لم يعط الله كل اللقطات فى قصص الأنبياء فى عطاء واحد؟ . قلنا إن الإجابة هى : لقد كانت الرسالة المحمدية تمر بمواقف عصيبة وصعبة، وكان لا بد من استخدام قصص الأنبياء كلقطات متفرقة شاء الحق بها أن يضرب المثل ويوضح للمؤمنين أن طريق نشر المنهج الإلهى يحتاج إلى صبر وكفاح، لذلك جاءت اللقطات على حسب المواقف التى نزلت فيها الآيات. ولم يكن الهدف من اللقطات الكريمة التى تضمنتها الآيات البينات سوى شد أزر المؤمنين وإيضاح المعلومات التى كتمها الذين عرفوا الكتب السماوية وأخفوا بعضًا منها وحرفوا فيها ، لذلك كانت الآيات الكريمة لتصحيح ما أفسد الآخرون ولتثبيت قلوب المؤمنين .

ولننظر فى كل قصص القرآن الكريم نظرة الإيمان الحق، فليس فى القصص القرآنى خيال ، إنما واقع له هدف ، وإذا رأى واحد أن هناك تكرارًا فليعلم أن كل تكرار يتضمن أمرًا ويقصد هدفًا، وله مراد هو تثبيت الفؤاد المؤمن.

هكذا نرى أن ما تعرض له الرسول والمؤمنون من مصاعب ومواقف

ومتاعب لابد فيه من تثبيت الفؤاد ؛ ومعنى تثبيت الفؤاد : أن تملأ السكينة الفؤاد من منطق اليقين الإيمانى برب أرسل رسولًا ليبلغ منهجه ولا يمكن أن يتخلى عن هذا الرسول ، فإذا ما ذكر الله فى القرآن الكريم أنباء الرسل والصعاب التى تعرضوا لها والأحداث التى مروا بها تهون عليه مصائبه .

ولذلك قال الله سبحانه:

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ . [هود: ١٢٠]

والفؤاد وهو القلب هو وعاء العقائد ، بمعنى أن العقل يستقبل من الحواس المعلومات ، والعين ترى ، والأذن تسمع ، والأنف يشم ، والفم يتذوق الطعام والكف يلمس ، هذه اسمها وسائل الإدراك ، يأخذ منها العقل معلوماته ويفندها ويجعلها قضايا عقلية ، فإذا قلت: النار محرقة هذه قضية عقلية كيف تكونت ؟ قرب الإنسان يده من النار فأحس أنها محرقة . . هذا أمر حسى عقله الإنسان وعرف أنه حقيقة حينئذ تستقر فى فؤاده لتصير عقيدة لا تطفو إلى العقل مرة أخرى لتناقش ، بل هى انتهت بحيث إنه إذا رأى النار ودون أن يحاول مرة أخرى يعرف أنها محرقة ويبتعد عنها.

إذن فوسائل الإدراك الحسية تستقبل المعلومات والعقل يمحصها وينتهى إلى عقيدة تستقر فى الفؤاد ولا تطفو على الذهن بعد ذلك لتناقش من جديد.

إذن فالفؤاد هو الوعاء القابل للمعلومات ، وفى قضايا الحق لا بد أن يكون الفؤاد ثابتًا لا يهتز ، ففيه كل القضايا التى نوقشت عقليًّا ، حينما يريد ابنك أن يتخرج مهندسًا أو صيدليًّا أو طبيبًا يناقش هذه المسألة بعقله ويوازن بين كل منها ثم بعد ذلك ينتهى إلى قرار ، إنه سيدخل الصيدلة لأن والده صيدلى أو أنه سيدخل الطب لأن الحصول على عيادة أسهل من الحصول على صيدلية ،الله سبحانه وتعالى يريد أن يثبت فؤاد رسوله ، وفؤاد الرسول مستعد لتقبل القول الحق. وبعد أن يتم تثبيت الفؤاد بالحق، الذى هو أصل

العقيدة الذى لا يتغير ولا يتبدل أبدًا، والعقيدة هى التى سيصدر عنها طاعة التكليف فى: افعل ولا تفعل .

إذن فلابد أن يأتى الحق قبل الموعظة والله سبحانه وتعالى هو الحق الثابت الذى لا يتغير فما جاءك منه من تكليف فعليك تنفيذه لأنه صادر عن الله . وإذا أردنا أن نضرب مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ أنك إذا مرضت تبحث عن أمهر الأطباء فى معالجة هذا المرض ، وبعد أن تستقر عليه وتثق به تنتهى مهمة عقلك فما قاله الطبيب تنفذه ، فإذا سألك أحد : لماذا؟ تقول : الطبيب قال ذلك فيسكت الجميع، فإذا كان ذلك يحدث بالنسبة لبشر فما بالك بالحق تبارك وتعالى !!

وقد تكون القصة هى إجابة عن سؤال طلب الرسول الكريم من ربه الإجابة عنه مثلما حدث فى قصة يوسف ، وجاءت إجابة الحق رواية كاملة للقصة زمانًا ومكانًا وأشخاصًا وأحداثًا وعقدًا وحلولًا ، إذن فالقصة حين تكون مطلوبة فإن القرآن الكريم ينزل بها مكتملة لم يترك الله لها أى جانب لم تستوفه ، والموقف يختلف على سبيل المثال مع قصة آدم عليه السلام ، لقد جاءت فى بعض سور القرآن ونزلت على أجزاء ، ولو جمعنا هذه الأجزاء معًا فلسوف نجد القصة مكتملة، وسوف نجد أن أى تكرار هو إيضاح لمزيد من الصور والمعانى التى توضح القصة وتكتمل بها .

* القصة .. والرواية *

بعض الناس يدعى أن القصص فى القرآن الكريم ، تكون بتوسع ومحبوكة وفيها أشياء قديمة وأشياء حديثة لم نكن نعرف عنها شيئًا قبل نزول القرآن. نقول : أنتم لم تفهموا كلمة قصة . فلو حدثت مشاجرة أمامنا . وروى كل واحد منا بطريقته ما حدث ، فتلك ليست قصة ، لأن معنى القصة أن تلتزم بما كان فيها حرفيًّا . وهى مأخوذة من قص الأثر . أى تتبعه فى الصحراء . إذن فقصص القرآن معناها أنك تقص الحقائق ولا تقول غيرها. فأنت حين تأخذ قضية أو قصة من لغتنا ثم تزيد فيها وتجعل فيها «حبكة» وأبطالًا وتدخل فيها عنصر التشويق . فإن هذه ليست قصة ، هذه رواية .

ولذلك فعندما تقرأ قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ** ﴾ [هود: ١٠٠] فلا بد أن تعرف أن قصص القرآن التى يعطينا الله سبحانه وتعالى بها العبرة الإيمانية. هذه القصص لا بد أنها قد حدثت فعلًا ، وأن أحداثها صحيحة مائة فى المائة ، لا يدخل فيها أى نوع من أنواع الرواية أو اختلاق الأحداث ، لأن القصة مأخوذة من قص الأثر ، أى تتبعه فى الصحراء . وليس فى هذا أى نوع من الاختلاق. وقوله تعالى : ﴿ **مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ** ﴾. القائم هو ما بقى من أعمدة عليها نقوش ونحت . لكى تفهم أن القصة صحيحة وحقيقية . فلو أن كل آثارها طمست، فما الذى يدلك على الحقيقة ؟ يمكن أن يقال: إنه كلام يفتقر إلى الصدق ، ولذلك نجد كل أثر من الآثار للأمم السابقة فيه ما هو قائم ، أى موجود ليدل الناس على صدق ما يقال . وحصيد أى هالك . لأنه لا يمكن أن يبقى كما هو ويقاوم الزمن .

* إن هذا لهو القصص الحق *

الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾. [آل عمران: ٦٢]

إن قول الحق: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾. يلفتنا إلى أن ما يرويه الحق لنا ليس حكاية أو حدوتة أو مزج خيال بواقع، كما حدث فى العصر الحديث عندما أخذت كلمة القصة فى العرف الأدبى الحديث - القادم من حضارة الغرب- إن القصة يلعب فيها الخيال دوراً كبيراً .

لكن لو فهمنا اشتقاق كلمة «قصة»[1] لبحث أهل الأدب فيما يكتبون من روايات وخيال عن كلمة أخرى غير «قصة» لماذا ؟ لأن كلمة «قصة» مأخوذة من قص الأثر، أى تتبع الأثر . والقصص هو تتبع ما حدث بالفعل لا تبديل فيه ولا أخيلة.

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ فإذا جاء القصص من الإله الواحد. . فلنطمئن إلى أنه لا يوجد إله آخر سيأتى بقصص آخر.

---

(١) راجع [ص ٢٠ وما بعدها] فيه بحث عن كلمة [قصة] ومشتقاتها ومواطن القصص فى كتاب الله تعالى .

* قصص الأنبياء للأسوة *

إن العالم كان قديماً فى انعزالية ، لأنه لم يكن يملك من وسائل الالتقاء ما يجعل الأمم تندمج، وإذا كان العالم فى انعزالية ، كان لكل بيئة داءاتُها ، ولكل بيئة طابعٌ مميز فى السلوك، ولذلك أرسل الله رسولًا إلى كل بيئة ليعالج هذه الداءات حتى لا تشيع الداءات من مجتمع إلى مجتمع آخر بالأسوة . ولكن الحق سبحانه الذى أحاط بكل شيء علماً يعلم أن خلقه بما أقدرهم هو سبحانه على الفكر والإنتاج والبحث فى أسرار الكون ، أنهم ابتكروا وسائل الالتقاء، وهو سبحانه قد علم أزلاً أن العالم سيصير وحدة واحدة ،وأن الشيء يحدث فى الشرق فيعلمه الغرب فى نفس اللحظة . وأن الداءات ستصبح فى العالم كله داءات واحدة؛ لذلك كان لابد وأن يوجد الرسول الذى يعالج الداءات المجتمعة ، فكان ﷺ الرسول الخاتم والرسول الجامع والرسول المانع[1].

لذلك نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ . [النساء: ١٦٤]

ويتكلم الحق سبحانه عن تاريخ الأنبياء مع أقوامهم بكلمة «قصص» ولذلك حكمة ؟ فالقصص معناه أنه لا عمل فى الأحداث حول الرسول . . وإنما الأحداث تأتى فى السياق كما وقعت . والحق سبحانه وتعالى يعلم أزلاً أن خلقه سيبتكرون فنًّا اسمه «فن القصص» . ومن العجيب أنهم يسمونه فن القصص ، وينسج المؤلفون حكايات «خيالية» أو حكايات ليس لها واقع

---

(١) المانع : الحامى والواقى لمن يؤمن برسالته من عقاب الله تعالى ، وقد ورد فى صحيح مسلم (٢٢٨٥) عن جابر رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو يذبهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى » .

وعندما يأتون إلى التاريخ الواقع يزيد المؤلف جزءًا من الأحداث أو يضيف من خياله أشياءً ، ويقولون : هذه هى متطلبات إتقان فن القصِّ ، وبذلك يحرمون أنفسهم من أمانة النقل . ولذلك الحق يوضح لنا أن القصص الخاص بالرسل فى القرآن هو قصص واقعى.. حقيقى .. حدث فعلًا . فالقصص مأخوذ من قصِّ الأثر ، وقص الأثر يعنى أن تسير مع القدم كما يذهب، فلا تذهب هنا ولا تذهب هناك .

إذن فقصص الأنبياء فى القرآن هى قصص واقعية، إنها من رواية الحق لا رواية الخلق ، وثمة فارق بين ما يرويه الحق لخلقه ليسيروا على المنهج ، وبين ما يرويه الخلق لبعضهم البعض للتسلية أو غير ذلك. ومثال روايات الخلق التى تزدحم فى بعض الأحيان بخيال البشر روايات جورجى زيدان[1] عن الإسلام أو الأنبياء ، وعندما سألوه لماذا أضاف من عنده إلى الوقائع أجاب الإجابة التقليدية: «فعلت ذلك من أجل الحبكة القصصية» ،وبذلك نكشف الفارق الشاسع بين قصص الخلق وقصص الحق . إننا يجب أن نميز هذا الفارق جيدًا ونضعه فى بؤرة الشعور حتى لا يُدخل أحدٌ من خياله على قصص القرآن ما ليس فيه ، وذلك حتى لا يأتى واحد ذات يوم ويقول: إن كل القصص واحد .. إننا لسنا أمام مؤلف ، ولكننا أمام الخالق الأعلى يقص لنا ما يعلمنا .

ولذلك علم الحق أزلًا ما سيدور فى كونه ، لذلك قال جلَّ وعلا: ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ﴾ . [يوسف: ٣]

إن الحق يقصُّ على الرسول ﷺ فى القرآن أحسن القصص. لماذا يقص

(١) جورجى زيدان : أديب وروائى لبنانى من عين عنوب ، ولد فى بيروت ديسمبر عام ١٨٦١ وتوفى بمصر عام ١٩١٤.
وله تصانيف كثيرة منها: تاريخ مصر الحديث ، وتاريخ العصر الإسلامى ، وتاريخ اللغة العربية ، وجغرافية مصر ، ومن أشهر مؤلفاته : روايات تاريخ الإسلام. ومن أشهر أعماله : اصدار مجلة الهلال بمصر.

لحق على رسوله أحسن القصص ؟ لأن رسول الله ﷺ سيعالج أجناس العالم التى توزعت على جميع الرسل من إخوانه ، وما دام عمل رسول الله ﷺ سيكون مع كل الأجناس البشرية الذين تفرقوا من قبل على الرسل من إخوانه ، كان لابد أن يقول الحق للرسول ﷺ ولأمته من بعده :

لقد حدث مع الرسول فلان كذا - وكان مبعوثًا إلى قوم كان موقفهم منه كذا، وكانت داءات ذلك المجتمع هى كذا وكذا، لأن الرسول محمداً ﷺ موكول إليه علاج كل أجناس البشر وكذلك أمته من بعده ، لذلك كان لابد أن يعرفوا أخبار الكل من المجتمعات والرسل.

إذن فكلمة قصص تدل على أنها أحداث لحركة العقيدة التى كانت مع كل رسول . والتاريخ كما نعلم هو ربط الأحداث بأزمانها ، فمرة نجعل الحدث هو المؤرخ له ، ثم نأتى بأشخاص كثيرين يدورون حول الحدث . ومرة نجعل الشخص هو الأصل والأحداث تدور حوله ، فإذا قلنا كلمة «سيرة» فهذا يعنى أننا جعلنا الشخص هو محور الكلام ، ثم جعلنا الأحداث تدور حوله ، وإن أرخنا للحدث، فإننا نجعل الحدث هو الأصل والأشخاص تدور حوله ، مثال ذلك: عندما نأتى لنتكلم عن حدث الهجرة فإننا نجعل هذا الحدث هو المحور ونروى كيف هاجر رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر ، ونحكى كيف هاجر عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة رضى الله عنهم . وبذلك تكون الهجرة هى المحور وكيف دار الأشخاص حول هذه الكلمة .

ومثال آخر : نحن عندما نروى سيرة من السير . . مثل سيرة النبى ﷺ فنحن نجعل النبى ﷺ محور الأحداث والتاريخ ، ونرى كيف دارت الأحداث فى حياته. إذن فأخبار وقصص الرسل تكون هى المحور ونلتقط الأحداث التى مرت عليهم. .لماذا ؟ .

لأن الرسالات حين تأتى الناس بمنهج السماء فهى تنقسم قسمين . . قسم نظرى يريد الحق أن يعلمه لخلقه بواسطة الرسول ، وهذا القسم هو القسم العلمى ، إنها قضايا يجب أن يعلموها وبذلك يكون العلم هو القسم الأول.

ولكن أيريد الحق من خلقه أن يعلموا فقط ؟ أم يريد سبحانه أن يعلموا ثم يطوعوا حركة حياتهم على ضوء ما علموا ؟ إنه سبحانه يريد أن يعلموا ويطوعوا حركة حياتهم على ضوء ما علموا ،فليست المسألة رفاهية علم ، ولكنها مسئولية تطبيق هذا العلم ،إنه يعطى الخلق بواسطة الرسول علمًا ، ويطلب منهم الرسول تطبيق ما علموا فى محور «افعل» و «لا تفعل» فلو كانت المسألة أن يعلم الخلق فقط لكان من السهل ذلك ، بل يمكننا أن نقول: ما أيسرها من رحلة. ولذلك نجد كفار قريش عندما طلب الرسول منهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله. قاوموا ذلك ، ولو كانوا يعلمون أنها مجرد كلمة تقالُ لقالوها ، ولكنهم عرفوا مطلوب الكلمة ، عرفوا أنه لن توجد سيادة ولا عبودية ولا أوامر لأحد غير الله . ومعنى ذلك المساواة المطلقة بين العباد وهم لم يقولوها ؛ لأنهم فهموا مطلوبها، إذن فكل تكليف من السماء إنما نزل للعلم به ، والقصد من العلم هو العمل به،أى توظيف العلم ،فلا قيمة لعلم دون عمل. وعندما يبلغ الرسول القوم: إن هذا هو الحكم ومطلوب من كل واحد منكم أن يطوع حركة حياته على ضوء هذا الحكم . هنا قد يسأل واحد من الناس : أهذا الحكم فى طاقة البشر ؟ فيقول الرسول : نعم إن هذه الأحكام كلها فى طاقة البشر ، وهناك أناس قد علموا وعملوا وهذه هى قصصهم . . هذه قصة فلان وقصة فلان ، إذن فالقصص يعطينا الجانب العملى المطلوب للمنهج ، لذلك قص علينا الحق قصص الرسل فى القرآن.

* دقة المنهج القرآنى *

إن القصص فى القرآن يعلمنا الكثير والحق سبحانه وتعالى أراد من القصص أن يعلم الأمة دقة المنهج الإيمانى . إنه سبحانه كما أراد منا العلم بالمنهج يطلب منا أن نطبق هذا المنهج ونوظفه فى حياتنا، وليس ذلك بدعًا ، بل إنه موجود فى قصص الرسل الذين علموا المنهج فطبقوه فى ذواتهم أولًا. فالآفة أن نعلم العلم ولا نطبقه . مثال ذلك : ما يقال ويشاع من أن التعليم الدينى فى المدارس لا يأتى بثمار طيبة فى سلوك الطلاب ، ونقول لمن يرددون ذلك : إنكم لا تفهمون طبيعة التعليم الدينى ، إن تعليم الدين لا يمكن أن يتساوى مع تعليم الجغرافيا أو الهندسة. فنحن عندما نعلم طالبًا الهندسة فهو يستطيع أن يكون عالـمًا متفوقًا فيها، فهو يأخذ المعطيات والنظريات ويتفوق فى المجال الهندسى، ولكن لم تطلب منه أى نظرية هندسية أن يعدل سلوكه فى الحياة بأن ترشده فى السلوك اليومى «افعل كذا» و «لا تفعل كذا».

إن النظريات الهندسية لا تتدخل فى حياة الطلاب ، لكن الطالب عندما يتعلم الدين فهو يتعلم أن يفعل الأمر الدينى وألا يفعل الأشياء المنهى عنها . إن الصعب فى التعليم الدينى هو التطبيق العملى. . إن التلميذ لا يرى التطبيق العملى من الذين يعلمونه الدين أو من الأسرة . فيقال للطالب : «إن الدين ينهى عن الكذب»[1] ويجد الكذب سلعة رائجة فى المجتمع . ويقال له

---

(١) يقول عز وجل فى سورة البقرة : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠]؛ وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر» أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣) ومسلم (١٠٧ ، ١٠٩).

: «الصلاة عماد الدين وتنهى عن الفحشاء والمنكر»[1] . . فلا يجد من يصلى أمامه. .أو يجد من يصلى ولا يقيم عماد الدين باتباع ما تأمر به الصلاة من نهى عن الفحشاء والمنكر . إن فشل التعليم الدينى لا يأتى من ناحية غياب العلم، ولكن الفشل يأتى من جانب عدم وجود التطبيق العملى للسلوك الدينى[2] .

إذن فالقصص القرآنى قد جاء ليوضح لنا التطبيق للجانب النظرى من الدين ، وقد طبقه الرسل على نفوسهم ، وأنتم يا أمة الإسلام لستم أقل من أحد ، بل أنتم خير أمة أخرجت للناس. لذلك عليكم أن تأخذوا الخير الذى حدث فى موكب الرسالات كلها وتطبقوه فى ذواتكم . هذا هو معنى قول الحق: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ .

إن القرآن الكريم قد جاء لنا بعيون القصص حتى نأخذ منها لقطات العبرة، قد يقول قائل : ومن هو الرسول؟ إن العلماء يقولون: إن هناك رسولًا وهناك نبيًّا ، وأقام البعض مشكلة حول هذا الأمر ، فيقول بعض العلماء : كل رسول نبى ولا عكس . ونقول لأصحاب هذا الرأى : إننا إن نظرنا إلى المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى لأرحنا أنفسنا جميعًا.

فالقرآن يقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ ﴾ . [الحج: ٥٢]

إذن فالنبى أيضًا مرسل من الله ، وعلى ذلك فكلاهما - النبى والرسول -

---

(١) يقول سبحانه فى سورة العنكبوت آية (٤٥): ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ ، وعن ابن عمر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة . . . . » أخرجه البخارى(٨) ومسلم (١٦).

(٢) قال الله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣]

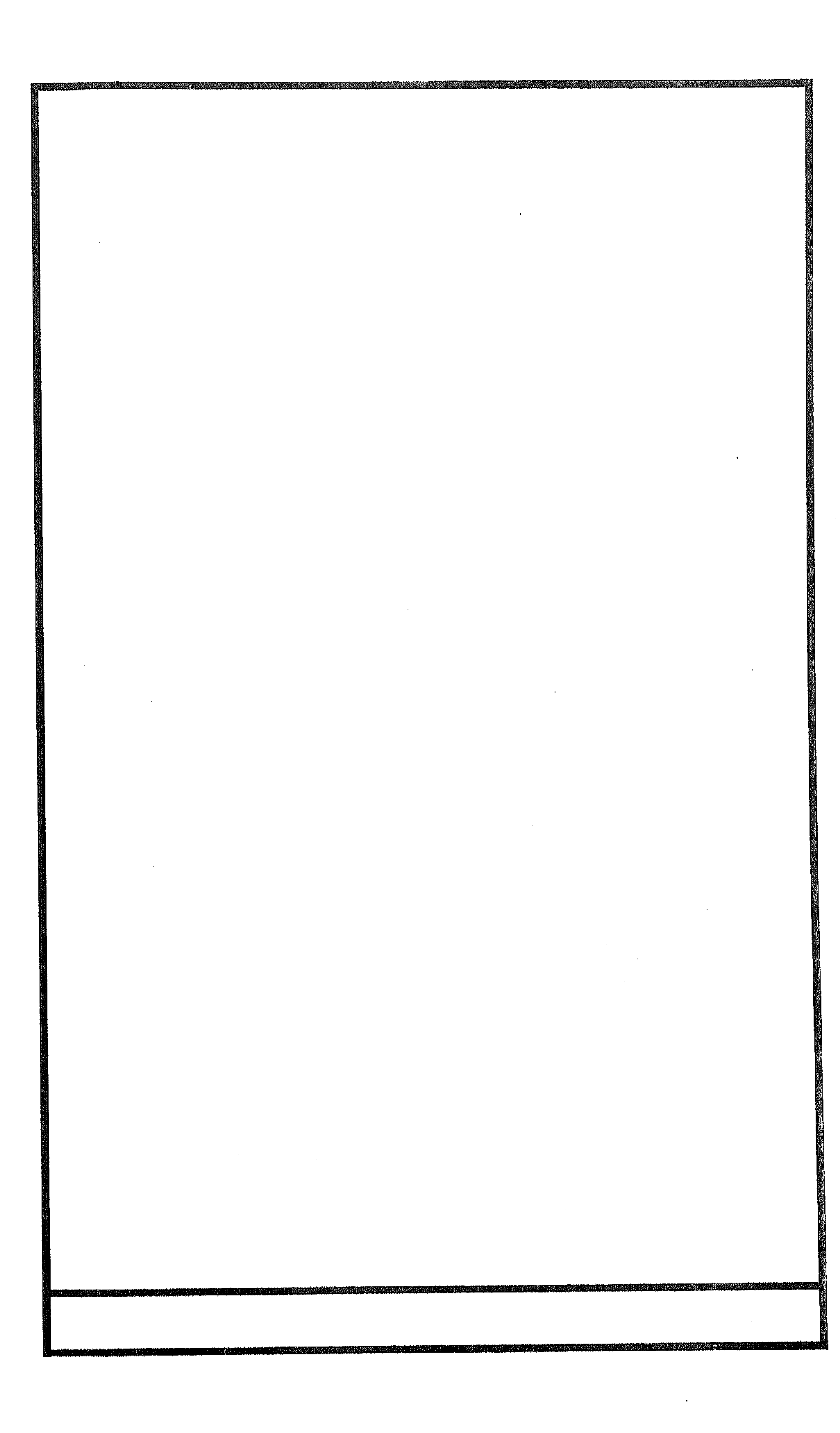
قال الشاعر :

وعالم بعلمه لا يعملن ... معذب من قبل عباد الوثن

مرسل من عند الله ، لكن هناك فرق بين أن يرسل الحق تشريعًا مع رسول ويكون هذا التشريع مستوعبًا لأشياء وأحكام لم تكن موجودة من الرسالة السابقة عليه وبين أن يأتى إنسان مصطفى من الله ليطبق فقط ما جاء فى الرسالات السابقة . فالأنبياء قد أرسلهم الله ليكونوا نموذجًا تطبيقيًّا للشرع السابق عليهم ولم يأتوا بشرع جديد . لكن الرسول هو من أرسله الله بشرع جديد ليعمل به وأمره سبحانه بتبليغه، هذا هو الزائد فى مهمة الرسول ، إن الحق أرسل الرسل بالشرع والتبليغ والتطبيق، وأرسل سبحانه الأنبياء ليكونوا الأسوة السلوكية فيطبقوا ما أرسل به الرسل، إن النبى يأتى ليكون خميرة للرسل . وهذا أمر لا يأتى إلا من الأمم التى لها سجل فى المكابرة مع الرسل.

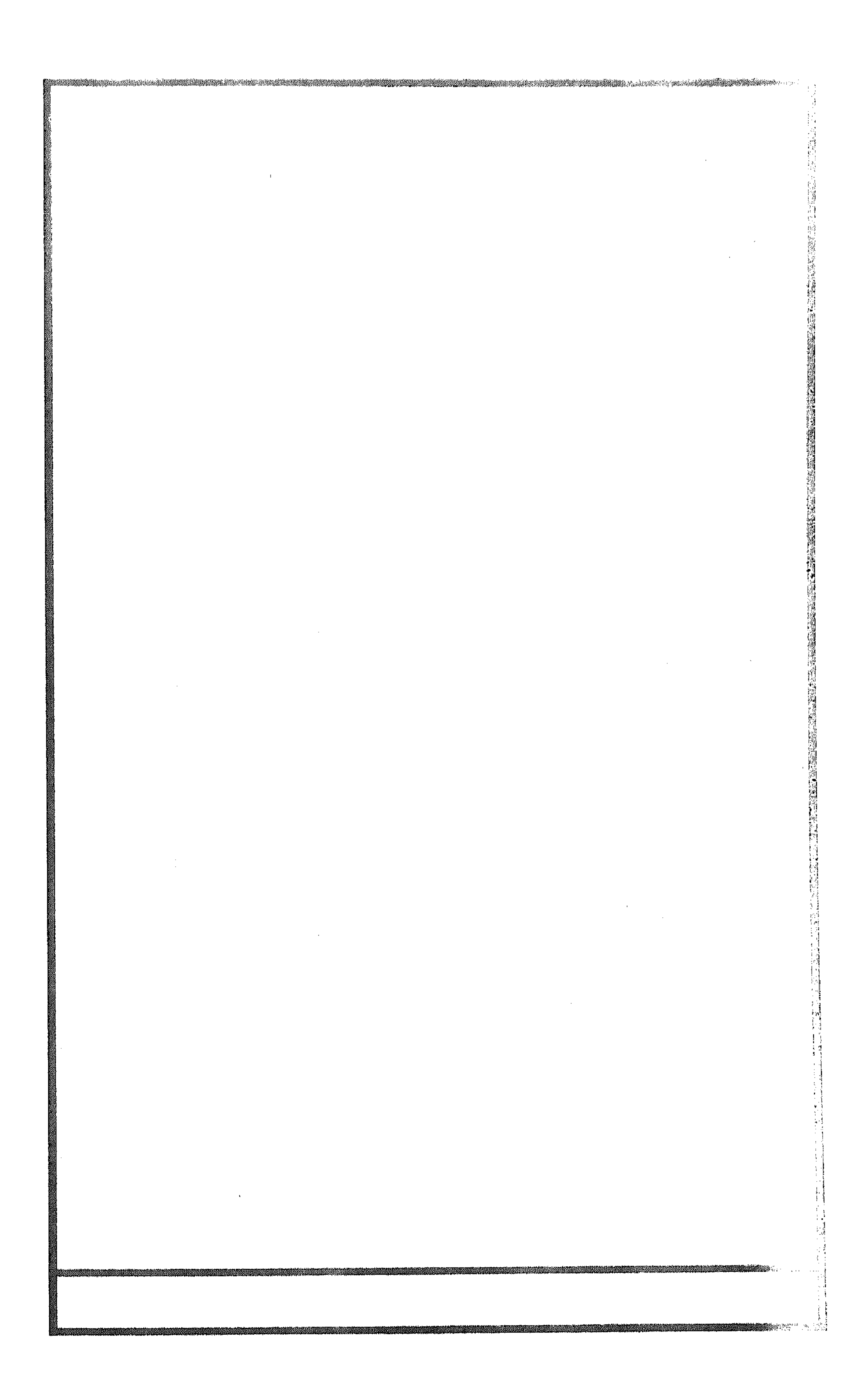
ولذلك نجد أن الغباء قد دفع ببنى إسرائيل إلى التفاخر بأنهم أكثر الأمم أنبياء ، صحيح أنهم أكثر الأمم أنبياء ، وعلينا أن نعرف أن النبوات والرسالات إنما تأتى لتشفى الناس مما بهم من داءات ، فعندما نقول : إن إنسانًا هو أكثر الناس ترددًا على الأطباء فمعنى ذلك أن أمراضه كثيرة . وكذلك بنو إسرائيل كانت داءاتهم كثيرة. إذن فكثرة الأنبياء إليهم لا ترفع من منزلتهم ، إنما تدل على أنهم موبوءون.

إن الرسول والنبى كلاهما مرسل ، والفارق أن الرسول معه شرع سماوى ليبلغه ويطبقه والنبى مرسل للتطبيق ، فإن جئنا لمعنى الرسول اصطلاحيًّا.. فهو الموحى إليه بشرع يعمل به وأمره الله بتبليغه .



نبى الله آدم عليه السلام

- من الخالق
- خلق الله آدم بيده
- كلنا من آدم
- كيف خلقت البشرية مع آدم
- آدم وحواء والنفس الواحدة
- كيف خلق الله حواء
- وعلم آدم الأسماء كلها
- إلا إبليس لم يكن من الساجدين
- السجود لآدم بأمر الله
- ما الذى منع إبليس أن يسجد لآدم
- غواية الشيطان لآدم
- ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين
- ماذا حدث لما ذاقا الشجرة
- ما هى الكلمات التى تاب الله بها على آدم
- ما يستفاد من معصية آدم وتوبته
- لماذا لم يقبل الله توبة إبليس ؟
- ما الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس ؟
- اصطفاء الله لآدم بعد توبته
- هبوط آدم وزوجه من الجنة
- تدريب آدم على تطبيق المنهج
- آدم رسول الأسوة والقدوة
- هل آدم أول من عمّر الأرض ؟
- يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان
- العداوة والبغضاء سببها الشيطان
- قال انظرنى إلى يوم يبعثون
- لأقعدن لهم صراطك المستقيم
- الجهات التى يأتى منها إبليس ابن آدم
- قابيل وهابيل
- كلكم لآدم وآدم من تراب



* من الخالق ؟ *

إن الله سبحانه وتعالى حتى يهدى الناس ويعرفهم المهمة التى خلقوا من أجلها. كان لابد أن يرسل إليهم رسولًا بالمنهج الذى يريده ، وبغير هذه الطريقة، وبدون الرسل لم يكن من الممكن للعقل البشرى أن يهتدى إلى مرادات الله من خلقه.

وأول هذه المرادات أن يخبرنا الله سبحانه وتعالى بقصة خلقنا وإيجادنا . يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ** ﴾ . [الأعراف: ١١]

فكان لابد للحق سبحانه وتعالى أول شيء أن يخبرنا أنه هو الذى خلقنا، فبدون هذا الإخبار لم نكن لنستطيع أن نهتدى إلى من هو الخالق، وما هى مهمتنا فى الحياة، فأقصى ما يستطيع أن يصل إليه العقل فى التدبر فى آيات الكون وفى أنفسنا أن نعلم أن لهذا الكون خالقًا أعلى، وموجودًا إيجادًا نعجز عنه نحن ، ولكن ما اسمه ؟ ماصفاته؟ وماذا يريد منا ؟ هنا يعجز العقل، ولابد أن تأتى الرسالة من السماء .

ونحن لم نخلق أنفسنا ، ولم نشهد كيف خلقنا ، ولم نشهد كيف خلق الكون، ولا يستطيع أى إنسان أن يدَّعى أنه شهد قضية الخلق، أو أنه خلق الأرض والسماوات ومابينهما. إذن فمصدر العلم فى هذه القضية كلها لابد أن يأتينا من الله، وباب الاجتهاد مغلق، وباب التخمين مغلق؛ لأنه قائم على غير علم. ولذلك سمى الله سبحانه وتعالى كل من يجادل فى خلق الإنسان أو فى خلق السموات والأرض ضالًا مُضِلاً، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** ﴾ . [الكهف: ٥١]

فكأن كل من يجادل فى هذه القضية مضل؛ لأنه يجادل فيما لا يعلم، ولا يستطيع أن يقيم عليه الدليل. وهكذا فإن المصدر الأول والأخير فى هذا كله «الله» وحده.

نأتى بعد ذلك إلى ما يقوله المنطق، البحث الإحصائى الرجعى يقول: إن العالم يتكاثر كلما مضى الزمن. إذا نظرنا لتعداد العالم منذ قرن، نجد أنه أقل من تعداده الآن. فإذا كان العالم فى القرن الماضى تعداده أربعة آلاف مليون مثلاً، نجده الآن عشرة آلاف مليون، وإذا عدنا إلى الوراء مع الزمن نجد أن العالم منذ ثلاثة قرون مثلاً كان أقل من ألف مليون، وكلما عدنا بالزمن إلى الوراء قلَّ العدد حتى نصل إلى مائة، ثم خمسين، وفى النهاية نصل إلى أن بداية العالم كانت من اثنين، ذكر وأنثى؛ لأن الخلق لا يتكاثر إلا بالذكر والأنثى معًا. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾. [النساء:١] وعلم الإحصاء يثبت ذلك يقينًا؛ لأن العالم كلَّما عدنا إلى الوراء يقل ويقل حتى يصل إلى اثنين، ثم الله يخبرنا كيف تمَّ التكاثر فيقول: ﴿ **وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً** ﴾[النساء:١]، وإذا كان علم الإحصاء يثبت أن الخلق يقل حتى يصل إلى ذكر وأنثى، فإن علم الإحصاء لا يستطيع أن يخبرنا كيف تم الخلق.

ولكن الذى خلق هو وحده القادر على أن يقول لنا كيف تم الخلق، إنه وحده الذى يعلم يقينا كيف حدث ذلك. الله سبحانه وتعالى يقول لنا: إنه خلق آدم ثم خلق من آدم زوجه حواء، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ **وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ [النساء: ١]، العلماء اختلفوا، بعض العلماء قالوا: إن الله أخذ جزءًا من آدم أو ضلعًا منه، وخلق منه حواء، وقد يكون هذا صحيحًا[1]، وبعضهم يقول: خلق منها زوجها أى من جنس آدم، والله سبحانه وتعالى ذكر لنا

(١) إلى هذا ذهب ابن كثير، وهو قول ابن عباس، وجمهور المفسرين. انظر تفسير ابن كثير [أول سورة النساء]. والدر المنثور للسيوطى [١٢١/٢]. وغرر التبيان لابن جماعة [٢٣٤].

قصة خلق آدم، واكتفى بها عن ذكر خلق حواء على أساس أنها من نفس الجنس وهو البشر ، وفى ذلك يقول الحق :

﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨] أى من جنسكم ، فحواء من جنس آدم خلقًا وإيجادا ، أو من جزء من آدم . المهم أنه ما شاء الله كان ، وهو أن يخلق زوجة آدم ليتم التكاثر .

وكان أول بلاغ عن خلق آدم للملائكة فى قول الحق سبحانه وتعالى للملائكة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، وكان أول أمر من الله بالنسبة لخلق آدم أن يسجد له الملائكة فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩]، إذن فقبل نفخ الروح كانت هناك تسوية، والذى تمت تسويته هو آدم، ولكن من ماذا تمت التسوية؟ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ مِن صَلْصَالٍ ﴾ [الحجر: ٢٦] ، وقال: ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٣٣]، وقال: ﴿ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢]، وقال: ﴿ مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج: ٥]، وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فإذا جئنا إلى هذه المراحل المتعددة نجدها تتفق مع منطق الأشياء فى الدنيا ، من تراب؟ نقول: نعم ، كلكم من آدم ، وآدم من تراب . من ماء؟ نقول : نعم . . الماء إذا اختلط مع التراب كان الطين ، وإذا تركنا الطين فترة تتغير رائحته، ويتغير قوامه، ويصبح حمأً مسنونًا، أى: طينًا متغير الرائحة، ثم بعد ذلك نتركه يجف فيصبح صلصالاً، والصلصال يتم تشكيله بالصورة التى يريدها خالقه، ثم بعد ذلك: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر: ٢٩]، فكانت الحياة، وهذه قصة خلق آدم .

* خلق الله آدم بيده *

إن آدم خُلق[1] بيد الله مباشرة، فكلنا مخلوقون بقانون الخلق، ولابد أن يجتمع رجل وامرأة ليتم الخلق وفقاً لسنة الله في خلقه ، ولكن آدم خلقه الله سبحانه وتعالى مباشرة وفى ذلك يقول الحق: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ[2] وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى[3] ﴾ [ص :٧٢] إذن فالتسوية من عند الله ، والروح من عند الله. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لإبليس: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ أى أن آدم ليس مخلوقاً كغيره من البشر ، ولكنه مخلوق بيد الله مباشرة[4] وكان أول تكليف له من الله فى الجنة التى عاش فيها، وهى أنه يأكل كل شىء ما عدا ثمار شجرة معينة، أى أن المباح كثير جداً.

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال : « خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة، فى آخر الخلق ، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل » أخرجه مسلم برقم (٢٧٨٩) ، والنسائى فى الكبرى (١١٠١٠/ ١٢٢) ، وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها »

وفى رواية عنه رضى الله عنه عند أبى داود (١٠٤٦) « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أهبط ، وفيه تيب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة إلا وهى مصيخة - أى منتظرة لقيام الساعة - يوم الجمعة من حيث تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله عز وجل حاجة إلا أعطاه إياها » أخرجه مسلم برقم (٨٥٤)، والترمذى (٤٨٨ ، ٤٩١) ، والنسائى رقم (١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٤٣٠) وأحمد فى المسند (٤٨٦/٢ ، ٥٠٤ ، ٥١٢ ، ٥٤٠).

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خلق الله آدم على صورته =

. . . .

= وطوله ستون ذراعاً، ثم قال : اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيوك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فذهب فقال : السلام عليكم، فقالوا السلام عليكم ورحمة الله ، فزادوه ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فى طوله ستون ذراعاً ، فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن » البخارى (٣٣٢٦ ، ٦٢٢٧) ، مسلم (٢٨٤١).

والضمير فى صورته عائد إلى آدم ، والمراد أنه خلق أول نشأته على صورته التى كان عليها فى الأرض، وتوفى عليها وهى طوله ستون ذراعاً ، ولم يتنقل أطواراً كذريته ، وكانت صورته فى الجنة هي صورته فى الأرض لم تتغير. (ابراهيم العلى - الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء)

(٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لما نُفخ فى آدم الروح مارت وطارت ، فصارت فى رأسه، فعطس فقال : الحمد لله رب العالمين ، فقال الله يرحمك الله » أخرجه ابن حبان كما فى الموارد (٢٠٨١) والحاكم (٤/ ٢٦٣) وقال صحيح على شرط مسلم وإن كان موقوفاً ، ووافقه الذهبى . والحديث صحيح.

وله شاهد من حديث أبى هريرة ، أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٢٠٤ ، ٢٠٥).

(٤) وأول ما خلق من آدم عجب الذنب ، لقوله ﷺ « . . . وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة » مسلم (٢٩٥٥)، وفى لفظ آخر : « كل بنى آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق ومنه يركب » البخارى (٤٨١٤) ، ابوداود (٤٧٤٣) ، النسائى (٢٠٣٧) ، أحمد (٢/ ٣٢٢، ٤٢٨ ، ٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٦٦).

يقول ابن القيم فى قول الله عز وجل: ﴿ **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾. إن لفظ اليد جاء فى القرآن على ثلاثة أنواع: مفردًا، ومثنى ، ومجموعًا.

فالمفرد : كقوله: ﴿ **بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾ . والمثنى : كقوله: ﴿ **خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ .

والمجموع: كقوله: ﴿ **عَمِلَتْ أَيْدِينَا** ﴾ [يس:٧١] .

فحيث ذكرت اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد ، وعدى الفعل بالباء إليهما، وقال : ﴿ **خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ . وحيث ذكرها مجموعة أضاف الفعل إليها، ولم يُعَدِّ الفعل بالباء.

فهذه ثلاثة فروق . فلا يحتمل : ﴿ **خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ من المجاز ما يحتمله: ﴿ **عَمِلَتْ أَيْدِينَا** ﴾ فإن كل أحد يفهم من قوله: ﴿ **عَمِلَتْ أَيْدِينَا** ﴾ ، ما يفهمه من قوله: عملنا =

إذن فالتكليف أمر بفعل ونهى عن فعل، وبما أن آدم مخلوق بيد الله فهو مكلف تكليفاً مباشراً من الله، والتكليف بأمر واحد فقط وليس بأشياء كثيرة حتى ينسى هذا ويتذكر هذا.. التكليف بألا يأكل من شجرة واحدة وبألا يقرب هذه الشجرة حتى لا يغريه ثمرها بالأكل منها، فإذا نسى هذا التكليف الواحد، فما الذى يتذكره؟! ولذلك لم يكن يصح أن ينسى آدم المخلوق بيد الله مباشرة والمكلف من الله مباشرة، والمنهى عنه شئ واحد.

= وخلقنا، كما يفهم ذلك من قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وأما قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى، فكيف وقد دخلت عليها الباء؟، فكيف إذا ثنيت؟

وَسِرُّ الفرق: أن الفعل قد يضاف إلى يد ذى اليد، والمراد: الإضافة إليه. كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ و ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

وأما إذا أضيف إليه الفعل، ثم عدى بالباء إلى اليد مفردة أو مثناة، فهو مما باشرته يده. ولهذا قال عبد الله بن عمر: «إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثًا: خلق آدم بيده، وغرس جنة الفردوس بيده، وكتب التوراة بيده». فلو كانت اليد هى القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك، ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على كل شىء مما خلق بالقدرة. وقد أخبر النبى ﷺ، أن: «أهل الموقف يأتونه يوم القيامة، فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر، خلقك الله بيده» [البخارى ٤٧١٢ ومسلم ١٩٤]. وكذلك قال آدم لموسى فى محاجته له: «اصطفاك الله بكلامه، وخط لك الألواح بيده» وفى لفظ آخر: «كتب لك التوراة بيده» [البخارى ٦٦١٤ ومسلم ٢٦٥٢ وأحمد ٧٣٨١، ثلاثتهم عن أبى هريرة].

وهذا التخصيص إنما فهم من قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، فلو كان مثل قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ لكان هو والأنعام فى ذلك سواء. فلما فهم المسلمون أن قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ يوجب له تخصيصًا وتفضيلا بكونه مخلوقًا باليدين على من أمر أن يسجد له، وفهم ذلك أهل الموقف حين جعلوه من خصائصه، كانت التسوية بينه وبين قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ خطأ محضًا.

[الصواعق المرسلة ج ١ ص ٣٨ ـ ٣٩]. بتصرف بسيط.

* وفي أنفسكم أفلا تبصرون *

إن الله سبحانه حين ينثر الأدلة على عظمة خلقه وحكمته فى الكون، لا يعطيك الأدلة من خارج نفسك فقط، ولكنه يعطيها لك أولا من داخل نفسك حتى لو كنت معرضا عن آيات الكون، فإنك لا تعرض عما فى داخل نفسك، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾. [الذاريات: ٢١]

أى انظر إلى الآيات التى فى نفسك.. ترى عالما عجيباً يعرفه علماء التشريح، وعلماء وظائف الأعضاء وعلماء التحاليل، كل يوم يكتشفون شيئاً عجيبا فى تكوين الإنسان، بل إن الله سبحانه وتعالى جعل فى تكوينك ما تعرف يقينا أنه موجود ولكنك لا تراه، إنها الروح التى تعطى الحياة للجسد، لا يستطيع أحد أن ينكر وجود الروح لأنها دليل الحياة لأنها متى خرجت جاء الموت وانتهت الحياة، ومع أنك تعلم يقينا أن الروح فى جسدك فإنك لا تستطيع أن تدركها.. أين هى الروح؟ هل هى فى العقل الذى يفكر؟ هل هى فى الدم الذى يتدفق فى الشرايين؟ أم هى فى القلب الذى يدق؟ أم هى فى الجسد الذى يتحرك؟ إنها مخلوق لله داخل نفسك، ولكنك لا تعرف عنه شيئاً ولا تعرف ما هو مع أنه داخل جسدك.

فإذا كان سر الحياة الذى وضعه الله سبحانه وتعالى داخل جسدك لا تدركه، مع أنك تعرف يقيناً أنه موجود، فلا تتعجب إذا كان هناك خلق خارج جسدك لا تدركه ، وإذا حدثك الله سبحانه عن هذا الخلق، فآمن أنه موجود والدليل من داخل نفسك، والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر:٥٧]

ذلك لأنك أنت فرد ولك حيز فى الكون، والسماء سقف الكون كله،

فهى أكبر من خلق الناس، والخلق تم من الله سبحانه وتعالى دون أن يكون هناك شهود، فهو سبحانه الذى خلق ولم يستعن بأحد ، ولذلك فإن العقول التى تتعب نفسها فى البحث عن سر الخلق وبداية الكون، والسماء كان أصلها كذا والأرض كانت كذا، نقول لهم: إن الحق تبارك وتعالى قال: ﴿ **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** ﴾. [الكهف: ٥١]

أى أن الخلق لم يشهده أحد من الناس، فإذا أردنا أن نعرف كيف خلق الله السماوات والأرض، وكيف خلق الإنسان، فلنأخذ العلم من الذى خلقها، والحق تبارك وتعالى حين يقول للإنسان أنا خلقتك من طين ونفخت فيك من روحى ، فخذها عن الذى خلق ولا تحاول أن تفلسفها وأنت لا تعلم.

والله سبحانه وتعالى أخبرنا أن هناك من سيأتى ويقول : إن الإنسان خلق من كذا ، والسماوات والأرض خلقتا من كذا، فكون هؤلاء الناس حاولوا أن يبحثوا فى خلق الإنسان والسماوات والأرض ، وتخبطوا فى كلامهم ، وقالوا : إن الإنسان أصله قرد ، وأن الدنيا خلقت بطريقة كذا ، نقول لهم : إن الله سبحانه أخبرنا أنكم ستأتون ، وأخبرنا عن كلامكم وقال لنا لا تصدقوهم فهم لم يشهدوا الخلق ، وأسماهم المضلين فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** ﴾ والمضل هو الذى يضلك فى المعلومات ويعطيك معلومات خطأ. الله سبحانه قال سيأتى مضلون وسيقولون لنا: إن الإنسان أصله كذا والسماء أصلها كذا، هؤلاء لا يعلمون الحقيقة، ولم أستعن بهم فى خلق السماوات والأرض ولا فى خلق الإنسان، إنهم يقولون ما ليس لهم به علم.

لقد قال الله سبحانه وتعالى إنه خلق الإنسان من طين، وأثبتت التحليلات أن هناك ثمانية عشر عنصراً فى الأرض، وأن هذه العناصر هى الموجودة فى جسد الإنسان.

الله تبارك وتعالى حين تكلم عن الإنسان الذى خلق له هذا الكون وجعله سيدا له ، وسخر كل شىء لخدمته، هذا الإنسان المتمرد الوحيد فى الكون، مع أن الله سبحانه وتعالى كرمه ونعمه، وكل خلق الله يخدم الإنسان بلا تمرد، فالشمس لم تقل يوما لن أشرق على الإنسان، والمطر لم يتوقف عن النزول من السماء، والأرض تخرج لنا فى نظام شديد، كل شىء فى هذا الكون يخدم الإنسان فى نظام وقوانين لا تختلف ولا تتصادم أبداً، ولكن الإنسان نفسه هو الذى يتصادم مع بعضه البعض.

الله سبحانه وتعالى أخبرنا بأننا خلقنا من آدم ، نحن جميعاً ذرية آدم ، وآدم خلق من طين، ثم سواه الله ونفخ فيه من روحه، وقال للملائكة:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ . [ص: ٧٢]

هؤلاء الملائكة الذين شملهم أمر السجود هم المخصصون لخدمة آدم على الأرض، منهم المدبرات أمرا ومنهم الحفظة وغيرهم، الحق تبارك وتعالى أراهم الإنسان الذى سيكونون فى خدمته، وعرفوا منزلته العالية عند الله ، والله جل جلاله خلق الإنسان من تراب ووضع عليه ماء فصار طيناً، ثم تركه فصار صلصالا كالفخار، ثم نفخ فيه الروح.

هذه هى قصة خلق الإنسان الأول فإذا أراد الله سبحانه أن يهدم هذا الإنسان بالموت، فأول ما ينقض منه هى الروح. آخر ما دخل فى الجسم فتكون أول ما يخرج، لأن نقض الشىء على عكس بنائه، فأنت حين تبدأ بالبناء تبدأ بالدور الأول، ثم تعلو حتى تصل إلى الأخير . فإذا أردت أن تهدم هذا البناء تبدأ بالدور الأخير، آخر ما وصلت إليه فى بنائك، وأنت حين تذهب إلى الإسكندرية ، فإذا أردت أن تنقض هذه الرحلة وتعود إلى القاهرة، فإن أول مكان تغادره هو الإسكندرية، كذلك الموت وهو نقض للحياة، آخر ما دخل فى الجسد هى الروح تكون أول ما يخرج منه، ثم بعد ذلك يتصلب الجسد فيصبح كالفخار ، ثم يتعفن فيصبح كالحمأ المسنون ،

ثم يرم فيصير طيناً، ثم يخرج منه الماء فيصير تراباً ليرجع إلى الأرض مرة أخرى. إذن فالموت دليل على مراحل الخلق كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى بها، ونحن لم نشهد الخلق ولكن نشهد الموت كل يوم، فعندما أرى الموت أمامى على عكس بناء الحياة، أقول صدقت ياربى فيما أخبرتنا عن الخلق.

* كيف خُلقت البشرية مع آدم ؟ *

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ ، ولم يقل الحق سبحانه وتعالى: «ولقد خلقنا آدم ثم صورناه»، ومع أن المخلوق فرد ، إلّا أن الله سبحانه وتعالى استخدم صيغة الجمع لتشمل البشرية كلها، واستخدام الحق سبحانه وتعالى لكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ لترتيب إخبارى ، وليس ترتيب أحداث. فالإنسان مثلاً حين يتحدث عن أولاده ويشكو من عقوقهم ، يقول: لقد فعلت لهم وهم فى الجامعة كذا وكذا ، ثم فى التعليم الثانوى فعلت كذا وكذا، ثم فى الإعدادى لم أهملهم، ولكنى فعلت لهم كذا وكذا ، يكون هذا ترتيبًا إخباريًا ، لكن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾[1] دليل على أن البشرية كلها خلقت لحظة خلق آدم. . كيف؟

---

(١) عن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم ، فضرب كتفه اليمنى ، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم اللبن ثم ضرب كتفه اليسرى، فخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، قال : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى ». أخرجه أحمد فى المسند (٦/ ٤٤١) وإسناده صحيح.

وعن عبدالرحمن بن قتادة السلمى أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره ، وقال : هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالى ، فقال قائل يا رسول الله فعلى ماذا نعمل ؟ قال : على مواقع القدر » (أحمد فى المسند ٤/ ١٨٦) ، وابن سعد فى الطبقات (١/ ٣٠)، (٧/ ٤١٧) والحاكم فى المستدرك (١/ ٣١)، وقال الحاكم صحيح ووافقه الذهبى وهو كما قالا.

وعن هشام بن حكيم رضى الله عنه ، أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : « يارسول الله أنبتدئ الأعمال أم قضى القضاء ؟ فقال رسول الله : إن الله أخذ ذرية آدم من ظهره ثم اشهدهم على انفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ ثم نثرهم فى كفه فقال : هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار، أما أهل الجنة فميسرون لعمل أهل الجنة ، وأما أهل النار فميسرون لعمل أهل النار ». ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/ ١٨٩) وعزاه للبزار والطبرانى.

العلم الحديث يعطينا مؤشرات ، لذلك فالحيوان المنوى مثلاً ساعة يتم التلقيح مطمور فيه كل صفات الوراثة. ولذلك فإن علم الوراثة يستطيع أن يتنبأ فى بعض الأحيان عما سيصيب الإنسان من أمراض ، وما سيكتسبه من صفات بدراسة تاريخ آبائه وأجداده ، وفى بعض تصرفات الإنسان تجد من يقول لك: أبوه ـ الله يرحمه ـ كان كذلك ، أو جده ـ الله يرحمه ـ كان كذلك ، مع أن الأب أو الجد قد مات ، والابن حى .. نقول: إنه ساعة وجدت حياة الأب كان الجد حيا ، وساعة وجدت حياة الابن كان الأب حيا، ولو أن كلًّا منهما كان ميتا ما اتصل الوجود ، فأنا حى الآن ، وساعة وجودى فى رحم أمى كان ذلك من حيوان منوى حى من أبى ، وساعة وجود أبى فى رحم أمه كان من حيوان منوى حى من أبيه .. وهكذا ولو عدنا إلى الوراء لوجدنا أن كل البشر الآن فيه جُزَىْء حى من آدم ، فابن آدم أخذ استمرار الحياة منه ، وحفيده أخذها من أبيه ، وهكذا من عهد آدم سلسلة الحياة لم تتوقف فى أية حلقة من الحلقات ، بل كانت حياة من حياة من حياة.

إذن فحياتنا الآن متصلة بآدم، تماما كما تأخذ مادة حمراء مَثَلاً، وتضعها فى قارورة ترجها، كل قطرة فى القارورة فيها جزء من المادة الحمراء، فإذا أفرغت هذه القارورة فى برميل مملوء بالماء، كل قطرة من الماء فيها جزىء من المادة الحمراء. فإذا أخذت البرميل وألقيته فى البحر، فإن كل قطرة من ماء البحر فيها جزء مُتناهٍ فى الصغر من المادة الحمراء، لا تدركه العين. ولكن إن استطعنا أن نكبر الصورة ملايين المرات؛ فإننا ندركه. تماما كالصورة التى تؤخذ لمدينة كبيرة من الجو، وقد التقطوا صورة لمدينة نيويورك من الجو، عندما كانت صغيرةً بدت كبقعة سوداء. وعندما كبَّروها ألوف المرات استطاعوا أن يقرءوا أرقام السيارات، فالشىء قد يكون غاية فى الدقة لا يدركه البصر. فإذا استطعنا أن نكبره تحت المجهر رأينا أشياء لم نكن نراها. والتفاحة التى تأكلها الآن من أى بقعة فى العالم، فيها جزىء صغير من البذرة التى نبتت منها أول تفاحة، وهذه هى التى تعطيها الخواص العامة لما نسميه نحن صنف

التفاح. ثم بعد ذلك تختلف الأنواع، هذا تفاح أمريكى، وهذا تفاح لبنانى، ولكن هذا الجزىء الصغير من التفاحة الأولى موجود فى كل هذه الأنواع، وهو الذى يعطيها الصفات العامة .

إذن فكل واحد منا فيه جزىء من آدم مازال حيًّا لم يصبه الفناء، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ . [الأعراف: ١٧٢]

ولو أننا أعطينا العلم والخبرة ساعة خلق آدم ، وأخذنا من الحيوان المنوى الموجود فى ظهره ثم كبرناه ملايين المرات، وعرفنا سر الشفرة فيه لاستطعنا أن نعرف كل من سيأتى من البشر بعد آدم(١). وما دام الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم ، فقال: أى ربِّ، من هؤلاء؟. قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال : أى رب، من هذا؟. قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود، فقال: رب كم جعلت عمره؟. قال: ستين سنة، قال: أى رب زده من عمرى أربعين سنة. فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ . قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسى آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته». أخرجه الترمذىّ [٣٠٧٦]، وقال: هذا حديث حسن صحيح ، وصححه الشيخ الألبانى [٢٤٥٩] فى صحيح الترمذى وبنحوه الحاكم فى مستدركه [٣٢٥٧] ، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه .

الوبيص: البريق واللمعان.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : ان الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بـ (نعمان) يوم عرفة، وأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً قال : =

إبليس لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ . [الأعراف: ١١]

معناه: أنه قدر خلق كل واحد فينا وتكوينه، وأودعه فى هذه الحيوانات المنوية التى خلقت من ظهر آدم، وكل عملية الخلق بعد ذلك هى تكبير لهذه الجزيئات الصغيرة، حتى تصل إلى الحجم الذى يمكنها من إيجاد الحياة . ولذلك فإن الخلق أمور؛ الله يبديها ولا يبتديها، أى أنها كانت مطمورة فى ظهر آدم. ثم بعد ذلك يبدأ الله يظهرها فقط، ولذلك عندما يخاطب الله آدم، فهو يخاطب معه ذريته الموجودة فى ظهره. وهكذا نكون قد عرفنا لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى صيغة الجمع فى قوله: ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ .

= ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]

وهذا يؤيد الحقيقة العلمية التى تقول: الجزء يأخذ خصائص الكل، وهو ما ذهب إليه فضيلة الشيخ الشعراوى.

* آدم وحواء والنفس الواحدة *

كلمة «آدم» حينما نتكلم بها نجدها فى النحو مذكرة ، والمذكر يقابله المؤنث. لقد خلق الحق الأعلى الذكورة والأنوثة؛ لأن من تزاوجهما سيخرج النسل . إذن كان ولابد من التمييز بين النوعين للجنس الواحد؛ فالذكر والأنثى هما بنو آدم ، ومنهما ينشأ التكاثر ، لكن العجيب أن الله حين سمى آدم، ونطقناه اسمًا مذكرًا ، وسمى «حواء» ، ونطقناه اسمًا مؤنثًا، جعل سبحانه الاسم الأصيل الذى وجد منه الخلق هو «نَفْس» لقد قال الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ . [النساء: ١]

لقد سمى الحق آدم بكلمة ﴿ نَّفْسٍ ﴾ وهى مؤنثة .

إذن فليس معنى التأنيث أنه أقل من معنى التذكير ، ولكن التذكير هو فقط علامة لتضع الأشياء فى مسمَّياتها الحقيقية. إن الحق سبحانه يطلق على كل إنسان منا ﴿ نَّفْسٍ ﴾، وهى كلمة مؤنثة. وأن الحق قال عن آدم أنه ﴿ نَّفْسٍ ﴾ رغم أنه مذكَّر، إلاّ أنه سُمِّىَ بالمؤنث وهى ﴿ نَّفْسٍ ﴾ ولم يقل الحق «خلقكم من نفس واحد» بل قال : ﴿ وَاحِدَةٍ ﴾.

وحينما تكلَّم الحق سبحانه فى موضع آخر قال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ . [الحجرات: ١٣]

وكلمة ﴿ النَّاسُ ﴾ تعنى مجموع الإنسان . وهكذا نعرف أن كلمة إنسان

تطلق مرة على المذكر ، ومرة أخرى على المؤنث، إذن فالحق قد أورد مرة لفظا مذكرًا ، ومرة أخرى أطلق لفظًا مؤنثًا ، وذلك حتى لا نقول إن المذكر أحسن من المؤنث ، ولكن ذلك وسيلة للتفاهم فقط .

* كيف خلق الله حواء ؟ *

هل هى من ضلع آدم ؟ أم إنها مخلوقة بنفس أسلوب خلق آدم؟

إن الله سبحانه وتعالى حينما تعرض لقصة آدم عليه السلام فى سورة البقرة لم يوضح لنا كيف تم خلق حواء. ولكن الخالق الأعز الأكرم أدخل حواء فى خطابه لآدم عليه السلام: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾. [البقرة: ٣٥]

ويوضح الحق لنا أن كل خلق من خلقه إنما هو خلق من زوجين: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾. [النساء: ١]

وعلى ذلك فليس لأحد منا أن يقول: إن حواء كانت ضلعًا من آدم، لأنه قد يقول قائل وله الحق : ولماذا نأخذ معنى خلق حواء من نفس آدم بمثل هذا التصور ؟ ، ألم يقل الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾. [التوبة: ١٢٨]

ولصاحب مثل هذا القول حجة فى أن قول الحق تبارك وتعالى عن الرسول أنه مثل البشر وأنه من البشر ، هذا الرسول يرهقه أن يصيب أمته الضرر وهو حريص على هداية المؤمنين لأن فى قلبه رحمة وفى نفسه حنانًا . ولهذا فإننا نقول: إنه ليس من الضرورى أن يكون خلق حواء قد تم من جزء من آدم ؛

بل من الجائز أن تكون مخلوقة من مثل جنس آدم[1].

ولقد أفضت كثيرًا فى أحاديثى عن قصة آدم لأنها عماد العقيدة وهى العماد الذى تسير عليه العقيدة ، وهى الأساس الذى تم به بناء كل تكليف بـ «افعل ولا تفعل».

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره ، واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا** » . أخرجه البخارى رقم (٥١٨٥) و (٥١٨٦) .

وفى تفسير ابن كثير : أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة وقد صرح بذلك محمد بن إسحاق حيث قال : لما فرغ الله من معاتبة إبليس أقبل على آدم وعلمه الأسماء كلها فقال: ﴿ **يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ** ﴾ إلى قوله ﴿ **إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ قال : ثم ألقيت السنة على آدم فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم عن ابن عباس وغيره ، ثم أخذ ضلعا من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحمًا وآدم نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء فسواها امرأة ليسكن إليها ، فلما كشف عنه السنة وهبّ من نومه رآها إلى جنبه فقال فيما يزعمون والله أعلم: « لحمى ودمى وزوجتى » فسكن إليها فلما زوجه الله وجعل له سكنًا من نفسه قال له قبيلا ﴿ **يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ .

ويقال : إن خلق حواء كان بعد دخول آدم الجنة كما قال السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة : أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشى فيها وحشياً ليس له زوج يسكن إليه فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه فسألها ما أنت ؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت ؟ قالت: لتسكن إلىّ. قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه ما اسمها يا آدم ؟ قال: حواء ، قالوا: ولم حواء؟ قال إنها خلقت من شىء حىّ . قال الله تعالى ﴿ **يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا** ﴾ [تفسير ابن كثير ١/ ٧٦] .

وفى عمدة التفسير للشيخ شاكر قال : وسياق الآية يقتضى أن حواء خلقت قبل دخول الجنة . ويقال أن خلق حواء كان بعد دخول الجنة . [عمدة التفسير ١/ ١٣٥] .

فهناك تكليف من الله للإنسان ، وهناك شيطان يغوى ، وقد أفضت كثيراً فى إيضاح العلاقة بين التكليف والإنسان، وبين الشيطان والإنسان ، وأريد الآن أن أبحث بحثًا جديدًا خالصًا وهو مسألة خلق حواء . إن إيضاح خلق حواء جاء فى مقدمة سورة النساء حين يقول الحق جل وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾. [النساء:١]

إن حواء لو كانت ضلعًا من آدم لقال الحقُ جعل منها زوجها ، ذلك أن الجعل يعنى الأخذ من نفس المادة وصناعة ما يريد ، وهو الحق المالك لكل الكون .

إن قول الحق ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ هو تعبير عن خلق جديد مستقل ، إننا عندما نأخذ مسألة الخلق هذه فى ضوء الأفكار والمعتقدات الباطلة السائدة الآن كالشيوعية وغيرها ، فإننا نجد أن قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ كان المقصود به الرد على من سوف يأتون بعد زمن رسالة رسول الله ونزول القرآن الكريم . . هؤلاء الذين قالوا: إن الحياة قد نشأت بقانون الصدفة ، لكن هناك فيلسوفًا فرنسيًا هو « مونيه » أراد أن يرد على من قالوا: إن الحياة قد نشأت بقانون الصدفة. .تساءل ذلك الفيلسوف: كيف يكون أمر الخلق صدفة؟! وهو أمر محكوم بنظام دقيق وقوانين محكمة، أمن المعقول أن توجد صدفتان فى آن واحد ؟! صدفة تخلق رجلًا، وصدفة تخلق امرأة من جنس الإنسان ، وتختلف مع الرجل فى النوعية بحيث لو التقى الرجل بالمرأة لنشأ عن لقائهما جنين قد يكون رجلًا وقد يكون امرأة بعد أعوام تكاد تكون معروفة ، هل هذا الأمر المنظم بدقة يمكن أن يكون صدفة ؟! هل يمكن لهذا النظام الدقيق الذى أوجد اللقاء بين الرجل والمرأة على لذة ومتعة واشتهاء ليكون بهذا اللقاء عمران الكون على أسس وقواعد محسوبة من التكليف. . هل

يمكن أن يكون ذلك الأمر صدفة؟ إذا كانت الصدفة تملك هذا القدر من التنظيم الدقيق فأنا أسميها الله .. هكذا يقول الفيلسوف الفرنسى .إنه يرفض أن يخرج مع الملاحدة الذين يرفضون نظام الكون والخضوع لقوانين التكليف فيصل بالاستنباط العقلى إلى قدرة الخالق جل وعلا.

وعلى هذا يمكننا أن نفهم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى خلق حواء مثلما خلق آدم، وكما أوضح لنا الحق أنه خلق آدم من طين .. فكذلك خلق حواء . ولنا أن نفهم أن كلمة زوج لا تعنى الرجل فقط ، ولكنها أيضًا تعنى المرأة .. فالمرأة زوج.. والرجل زوج ، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:
﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. [الذاريات: ٤٩]

إن كلمة زوج تطلق على الرجل عندما يتزوج ، وتطلق أيضًا على امرأته، تمامًا كما أن كلمة توأم تطلق على الوليد الذى يشاركه وليد آخر فى نفس الرحم ويسميان توأمين ، ذلك أنه من الخطأ الشائع أن تقول زوج على الرجل والمرأة معًا ، إن المرأة والرجل معًا هما زوجان.

وهكذا نفهم من سياق ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى أن حواء قد خلقها الله خلقًا مستقلاكما خلق آدم[1] . ولنا أن نتأمل حكمة الخالق الذى ربط الرجل

(١) يقول صاحب الكشاف : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يا بنى آدم ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ . فرَّعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم . فإن قلت : علام عطف قوله : ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ؟ ، قلت : يعطف على محذوف كأنه قيل : من نفس واحدة ، أنشأها أو ابتدأها وخلق منها زوجها، وإنما حذف لدلالة المعنى عليه .
والمعنى : شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها ، وهى أنه أنشأها من تراب وخلق زوجها حواء من ضلع من أضلاعها .
ويقول الخازن فى لباب التأويل فى معانى التنزيل : قوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ . يعنى : من أصل واحد وهو آدم ابو البشر عليه السلام ، وقوله : ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعنى حواء ، وذلك أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام ألقى عليه النوم ، ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى وهو قصير ، فلما استيقظ =

والمرأة برباط تحمل مسئولية عمران الكون ، بأن تبدأ المسئولية بينهما برغبة ولذة ، ثم تعب وتضحيات فى سبيل الأبناء ، إن التأمل للحظة لقاء الرجل بالمرأة فى فراش الزوجية والاستمتاع الحسى فى حدود أوامر الله ، هذا التأمل يجعلنا نقول: إنه لولا عطاء الحق لنا من انسجام وحنان ومودة وترابط ولذة، لما كان قادرًا على تعمير الكون . إن قمة اللقاء الذى يحدث منه التوالد مصحوبة بلذة، وذلك من حكمة الخالق جل وعلا حتى لا يهرب الإنسان من تعمير الكون بالذرية التى تخلفه عملًا فى الأرض . إننا يمكن أن نلاحظ القول البسيط الذى يقوله فلاح من ريف مصر عندما يرهقه أحد الأبناء بالمطالب أو بالسلوك الذى يرفضه الفلاح ، إن الفلاح يقول: لعنها الله تلك الليلة التى جئت منها . . كانت ليلة سوداء. إن الريفى البسيط يعود بذكرياته إلى ليلة الإنجاب ، من المؤكد أنه سعد بها هو وزوجه ولكنها أنجبت له ابنًا قد يرهقه بالمطالب أو بالسلوك الذى لا يرضاه.

= رآها جالسة عند رأسه فقال لها : من أنت ؟ . قالت: امرأة. قال: لماذا خلقت ؟ . قالت : لتسكن إلىَّ ، فمال إليها وألفها لأنها خلقت منه.

ويقول ابن كثير فى تفسيره : ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهى آدم عليه السلام ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهى حواء ، عليها السلام ، خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم ، فاستيقظ فرآها فأعجبته ، فأنس إليها وأنست إليه . وقال ابن أبى حاتم عن ابن عباس: « خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها فى الرجل ، وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته فى الأرض فاحبسوا نساءكم » .

وقال فى التفسير الوسيط : ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هى نفس آدم عليه السلام وليس هناك سوى آدم واحد ، وهذا ما عليه جمهور المحدثين والفقهاء . ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى وخلق من هذه النفس الواحدة زوجها : حواء .

ويقول ابن القيم فى كتابه روضة المحبين ص ٨٦ : قول الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ﴾ . [الأعراف:١٨٩]

فجعل علة السكون أنها منه .

إن الذين يقولون: إن الخلق تم صدفة ويتم بالصدفة هم جهلاء بحقيقة العلم وبجوهر الإيمان ، أى صدفة تلك التى تملك القدرة على خلق بويضة من مبيض المرأة تنزل إلى الرحم فى وقت لا يعلمه إلا الله وحده ؟!، ويأتيها الإخصاب من حيوان منوى خلقه الله ضمن ملايين الحيوانات المنوية فى الكيس الحامل لهذه الحيوانات بالجهاز التناسلى للرجل . ثم يحدث الإخصاب وتكوين العلقة فالمضغة وكساء العظام لحمًا، ثم إنشاء الإنسان ليولد ليكون من الميلاد ذكر وأنثى وشعوب وقبائل ، لذلك لا يمكن أن تكون صدفة لأن الصدف لا نظام لها، أما خلق الإنسان فله نظام حكيم وضعه إلهٌ قادرٌ خالقٌ، قدر لكل خلق زمانًا ومكانًا وهدفًا ،إنه يخلق على هدى وعلى قدر.

إن الإحصاء المادى هو دليل إيمان بالله . إن التعداد السكانى يزداد، ولو أردنا معرفة تعداد سكان الأرض فى القرن السابق لوجدناهم أقل بكثير من زماننا هذا. ولو عدنا إلى الوراء لأكثر من قرن لوجدنا التعداد ينقص أكثر ، ولو استمرت عملية قياس السكان بالقياس إلى الأزمان الماضية فلا بد أن نصل إلى آدم وحواء ليثبت صدق قول الله جل وعلا: ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون** ﴾. [الذاريات: ٤٩] هذا فى أمر خلق آدم وحواء.

وفى سورة البقرة يقص علينا ربنا تبارك وتعالى قصة الخلق الانسانى فيقول جل وعلا :

﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُون** ﴾. [البقرة: ٢٣]

هنا تكون بداية التأمل ؛ هى قول الحق: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ** ﴾، إن

التنبيه هنا لكل قارئ للقرآن الكريم أن له خالقًا وربًا، هذا الخالق الرب اسمه ﴿ الله ﴾ ، إنه اسمٌ لواجد الوجود المالك لطلاقة القدرة فى الكون والخلق، ومن رحمة الله بنا أنه أخبرنا بوجوده واسمه لأن اسم ﴿ الله ﴾ لا يدركه العقل، إن العقل يدرك فقط وجود قوة هائلة وراء الكون ، وإن الكون بإبداع صنعه لا بد أن وراءه قوة هائلة.

ومن عجائب قدرة الله أنه لا يوجد شيء أو كائن له اسم الله إلا ﴿ الله ﴾ سبحانه وتعالى. إن الناس يألفون تسمية الأشياء والتسمية عمومًا تأتى بعد أن يوجد المعنى، ولذلك جاء اسم الله دليلاً على القوة الواجدة للوجود ، وبعد أن أحس الإنسان بالقوة العظمى الخالقة القادرة ، أعلمه الله تعالى باسمه، كما أن وجود اسم ﴿ الله ﴾ فقط على ألسنة العباد لهو دليل على وجود الله ذلك أن المعدوم لا لفظ له ولا اسم له فى اللغة . ومن طلاقة قدرة الخالق أن جعل لاسم ﴿ الله ﴾ مقابلًا فى كل لغة من لغات البشر ، فهل كان العقل البشرى يعتقد أن يكون هناك اسمٌ على عدم ؟! إن من صفات الإنسان ومميزاته أنه يطلق الأسماء على الموجود فقط ، إذ لابد أن يعلم أن اسم ﴿ الله ﴾ تعالى علم على موجود ، هذا الإنسان الذى علم بفطرته الإيمانية وبقية من دين أن الله تعالى هو واجد الوجود، وأن اسمه تعالى ﴿ الله ﴾ علم على ذاته سبحانه.

ومن عظمة الخالق جل وعلا ، أن اسم الله لم يطلقه أحد من البشر على أى كائن. على مر تاريخ البشرية لم يجرؤ أحد على أن يطلق اسم ﴿ الله ﴾ على مولود أو أى كائن، لقد علَّم الخالق البشر الذين هم من خلقه ومن بديع صنعه أن اسمه منزه عن أن يكون لأحد غيره سبحانه وتعالى، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾. [مريم: ٦٥]

إن الخالق الكريم يوضح بالتحدى أن أحدًا من البشر لا يجرؤ على أن يطلق اسم الله على أى كائن أو مخلوق، إنما هو اسم منزه .

إن تأمل الكون الواسع يكشف لنا أن أحدًا لم يجرؤ على أن يسمى ابنه أو أى مخلوق آخر باسم الله تعالى.

ومن العجيب أن المؤمنين بالله والكافرين أيضًا لا يفعلون ذلك، قد يقول قائل: إن المؤمنين بالله يعرفون تنزيه اسمه عن أن يطلق على كائن آخر ، فما بال الكافرين بالله والذين ينكرونه ، ألا يجرؤ واحد منهم على أن يقول سأسمى ابنى أو أخى بهذا الاسم ؟، لصاحب مثل هذا القول نقول: إن أحدًا لا يجرؤ على ذلك لا بسبب القوانين ، ولكن بتنزيه الله لذاته حتى بين الكافرين والملحدين ، فلو كان الكافرون متيقنين أن الله غير موجود ، لأطلقوا اسمه على المخلوقات أو البشر ، لكن الخالق العزيز الكريم يثبت للكافرين أن كفرهم لا أساس له فلا يجرؤ واحد منهم على أن يطلق اسم «الله» على أى كائن ماكان ، إن الرسول الكريم وضع هذا القول أمام الكافرين به ونزل به الحكم السماوى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾. [مريم: ٦٥]

ولم يوجد أحد فى عصر الرسول من الكافرين جرؤ على أن يطلق اسم ﴿ الله ﴾ على بشر ، لم يجرؤ أحد بعد مجىء الرسالة المحمدية أن يسمى مخلوقًا باسم الله. وذلك دليل على أن الله قد حكم حكمًا لا يجرؤ حتى الكافر على أن يتعداه.

ولنا فى تأمل عبارة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ ﴾ [البقرة: ٣٠] درس أن الموقف هنا يوضح الخلق والإنشاء والتربية والإيجاد على قدر ، لذلك يقول الحق كلمة ﴿ رَبُّكَ ﴾ ليوضح أنه رب كل شىء . أما عن الملائكة فهذا هو الإخبار الأول عنهم فى الترتيب المصحفى ، لقد خلق الله الملائكة وأخبرنا بذلك ووصفهم فى أكثر من موضع بالقرآن الكريم ، بل وحدد أنواعًا منهم ،

إنهم: ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]

ومنهم الحفظة[١] ، ومنهم الرقيب على كلمات وأفعال البشر[٢] ، ومنهم المدبرات أمرًا[٣] تلك الملائكة المسخرة لأقدار أرادها . والملائكة غيب كالجن تمامًا ، إنهم أجناس تختلف فى تصويرها وشكلها ومادتها عن الإنسان، والملائكة غيب لا نراه ولا بد أن نؤمن بوجودهم كما أمرنا الله. ومن الناس من يقول: إن الملائكة هم الأسباب أو المسببات ، لهؤلاء نقول: أتظنون أنكم تسهلون الأمر على الخالق؟ إن الخالق لم يطلب من أحد أن يسهل عليه أى شيء لأنه القاهر فوق عباده من الإنس والجن والملائكة .

إن الملائكة هم من خلق الله ومن جنس يختلف عن البشر وعن الجن[٤] ، وعلى الإنسان أن يؤمن بوجودهم إذا كان مؤمنا ، فليس كل ما خلق الله يحس به الإنسان ، إن الإنسان لم ير الميكروب أو الفطريات أو الإلكترون والنيوترون ، ولم يصل إلى رؤية هذه الأشياء المخلوقة إلا بعد التقدم العلمى الهائل .

والعين المجردة أعجز من أن ترى مثل هذه الكائنات الدقيقة. إن كثيرًا من مخلوقات الله لا يراها الإنسان بعينه المجردة . فكيف نستبعد على الخالق أن يخلق الشيطان من نار؟ ولهذا فعندما يقول الحق بالبلاغ عنهم فى القرآن الكريم إنه خلق الملائكة فعلينا أن نصدق ذلك، ذلك أن وجود ما خلق الله لا يترتب عليه أن ندرك الوجود بإمكانياتنا العادية. ودليل هذا أن الواحد منا

(١) لقوله تعالى ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] ، ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]

(٢) تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾. [ق: ١٧، ١٨]

(٣) تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾. [النازعات: ٥]

(٤) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم ». أخرجه مسلم [٢٩٩٦].

لا يدرك روحه وهى بداخله لا يعرف أين موقعها بالضبط ويحسها فى كل حركة وكل نفس هواء وكل شربة ماء وكل قدرة على التفكير ، دليل ذلك أننا لا نحس بالروح فى الميت ؛ بل إنه بعد وقت من خروج الروح وعودتها إلى بارئها يمر بمراحل من التعفن والتحلل.

وعندما نتأمل قول الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾. [البقرة: ٣٠]

عندما نتأمل هذا القول نجد أنه يتضمن:

أولًا : بلاغًا من الله للملائكة أنه جاعل فى الأرض خليفة.

ثانيًا : أن الملائكة لم يسألوا عن الأرض كأنهم على علم مسبق بها، ولم يسألوا عن الخليفة بل فهموا مراد الله بقوله عن الأرض والخليفة.

ثالثًا : إن استدراك الملائكة كان على الإنسان نفسه الذى أخبرهم الله أنه خليفته، فهم يرون أنه سوف يفسد فى الأرض ويسفك الدماء. ومن ذلك نستنبط أن الملائكة كانوا على علم بوجود الأرض. ومن ذلك نستنبط أيضًا أن الملائكة رأت خلقًا آخر عاش على الأرض وأفسد فيها، فكأنهم عاشوا التجربة من قبل ولكن عليهم أن يذعنوا لأمر الله الذى يأمر فلا يعصيه أحدٌ، وقد سبق أن قلت وأوضحت إن الله عندما أخبر الملائكة فهو لم يخبر كل جنس الملائكة ، إنما أخبر هؤلاء الملائكة الذين لهم صلة بخدمة الخليفة القادم على الأرض ومن لهم قدرة خلقها الله لهم على التدبير أو مثل «المدبرات أمرًا» أو مثل "الرقيب" ،هؤلاء الأنواع من الملائكة أخبرهم الله بأنه ﴿ **جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾. [البقرة: ٣٠]، لأنهم سوف يخدمون هذا الخليفة وسوف يكونون مسخرين لخدمته.

ولكن هناك نوع من الملائكة لم يخبرهم الله بخلق الإنسان لأنهم لا صلة لهم بالمخلوق ، إنهم المهيمون الذين لا عمل لهم إلا التسبيح والعبادة . إذن كان إخبار الله للملائكة الذين سوف يقومون بخدمة الإنسان ، لذلك أمرهم بالسجود ، ومعنى السجود هو منتهى الخضوع التسخيرى ، ويستكبر إبليس ولم يسجد ، ويسأله الخالق الأكرم :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ . [ص: ٧٥] ؟، ونفهم من تساؤل الخالق أن هناك مخلوقات أخرى من الملائكة هى الملائكة ﴿ الْعَالِينَ ﴾ أى الذين لم يشملهم أمر السجود . ونعرف أن رفض الشيطان للسجود هو للاستكبار.

وعندما نتأمل قول الحق: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] فإن التأمل لكلمة ﴿ خَلِيفَةً ﴾ يوضح لنا أن الإنسان إنما جاء «ليخلف» خلقًا سبقوه. ونفهم أيضًا أن الخليفة هو من استخلفه الله فى الأرض وجعل الأشياء تنفعل له ، يوقد النار فتشتعل ، يزرع الأرض فتنبت ، يستأنس الحيوان فيأنس له الحيوان ، يستخدم الأنعام فى الطعام والتنقل ويأخذ منها اللبن ليشربه والصوف ليغزله فتخضع الأسباب للإنسان ، وغفل الإنسان عن حقيقة وضعه على مر التاريخ ، نسى الإنسان أنه مستخلف فى الأرض، وظن الإنسان أنه الأصل الأصيل فى الكون ، وخضع الإنسان لوهم أنه خالد فى الأرض وليس مستخلفًا فيها له ميلاد وموت.

وظن الإنسان أن طاعة الحيوان له وتسخير الأرض له وسيطرته على الجماد والنبات ، وظن الإنسان أن هذه هى مقدمات الخلود، نسى الإنسان أنه مخلوق من علق بواسطة خالق كريم يقول فى كتابه العزيز :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ . [العلق: ١-٨]

نسى الإنسان أنه عائد إلى الله، وأن علم الإنسان أتاه من الله، وأن مصير الإنسان إلى الله ، نسى الإنسان ذلك فطغى. نسى الإنسان ذلك فاستغنى، ومن هنا كانت كارثة غفلة الإنسان عن أنه خليفة فى الكون ، ونسى الإنسان أنه خليفة ينجب من يخلفه من بعده ، أى أنه ليس خالدًا على هذه الأرض . وكأن الملائكة وهى تستوضح[1] أمام خالقها كانت تعلم ما الذى حدث من قبل .

ولكن الخالق الأكرم يقول ردًّا على استعلامهم : ﴿**إنى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾. إن الخالق يوضح لملائكته أن علمهم محدود بحدود ، ولكن علم الخالق لا حدود له ، لذلك فلا اعتراض لعلم مخلوق على علم الخالق، إنها قدرته جل وعلا . يخلق من الطين مخلوقًا يعلمه فيصبح له من العلم ما لا يعلم الأعلى منه ، فليست العناصر هى التى تحكم ، ولكن الحكم لله الواحد القهَّار ، الخالق للعناصر ، والصانع من هذه العناصر ما يريد. إن أراد من العناصر إنسانًا فلسوف يكون إنسانًا . وإن أراد من هذه العناصر شيطانًا فلسوف يكون الشيطان، وتخضع الملائكة فتقول: ﴿**سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا**﴾. إن الواحد القهار هو الذى يعلم وهو الذى يضع حدودًا لمن يعلم وفى أى إطار وبأى أسلوب.

ويُعلِّم الخالق جَلَّ وعَلا آدم الأسماء:

﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى**

---

(١) يقول ابن كثير فى تفسيره [١/ ٦٧] « قول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبنى آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول ، أى لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه .. وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك ».

أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٣١-٣٣]

ولنا عند تعليم الأسماء لآدم وقفة لنشرح فيها عددًا من الحقائق: البعض يتساءل: هل تعلم آدم الأسماء فقط أم تعلم الأفعال والحروف أيضًا ؟ وعلى هؤلاء نجيب: إن تعلم الأسماء يعنى تعلم الأسماء والأفعال والحروف ؟ إن كل تعلم يبدأ من الأسماء فكلمة الاسم تطلق على مضمون الفعل ومضمون الحرف ، إن الاسم هو الموجود حتى على الحروف ، إن التعليم يبدأ بالنسبة للإنسان عن طريق معرفة مطابقة الكلمات على الأشياء. أى أن التعليم فى كل اللغات يبدأ من تعلم الأسماء. وهكذا كانت اللغة هى إعانة لآدم ولمن جاء من نسله من بعده ليستخدموا اللغة والمسميات ويتعرفوا على بديع صنع الله فى الكون ، إن اللغة التى علمها الله للإنسان هى التى جعلته يتحرك ويتقدم ويكتشف . إن اللغة هى التى تجعل الوليد يحاكى أباه ويتعلم منه . هكذا نعرف أن المعلم الأول كان هو الخالق الأكرم ، وجاء من بعده من نقل لنا قدرته عز وجل التى وهبها لنا من خلال أبينا آدم حين قال الحق : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ . وكأن القرآن الكريم قد جاء رحمة بنا ليوضح لنا بالأدلة كيف خلق الله هذا الكون . وكيف أوجد الله هذا الوجود.

❊ وعلم آدم الأسماء كلها ❊

الحق سبحانه وتعالى خلق آدم بعد أن خلق الكون وبقية المخلوقات. ونحن لا ندَّعى أن آدم هو أول من عمَّر هذا الوجود .

وما آدم فى منطق العقل واحد ولكنـــه عنـــد القيـــاس أوادم

فمن الممكن أن نقول إن هناك خلقا كثيراً قد سبقوا آدم فى الوجود ، ولكن آدم هو أول الجنس البشرى . وعندما خلقه الله علَّمه الأسماء كلها حتى يستطيع أن يسير فى الوجود. فآدم لو لم يكن قد تعلَّم الأسماء لما استطاع أن يتحدث مع ولد من أولاده، ولما استطاع على سبيل المثال أن يقول لابن من أبنائه : انظر هل أشرقت الشمس أم لا . إذن كان لابد لآدم من معرفة الأسماء كلها ، ولابد أن هناك من علَّمه ايَّاها؛ لأن اللغة بنت المحاكاة، فلا أحد يستطيع أن يتكلم إلَّا بعد أن يكون قد سمع . الواحد منا سمع من أبيه، الآباء سمعوا من الأجداد؛ وتتوالى المسألة إلى أن تصل إلى آدم ، فممن سمع آدم حتى يتكلم؟، إنها مسألة يجب أن يعترف بها كل إنسان عاقل، فمن الذى أسمع آدم ليتكلم بأول كلمة ؟ لابد أنه الله .

إذن قول الحق فى القرآن : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾. (1) [البقرة:31]

---

(1) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « يجمع الله المؤمنين يوم القيامة، كذلك فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أما ترى الناس ؟ خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته، وعلَّمك أسماء كل شىء ، اشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول : لست هناك ويذكر لهم خطيئته التى أصاب - ولكن ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . . الحديث » أخرجه البخارى (٤٤٧٦ ، ٦٥٦٥ ، ٧٤١٠ ، ٧٤٤٠ ، ٧٥١٠) واللفظ له، ومسلم(١٩٣).

هو كلام منطقى بالإحصاء الاستقرائى . ونجد أن هذه الكلمة لها منتهى الصدق. إن الواحد منا عندما يُعلِّم ابنه الكلام ، فهو لا يعلِّمه الأفعال ، لكن يعلمه الأسماء، أما الأفعال فلا أحد يعرف كيف تعلمها . إن الواحد منا يعلم ابنه أسماء الأشياء، يقول الإنسان لابنه: هذا كوب، وهذه منضدة ، وذلك طبق، وهذا طعام ، لكن لا أحد يقول لابنه «شرب» معناها كذا ، و «أكل» معناها كذا . إن الذى يتعلمه الطفل أولاً هو الأسماء ، هذه هى الخميرة الأولى، وبعد ذلك تأتى المزاولات والممارسات ليتعلم الإنسان الأفعال . إذن الحق سبحانه وتعالى قد ترك لنا فى كونه أدلة عظيمة تناسب عظمة خالق هذا الكون .

الحق سبحانه وتعالى قد جعل فى النفس البشرية مناعة ذاتية ، فساعة توجد فى الإنسان شهوة لأى لون سواء الجنس أو المال أو الجاه . فقد يحاول الوصول إليها بأى طريق، لا يمنعه من ذلك إلَّا الضمير الذى يعترض عليه ويوجهه إلى الطريق الصحيح . وهذا الضمير هو خميرة الإيمان، وهو الذى يلوم الإنسان إن أقدم على معصية ، هذا إن كان من أصحاب الدين ، ولنا أن ندقق فى هذا القول القرآنى لأنه يحمل الوصف الدقيق للنفس البشرية فى حالتها المتقلبة ، فها هو قابيل يتحدث عنه القرآن : ﴿ **فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ** ﴾ [المائدة:٣٠] ، ومن بعد ذلك قتل قابيل هابيل . .ثم ماذا حدث؟

لقد هدأت النفس من سعار الغضب وسعار الحقد، وانتقل قابيل إلى حالة أخرى غير التى كان عليها عندما طوعت له نفسه قتل أخيه، هذه الحالة يصفها الله تعالى فى القرآن : ﴿ **فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ** ﴾ [المائدة:٣١]. لقد غواه غضبه إلى أن قتل أخاه فأفقده الحياة، ثم عز عليه أن يرى الغراب يوارى جثة غراب آخر، وهو لا يعرف كيف يوارى جثمان أخيه . لقد انتقل بالندم من مرحلة أنه لم يرْعَ حق أخيه فى الحياة، فأراد أن يرعى حق مماته ، إذن فالنفس البشرية، وإن كانت لها شهوات إلّا أن لها اعتدالاً مزاجيًا . وهذا

الاعتدال المزاجى يتدخل بالندم عندما يرتكب الإنسان إثمًا أو معصية .

لنتأمل لقطات تعليم آدم الأسماء كلها ، وتساؤل الملائكة عن الخلق لآدم، وما أثر ذلك على الحياة منذ الأزل وإلى النهاية من تعليم الخالق للمخلوق للغة . ولنا أن نجيب عن التساؤلات القائلة : هل تعلم آدم أيضًا أسماء المخترعات التى توصل الإنسان إليها عبر تاريخه ؟ ولنواصل المزيد من التأمل لقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾. [البقرة: ٣٠]

إن الخالق الأكرم يرد على استعلام الملائكة عن الخلق الجديد الذى قد يسفك الدماء؛ بينما هم -الملائكة - يسبحون بحمد الله . وأجاب الحق تبارك وتعالى: ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾.

وبعد ذلك أراد الخالق أن يعطى الدليل المادى على أنه القادر المطلق القدرة، فخلق من العنصر الأدنى - الطين - ما يفوق العنصر الأعلى وهو الملائكة . وفى ذلك الخلق من الله للإنسان ، إنما هو دليل للإنسان على الفارق المعجز بين قدرة الله التى لا حدود لها ، وقدرة الإنسان المحدودة. إن كل خلق البشر وإبداع البشر فى مختلف الصنائع ، هذا الإبداع الإنسانى لا يمكن الإنسان من أن يجعل من الأدنى شيئًا أعلى ، إن تقدم العلوم إنما هو نابع من إرادة العليم الحكيم عندما علّم الإنسان ما لم يعلم . ولنا فى أولى آيات القرآن الكريم نزولاً دليل واضح من سورة العلق: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾.

[العلق: ١-٥]

وبعد أن يخبرنا الحق بالتساؤل الصادر من الملائكة عن خلق الإنسان وعن طلاقة قدرته فى أنه خلق الإنسان وهو عنصر أدنى . يخبرنا الخالق الأكرم

بما أعطاه الله للإنسان من قدرات: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ . وهكذا نتعرف على أن المسميات قد تم خلقها وتلقت الملائكة العلم بأسماء المسميات من آدم ، ونتعرف على المنشأ الأول للكلام ، إن البعض يتساءل عن وسيلة تعليم الخالق الأكرم لآدم عليه السلام ، ولنا أن نعرف أن تعليم الخالق يختلف عن تعليم المخلوق ، إن الخالق يُعلِّم إلهامًا ، والمخلوق يُعلم «معالجة» .

الخالق يقذف فى قلب آدم أسماء المسميات كلها ، وبكل ما فى الكون من أسماء لمخلوقات ، بينما المخلوق يُعلِّم بعضه بعضا عن طريق المعالجة .

إن المشهد الأول لآدم مع الملائكة هو أن المسميات كلها قد تم إيجادها وخلقها ، وقذف الله بالإلهام كل الأسماء فى قلب ووجدان وإدراك آدم ؛ بدليل أن «المسميات» قد تم عرضها على الملائكة فلم تعرف أسماءها ، ولم تتعرف الملائكة على المسميات، وذلك من طلاقة قدرة الله عندما ألهم آدم بـ «كن عالـمًا بالأسماء» فتعلم آدم الأسماء ، وعند تلك النقطة يتساءل البعض عن السر فى اختلاف اللغات من مكان إلى آخر رغم أن الخالق الأكرم قد علم آدم أسماء المسميات الموجودة فى الكون، لماذا إذن هناك ألوان من اللغات والألسنة؟ والإجابة هى : إن تنوع فترات التاريخ ، وتتبع انتشار الإنسان على الأرض يجعلنا نجد أن كل مجموعة من اللغات تقترب من بعضها لتكون لغة واحدة ؛ فالفرنسية والإنجليزية والإيطالية مأخوذة عن اللاتينية. والعبرية والسريانية لهما علاقة باللغة العربية . بل إن اللهجات التى يتكلم بها العالم العربى تتنوع فى اللغة الواحدة .

ولو أن العرب استسلموا لمحاولات المستغربين ، وهم أبناء الأمة العربية الذين تعلموا فى خارجها،وكتبوا لغتهم بالحروف اللاتينية مثلاً لاندرست اللغة العربية من وطن عربى إلى آخر ، ولو استسلمت أوطان العرب

إلى المحاولات الساذجة التى تحاول أن تجعل من اللهجات المحلية فى كل بلد لغة أساسية ؛ لضاعت معالم اللغة العربية وصارت كل لهجة لغة منفصلة عن اللغة الأم ، ولأصبحت تلك اللغات مختلفة تمامًا عن أصولها العربية الفصيحة .

ويلاحظ الفرد منا أنه إذا سافر إلى أى بلد عربى فقد يتعذر عليه أن يفهم لهجة أهل ذلك البلد . فمن الصعب مثلاً على المصرى أن يفهم للوهلة الأولى اللهجة العامية الجزائرية ، ولكن عندما ينطق المصرى والجزائرى معا لغة القرآن الفصيحة؛ فإن التفاهم يكون كاملاً وناضجًا .

إن القرآن الكريم قد ربط العرب باللسان الفصيح ولهذا يكون من السهل على أبناء أمة القرآن أن تتفاهم بلغته.

وإذا سأل سائل : ولماذا لا يكون الكلام فى كل الدول العربية بالفصحى ؟ فإن الإجابة عن هذا التساؤل هى أن فترات الوهن التاريخى الذى مر على العرب خلال القرون السابقة، فانعزلت الدول عن بعضها ، ومضى كل مجتمع يتناول اللغة كمظهر اجتماعى ، وسقط التفاهم باللغة الناضجة الفصيحة وحل محل تلك اللغة لهجات مختلفة. ومن فضل الله على المسلمين أن ربطهم الدين بالقرآن الكريم فصار عاصمًا للغتهم الأم من أن تتحول إلى لغات متعددة ، وهنا نذكر قول الحق جلّ وعلا: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف:٣] ويقول الحق أيضًا: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤] وكأن الحق تبارك وتعالى يذكّر النبى ﷺ بحال ومستقبل أمته، وكيف يعصمهم القرآن من الشتات اللغوى ، وكيف أن القرآن سيظل عاصمًا لأمة القرآن من ضياع جذورهم بلغتهم، لغة القرآن.

وهكذا نجد أن كل النزعات «الذاتية» فى كل بلد عربى لا تنمو إلى الدرجة التى تنفصل فيها اللهجات لتصبح لها قواعد للنحو والصرف وغير ذلك من ضرورات قيام اللغة المنفصلة عن اللغة الأم ،كما حدث فى اللغة الانجليزية

والفرنسية ، وكما يحدث الآن من انفصال بين اللغة الإنجليزية المستخدمة فى إنجلترا واللغة الإنجليزية المستخدمة فى أمريكا، إن اللغة الإنجليزية فى أمريكا تضع الآن قواعد خاصة بها .

ونحن فى البلاد العربية نسمع من حين لآخر بعض الأصوات التى تنادى بالتدوين بالعامية. وهذا يعنى نوعًا من الخصومة غير الواعية بالحق الطبيعى للشعوب العربية فى أن تظل لغة القرآن هى اللغة الأولى السائدة فى العالم العربى.

إن خصوم القرآن وخصوم الإسلام يريدون ذلك ؛ يريدون تحويل اللهجات المحلية لتصبح لغات منفصلة ، وبهذا تنفصل البلاد العربية عن بعضها البعض بحواجز من اللغات المختلفة. وهكذا يظن الحاقدون على الإسلام أنهم قادرون على فصل العرب عن لغة القرآن الكريم ، إن لغة القرآن تحفظ مقومات أمة العرب فلا عفوية فيها ولا عوج فى النطق، إن من فضل الله على المسلمين أن نزل القرآن بمكة والمدينة أى بالجزيرة العربية ، وأخذ القرآن من جمال الخط العربى المخطوط فى تركيا هذا التسجيل الخطى العربى الذى بين أيدينا مطبوعاً ، وحفظ الله القرآن الكريم بشعلة الإيمان المتجدد فى الدول العربية وفى المعاهد والجامعات الإسلامية وفى الصدارة الأزهر الشريف الذى يحفظ علوم القرآن الكريم ، ولهذا فعلينا أن ننتبه إلى أى دعوة لهدم الرباط اللغوى الذى يربط البلاد العربية ، يجب أن ننتبه إلى دعوات الهدم التى ترتدى أقنعة غربية ، كأن يقول واحد: لماذا لا نكتب اللغة العربية بالحروف اللاتينية ؟ إن مثل هذه الدعوة هى إهدار لخصائص اللغة ، ويقوم بها -كما قلت- هؤلاء المستغربون الذين ينظرون إلى حضارة الغرب على أنها حضارة الإنقاذ من التخلف ، وينسون أن الحضارة الغربية بكل ما وصلت إليه تطلب الآن الإنقاذ الروحى لنفسها .

وهؤلاء المستغربون قد يفوق خطرهم خطر المستشرقين ، فالمستشرق هو أجنبى عنا ننظر إليه بشكوك ، ومحاولة معرفة أبعاد ما تحمله آراؤه ونتحصن

ضدها ونهزمها ، أما المستغرب فهو إنسان عربى ذاب فى ثقافة الغرب ، ولأنه عربى ومسلم فنحن نأنس له ونستقبل آراءه دون مناقشة محملة بالشك، ولذلك لا بد لنا أن نتعامل مع هؤلاء المستغربين ، لا بالرفض الكامل ، ولكن بالمناقشة الجادة التى نحفظ بها روح ثقافة الإسلام ودون أن نهدر أصولنا فى الذوبان فى حضارة الغرب، إن الإسلام قد دخل بلاداً كثيرة واتسعت آفاق المسلمين لكل آفاق العلوم والفنون ؛ وهضمت ثقافة الإسلام كل تلك الحضارات التى دخلت إليها ، ولم يسمح الإسلام لأحد أن يذيبه فى بوتقته ، ولذلك فالحفاظ على لغة القرآن مسئولية كل مسلم ، ومسئولية كل مثقف عربى يرغب لأمته الخير ولدينه الرفعة(1).

---

(1) اللغة العربية هى اللغة التى اختارها الله تبارك وتعالى لتكون لغة القرآن الكريم ، واختارها لغة يتعبده بها عباده ، بل وارتضاها لتكون لغة أهل الجنة . قال تعالى:
﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . [يوسف : ١ ، ٢]
وقال: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ . [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥]
إن الله سبحانه وتعالى حينما وصف القرآن الكريم بأنه مبين وصفه بأنه عربى ، فهو بيّنٌ ، يفهمه ويعقله العربى ويفهمه ويعقله الأعجمى طالما أنه نطق اللغة العربية، فهمه وعقله أبو بكر وعمر وهما عربيان ، فهمه وعقله بلال الحبشى وسلمان الفارسى وصهيب الرومى ، رضى الله عنهم أجمعين.
وقد ورد فى تفسير الفخر الرازى [٢٣ / ١٦٨] أن تنزيله باللغة العربية التى هى لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك فتفهمه ويفهمه قومك.
كما ورد فى تفسير ابن كثير : القرآن المبين : أى الواضح الجلىّ الذى يفصح عن الأشياء المبهمة .
وحينما تحرك المسلمون الأوائل بمشاعل النور ينشرون دعوة الله فى أرجاء المعمورة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا علّموا الأعاجم العربية ونطقوا بها فعقلوا الإسلام وفقهوا منهج الله تبارك وتعالى ، وكان حملة العلم فى الإسلام أكثرهم العجم إلا القليل النادر ، وإن كان منهم العربى فى نسبته فهو أعجمى فى لغته ، وكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسى والزجاج كلهم عجم فى أنسابهم ، اكتسبوا اللسان العربى بمخالطة العرب وصيروه قوانين لمن بعدهم . وكذلك حملة الحديث وحفاظه أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة ، وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم ، وكذلك أكثر المفسرين ، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم . والمقصود أن اللغة العربية كان =

وهكذا نعرف أن اللغة هى وسيلة لمعرفة أسماء الأشياء . وهكذا نعرف أن الله قد قذف بالإلهام أسماء الأشياء فى إدراك آدم عليه السلام ، وكان إدراك آدم توقيفيا ، أى أنه عرف كل اسم لكل مسمى كما خلقه الله ، ثم نزل إلى الأرض لتتطور هذه المسميات ويعمل العقل الإنسانى لتطوير وتحديد الأشياء مما استدعى أن يضع لها أسماءً مشتقة مما تلقاه آدم عليه السلام من الحق سبحانه وتعالى . وهكذا نعرف أن علم آدم كان العلم الأول من المعلم الأول وهو الحق الرحمن ، ولقن آدم أبناءه ما تعلمه ، فكان علم الأبناء عن طريق ترديد ما سمعوه بآذانهم .

وكان تساؤل الملائكة عن الخلق الآدمى ، وهل سفك الدماء هو الباعث الذى أجاب عليه الحق تبارك وتعالى بسؤال الملائكة : ﴿ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ ﴾. والملائكة لا علم لها إلا بما علمه لها الرحمن، وهكذا كان تعليم الله لآدم هو تعليم للأدنى بما لا يعرفه الأرقى وهم الملائكة .

وإذا تتبعنا سلسلة العلوم فى تاريخها فلسوف نجد أن آدم أول الخلق ، وأنه تلقى أول العلم من الخالق الأكرم ، ولنسمع قول الله تبارك وتعالى تأكيدًا لذلك على لسان رسوله فى أول وحى نزل من الحق تبارك وتعالى بسورة العلق : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . [العلق : ١ـ٥]

= لها الريادة وكان لها السيادة وكانت لغة متقدمة فى المحافل الدولية ، أما الآن فأصبحت سادسة بين لغات العالم . . . لماذا ؟

لأن ألسنة العرب ذابت وأصبحت ألسنة أعجمية ، بل إن لغتنا الآن لا يمكن أن توصف بأنها لغة عربية ، كما لا يمكن أن ترقى إلى اللغة الأعجمية ، إنما هى هرطقات ولهجات ولكنات، لا توصف بأنها لغة ، وإن كان البعض ينادى بتقنينها !!

ولما أصيبت الألسنة العربية بالعجمة ، أصيبت العقول والقلوب بالعجمة أيضاً فلم تعد تقوى على فهم لغة القرآن ولا على فهم منهج الله تبارك وتعالى إلا من رحم ربى، ومن ثم أصبحت أخلاقنا أعجمية وأصبح سلوكنا أعجمياً وسبب ذلك كله انفصالاً بين المسلمين والإسلام ، ولما حدثت هذه الردة فى اللغة كانت النتيجة الحتمية الانحدار والتخلف . ولا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

إن وصف الآية للخالق بأنه ﴿ الأَكْرَمُ ﴾ إنما لتدلنا على أنه علَّم الإنسان بالقلم ما لم يعلم ، إذن فلا أحد يستطيع أن يدعى لنفسه أنه امتلك المعرفة بالعلم ذاتيا ، إنما كل علم له معلم ، والله تعالى هو الذى علم الإنسان ، وإذا كنا نشاهد فى عصرنا ألوانا من العلوم ، فهذه العلوم من تفاعل العقل الذى وهبه الله للإنسان والعلم الذى علمه الله للإنسان.

إن كل الابتكارات إنما أخذت وجودها من مقدمات كانت سابقة عليها ، فالماء مثلاً كان موجوداً منذ الأزل ، والشمس كطاقة تبخر المياه لتصبح سحابًا. فإذا استخدم الإنسان الطاقة الحرارية فى تبخير المياه واستخدام البخار كطاقة. فذلك التقدم فى العلم إنما هو نابع من وجود الماء والطاقة . وزاد عليهما قدرة الإنسان الممنوحة له من الخالق أن يتعلم ،وأن يبذل الجهد لاستخدام الطاقة فى تحويل الماء إلى بخار ، واستخدام الطاقة الناتجة من البخار.

وإذا توصل الإنسان لمراقبة شجرة ساقطة وهى تتدحرج على الأرض لأن جذعها اسطوانى . وإذا أخذ الإنسان قطاعا من الشجرة وصنع منه عجلة يحمل عليها الأشياء بسهولة ويسر ، فهذا العلم قادم من الله وممنوح من الله وإذا طور الإنسان فى استخدام البخار ليصنع منه قطارًا يجر عربات تحمل أطناناً من المواد ، فهذا التطوير هو ابن للعلم السابق معرفته عن قوة الطاقة الناتجة من تبخير المياه وكيفية صناعة العجلة. هكذا نتعرف على أن كل علم إنما هو نابع من علم سابق ومترابط مع إمكانيات وهبها الخالق الأكرم للإنسان ولهذا فأنا أقول دائمًا : إن الإسلام حينما جاء ليعرض العلم التجريبى أو المادى، فإنما جاء ليلفتنا إلى آيات الخالق فى الكون ، وعلينا أن نتأمل تلك الآيات ونعمل فيها العقل والإدراك اللذين وهبهما لنا الخالق الأكرم حتى نستنبط منها ما يعطينا أكثر الثمار بأقل مجهود .

ولنسمع قول الحق الرحمن: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾. [يوسف: ١٠٥]

هكذا يلفتنا الله إلى آياته التى فى السموات والأرض لنعمل فيها العقل والإدراك لنستنبط منها ما يفيدنا ، إن القرآن يحضنا على أن نواصل رحلة إبداع العلم الذى علمه الله لآدم وورثناه نحن عن آدم عليه السلام ، وإذا كان تاريخ العلوم يحمل لنا أخبارًا عن قوم غيرنا لم يكونوا من ديننا ، ولكنهم واصلوا التأمل والاستنباط ،فما أجدرنا نحن أن نفعل ذلك لأننا نملك الإيمان بما جاء به القرآن ونملك المنهج الذى يوصلنا إلى أرقى الاكتشافات ، إن التاريخ العلمى يحدثنا عن أرشميدس الذى لاحظ طفو الأجسام المسطحة على الماء ، ومن ذلك الاكتشاف تطورت الأفكار ، فعبرت البواخر عباب(١) البحار،وغاصت الغواصات فى بطن المحيطات.

وتاريخ العلم يحدثنا عن نيوتن الذى لاحظ قوة جذب الأرض للتفاحة الساقطة من أعلى الشجرة ، فتوصل إلى قانون الجاذبية ، هذه الاكتشافات كلها هى استنباط لعلم موجود فى الكون ينتظر من الإنسان أن يتأمل آيات الله فيه ليجعله فى خدمة الإنسان.

إن كل العلوم باكتشافاتها تعود إلى ما أوضحته من قبل عندما ضربت المثل بالنواة . وقلت: إن النواة تتضمن فى داخلها نخلة كاملة ، ويطلق علماء الفلسفة على تلك «إنها نخلة بالقوة» أى نخلة متخيلة وهى تحيا داخل النواة وتنتظر قوة الإنسان ليضعها فى الأرض ويرعاها بالجهد لتنبت وتصبح نخلة بالفعل والواقع ، وهكذا كل اكتشافات الإنسان منذ بداية الحياة وحتى قيام الساعة . إن كل الاكتشافات موجودة «بالقوة» التى تنتظر التأمل والخيال والعمل لتصبح اكتشافات بالفعل.

هكذا نتعرف على أن الحق تبارك وتعالى قد أودع كونه من العلم الكثير ، ووهب الإنسان السيادة استخلافاً فى ذلك الكون وليعمل على مواصلة الاكتشاف وتطوير الحياة ، ويحضرنى الآن قول الشاعر العظيم أحمد شوقى حين قال :

---

(١) العباب : الماء الكثير المتلاطم الأمواج .

سبحانك اللهم خير معلم | علمت بالقلم القرون الأولى
أخرجت هذا العقل من ظلماته | وهديته النور المبين سبيلا
وطبعته بيد المعلم تارةً | صَدِئ الحديد ، وتارةً مصقولا
أرسلتَ بالتوراة موسى مرشدا | وابن البتول فعلم الإنجيلا
وفجرت ينبوع البيان محمدا | فسقى الحديث وناول التنزيلا[1]

هكذا أبدع شوقى فى دقة الأداء ، فمحمد رسول الله تلقى التنزيل من الحق الرحمن وسقانا رسول الله الحديث الشريف لأنه من قوله . كأن شوقى الشاعر يصوغ من إيمانه شعرًا يروى حقائق واضحة ، هى أن كل علم إنما هو منسوب إلى الله عز وجل .

إذن فكل علم فى الوجود لا يقال عنه: اختراع ، إنما يقال عنه: «اكتشاف» ذلك أن كل علم إنما هو مطمور فى الكون ينتظر اكتشاف الإنسان ، ولهذا يقول الحق فى محكم كتابه : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وهكذا يتضح لنا أن قول الملائكة: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] هذا القول يتضمن الاعتراف بأن العلم كله مرجعه إلى الله . فذات الحق هى التى تمنح العلم والحكمة . ولأن الألفاظ التى أرادها الله للقرآن الكريم كانت من واقع الحياة العربية .

ولنا أن نتعرف على معنى الحكمة ، إن الحكمة تطلق فى الأصل على قطعة الحديد التى توضع فى فم الحصان لتلجمه حتى يتحكم فيه راكبه[2] .

---

(١) من قصيدة العلم والتعليم وواجب المعلم ، التى ألقيت فى حفل أقيم بنادى مدرسة المعلمين العليا ، وأحمد شوقى هو أمير الشعراء فى العصر الحديث ، ولد عام (١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٨ م) ، وتوفى عام (١٣١٥ هـ ـ ١٩٣٢ م) له مؤلفات عدّة نُشرت كلها وهى : « الشوقيات (أربعة أجزاء) ، دول العرب وعظمة الإسلام ، وأميرة الأندلس (مسرحية نثرية) ، ومصرع كليوباترا ومجنون ليلى وعنترة والست هدى وقمبيز وعلى بك الكبير (مسرحيات شعرية) وحديث بنتاؤر ، عذراء الهند ، وورقة الآس وأسواق الذهب » .

(٢) الحِكْمَة: مشتقة من كلمة: الحَكَمَة، وهى لجام الدابة الذى يضبط تصرفاتها وحركاتها =

ذلك أن الحصان حيوان مدلل شارد يحتاج إلى ترويض ، وقطعة الحديد التى توضع فى فمه تعلمه كيف يكون محكومًا من صاحبه ، وكان الحصان معروفًا فى الجزيرة العربية ، وكان رمزًا للسرعة والخفة . وكأن إطلاق صفة «الحكيم» على الخالق إنما ليحكم المخلوقات ويلجمها عن السفه[1] ، والسفه كما نعرف هو أن تصنع الشىء دون دراية ، وهكذا تكون الحكمة أن يوضع مجال لكل حركة لتنسجم مع غيرها، فيصير الكون محكومًا بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهكذا يكون الحق تبارك وتعالى هو الحكيم العليم الذى يضع لكل كائن إطاره وحدوده.

ومن ذلك ولدت الحكمة فى عموم حركة الحياة ، فالحكمة فى النحو أن تضع الكلمة فى مكانها وبإعرابها. والحكمة فى الفقه أن نستنبط الحكم الصحيح ، والحكمة فى الشعر أن نزن الكلمات على التفاعيل،والحكمة فى الطب أن نعرف تشخيص المرض والدواء المناسب له. والحكمة فى الهندسة أن يصمم المستشفى لاحتياج المريض والطبيب وأجهزة العلاج وأماكن إجراء الجراحة ، وتوزيع الإضاءة وضبط درجات الحرارة ،ومعرفة وضع المصعد ومخازن الأدوية ، وأماكن إعداد الطعام ثم أماكن النقاهة ، ثم أماكن العلاج الخارجى وهذا التصميم للمستشفى يختلف بحكمته عن تصميم منزل للسكنى، وتنظيم بناء عمارة للسكنى يستوجب حكمة فى توزيع الشقق وراحة

= والحِكْمَة : تعنى الأخلاق الطيبة ، فهى تضبط تصرفات وسلوكيات من تحلى وتخلق بها.

(١) السَّفَه : هو أحط مراتب الجهل ، والجهل ينقسم إلى ثلاث مراتب :

١ ـ الجهل البسيط : وهو أن يجهل الإنسان أمرا من الأمور ، لكنه يدرك أنه يجهل هذا الأمر ، وهذا النوع لا عيب فيه ، إذ كل منا فيه هذه النسبة .

٢ ـ الجهل المركب : وهو أن يجهل الإنسان الأمر ، ثم هو يجهل أنه يجهله .

٣ ـ السفه : وهو أن يجهل الإنسان الأمر ، ويجهل أنه يجهله ، ثم هو يدافع عن جهله بأنه يعلم . قال تعالى : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ . [البقرة : ١٤٢] .

السكان جميعًا . وحكمة بناء منزل تختلف عن حكمة بناء قصر أو مكان عمل والحكمة ضد التلفيق ، فإعداد مكان لعمل ولوظيفة محددة يختلف عن أخذ مكان للسكن - على سبيل المثال - وتلفق منه ديوانًا حكوميًا ، هنا يفتقد المبنى حكمته ويصبح تلفيقًا ممسوخًا.

هكذا نعرف أن الكون كله مخلوق من قبل عليم حكيم. ووصف الخالق بأنه «حكيم» يدلنا أيضا على أنه علم آدم الأسماء ولم يعلم الملائكة . إن الخالق أعطى لكل خلق من العلم على قدر حاجة الخلق ، فليس من طبيعة الملائكة أن يعرفوا، فهم لم يستخلفهم الله فى الأرض ، ولكنهم موجودون من أجل مهمة أخرى ، أما الإنسان فقد علمه الله الأسماء ، ومنح الإنسان الطاقة ليعمل بالعقل والجهد ليستكشف فى آيات الكون على قدر حاجته . وكلنا نسمع قول الرحمن الحق فى سورة الأعلى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾. نعم خلق الله الكائنات ، وقدر كل مخلوق لما هداه الله له[1]، الملائكة تسبح بحمده ، الإنسان يعمر الكون وهو الذى استخلفه الله فى الأرض.

يأمر الله الملائكة بالسجود لآدم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] لقد أعطى الله آدم مميزات حتى تكون هناك مبررات لأمر السجود. أعطى الله آدم ـ وهو المخلوق الأدنى ـ مميزات العلم بالأسماء ، وأمر الله الملائكة بالسجود له ، وهنا يجب أن نعرف أن السجود لآدم لا يعنى عبادة آدم من دون الله ، ولكنه سجود نابع من الامتثال لأمر الله . والسجود لآدم تعظيم لأمر الله . ذلك أن لهؤلاء الملائكة مهمة مع آدم . وتلك المهمة يوضحها الله فى قوله : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] إن السجود لآدم له مظهرية الخضوع التسخيرى لآدم

---

(١) قال تعالى حكاية عن موسى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾.

بأمر الله . وهذا السجود هو طاعة لله. لذلك فليس لأحد أن يقول: إن سجود الملائكة هو عبادة لآدم ، تمامًا كما يعرف كل منا أننا نسجد للقبلة، لا للقبلة فى حد ذاتها ولكن امتثالا لأمر الله.

ونحن نعرف من القرآن الكريم أن الملائكة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. [التحريم : ٦]، إذن فسجود الملائكة لآدم هو عبادة لله وامتثال لأمر الله[(١)] . كما أن سجود المسلم للقبلة هو عبادة لله وامتثال لأمر الله ، وسجد الملائكة كلهم أجمعون، ولنا أن نعرف أن السجود لآدم كان أمرًا صادرًا للملائكة الذين لهم صلة بمهمة الإنسان فى الأرض . ذلك أن هناك نوعًا من الملائكة لم يسجد ، إنهم الملائكة العالون ، هؤلاء الملائكة العالون الذاكرون لله وحده ، أما الملائكة الذين لهم مهمة مسخرون فيها بأمر الله لخدمة آدم فهؤلاء هم الملائكة الذين شملهم أمر السجود ، لكن إبليس - وقد كان من الجن - فسق عن أمر ربه بالسجود . إبليس كان من الجن ، وهو من جنس يختلف عن الملائكة . إن إبليس من الجن وله خصائص جنس الجن حيث يستطيع الطاعة أو المعصية . وكان فسوق إبليس - المخلوق من النار- عن أمر الله هو قوله : ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[(٢)]

---

(١) اختلف المفسرون فى سجود الملائكة لآدم عليه السلام على أقوال :
فقال قوم : كان سجود الملائكة لآدم سجوداً على حقيقته .
وقال قوم : بل كان السجود لله عز وجل وآدم قبلة فيه .
وقال آخرون : المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض .
ورجح الفخر الرازى فى تفسيره القول الأول وقواه وضعف ما سواه ، لأن السجود لآدم كان إكراماً وإعظاماً واحتراماً وسلاماً ، وهو طاعة لله عز وجل لأنه امتثال لأمره ، تبارك وتعالى وأيده ابن كثير . وهو ما ذهب إليه فضيلة الشيخ الشعراوى .

(٢) عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر ، والأبيض ، والأسود ، وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب، وبين ذلك . [أخرجه الترمذى ٢٩٥٥ ، وأبو داود ٤٦٩٣]. وصححه الألبانى .

وقوله: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾. [ص: ٧٦].

وهكذا نتعرف على فسق إبليس . لقد كان وجود إبليس مع الأعلى منه وهم الملائكة . وقد صدر الأمر الإلهى بالسجود لآدم ، فسجد الملائكة - وهم الأعلى من إبليس - لآدم امتثالاً لأمر الله . وكان على إبليس أن يعرف أن الأمر الإلهى شمله أيضًا لأنه «أدنى» وموجود مع الجنس الأعلى، لقد كان إبليس كما يقول الأثر ، هو طاووس بين الملائكة ، كان يزهو بخيلاء بينهم وكان ينال احترامهم ؛ ذلك أنه كان محكومًا بقانون الاختيار ،له أن يطيع وله أن يعصى، وكان مختلفًا عن الملائكة التى لا تملك من أمرها إلا الطاعة . لذلك كان إبليس مزهوا باختياره لطاعة الله. ولكن ما أن صدر أمر الله بالسجود لآدم حتى امتنع إبليس[1]،لم يجاهد إبليس نفسه ليبقى على طاعة الله لم يلتزم بالحجة التى نالها لنفسه، ولا للمرتبة التى نالها من اختياره للعبادة.

لكن إبليس عصى الله المعصية التى فى القمة حيث ردَّ الأمر على الآمر ، ظن أنه خير من آدم ، تخيل أنه أرقى من آدم فلم يمتثل لطاعة الله[2] ،

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال ﷺ : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول : ياويله ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت فعصيت فلى النار » أخرجه مسلم (٨١) وأحمد (٢/٤٤٣) وابن ماجه فى سننه (١٠٥٢) وصححه الألبانى.

(٢) أوامر الله تبارك وتعالى لعباده واجبة النفاذ والامتثال والطاعة ، ولكن إبليس عليه لعائن الله ناقش بعقله الأمر الصادر من الله عز وجل بالسجود لآدم ، فرأى أنه خلق من النار ولها العلو ، وأن آدم خلق من الطين وله الدنو ، ورأى أيضا أن النار أقوى من الطين فهى تحرقه ، وغاب عنه أن النار رمز للإحراق والدمار بينما الطين رمز للنماء والخير ، ومن ثم قال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾. [ص: ٧٦] وقال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾. كيف يأمر الله الأقوى بالسجود للأضعف ؟! وكيف يأمر الله من له العلو بالسجود لمن له الدنو ؟! فالقضية معكوسة ، وهذا تخيل إبليس وذلك ظنه الذى ظن بربه أرداه وأورده المهالك نعوذ بالله من الخذلان.

ومضى فى غيه، طرده الله من رحمته، جعله الله رجيمًا ، طلب مهلة من الله إلى يوم الدين، أقسم إبليس بعزة الله أن يغوى أبناء آدم ، حدد الأماكن التى يهاجم منها الإنسان(١) ، إنه سيحاول غواية أهل الصراط المستقيم، سيحاول أن يغوى من يسيرون على هدى الله لقد علم من آدم ضعفه ، وضعف آدم هو آفة البحث عن الخلود وآفة امتلاك كل النعم . فماذا حدث لإبليس وآدم ، إن الذى حدث معروف واضح ، أغوى إبليس آدم وزوجته وهما فى جنة التدريب على مهمة الخلافة ، نجحت الغواية لآدم ، نزل آدم إلى الأرض واجتباه ربه وتاب عليه ، وظل إبليس الرجيم يغوى أبناء آدم.

---

(١) قال تعالى إخباراً عن موقف إبليس :

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]

وقال ﷺ : « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعد له بطريق الإسلام فقال له : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك . قال : فعصاه فأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس فى الطول قال : فعصاه فهاجر ، قال : ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : هو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال قال : فعصاه فجاهد » أخرجه أحمد [٣/ ٤٨٣] ، والنسائى فى المجتبى [٦/ ٢١] وصححه الألبانى فى صحيح النسائى [٢٩٣٧].

❋ الجنة التى خلق فيها آدم ❋

بعد أن خلق الله آدم وعَلّمه الأسماء ، أراد الله برحمته أن يجعل مهمة آدم فى الأرض سهلة ميسورة . لذلك لم يكتف الله بالعلم النظرى لآدم ، إنما من رحمة الله بآدم أن جعل له تدريبًا تطبيقيا لمهمته فى الكون ، وقد يسر الله لآدم مهمة التعليم التطبيقى فى جنة للتدريب على مهمته فى الأرض ، ولهذا فقد قلت من قبل وأكرر القول: إن الجنة التى أوجد الله فيها آدم للتدريب على أمور الحياة ليست هى جنة الجزاء ، إنما هى جنة التدريب ، فالبعض يظن أن آدم لو لم يعص الله لكان الإنسان الآن ساكنًا جنة الخلد . لهؤلاء نقول: ألم تقرأ قول الله : ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة:٣٠] ولنا أن نعرف أن لفظ «جنة» يطلق على المكان المستور ، ذلك أن النظر فى القاموس لمعرفة معنى «جنة» نجد أنها مأخوذة من مادة «جن» والجنون كما نعرف هو ستر العقل ، و«الجنة» قد تطلق على معان كثيرة «فالجنة» هى مكان يتقى فيه الإنسان ضربة السيف أو العدو ، و«جنة» تطل على المكان الملىء بالشجر الذى يدخله الإنسان فيستره.

ونجد أوصافًا تفصيلية لجنة التدريب فى سورة طه حيث قال الحق جل وعلا : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ** ﴾. [طه : ١١٦ - ١١٩] هذه هى الجنة التدريبية التى عاش فيها آدم قبل أن ينزل إلى الأرض . ولقد أراد الله له فى هذه الجنة الكفاية من الطعام الرغد والشراب الهنىء ، ليتفرغ للتدريب التطبيقى على مهمته فى الأرض ، إن قصة آدم فى ذاتها تمثل كل زوايا الركب الإنسانى فى الدنيا كلها منذ آدم وحتى يقوم الناس لرب العالمين ، إن مهمة

كل رسول تنحصر فى: أن يأتى بمنهج للحياة بأمر تعبدى، أن يحذرنا من شهوات النفس، أن يحذرنا من إغواء الشيطان.

والخالق الأكرم يعلم أن الغفلة صفة قد تلحق بمخلوقاته لذلك قال: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥] إن الخالق يعلم عنا الغفلة لذلك يعلمنا التوبة والاستغفار ، إن آدم هو أول من تاب واستغفر . فبعد أن أغواه الشيطان هو وزوجه ليأكلا من الشجرة، قال آدم وزوجه كما ورد فى كتاب الله :﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]

إن الرسول أيضًا يعلمنا التوبة من الغفلة أو شهوة النفس أو إغواء الشيطان، إذن فقصة آدم فيها كل هذه الأشياء .. المعرفة ، التدريب ، المنهج، الغفلة التى تقود إلى شهوة النفس أو إغواء الشيطان ثم التوبة . إن الله أرحم بخلقه منهم بأنفسهم ، لذلك لا يوصد بابه ، إنما يفتح باب التوبة[1] ، وفتح باب التوبة للخلق أمر تقوم عليه عمارة الكون كلها . وفتح

(١) عن صفوان بن عَسَّال المرادى ، قال : « كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابى بصوت له جَهْوَرِيّ : يا محمد . فأجابه رسول الله ﷺ على نحوٍ من صوته : « هَاؤُمُ » . فقلنا له : اغضض من صوتك فإنك عند النبى ﷺ وقد نهيتَ عن هذا . فقال : والله لا أغضض . قال الأعرابى : المرء يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ . قال النبى ﷺ : « المرء مع من أحب يوم القيامة » . فما زال يحدثنا حتى ذكر بابا من قِبَلِ المغرب مسيرة عرضه أو يسير الراكب فى عرضه أربعين أو سبعين عاما . قال سفيان : قِبَلَ الشام خلقه الله يوم خلق السموات والأرض مفتوحا ـ يعنى للتوبة ـ لا يغلق حتى تطلع الشمس منه » وفى رواية : « لا يغلق حتى تطلع الشمس من قبله ، وذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ .

أخرجهما الترمذى رقم [٣٥٣٥] ورقم [٣٥٣٦] وصححهما ، وحسنهما الألبانى فى صحيح سنن الترمذى [٢٥٠٧] . .

وعن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها » =

باب التوبة للخلق أمر تقوم عليه دنيا الصلاح والكمال كلها . وفتح باب التوبة أمر تقوم عليه دنيا الصلاح والكمال. . . لماذا ؟. لأن الذى يذنب ذنبًا لو علم أن باب التوبة مغلق لمجرد أن قام بذلك الذنب . . فماذا يفعل ؟ إن المذنب الذى يعلم أنه لا رجعة إلى التوبة لا بد أن يتجه إلى المزيد من الذنوب ولاستشرى الفساد فى الكون ، لكن باب التوبة المفتوح يعطى المذنب فرصة للتراجع وأن يعود إلى منهج الحق.

ونحن نريد الآن أن نقف على معنى عظيم من معانى الكبرياء والعظمة لله سبحانه وتعالى فى قوله : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾. [البقرة : ٣٥ ، ٣٦].

إن الأمر لآدم بالسكن وزوجه فى الجنة يحمل المعنى الأول من المنهج الرسالى. والأمر يبدأ بقوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا ﴾ وساعة أن يقول الله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا ﴾ فلنا أن نلحظ نون الكبرياء والتعظيم، ونجد «نون الكبرياء والتعظيم» فى كل أمر يحتاج إلى مواهب شتى وإلى صفات متعددة ، وخلق الإنسان والكون كان يحتاج إلى كل ذلك ، ولهذا فحديث الحق عن نفسه بنون الكبرياء والتعظيم إنما ليعرفنا منزلته وهو الخالق الحكيم الأكرم ، ومثال

= أخرجه مسلم (٢٧٥٩) وأحمد (٤/ ٣٩٥).

وعن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى قالا : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يمهل حتى إذا ذهب ثلث الليل الأول نزل إلى السماء الدنيا فيقول : هل من مستغفر ؟ هل من تائب ؟ هل من سائل ؟ هل من داع ، حتى ينفجر الفجر » أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٥٨) وأحمد (٢/ ٣٨٣) ، (٣/ ٣٤). وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ: « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » أخرجه أحمد (٢/ ١٣٢) والترمذى (٣٥٣٧) وقال: حسن غريب ووافقه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٨٠٢)، وابن ماجه (٤٤٥٣) والحاكم (٤/ ٢٥٧) وقال: صحيح الإسناد.

ذلك : قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧]
ذلك أن خلق السماء يحتاج إلى صفات متعددة تظهر لنا كيف تم خلق السماء وعظمة خالق السماء ، ولهذا يقول الحق : ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ واستخدم نون الكبرياء والتعظيم ، وحديث الخالق بنون الكبرياء والتعظيم إنما ليعلم المخلوقات تفرده وحده بالعظمة المطلقة ، العظمة الجامعة .

وعندما يمن الله على عبد من عباده بصفة الجمع فهو يقول لنا عن أبى الأنبياء إبراهيم: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . [النحل : ١٢٠ - ١٢٢]

إن إطلاق صفة « أمة» على إبراهيم خليل الرحمن إنما هو لتعليمنا كيف جمع ذلك النبى الكريم خصال الخير التى لا تجتمع إلا فى أمة كاملة . فتميز بالصدق والهداية بالفطرة إلى توحيد الله ، والشجاعة التى لم تخنه وهم يلقون به فى النار، أو وهو يتلقى أمر ربه بذبح ابنه ثم افتداء الله لابنه . والحلم الشديد على الذين كفروا وهو يدعوهم إلى الإيمان . إن كل تلك الصفات والخصال الخيرة لا تجتمع لفرد إنما تجتمع لأمة[1].

---

(١) قال أبو حيان الأندلسى فى البحر المحيط (٦/ ٦٠٩) : قال مجاهد : سمى أمة لانفراده بالإيمان فى وقته مدةً ما ، وفى البخارى أنه قال لسارة : ليس على الأرض اليوم مؤمن غيرى وغيرك ، والأمة لفظ مشترك بين معانٍ منها الجمع الكثير من الناس ، ثم يشبه به الرجل الصائم ، أو الملك أو المنفرد بطريقة وحده عن الناس فسمى أمة .. وقال ابن عباس : كان عنده من الخير ما كان عند أمة ، وعن ابن مسعود : إنه معلم الخير.

* جنة آدم *

هل هى جنة الخلد ، أم جنة فى الدنيا ؟

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩]، كثير من العلماء قالوا: إن المقصود بالجنة هى جنة الخلد فى الآخرة[1] ، وهنا حدثت اعتراضات ، كيف يمكن أن يدخل إبليس جنة الطائعين لله وهو عاص ؟ وكيف يمكن أن يدخل جنة الخلود ثم يخرج منها، مع أن الله قد كتب أن كل من يدخلها خالد فيها؟

نقول لهؤلاء جميعاً : إنكم لم تفطنوا إلى مدلول كلمة جنة ، وهناك شىء يسمى غلبة الاستعمال . ذلك أن اللفظ يكون له معان متعددة ، ولكنه يؤخذ عادة وعرفا على معنى واحد ، بحيث إذا سمع اللفظ انصرف الذهن إلى هذا المعنى بالذات ، ومن هذا المدلول حين يسمع كلمة جنة ، ينصرف ذهنه إلى جنة الآخرة؛ لأنها هى الجنة الحقيقية . ولكن حينما يأتى اللفظ فى القرآن الكريم لابد أن نعرف استعمالاته ، لأن المتكلم هو الله .

ومن الجائز أن يكون للفظ فى اللغة معان متعددة، ولكن فى الدين فإنه يأخذ المعنى الشرعى الاصطلاحى، مثلاً حين تسمع كلمة الحج ، تقول إن معناها: أن تقصد بيت الله الحرام . ولكن الحج فى اللغة معناه: القصد

(١) على ذلك جمهور المفسرين ، وهو أحد قولى ابن عباس [تفسير ابن كثير ١/ ٨٠] ، وقال الماوردى : وفى الجنة التى أمر بسكناها قولان:
أحداهما : فى جنة الخلد التى وعد المتقون، وجاز الخروج منها لأنها لم تجعل ثواباً فيخلد فيهاولا يخرج منها.
والثانى : أنها جنة من جنات الدنيا لا تكليف فيها وقد كان مكلفاً . [تفسير الماوردى ٢/ ٢٠٩]

فقط ، فإذا قصدت الذهاب إلى مكان تقول: حججت إليه ، فلما جاء الإسلام أصبح المعنى الإسلامى الفقهى الشرعى لكلمة الحج : هو أن تقصد بيت الله الحرام لأداء المناسك، كلمة صلاة مثلا معناها فى اللغة : الدعاء، ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣] أى ادع لهم، فلما جاء الإسلام أخذها إلى معنى العبادة المبدوءة بالتكبير المختومة بالتسليم بكل شروطها. . هذه هى الصلاة. وهكذا أصبح لهذه الألفاظ معان فقهية إسلامية بحيث إذا أردنا أن نستخدمها فى معناها اللغوى الأصلى لابد أن نبين ذلك للناس . وهذا ما جعل العلماء يذهبون إلى أن كلمة جنة ساعة أن ننطق بها ينصرف المعنى إلى جنة الآخرة ؛ ولكن الجنة فى اللغة معناها: الستر، ولذلك يطلق على المكان الذى فيه أشجار غزيرة ومتنوعة تستر الإنسان وهو يمشى فيها كلمة: الجنة؛ وفى نفس الوقت فإنها بثمارها الكثيرة المتنوعة تعطى الإنسان ضروريات وكماليات الحياة. ولذلك فهى تستره عما جاورها، ويستطيع أن يبقى فيها مستترًا ولا يخرج، فهى ستر دائم يعيش فيه مستوراً ويجد فيها حاجته، هذا هو المعنى اللغوى للفظ الجنة.

فإذا جئنا إلى القرآن الكريم وجدنا أن القرآن استخدم الجنة فى المعنيين، معناها اللغوى ومعنى جنة الآخرة، وإذا قرأنا القرآن الكريم نجد مايلى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ . [البقرة: ٢٦٦]

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥]

وقوله جل جلاله: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ . [الكهف: ٣٢]

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ . [سبأ: ١٥]

نلاحظ هنا أن الاستخدام فى الآيات الثلاث للفظ جنة لا يعنى جنة

الآخرة؛ بل يعنى جنات الدنيا، على أن بعض العلماء يقول: إن الله سبحانه وتعالى قد فرق بين جنات الدنيا وجنة الآخرة، فلفظ الجنة يطلق على جنة الآخرة وحدها، ولفظ جنة من غير الألف واللام يطلق على جنات الدنيا .

نقول لهم: إن هذا القول غير صحيح بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ . [القلم: ١٧]

والحديث فى الآية عن جنة أو حديقة لها ثمار فى الدنيا. إذن فالألف واللام لايميزان اللفظ ولا يجعلانه ينصرف إلى جنة الخلد فى الآخرة.

وبعض العلماء يضيف: أن الله أدخل آدم وزوجه جنة الخلد، وعندما عصيا أنزلهما إلى الأرض، ولو أنهما لم يعصيا لظلَّا فى الجنة.

نقول لهؤلاء: أنتم أبطلتم مرادات الله فى خلق آدم ، لم يقل الله: إنه خلق آدم ليعيش فى الجنة ؛ بل خلقه ليعيش فى الأرض. وذلك مصداقًا لقوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ . [البقرة: ٣٠]

إذن فآدم مخلوق للأرض ليعمرها ويعيش فيها ، ولذلك لا يقول أحد إنه لو لم يرتكب آدم معصية لبقى فى الجنة ، وكان السؤال الذى يجب أن يسأل هو: أنه ما دام آدم خلق خليفة لله فى الأرض ، فلماذا سكن الجنة أولاً ؟

نقول: إن لذلك حكمة ، فآدم خلق ليتلقى المنهج من الله فى «افعل ولا تفعل»، افعل كذا فإن لم تفعله فسدت الأرض، ولا تفعل كذا فإن فعلته فسدت الأرض، وما لا يظهر منه فساد تركه الله مباحًا فى أن يفعله آدم وذريته أو لا يفعلوه، فمنهج الله أساسًا يمنع أن تفعل ما يحدث الفساد فى الأرض، ويأمرك أن تفعل مايمنع الفساد فى الأرض ، ولكن هل ترك آدم هكذا دون أن يوجد مَنْ يحاول أن يفسد عليه منهج الله ؟ لا .. فقد جاء الشيطان ليفسد منهج الله فى نفس آدم ، فيزين له أن يفعل ما نهاه الله عنه ، وألا يفعل ما أمره الله به ، فإذا قال الله لآدم: صلِّ . زين له الشيطان ترك الصلاة، وإذا قال الله له: لا تشرب الخمر ، زين له الشيطان أن يشرب

الخمر.. عملية إفساد للمنهج . والله سبحانه وتعالى يريد لخليفته فى الأرض أن يتبع منهجه حتى يسعد فى الدنيا والآخرة .

ولذلك كان لابد أن يتم تدريب آدم بالتجربة العملية على ما سيحدث له إذا أطاع المنهج ، وما سيحدث إذا عصاه ، كان لابد أن يتلقى تدريبًا عمليًا فى «افعل ولا تفعل»، فالمنهج لابد أن تأتى معه التجربة حتى يكون التطبيق صحيحًا.

وهكذا جاء الله بآدم، ووفَّر له كل مقومات الحياة فى مكان أوجد له فيه كل مايحتاج إليه من طعام وشراب ونعم، وذلك مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴾ .

وأطلق على هذا المكان لفظ جنة، وكان أول تدريب لآدم على منهج الله فى «افعل ولا تفعل» أنه قال له كل ما فى هذه الجنة مباح لك ما عدا شجرة واحدة ، أى افعل ما تشاء بالنسبة للتمتع بثمار هذه الجنة وخيراتها، ولا تفعل أى: لا تقترب من الشجرة ، وهكذا منهج الله فى الأرض ، يبيح لنا الكثير والكثير جدًا ، ويحرم علينا القليل والقليل جدًا .

وحذر الله سبحانه وتعالى آدم من عدوه وهو إبليس، فقال تعالى:

﴿ يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾[طه: ١١٧]

ذلك أن عداوة إبليس ثابتة بامتناعه عن تنفيذ أمر السجود لآدم ، ثم بعد ذلك بما أظهره من نوايا: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. [الأعراف: ١٦]

إلى آخر الآية الكريمة، فكأن الحق سبحانه وتعالى قد وفر لآدم كل مقومات الحياة من غذاء يعطيه المتعة، وما يحتاج إليه جسده بدون فضلات حتى لا تحدث له أية متاعب. نحن نلاحظ أن الأطباء حين يجرون عملية جراحية لإنسان، ويريدون حمايته من المتاعب يعطونه غذاء لا تنتج منه إلا أقل

الفضلات مثل حقن الجلوكوز والسوائل. والحق سبحانه وتعالى يغذى الجنين فى بطن أمه بالقدر الذى ينميه ولا تخرج منه فضلات؛ لأن الغذاء على قدر النمو، وهكذا كان غذاء آدم فى الجنة التى عاش فيها على قدر النمو .

على أننا لابد أن ننبه إلى أن الجنة التى عاش فيها آدم ليست هى جنة الخلد؛ لأن الحياة فى جنة الخلد لا تأتى إلا بعد التكليف ، فهى جزاء لاتباع منهج الله ، وليست سابقة على هذا المنهج ، كما أن جنة الآخرة هى جنة الخلد، من يدخلها لا يخرج منها أبدًا ، وآدم مخلوق للأرض ، إذن فالجنة التى عاش فيها آدم هى مكان أعده الله سبحانه وتعالى له ليتم تدريبه فيه على المنهج ، أمرًا بقوله تعالى : ﴿ فَكُلاَ ﴾ ونهيًا بقوله : ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا ﴾ ، ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قال: لا تقربا، ولم يقل: لا تأكلا؛ لأن الله يريد حماية آدم وزوجه من الغواية، فلو أن الله قال : لا تأكلا لكان قد أباح لآدم وزوجه أن يقتربا من الشجرة ، وحينئذ قد يغويهما شكل ثمارها أو رائحة هذه الثمار أو لونها ، ولكن قول الحق: ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا ﴾ معناها: امتنعا ولا تقربا المكان، حتى لا يغريكما القرب منها بالوقوع فى المعصية .

نلاحظ هنا أن قول الحق : ﴿ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ رمز للتكليف بافعل، وقول الحق : ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا ﴾ رمز لنواهى التكليف بألّا تفعل. الله أعد هذه الجنة التى ليست جنة الآخرة ، أعدها بالزروع والثمار التى تحقق لآدم كل مقومات الحياة وقال : ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا ﴾ حتى لا نقترب مما حرمه الله فتميل النفس إليه وتقع فى الإغراء والمعاصى. ويلاحظ فى قمة العقيدة أن الله سبحانه وتعالى يطالبنا ألاَّ نقترب منها فيقول : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ . [الحج: ٣٠]

ولم يقل لا تعبدوا الأوثان، فلو قالها لكان مباحًا لنا أن نذهب إلى الأماكن التى تعبد فيها الأصنام، وأن نجلس فيها، وربما أوقعنا هذا ـ والعياذ بالله ـ فى

عبادة الأصنام، ولذلك قال الحق: ﴿ فَاجْتَنِبُوا ﴾ أى ابتعدوا عنها تماماً.

كذلك قال فى الخمر فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾. [المائدة: ٩٠]

أى: لا تقربوا أماكنه . بعض السطحيين يقول: إن الخمر لم يرد فيها تحريم، وإنما ورد فيها الاجتناب، نقول: إن الاجتناب أقوى من التحريم، فلو ورد فى الأمر تحريم فقط، لكان المنهى عنه هو شرب الخمر فقط، ولكان فى هذه الحالة لنا أن نصنعها أو نتاجر فيها أو نقيم الأماكن التى تتناول فيها الخمر أو نخدم شاربيها، أو نجلس فى أماكن الخمر دون أن نشربها، ولكن الاجتناب حرم كل هذا بحيث جعلنا لا نقترب أساسا من الأماكن التى تتناول فيها الخمر، ولا نصنعها ولا نتاجر فيها، ولا نجالس الذين يشربونها. إذن فالاجتناب أقوى من التحريم .

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾. [الأعراف: ١٩]

والظلم هو تجاوز الحد، أو تجاوز الحق ، فكأن الله سبحانه وتعالى قال لآدم وزوجه: أنا لم أجعل لكما حقا فى أن تقربا هذه الشجرة، فإذا اقتربتما منها تكونان من الظالمين؛ لأن الله لا يظلم أحدًا. ولكن الإنسان هو الذى يظلم نفسه بأن يعطيها شهوة عاجلة فى زمن محدود، ليصيبها بعد ذلك عذاب أليم فى زمن بلا حدود. بذلك يكون الإنسان قد ظلم نفسه بحرمانها من نعيم خالد بتحقيق شهوة عاجلة .

ولكن ماذا فعل الشيطان ؟ وسوس لآدم وحواء ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ كلمة «وسوس» تدل على الهمس فى الإغواء، فالذى يتكلم ويأمر بخير لا يهمه أن يسمعه الناس . والذى يتكلم فى شر يتحدث فيه بصوت خافت

حتى لا يسمعه أحد[1] ، فكأن الحديث فى الشر والإغواء لا يدور إلا همسًا، كأن الذى يغرى على الشر يعرف أنه معصية، فيحاول أن يخفيه عن الناس بالحديث عنه بصوت خافت، وكلمة وسوس هى رنين الذهب والحلى ، وهو عادة صوت يجذب الناس إليه، تمامًا كما تهتز الحلى الكثيرة فى يد المرأة، فتحدث صوتًا يلفت الأنظار إليه ويغرى الناس، والإغراء هنا ملازم للوسوسة، لأن الله حين يأمر بشىء ثم يأتى إنسان يحاول أن يجعلك تفعل ما لم يأمر به الله، فلابد أن تكون هناك إغراءات، هذه الإغراءات لازمة ليخرج الناس عن منهج الله.

على أن هناك ملاحظة لابد أن نتوقف عندها فى كلمة ﴿لَهُمَا﴾، فقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ كلمة ﴿لَهُمَا﴾.أعطتنا حيثيات البراءة لحواء. لأن الشائع أن حواء هى التى أغوت آدم، وظلت تزين له المعصية حتى أكل من الشجرة، ولكن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ دليل على أن الشيطان هو الذى زين المعصية لآدم كما زينها لحواء، أى أن الشيطان هو الذى قام بعملية الإغواء لآدم وحواء، ولم تقم حواء بتزيين المعصية لحساب الشيطان، فالغواية جاءت من الشيطان للاثنين معا.

لماذا وسوس لهما الشيطان ؟ الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، إذن فوسوسة الشيطان كانت ليعصى آدم وحواء ربهما. ومادامت المعصية قد وقعت فلابد من عقوبة، وإبليس قد مر بهذه التجربة.. عصى فعوقب وطرد من رحمة الله. والعقوبة هنا أن تظهر سوءات آدم وحواء ، والسوءة هى مايسوؤك النظر إليه، ونحن نطلق عليها العورة، ذلك أن الفطرة تستنكف أن

(١) ولأجل هذا قال ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما. وقال سفيان فى حديثه: لا يتناجى اثنان دون الثالث فإن ذلك يحزنه » أخرجه الترمذى (٢٨٢٥) وقال : حسن صحيح ، ووافقه الألبانى فى صحيح الترمذى وعنده « ينتجى » بدلاً من يتناجى . (٢٢٦٥).

يعرض الإنسان عورته على الناس، وهذا يعنى أن آدم وحواء قبل أن يأكلا من الشجرة لم ير أحدهما عورة الآخر ، ولا حتى عورة نفسه .

ولذلك يقول الحق : ﴿ مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى وارى السوءات عنهما بقدرته، فلا آدم رأى سوءتيه ولا رأى سوءتى حواء، لأنه ما دامت سوءة فهى مبنية على الستر، وفضحها حتى باللفظ مكروه عند الإنسان؛ ولذلك عندما تحدث رسول الله ﷺ عن الآخرة، وأن الناس سيحشرون حفاة عراة تعجبت السيدة عائشة ، وقالت : الناس عراة يا رسول الله ؟ يرى بعضهم سوءات بعض، فقال لها الرسول ﷺ: «ياعائشة الأمر يومئذ أخطر من أن ينظر أحد إلى أحد»[1]، أى أن هول الموقف يوم القيامة لا يجعل الإنسان يفكر فى هذه الناحية أبدًا ، على أن العلماء أتعبوا أنفسهم فى كيف كانت سوءات آدم وحواء مستورة عنهما؟!، قال بعضهم: كان عليهما لباس، وقال آخرون: إن أظافر الإنسان كانت طويلة حتى تصل إلى قدميه ، وكانت هى التى تستر العورة .

ولذلك يقول بعض العلماء: إن الإنسان حين يغلبه الضحك، ويريد أن يكتم ضحكه ينظر إلى أظافره فيختفى الضحك تمامًا . . لماذا ؟ لأنه إذا نظر إلى أظافره أحس بالندم؛ لأن هذه الأظافر كانت تستر العورة ثم زالت بالمعصية[2]، ولكن هذه المسألة يجب ألا تشغلنا ، فالله سبحانه وتعالى كان

---

(١) عن عائشة رضى الله تعالى عنها ، قالت: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا» قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض». أخرجه البخارى (٦٥٢٨) ومسلم (٢٨٥٩)، واللفظ لمسلم .

(٢) قال أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط (٥/٢٧) : « قال ابن عباس وقتادة وابن جبير : كان عليهما ظفر كاسٍ فلما أكلا تبلس عنهما فبدت سوآتهما وبقى منه على الأصابع قدر ما يتذكران به المخالفة فيجدان الندم ، وقال وهب بن منبه : كان عليهما نور يستر عورة كل واحد منهما فانقشع بالأكل ذلك النور ، وقيل : كان عليهما نور فنقص وتجسد منه شىء فى أظافر اليدين والرجلين تذكرة لهما ليستغفروا فى كل وقت وأبناؤهما بعدهما ».

يستر سوءاتهما بنور من عنده ، فالنور إذا كان ضعيفًا يظهر الأشياء ، فإذا اشتدَّ أخفاها ، ولذلك فإنك إذا فوجئت بنور قوى أمام عينيك لا تستطيع أن ترى شيئا ، فالنور الذى ترى به الأشياء إن اشتد منع رؤيتها . وإذا كان الله قد ستر عورتى آدم وحواء بثياب أو بأظافرهما أو بنور من عنده، فالمهم أن هذه العورات كانت مستورة مختفية عن أعينهما .

والسؤال الذى يثور: لماذا نستاء من أن تظهر عوراتنا ؟ ما الفرق بين فتحة الفم وفتحة العورة ؟ الأولى يدخل منها الطعام ، والثانية تخرج منها الفضلات ، إن آدم وحواء عندما كانا فى الجنة كانت لا تخرج منهما فضلات بالطعام الخاص الذى خلقه الله لهما، فلما عصيا بدت العورات، وهى مخارج فضلات الطعام والشراب. يقول العلماء: إن العورة هى التى تذكرنا بمعصية الله، فعندما حدثت المعصية ظهرت هذه العورات؛ ولذلك فنحن نريد أن نسترها لأنها رمز للمعصية، وفى نفس الوقت فإنها رمز لكل مخالفة لمنهج الله، فكل شىء يخالف فيه منهج الله لابد أن تظهر فيه العورة.

المجتمع إذا ملأته العورات فاعلم أن منهج الله قد عُطِّل ، والمعصية عورة يخجل الإنسان منها، ويحاول دائما أن يخفيها، الرجل إذا ظهر مع زوجته لا يهمه أن يراه الناس جميعاً، والرجل مع زوجة غيره يريد أن يخفى هذا عن الدنيا كلها ، ويحتاط أشد الاحتياط حتى لا يراه أحد . والإنسان ومعه مال حلال يخرجه أمام الناس كل الناس، والإنسان ومعه مال حرام يريد أن يخفيه عن الدنيا كلها، وهكذا فإن كل معصية عورة يحاول الإنسان أن يخفيها عن الناس، تماما كالعورات التى ظهرت عندما أكل آدم وحواء من الشجرة .

كيف تم إغواء الشيطان لآدم وحواء؟ : ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ . [الأعراف: ٢٠]

وهكذا حاول الشيطان أن يأتى من الجانب الضعيف للإنسان، فالإنسان يريد أن يخلد ويكره الموت.. يريد أن يبقى بلا نهاية، وهكذا جاء الشيطان

ليقول لآدم وحواء: إذا أكلتما من هذه الشجرة ستصبحان ملكين خالدين، ودخلت الغفلة على قلبى آدم وحواء، لأنه لو كان هذا صحيحا لأكل الشيطان من الشجرة وأصبح خالداً ولم يقل لله: ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

والله سبحانه وتعالى يريد أن نعلم أنه مادام إغواء الشيطان بغير حق، فلابد أن يكون هناك منفذ يفضحه ، والمؤمن الحقيقى يتنبه للمنفذ الموجود فى إغواء الشيطان فلا يخضع لإغوائه ، ولذلك لو أن إبليس حين قال لآدم وحواء : ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ . [الأعراف: ٢٠]

كان يجب أن يَتَنبَّها إلى أن إبليس لا يستطيع أن يحول نفسه إلى ملك، ولا يستطيع أن يعطى الخلد لنفسه، فكيف يعطيه لهما ؟ ولماذا - وهو يعرف سر الشجرة - لم يأكل هو منها، يقول الحق: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾. [الأعراف: ٢١]

« وقاسم » تأتى للمشاركة، ومعنى المشاركة أن هناك طرفين كل منهما فاعل فى ناحية ومفعول فى ناحية أخرى ، قاتل زيد عمراً ، فكأن الذى قام بالقتال هو زيد ، ولكن عمراً أيضا قاتل زيداً، فالاثنان كل منهما فاعل من جهة ومفعول من جهة أخرى.

وهناك قصة الأعرابى الذى سار فى مكان مليء بالحيات والثعابين ، لأن هذه الحشرات لا تتجه بالإيذاء إلا لمن يؤذيها، وإنما من يتركها وشأنها لا تتعرض له ، فكأن إيذاءها دفاع عن نفسها ، الشاعر عندما أراد أن يصف ذلك الرجل الذى مشى فى أرض الحيات ولم تلدغه ، قال :

قد سالم الحيات منهما القدما　　　الأفعوان والشجاعَ والقشعمَا

الحيات هنا فاعل، فالحيات سالمت القدم، والقدم سالمها، والأفعوان والشجاع والقشعم أنواع من الحيات، وهذه الأنواع جاء بها بدل، وبدل المرفوع مرفوع، ولكنه رغم أنه رفع الحيات، إلا أنه لم يرفع البدل وهى

الأفعوان والشجاع والقشعم، لأنه فاعل ومفعول، فأعاد عليها البدل بالنصب لأنها فى مكان المفعول.

وعندما يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ فكأن إبليس قد أقسم لآدم وحواء ليصدقاه . ولكن هل أقسم آدم وحواء لإبليس ؟ الجواب . . لا، لأن هناك المفاعلة اللزومية، مثل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾. [الأعراف: ١٤٢] الوعد ممن ؟ من الله سبحانه وتعالى، وهل دخل موسى فى الوعد ؟ نقول: نعم دخل فيه لأنه التزم به وقبله، وهذه هى المفاعلة اللزومية، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ بنفس المعنى، فما داما قد قبلا القسم فقد دخلا فيه وفى تنفيذه، وقاسم بمعنى أقسم ، فكأن الشيطان قد أقسم لآدم وحواء بالله أنه يريد لهما الخير وأن يصبحا ملكين أو من الخالدين، ولذلك عندما عاتب الله آدم وقال له: أنا نبهتك أن إبليس عدو لك ولزوجك، قال آدم: يا رب ما كنت أعتقد أن خلقًا من خلقك يقسم بك على باطل ، أى أنه لم يخطر على بال آدم أن خلقًا من خلق الله يقسم بالله باطلاً، ولذلك قال قتادة رضى الله عنه: المؤمن بالله يخدع . . مامعنى هذا ؟ معناه أنه حين تدخل على المؤمن متوسلاً بالله فإنك تستطيع أن تخدعه.

ولذلك فمن كيد النساء أن الرسولﷺ لما أراد الزواج من امرأة أرادت بعض زوجاته أن يفرقن بينه وبينها، فقلن لها: إذا دخل عليك رسول الله ﷺ فقولى له: أعوذ بالله منك، فإنه يحب هذه الكلمة، فلما قالتها قال لها رسول الله ﷺ: استعذتِ بمعاذ وتركها وخرج[1]. وكان عبد الله بن عمر،

---

(١) عن سهل بن سعد، رضى الله تعالى عنه ، قال: ذكر للنبىّ ﷺ امرأة من العرب، فأمر أبا أسيد الساعدى أن يرسل إليها، فأرسل إليها، فقدمت ، فنزلت فى أجُم بنى ساعدة. فخرج النبىّ ﷺ حتى جاءها، فدخل عليها، فإذا امرأة منكسة رأسها. فلما كلمها النبى ﷺ ، قالت: أعوذ بالله منك، فقال : «قد أعذتك منى» فقالوا لها : أتدرين من هذا؟ قالت: لا. قالوا: هذا رسول الله ﷺ، جاء يخطبك. قالت: كنت أنا أشقى من ذلك. فأقبل النبىّ ﷺ يومئذ حتى جلس فى سقيفة بنى ساعدة، هو وأصحابه ، ثم قال: « اسقنا يا سهل » فخرجت لهم بهذا القدح ، فأسقيتهم فيه . الحديث أخرجه =

رضى الله عنهما، عندما يحسن أحد عبيده الصلاة يعتقه، فكان العبيد إذا رأوه بدأوا يصلون بخشوع فيعتقهم، فقال له الناس: إن العبيد يخدعونك، يتظاهرون أمامك بالصلاة بخشوع لتعتقهم، فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له[1].

وهكذا خدع إبليس آدم وحواء بأن أقسم بالله كذبا : ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾. [الأعراف: ٢١]

أى: أن ما أقوله لكما هو نصح لخيركما ، وكان لابد ألا تكون هناك غفلة من آدم فينخدع بهذا القسم ويصدق أنه نصح لصالحه ؛ لأن الله أمره ألاَّ يقرب هذه الشجرة ، فإذا جاء إبليس وأغراه بمخالفة أمر الله، فلا يأخذ هذا على أنه نصح لصالحه ، إنما يقارن بين الأمر هنا، والذى يدعى النصيحة، وحينئذ كان سيكتشف أن هذه ليست نصيحة، ويكتشف أنها تزيين لمعصية.

= البخارى (٥٦٣٧) ومسلم (٢٠٠٧)، والقصة التى أوردها فضيلة الشيخ الشعراوى فى الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ١٠٢،١٠٣) ط دار التحرير والنشر، مفادها: أن أسماء بنت النعمان بن أبى الجون كانت تحت ابن عم لها فتوفى عنها، وكانت من أجمل النساء، ورغبت فى الزواج من رسول الله ﷺ، فلما أحضرت دخلت عليها عائشة وحفصة فمشطتاها وخضبتاها، وقالت لها إحداهما: إنك من الملوك ، فإن كنت تريدين أن تحظى عند رسول الله ﷺ فإذا جاءك فاستعيذى منه، فإن النبىّ ﷺ يعجبه من المرأة إذا دخل عليها أن تقول : أعوذ بالله منك، فإنه أحظى لك عنده، وخدعت لما رؤى من جمالها، وذُكر لرسول الله ﷺ مَنْ حملها على ما قالت، فقال: «إنهن صواحب يوسف وكيدهن عظيم».

(١) ورد هذا من قول ابن عمر أن نافعاً مولاه قال : كان ابن عمر إذا اشتد عجبه بشىء من ماله قربه لربه عز وجل ، وكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه، فربما شمر أحدهم فيلزم المسجد، فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة أعتقه، فيقول له أصحابه : يا أبا عبدالرحمن والله ما بهم إلا أن يخدعوك ، فيقول ابن عمر : فمن خدعنا بالله عز وجل انخدعنا له. [حلية الأولياء ١/ ٢٩٤].

❊ ولا تقربا هذه الشجرة ❊

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . [البقرة: ٣٥]

ومعنى ﴿اسْكُنْ﴾ هو الهدوء والاطمئنان، فالسكن تطلق على المكان الذى يخلد فيه الإنسان إلى الهدوء والاطمئنان،وإن وجد الإنسان فى مكان ما الهدوء ولم يجد الاطمئنان ، فلا نطلق على ذلك المكان اسم «السكن». ولذلك فحين ننظر إلى فسادات الدنيا فى بيوتنا نجد أن هناك اختلالا فى أحد العنصرين . يستأجر الإنسان بيتا ليلتمس فيه الهدوء ، فيجد ضجيج الشارع لأن المشرفين على المدينة لم يصمموا أماكن للورش أو للأسواق، إنما تركوا الأمر دون أن يأخذوا بأسباب راحة الإنسان . ونجد أن المهندس الذى صمم البيت لم يراع حق الله فى احتياجات الساكن ، إنما راعى حق صاحب العمارة فضيق على الساكن من أجل زيادة دخل صاحب العمارة.

ونجد أن المساحات اللازمة لوجود الخضرة لتنقية الهواء والبيئة ولعب الأطفال ، نجد هذه المساحات قد تحولت بأيدى السماسرة والمستغلين إلى أماكن يؤجرونها من أجل زيادة الدخل ، والكل يتناسى أن الدخل ليس هو عدد الأوراق المالية التى تدخل جيب صاحب البيت أو المهندس ، أو الذى ترك المدينة دون تخطيط ، ولكن الدخل هو حسن رعاية كل منا لعمله فينشأ بين الجميع رباط من المحبة ،لأن كلا منا أتقن عمله واتقى الله فيه . فعاد الإتقان وعادت التقوى بدخل يزيد من الخير على الفرد وعلى المجتمع،فتوفير الهدوء وتخصيص العلم فى خدمة البشر لون من العبادة لله ، وعندما يهدأ الإنسان فى بيته ويعرف أن الضجيج بعيد عنه ، فإن عمله يزداد إنتاجا مما

يعود على المجتمع بالدخل الأكبر وهو الاتساق والانسجام ، وعندما يدخل الإنسان فى بيته فيجد الهدوء ، فهذا هو النصف الأول من معنى السكن.

النصف الثانى من السكن : هو البيئة التى اختار منها الرجل زوجته ، فإن اختارها زوجة صالحة من بيئة صالحة فسوف يجد النصف الثانى من السكن، فالمرأة الصالحة تعرف أن مهمتها هى توفير الاطمئنان للزوج العائد من العمل المرهق ، فهى لا تخونه فى رزقه وترعى الله فى تربية الأبناء(١) .

وإذا كانت ظروف الحياة الاقتصادية فى زماننا تقتضى أن تخرج المرأة للعمل فإن التزامها بأوامر الله ونواهيه فى مقر العمل ، وإتقانها لذلك العمل، وتعاون الزوج معها فى إدارة البيت إلى جانب عمله ، كل ذلك يخلق النصف الثانى من السكن وهو الاطمئنان . وعندما يكتمل للإنسان الهدوء والاطمئنان فإن السكن يصبح ممتلئًا بالرحمة والبركة . فالهدوء يأتى بالرحمة، والاطمئنان بالبركة . وفى ذلك يقول الحق جل وعلا : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ . [التوبة: ١٠٣]

إن صلاة النبى على المؤمنين هى سكن لهم واطمئنان وراحة. ولهذا فإذا أردنا بيوتًا هادئة مطمئنة فذلك بجهد فردى مؤمن ، وتعاون اجتماعى مؤمن. ولنعرف أن كلمة ﴿سَكَنٌ﴾ التى وردت بالقرآن الكريم هى دستور حياة اجتماعية مسلمة . فالرجل خارج بيته لا ليكسل إنما لينتج ، والإنتاج حركة وعمل صالح يعطى من الخير ما يكفى الفرد ويزيد لرعاية العاجز فى المجتمع ويعود إلى البيت ليجد السكينة فيه ، بيت تم بناؤه وتخطيطه من مهندس

---

(١) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « كلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راعٍ وهو مسؤول عنهم ، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسؤولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» . أخرجه البخارى [٢٥٥٤] ، ومسلم [١٨٢٩] .

يرعى الله ومن صاحب بيت يرجو بركة الله ، ومن موظفين يشرفون على مساحات الخضرة لينشأ أطفال جدد فى بيئة مؤمنة تعرف حق الطفل فى حياة فيها صحة وعافية ، وتضمن له التمتع فى الحياة بما يتلاءم وعمره ، وبما لا يخالف منهج الله فى التنشئة .

إن كلمة ﴿اسْكُنْ﴾ كما وردت فى الكتاب الكريم هى دستور إيمانى ينتجه عمل أفراد يؤمنون بالله ، ومجتمع يطبق شريعة الله.

وعندما يقول الحق: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ فإن الجنة التى سكنها آدم كما قلت من قبل: هى جنة للتدريب على مهمة الاستخلاف فى الأرض، ويجب ألا نظلم أبانا آدم فنتخيل أنها جنة الجزاء. إنها جنة للتدريب تتوافر فيها أسباب الحياة . وفى ذلك الأمر معرفة لطبيعة الجنة التى سكنها آدم ومعه حواء ليأكلا رغدًا ويشربا هنيئًا ويتعرف هو وزوجه على تلك الجنة وما فيها ، فالحرية محددة بقوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ومن كلمتى ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ تتضح لنا وفرة الرزق ، كما توضح هاتان الكلمتان تنوع ما فى الجنة من ألوان الطعام والشراب وتباين رغبات النفس الإنسانية ، فمرة يشتاق الإنسان إلى الطعام الحلو أو إلى اللحم أو إلى المشهيات ، وفى ذلك دليل على أن الخالق لم يحبس شيئًا عن آدم وزوجه لعلمه بتناقض احتياجات النفس البشرية ولسعة عطائه لآدم.

ولكن النهى يأتى واضحًا بعد ذلك حين يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ إن التحديد بالنهى عن عدم الاقتراب من تلك الشجرة يعنى أن تظل الشجرة فى دائرة من التحريم . وإن لنا أن نتأمل دقة اللغة العربية عندما نجد أن كل لفظ يحمل المعنى الواضح . إن القرب يعنى أن يكون الشيء على مسافة قليلة من الإنسان ، وإذا كان القرب فيه تداخل وتلامس ، فإن اللغة لا تعرف ذلك بأنه قرب ولكنه قربان تمامًا مثلما نقول عن لقاء الزوج بزوجته لأن فى هذا القرب امتزاجا . وعندما قال الحق :

﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ فذلك يعنى تحريم الاقتراب متضمنًا تحريم الأكل من هذه الشجرة ، وكأن المراد بالتحريم ألا يحوم آدم وزوجه حول مكان هذه الشجرة حتى لا توسوس لهما النفس أو يزلهما الشيطان بالغواية للأكل منها، وفى ذلك استدلال على تحريم الله الخمر.

إن الأمر باجتناب الخمر إنما يعنى الابتعاد عن دائرة وجودها فى مكان ما ، أو الاختلاط بشاربيها لما فى ذلك إما دعوة لتناولها أو تعرض لمهانة التواجد مع أناس اختلط عليهم الوعى باللاوعى وغاب عنهم العقل وفى ذلك المعنى جاء فى الحديث النبوى هذا القول: « **ألا وإن لكل ملك حمًى ، وإن حمَى الله محارمه** » و« **من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه** »[1] وهكذا كان التحريم واضحًا بعدم الاقتراب من تلك الشجرة . ولما اقترب منها وسوس لهما الشيطان ، فأكلا من الشجرة ، فجاء عقاب الله لآدم وزوجه. وكأن الاقتراب من الشجرة عند آدم يتشابه مع اقتراب الإنسان من مكان الخمر .

البعض يحتسى الخمر بدعوى أن تحريمها لم يأت مباشرة ! لهؤلاء نقول: إن الأمر بالاجتناب يتضمن التحريم الأشد والأكثر أهمية . فلقد استخدم الأمر بالاجتناب للخمر وللميسر وللأصنام . تلك الأصنام التى نزلت رسالة محمد ﷺ لتوضح للغافلين ضلال عبادتها.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن**

---

(1) عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ؛ كالرَّاعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملكٍ حِمى ، ألا وإن حِمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مُضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » . متفق عليه ، أخرجه البخارى [٥٢] ، ومسلم [١٥٩٩] واللفظ له .

﴿ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ . [المائدة: ٩٠-٩١]

إن المؤمنين بكتاب الله مدعوون لاجتناب الخمر والقمار ، والاقتراب من الأصنام ومحاولة ضرب الأحجار ، أو قراءة الورق لمعرفة الغيب ، ذلك أن تلك الأعمال هى من تزيين الشيطان ، وتصرف الإنسان عن عبادة الله وتوقعه فى الضلال . ولهذا فإن لنا أن نحتكم إلى البصيرة المؤمنة والمعرفة الدقيقة باللغة لنعرف مدى تحريم الخمر، ولهذا أيضا كان الشيطان هو الذى وسوس لآدم وزوجه بالاقتراب من الشجرة . ولقد حاول بعض أهل العلم أن يتعرفوا على نوعية الشجرة التى أمر الله آدم بعدم الاقتراب منها . هل هى شجرة التين ؟ هل هى شجرة التفاح ؟ هل هى كرمة العنب ؟ هل هى سنبلة القمح ؟

لكل هذه الاجتهادات نقول: إن الخالق لو أراد التحديد لأوضح لنا نوعية الشجرة فى القرآن الكريم والبحث فى هذا المجال نوع من العلم الذى لا ينفع والجهل بهذه الشجرة لا يضر[1] إن هذه الشجرة رمزية لأمر نهى عنه الله ، لقد كانت الشجرة رمزًا لاختبار آدم وزوجه ، وقد حذرهما الخالق من الاقتراب من تلك الشجرة المحرمة . لماذا ؟ حتى لا ينطبق عليهما قول الحق: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هنا نسأل: ما معنى الظلم ؟ إن الظلم كالجور أى

---

(١) قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير رحمه الله : والصواب فى ذلك أن يقال : إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه فأكلا منها كما وصفها الله جل ثناؤه به ، ولا علم عندنا أى شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن ولا فى السنة الصحيحة .

وقد قيل : كانت شجرة البر (القمح) . وقيل : كانت شجرة العنب . وقيل : كانت شجرة التين .

وجائز أن تكون واحدة منها وذلك إن علمه عالم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به . والله أعلم . [تفسير الطبرى ١/ ٢٣٣].

نوع من الاعتداء أو القسر أو القهر أو انتقاص القدر أو القيمة[1] ، ويقابل الظلم الإنصاف كما يقابل الجور العدل . الظلم إذن انتقاص من حق. وما بالنا عندما ينتقص الإنسان من حق نفسه أى أن يظلم نفسه. أن يكون الإنسان مظلوما من نفسه وأن يكون ظالما لنفسه.

وظلم النفس من أبشع ألوان الظلم ، إن النفس التى كرمها الله وخلقها كانت تستحق من الإنسان أن يرعاها وأن يحقق مراد الله منها وأن يمنع عنها إلحاح اشتهاء ما يغضب الله. وظلم النفس يقول فيه الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ . [آل عمران: ١٣٥ : ١٣٦] . وهكذا نرى التفريق بين فعل الفاحشة التى تتلخص فى العمل الطالح الذى قد يحقق به الإنسان شهوة أو نفعًا عارضًا أو يؤذى المجتمع ، ونجد أن ظلم النفس لون آخر من العمل السيئ ، إن ظلم النفس يعنى أن يبيع الإنسان دينه لدنيا غيره، إن الذى يبيع دينه لدنيا غيره لا يحقق لنفسه أى نفع آجل أو عاجل.

---

(١) يقول ابن رجب الحنبلى فى كتابه : جامع العلوم والحكم : إن الظلم فى نفسه محرم مطلقاً وهو نوعان :

أحدهما : ظلم النفس وأعظمه الشرك كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ فإن المشرك جعل المخلوق فى منزلة الخالق فعبده وتألهه ، فهو وضع الأشياء فى غير مواضعها، وأكثر ما ذكر فى القرآن وعيد للظالمين إنما أريد به المشركون كما قال الله عز وجل : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، ثم يليه المعاصى على اختلاف أجناسها من كبائر وصغائر .

والثانى : ظلم العبد لغيره ، وهو المذكور فى حديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرماً فلا تظَّالموا. . . » الحديث بطوله رواه الإمام مسلم [٢٥٥٧].

والنوع الأول: يأتى فيهم القول: «شر الناس من باع دينه بدنياه» هؤلاء هم أصحاب الفوا-حش .

والنوع الثانى: يأتى فيهم القول: «وشر من هؤلاء الذين باعوا دينهم بدنيا غيرهم» لهؤلاء، وأولئك كتب الله لهم الطريق إلى النجاة : بأن يذكروا الله وأن يستغفروا وألا يعودوا إلى مثل تلك الفواحش ، أو ظلم النفس حتى يغفر الله لهم ويرزقهم الجنة . ذلك أن الله لا يظلم أحدًا.

ولكن الناس يظلمون أنفسهم... لماذا ؟ لأن الناس تنقص قدرهم من النافع الباقى ويقعون أسرى الزائد الذى يزول ، هكذا نفهم معنى قوله تعالى عندما حرم الاقتراب من الشجرة على آدم وزوجه حتى لا تكونا من الظالمين.

يأتى بعد ذلك قول الحق : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ وفى ذلك إيضاح بأن الشيطان قد باشر مهمته ، الزلة تعنى الكبوة ، وكبوة آدم وزوجه أنهما لم يتذكرا العداوة المسبقة بينهما وبين الشيطان حين امتنع الشيطان عن السجود ، وحين استكبر على السجود ، ورغم أن آدم كان عليه أن يتوجس من الشيطان إلا أن الخالق حذر آدم وزوجه ولم يترك لهما الاستنباط رحمة منه فقد قال لهما: إن الشيطان عدو مبين، لكن آدم نسى ولم يكن له عزم ، لذلك استطاع الشيطان أن يمارس مهمته فى الإغواء: قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. [الأعراف : ٢٠ - ٢٢]

هكذا كان خروج آدم وزوجه من جنة التدريب . أخرجهما الشيطان بعد أن نسى آدم تحذير الله له .

نسى آدم أن الشيطان قد ادعى أنه من جنس أرقى منه ، نسى آدم تحذير الله له من العداوة المسبقة بينه وبين إبليس . أصغى آدم وزوجه لوسوسة الشيطان بأن الله قد منع عنهما الاقتراب من الشجرة والأكل منها حتى لا يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين . هكذا كان الإغواء متعددًا، مرة يكون الإغواء بأن آدم وزوجه سيصيران ملكين بالأكل من الشجرة ، ومرة أخرى يكون الإغواء بالخلود.

ولهذا قلنا: يجب أن نفرق بين شهوة النفس التى تلح على الإنسان بفعل معين ومعصية بعينها فيرتكبها الإنسان وبين إلحاح الشيطان ووسوسته . إن الشيطان يطلب الإنسان عاصيًا على أى لون وبأية طريقة . إن الشيطان لا يهتم بنوع معين من المعصية ، فالمهم عند الشيطان أن يكون الإنسان عاصيًا مهما كانت المعصية .

فها هو ذا الشيطان يمنى الإنسان مرة بالخلود. وها هو ذا مرة أخرى يمنى الإنسان بالملائكية. ونسى آدم أن الشيطان قد تلقى العقاب بالطرد من الجنة لتمرده على أمر الحق تبارك وتعالى بالسجود لآدم.

ولقد أوضح الخالق الأكرم وسوسة الشيطان وذلك لينبه الإنسان إلى دلالة اجتماعية هامة. فالحق تبارك وتعالى يقول: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾. [طه: ١١٧]

وهكذا يلفتنا الحق إلى أن الشقاء والكد فى الحياة هما مسئولية الرجل. إن كلمة «تشقى» هنا كانت منصبة على آدم وليس على آدم وزوجه. وهذه لفتة اجتماعية إلى مهمة الرجل وهى : العمل والكد من أجل أن يحقق بنوعية عمله فى أسباب الرزق ما يكفى الزوجة والأسرة، وأن يكون عمل المرأة هو رعاية البيت. ذلك أن المرأة سكن للرجل ولا يسكن إلا الذى يتحرك بكد ودأب، وأن تكون المرأة سكنًا فليس معنى ذلك أنها بلا عمل. . لا . . إن مهمة المرأة كسكن تعنى إعداد المتحرك للراحة حتى يهدأ ويعود للحركة مرة ثانية .

وإذا كانت المجتمعات المعاصرة قد أرادت استغلال المرأة والرجل معًا بامتصاص جهدهما سوياً من أجل توفير أسباب القوت الضرورى، لهذا نرى شقاء الرجل والمرأة فى تلك المجتمعات ونرى شقاء تلك المجتمعات أيضًا. فالرجل الذى لا يجد فى زوجته سكنًا، ويجدها مرهقة مثله ، يزيد إرهاقه ويقل إنتاجه ويعانى من الاغتراب فلا يجد من يؤانسه ولا يرعى أبناءه، والمرأة عندما تخرج من البيت للعمل، تعود مرهقة وتستقبل فى المنزل زوجًا مرهقًا وأطفالاً مشتتين فتعانى من عذابات كثيرة، عذابات الاغتراب، وعدم الانسجام مع الزوج وعدم القدرة على تربية الأبناء بالقدر الكافى من الحنان. إن ثبات الحقيقة العلمية التى أوردها القرآن الكريم. رضاعة الطفل من أمه هى تنمية له واستثمار فى صحة المجتمع نفسه بتنشئة أطفال مشبعين بالحنان وبالمواد التى تبنى أجسامهم بصحة وعافية. هذه الحقيقة العلمية التى اكتشفوها أخيرًا هى التى دعت الحكومات إلى منح النساء إجازات لرعاية الأبناء، وثبات الحقيقة العلمية التى تؤكد زيادة نسبة اضطراب المرأة عصبياً عندما لا تجد من يرعى ابنها فى حضانة تمنحه مثلما تمنحه الأم. ثبات تلك الحقيقة يؤكد أن رعاية الأم تفوق بالتأكيد أية رعاية أخرى، وهذه الرعاية ليست أمرًا مفروضًا على الأم ، بل هو أمر غريزى ترتوى به الأم عطاء لأبنائها كما يرتوى الأبناء أخذًا.

وثبات الحقيقة العلمية أن حنان الأم يعطى الأبناء ثقة بالنفس، وصحبة الآباء تجعل الأبناء ينشأون على محبة الأسرة. تلك الحقيقة ثبتت فى النظام الأسرى للإسلام وافتقدها الغرب فى هذه الأيام عندما رأى زيادة فى أعداد المنحرفين بين شبابه، وليس معنى ذلك أن الإسلام يحرم عمل المرأة، ولكن الإسلام يضع الأسس التى تسير عليها حياة الأفراد بانسجام واطمئنان. فإذا كانت المرأة هى عائلة لأسرتها أو أن ظروف الحياة تفرض عليها العمل مشاركةً للزوج فلتعلم أن ذلك - رغم أنه قد يفيد الأسرة فى عاجل الأمر- يجعل الأسرة تدفع ثمنه انتقاصًا من راحتها واطمئنانها، ونحن أحياناً لا نلتفت فى

بعض الأمور إلى الأطر العريضة التى وضعها الخالق الأكرم لانسجام الإنسان: رجلا وامرأة، وكأننا ننسى كما نسى آدم. وإذا كان النسيان قبل رسالة محمد ﷺ معصية، فإن النسيان بعد رسالة محمد ﷺ لم يعد معصية وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ ما معناه: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[1] .

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تجاوز لى عن أمتى: الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه » .
الحديث فى صحيح الجامع الصغير تحت رقم [١٧٣١] رواه الإمام أحمد [١٧/ ١٣ الفتح الربانى] بلفظ : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت فى أنفسها أو وسوست به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلّم به » . وابن ماجه فى السنن [٢٠٤٣] ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [١٦٦٢] .

* إلا إبليس لم يكن من الساجدين *

قصة آدم عليه السلام جاءت أول ما جاءت فى سورة البقرة وهى ثانى سورة ترتيبية فى القرآن الكريم يقول تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . [البقرة : ٣٠ - ٣٩]

إن اللقطات التى ترويها سورة البقرة عن آدم عليه السلام تتحدث عنه بما يلى :

- أول بلاغ من الله عنه قبل أن يخلقه .
- الحوار الذى دار بين الملائكة وبين الله سبحانه وتعالى بشأن خلق الخليفة .
- أن آدم هو خليفة عن الله فى الحكم بين خلقه فى الأرض[1].
- أن الله علم آدم الأسماء كلها ليسوس حركة الحياة على منطق من علم الأشياء عن طريق العلم بمسمياتها .
- أن إبليس أبى واستكبر على السجود فكان من الكافرين .
- أن آدم سكن الجنة للتدريب على مهمة الخلافة فى الأرض .
- أن الشيطان قرر الانتقام من آدم وزوجه فأغواهما بمعصية الله .
- أن آدم بمعصيته خرج من الجنة وتلقى كلمات من ربه ليتوب عليه .

وعلى ذلك فالإنسان عندما يريد أن يؤرخ لقصة آدم لابد أن يستوعب كل تلك اللقطات واللقطات التى جاءت فى السور الأخرى والتى كان مراد الله منها تثبيت قلب الرسول ﷺ وقلوب المؤمنين، حيث إن هناك مناسبة لكل لقطة .

ولنر كيف جاءت اللقطات عن آدم عليه السلام فى سورة الأعراف :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ

---

(١) قال الماوردى : وفى خلافة آدم وذريته ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه كان فى الارض الجن فأفسدوا فيها ، سفكوا الدماء ، فأُهلكوا ، فجعل آدم وذريته بدل لهم ، وهذا قول ابن عباس.

والثانى : أنه أراد قوما يخلف بعضهم بعضاً من ولد آدم الذين يخلفون أباهم آدم فى اقامة الحق وعمارة الأرض، وهذا قول الحسن البصرى.

والثالث : أنه أراد جاعل فى الأرض خليفة يخلفنى فى الحكم بين خلقى ، وهو آدم ، ومن قام مقامه من ولده ، وهو قول ابن مسعود. [تفسير الماوردى ١/ ٩٥]

قلت : ومعنى قول ابن مسعود رضى الله عنه : هو أن الحاكم يقوم بما أوجبه الله عليه من إقامة شريعته فى الأرض ونشر العدل بين الناس.

إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾. [الأعراف : ١١ - ٢٧]

ونفهم من لقطات «سورة الأعراف» عن قصة آدم ما يلى: أن الأصل فى الخلق هو آدم ، وآدم مطمور فيه كل نسمات المخلوقين إلى أن تقوم الساعة. وأراد الله عند خلق آدم أن توجد فيه الذرات والأبعاض التى يتكون منها

جميع الخلق من البشر . ولإيضاح ذلك نقول : كل منا يعرف الحقيقة العلمية التى أوردها لنا الخالق وتوصل لها العلم ، هذه الحقيقة هى أن الجنين يتكون فى الأصل من حيوان منوى عند الرجل وبويضة فى رحم المرأة وعندما يتم اللقاء الجنسى يتم تلقيح البويضة بالحيوان المنوى لتبدأ رحلة تكوين الجنين. وهكذا كان الخلق من آدم وحواء وتناسلهما، ظلت الحيوانات المنوية تتلاقح بالبويضات بين سلالة آدم رغم موت آدم وحواء ولكن بقى بعض من أبنائهما أحياء، ومات أبناؤهما وبقى بعض من أبناء الأبناء أحياء إلا أن الحياة ظلت تتواصل من جيل إلى جيل ، كل جيل يموت ويترك جيلاً آخر يمتلئ ويتحرك بالحياة ، إذن ففى كل منا جزء لم يطرأ عليه الموت قادم من آدم وحواء. فى كل منا حياة موصولة لنا من آدم وموصولة لمن بعدنا فى أبنائنا ، وستظل الحياة موصولة لا يطرأ عليه موت إلى أن تقوم الساعة.

إذن فحين سجد الملائكة لآدم سجدوا لكل ذرية آدم المطمورة فيه والتى تظل متصلة إلى أن تقوم الساعة . ولأقرب الصورة أكثر ، لنتخيل أن هناك سنتيمتراً مكعبًا من مادة حمراء ملونة ووضعنا هذا السنتيمتر المكعب فى لتر من الماء وأذبناه جيدًا فى هذا اللتر ، ثم وضعنا هذا اللتر فى برميل ومزجناه جيداً ، ثم ألقينا هذا الماء الذى فى البرميل فى البحر الذى استوعبه جيداً بحركة الموج والتيارات التى فى البحر ، هكذا نعرف أن كل سنتيمتر من ماء البحر فيه جزء لا يراه أحد ، له أصل بالسنتيمتر المكعب الأول من المادة الحمراء الملونة. وهكذا نحن ، كل منا فيه جزء من آدم وفى هذا الجزء صورة الإنسان وتكوينه ، وهذا ما يقال عنه الآن «علم الوراثة» وهكذا نرى أن الحديث عن آدم فى «سورة الأعراف»، تضمن خطابًا للبشر جميعًا حين قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ . [الأعراف:١١]

وفى لقطات «سورة الأعراف» أيضًا نتعرف على جنسية الشيطان أنه من نار[1] وأن الإنسان من طين ، وأن الشيطان سيقف للبشر على الصراط المستقيم ، وحددت السورة الجهات التى يأتى منها الشيطان ليهاجم الإنسان من الأمام والخلف والشمال واليمين ،ولم يقل الأعلى أو الأسفل ، لأن من يعى من البشر أن له وابٌ أعلى، وهو - أى الإنسان - مخلوق من طين الأرض التى يحيا عليها، لن يستطيع الشيطان أن يقربه ، ذلك أنه يعى عن يقين أن له إلهاً له علياء الربوبية والمخلوق عبد له ذل العبودية .

وتحدد لقطات «سورة الأعراف» كيفية الإغواء الأول لآدم وزوجه عن طريق الحرص على نعمة الحياة وهى الخلود ، ونعمة اللهفة للارتفاع والسيادة والاستمتاع تلك التى سول الشيطان لهما أن الوصول إلى تلك النعمتين يأتى عن طريق الأكل من الشجرة المحرمة.

وتحدد لقطات «سورة الأعراف» خروج الشيطان مذءومًا مدحورًا من رحاب الله ، وأنه هو وسلالته سوف يتمتعون بقدرة رؤية البشر بينما البشر بخاصية خلقهم لن يروا الشياطين .

وتحدد لقطات «سورة الأعراف» كيفية توبة آدم وزوجه بعد أن غرر بهما الشيطان فرأى كل منهما سوءات نفسه .

وتحدد لقطات «سورة الأعراف» أيضًا كيف خلق الله للإنسان من الوسائل ليوارى سوءاته . ويحذرنا الخالق أن الشياطين هم أولياء الذين لا يؤمنون ، وأن التقوى هى لباس المؤمنين .

وهكذا نرى أن اللقطات التى جاءت فى «سورة الأعراف» اختلفت عن لقطات «سورة البقرة» وأضافت لنا معرفة أكثر بتفاصيل قصة آدم . وهكذا نجد أن التكرار يتضمن مغزى ومعنى وهدفاً.

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « خُلقَتْ الملائكة من نور ، وخُلق الجانُّ من مارج من نار ، وخُلق آدم مما وُصفَ لكم » أخرجَه مسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) وأحمد فى مسنده (٦/ ١٥٣ ، ١٦٨).

ولنسمع قول الله تعالى فى لقطات جديدة فى الخلق لآدم فى «سورة الحجر» ، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾. [الحجر: ٢٦ ، ٤٦]

وبهذا القول الكريم عن قصة خلق آدم تكتمل لقطات لنا وتتعمق فى وجداننا وإيماننا معان جديدة حيث تخبرنا الآيات الكريمة :

أن خلق الإنسان قد تم من حمأ مسنون، بينما الشيطان مخلوق من نار السموم(١).

وأن الشيطان ملعون إلى يوم الدين ولعنته مستمرة ، ورجيم وسوف يزين الغواية للبشر ليكون مصيرهم أبواب جهنم السبعة(٢)

---

(١) نار السموم: هى نار شديدة الحرارة لها قوة النفاذ فى الأجسام وتؤثر فيها.
[التفسير الوسيط]

(٢) قال سبحانه : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: ٤٤] : قال أبو حيان فى تفسير البحر المحيط [٦/ ٤٧٩] : « قيل أبواب النار أطباقها وأدراكها ، فأعلاها =

أن العباد المخلصين لربهم الرحمن لن يجرؤ الشيطان على غوايتهم ، وتقواهم تفتح لهم أبواب الجنة.

أن عدم سجود إبليس وراءه الترفع والرفض والعصيان لأمر الله وذلك الكفر فى قمته، لذلك فهو إمام الغاوين.

وفى سورة الكهف نجد اللقطة التى تحدد علاقة يوم القيامة ببداية الخلق وكيفية الحساب ، وكيف أن إبليس فسق عن أمر ربه وأنه كان من الجن وأن من اتبع إبليس قد يمارى ويجادل فى قصة الخلق رغم أن أحدًا من هؤلاء المضلين لم يشهد خلق السموات أو الأرض أو خلق أنفسهم، وفى ذلك يقول الحق:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾. [الكهف: ٤٧-٥١]

هكذا نجد الربط بين نهاية الإنسان وبدايته ، إنه يبعث يوم القيامة بعد أن تسير الجبال وتبرز الأرض ويحشر البشر جميعًا لا ينقص منهم أحد . كأنهم الخلق الأول . هكذا يجد كل كافر بالآخرة والبعث نفسه أمام الخالق وكل

= للموحدين ، والثانى لليهود ، والثالث للنصارى ، والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين ».

وعن ابن عمر أن النبى ﷺ قال: «لجهنم سبعة أبواب ، باب منها لمن سل سيفه على أمتى». [أحمد فى المسند ٢/ ٩٤]

واحد أمامه كتابه. ولا يترك ذلك الكتاب صغيرة ولا كبيرة [1]. كل الأعمال محصورة فيه وواضحة ولا يظلم ربنا أحداً.

وتُذكِّرنا النهاية بالبداية عندما خلق الله آدم وأمر الملائكة بالسجود فسجدوا إلا إبليس الذى هو من الجن والذى فسق عن أمر الله وخرج عن الطاعة بالمعصية الكبرى ، فهل إبليس وذريته جديرون بأن يتخذهم الإنسان أولياء من دون الله ؟! رغم العداوة التى بين إبليس وذريته وبين آدم وذريته إنّ هؤلاء المضلين المنكرين للنهاية لا يعرفون البداية فلم يشهدها أحد منهم .

وصدق الله : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ . [الكهف: ٥١] .

---

(١) قد ورد فى تفسير الطبرى [١٥ / ٢٥٨] أن ابن عباس قال : الصغيرة : الضحك.

❋السجود لآدم بأمر الله❋

أثارت قصة سجود الملائكة لآدم خلافًا وجدلا بين العلماء، إذ كيف يتم السجود لغير الله؟ قال الحق: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ . [ص: ٧٢]

قال بعض العلماء(١) أن أمر الله بالسجود هنا المراد به هو التحية والتعظيم وليس السجود الفعلى، لأن السجود لغير الله منهى عنه.

ولكن السجود هنا لابد أن يؤخذ بمعنى السجود.. لماذا ؟ لأن الملائكة لم تسجد لآدم، وإنما سجدت لأمر الله بالسجود لآدم، تماما كمسألة القبلة عندما أمرنا الله أن نتجه فى الصلاة إلى المسجد الأقصى. لم يكن المسلمون يسجدون للمسجد الأقصى، ولكن لأمر الله فى الاتجاه إليه ، فلما تغير الأمر وأصبحت الكعبة هى القبلة اتجه المسلمون إلى الكعبة، ولكنهم لا يسجدون للكعبة ذاتها، ولكن لأمر الله سبحانه وتعالى بالسجود للكعبة .

---

(١) قال الماوردى : اختلف أهل التأويل فى أمره الملائكة بالسجود لآدم على قولين :
أحدهما : أنه أمرهم بالسجود له تكرمة وتعظيماً لشأنه.
والثانى : أنه جعله قبلة لهم فأمرهم بالسجود إلى قبلتهم وفيه ضرب من التعظيم
وأصل السجود الخضوع والتطامن ، قال الشاعر :

بجمع تضل البلق فى حجراته ترى الأكم فيه سجد للحوافر

وسمى سجود الصلاة سجوداً لما فيه من الخضوع والتطامن ، فسجد الملائكة لادم طاعة لأمر الله تعالى ، إلا إبليس أبى أن يسجد له حسداً واستكباراً .
[تفسير الماوردى ١/ ١٠١ ، ١٠٢] .
قلت فى معنى التطامن: ورد فى أمثال العرب: إذا رأيت الرياح عاصفاً فتطامن، إذا رأيت الأمر عالياً فاخضع له «غاية النفع لابن رجب بتحقيق الشيخ أشرف عبد المقصود ص٢٨» وفى لسان العرب (١٣/ ٢٦٨) يقال : تطامن ظهره إذا حنى ظهره ، بغير همز لأن الهمزة فى اطمأن أدخلت فيها حذار الجمع بين الساكنين وفى معجم مفردات ألفاظ القرآن للأصفهانى (٣١٧) : اطمأن وتطامن يتقاربان لفظاً ومعنى .

إذن فالكعبة نفسها بدون أمر الله لا يسجد لها أحد، وآدم بدون أمر الله لم يكن ليسجد له أحد، يأتى بعض الناس ليقولوا: لا يُسجد إلا لله. نقول لهم: ولا يُسجد أيضا إلا لأمر الله، والله سبحانه وتعالى حين قال: اسجدوا، سجدنا طاعة لأمر الله، وليس للمسجود له فى ذاته. ولذلك فإن الملائكة لم يسجدوا لآدم لذاته، وإنما سجدوا لأمر خالق آدم؛ ولذلك فى قصة يوسف عليه السلام يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾.[1] [يوسف: ١٠٠] السجود هنا لأمر الخالق ، والعمل بالنية، والنية فى سجود الملائكة لم تكن لعبادة آدم ، ولكن لطاعة أمر الله ، وأمر الله لابد أن يطاع .

وبعض الناس يسأل أسئلة لا يصح أن تثار، لماذا الملائكة يسجدون؟ نقول: إن الله سخر الكون كله لآدم وذريته ، وسخر من الملائكة من يخدمون آدم وذريته ، منهم المدبرات أمرًا الذين يقومون بتنفيذ أوامر الله بالنسبة للإنسان ، ومنهم الحفظة الذين يكتبون كل مايحدث من البشر ، فكأن سجود الملائكة هو سجود ألفة ومعرفة ، والذين سجدوا هم الموكلون لخدمة الإنسان فى الأرض، أما الملائكة العالون المقربون إلى الله فإنهم لم يسجدوا ، بدليل قول الله سبحانه وتعالى لإبليس حينما رفض السجود: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ . [ص: ٧٥] أى من الملائكة العالين الذين لم يشملهم أمر السجود، إنما

---

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم سجدوا ليوسف تعظيماً له . قال قتادة : وكان السجود تحية من قبلكم وأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة ، وقال الحسن : بل أمرهم الله تعالى بالسجود له لتأويل الرؤيا، وقال محمد بن إسحاق : سجد له أبواه وإخوته الأحد عشر.

والقول الثانى : أنهم سجدوا لله عز وجل ، قاله ابن عباس وكان يوسف فى جهة القبلة، فاستقبلوه بسجود ، وكان سجودهم شكراً ، ويكون معنى قوله ﴿وَخَرُّوا﴾ أى سقطوا كما قال تعالى ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ أى سقط .

والقول الثالث: أن السجود ها هنا الخضوع والتذلل، ويكون معنى قوله تعالى ﴿خَرُّوا﴾ أى بدروا. [تفسير الماوردى ٣/ ٨٢].

سجدت الملائكة الذين سيخدمون آدم ومنهم الحفظة ، منهم رقيب وعتيد ، فلكل ظاهرة من ظواهر الكون ملك يختص بها. وعلى أية حال ودون الدخول فى جدل لا يفيد ، الملائكة سجدوا لأمر الله، ولم يسجدوا لذات آدم، والسجود لم يكن عبادة لآدم، ولكنه كان عبادة لله بإطاعة أوامره ، ولهذا كان السجود لله .

ما الذى منع إبليس أن يسجد لآدم ؟!

يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ . [الاعراف: ١١]

وحين يقول الحق: إن إبليس لم يكن من الساجدين، فهذا دليل على أن إبليس دخل فى أمر السجود، إذ كيف يقول الحق: إن إبليس لم يكن من الساجدين، وأمر السجود لم يشمله؟. لابد أن الأمر قد شمل إبليس، وما دام هنا استثناء بـ ﴿ إِلاَّ ﴾ فمعنى ذلك أنه رفض أمر السجود، ولكننا فهمنا أن الأمر للملائكة، فهل إبليس من الملائكة حتى يشمله أمر السجود؟. نقول: إن الحق سبحانه وتعالى قد أوضح ذلك لنا فى سورة الكهف فى قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾؛ فقوله تعالى : ﴿ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ أخرجه من جنس الملائكة.

وقوله تعالى : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ تأكيد لأن إبليس من الجن؛ لأن الجن كالإنسان مخلوق له اختيار، يستطيع أن يطيع، ويستطيع أن يعصى. ومادام له اختيار فإنه ليس من الملائكة؛ لأن الملائكة ليس لهم اختيار، فهم: ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ . [التحريم: ٦]

وهكذا نجد أن قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ . [الأعراف: ١١] لا يدلُّ على أن إبليس من الملائكة؛ لأن الملائكة لا يستطيعون المعصية.

وبعض العلماء يقول: إن النص القرآنى فيه التزام بأن إبليس من الملائكة بدليل قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾، ولكننا لابد أن نحمل نص الالتزام على النص القرآنى: ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ [الكهف: ٥٠]، وهكذا

تأتى هذه الآية لتعطينا حكمًا بأن إبليس كان من الجن.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الملائكة ليس لهم اختيار؛ ولذلك فإن الإنس أو الجن الذى يكون قادرًا على المعصية ويطيع، ويأتى الله عن طواعية واختيار يكون فى هذه الحالة أعلى منزلة من المَلَك؛ لذلك كانوا يسمون إبليس: طاووس الملائكة، لأنه كان يزهو فى حضور الملائكة بإلزام نفسه بمنهج الله، فكان يزهو على الملائكة بأنه صالح أن يطيع أو أن يعصى ولكنه تميز بالطاعة، وهذا الغرور هو الذى أوقع إبليس فى المعصية. ومادام إبليس قد تلقى أمر السجود؛ فلابد أنه حضر البلاغ الأول حين قال الله سبحانه وتعالى: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، وسجد المفطورون على الطاعة، وهم الملائكة، وكان من المفروض أن يسارع فى الامتثال لأمر الله أولئك الذين لهم اختيار على الطاعة أو المعصية ، وهؤلاء قد يكونون أدنى خلقا من حيث المادة من الملائكة ، ولكنهم يكونون أكثر قربى إلى الله؛ لأنهم ألزموا أنفسهم بالطاعة اختيارًا وحباً لله . .

على أنه إذا وُجِّهَ الأمر للأعلى، فمن باب أولى أن يلتزم به الأدنى، فإذا كان الوزير ذاهبًا لزيارة يتفقد فيها بعض الأعمال، فإن وكلاء الوزارة لابد أن يكونوا هناك لاستقباله ، إذن فالأمر يشملهم ولو لم ينص عليهم ، أى عندما يقال: إن الوزير سيحضر فإن وكلاء الوزارة يحضرون تلقائيًا . وهكذا إذا كان أمر السجود قد شمل الملائكة، وهم أعلى خلقًا فى المادة إذ إنهم خلقوا من نور ، فلابد أن يشمل الجن الذى خلق من نار حتى ولو لم ينص عليه . ولكن مادام إبليس من الجن ، فقد غلبت عليه طبيعة الاختيار ففسق عن أمر ربه. . لماذا ؟ أخذته الكبرياء حتى فى أمر الله ، فجاء فى القرآن: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] ، ثم يقول: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] ، استكبارًا واستعلاءً على من خلقه. . أتوجد معصية أكبر من ذلك؟! .

على أن العلماء وقفوا عند قول الحق : ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فسر العلماء ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ بأن معناها: ما منعك أن تترك السجود ، أى أن إبليس سجد ثم ترك السجود، ذلك أن التعبير كان من المقدر إذا أردنا نفى السجود أن يقال: وما منعك أن تسجد، ولكن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ لا ينفى أنه سجد، نقول: إن هذه الآية جاءت فى سورة «ص»: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥] وفى سورة الأعراف ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾، حاول العلماء أن يزيلوا هذا الاختلاف فقالوا : ﴿أَن﴾ زائدة، ولكن هذا الكلام نحن نرفضه؛ لأن القرآن كلام الله ليس فيه زائد ولا ناقص. ولكننا إذا أردنا أن نعرف، فلابد أن نعود إلى استعمالات اللفظ الحقيقية، منع ضد أعطى، ويقال: حصن منيع، ورجل منيع، أى فيه مناعة أن يعيبه فسادٌ من الغير، أى أن منع تستعمل ضد أعطى ، وبمعنى لا يقدر عليه أحد ، كما يقال: حصن منيع على الأعداء. والذى لا يفعل مايؤمر به إما أن تكون هناك قوة أخرى جاءت فمنعته ، وإما امتنع هو باختيار نفسه .

وبذلك يكون معنى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾، أى كانت عندك نية السجود ولكن قوة منعتك . ولذلك فإنى أسألك ما هى هذه القوة التى منعتك من السجود ، ولكن الله سبحانه وتعالى جاء فى القرآن الكريم بالأسلوب الذى يجعلنا نتأكد من أن غرور إبليس هو الذى منعه من السجود، أى أنه اختار عدم السجود برضاه ، فإبليس لم يمنع من السجود، ولكن غروره هو الذى قاده لئلا يفعل . كأن كانت عنده نية للسجود فجاءت قوة ومنعته أن يسجد، ولكن المنع إما أن يكون قهرا ، وإما أن يكون عن اقتناع، أى أن «منع» قد تأتى على أساس أنه امتنع عن السجود، وهناك ممنوع وممتنع، الممنوع أنه كان يريد أن يسجد فمنع، والممتنع هو الذى امتنع من نفسه ولم يمنعه أحد. والمعنى فى قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ ، أى من الذى

حجز بينك وبين السجود ؟ ولا توجد لا زائدة أو لا صلة ، بل إنها لتؤكد لنا المعنى بأن إبليس امتنع عن السجود من نفسه دون أن تقهره قوة على الامتناع.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، دليل يقطع باليقين أن أمر السجود يشمل إبليس، وإلا ما قال له الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؛ فكأن إبليس كان يدخل فى الأمر الذى صدر للملائكة بالسجود .

جاء الرد من إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، ولكن الحق تبارك وتعالى لم يسأل إبليس : ماهى منزلتك بالنسبة لآدم، ولكنه سأله ما منعك؟. وكان الجواب يقتضى أن يقول : منعت قهرًا، أو أنا ممتنع عن السجود ، ولكنه قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾؛ فكأن إبليس كان يبحث فى ذهنه عن مبرر أو سبب لعدم السجود. ومادام هو خير منه فكأنه هو الأعلى ، ولا يصح أن يسجد للأدنى، لذلك قال : ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فكأن النار لها علو على الطين، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يفضل الأجناس بهذا المنطق، فكل جنس خلقه الله له دوره ، النار لها دور ، والطين له دور ومهمة ؛ والخير فى كل جنس يأتى فى أن كل جنس يؤدى مهمته التى خلق من أجلها ، لذلك لا تقل: إن هذا خير من هذا، ولكن قل: عمل هذا خير من عمل هذا، فكل شىء فى الوجود حين يؤدى المراد منه يكون خيرًا . ولذلك لا نقول لعود الحديد: إنه مستقيم، ونقول للخطاف: إنه أعوج؛ لأن مهمة الخطاف فى أنه أعوج، فلولا عوجه ما استطاع أن يؤدى مهمته .

وعندما قال إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، كان هذا كبرًا ومعاندةً؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق ، وهو الذى يعرف من هو خير ممن . ولكن إبليس أراد أن يعدل الأمر على الله، ويرد الأمر على الخالق بينما هو مخلوق، فكأنه ـ والعياذ بالله ـ يُخطِّئ الحق سبحانه وتعالى فى أمر ويقول له:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ، فكيف تأمر الأعلى أن يسجد للأدنى ، وكأنه قد وضع نفسه فى حكمه هذا -والعياذ بالله- فى مرتبة أعلى من الحق سبحانه وتعالى، فهو . . أى إبليس يعرف أكثر من الله !!، ولذلك يرد عليه الأمر ويستنكر، ويقول: كيف يسجد الأعلى للأدنى؟ وهذا معاندة وكبر وكفر وافتخار وغرور، وكل أنواع المعصية لله ، وكان لابد لإبليس أن يفهم أن النار ليست خيرًا من الطين ، والطين ليس خيرًا من النار ،وأن الذى يؤدى مهمته هو الأحسن ، ولكن أعلى منازل الكفر هو أن ترد الأمر على الله ؛ لأنك فى هذه تضع نفسك فى منزلة أعلى من الحق سبحانه وتعالى، وتريد أن تُعلِّم الحق ما لا يعلم، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ .

وهكذا أخذ الكبر من نفس إبليس درجة جعلته يعتقد ـ والعياذ بالله ـ أنه أعلم من الحق سبحانه وتعالى ، وأن من حقه أن يعدل الأمر على الله ، ويخبره بما يجب أن يفعل ، ولم يكن جزاء لهذه المعصية أقل من الطرد من رحمة الله . ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ والهبوط معناه الانتقال من منزلة أعلى إلى منزلة أدنى. وبعض العلماء يحاول أن يستدل على ذلك أن الجنة التى وجد فيها آدم وإبليس كانت فى أعلى عليين. ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ ولكننا نقول: إن الهبوط لا يستدعى مكانًا أعلى ومكانًا أسفل، وفرق بين هبوط المكان وهبوط المكانة؛ لذلك عندما قال الحق سبحانه وتعالى لبنى إسرائيل: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١]. لم يكن بنو إسرائيل يعيشون فى مكان فى السماء، بل كانوا فوق الأرض، وعندما قال الله تعالى لنوح: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾. [هود: ٤٨] كان يعنى الهبوط من السفينة ، ولا يقتضى ذلك النزول من مكان أعلى إلى مكان أدنى .

وعلى أية حال فإن الهبوط قد يكون من مكان إلى مكان، أو من مكانة إلى مكانة ، فكأن إبليس كان فى حضرة الملائكة عندما ألزم نفسه بالطاعة،

ولَمّا عصى وأصر على المعصية نزل من مكانه الذى كان فيه إلى أسفل السافلين .

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ . [الأعراف: ١٣]

فكأن الله قد أعطانا حيثية طرد إبليس من رحمته، فإبليس قد تكبر على أمر الله، فالامتناع عن أمر المعبود من العابد هو نوع من الكبرياء على المعبود. ومادام إبليس قد تكبر على أمر الله ، فهو ليس أهلاً لأى مكانة عالية، فكأن طاعة إبليس قبل معصية السجود هى التى أعطته مكانة عالية، ومعصية إبليس فى أمر السجود هى التى جعلته فى أسفل السافلين ، إذن فليس منا من هو له منزلة عالية بذاته ، ولكن العمل والطاعة هما اللذان يعطيان الإنسان علوًّا عند الله ،والمعصية هى التى تعطيه المنزلة السفلى، وفى هذا حكمة من الحق سبحانه وتعالى ، فالجان لأنه مخلوق من نار يمتاز بالسرعة واختراق الحواجز والنفاذ من الجدران والنفاذ من جسم الإنسان . و«إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»[1] مثل الميكروب ، تلك طبيعة المادة التى خلق منها الجان ، مادة النار ، فأنت إذا جلست خلف جدار، ووضعت فى الناحية الأخرى تفاحة، لا تستطيع التفاحة أن تتعدى بشكلها ولونها وطعمها الجدار، وتنفذ إليك، ولكن إذا كانت هناك نار خلف الجدار فإن حرارتها وإشعاعها يتعديان لك ، لأن طبيعتها الشفافية .

ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعلِّمنا درسًا للجن والإنس معًا، فقال: لا تعتقدوا أن العنصر الذى خلقتم منه يعطيكم تمييزا؛ بل إرادة الخالق وحدها هى التى تعطى هذا التمييز، ولذلك جعل الله الجن خدمًا لسليمان عليه السلام، وهو بشر، وهكذا خضعت النار للطين، ثم جاء بالذى عنده علم

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٧٤) وأبو داود (٤٧١٩) وأحمد (١٥٦/٣) عن أنس ، وأخرجه البخارى (٢٠٣٨ ، ٣٢٨١) ومسلم (٢١٧٥) وأبو داود (٢٤٧٠) وابن ماجة (١٧٧٩) وصححه الألبانى عن صفية بنت حيى. وأحمد (٣٣٧/٦) بزيادة .. وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكم شرًا ، أو قال شيئًا .

من الكتاب فجعله أعلى، ولذلك قال عفريت من الجن[1] لسليمان عليه السلام عن إحضار عرش بلقيس : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ ، والعفريت من الجن هو القوى القادر منهم ؛ لأن الجن يتفاوتون فى الخلق، منهم الضعيف ومنهم القوى ، وهكذا تصدَّى أقوى الجن ليقول : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ . [النمل: ٣٩]

ومقام سليمان قد يكون ساعة أو ساعتين أو أكثر. ماذا قال الذى عنده علم من الكتاب[2]، وهو إنسان مخلوق من طين؟: ﴿قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، وكأنه قبل أن يكمل هذه الجملة كان عرش بلقيس ملكة سبأ قد انتقل من اليمن إلى بيت المقدس، ولذلك يقول القرآن: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ [النمل: ٤٠]، أى: أن العملية كلها تمت فى أقل من الوقت الذى نطق فيه مَنْ عنده علم من الكتاب بهذه الجملة.

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه لا أحد من الجن أو الإنس له منزلة بذاته ، أو له تميُّز بذاته ، ولكن بعمله ، والله بقدرته يخضع المادة الأعلى للأدنى ، كما أخضع الجن وجعلهم خدمًا لسليمان، وهو بشر.

---

(١) ذكر النحاس عن ابن منبه أنه : كودن . ونقل القرطبى عن السهيلى أنه ذكوان . الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٩٦ .

(٢) قيل : هو آصف بن برخيا كاتبُ سليمان عليه السلام وابن خالته قاله ابن عباس، وقتادة. وقيل اسمه (أسطوم) . والعلم من الكتاب هو الاسم الأعظم . وهو قول ابن عباس والجمهور . [زاد المسير ٦/ ١٧٥] . وقيل : الكتاب المنزل بالشرائع ، وهو قول لابن عباس أيضًا . وقيل : هو جبريل ، والكتاب : اللوح المحفوظ حكاه ابن الجوزى عن الثعلبى [زاد المسير ٦/ ١٧٥] . وقيل هو الخضر واستغربه ابن كثير جدًا لأنه من رواية ابن لهيعة . [تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٤] . ونقل ابن الجوزى عن محمد بن المنكدر قوله : إن الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه كان قال للعفريت : أنا أريك أبرع مما قلت. [زاد المسير ٦/ ١٧٥] . وانظر غرر التبيان ٣٨٢ ـ ٣٨٣ .

وهكذا طرد إبليس من رحمة الله لأنه تكبَّر على أوامر الله. وقال له الحق:

﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.(1) [الأعراف: ١٣]

فكأن إبليس طرد من شيئين، ﴿فَاهْبِطْ﴾ أى نزلت مكانته من أعلى إلى أسفل سافلين، ﴿فَاخْرُجْ﴾ أى طرد من المكان الذى كان فيه ينعم بخيرات الله، وقول الحق: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، الصَّغَار أى: الذُّلُّ والهوان، ومادام إبليس قد قابل أمر الله بالاستعلاء والاستكبار، فلابد أن يعامل بالذل والهوان جزاءً له على ذلك.

---

(1) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكى، يقول: ياويله، أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرت؛ بالسجود فعصيت فلى النار».

[أخرجه مسلم ٨١ واللفظ له، وابن ماجه ١٠٥٢، وأحمد فى المسند ٢/٤٤٣].

*غواية الشيطان لآدم *

عندما نتأمل اللقطات التى تأتى فى «سورة طه» عن خلق آدم نجدها توضح لنا المزيد من سلوك آدم وذريته. لقد عهد الله إلى آدم بالتدريب على مهمة الخلافة فى الأرض، فظن - بفعل الشيطان - أنه خالد وليس مستخلفًا وأنه الأساس وليس الخليفة الموكول له مهمة . وتوضح اللقطات محاولات الشيطان للإغواء وكيف يظل الإنسان عرضة للنسيان وعدم القدرة على مواصلة الطاعة للخالق عز وجل ، ولذلك فإن القرآن الكريم يعلم الإنسان أساليب الشيطان ، ذلك رحمة من الرحمن للإنسان ، فمن يتذكر الوعيد ينجُ بنفسه من هوان المعاصى التى تقود إلى النار ، قال تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾. [طه: ١١٣-١٢٦]

والمتأمل لتلك الآيات التى تصور بعضًا من لقطات قصة آدم أيضًا يجد ما يلى:

- أن القرآن كمنهج مهيمن على حياة الإنسان فى ذلك الكون يوضح له بالبيان ما فى الآخرة من الوعد والوعيد لعل الإنسان يجد فيه العظة والعبرة.
- أن الخالق منزه عن التشبه بالخلق فهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وهو سبحانه المالك لكل أسباب الخلق.
- طمأنة رسول الله ﷺ على أنه لن يُنسى القرآن فلا يعجل به، وما على الرسول إلا أن يطلب الاستزادة من العلم بالقرآن(١).
- أن آدم قد تلقى من ربه الوصية بألا ينسى وألا يخالف أوامر الحق تبارك وتعالى، ولكنها غفلة أصابته فنسى ما عاهد الله عليه ولم ينتبه إلى

---

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى ﴿لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ : فيه ثلاثة أقاويل :
أحدها : لا تسأل انزاله قبل أن يقضى ، أى يأتيك وحيه.
الثانى : لا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله ، قاله عطية.
الثالث : لا تعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبريل من إبلاغه ، لأنه كان يعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبريل من ابلاغه خوف نسيانه ، قاله الكلبى
﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ فيحتمل اربعة أوجه :
أحدها : زدنى أدباً فى دينك لأن ما يحتاج إليه من علم دينه لنفسه أو لأمنه لا يجوز أن يؤخره الله حتى يلتمسه منه.
الثانى : زدنى صبراً على طاعتك وجهاد أعدائك لأن الصبر يسهل بوجود العلم.
الثالث : زدنى علماً بقصص أنبيائك ومنازل أوليائك.
الرابع : زدنى علماً بحال أمتى وما يكونوا عليه من بعدى.
ووجدت للكلبى جواباً خامساً معناه : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ لأنه كلما إزداد من نزول القرآن عليه إزداد به. [تفسير الماوردى ٣/ ٤٢٩].

التحذير الواضح بأن العداوة سابقة بينه وبين الشيطان ، ذلك الشيطان الذى رفض السجود لآدم بعد أن أتم الله خلقه .

- لقد كان التحذير واضحًا وجلياً لآدم وزوجه بأن الشيطان عدو لهما ، لكنه وسوس لهما فكان سبباً لخروج آدم من الجنة التى تلقى فيها آدم مهمة التدريب على الخلافة فى الكون .

- احتال الشيطان على آدم وزوجه بنقطة الضعف فى آدم أن تفوته النعمة فلا يدركها وألا يخلد ، وعندها وقع آدم وزوجه ضحية للشيطان، وهكذا حرم آدم من الخلود الذى تمناه وتقرر هبوطه إلى الأرض ثم تاب الله عليه.

- أن منهج الله يهدى إلى الرشاد فمن اتبع المنهج فلا خوف عليه من الضلال أو من الشقاء.

- أن من يبتعد عن منهج الحق فسوف يجد الضنك فى حياته ، ولا يرى بالبصيرة ما أعطاه الله له من نعم الحياة، ويتلقى العذاب فى الآخرة .

هكذا نجد أن اللقطات التى تتعرض لقصة آدم عليه السلام فى أكثر من سورة من سور القرآن الكريم تتكامل وتترابط وتتقصى أثر الحق الذى يورده لنا الله فى كتابه ليثبت به أفئدة المؤمنين .

وهكذا بعد أن عرفنا مجمل القصة - قصة آدم - ولقطاتها نعود إلى أسلوب معالجة «سورة البقرة» للقصة بترتيبها. ولسوف نجد أن الله يخبر الملائكة بقصة الخلق الأولّ، ويخبرنا الرسول المؤتمن على بلاغ القرآن بتلك القصة، ونجد أن الملائكة قد تعجبت من أمر الله بقوله : ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ ولما كانت الملائكة بطبيعتها لا تعصى لله أمرًا ، فهى تعلم أن قول الله يتبعه الفعل، ذلك أنه الخالق الذى يقول «كن : فيكون» ، ونحن الذين نتلقى القصة علينا أن نعرف منها : أن القول دائمًا تعبير عن فعل. فالقول فعل اللسان ،كما أن الرؤية مهمة العين، وكما أن الشم مهمة

الأنف، وكما أن اللمس مهمة الأنامل ، فأى حدث إذن هو قول أو فعل وكلاهما عمل.

وقول الحق تبارك وتعالى للملائكة بأنه جاعل فى الأرض خليفة ، ليس معنى ذلك استشارة للملائكة ؛ إنما هو إعلام لهم بما يحدثه الله فى كون هم فيه ولهم فيه مهمة . وعندما نسمع كلمة خليفة ، فإن الذهن يذهب إلى كلمة «سلف».

ومعنى ذلك أن الإنسان سوف يخلف بعضه بعضًا ، أى أن الموت قد تقرر كنهاية للبشر ؛ مع استمرار حياة بعض البشر، يتناسلون فيموت منهم جزء ويبقى جزء إلى أن تقوم الساعة.

وقد يتراءى للذهن أن الخلق الإنسانى قد يخلف بعضه بعضًا أو يخلف جنسًا آخر ، يحدث هذا التخيل عند متابعة قصة الخلق لآدم ، فقد يكون قد سبقه خلق آخر كالجن مثلًا قد خلقهم الله وعصوا ، فأجلاهم الله بالملائكة.

ومن تعجب الملائكة من تجربة الخلق الجديد تساءلوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] (١) وكأن الملائكة تعلم أن هناك جنسًا قد سبق إيجاده ، فإذا كان هذا الجنس هو بعضًا من بنى آدم فإنه سوف يخلف

---

(١) قال ابن كثير : فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، كأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإٍ مسنون، أو فهموا من الخليفة أنه الذى يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم ، قاله القرطبى، أو أنهم قاسوهم على من سبق. [تفسير ابن كثير ١/ ٧٣] ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن أول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضاً، قال : فبعث الله إليهم إبليس، فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ثم خلق آدم فأسكنه إياها. [تفسير ابن كثير ١/ ٧٤].

وعن عبد الله بن عمرو قال : كان الجن بنو الجان فى الأرض قبل أن يخلق آدم بألفى سنة فأفسدوا فى الأرض وسفكوا الدماء فبعث الله جنداً من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوا بجزائر البحور، فقال الله للملائكة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾. [البقرة: ٣٠]. =

بعضه بعضاً وتكون الآية - فى ضوء هذا التصور- متضمنة نعى بعض الأفراد إلى أنفسهم. أما إذا كان الجنس هو جنسًا آخر لا نعرف ماهيته فقد نعى الله ذلك الجنس كله للملائكة . وما ذلك على الله بعزيز ، فهو يقول وقوله الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾. [ابراهيم: ١٩، ٢٠]

وهكذا نفهم أن قدرة الحق تبارك وتعالى تملك إنهاء الجنس كله وتأتى بخلق آخر، وهكذا نفهم أن كلمة «خليفة» عندما نسمعها فهذا معناه شىء يخلف شيئاً ، وعندما نسمع كلمة «خلف» ـ فتح الخاء والفاء - فهذا يعنى أمرًا فيه خير كأن نقول: «هذا خير خلف لخير سلف».

لكن عندما نسمع كلمة «خَلْف» بفتح الخاء وتسكين اللام- فهذا يعنى أمرًا رديئًا، كقول الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾. [مريم: ٥٩]

وهكذا يجب أن نفرق بين «خلَف» - بفتح اللام - وبين «خلْف»- بسكون اللام- وفى ذلك يقول الشاعر :

= وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ قال : خلق الله الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجن يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة فكفر قوم من الجنة فكانت الملائكة تهبط إليهم فى الأرض فتقاتلهم ببغيهم، وكان الفساد فى الأرض فمن ثم قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسد الجن، ويسفك الدماء كما سفكوا. [تفسير ابن كثير ١/ ٧٤].

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبنى آدم كما يتوهمه بعض المفسرين ، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أى لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه، وها هنا لما أعلمهم بأنه سيخلق فى الأرض خلقاً قال قتادة وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فى الأرض فقالوا : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك يقولون : يا ربنا ما الحكمة فى خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء. [تفسير ابن كثير ١/ ٧٣].

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

وهكذا نفهم أن قول الله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾. نفهم من التصوير أن هذا الخليفة سوف يتم تسخير الكون له وتستجيب له قدرات الأشياء بإرادة الله؛ الأرض مسخرة ، والأنعام مسخرة ، والبحار مسخرة ، والأنهار . . والكون كله مسخر بأمر الله لهذا الخليفة .

والآفة أن يتخيل الإنسان أنه أصيل فى الكون ويرتب حياته على ذلك ، هنا ينسى الإنسان أن عطاءات الله التى تتناهى إنما تأتمر بكمالات الله التى لا تتناهى . ليس هناك دخل للإنسان فى هذه العطاءات إلا اتباع الأسباب التى خلقها الله. وكأن الملائكة عندما تعجبت من خلق خليفة فى الأرض تساءلت عن السر فى خلق من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء . وهذا يعنى أنهم عرفوا قبل ذلك أن هناك من يسفك الدماء ويفسد فى الأرض ، ومعنى ذلك أنهم قاسوا وعانوا منها ، وهذا يعنى أن الملائكة كان لهم علم بخلق سابق لخلق الإنسان ، لذلك قال الله لهم :﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾. وساعة أن يقول الحق:﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ فهذا يعنى أن علم المخلوقات متناسب لإدراكهم ، أما علم الخالق فهو شامل لعلم المخلوقات وما فوق ذلك العلم، لأنه المالك لطلاقة العلم والمعرفة . ذلك أن الله عالم بالسر وما هو أخفى من السر[1] . أى أنه يعلم السر الذى قد يسر به الإنسان إلى إنسان آخر ويعلم فوق ذلك ما يخفيه الإنسان فى أعمق أعماقه ولا يعلنه لأحد، بل إن الخالق يعلم ما قد يوجد فى نفس الإنسان حتى قبل أن يوجد.

وبعد ذلك تقول الملائكة : نحن نسبح بحمدك يا رب ونقدس لك، ومعنى ذلك أن التسبيح هو تنزيه الخالق من كل سوء وعما لا يليق بذاته المنزهة ؛ لأن التسبيح والتقديس لله المنزه ، ولنا أن نلحظ أن الله قد صرف ألسنة الناس عن أن تذكر كلمة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ إلا لذاته العلية . وعندما نتأمل : ﴿وَنَحْنُ

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾. [ق:١٦]

﴿ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾. [البقرة:٣٠] . فإن هذا يعنى:

- تنزيهاً لله فى ذاته فلا ذات تشبه ذاته .
- تنزيهاً لله فى أفعاله فلا فعل يشبه أفعاله.

وعندما نقول: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[1] فالمعنى ينصرف إلى أننى أحمدك يا ربُّ لأنى عرفت مقام تنزيه ذاتك وصفاتك وأفعالك، وأن ذلك التنزيه وهذا الحمد هما تطهير لحياتنا ؛ لأنك قدوس طاهر لا يليق أن يرفع إليك إلا كل طاهر لينتسب إليك ، كأن الله قد أراد أن يوضح لنا : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ وحتى يبين لنا صدق ذلك فقد أخبر الملائكة أن آدم قد تعلم الأسماء كلها . وكأن تعليم الله لآدم الأسماء قد أحاطه الله بكلمة﴿ كُلَّهَا ﴾ لتكون سوراً واضحًا يتضمن علم الإنسان بكل أسس المسميات التى يسود بها الكون كخليفة فى الأرض .

---

(١) وفى المراد بقولهم : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أربعة أقاويل :

أحدها : معناه نصلى لك ، وفى التنزيل : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ [الصافات: ١٤٣] ، أى من المصلين وهذا قول ابن عباس وابن مسعود .

والثانى : معناه نعظمك ، وهذا قول مجاهد.

والثالث : أنه التسبيح المعروف وهذا قول المفضل، واستشهد بقول جرير:

قَبَّح الإلهُ وُجُوهَ تغلبَ كُلَّما ... سبَّح الحجيجُ وكبَّروا إهلالا

وفى المراد بقولهم ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ثلاثة أقاويل:

أحدها : الصلاة.

والثانى : تطهيره من الأدناس.

والثالث : التقديس المعروف.

وفى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : أراد ما أضمره إبليس من الاستكبار والمعصية فيما أمروا به من السجود لآدم، وهذا قول ابن عباس وابن مسعود.

والثانى : من ذرية آدم من الأنبياء والرسل الذين يصلحون فى الأرض ولا يفسدون ، وهذا قول قتادة .

والثالث : ما اختص بعلمه من تدبير المصالح. [تفسير الماوردى ١/ ٩٧ - ٩٨].

﴿ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾

قال تعالى : ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ . [البقرة : ٣٦]

إن آدم كان يجب عليه أن ينتبه لأى عمل من أعمال الشيطان ، ذلك أن الحق سبحانه وتعالى سبق أن حذر آدم وزوجه من الشيطان ، وأخبرهما أن الشيطان عدو لهما . وحتى إذا افترضنا أن الحق سبحانه وتعالى لم يخبر آدم بالعداوة بينه وبين إبليس ، أفلم يكن من الأجدر بآدم أن يأخذ الحذر من إبليس ، من سابق حال إبليس معه ؟ إن إبليس مُتَّهَمٌ فى أى نصح يقوله لآدم، فقد سبق لإبليس أن رفض أمر الله بالسجود لآدم ، وسبق أن سمع آدم الحوار بين الخالق جل وعلا وبين إبليس وهو قول الحق :

﴿ **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** ﴾ . [الأعراف : ١٢]

ألم يكن الأجدر بآدم أن يعرف عداوة إبليس بما رآه من سلوك إبليس وهو يعصى الخالق جل وعلا ؟ ألم يكن الأجدر بآدم أن يدير تفكيره فى موقف إبليس منه ؟ ألم ير آدم إبليس وهو يطلب من الحق أن ينظره إلى يوم البعث بعد أن طرده الحق وأصدر حكما بأنه رجيم ؟ إن مواقف إبليس من آدم تتناقض تمامًا مع وسوسته لآدم : ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ** ﴾ . [طه : ١٢٠]

لماذا لم يكن إبليس نفسه أول من يأكل من الشجرة أمام آدم ، إذْ عرف أنها شجرة تضمن الخلود وتعطى الملك الذى لا ينتهى ؟! ولكن آدم نسى بغفلته كل ذلك، واقترب من الشجرة وأكل منها ، وتجاوز فى ذلك حدود الأوامر

من الخالق. وبذلك نسى ما حذره الله منه . وأوضحنا أن النسيان قبل رسالة رسول الله ﷺ، كان معاقبًا عليه فى الأمم السابقة، ولكن النسيان غير المقصود قد أجازه الحق الرحمن لأمة محمد ﷺ. وكأن آدم باقترابه من الشجرة عصى أمر الخالق مما استدعى التوبة .

ولنا أن نتأمل قول الحق ودقة البيان القرآنى عندما قال عن إبليس ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ﴾ إن الوسوسة فى اللغة العربية هى: صوت الحلى، كأن يسمع الرجل صوت اصطكاك الذهب الذى ترتديه المرأة فهو أشبه بصوت موسيقى.. هذه هى «الوسوسة» (١) . ولنا أن نعرف أن حكمة الحق تبارك

---

(١) الوَسْوَسَة والوَسْواس : الصوت الخفى من ريح . والوَسْواس : صوت الحلْىْ ، وقد وسْوسَ وَسْوَسَة وَوِسْواساً ، بالكسرِ . والوَسْوَسَة والوِسْوَاس : حديث النفس . يقال : وَسْوَسَتْ إليه نفسه وَسْوَسَة وَوِسْواساً ، بكسر الواو ، والوَسْوَاسُ بالفتح ، الاسم مثل الزَّلْزَال والزِّلزال ، والوِسْواس ، بالكسر ، المصدر . والوَسْوَاس بالفتح : هو الشيطان وكل ما حدثك وَوَسْوسَ إليك ، فهو اسم . وقوله تعالى : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ يريد إليهما ولكن العرب توصل بهذه الحروف كلها الفعل . ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلى : وَسْوَاس ؛ وقال الأعشى :

تسمع للحلى وَسْوَاسا ، إذا انصرفت — كما استعان بريح عِشرِقٌ زَجل

والهمس : الصوت الخفىّ يهز قصباً أو سبّاً ، وبه سمى صوت الحلىَ وَسْوَاساً .

قال ذو الرمة :

فَبَاتَ يُشْئزُه ثَأَدٌ ، ويُسْهِرُ — تَذَوُّبُ الرِّيح ، والوَسْوَاسُ والهِضَبُ

يعنى بالوَسْوَاس همس الصياد وكلامه . قال أبو تراب : سمعت خليفة يقول الوَسْوسة الكلام الخفى فى اختلاط . وفى الحديث : الحمد لله الذى ردّ كَيْده إلى الوَسْوَسة ؛ هى حديث النفس والأفكار . ورجل مُوَسْوِس إذا غلبت عليه الوَسْوَسة . وفى حديث عثمان رضى الله عنه : لما قُبِض رسول الله ﷺ وُسْوِسَ ناسٌ وكنت فيمن وُسْوِس ؛ يريد أنه اختلط كلامه ودُهش بموته ﷺ . والوَسْوَاس : الشيطان ، وقد وَسْوَس فى صدره ووَسْوَس إليه . وقوله عز وجل : ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ ؛ أراد ذى الوَسْوَاس وهو الشيطان الذى يُوَسوِس فى صدور الناس ، وقيل فى التفسير : إن له رأساً كرأس الحية يَجْثِمُ على القلب ، فإذا ذكر العبدُ الله خَنَس ، وإذا ترك ذكر الله رجع إلى القلب يُوَسْوِس . وقال الفرّاء: الوِسْوَاس، بالكسر، المصدر. وكل ما حدّث لك أو وَسْوَس =

وتعالى أرادت لنا ـ نحن العباد ـ أن نعرف أن «آدم» نسى أوامر الحق، وعصى عندما اقترب من الشجرة وأكل منها. نسى آدم تحذير الحق له من الاقتراب من اشجرة. وعصى آدم ربه فأكل من الشجرة. إن النسيان يرادف المعصية بالنسبة لآدم فقط.. لماذا؟ لأنه لم ينس فى زحمة من أوامر وتكليفات، ولكنه نسى فى تكليف واحد، هو ألا يقترب من تلك الشجرة؛ ولم يكن ذلك الأمر محتاجًا إلى جهاد من النفس، ذلك أن آدم وزوجه كانا فى جنة للتدريب، بها كل ما تشتهى النفس.

وذلك الأمر يلفتنا إلى نظرة أخرى إلى التكاليف القادمة من الحق الرحمن. إن كل تكليف من الحق الرحمن إنما يأتى إلى البشر بوسائط متعددة إن الخالق يختار رسلاً تتنزل عليهم التكليفات بواسطة ملك ، ويحمل الرسل تلك التكليفات إلى البشر . لكنْ هناك تكليف يصدر من الله مباشرة للرسول، ومثل هذا اللون من التكاليف يجب ألا ينساه الإنسان أبدًا، مثال ذلك الصلاة، لقد تم تكليف الرسول بها مباشرة بعد أن عُرِج به إلى السماء؛ ولذلك كان التكليف بالصلاة هو الفارق بين المؤمن والكافر[1] ، أما بقية

= فهو اسم . وفلان المُوَسْوِس ، بالكسر : الذى تعتريه الوساوس. ابن الأعرابى : رجل مُوَسْوِسٌ ولا يقال رجل مُوَسْوَس . قال أبو منصور : وإنما قيل مُوَسْوِسٌ . لتحديثه نفسه بالوَسْوَسة ؛ قال الله تعالى : ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾؛ وقال رؤبة يصف الصياد:

وَسْوَسَ يَدْعُو مُخْلِصاً رب الفَلَقْ

يقول : لما أحَسّ بالصيد وأراد رميه وَسْوس نفسه بالدعاء حذر الخيبة . وقد وَسْوَسَتْ إليه نفسه وَسْوَسة ووِسْواساً ، بالكسر ، ووَسْوس الرجلَ : كلمه كلاماً خفياً . ووَسْوس إذا تكلم بكلام لم يبينه . [لسان العرب [٦/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥].

وورد أيضا فى معجم ألفاظ القرآن : الوسوسة الخطرة الرديئة وأصله من الوسواس وهو صوت الحلى والهمس الخفى ، قال : ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ وقال : ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ ويقال لهمس الصائد وسواسٌ . [معجم ألفاظ القرآن للأصبهانى/ ٥٥٩] .

(١) عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » أخرجه النسائى فى سننه (١/ ٢٣١) وابن ماجه (١٠٧٩) وصححه الألبانى فى صحيحهما.

التكاليف الأخرى فقد نزل بها الْمَلَكُ جبريل على رسول الله ﷺ . وهكذا كان نسيان آدم للتكليف المباشر من الله معصيه . وعلى كل مسلم أن يتذكر جيدًا كلمة «وسوس» عند أى معصية يزينها له الشيطان . ذلك أن الشيطان يحاول أن يستميل الإنسان بمعسول الوسوسة وتجميل الفعل القبيح .

ولنا أن نتذكر دائما أن إبليس من الجن ، وأنه شهد مع الملائكة أمر السجود الصادر من الحق لهم ، ذلك أنه كان مطيعًا ، ولكن بعد عصيان أمر السجود أصبح من الكافرين، ونحن نعرف أن جنس الجن له حرية الاختيار بين الطاعة والمعصية ، فإذا كان إبليس قد تفوق على الملائكة فى أول الأمر بأنه عبد الحق ، فصار طاووسا بين الملائكة ، إلا أنه عندما ردَّ أمر الخالق جل وعلا بالسجود لآدم؛ كان ذلك فسوقا عن أمر الله، وكان عصيانًا فى القمّة . إن مخالفة إبليس جاءت فى أمر يستوجب الطاعة فلم يطعه . ومخالفة آدم كانت فى نهى لم يرتدع عنه . ومن هنا عرفنا أن التكاليف تأتى بـ«افعل» و«لا تفعل» . كان عصيان إبليس إباءً واستكبارًا ، ولذلك كان عصيان إبليس فى القمة . أما آدم فقد آمن بأن مافعله معصية وذنب؛ لذلك استغفر خالقه لأنه ظلم نفسه.

وهذا هو الفارق بين عصيان إبليس وعصيان آدم . إن إبليس لم يعترف بأن ما ارتكبه ذنب ، إنما أصر عليه ، أما آدم فقال : «ربِّ إنى ظلمت نفسى»(١)؛ ولذلك يقول الحق أنه غفر لآدم واجتباه وهداه؛ ولذلك يأتى القرآن الكريم بالمغفرة للذنوب جميعًا، فيقول الحق: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ . [الزمر: ٥٣]

وفى هذه الآية بلاغ من الله إلى رسوله الكريم أن يبلغ العباد الذين أكثروا على أنفسهم من المعاصى ألا ييأسوا من رحمة خالقهم ، فالخالق العظيم

---

(١) إشارة إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا .. ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وحده هو العظيم أيضا فى مغفرته ورحمته . وهكذا يكون غفران الحق لكل معصية يعترف بها الإنسان؛ لأن الإقرار بالذنب إدراك ووعى بأنه ذنب، والله يغفره .

ويقول الحق أيضًا فى محكم كتابه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً** ﴾ . [النساء: ١١٦]

إن الحق يوضح لنا أن الذنوب يغفرها الله ، ولكن لا يغفر أن يردّ أحد الأمر على صاحب كل أمر . وكذلك كان رد إبليس على أمر الله بالسجود ، إباءً واستكبارًا . لقد وضع إبليس نفسه فى منزلة فوق ما يستحقه. ولنا أن نتعرف على ثلاثة معان نصادفها فى حياتنا كل يوم ونطلب الفهم لها .

الاستكبار : وقد عرفنا معناه ، وهو أن يضع الإنسان نفسه فى منزلة هى فوق ما يستحقه.

والتواضع : هو أن يضع الإنسان نفسه فى منزلة دون ما يستحقه .

والعزة : هو أن يعتز الإنسان بنفسه فى مقامه ، فلا يعطيها أكثر من قدرها. إن الإنسان حين يعرف قدر نفسه لا يقال عنه : إنه متكبر.

ولنا أن نعرف أن العزة أمر مطلوب للإنسان، وهناك قول لإبراهيم بن أدهم معناه: «**أيما فقير جلس إلى غنى فتضعضع له لدنياه ذهب ثلثا دينه**»(١) ولنا أن نتلمس التحديد القاطع فى ذلك القول الذى يحض على ألا يتواضع إنسان لإنسان بسبب الغنى؛ لأن ذلك معناه فقدان ثلثا الدين. لنا أن نعرف أن الإنسان قد يتواضع أمام علم منحه الله لعالم. لنا أن نعرف أن الإنسان قد يتواضع أمام خير موهوب من الله لإنسان يفعل الخير . والمقياس فى التواضع هو النية . والخالق جل وعلا يكشف نوايا الناس وأقدارها فهو لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . إن المتكبر تنكشف له نفسه على حقيقتها؛

---

(١) أورده أبو نعيم فى الحلية [٨/ ٢٣].

إنه يستر منزلة نفسه الفعلية عن الناس ، ويحاول أن يصور نفسه أمام الناس فى مقام فوق ما يستحقه .

لذلك يُذِلُّ الله المتكبر بألا تغيب عن ذهنه صورته الفعلية الصورة الوضيعة. ولَنا أن نلحظ أن الناس تساهم فى كبر المتكبر عندما يذلُّون أنفسهم أمامه، فيرفعون من شأن ذات المتكبر وأفعاله أمامه، وينسون أن الخالق جل وعلا كرَّم كل إنسان وميَّزه بصفات وعيوب؛ لذلك فليس لنا أن نرفع من قدر أحد فوق طاقته حتى لا نشارك بأفعالنا فى إثم صناعة التكبر[1]، ولا أن نقلل من شأن أنفسنا أمام أحد، إنما التواضع أمام الله وحده ، ولو أن كل متكبر تذكر الكبرياء الحق لوجده لله الحق ، ولخشعت نفسه أمام الخالق. لذلك فلحظة أن نرى متكبرًا فلنا أن نقول له: أنت محجوب عن الحق ؛ لأنك لو عرفت أن الكبرياء لله وحده، وأن العظمة لله وحده[2]، لهانت نفسك عليك، ولما استطعت أن تتكبر على أحد .

ولنا أن نلحظ أن هناك من البشر المتكبر من يشكو «نكران الجميل»، ولأى إنسان يتحدث عن نكران الجميل نقول : إن ذلك أمر طبيعى، فما دمت

---

(١) يقول عز وجل فى سورة النجم ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم: ٣٢]
يقول أبو حيان الأندلسى فى البحر المحيط [٢١/١٠] : «أى لا تنسبوها إلى زكاء الأعمال والطهارة عن المعاصى ، ولا تثنوا عليها واهضموها، فقد علم الله منكم الزكى والتقى قبل إخراجكم من صلب آدم وقبل إخراجكم من بطون أمهاتكم . . وقيل : المعنى لا يزكى بعضكم بعضاً تزكيه السمعة أو المدح للدنيا ، أو تزكية بالقطع.
ويقول ﷺ : « إذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب» من حديث المقداد بن الأسود . أخرجه مسلم (٣٠٠٢) وأحمد (٥/٦) والترمذى (٢٣٩٣) وقال : حسن صحيح.

(٢) عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهما ، قالا: قال رسول الله ﷺ فى الحديث القدسى: « العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعنى عذبته» رواه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٠)، والبرقانى فى مستخرجه، وعنده: «فمن نازعنى شيئًا منهما عذبته» ورواه أحمد (٤١٤/٢) بلفظ «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحداً منهما ألقيته فى جهنم» .

قد فعلت فعلا لتسود به الناس ، ولم تفعله لوجه الله، فلابد أن يعاقبك الله بإنكار من أسديت إليهم هذا الفعل ، وظننت أنك اتَّخَذْتَهُم عباداً لك. أما من يعمل كل عمل من أجل الله ، ومرضاة لله، فإن الله يرزقه الثواب وتقدير الناس، إن تأمل حركة الناس فى المجتمعات المعاصرة يعطينا الكثير من الدروس التى تجعل القلب يخشع تَذَكُّراً لقوة الله وحدها التى هى فوق كل قوة . فمثلا قد نجد إنسانا اختبره الله ، فمنحه القوة والمكانة بكفاح عدد من الزملاء ومساندة كثير من الناس؛ هذا الإنسان ما إن تعجبه القوة والمكانة، حتى يبدأ فى الابتعاد عمَّن جعلهم الله سبباً فى قوته ومكانته ، إنه لا يريدهم أن يُذَكِّروا الناس بما كان عليه من ضعف وقلة وضع، إنه يخشى رؤية من ساندوه؛ لأنه صار متكبراً ؛ لهذا نجد الخالق الأكرم يدير دورة الحياة ليجعل المتكبر ذليلاً ، حتى يعرف أن ما أعطاه الله إياه ، إنما كان عطاء اختبار، لا عطاءً من أجل التجبر والتكبر[1] . أما من يتواضع دائما، ويذكر فضل الله عليه ، فإن الله يقذف محبته فى نفوس النّاس جميعًا، ومن ولاَّه الله عليهم؛ لذلك يقول الرسول ﷺ ما معناه: «**من تواضع لله رفعه**»[2].

هكذا نتلمس المعانى العميقة من تكبر إبليس ، واستمراره فى رد الأمر على صاحب كل أمر ، وبين تراجع آدم وإقراره بالذنب والتوبة عنه .

---

(١) عن عقبة بن عامر ، أن رسول الله ﷺ، قال: «إذا رأيت الله تعالى يعطى العبد من الدنيا ما يحب ، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك منه استدراج» أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٥٦١) .

قال تعالى : ﴿ **سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** ﴾ .

[**الأعراف** ١٨٢ ، ١٨٣ ، **والقلم**: ٤٤، ٤٥]

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٥٨٨) والترمذى (٢٠٢٩) كلاهما عن أبى هريرة بلفظ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» .

ماذا حدث لما ذاقا الشجرة ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ . [الأعراف : ٢٢]

دلى مأخوذة من دلى رجليه فى البئر أى أنزلهما فى البئر ليرى إن كان فيها ماء أم لا ، أو دلى حبل الدلو أى أنزل الدلو فى البئر بحثا عن الماء[١]، ومعناه أنه يفعل الشىء مرة ومرة. والغرور هو الإغراء الذى يوقع الإنسان فى المخالفة. وهنا لنا وقفة. . عندما أقسم إبليس لآدم وحواء اعتقدا أنه ينصحهما، ولكن المسألة لم تكن مجرد الأكل من الشجرة؛ بل لابد أن إبليس فى أول الأمر خدعهما ليقتربا من الشجرة، ثم زين لهما ثمارها، ثم بعد ذلك أغراهما بالأكل، أى أن المعصية تتم على مراحل وليس على مرحلة واحدة. وتنسج عودا عودا كالحصير.

ولذلك فإننا لابد أن نتنبه إلى أن اقترابنا من أماكن المعصية لابد أن يوقعنا فيها. والنفس المؤمنة تتبين الحق بمجرد الوقوع فى المعصية ولا تتمادى فيها. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾ . ولم يقل فلما أكلا من الشجرة، لأن الأكل يقتضى إعادة المعصية مرات ومرات، بينما مجرد التذوق يتبين أنها حدثت مرة واحدة فقط [٢] ، أى أن المعصية لم تتكرر ؛ بل

(١) قال الأزهرى «لهذه الكلمة - يعنى دلى - أصلان. أحدهما أن الرجل يدلى دلوه فى البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء. وضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه فيقال دلَّاه : أطمعه. الثانى: جرأهما على أكل الشجرة» ا.هـ. من البحر المحيط (٥/ ٢٦).

(٢) يقول صديق خان فى تفسيره (٤/ ٣٢٠) ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ﴾ أى طعما الشجرة ا.هـ.

وقال أبو حيان فى البحر المحيط (٥/ ٢٦) ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ أى وجدا طعمها آكلين منها كما قال تعالى: ﴿ فَأَكَلا مِنْهَا ﴾ [طه: ١٢١] وقال الرازى (١٤/ ٤٩) ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ ﴾ وذلك يدل على أنهما تناولا اليسير قصداً إلى =

حدث التنبه بمجرد حدوثها ، ولم يكن هناك إصرار على المعصية ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ .

والخصف هو أن تدارى شيئًا بشيء آخر كما تدارى خرقا فى الثوب بقطعة القماش، ولابد أن تكون قطعة القماش أوسع قليلا من الخرق. ولذلك كانت المداراة ليست بورقة من أشجار الجنة؛ بل بأكثر من ورقة حتى تدارى منطقة العورة [1]. ﴿وَطَفِقَا﴾ معناها : شرعا فى العمل، وحينئذ ماذا حدث؟.

قال تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ .

ذلك أنه من عدل الله ألا تقع عقوبة إلا بتحذير، ولذلك يقول الحق:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ . [الإسراء: ١٥]

أى أن الله لابد أن يحذرنا أولا من المخالفة ويقول : إن الجزاء سيكون كذا وكذا، فإذا تمت المخالفة أصبح العقاب حقا وعدلا. ولذلك لا يوجد فى التشريع الإلهى ما يسمى بالقوانين بأثر رجعى، فلا تحريم فى العدل الإلهى إلا بنص، والنص هو نهى الله عن أن يقربا الشجرة، وتحذيره لهما من أن الشيطان عدو. وقال الحق ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ .

ولم يقل لقد نهيتكما عن هذه الشجرة، لأنه لم يشأ أن يجعل النهى خبرا منه؛ بل أراد أن يأخذ الحكم من أفواههما. كان من الممكن أن يقول أنهيتكما

= معرفة طعمه. ولولا أنه تعالى ذكر فى آية أخرى أنهما أكلا منها، لكان ما فى هذه الآية لا يدل على الأكل لأن الذائق قد يكون ذائقًا من دون أكل. . » ا.هـ.

(١) قيل: هو ورق التين، وهو قول ابن عباس وقتادة جامع البيان للطبرى ٨/ ١٤٣، وقيل الموز. «غرر التبيان فيمن لم يسم فى القرآن» لابن جماعة، تحقيق الدكتور عبد الجواد خلف ٢٥٧.

عن هذه الشجرة، أو أنا نهيتكما عن هذه الشجرة. ولكنه لم يستفهم بالإثبات؛ بل استفهم بالنفى وقال: ﴿ **أَلَمْ أَنْهَكُمَا** ﴾ لأن الجواب من أفواههما سيكون نعم أنت يا ربنا نهيتنا وفى هذا توكيد للخبر على وجه التأكد واليقين.

* ما هى الكلمات التى تاب الله بها على آدم ؟ *

ماذا قال آدم وحواء حينما اعترفا أمام الله بأنهما ارتكبا المعصية وخالفا أوامر الله هل أصرا على المعصية ؟ هل حاولا أن يردا الأمر على الآمر ويقولا يا ربنا حكمك ليس عدلاً ، كما فعل الشيطان و﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾. [الأعراف: ١٢] لم يفعلا ذلك ولكنهما اعترفا بذنبهما وطلبا المغفرة والرحمة من الله . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. [الأعراف: ٢٣]

تلك هى الكلمات التى قال الله سبحانه وتعالى عنها: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾. [البقرة: ٣٧] وهذه الكلمات هى اعتراف بالذنب، واعتراف بأن الله حق، وقوله حق. وأن آدم وحواء لم يستطيعا أن يحملا نفسيهما على اتباع المنهج فظلما نفسيهما، ثم طلبا من الله المغفرة والرحمة لئلا يكونا من الخاسرين[1].

---

(١) قال الإمام الطبرى فى تفسيره جامع البيان (١/ ٢٤٥) بعد أن ساق الأقوال المأثورة في تفسير الكلمات التى تاب الله بها على آدم : وهذه الأقوال التى حكيناها عمن حكيناها عنه وإن كانت مختلفة الألفاظ فإن معانيها متفقة فى أن الله جل ثناؤه لقى آدم كلمات فتلقاهن آدم من ربه فقبلهن وعمل بهن وتاب بقيله إياهن وعمل بهن إلى الله من خطيئته، معترفاً بذنبه متنصلاً إلى ربه من خطيئته ، نادماً على ما سلف منه من خلاف أمره، فتاب الله عليه بقبوله الكلمات التى تلقاهن منه، وندمه على سالف الذنب منه.
والذى يدل عليه كتاب الله أن الكلمات التى تلقاهن آدم من ربه هن الكلمات التى أخبر الله عنه أنه قالها متنصلاً بقيلها إلى ربه معترفاً بذنبه وهو قوله : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. [الأعراف: ٢٣]

أن الحق، سبحانه وتعالى، قدر غفلة خلقه عن المنهج فشرع لهم التوبة. ووسائل التوبة ثلاث مراحل: تشريع التوبة رحمة ، وقبولها رحمة، وعدم العودة إلى المعصية رحمة، بعض الناس لا يفهم معنى تشريع التوبة ولذلك فإنه لا يستوعب قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا**﴾ نقول إن تشريع الله سبحانه وتعالى للتوبة لابد أن يحدث قبل التوبة نفسها، فمعنى قوله: ﴿**تَابَ عَلَيْهِمْ**﴾ أى شرع لهم التوبة، أى قال لهم إذا فعلتم ذنبا أو معصية فتوبوا. ومادام الله طلب منهم أن يتوبوا، فإنهم يتوجهون بالتوبة إلى الحق سبحانه وتعالى، فيقبلها الله منهم . وتشريع التوبة رحمة ليس فقط بالعاصى، ولكن بالمجتمع كله، لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يفتح باب التوبة لكان الذى يرتكب معصية واحدة يزداد فى ارتكاب المعاصى. فما دامت المعصية التى ارتكبها أعطته خلودًا فى النار، فليتجه إلى المعاصى بكل ما يستطيع لأنه فى هذه الحالة لن يخسر شيئًا.

ولكن تشريع التوبة من الله أخذه من جانب المعصية إلى جانب الخير، لأنه يستطيع أن يتوب ويتجه إلى الله بالخير وصالح الأعمال فينجو من النار.

وبذلك أعطاه الأمل فى الإصلاح، وأعطاه الأمل فى أن يتجه للخير وصالح الأعمال. وبذلك وقى الله المجتمع ووقى الإنسان نفسه من التمادى فى الشر والمعصية بأن فتح باب التوبة، فالتوبة رحمة للمجتمع ورحمة للمذنب.

ولابد لنا هنا من وقفة لنقارن بين معصية آدم ومعصية إبليس، وإبليس قال: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ**﴾. وقال: ﴿**أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا**﴾. أما آدم وحواء : ﴿**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾.

إبليس تأبّى على أوامر الله فكان جزاؤه أن يطرد من رحمة الله . وآدم وحواء اعترفا بذنبهما وبأنهما ظلما نفسيهما فتقبلت توبتهما. لذلك فإننا ننبه الناس الذين تجعلهم ظروفهم يداومون على معصية، نقول لهم: لا تحاولوا

أن تبرروا المعصية برد الأمر على الله ، وأن تقولوا: تغيرت الظروف أو هذا هو النظام الآن، أو أن الوقت غير الوقت.

فمثلا. . الذين يقولون إن الربا ليس حراما، وأنه نظام عالمى وأن الدنيا كلها تتعامل به، نقول لهم: لا تخرجوا أنفسكم من منطقة رحمة الله إلى منطقة الطرد من رحمته، قولوا: نحن نسلم يارب أنه حرام، ولكننا لا نقدر على أنفسنا فاغفر لنا وارحمنا، فى هذه الحالة تكون قد اتهمت نفسك بالضعف والغفلة والظلم وتصبح أهلا للتوبة والمغفرة. ولكن أن ترد الحكم على الله ، وتقول إن الربا ليس حراما، هنا تكون قد خرجت من منطقة الإيمان إلى منطقة الكفر، ولذلك فإنه خير للإنسان إذا ارتكب معصية ألا يدافع عنها، وألا يدعى أنها حلال؛ بل يعترف أنها حرام ولكن الظروف اضطرته إليها وهو غير قادر على نفسه، ويسارع إلى طلب المغفرة من الله تعالى ، ويندم على معصيته ، فى هذه الحالة يقبل الله التوبة[1].

---

(١) ولذلك كان من أخطأ من صحابة رسول الله ﷺ يأتيه طالباً التطهير من ذنبه الذى وقع فيه يقول : يارسول الله طهرنى، وقال رسول الله عن الغامدية «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى ». الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٩٦) وأحمد (٤/ ٤٤٠) والترمذى (١٤٣٥) وقال : حسن صحيح من حديث عمران بن حصين.

* مايستفاد من معصية آدم وتوبته *

إن الله درَّب آدم قبل أن يباشر مهمة الاستخلاف فى الأرض تدريبًا يؤهله لمسئولية الاستخلاف فى الكون، وكان التدريب فى مكان يكفل الحياة والراحة والأمن. وما كان الله ليزج بآدم فى ذلك الكون الواسع دون أن يدربه أولا على مهمته.

أوضح الله له الأوامر، وأجلى له النواهى، وحذره من الشيطان. ولم يكتفِ الخالق الرحيم بذلك، بل قدم لآدم الفرصة للتوبة إن أصابته الغفلة. وأعلمنا الحق كيف أن الشيطان قد ثأر لنفسه من آدم. لقد عصى الشيطان ربه فلم يسجد لآدم . وأراد أن يستأثر بآدم ليوقعه هو وأبناءه فى الخطيئة. ولقد نبه الله آدم لعداوة إبليس، ومع ذلك وسوس إبليس لآدم وقاده إلى الخطأ.

وقلنا: إن كلمة «وسوس» [1] أخذت من صوت الحلى الناعم الرقيق المستميل؛ وذلك لأن من يَغْوى بالشر دائما يقع اختياره على الأساليب اللينة المستميلة . وهبط آدم من جنة التدريب إلى الأرض، ووجد الكون مسخَّرا له، وكان عليه أن يتحرك فى الحياة لتعميرها . لقد خلق الله مقومات الحياة الأساسية من هواء وماء وعناصر تنبت فى الأرض. وإذا أحسن آدم العمل فإن الكون يستجيب له . كان على آدم أن يعمل بفكره المخلوق لله، وطاقته المخلوقة لله، فى المادة المخلوقة لله، ليحيا فى طموح معيشى وسعادة مرتقية. وكانت إرادة الحق أن يكون أبناء آدم بعضهم لبعض عدو ، ومن هذه العداوة يخرج الأحياء عن التَّستُّر ، فمن الجائز أن يتستر الأحياء على بعضهم البعض، لكن حينما توجد بيئة فيها جماعة ولهم أعداء ، فإن كل عدو يحاول أن يفضح خصمه. وكأن العداء يحفز الإنسان للابتعاد عن الخطأ حتى لا يتغلب عليه خصمه .

---

(١) راجع صفحة (١٤٧ ، ١٤٨) فيهما بيان شاف لمعنى الوسوسة .

وهكذا نرى أن وجود العداوة على الأرض هو سببٌ طموحيٌّ للارتقاء والصفاء النفسى . إن الشاعر العربى قال :

عدايا لهم فضل علىّ ومنة ... فلا أبعد الرحمن عنى الأعادى
هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها ... وهم نافسونى فاكتسبت المعالى

إذن فالعداوة يجب أن تستغل لصالح تربية الإنسان . ولو نظرنا إلى العالم الذى نعايشه الآن لوجدنا أن ارتقاء الابتكار والاكتشاف والاختراع، إنما نشأ من عداوة معسكرين. كل معسكر يريد أن يُنَقِّب عن أسرار يتفوَّق بها على صاحبه. ورغم أن كلَّ معسكر يريد الدمار بتلك المكتشفات، فإن الإنسان يستخدم تلك الأسرار فى إسعاد البشرية. فلو أن العالم قد أصبح كله من الأحباب لتستَّر كلٌّ على عيوب الآخر وفساده .

ولينظر كل واحد فى البيوت ؛ لنجد أن التنافس بين الأبناء يجعل كُلاًّ منهم يحاول أن يرضى الأب والأم ؛ وأن يبتعد عن الخطأ ؛ لذلك قال الحق الكريم: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ . [البقرة: ٣٦]

وكان ذلك أول نعى للإنسان. ذلك أن الحق قد وضع لكل إنسان حياته الموقوتة، والعاقل من يأخذ حياته على قدر وقتها وحجمها .

ويقول الحق بعد ذلك: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . [البقرة: ٣٧]

ومعنى ذلك أن الله خلق التوبة، وأنه يقبلها[١]؛ لذلك فلا وجود لواسطة بين الله وبين البشر، ولا وجود لإنسان بمفرده قادر على أن يحمل عن البشر خطاياهم، فخطأ آدم تم تصويبه، أما الخطيئة التى يرتكبها أى كائن من البشر

(١) يقول عز وجل ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

فالخالق يعاقبه عليها ، ومافعله آدم ليس خطيئة إنما خطأ، أما الخطيئة[1] كالقتل وسفك الدماء والدَّسِّ بين الناس، وإثارة الوقيعة بينهم، فالعقاب عليها إما في الدنيا أو في الآخرة؛ ولذلك يقول الحق : ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ . [الأنعام: ١٦٤]

إن الأمر ـ الواضح ـ من الحق لرسوله محمد ﷺ أن يخبر أمته، وأن يدعو المشركين ـ الذين ظنوا أن باستطاعة أحد غير الله أن يغفر لهم ـ إن الله واحد أحد، ليس له شريك؛ وليس لأى نفس إلا ما كسبت، ولا يؤاخذ إنسان بخطأ غيره، إنما الحساب دقيق، ثم المرجع الأخير إلى الله ليحكم فى أى اختلاف [2].

ليس الإنسان إذن أسير خطأ آدم؛ لأن الله تاب على آدم، ولا يحتاج الإنسان إلى من يخلصه من ذنوبه أو خطاياه. فالإنسان إذا خلصت نيته مع الله، وأحسن العمل، وتاب إذا أخطأ ، ولم يشرك بالله، فإن الله يتقبل منه توبته ويغفر له[3] ، إذن لا يوجد إنسان يمكن أن ينال مرتبة القادر على

(١) هناك فرق بين الخَطَأ والخطْء ، فالخطأ مرتكبه مخطئ ، وهو من كان يقصد الصواب فأخطأ ، أما الخِطْء ، فمرتكبه خاطئ ، وهو من تعمد عمل الخطأ عن قصد وسوء نية .

(٢) قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** ﴾ [الإسراء: ١٣ – ١٥]

(٣) قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا** ﴾ . [النساء: ٤٨]

عن أنس رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ، قال: « الظلم ثلاثة، فظلم لا يتركه الله ، وظلم يُغفر ، وظلم لا يُغفر ، فأما الظلم الذى لا يُغفر ، فالشرك لا يغفره الله ، وأما الظلم الذى يُغفر ، فظلم العبد فيما بينه وبين ربه ، وأما الظلم الذى لا يترك ، فظلم =

تخليص البشر من خطاياهم ،إن هم ارتكبوا الخطايا ، ويجب ألا ينظر أبناء آدم إلى أبيهم آدم كأول من ارتكب الخطيئة، ذلك أن آدم لم يرتكب خطيئة، ولكن ارتكب خطأ، وهذا الخطأ ابن للغفلة والسهو، إن خطأ آدم ليس من ذنوب الاستكبار على الله كذنب إبليس ، ذلك أن آدم قال هو وحواء: ﴿ **قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين** ﴾ . هنا كيف استغفر آدم ربه؟ .

لقد تحدث آدم إلى ربه بانكسار ، لذلك تاب الله عليه، وتساءل كثير من العلماء عن الكلمات التى علمها الله لآدم، حتى يقولها فيتوب عليه، قال بعض العلماء إن آدم قال: «**اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك تب علىَّ إنك أنت التواب الرحيم**» [١] .

وقال بعض آخر من العلماء إن آدم قال: «**اللهم لا إلـه إلا أنت، سبحانك ربى وبحمدك ، ربِّ إنى ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا، فتقبل توبتى ياخير التوابين**» [٢].

ونحن لا نقف عند نص الكلمات التى قالها آدم عليه السلام ، راجيًا التوبة . لكن نقول إن آدم عليه السلام، أقر بطاعة مطلقة لحقِّ الخالق الأكرم فى التشريع. طاعة آدم إذن هى اختيار وانكسار واعتذار ورغبة فى أن يقبل الله توبته محبة منه فى الله الخالق، ولو نظرنا إلى هذا الموقف ـ موقف طلب آدم التوبة ـ لوجدنا مبدأً نورانيًا هامًا فى حياة الجماعة. إن طلب آدم للتوبة ،

= العباد ، فيقتص الله بعضهم من بعض ». أخرجه أبو داود الطيالسى (٢/ ٦٠، ٦١) وحسنه الشيخ الألبانى فى الصحيحة (١٩٢٧) وصحيح الجامع الصغير (٣٩٦١) لأن له شاهداً من حديث عائشة، وإلا ففيه يزيد الرقاشى ضعيف، والربيع بن صبيح الراوى عنه صدوق سئ الحفظ.

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (١/ ٢٤٤) من قول عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية.

(٢) أخرج ابن جرير فى تفسيره (١/ ٢٤٤،٢٤٥) عن مجاهد بنحوه.

وقبول الله لتوبته، إنما هو وضع أساس هام لمسيرة الإنسان، إن مرتكب الذنب سوف يجد باب التوبة مفتوحاً ، فيقبل على الله بانكسار ، ولا يتمادى فى معصيته .

ولو أن باب التوبة لم يكن مفتوحًا [(1)] ، لتاه كل صاحب ذنب ، ولفسدت الدنيا، ولكن يجب أيضًا ألا نقبل على طاعة الله بغرور واستكبار. ويجب ألا يخطئ أحد ذلك الخطأ الذى قد يقع فيه البعض فيقول بغرور - حاشا لله - وماذا لله عندى ؟ إن له عندى العبادة وهأنذا أعبده . إن الله لا يريد مثل هذا اللون من الإقبال على عبادته. إن الله يحب أن يقبل الإنسان على عبادته، وهو محب لله الذى فرض هذه العبادة. ذلك أن العبادة ليست شكلاً تؤديه بدون مضمون ، إن العبادة إجراء كامل من الخضوع التام لله شكلاً ومضمونًا.

إن هناك حكمة من خلق الإنسان، وله خاصية الاختيار، وليس مقهوراً على العمل الصالح . إن الحكمة هى أن الله أراد الإنسان حراً فى اختيار الطاعة أو العصيان ، حتى يقبل الإنسان وهو طائع بحب ، أو يعصى باختياره فينال عقابه.

ولنا أن نعرف أن الإنسان بطبيعته ليس خَيِّراً مطلقًا ، ولا شريرًا مطلقا . ونحن نرى فى الحياة نماذج متنوعة من البشر. إنسان يتميز بعمل الخير، لكنه فى إحدى المرات قد يعمل عملاً خارجًا عن دائرة عمل الخير، ونرى إنسانًا آخر يتميز بعمل الشر، لكنه قد يقوم بعمل خارج عن دائرة الشر؛ ولهذا كان الثواب وكان العقاب. قد يسهو الطائع فيزل، فيعود إلى الله مستغفرًا. وقد يجرب العاصى طاعة الله فيدخل فى رحاب الله طالبًا المغفرة والتوبة. وبعض

(١) عن أبى موسى ، عن النبى ﷺ قال : « إن الله - عز وجل - يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها » أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٧) ومسلم (٢٧٥٩)، وعنه أيضا، عن النبى ﷺ قال : «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أخرجه أحمد (٢/ ١٣٢) والترمذى (٣٥٣٧) وحسنه الحاكم (٤/ ٢٥٧) وصححه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (١٩٠٣).

البشر من العاصين يقولون بينهم وبين أنفسهم، سنعمل ذلك العمل الخيِّر لأنه بسيط على الإنسان، وقد يغفر الله لنا به المعاصى. وقد نجد زلة بسيطة لبعض من يعملون الخير، فيسترها الله عن عيون الناس إكرامًا لعمل الخير (١).

ولذلك يقول بعض الصالحين ممن ذاقوا حلاوة الإيمان : **«رُبَّ معصيةٍ أورثت ذلا وانكسارًا ، خير من طاعة أورثت عزا واستكبارًا»** كأنهم عرفوا أن الخالق أوجد الذلة للنفس البشرية حتى يعتدل ميزانها، ولا تدخل فى باب التيه بالعبادة، وأوجد الخالق باب التوبة مفتوحًا حتى يدخله العاصى طالبًا العفو من الله، ونحن فى هذا العصر نجد بعض المشرعين الوضعيين يستنكفون أن يحملوا أنفسهم على تحقيق مطلوب الدين . هؤلاء المشرعون أنفسهم لا يستطيعون ـ على الإطلاق ـ الخروج من الدائرة التى فرضها الله، وهى فتح باب التوبة، إن التشريع الوضعى يقرر مبدأ رد الاعتبار للمجرم التائب، الذى لا يعود لارتكاب جريمة ما، ويسمون ذلك رد الاعتبار بالتقادم. وهكذا يستطيع المجرم التائب أن يواجه المجتمع، وهو غير مُحَمَّل بعبء أوزار

---

(١) عن صفوان بن محرز المازنى قال : « بينما أنا أمشى مع ابن عمر رضى الله عنهما آخذ بيده إذ عرض رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ فى النجوى ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يُدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أى ربّ ، حتى إذا قرّره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه هلك قال : سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد : ﴿ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. [رواه البخارى [٢٤٤١] ، ومسلم [٢٧٦٨] واللفظ للبخارى] .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها فيقال عملت يوم كذا كذا وكذا وكذا ـ ثلاث مرات ـ قال : وهو مقر ليس بمنكر وهو مشفق من الكبائر أن تجيء قال فإذا أراد الله به خيراً ، قال أعطوه مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب إن لى ذنوباً ما رأيتها ها هنا فلقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] . أخرجه أبو عوانة فى مسنده بسند صحيح ، والحديث فى مسلم بنحوه رقم [١٩٠/ ٣١٤] كتاب الإيمان .

الماضى. ويتحول المجرم من إنسان مطرود من المجتمع إلى إنسان مقبل على المجتمع بشجاعة [1].

كذلك أراد الله لآدم عليه السلام، أن يوجد فى الأرض وهو غير محمل بعبء معصيته نتيجة الغفلة، وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لآدم: إياك أن تجعل معصيتك فى بالك لتصدك عن حركة الحياة، وخذ هذه الكلمات لتعلمها لأبنائك من بعدك حتى إذا عصى واحد منهم فإن باب التوبة مفتوح. يقول لنا العزيز الغفور : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا** ﴾. [النساء: ٤٨]

إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ، كأن يجعلوا لله نداً ، أو أن يعبدوا إنسانا أو صنمًا من دون الله أو ما شابه ذلك من أمور الشرك والكفر ، أما المغفرة فهى ملك لله، يغفر إذا شاء سبحانه كل الذنوب ما دون الشرك .

ويقول أيضًا وهو الغفور الرحيم : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ إن الله يأمر رسوله بأن يبلغ الناس كافة: أن العباد الذين أسرفوا على أنفسهم بكثرة المعاصى ، عليهم ألا ييأسوا من رحمة الله ،وأن يعلموا أن الله يغفر الذنوب جميعًا . ولكن الحق جل وعلا جعل لقبول التوبة شروطاً.

---

(١) قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾

وعن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يقول الله عز وجل : يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك ما كان فيك ولا أبالى . يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى . يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » .

أخرجه الترمذى (٣٥٤٠) وأحمد (٥/ ١٧٢) والدارمى (٢/ ٣٢٢) عن أبى ذر .

قوله : بقراب الأرض : أى بما يقارب ملء الأرض .

فما هى هذه الشروط : نقرؤها فى قول الله تعالى فى الآيتين التاليتين للآية السابقة حين يقول الحق:

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾. [الزمر: ٥٤-٥٥]

إن التوبة تستدعى أن يرجع الإنسان إلى ربه، وأن يسلم الإنسان بكل جوارحه لله، وأن يسرع الإنسان بالتوبة قبل أن يفاجأ بالعقاب فى الحياة الدنيا أو بالعذاب فى الآخرة ،ولابد أن يتبع التائب أفضل مانزل من الخالق إلى المخلوقات، وهو القرآن الكريم ، ونحن نعرف من قصة آدم أنه تاب إلى الله، وأن الخالق هو التواب الرحيم . وكأن الله فى حديثه عن آدم يقول لنا: إننى توَّابٌ، لم أقبل توبة آدم وحدها، ولكنى أقبل توبة أى عبد منكم يا أبناء آدم. وإذا كنا نعلم أن من أسماء الله الحسنى أنه التواب ، فذلك يوجب علينا المبادرة بالتوبة إليه، وإلى تلقِّى رحمته . وهو يغفر الذنوب جميعًا لمن يسلم قلبه وجوارحه إليه [(١)].

---

(١) اشترط العلماء للتوبة النصوح شروطًا أربعة :

١- الندم بالقلب .

٢- ترك المعصية فى الحال .

٣- العزم على ألَّا يعود إلى مثلها.

٤- أن يكون ذلك حياءً من الله تعالى وخوفًا منه، لا من غيره.

فإذا اختل شرط من هذه الشروط الأربعة لم تصح التوبة.

وقيل من شروطها: الاعتراف بالذنب وكثرة الاستغفار الذى يحل عقد الإصرار ، ويثبت معناه فى الجنان، لا التلفظ باللسان.

قال القرطبى فى كتابه «التذكرة» : فأما من قال بلسانه: أستغفر الله وقلبه مصر على معصيته، فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرته لاحقة بالكبائر.

وقال : قيل : التوبة النصوح : هى ردُّ المظالم ، واستحلال الخصوم ، وإدمان الطاعات =

إن الله لا يحب أن يظلم عباده. ولكن العباد يظلمون أنفسهم . لذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ . [فصلت: ٤٦]

إن الخالق يعلمنا نحن عباده أن عمل كل فرد لنفسه، إن عمل صالحًا فله الثواب، وإن عمل سوءًا فعليه العقاب، ذلك أن الله أكرم من أن يأخذ واحدًا بذنب آخر، وأن يعاقب أحدًا دون ذنب، إن الله تواب رحيم، يقبل التوبة من العاصى كلما تاب. ولنا فى رواية الأثر الصالح عن عمر رضى الله عنه هذا المثال الواضح.. جاءت امرأة سرق ابنها وهى تصيح وتصرخ، إن ابنى لم يسرق هذه المرة. فقال عمر رضى الله عنه وأرضاه : الله أرحم بعبده من أن يؤاخذه من أول مرة. ولنا فى تأمل الحياة مايوضح صدق عمر بن الخطاب، إن العاصى يذنب مرة وثانية وثالثة إلى أن يأخذه الله بمعصيته.

إن الخالق يستر على عباده محبة منه فيهم وترغيبًا لهم فى التوبة إليه . ولكن عندما يتمادى العاصى فى غيه ولا يعود إلى مولاه ، فإن الله يأخذ العبد بذاك الذنب الذى ارتكبه ؛ لذلك فالمؤمن الواعى هو من يسمع قول أبى بكر الصديق: «والله إنى لا آمن مكر الله»، إن صاحب هذا القول هو الصديق، الذى أسلم وجهه لله فور دعوة الرسول له، وصدَّقه يوم أن كذبه

= وقيل غير هذا. وبالجملة فالذنوب التى يتاب منها :

إما كفر أو غيره، فتوبة الكافر إيمانه مع ندمه على سالف كفره، وليس مجرد الإيمان نفس التوبة. وغير الكفر: إما حق لله، وإما حق لغيره.

فحق الله تعالى يكفى فى التوبة منه الترك، غير أن منها ما لم يكتف الشرع فيها بمجرد الترك؛ بل أضاف إلى ذلك فى بعضها قضاء كالصلاة والصوم. ومنها ما أضاف إليها كفارة الحنث فى الأيمان وغير ذلك.

وأما حقوق الآدميين فلا بد من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم يُوْجَدوا تصدق عنهم، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعساره، فعفو الله مأمول وفضله مبذول.

الناس[1]، هذا الصديق لا تغفل عينه عن مراقبة نفسه، خشية أن يرتكب معصية فيعاقبه الله عليها. لهذا فكلٌّ منا عليه أن يعرف أن الله قد وصف نفسه بأنه ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ وأنه ﴿الْقَيُّومُ﴾، وأن عفو الله عن الذين يرتكبون المعاصى ويتوبون، هذا العفو يختلف عن عفو العبد الذى يخطئ فى حقه أحد، ويظل يمن عليه بالعفو، إن الخالق عفوٌ كريمٌ [2]، يحبُّ التوَّابين ويحب المتطهرين[3].

وبعد أن قبل الله توبة آدم ماذا حدث ؟ إن الحق الحكيم يقول : ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. [البقرة: ٣٨]

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كان آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر رضى الله عنه فقالوا هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس، قال: أوقال ذلك ؟ قالوا : نعم، قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة فلذلك سمى أبو بكر الصديق، أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/ ٦٢) وصححه وأقره الذهبى ، قال الألبانى فى الصحيحة (٣٠٦) : فيه نظر ، الصنعانى فيه ضعف من قبل حفظه، فمثله لا يحتج به إذا انفرد لكن توبع فحديثه لذلك صحيح.

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت : يا نبى الله أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أقول ؟ قال: تقولين : « اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عنى » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ١٧١، ١٨٢ ، ١٨٣) والترمذى (٣٥١٣) وقال : حسن صحيح، وابن ماجه (٣٨٥٠) وصححه الألبانى.

(٣) قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ قال الماوردى فى تفسيره (١/ ٢٨٣ ، ٢٨٤) : فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها : المتطهرين بالماء، وهذا قول عطاء.

والثانى : يحب المتطهرين من أدبار النساء أن يأتوها، وهذا قول مجاهد.

والثالث : يحب المتطهرين من الذنوب، أن لا يعودوا فيها بعد التوبة منها، وهو محكى عن مجاهد أيضاً .

إن الحق حين أمر آدم وزوجه بالهبوط إلى الأرض، استخدم في سورة البقرة كلمة ﴿اهْبِطُوا﴾، وهى أمر يصدر للجمع، وسبق أن قلت: إن آدم وزوجه كانا يحملان فى أصلابهما ذرية آدم كلها من بعد ذلك. وسبق أن أوضحت أن الحياة ممتدة فينا جميعًا؛ لأن فى كل منا جزءًا من آدم عليه السلام، وضربت بذلك هذا المثل، وأكرره حتى يثبت فى الأذهان:

لنفترض أن واحدًا أحضر سنتيمترًا مكعبًا من ماء ملوَّن، وأذابه فى كوب من الماء، لابد أن الإنسان سيرى تلوُّن كوب الماء بنفس لون السنتيمتر المكعب. ولو وضعنا الماء الذى فى هذا الكوب فى البحر، فلابد أن حركة الموج والمياه سوف تمزج ما فى الكوب فى مياه البحر، بحيث يتوزع كل ما فى الكوب على كل ما فى البحر . فإذا أخذنا من البحر برميل ماء فلابد أن نجد به، ولو أثرًا بسيطًا لا نراه بالعين من السنتيمتر المكعب من الماء الملوَّن.

وهكذا نحن بالنسبة لآدم عليه السلام، كل منا به جزء من آدم عليه السلام، كل منا شهد بأن الله ربه وخالقه، عندما أخذ ذرية آدم من ظهره، وفى ذلك قوله الحق: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾. [الأعراف: ١٧٢-١٧٣] (١)

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبىّ ﷺ، قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة، وأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذرِّ، ثم كلمهم قُبلا، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ رواه أحمد (١/ ٢٧٢)، والنسائى فى التفسير (١/ ٥٠٦)، وابن أبى حاتم، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٤٤) وصححه، والبيهقى فى السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (١٧٠١) وانظر الصحيحة (١٦٢٣).

هكذا أعلن كل واحد منَّا اعترافه بربوبية الخالق الأكرم، وإن الغفلة لن تنقذ أياً منا عن المثول بين يديه وتلقِّى الجزاء؛ ولذلك قال الحق تبارك وتعالى مخاطبًا آدم وزوجه بلغة الجماعة : ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. [البقرة:٣٨]

وفى هذه الآية حديث عن منهج الخالق الذى يجب أن تسير عليه المخلوقات. إن الخالق يتحدث عن الهدى الذى يجب أن يتبعه العباد.

ونحن نعرف أن الهدى هو الدلالة الموصلة إلى المطلوب، ومطلوب الخالق من العباد هو: الانسجام فى الكون : عبادة وعملاً ، تعميرًا وإصلاحًا ، وحسن استخلاف فى الأرض ، وأن يعقل كل منا أن وجوده على الأرض محدد بعمر يعلمه الله، فالله خلق الموت أمام عيون العباد يرونه فى كل حين. الطفل يموت قبل أن يتم أيامًا أو أعوامًا، الشاب يموت قبل أن يتم العشرين أو الثلاثين ، الرجل يموت قبل أن يتم الخمسين، المرأة تموت ، والشيخ يموت ، ولا أحد يعرف متى يموت، لذلك فمن الأجدر بالعباد أن يعقلوا أن الحياة موقوتةٌ بميعاد حدده الله وأخفاه ؟ لذلك فمن الأفضل للعباد أن يعيشوا حياتهم فى ضوء منهج الله .. لماذا ؟! حتى لا نحيا فى خوف أو حزن . وإذا سألنا عن الخوف ومعناه ، فإننا نجد أن الخوف هو أن يتوجس الإنسان من شر مقبل . وإذا سألنا عن الحزن فإننا نجد أنه مغادرة شىء سار للإنسان .

وهكذا نعرف أن اتباع هدى الله ينقذ الإنسان من الخوف ومن الحزن .. كيف؟ إن فى الإجابة على «كيف» هذه مضمونًا اجتماعيًا هاماً. إن الواحد منا لن يرتكب أى مخالفة لشرائع الله، إذا اتبع هدى الله، وإذا أقام فرائض الله، وإذا أحسن العمل ، ويسرع بالتوبة إن أذنب، مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يخاف إلا من الله .. لماذا ؟ لأن الخائف هو إنسان ارتكب خطأ، ويخشى اكتشاف هذا الخطأ ، أما الإنسان المستقيم فلا يحيا فى خوف أبدًا ؛ لأن الذى يخيف الإنسان أمران :

الأمر الأول : أن يكون الإنسان سببًا فى صناعة شىء يخاف منه .

الأمر الثانى : أن يجرى الله أمرًا على عبد له ؛ ولابد أن يكون ذلك لحكمة قد لا يدركها الإنسان .

ومن يتقبل ما يجريه الله عليه يكون قد اتبع منهج الله ، فلا يقع فريسة للخوف أبدًا . إن العبد الطائع لله لا يخاف من أحد ؛ لأنه لم يظلم ، ولم يؤذ أحدًا ، ولم يتصرف فى أى أمر إلا بما يرضى الله، مثل هذا العبد لا يخشى إلا الله .

ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل يجب ألا يخاف أحد على من يتبع هدى الله أى أن الأهل والأصدقاء والأقارب والمعارف لن يخافوا على العبد الطائع لهدى الله . . لماذا ؟ لأن العبد الطائع لمنهج الله يشع طمأنينة على من حوله، ويحس كل من يجلس إليه، أو يلتقى به، أنه يلتقى مع عبد طائع لله، ظاهره نظيف، وباطنه ملىء بخشية الله ، وبشجاعة تَقَبُّلَ كل ما يجريه الله. العبد الطائع إذن يكون أمانه واطمئنانه ليس له فقط ، ولكن لمن حوله أيضا .

وإذا تأملنا قوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:٣٨]، فإننا نجد أن من يحيا فى منهج الله، يحيا فى بِشْرٍ دائم وسرور متجدد. إن من يحيا فى ضوء منهج الله يمتلك نعمة من أعظم النعم التى يهبها الله لعباده الطائعين، إنها نعمة السلام مع النفس. إن مَلَكَات العبد الطائع تكون منسجمة مع نفسها ومع صاحبها. . لماذا ؟ لأن العبد الطائع ارتضى قيود التكليف الإيمانى، وأقبل عليها بمحبة ورضًا. لذلك يحيا هذا العبد الطائع فى سلام مع نفسه، ومع خالقه، ومع الكون، لا يسمع العبد الطائع إلا كل جميل، يسمع التسبيح بحمد الله، يرى فى كل عمل طاعة لله، يصل فى كل لحظة نفسه بالخالق، يتلقَّى المدد والعون من الله، فينتشر عمله رحمة، ويتلقى ممن حوله الحب والحنان. يرضى به مجتمعه؛ ويرضى عنه ربه، لأنه عبد ارتضى قيود التكليف الإيمانى، وأقبل عليها بشغف ومحبة ، إذا نظر إلى أى شىء وجد السرور، إذا تكلم مع أى أحد وجد الدعاء ، إذا قام بأى عمل مهما كان بسيطًا، فإنه يقوم به بإتقان ابتغاء مرضاة الله .

ولنضرب مثلًا قد يكون بسيطًا، ولكنه يوضح الأمر:

لنفترض أن رجلاً صالحًا بنى بيتا، وراعى فى تصميمه راحة السكان، وراعى فى إيجاره حق الله، فلم يرفع الإيجار، ولم يغتصب الناس بـ «خلو الرجل» ذلك الشيء البشع الجارى الآن، أو مثل هذه الأسماء التى يقهر فيها القوى الضعيف، مثل هذا الرجل ماذا يلقى من السكان ؟ إن الواحد منهم إذا دخل البيت وأحس بالراحة دعا له. والذين من حوله ينظرون إليه، فيضربون بأمانته المثل، ويصبح سلوكه قدوة ومثالاً، يرتفع به عمله الصالح فوق هؤلاء الذين استغلوا الناس، وضيقوا عليهم، وحبسوا عنهم حتى مسارات الهواء النقى، هؤلاء يتلقَّوْن فى كل وقت لعنة الناس وغضبهم، ومن قبل كل ذلك هناك لعنة الله، إن لم يتوبوا إلى الله توبة نصوحًا.

أما الذى يحسن عمله، ويرعى حق الله قبل أى حق آخر، فهو مصدر اطمئنان وبشر له ولمن حوله.

مثال آخر: لنفترض أن واحداً منّا ذهب إلى صانع أحذية، وأجاد الرجل صناعتها، وجعل وقته فيها هو وقت متعة ؛ لأنه يؤدى عمله بإتقان، ويرعى حق الله، من المؤكد أن من يرتدى هذا الحذاء. كلما مشى به خطوة، وتذكر أنه مستريح بهذا الحذاء، سوف يدعو لصانعه بالخير والبركة. أما إذا كان صانع الحذاء يرغب فى الربح فقط، ويتعجل العمل ولا يتقنه؛ فإنه يتلقَّى اللعنة من الناس[1].

إن نعمة الجمال من نعم الرحمن التى تشع فى الكون بالعمل الصالح من العبد الصالح؛ ذلك العبد لا يمسه الحزن أبدًا. حتى وإن أصابت العبد الطائع الصالح أحداث ليس له دخل فيها، فإنه يرفع يديه إلى السماء شاكرًا الله،

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال: « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٤٣٨٦) وذكره الهيثمى فى المجمع (٤/١٠١) وقال: فيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وصححه الألبانى فى الصحيحة لشواهده (١١١٣).

لأنه أدرى بحقائق الحكمة التى لا نعرفها ؛ ولهذا فأنا أقول دائما : إيَّاك أن تعتقد أن ربك أخطأ فى حكم ما أبدًا ، وعلى العبد الصالح أن يتلقَّى كل أمر من الله حامدًا راضيًا، ولسان حاله يقول : «أحمدك ربِّ على كل قضائك ، وجميع قدرك ، كله، حمد الرضا بحكمك واليقين بحكمتك» [(١)] ، ثم لنسأل أنفسنا : لماذا يحزن الإنسان ؟ ولقد أجبنا من قبل عن السؤال - بأن الإنسان يحزن لافتقاد شىء سار، والعبد الطائع الصالح الذى يسير فى حياته بنور منهج الله، يعرف أن الله قد يعطيه شيئًا أكثر سرورًا . وعندما ألتقى بواحدة تبكى؛ لأن ابنها الوحيد قد سافر لبعثة فى الخارج يعود بعدها مصدر فخر لأسرته بعمله ونجاحه . مثل هذه السيدة أقول لها : ألا تعرفين أن الله ادَّخر لك فخرًا أكثر سرورا بابنك . وعندما ألتقى بواحدة تبكى ابنها الذى فقدته فى الحرب أو فى ظروف قاسية استشهد فيها، فإنى أقول لها : كيف لا تؤمنين أنه عند الله يحيا ويرزق ويعيش بأسلوب خاص، تفوق متعه كل متع الدنيا التى قد يصورها لك خيالك بأنها غير محدودة ، بينما كل متع الدنيا هى عطاء قليل بالنسبة لعطاء الآخرة[(٢)] .

لكن ليس معنى ذلك أن الإيمان يقتضى أن يتحول الإنسان إلى صخر، لا . . الإيمان يقتضى أن نعطى العواطف فرصتها للتعبير ولكن بلطف ، الانفعال بالأحداث فى ظلال الإيمان يختلف عن الانفعال بالأحداث وحدها. فالذى يصاب بكارثة وهو غير مؤمن يدمره اليأس والحزن. أما الذى يستقبل

---

(١) أخرج مسلم (٢٩٩٩) عن صهيب، قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له».

(٢) يقول عز وجل ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ قال صاحب فتح البيان فى مقاصد القرآن (٥/ ٣٠٢) " متاع حقير لا يعبأ به لأن لذات الدنيا خسيسة فى نفسها ومشوبة بالأيات والبليات، ومنقطعة عن قرب لا محالة، ومنافع الآخرة شريفة عالية خالصة عن الآفات دائمة أبدية سرمدية وذلك يوجب القطع بأحد متاع الدنيا فى جنب متاع الآخرة قليل، ويجوز أن يرادا بالقليل العدم إذ لا نسبة للمتناهى الزائل إلى غير المتناهي الباقي.

الأحداث الخارجة عن إرادته فى نور منهج الله، فإن الأمر بالنسبة إليه يختلف. ولقد علّمنا رسول الله الشعرة الفاصلة بين اليأس وبين الحزن الجميل. ماذا قال رسول الله ﷺ، عند فقده لابنه إبراهيم ؟ قال الرسول ﷺ ما معناه : «**إن العين لتدمع ، وإن القلب ليخشع ، ولا نقول ما يسخط الرب . وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[1] صدق رسول الله ﷺ، هذا هو المزيج الإيمانى ، إنه الحزن دون أن نفصل سبب الحزن عن الخالق الذى أراد ذلك الحدث؛ لأن ذلك يولد صفاء القلب ويزيد من نور الإيمان .

لذلك يصدق قول الحق تبارك وتعالى حين يقول :

﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ . [البقرة : ٣٨]

أما الذين لا يتبعون هدى الله، فهؤلاء ماذا يحدث لهم ؟ إن الحق تبارك وتعالى يقول فيهم : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ . [البقرة : ٣٩]

ولنا أن نرى الفارق بين من يتبع هدى الله، وبين من يكذب بآيات الله ويكفر بها. هكذا نرى أن الحق الأكرم ينبهنا إلى أن العذاب الذى يتلقّاه المكذب بآيات الله والكافر بها، مثواه جهنم حتى وإن اجتهد فى الدنيا [2]،

---

(١) لما دخل ﷺ على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه ذرفت عيناه، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟! فقال: «يا ابن عوف إنها رحمة» ثم أتبعها بأخرى ، فقال ﷺ: «إن العين تدمع ، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» أخرجه البخارى (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥).

وقد علمنا ربنا جل جلاله أن نصبر عند الشدائد ولا نقول إلا خيرا قال تعالى ﴿ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ .

(٢) يقول تعالي فى سورة النور ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ . =

وقد يراهم المؤمن وهم سعداء بضلالهم. قد يكون أمرهم فى الدنيا ضلالاً مغلوطًا يظهر للناس على أنه سعادة ، ولكن ماذا أعد لهم الله فى الآخرة ؟ إن الدنيا مداها قصير، والآخرة هى الأبدية .

لذلك لنا أن نعرف كيفية ونوعية العذاب عندما يقول الحق عنهم ﴿ **أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾، إن الصحبة تعنى الالتقاء والتماسك والتعانق، فكأنَّ النار تعشقهم وهم يعشقونها، لأنهم حين يرون أعمالهم الفاسدة وتكذيبهم بآيات الله وكفرهم بمنهج الله يعرف الواحد منهم أنه يتلقى جزاءه العادل. إن الواحد منهم لما كذب رسول الله وكتاب الله وعظمته ومنهجه فى الحياة واستغنى بالمنهج من عند نفسه جاء القول المفاجئ الذى لم يتوقعه، وجاء اللقاء المفاجىء بالله الذى لم يعمل له وفى ذلك يقول الحق :

﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ . [النور: ٣٩]

هكذا يفاجئون بوجود الله الذى كذبوا به وبآياته ، وهكذا يوفيهم حسابهم. أسأل الله سبحانه وتعالى ألا يُغَيِّبَ علمه عنا، وأن نحيا دائمًا فى ظلال رحمته وفضله .

= يقول ابن كثير فى تفسيره : «هو مثل للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شىء من الأعمال والاعتقادات وليسوا فى نفس الأمر على شىء فمثلهم فى ذلك كالسراب الذى يُرى فى الفيافى من الأرض عن بُعْد كأنه بحر طامٍ . . فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء قصده ليشرب منه فلما انتهى لم يجده شيئا فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً وأنه قد حصَّل شيئاً فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئاً بالكلية [٣/ ٢٨٦ بتصرف] .

* لماذا لم يقبل الله توبة إبليس؟ *

آدم عصى الله وقبل الله توبته، وإبليس عصى الله فلم يقبل توبته . بعض الناس قد يقول: لماذا لم يقبل الله توبة إبليس؟ نقول:

لأن إبليس لم يتب عن المعصية، ولم يعترف بذنبه.. وآدم قال: يارب أمرك حق ... أمرتنى ألا أقرب الشجرة فأكلت منها، لم أقدر على نفسى فاغفر لى، ولكن إبليس تأبى واستكبر، وقال كما يروى لنا القرآن الكريم:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ . [الأعراف: ١٢]

وقوله : ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ . [الإسراء: ٦١]

إذن فإبليس استكبر، وآدم اعترف بذنبه، وهذا مبدأ إيمانى لا بد أن نتنبه إليه إذا أذنب واحد منا فلابد أن يقول: منهج الله حق وصدق، ولكنى لم أستطع أن أخضع نفسى للحكم فأخطأت وندمت على ما فعلت ، هنا يكون الإنسان قد دخل فى رحمة الله ، ولم يدخل فى غضبه، ولكن إياك أن ترد الحكم على الله ، وإلا تكون قد عصيت معصية إبليس، فلا تقل مثلا.. الزكاة مبدأ خاطئ لا يجب أن يطبق، ولكن قل: يارب أمرك حق، ولكنى أخطأت ، وعالج تقصيرى .

إبليس حين عصى الله اتخذ طريق العداء لآدم وذريته، ولكن لمن من ذرية آدم؟ للذين لا يخلصون العبادة لله واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ . [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠]

قال له العزيز الحكيم : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ .

إذن فالذى يخلص العبودية لله لا سلطان لإبليس عليه، وعزة الله فى استغنائه عن خلقه هى التى دخل منها إبليس للغواية. وإبليس له ذرية من الجن، والجن منهم صالحون ومنهم فاسقون[1]، فالذين يتبعون إبليس فى الإغواء هم ما نطلق عليهم الشياطين ؛ ذلك أن الجن جنس مقابل للإنس، منهم الطائع ومنهم العاصى، العاصون هم الشياطين، هؤلاء الذين يغوون الإنسان بنقاط الضعف فى نفسه، فلان يحب المال فيدخلون له من ناحية المال، فلان يحب الجمال فيغوونه بالجمال، فلان يحب الجاه، لكل واحد منا فجوة فى حياته يعرف الشيطان كيف يدخل منها، وهكذا يصبح الإنسان الذى يبحث عن الدنيا من جنود إبليس، وينفذ ما يطلبه منه فيكون من شياطين الإنس.

---

(١) قال تعالى ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ وقال ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾

قال الماوردى فى تفسيره (٦/١١٦) : فى المراد بالقاسطين ثلاثة أوجه :

أحدها : الخاسرون : قاله قتادة .

الثانى : الفاجرون : قاله ابن زيد .

الثالث : الناكثون : قاله الضحاك .

* ما الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس ؟ *

إبليس عصى. . وآدم عصى. . فما الفرق بين المعصيتين؟ إبليس عصى وتكبر ورفض طاعة أمر الله سبحانه ، وآدم عصى ولكنه اعترف بذنبه وقال : ظلمت نفسى فإن لم تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين. ويلاحظ هنا أن آدم وحواء قالا نفس الكلام فى نفس الوقت، فكأن الله سبحانه وتعالى هو الذى علمهما أسلوب التوبة، وإلا لو كان قد تركهما بلا علم لاعتذر كل منهما بأسلوب يختلف عن الآخر. ولذلك يقول الحق: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ . أى أن كلمات التوبة ليست من عند آدم وحواء؛ بل بإيحاء من الله سبحانه وتعالى ليتوب عليهما.

على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد قال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ أى بصيغة الجمع ولم يقولا ظلمنا نفسينا، استخدما صيغة الجمع مع أنهما اثنان فقط، وهنا لابد أن نتنبه إلى أن هذه الآيات تؤكد لنا أن آدم وحواء لم يكونا فى جنة الخلد، ثم بعد المعصية طردا منها، لأن الله تاب عليهما فى قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فمادام الله قد تاب عليه، فلماذا يطرده من جنة الخلد، نقول: إن الله سبحانه وتعالى بعد أن درب آدم وأفهمه ماذا يفعل إبليس وكيف سيغريه على المعصية، وأى طرق سيسلكها فى هذا الإغراء. قال لآدم وحواء بعد أن تمت التجربة وعرفا كل شىء : اهبطا إلى الأرض لتباشرا مهمتكما، والتزما أمر الله فى التكليف ونهاهما الله عن المعصية : واحذرا عداوة الشيطان، فإذا ضل آدم وذريته التى ستتلقى المنهج عنه بعد ذلك، فباب التوبة مفتوح، وإلا فإنه لا عذر لهم.

✻ اصطفاء الله لآدم بعد توبته ✻

إن الله سبحانه وتعالى فى قصة آدم كلها يريد أن يبين لنا أن آدم يتمثل فى عنصرين، فى أنه بشر يصيب ويخطئ، ويخالف منهج الله ثم يتنبه فيتوب. ولكن الله أراد أن نعلم أن فى آدم أيضاً عنصر النبوة المعصوم من الخطأ فاجتباه وجعله نبياً، فآدم كبشر أكل من الشجرة فعصى ، وآدم كنبى بلغ ذريته الرسالة. ولذلك يجب أن نفطن إلى النص القرآنى: ﴿ وَعَصَىٰٓ آدَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١] وهذه طبيعة البشر: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢٢] إذن فالاصطفاء جاء بعد المعصية. آدم فيه بشرية تخطئ وتصيب، وفيه نبوة معصومة، وهذه تتمثل فى الأنبياء من ذريته الذين عصموا من المعصية. لذلك لا يصح لنا أن نقول كيف يعصى آدم وهو نبى، نقول تنبه أن النبوة لم تأت إلا بعد أن عصى آدم وتاب وتقبل الله توبته، وهو يمثل مرحلة البشرية كلها منذ خلقه إلى يوم البعث.

والبشرية تنقسم إلى قسمين: بشر يبلغهم الله منهجه فيطيعون ويعصون ويتوبون، وأنبياء يبلغون عن الله منهجه، وهؤلاء عصمهم الله من الخطأ. والذين يقولون: إن آدم كان مخلوقاً ليعيش فى الجنة، وأنه نزل إلى الأرض بسبب المعصية نقول لهم: افهموا عن الله ساعة خلق آدم، قال الله جل جلاله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] إذن فمهمة آدم الأساسية فى الأرض هى المقام فى طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه(١)، والفترة التى

---

(١) قال ابن جرير الطبرى : « معنى الخلافة التى ذكرها الله إنما هى خلافة قرن منهم قرناً غيرهم ». [جامع البيان ١/ ٢٠٠] .

وقال ابن كثير أيضاً فى تفسيره (١/ ٦٧) قال: « أى قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ وقال: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ .. والظاهر أنه لم يرد آدم عيناً إذ لو كان ذلك لما حسُن =

قضاها فى المكان الذى أطلق عليه الجنة كانت تدريباً على مهمته فى الأرض، فلا نقول إنه طرد من الجنة بسبب المعصية، لأن المعصية أعقبتها توبة مقبولة ثم نبوة، أما الجنة فكانت مرحلة من مراحل الإعداد للخلافة فى الأرض.

= قول الملائكة ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا ﴾ فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون . أو فهموا من الخليفة أنه الذى يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم ». [بتصرف] .

* هبوط آدم وزوجه من الجنة *

لقد صدر الأمر الإلهى بأن يهبط آدم وزوجه إلى الأرض؛ ليباشرا مهمتهما، وهى الاستخلاف فى الأرض. لقد عرف آدم على ضوء التجربة أن لله أمرًا ولله نهيًا، وأن العداوة قائمة بينه وبين الشيطان. وعرف آدم أن المعصية أو النسيان ليسا دافعًا لليأس من رحمة الله؛ لذلك يقول الحق فى تصوير ذلك الموقف:

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. [البقرة: ٣٦-٣٨]

وهكذا نعرف أن هناك ثلاث نقاط فى ذلك الموقف :

أولاً : هبوط آدم وزوجه من الجنة(١).

---

(١) عن بريدة رفعه قال : لو أن بكاء داود وبكاء جميع أهل الأرض يعدل ببكاء آدم ما عدله. قال الهيثمى في المجمع [٨/ ٢٠١] . رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات . ورد فى المدة التى أسكن فيها آدم الجنة أثر أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٤٢) وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى وابن سعد فى الطبقات مطولاً (١/ ٣٤، ٣٦) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : ما سكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أما عن سبب خروج آدم عليه السلام من الجنة فقد ورد عن أبى هريرة رضي الله عنه : « وهو حديث الشفاعة الطويل » قوله عليه السلام : «... فيقولون يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟.

فيقول آدم : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبو إلى نوح..» =

ثانيًا : توبة آدم ، وقبول الخالق الأكرم للتوبة .

ثالثًا : رسم طريق الهداية أمام آدم وأبنائه من بعده .

ولنا أن نقف عند كل نقطة بالتفصيل .

أولاً : هبوط آدم وزوجه :

إن هبوط آدم وزوجه من الجنة كان بدءًا للمهمة التى أرادها الله لآدم وبنيه من بعده. ويستند البعض إلى أن قول الله ﴿ **اهْبِطُوا** ﴾ معناه أن آدم كان فى جنة الآخرة. ذلك أن الهبوط هو من مكان أعلى إلى مكان أسفل، وأن

= البخارى (٣٣٤٠ ، ٣٣٦١ ، ٤٧١٢) ومسلم (١٩٤)

وقد ورد أن حواء هى التى زين لها ابليس الأكل من الشجرة ومن ثم قوله هى التى زينت لآدم المعصية ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : عن النبى ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها». أخرجه البخارى (٣٣٣٠).

قوله : ولولا بنوا إسرائيل لم يخنز اللحم : يخنز : ينتن، والخنز : التغير، والنتن.

قيل : أصله أن بنى إسرائيل ادخروا لحم السلوى وكانوا نهوا عن ذلك، فعوقبوا بذلك حكاه القرطبى وغيره عن قتادة، وقال بعضهم : معناه لولا أن بنى إسرائيل سنوا ادخار اللحم حتى أنتن لما ادخر فلم ينتن.

وقوله : ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها : حواء : هى زوجة آدم عليه السلام، وقيل سميت كذلك لأنها أم كل حى.

لم تخن أنثى زوجها: إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع فى ذلك، فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى زينته لآدم، ولما كانت هى أم بنات آدم أشبهنها بالولادة ونزع العرق فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقول، وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش، حاشا وكلا، ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسَّنت ذلك لآدم عُدَّ ذلك خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها، وقريب من هذا حديث : «جحد آدم فجحدت ذريته».

وفى هذا الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أُمِّهِنَّ الكبرى ، وأن ذلك من طبعهن فلا يفرط الرجل فى لوم من وقع منها شىء من غير قصد إليه أو على سبيل الندور ، وينبغى لهن أن لا يتمكن بهذا فى الاسترسال فى هذا النوع؛ بل يضبطن أنفسهن ويجاهدن هواهن والله المستعان، انتهى انظر فتح البارى [١١/٧ ، ١٢] . [بتصرف] .

الهبوط هو دنو فى المنزلة. لكن لو استوعبنا مادة الهبوط فى القرآن الكريم نجدها غير ذلك ، فالحق تبارك وتعالى يقول فى محكم كتابه: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. [هود: ٤٨]

إن هبوط نوح بأمر من الله كان هو النزول على الأرض من سفينة النجاة سالما متلقِّيا بركة الإيمان بالله هو ومن معه، والذين معه منهم من سيظل على الإيمان، فيظلُّ محاطًا بسلام الله، وبركة الإيمان به ، ومنهم من سوف تصيبه الغفلة فيكفر ويتلقَّى العذاب الشديد . وهكذا لا يكون الهبوط تقليلا من منزلة أو مكانة ، إنما هو انتقال من مكان إلى مكان، وكان هبوط آدم وزوجه لمباشرة مهمة الخلافة فى الأرض(١) .

ثانيا : توبة آدم ، وقبول الله للتوبة :

ولنا أن نتأمل توبة آدم ، إن آدم قد تلقَّى كلمات من ربه فتاب عليه بعد أن اعترف بذنبه وأقرّه ، وطلب أن يرفع الله عنه ظلمه لنفسه ، وهذه التوبة

(١) اختلف الناس فى الجنة التى أسكنها آدم عليه السلام وأهبط منها، وكل فريق قال قولا ورأى رأيًا، وقدم كل فريق حججه وبراهينه لينتصر لقوله ورأيه:
قال ابن الخطيب فى تفسيره المشهور: واختلفوا فى الجنة المذكورة فى هذه الآية: هل كانت فى الأرض أو فى السماء؟. وبتقدير أنها كانت فى السماء، فهل هى الجنة التى هى دار الثواب وجنة الخلد، أو جنة أخرى؟.
وقال أبو القاسم البلخى وأبو مسلم الأصبهانى: هذه الجنة فى الأرض، وحملا الإهباط على الانتقال من بقعة إلى بقعة، كما فى قوله تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ [البقرة: ٦١] واحتجا عليه بوجوه.
وقال الجبائى: إن تلك الجنة كانت فى السماء السابعة.
وقال جمهور أصحاب ابن الخطيب: إن هذه الجنة هى دار الثواب.
وقال ابن الخطيب ذاته: إن الكل ممكن، والأدلة متعارضة، فوجب التوقف وترك القطع.
[ا. هـ من حادى الأرواح بتصرف]، وقد أفرد ابن القيم فى كتابه هذا عدة أبواب، قدّم فيها عرضًا جيدًا لهذا الموضوع، فليرجع إليه من أراد.

ترسم الطريق أمام أبناء آدم من بعد ذلك للاستغفار من الذنوب والمعاصى ، وهكذا يتضح أمامنا طريق الحياة على الأرض . لقد هبط آدم إلى الأرض هو وزوجه وتلقى المغفرة من الله ، وصار لكل عمل من أعمال آدم وأبنائه ميزان للحسنات، وميزان للسيئات كما أن الاستغفار من الذنوب بشكل جاد يمحوها، والعمل الصالح يبقى للإنسان.

ولنا أن نعرف أن القرآن الكريم يقول مرة عن آدم وزوجه ﴿ اهْبِطَا ﴾ ، ومرة أخرى يقول: ﴿ اهْبِطُوا ﴾ ، ما الفارق بين القولين ؟ :

إن قول الحق: ﴿ اهْبِطَا ﴾ لآدم وزوجه يتضمن الأمر لهما. وقول الحق: ﴿ اهْبِطُوا ﴾ لآدم وزوجه ، إنما يوضح أن الأمر صادر أيضًا لذرية آدم[1] ، وفى ذلك يقول الحق : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ . [الأعراف: ١١]

وهذا القول الحق يتضمن أن الخلق كله كان مصوراً من قِبَلِ الخالق، وأن الذرية كلها كانت معلومة عند الخالق الأكرم. وأن الحق جل وعلا قال فى كتابه الكريم عن إشهاد الخلق على أنفسهم:

(١) الإهباط فى قصة آدم عليه السلام تارة يذكره القرآن بلفظ الإفراد، وتارة بلفظ التثنية، وتارة بلفظ الجمع. أما لفظ الإفراد، كقوله تعالى: ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ ، وهذا لإبليس وحده. وأما بلفظ التثنية. كقوله تعالى: ﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ [طه: ١٢٣] فإما أن يكون لآدم وزوجه، إذ هما اللذان باشرا الأكل من الشجرة، وأقدما على المعصية، وإما أن يكون لآدم وإبليس، فذكر حالهما، ومآل أمرهما؛ ليكون عظة وعبرة.

وأما بلفظ الجمع فى قوله تعالى ﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة:٣٦، الأعراف: ٢٤] فهو لآدم وزوجه وإبليس، إذ مدار القصة عليهم، كما لا يخفى.

ونقل جمهور المفسرين، وهو أحد قولى ابن عباس من طريق السدى أن الخطاب فى قوله تعالى: ﴿ اهْبِطُوا ﴾ لآدم، وحواء، وإبليس، والحيّة. فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند، وحواء بجُدَّة من الحجاز، وإبليس بالأيلة، والحيّةَ ببلسان. انظر تفسير ابن كثير ١/ ٨٠ ، وزاد المسير لابن الجوزى ١/ ٦٨. وغرر التبيان لابن جماعة ٢٠١.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾، هكذا يتضح لنا دليل الإيمان بالفطرة الأولى، حيث أخذ الله على ذرية آدم العهد، وأشهدهم على أنفسهم، وحذرهم من الغفلة، أو اتباعهم للمبطلين.

ولقد قلت من قبل: إن فى كل إنسان جزءًا من آدم عليه السلام، وما دامت الحياة قد وصلت إلينا بسبب إرادة الله من تواصل آدم وحواء. ما دام الأمر كذلك ففى كل منا جزء من آدم، عليه السلام؛ وكنا جميعًا مطمورين فى آدم، والجنس البشرى كله إلى أن تقوم الساعة مطمور فيه .

ثالثًا : رسم طريق الهداية أمام آدم وأبنائه من بعده :

ولكن لماذا قال الحق : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة: ٣٦] هل كان المقصود بذلك هو العداوة بين الإنسان والشيطان ؟ لا؛ لأن الخالق أوضح لآدم تلك العداوة . إن المقصود بتلك العداوة بنو الإنسان أنفسهم[1].

---

(١) هذا القول اختاره الزمخشرى. قال ابن القيم فى كتابه: «حادى الأرواح»: وهذا الذى اختاره أضعف الأقوال فى الآية ، فإن العداوة التى ذكرها الله تعالى إنما هى بين آدم وإبليس وذريتهما، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾. وهو سبحانه قد أكد أمر العداوة بين الشيطان والإنسان، وأعاد وأبدى ذكرها فى القرآن لشدة الحاجة إلى التحرز من هذا العدو، وأما آدم وزوجه، فإنه إنما أخبر فى كتابه أنه خلقها ليسكن إليها، وجعل بينهما مودة ورحمة، فالمودة والرحمة بين الرجل وامرأته، والعداوة بين الإنسان والشيطان.
وقد تقدم ذكر آدم وزوجه وإبليس وهم ثلاثة، فلماذا يعود الضمير على بعض المذكور مع منافرته لطريق الكلام دون جميعه ، مع أن اللفظ والمعنى يقتضيه. أما قوله تعالى ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه: ١٢٢] وهذا خطاب لآدم وحواء، وقد جعل بعضهم لبعض عدوا، فالضمير فى قوله: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا ﴾ إما أن يرجع إلى آدم =

وقد يظن البعض أن العداوة كلها شر، ولا يعرف هؤلاء أن طاقة العدوان عند كل فرد هى التى تدفع فيه طاقة البناء، نعم، فخيال الإنسان الذى صور له إقامة المدن كان يمثل عدوانا على الطبيعة ومهانة لها، فبنى المدن بجانب الأنهار، وبعيداً عن الفيضان، ورسم سبل التوصل بين المدن وبعضها، كل ذلك بفضل ما وهبه الله من طاقة عدوان، وفرق بين عدوان للتدمير وعدوان للبناء .

إن طاقة العدوان فى الإنسان هى التى تورث الطموح ، فلولا العدوان بين الإنسان وبين البُطء فى الحركة ، لما أصر الإنسان على استئناس الحصان ليقطع به المسافات الطويلة . ولولا العدوان بين الأمم لما كانت الاختراعات والابتكارات ، وبعد أن يتوصل بنو الإنسان إلى جديد يفيد حياتهم من مخترعات ومبتكرات ، فإن شحنة البغضاء تذهب ، ويحل محلها استخدام المبتكرات والمخترعات فى خدمة الحياة المسالمة. إن الخالق الأكرم لم يشأ أن تظل الحياة رتيبة والناس متشابهة . وذلك من أجل أن يولد الطموح، وأن يستغل الإنسان طاقة العدوان فيه للبناء، وهكذا تكون كلمة «عدو» هى الخميرة الأولى لطموح الإنسان .

ولهذا يقول الحق جل وعلا : ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، إن رحيق الجنة فى الآخرة لا يشربه إلا من قاموا

= وزوجه، أو إلى آدم وإبليس ، ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له، وعلى هذا فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالإهباط وهما آدم وإبليس؛ فالأمر ظاهر، وأما على الأول فتكون الآية قد اشتملت على أمرين:

أحدهما: أمره تعالى لآدم وزوجه بالهبوط.

والثانى: إخباره بالعداوة بين آدم وزوجه وبين إبليس، ولهذا أتى بضمير الجمع فى الثانى دون الأول، ولابد أن يكون إبليس داخلا فى حكم هذه العداوة قطعًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧] وقال للذرية: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] . وتأمل كيف اتفقت المواضع التى فيها ذكر العداوة على ضمير الجمع دون التثنية !! . انتهى.

بالعمل الصالح، والعمل الصالح فى الحياة يتعرض لاستفزاز من أهل الباطل ومن أعداء الحق، والذين ينصرون الحق ويقيمون العدل ويرجون وجه الله ، هؤلاء الذين تنافسوا فى الخير فى الدنيا لهم شراب الجنة . وهكذا نفهم أن المنافسة هى من أصل وصميم سبب الحياة . ذلك أن التنافس كلمة مشتقة من تنفس، ونحن نعرف أن التنفس أساس للحياة، والأصل فى استعمال التنافس: أن الإنسان كان يغطس فى الماء ، ومن يكتم أنفاسه ويصبر أكثر هو الذى يفوز . وهكذا نعرف أن التنافس هو تسابق إلى الشىء كلٌّ يريد أن يصل إليه . والتنافس فى العمل الصالح يثاب عليه المتنافسان. أما العداوة فتكون على شىء أخذه واحد وحرم منه الآخر . والتنافس فى الخير يرسى العدل فى الأرض ، ولم تؤسس البشرية القضاء على درجات إلا من أجل أن يبدع عقل الإنسان فى البحث عن مزيد من الخير .

مثال ذلك المحاكم درجات : محكمة ابتدائية واستئناف ونقض وإبرام . وعندما تتصاعد قضية من المحكمة الابتدائية إلى محكمة الاستئناف، ثم إلى محكمة النقض والإبرام، فإن حكم المحكمة الأخيرة يصبح مبدأ قانونيا ، ولنقرأ معًا قول الله تعالى : ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ . [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩]

وموجز تلك القضية التى تنافس فيها عقل وقلب اثنين من الأنبياء: هى أن رجلاً صاحب زرع، فوجئ ذات صباح بأن أغنام رجل آخر قد أكلت زرعه كله، فلم تبق منه شيئًا . وذهب صاحب الزرع ومعه صاحب الأغنام إلى نبى الله داود يطلبان الحكم، فحكم داود بأن تكون الأغنام مِلْكًا خالصًا لصاحب الأرض مادامت قد أفسدت زراعته . وعند خروج الاثنين من مجلس نبى الله داود التقيا بالنبى سليمان بن داود، وسأل نبى الله سليمان عن القصة، وسمع حكم أبيه فيها .

وأفهم الله سليمان أن هذا الحكم فيه ظلم لصاحب الأغنام. فدخل نبى الله سليمان على والده ، وبالاحترام اللائق ناقش النبى سليمان والده فى القضية، وعرض رأيه الذى يقول: إن صاحب الأغنام يكون مظلومًا لو فقدها إلى الأبد؛ لذلك فمن الأفضل أن تظل الأغنام عند صاحب الأرض التى هلك زرعها إلى أن ينمو فيها زرع آخر ، وبعد ذلك تعود الأغنام لصاحبها. وارتضى داود حكم ابنه سليمان؛ لأن فيه العدل والحق؛ لذلك نزلت تلك الآيات لتوضح لنا كيفية رد الحكم إذا ما شعر الإنسان أن فيه ظلمًا، وكيف أن الله أفهم نبيه سليمان المزيد من الحكمة لإقامة العدل، وهكذا يكون الأدب ألهم الله سليمان الحكم فلم يعترض أباه صاحب الحكمة أيضًا نبى الله داود إنما وافق على رأى ابنه لصوابه.

لم يجد الابن غضاضة فى أن يستدرك على أبيه حكمًا؛ لأنه يعلم أن جوهر رغبة الأب هو تحقيق منهج الله ، وأن الهدف المطمور فى صدر الأب هو نفسه المطمور فى صدر الابن ، وهو إقامة الحكم العدل ، وهكذا عرف صاحب الأرض أنه سينال تعويضًا من ألبان الماعز ونتاجها. وعرف صاحب الماعز أنه سينال عقوبة محددة لإهماله فى الاعتداء على زراعة آخر ، وهكذا تنافس اثنان من الأنبياء فى إقامة العدل بما يملكانه من حكمة .

ولنا أن نتأمل قول الحق: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ إن كلمة ﴿ حِينٍ ﴾ تدل على الزمن المبهم الذى يخفيه الله سبحانه وتعالى. وكأن مهمة آدم وأبنائه فى الأرض محددة بزمن يعرفه الحق جل وعلا، وهو مبهم بالنسبة لأبناء آدم حتى يميز الخبيث من الطيب، والعمل الصالح من العمل الطالح . إن آدم قد عاش مع زوجه فى جنة التدريب على مهمة الاستخلاف فى الأرض، وكانت كل وسائل العيش الرغد متوفرة فى جنة التدريب. وعندما أُهبط آدم وتناسل كان الهدف أن يتم اختبار آدم وأبنائه ، فالقوى عليه أن يعمل ليساعد الضعيف، وإلا فإن الحق سبحانه وتعالى يعطى الضعيف من القوة ما يتفوق به على قوة القوى.

* تدريب آدم علي تطبيق المنهج *

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف: ٢٤] نلاحظ هنا اختلاف الأسلوب فى أماكن متعددة من القصة، فكما بينا سابقًا الفرق بين قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله سبحانه ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ [ص:٧٥] كذلك هناك فرق بين قوله تعالى:﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] وقوله تعالى: ﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُو ﴾. المخاطب آدم وحواء وإبليس، وقوله تعالى: ﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٣٦] العداوة هنا مسبقة وظاهرة بين الإنسان والشيطان، وستستمر على الأرض، أما قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ﴾. فكأن العداوة هنا بين طرفين، آدم وحواء طرف، وإبليس طرف آخر، فكأنهما فريقان، ولذلك استخدم المثنى ، ولكن حتى بعد أن تصبح العداوة بين آدم وحواء وذريتهما، وإبليس وذريته، ستكون عداوة بين جماعتين.

فالقرآن كل حرف فيه بميزان لأنه كلام الله، ولذلك عندما تقرأ القرآن لا تقرؤه فقط؛ بل تتدبره. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [النساء: ٨٢] ومعنى أن تتدبره: أنك لا تأخذ واجهة اللفظ فقط، ولكن تبحث عما وراء اللفظ[1]. الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ اهْبِطَا ﴾

(١) يقول أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط (٣/ ٧٢٥) : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ أي =

وقال: ﴿اهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٦] قوله: ﴿اهْبِطَا﴾. معناه أن الله نظر إلى آدم وحواء فى طرف وإبليس فى طرف. وقوله: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌ﴾. موجه إلى آدم وحواء وإبليس، ففى هذه الآية معنى وفى الآية الأخرى معنى آخر.

ولقد قلنا سابقا، إن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩] ولم يقل اقتتلا مع أنهما طائفتان، نقول: نعم إنهما طائفتان يجمع كلا منهما هدف، ولكن فى ساعة القتال كل واحد يمسك بسيفه ويقاتل الآخر، فهذا يقاتل هذا، والثانى يقاتل الثانى وهكذا. فقال الحق: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾. ولم يقل اقتتلتا لأنه ساعة المعركة يكون لكل واحد من المشتركين فيها فعل، فهذا له فعل وهذا له فعل. ولذلك استخدم أسلوب الجمع، وعندما جاء إلى الصلح لم يقل فأصلحوا بينهم ولكنه قال: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. لماذا؟ لأنه ساعة يأتى الصلح لا نأتى بكل فرد من الطائفة الأولى ونصلح بينه وبين فرد من الطائفة الثانية، بل يكون الصلح بين جماعة وجماعة أو طائفة وطائفة، فالجماعية فى بداية القتال، والجماعية فى إنهاء القتال، ولكن أثناء الحرب يصبح هناك فعل مستقل من كل واحد من الجماعتين.

حينما يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ نعرف أن استخدام الحق لكلمة عدو معناه أنه سيكون هناك صراع وعداء بين ذرية آدم وذرية إبليس، ولكن هل سيستمر هذا الصراع إلى مالا نهاية؟ لا.. يستمر بعمر الدنيا فقط ولا يمتد إلى الآخرة، أى أنه مستمر بعمر كل واحد منا فى الدنيا، أى السنوات التى سيقضيها فى

= أفلا يتأملون ما نزل عليك من الوحى ولا يعرضون عنه، فإنه فى تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره ولا يظهر ذلك لمن أعرض عنه ولم يتأمله.

الدنيا، فإذا مات الإنسان انتهى الصراع بينه وبين إبليس. وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَتَاعٌ﴾ يرينا أن المؤمن ينظر إلى الصراع مع الشيطان فى الحياة الدنيا رغم ما يسببه له من متاعب ومشاق على أنه متاع... لماذا؟ لأنه سيقوده إلى الجنة فى الآخرة، فكأن هذا الصراع بالنسبة للمؤمن يكون متعة، كلما استحضر الجزاء الكبير الذى سيحصل عليه فى الآخرة ومتعة محددة بوقت، لأن لها نهاية.

قال الحق ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] فكأن الحق سبحانه وتعالى قد ربطنا بالأرض، منها خلقنا، وعندما نموت نعود إليها، ثم نبعث منها، فأنا خلقت من طين الأرض، فهى أمى، وإذا مت أعود إلى أمى الحقيقية ولا أعود إلى أم النسب.. لماذا؟ لأن النسب صلة فى الحياة فقط وليس بعد الموت، وعندما يموت الإنسان فإن أحب الناس إليه هو الذى يسرع بمواراته التراب. وكما تدارى الأم على عورات أبنائها فإن الأرض تأخذ منا الأذى الموجود فى أجسادنا وتدارى رائحة أجسادنا التى تعفنت، وكل إنسان يموت له عزيز، فإذا انفعل عليه قل له: أبقه معك فى دارك أسبوعًا أو أسبوعين، سيرفض لأن الجثة لا يريدها أحد فتعود إلى أمها وهى الأرض؛ بل إن هناك عبرة لابد أن نتوقف عندها.. بمجرد أن يموت الإنسان أول ما ينسى هو اسمه. ولذلك بعد الموت بساعات يرمز إلى الميت باسم الجثة وليس باسمه.. فإذا وضع فى النعش رمز إليه باسم النعش، فيقال انتظروا حتى يأتى النعش، أو لا تتحركوا حتى يخرج النعش من المسجد، وهكذا ينسى اسم الإنسان بعد ساعات من موته.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] أى يا أولاد آدم والخطاب هنا إلى كل الناس.. يا أولاد آدم الذى كان له مع إبليس معركة وعداوة: اعلموا أن ذرية إبليس موجودة، وأنه وذريته يكنون لكم نفس

العداوة التى كانت بين آدم وإبليس. ولذلك فقد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم، أى أنه إذا كانت العورة قد ظهرت من معصية آدم، فقد أنزلنا عليكم ما يسترها. والإنزال يقتضى أن يهبط الشىء من علو، ولا بد أن نعرف أن كل خير فى الأرض هابط من السماء. فإذا تحدثنا عن اللباس. فاللباس يصنع مما تنتج الأرض، وما تنتجه الأرض محتاج أولا إلى المطر الذى ينزل من السماء ، وأقرأ قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ . [الحديد: ٢٥]

فكأن منهج الله ينزل من السماء ومعه الكتاب يوضح المنهج والميزان وهو أساس الحساب على كل عمل، ولكن يؤدب الله العاصين ويحمى منهجه بالقوة، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾. ولذلك أنزل الحديد، والعجيب أن الأرض أعطتنا معادن كثيرة، ولكن الحديد وحده هو صاحب الصلابة والبأس.

الحق سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أن كل خير - مهما كان منبته الأرض - فهو آت من السماء. فإذا كنا قد أنزلنا اللباس الذى يوارى سوآت الجسم وسوآت المادة، فإن للقيم أيضا سوءات، فكما أنكم تعرفون أن اللباس المادى يوارى سوآت الجسد، فيجب أن تعلموا أيضاً أن هناك لباسا من القيم هو منهج الله يغطى سوآتكم المعنوية، ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك، فلم ننزل فقط اللباس الذى يوارى سوآتكم المادية والمعنوية، بل أعطيناكم أيضاً ترف الحياة، فأعطيناكم الريش، والريش كساء الطير، ولكن الناس يستخدمونه لتزيين ملابسهم ويصنعون منه أشياء للمتعة، وكانوا يضعونه فى الماضى فوق التيجان. فكأن الله سبحانه وتعالى قد أعطانا ترف الحياة وجعله حلالا لنا ليعطينا الجمال، وفى ذلك يقول الحق:

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ . [النحل: ٨]

الركوب لتحمل عنا المشقة، والزينة لنتمتع بجمالها، ويريد أن يلفتنا إلى أن الزينة مباحة فيما أحل الله ، قال تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] بل إن الحق طلب منا أن نتزين حتى ونحن نقف بين يديه، وذلك فى قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١][1]

على أننا نلاحظ مثلا أن الله سبحانه وتعالى قد تكلم عن المعنى الجمالى للشىء قبل أن يتكلم عن نفعه للإنسان ، فقال جل جلاله:

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ . [النحل: ٦-٧]

لقد تكلم الحق عن الجمال ثم عن النفع، نقول إن كمال الجمال أكثر شيوعا من النفع، فحمل الأثقال مثلا يكون لمن يملك الدابة. ولكن الحصان الجميل ينتفع بجماله ويتمتع به كل من ينظر إليه، من يملكه ومن لا يملكه. إذن فالانتفاع الأكثر هو بالجمال، والانتفاع الأقل هو بالخدمة التى تؤديها الدابة للإنسان.

الله سبحانه وتعالى أعطانا اللباس الذى نوارى به عوراتنا، وأعطانا الكماليات فى الحياة المادية، ثم أنزل لنا المنهج يستر عوراتنا المعنوية، واللباس المادى يدارى عورة الجسد فى الحياة الدنيا، ولكن لباس التقوى يدارى فضوح الآخرة، ولباس التقوى هو الذى نتقى به غضب الله سبحانه وتعالى. ولذلك هو خير من اللباس المادى. وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ . [الأعراف: ٢٦]

---

(١) ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ : هو لبس الثياب وما يستر، وقيل: المشط والطيب. أورد هذين القولين ابن الجوزى فى زاد المسير (٣/١٨٧) وعزا الأول لمجاهد، والثانى لأبى رزين. وانظر غرر التبيان ٢٥٨.

أى أن لباس التقوى الذى يقينا غضب الله هو من آيات الله أى من عجائبه. وهكذا يريد الله منا أن نعرف أننا مكونون من مادة وعورات مادية. ومكونون من قيم وعورات تظهر فى القيم بعدم التقوى، وإذا أردت أن تستقيم حياتك فخذ التقوى لأنها ستستر حياتك المادية وتستقيم معها حياتك المعنوية، خذ التقوى تعطك قيم الدنيا والآخرة.

ويأتى تحذير من الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾. [الأعراف: ٢٧]

تحذير من فتنة الشيطان، الله سبحانه وتعالى قد أعد لنا الحياة بكل قيمها المادية والمعنوية ويطلب منا فقط ألا نخضع لفتنة الشيطان ونستمع إلى إغوائه. والفتنة هى الاختبار، وتطلق أحيانا على الأثر السئ مثل الفتنة التى هى أشد من القتل، ولكن هل كل فتنة بفساد ؟ لا.. الفساد لا يصيب إلا من يسقط فى الفتنة[1]، لأنه مادامت الفتنة اختباراً، فإما أن تنجح فيه وإما أن تسقط. الذى ينجح أعطته الفتنة خيرًا، والذى يسقط أعطته شرًا، فالفتنة ليست شرا ولا خيراً، وإنما هى اختبار يأتى لك بالخير أو يأتى لك بالشر.

نلاحظ هنا أنه بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى لنا قصة خلق آدم وأنه خلقه للخلافة فى الأرض، وأنه أدخله فى تجربة عملية قبل أن يهبط إلى الأرض،

---

(١) ومن قبيل هذا ما وقع من الجد بن قيس إذ قال له النبى ﷺ: « يا جد بن قيس ما تقول فى مجاهدة بنى الأصفر ؟ فقال يارسول الله إنى امرؤ صاحب نساء، وقد أرى نساء بنى الأصفر أفتن، فأذَنْ لى ولا تفتنى ». أخرجه. بنحوه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/ ٢١٣) عن عبدالله بن أبى بكر بن حزم. قال صديق حسن خان فى فتح البيان (٥/ ٣١٧): ﴿ أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ أى فى نفس الفتنة، وهى فتنة التخلف عن الجهاد والاعتذار الباطل، والمعنى أنهم ظنوا أنهم بالخروج أو بترك الإذن لهم يقعون فى الفتنة وهم بهذا التخلف سقطوا فى الفتنة العظيمة، وفى التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقوع من يهوى من أعلى إلى أسفل، وذلك أشد من مجرد الدخول فى الفتنة ».

فأدخله فى جنة ليدربه تدريبا واقعيا على المنهج الذى سيحكم كل حركات حياته فى خلافته فى الأرض، وكان رحمة من الله أن درب آدم تدريبا واقعياً على تطبيق المنهج، فجعل وجوده فى الجنة مرحلة من مراحل هبوطه إلى الأرض، وحين أدخله هذه الجنة التى ليست جنة الخلد حذره من الشيطان الذى أبى أن يطيع أمر الله فى السجود لآدم، ثم أراد الله أن يأخذ آدم تجربة التكليف فى «افعل ولا تفعل» تدريباً له على مهمته فى الأرض، وكانت التجربة فعلية وواقعية، فقال له: كُلْ من كُلٍّ ما فى هذه الجنة ولا تقرب هذه الشجرة، فـ «كل» كانت أمراً، و «لا تقرب» كانت نهيا، وهكذا كل تكليف، وحذره من الشيطان حتى لا تكون هناك معصية دون تحذير مسبق، ولكن الشيطان أغوى آدم فارتكب المعصية وأكل من الشجرة مخالفاً أمر الله ألا يقربها، فظهرت عوراته[1] لينبهه الله بالتجربة الواقعية أن مخالفة منهجه لابد أن ينشأ عنها عورات فى الحياة، فلما علم هذه الحقيقة قال له الله :اهبط للأرض، وأنت مزود بهذه التجربة العملية، وأرسل إليه منهج السماء.

(١) عن أبى بن كعب رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « إن آدم كان رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس ، فلما ركب الخطيئة بدت له عورته، وكان لا يراها قبل ذلك ، فانطلق هارباً فى الجنة، فتعلقت به شجرة فقال لها : أرسلينى ، قالت : لست بمرسلتك قال : وناده ربه : يا آدم أمنى تفر ؟ قال : رب إنى استحيتك ». أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٢٦٢) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال فى التلخيص : صحيح .

* آدم رسول الأسوة والقدوة *

هل آدم رسول لله أم لا ؟ بعض الناس يقول لا، إن أول الرسل نوح، عليه السلام، نقول لهم: وهل الله يترك خلقه من عهد آدم إلى عهد نوح بدون رسول؟ وبدون منهج؟ لماذا يبعث الله لخلقه بعد نوح رسولاً ؟ ولا يبعث لهم منذ عهد آدم إلى عهد نوح منهجاً ورسولاً ؟ وهو القائل جل جلاله: ﴿ **وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴾ . [فاطر: ٢٤]

إذن فما دام هناك خلق فلا بد أن يكون هناك نذير، وإنما الذين قالوا: إن آدم ليس نبياً وليس رسولا، فكروا تفكيراً سطحياً، فهموا أن الرسول لابد أن يأتي إلى المرسل إليهم بعد أن يكون قد انتشر الظلم والفساد، ومادام آدم لم يكن هناك خلق قبله .. فلمن سيرسل؟ وماذا سيعالج وهو أول الناس؟ ولمن سيحمل المنهج وليس هناك أحد قبله؟.

نقول : إن آدم كان رسول الأسوة والقدوة لأبنائه، ألم يقل له الله سبحانه وتعالى ولحواء: ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة: ٣٨] (1)

وفي آية أخرى يقول جل جلاله: ﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ** ﴾ . [طه: ١٢٣] .

إذن فهناك هدى ، ومادام الله أنزل هدى، فهناك منهج يبلغ للناس، صحيح أن آدم لم يرسل إلى قوم، لأنه كان أبو البشر، فلم يكن هناك من الموجودين من يهديهم لمنهج الله ، ولكن هؤلاء نسوا أن آدم سيكون له أبناء، وأن هؤلاء الأبناء هو مرسل إليهم ليعلمهم المنهج، فمنهجه سلوك يبلغه

(1) قال أبو العالية : الهدى الأنبياء والرسل والبينات والبيان، وقال مقاتل بن حيان: الهدى: محمد ﷺ . وقال الحسن : الهدى : القرآن. وقال ابن كثير [تفسير ابن كثير ١/ ٧٩]: وهذان القولان صحيحان، وقول أبي العالية أعم.

لأبنائه، وأبناؤه يقلدونه فيه. هذا المنهج ضرورى لكل بشر يوجد على الأرض، لأنه إذا لم يضع الله المنهج لعباده كل عباده، من أول آدم وأبنائه إلى آخر الدنيا، فكيف يحاسبهم؟ والغريب أن الغفلة وجدت فى النفس البشرية منذ عهد آدم، وفى أبناء آدم، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾. [المائدة: ٢٧]

إذن فَابْنَا آدم عرفا منهج الله ، وكانا يقدمان له القرابين.. من أين عرفا هذا المنهج ؟ من آدم، وعرفا كيف يتقربان إلى الله ، وكيف يبتعدان عما يوجب عقابه.

واقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

هذا هو جزء من الحوار الذى قصه لنا القرآن الكريم بين هابيل وقابيل ابنى آدم، فإذا لم يكن هناك رسول مبلغ عن الله ، فمن أين عرف ابنا آدم أن الله يتقبل من المتقين، ومن أين عرفا أن الله له عقاب لابد أن نخافه ونخشاه، فى قوله: ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾. [المائدة: ٢٨]

من أين كان سيأتى هذا الكلام، إذا لم يكن هناك رسول مبلغ عن الله، بأن هناك ثواباً وعقاباً، ومن أين عرف ابنا آدم أن الله يتقبل من المتقين ويعاقب الظالمين، إلا إذا كان هناك منهج من الله نقله آدم إلى أبنائه[1].

---

(١) روى الإمام أحمد فى المسند (١٧٨/٥) عن أبى ذر رضى الله عنه قوله وهو يسأل رسول الله ﷺ عن الصلاة والصيام وأعظم ما أنزل الله على نبيه وفيه : «.. قلت: فأى الأنبياء كان أول؟ قال: آدم. قلت: ونبى كان يا رسول الله ؟ قال: نعم ، نبىٌّ مُكلَّم. قلت: فكم المرسلون يارسول الله؟ قال : ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً » وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [٢٠١/٨] وعزاه للطبرانى فى الأوسط، وأحمد وقال: وفيه المسعودى وقد اختلط.

قلت : والمسعودى ثقة، وإنما تغير قبل موته بقليل. روى عبدالله بن أحمد عن أبيه قوله: «ثقة... وإنما اختلط المسعودى ببغداد، من سمع منه بالكوفة والبصرة فسماعه جيد». =

* هل آدم أول من عمر الأرض ؟ *

سأل رجل الإمام علياً رضى الله تعالى عنه عن الكعبة : أذلك أول بيت لله ؟ قال: « **لا.. بل قبله بيوت، ولكن هو أول بيت وضع للناس**»[1]، وهذا إيضاح للجنس البشرى أن جعل الله الكعبة أول بيت للناس. ولكن إن كانت هناك أجناس سابقة على الجنس البشرى، فمن المؤكد أن لله بيوتًا.

وما آدم فى منطق العقل واحد ولكنــه عنـد القـياس أوادم

ولذلك فوجود البيت الحرام كأول بيت وضع للناس ، لا يصطدم مع منطق الناس الذين لا يملكون إلاَّ الثقافة الدينية الضحلة، فساعة أن يسمع الواحد منهم أن هناك اكتشافًا لحفريات من كذا مليون سنة. نعم. ليكن هناك اكتشاف لحفريات وجدت فيها كائنات من كذا مليون سنة. يقول ضحل الثقافة: كيف وآدم لم يمر عليه ملايين السنين؟، لنقرر أن هناك خمسة أجيال لإدريس عليه السلام، وثلاثة أجيال لنوح عليه السلام، وأحد عشر جيلاً لإبراهيم عليه السلام، وثلاثين جيلاً لمحمد ﷺ، وهكذا يكون الوجود

= تهذيب التهذيب [٦/ ٢١٠].

ويزيد بن زريع - الراوى عن المسعودى - بصرى ثقة أخرج له الجماعة انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب [١١/ ٣٢٥] وما بعدها.

(١) روى ابن أبى حاتم عن على فى قوله تعالى : ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا**﴾ . قال : كانت البيوت قبله، ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله. وحسنه الشيخ شاكر فى عمدة التفاسير [٣/ ٨] وقال : لكن صححه الحافظ فى الفتح [٦/ ٢٩٠]. وعن خالد بن عرعرة بإسناد صحيح، قال: قام رجل إلى على فقال: ألا تحدثنى عن البيت أهو أول بيت وضع فى الأرض قال : لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا . [المرجع السابق].

وزعم السدى: أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقًا. والصحيح: قول على [عمدة التفسير ٣/ ٨].

البشرى محدداً بآلاف السنوات لا ملايينها. لهذا الإنسان نقول: وهل قال لك أحد إن آدم أول من عمر الأرض؟ إن الدين لم يقل ذلك. إن آدم هو أول هذا الجنس البشرى، ولكنه ليس أول من سكن الأرض؛ لذلك فليقل العلماء أن عمر هذه الأرض ملايين السنين، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ [إبراهيم: ١٩] إذن فلا مجال لهذا البحث؛ لذلك قال الإمام على رضى الله عنه: « **لا .. بل قبله بيوت** ».

والحق سبحانه وتعالى يقول ما يوضح أن الجن قد سكنوا الأرض قبلنا: ﴿**وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ**﴾ [الحجر: ٢٧]، وفى قول الحق سبحانه: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾. [البقرة: ٣٠] . وباستعلام الملائكة واستيضاحها ما يفيد أن هناك جنس أفسد فى الأرض وسفك الدماء .

إن الذين قالوا ذلك ليسوا من البشر. إذن فمعنى أن الكعبة هى أول بيت وضع للناس، أى للجنس البشرى، وبعد ذلك فلا داعى أن نتكلم فى الأشياء التى يقف فيها العقل، حتى لا ندخل فى متاهة. ولو أراد الله أن يعلمنا أنه أول بيت فى الأرض لقال لنا: «إنه أول بيت وضع»، ولم يكن قد حدد الجنس الذى وضع البيت من أجله.

لكن الحق سبحانه قال: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران: ٩٦] ؛ ولذلك قال الإمام علىّ رضى الله تعالى عنه: «**لا، بل قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس**» [1] إنه جواب يتسع

(١) أورده الحافظ ابن كثير فى تفسير سورة آل عمران آية (٩٦) وعزاه لابن أبى حاتم ثم ساق خبراً آخر بعده، وقال: والصحيح قول على رضى الله عنه. وانظر الصفحة السابقة .

لكل ما يتأتى به العلم. وحين ننظر إلى قول الحق: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦]، ما معنى ﴿أَوَّلَ﴾ ؟ إنه الابتداء وهل كل ابتداء له انتهاء؟ لا.. إن هناك أمورًا لها «أول» وليس لها «آخر»، إن العدد «واحد» وما بعده ليس له آخر، إن آخر ما بعد العدد واحد هو ما يمكن للإنسان أن يحسبه عجزًا فى التقديرات الديشيليونية، ولكن ما بعد ذلك هناك أعداد أخرى. لقد كان الإنسان قديمًا يقف عند الألف، وبعد ذلك يقولون عن المليون (ألف ألف)، والجنة لها أول وليس لها آخر.

إذن فأول بيت وضعه الله للناس هو الكعبة. وعندما نرى كلمة ﴿وُضِعَ﴾ نجدها فعلاً، ونرى أنه قد وضع للناس. ومادام هذا البيت قد وضع للناس؛ لذلك فمن اللازم لكلمة «ناس» أن يكون هناك «بيت»، و «آدم» من الناس، ووالد الناس، وكان له بيت وضع له. ولذلك فحين يقال إن البيت قد تَمَّ بناؤه قبل آدم فإننا نقول نعم؛ لأن آدم من الناس، والله يقول :﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاس﴾.

فلماذا نحرم آدم من أن يكون قد وضع له بيت يعبد الله فيه. إذن فالبيت موجود من قبل آدم. ومادام البيت قد وضع وجاء بالفعل مبنيا للمجهول أو مبنيا لما لم يُسَمّ فاعله، فمن الذى وضعه؟ إنه الله . والله تعالى أعلم .

* يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان *

الله سبحانه وتعالى بعد أن روى لنا قصة آدم وتجربته مع الشيطان، أراد لنا أن نتعظ بها، وأن نتنبه إلى عداوة الشيطان لنا، فقال : ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ**﴾ [الأعراف: ٢٧] والنهى هنا لبنى آدم وليس للشيطان، النهى للبشر. فالله سبحانه وتعالى لم يقل لا تفتن يا شيطان بنى آدم. . لماذا؟ لأن النهى ليس موجها للشيطان ألا يفتن. فالشيطان طلب من الله أن يُنْظِرَه[1] إلى يوم البعث، وأقسم بعزة الله أن يغوى بنى آدم. فلو أن الله أمره بألا يفتن الإنسان يكون الشيطان بذلك قد خرج عن مهمته فى الحياة، ولكن النهى موجه للإنسان الذى أعطاه الله مهمة الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل، فكأن المخاطب فى قوله تعالى : ﴿**لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**﴾ . هم البشر.

وفى قول الله تعالى : ﴿**فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾. النهى هنا للبشر، ولكن هل يملك البشر اختيارا فى الموت بحيث يحددون وقته وزمنه ومكانه، فلا يموتون إلا وهم مسلمون. وهل فى يد الإنسان أن يموت أو لا يموت، ولكن الله أراد أن يلفتنا إلى أن الموت يأتى فى أية لحظة. وما دمتم تترقبون وقوعه فى كل لحظة فكونوا على الإسلام دائما حتى لا يفاجئكم الموت إلا وأنتم مسلمون .

كذلك بالنسبة للشيطان. . إياكم أن تنخدعوا بفتنته فى أى لحظة، لأن عداوته مع أبيكم آدم واضحة، وهو متربص بكم فانتبهوا إليه، على أن قول

---

(١) ينظره : يؤخره ، قال تعالى : ﴿**قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ . [الأعراف: ١٤ - ١٧]

الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾. نقول إن السياق كان يقتضى أن يقال لا يفتنكم الشيطان كما فتن أبويكم، ولكن هذا هو الإعجاز فى الأداء القرآنى. الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا. . لا تدعوا الشيطان يفتنكم ليخرجكم من جنة التكليف، كما فتن أبويكم فأخرجهما من جنة التجربة. وهذا أسلوب يقال له احتبال. . أن يحذف من الأول ما يشير إليه الثانى، وأن يحذف من الثانى ما يشير إليه الأول، فأخذ لا يفتنكم الشيطان، وحذف ليخرجكم من جنة التكليف. وفى استكمال الآية جعلها كما أخرج أبويكم من الجنة، وحذف كما فتن أبويكم. فإذا أخذنا هذه العبارة بعد الحذف كان الأسلوب هو منتهى الإيجاز والإعجاز.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾. والفتنة كما قلنا هى الاختبار - والاختبار ينقى الشىء من الشوائب، فأنت تأخذ الذهب المخلوط بمعادن أخرى فتفتنه على النار حتى تخرج الشوائب منه. كذلك الفتنة بالنسبة للبشر. ولذلك لابد أن تخلص نفسك من شوائب الحياة ومن فتنة الشيطان بأن تتذكر ما صنعه إبليس مع أبيك آدم. على أننا لابد أن نفطن إلى أن كلمة شيطان لا تطلق على إبليس وحده، بل تطلق على كل متمرد على منهج الله من الجن والإنس، فالجن منهم مؤمنون ومنهم كافرون(1)،

---

(1) قال ابن كثير : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ [الجن: ١١] أى طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ أى منا المؤمن ومنا الكافر . . وقال الأعمش : تروح الينا جنى فقلت له : ما أحب الطعام اليكم ؟ فقال الأرز، قال : فأتيناهم به فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً ، فقلت : فيكم من هذه الأهواء التى فينا ؟ قال : نعم، فقلت : فما الرافضة فيكم ؟ قال شرنا .
[تفسير ابن كثير ٤/٤٣١ ، وقال صححه المزنى] .
وقال صديق خان : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ أى جماعات متفرقة وفرقاً شتى واصناف مختلفة وذوى مذاهب متفاوتة، وقال ابن عباس : أهواء شتى، وقال سعيد بن المسيب : كانوا مسلمين ويهوداً ونصارى ومجوساً، وكذا قال مجاهد : قال الحسن: الجن امثالكم قدرية=

وكذلك الإنس[1] ، والشيطان يريد بفتنته أن يكرر نفس التجربة فينزع عنا ما يستر عوراتنا ويجعلها مفضوحة أمام الناس جميعاً . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وما دامت فتنة الشيطان جاءت لتخرج خلق الله عن

= ومرجئة وخوارج ورافضة وشيعة وسنية ، وكذا قال السدى ، (فتح البيان ١٤/٣٥٨) وراجع زاد المسير (٨/١٠٦)، الفخر الرازى (٣٠/١٥٩)، وتفسير الماوردى (٦/١١٣).

(١) يقول تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ . [الأنعام: ١١٢]

عن أبى ذر قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو فى المسجد فقال «يا أبا ذر هل صليت ؟» قلت: لا ، قال : قم فصل ، قال فقمت فصليت ثم جلست ، فقال : يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن ، قلت يا رسول الله وللإنس شياطين ؟ قال : نعم قلت: يا رسول الله الصلاة ؟ قال : خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر ، قلت يا رسول الله فما الصوم ؟ قال : فرض مجزئ وعند الله مزيد ، قلت : يا رسول الله فالصدقة ؟ قال : أضعاف مضاعفة، قلت : يارسول الله فأيها أفضل ؟ قال جهد من مقل أو سر إلى فقير ، قلت : يا رسول الله أى الأنبياء كان أول ؟ قال : آدم ، قلت : يا رسول الله ونبى كان ؟ قال : نعم ، نبى مكلم ، قلت يارسول الله كم المرسلون ؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً ، وقال : مرة خمسة عشر ، قلت: يارسول الله آدم أنبى كان ؟ قال نعم ، نبى مكلم ، قلت : يارسول الله أيما أنزل عليك أعظم ؟ قال أية الكرسى﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾ [البقرة: ٢٥٥] قال الهيثمى : رواه أحمد، والبزار ، والطبرانى فى الأوسط بنحوه ، وعند النسائى طرف منه، وفيه المسعودى وهو ثقة ولكنه اختلط [مجمع الزوائد ١/ ١٦٤].

رواه أحمد فى المسند واللفظ له (٥/١٧٨) والنسائى فى الكبرى (٧٩٤٤) وفى المجتبى (٨/ ٢٧٥) .

قال ابن حجر فى تقريب التهذيب عن المسعودى: صدوق، اختلط قبل موته وضابطه أن من سمع منه ببغداد فبعد الاختلاط، من السابعة، مات سنة ستين ، وقيل خمس وستين (ترجمة رقم ٣٩٤٤/ ص ٥٨٦) وذكر ابن كثير طرق الحديث فى تفسيره (٢/١٥٨) ثم قال: فهذه طرق هذا الحديث ومجموعها يفيد قوته وصحته، والله أعلم.

قلت : وفى سند أحمد ، عبيد الله بن الخشخاس قال فى التقريب : ليّن (ترجمة ٤٤٠٢ ص٦٤٩) ، وأبى عمر الدمشقى : قال فى التقريب : ضعيف (ترجمة ٨٣٢٨ ص١١٨١) ، وضعفه الألبانى فى ضعيف النسائى (٤٢٤) .

منهج الله ، فإنه حينما عصى عز عليه أن يكون فى قمة المعصية التى ادت به إلى الكفر وحده، فأراد أن يغوى معه خلق الله حتى لا ينفرد هو بالمعصية فانطلق يفتن الناس بأن يزين لهم المعصية بزخرف القول وشهوة النفس وما تقدمه المعصية من متعة مؤقتة.

وعلى أية حال فإن ما يريد إبليس أن يفعله معنا الآن هو نفس ما فعله مع آدم وحواء ، وهو أنه ينزع عنا كل ما يسترنا حتى نفتضح[1] وتظهر عوراتنا للناس جميعا، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾. [الأعراف: ٢٦]

وقلنا : إن اللباس هو ما يوارى العورة ويسترها، فاللباس المادى هو ما يوارى عورة الجسد، والريش يمثل الترف المادى فى الدنيا، ولباس التقوى هو الذى يحجب عورات النفس وعورات المجتمع ، لأن عورات النفس والمجتمع تظهر إذا خولف منهج الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا**﴾. [الأعراف: ٢٧]
واللباس هنا يتناول اللباس المادى والمعنوى معا، فالشيطان يريد أن ينزع عن بنى آدم لباسهم المادى. ولذلك فكلما قلَّ الإيمان فى المجتمع ازداد العرى فيه، فأصبح لباسه يظهر أكثر مما يخفى. فكلما قل الإيمان زادت مستعمرات العراة التى يتجرد فيها الناس رجالاً ونساء من ملابسهم تماما ويبدون عراة، وهكذا يصدق فيهم قول الله: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا**﴾. وبذلك نعلم أن

---

(١) فى لسان العرب (٢/٥٤٥) الفضح : فعلٌ مجاوز من الفاضح إلى المفضوح، والأسم الفضيحة ويقال للمفتضح ؛ يا مفضوح ... ويقال : افتضح الرجل يفتضح افتضاحاً إذا ركب أمر سيئا اشتهر به.

هؤلاء الناس قد استمعوا إلى إغواء الشيطان ونزعوا كل ما يلبسونه، بعد أن فتنهم الشيطان وأغواهم بأن ذلك صحة للجسد، وأنه مفيد للجلد أن يتعرض لأشعة الشمس إلى غير ذلك مما نسمعه، ولو أننا افترضنا أن كل هذه النظريات الطبية صحيحة، فإنه من الممكن لكل إنسان أن يتعرض للشمس فى مكان مستور، بحيث لا يُظهر عوراته للناس، ولكن المستعمرات المختلطة للعراة هى محاريب للشيطان يتعبده فيها الغاوون، هذا بالنسبة للّباس المادى، أما بالنسبة لِلِباس التقوى فإن هذا هو الهدف الأساسى لإبليس وعداوته للإنسان.

على أننا لابد أن نتنبه هنا إلى نقطة هامة، هل كان فى بال إبليس أو كان هدفه وهو يغوى آدم وحواء بالأكل من الشجرة أن يريهما سوءاتهما؟ طبعاً لا.. ولكن الإغراء كان إغراء بالمعصية، كان يريد أن يغريهما بمعصية الله إذن فهدف إبليس كان أن يعصى آدم ربه.. تماما كما حدث عندما أمر الله سبحانه وتعالى أم موسى عليه السلام أن تلقيه فى البحر، هل كان فى بال فرعون ساعة أن التقط موسى أن موسى سيكون عدوا له، وأن مُلك فرعون؛ بل وحياته ستنتهى على يد موسى؟ طبعاً لا.. لقد التقط فرعون موسى ليكون له قرة عين. واقرأ قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾. [القصص: ٩]

وهكذا كانت الغاية ساعة الالتقاط أن يكون موسى قرة عين، ولكنه أصبح لهم عدوا، ولم تكن غياة الالتقاط أن يصبح موسى عدوا.

وكذلك عندما أغرى إبليس آدم بالمعصية، لم تكن الغاية أن يظهر عورة آدم، وإنما كان هدفه المعصية والله سبحانه وتعالى أراد أن يظهر لآدم ويبين له نتيجة المعصية، وهى أن تظهر العورة، وعندما نزل المنهج وأصبح إظهار عورة الجسد معصية، تحول هذا عند الشيطان إلى هدف، لا لمجرد إظهار العورة، ولكن لأن هذا الفعل فى ذاته معصية، وهكذا أصبح إغراء الإنسان بإظهار عورته غاية من غايات إبليس وذريته، لأن المعصية هى هدف إبليس، وقال

الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾. وإذا تنبهنا إلى هذه الآية جيدا نجد أن المراد بمن يرانا ولا نراه هم ذرية إبليس من شياطين الجن، لأنه لو كان المراد أن شياطين الإنس أيضاً يروننا من حيث لا نراهم، ما كان الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** ﴾.

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتنبه إلى أن الشيطان فى إغوائه ومعصيته لن يكتفى بنفسه ولا بذريته بل سيزين لقوم من البشر ليكونوا شياطين الإنس، وفى هذا يقول الحق: ﴿ **شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴾. [الأنعام: ١١٢]

وزخرف القول معناه الاستمالة والتزيين الذى يجعل المعصية محببة إلى النفس بزخارف القول، وكل معصية فى الكون لابد أن يسبقها تزيين للباطل وإظهاره بشكل محبب إلى النفس، بأن يعطيها شهواتها التى تصرفها عن منهج الله. ولذلك نلاحظ أنه إذا جاء موسم من مواسم الإيمان كشهر رمضان مثلا. . فإن أعداء منهج الله يترصدون هذا الموسم ليفسدوه ويصرفوا الناس عن العبادة بشتى الإغراءات مثل سهرات التسلية التى تصرف الناس عن قيام الليل، أو التمثيليات والأفلام وغير ذلك من الأمور التى تصرف الناس عن قراءة القرآن وذكر الله ، فهم لا يريدون لهذا الموسم أن يمر تاركا هَبَّة إيمان فى النفوس، فتتكتل الجهود ليحرموا الناس من نفحة الإيمان، وبذلك يحققون غرضهم(١).

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا دخل رمضان فتحت أبواب السماء ، وغُلِّقَتْ أبواب جهنم ، وسُلْسِلَت الشياطين» أخرجه البخارى فى صحيحه (١٨٩٩) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٨١)

قال ابن حجر فى الفتح (٤/ ٦٠٨) : «قال القرطبى بعد أن رجح حمله على ظاهره : =

على أن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُه﴾ . والذى يرى هنا هو الشيطان، والذين يراهم هم البشر المكلفون بعبادة الله، وقبيله تدل على الجماعة التى أقلها ثلاثة يمكن أن يكونوا من أجناس مختلفة، أو من أب وأم واحدة ولقد اختلف العلماء فى معنى قبيله، فقال بعضهم : إن قبيله هم جنوده وذريته، وما دمنا قد قلنا جنوده فإنه يدخل فيهم البشر، لأن هناك بشرا من جنود إبليس، ولكن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾. جعلت المعنى مقصوراً على شياطين الجن، لأن شياطين الإنس يراهم البشر، والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى خطورة عداوة إبليس ؛ لأن العدو الذى تراه تستطيع أن تواجهه وأن تدفع ضرره، ولكن العدو الذى يراك ولا تراه يستطيع أن يفاجئك من أى مكان دون أن تتنبه إلى ذلك ، وبذلك تكون عداوته أخطر وكيده أشد.

والله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أن مداخل الشيطان إلى النفس البشرية مخفية عنا، فنحن لا نراه وهو يوسوس فى آذاننا بالسوء ، ولا نراه وهو يزين لنا جمال امرأة لنرتكب معها معصية، ولا نراه وهو يحبب إلينا المال الحرام، وهنا وقف العلماء وقفة وقالوا الجن يرانا ولا نراه لأننا مخلوقون من طين وهى مادة كثيفة، والجن مخلوق من نار وهى مادة شفافة ، ولقد ضربنا مثلا لذلك بأن الإنسان إذا جلس فى حجرة وفى الحجرة المجاورة طعام وفواكه، فإن طعم هذا الطعام ورائحته لا تستطيع أن تخترق الجدار خصوصاً إذا كانت الحجرة محكمة الإغلاق، ولكن، إذا شب فى الحجرة حريق فإننا نحس بحرارته ونحن جالسون فى الحجرة المجاورة أى نحس بحرارة النار،

= فإن قيل كيف نرى الشرور والمعاصي واقعة فى رمضان كثيراً فلو صفدت الشياطين لم يقع ذلك ؟ فالجواب أنها إنما تقل عند الصائمين الصوم الذى حوفظ على شروطه وروعيت آدابه، أو المصفد بعض الشياطين وهم المردة لا كلهم ، كما تقدم فى بعض الروايات، أو المقصود تقليل الشرور فيه وهذا أمر محسوس فإن وقع ذلك فيه أقل من غيره، إذ لا يلزم من تصفية جميعهن أن لا يقع شر ولا معصية لأن لذلك أسباباً غير الشياطين كالنفوس الخبيثة والعادات القبيحة والشياطين الإنسية ».

إذن فشفافية الجن لأنه مخلوق من نار أكثر من الإنس لأنه مخلوق من طين ، ولذلك أخذ الجن خفة الحركة وله قوانينه الخاصة، ولكن مع أن الشيطان لا يرى، فقد ثبت فى الآثار الصحيحة أن الشيطان رؤى[1]، وكذلك الملائكة مخلوقات من نور، وهو جنس خفى مستور عنا.

ولكن الملائكة رؤيت، فجبريل عليه السلام تشكل فى صورة إنسى وجاء إلى رسول الله ﷺ وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام لأصحابه بعد أن انصرف جبريل عليه السلام: «هذا جبريل جاء يعلمكم شئون دينكم»[2]. إذن

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «وكلَني رسولُ الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتانى آتٍ فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته ، وقلت : والله لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ: قالَ: إنى محتاج وعَلَيّ عيالٌ ولى حاجة شديدة. قال: فخلّيْتُ عنه فأصبحتُ فقال النبى ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قال: قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرَحِمتُهُ فخليّتُ سبيله. قال: «أما إنه قد كذَبَك وسيعود» الحديث.. وفيه قول الشيطان لأبى هريرة: «دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها قلت ما هُوَ ؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتى تصبح»، وقول النبى ﷺ «أما إنه صدقك وهو كذوب. تعلمُ من تخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟» قال: لا. قال - يعنى النبى ﷺ - : «ذاك الشيطان».
أخرجه البخارى (٢٣١١) . وروى أحمد معناه عن أبى أيوب فى المسند (٥/ ٤٢٣)، وأخرجه من هذا الوجه الترمذى (٢٨٨٠) ، وحسنه . وروى من وجوه أخرى : عن معاذ ابن جبل ، وعن أبى أسيد الساعدى رضى الله عنهما انظر مجمع الزوائد (٦/ ٣٢١, ٣٢٣).

(٢) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ، ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه، وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت. قال: =

فجبريل تمثَّل فى صورة بشر حتى نراه، ولكننا لم نره أبداً على صورته الحقيقية. كذلك أعطى الجن خاصية التشكل ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال «إن الشيطان عرض لى فَشَدَّ علىَّ يقطع الصلاة علىَّ ، فأمكننى الله منه فذَعتُّه ، ولقد هممتُ أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا فتنظروا إليه، فذكرت قول سليمان عليه السلام ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ فردَّه الله خاسئاً [1] وذلك من أدب النبوة. إذن فالجن

= فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرنى عن الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرنى عن الإحسان؟ . قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: صدقت. قال: فأخبرنى عن الساعة؟ . قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرنى عن أماراتها؟ . قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان. ثم انطلق فلبث مليًا، ثم قال لى: يا عمر أتدرى من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». رواه مسلم. رقم (٨) .

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، قال: «إن عفريتًا من الجن تفلّت علىَّ البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع علىّ الصلاة ، فأمكننى الله تبارك وتعالى منه ، وأردت أنْ أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت ـ قول أخى سليمان عليه السلام ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ . قال روح – راوى الحديث: فرده خاسئًا . رواه البخارى فى صحيحه (٤٦١).

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه، قال: قام رسول الله ﷺ فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك، ثم قال: ألعنك بلعنة الله» ثلاثًا ، وبسط يده كأنه يتناول شيئًا ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله سمعناك تقول فى الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك . قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أن آخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به صبيان أهل المدينة» رواه مسلم مرفوعًا (٥٤٢).

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قام يصلى صلاة الصبح =

بحكم قوانينه يمكن أن يتشكل فى أى صورة، ولكنك لا تراه على حقيقته، فإذا أرادك أن تراه لا بد أن يتشكل فى صورة مادية.

وهنا للعلماء وقفة... وكانت وقفتهم تدل على حرصهم على فهم كتاب الله، فقالوا: إذا كان الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] فمعنى ذلك استحالة أن نراه، نقول: نعم استحالة أن نراه على صورته الحقيقية، ولكن ما نراه هو إذا تشكل بصورة مادية، حينئذ لا نراه، ولكن نرى صورة مادية تشكل بها، فإذا كانت هذه هى الحقيقة فلماذا لا تتشكل شياطين الجن فى صورة إنسان أو حيوان مخيف أو أى شئ آخر [1]، نقول: إن ذلك أمر تحدُّه قيود كثيرة، أولها الوثوق بمعرفة

= وأنا خلفه فقرأ، فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتمونى وإبليس فأهويت بيدى، فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين إصبعى هاتين الإبهام والتى تليها - ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطًا بسارية من سوارى المسجد يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل» أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٨٢).

(١) الحديث عن عالم الجن وأهواله وتشكلاته يحتاج إلى مؤلف كبير، لكننا هنا نسوق نبذة بسيطة يسترشد بها القارئ إضافة إلى ما قرره فضيلة الإمام الشعراوى عن الشياطين فنقول: الجان: هو أبوالجن، كما أن آدم عليه السلام أبو البشر إنما سمى الجن جنًا لاجتنانهم، واستتارهم عن العيون، ومنه سمى الجنين لاستتاره فى بطن أمه، ونحن بنى البشر لا نقوى على رؤية الجن على هيئتهم الحقيقية التى خلقهم الله عز وجل عليها، سواء المؤمن منهم أو الكافر، اللهم إلا إذا تصوروا فى صور أخرى على ما سيأتى، والجن على مراتب:

العفاريت: وهم شباب الجن، مفرده: عفريت.

والجن: كلاب الجن وسفلتهم، عن عبدالله بن مغفل قال: قال: رسول الله ﷺ: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم» أخرجه أحمد (٥/ ٥٧) وأبو داود (٢٨٤٥) والنسائى (٧/ ١٨٥) والترمذى (١٤٨٦، ١٤٨٩) وقال: حسن صحيح. وصححه الألبانى فى صحيح الترمذي [١٢٠١، ١٢٠٥]، وصحيح ابن ماجة [٣٢٠٥]. =

الأشخاص، وهذا أمر ضرورى لحركة الحياة وحركة المجتمع . فأنت لا تملؤك العاطفة على ابنك إلا لأنك تعلم أنه ابنك، ولا تثق بصديقك إلا إذا عرفت أنه صديقك ، لا تأخذ علما إلا ممن تعرف أنه عالم. فإذا كان الشيطان يستطيع أن يتشكل بصورة مادية، وقد يتشكل فى صورة ابنك فتصبح لا تدرى هل الواقف أمامك هو ابنك حقيقة أم صورة من صور الشيطان، وقد

= **الشياطين**: هم كفرة الجن، وإن كان من الإنس شياطين أيضًا ، مفرده: شيطان.

المردة: وهم أعتى الجن وأقواهم.

الغيلان: وهم السعالى ، صنف يقيمون ويرتحلون، مفرده: غول ، وكل ما اغتال الإنسان فأهلكه فهو غول ، تقول : اغتاله: إذا أخذه من حيث لم يدر.

مما تقدم نستطيع القول بأن الجن ليسوا ضعفاء على إطلاقهم ، وليسوا أقوياء عتاة على إطلاقهم ، وإنما القوة والضعف فيهم بنسب متفاوتة كما هو مشاهد فى البشر.

والجن يتصورون بصور كثيرة ويتشكلون فى صور الإنس ، والبهائم والحيات ، والعقارب والإبل والبقر والغنم ، والخيل والبغال والحمير ، والكلاب ، والطير. وهذا ثابت بالحديث وما رواه الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، والتابعين، ولولا الإطالة لأوردناه.

قال ابن تيمية : صرع الجن للإنس قد يكون عن شهوة وهوى وعشق، وقد يكون عن بغض ومجازاة لمن آذاهم ، إما ببول أو بصب ماء أو بقتل بعضهم إن كان الإنس لا يعرف ذلك، وفى الجن ظلم وجهل، فيعاقبونه بأكثر مما يستحق ، وقد يكون عن عبث منهم وشر مثل سفهاء الإنس ، فيخاطب الجنى فى **الأول** ، ويعرف أن هذا فاحشة محرمة، وفى **الثانى** يعرف أن هذا لم يعلم ، ومن لم يعلم ، ومن لم يتعمد الأذى = = لا يستحق العقوبة إن كان قد فعل ذلك فى داره وملكه، وعذره أن الدار ملكه، فله أن يتصرف فيها، وأنتم ليس لكم أن تمكثوا فى ملك الإنس بغير إذنهم؛ بل لكم ما ليس من مساكن الإنس كالخربات والفلوات.

ويستعان عليهم بالذكر والدعاء وقراءة المعوذتين والصلاة، وإن تضمن مرض طائفة من الجن أو موتهم فهم الظالمون لأنفسهم، ومن أعظم ما ينتصر به عليهم قراءة آية الكرسى، فقد جرب المجربون بأن لها تأثيرًا عظيمًا فى طرد الشياطين عن نفس الإنس وعن تلبس المصروع وإبطال أحوالهم وتجنب الذنوب التى بها يستطيلون عليه .

وأما الاستعانة عليهم بما يقال ويكتب ، مما لا يعرف معناه فلا يشرع ، وما يقوله عامة الناس وأهل العزائم فيه شرك فليحذر . [آكام المرجان للشبلى].

يتشكل فى صورة عالم موثوق بعلمه ثم يقول كلاماً مناقضاً لمنهج الله فيصدقه الناس، وبهذا تختلط المفاهيم فى الكون.

نقول : إن هذا غير ممكن . لماذا؟ لأن الشيطان لا يتمثل تمثلاً استمرارياً، ولكنه يتمثل لحظة. . ومضة ، لأن الشيطان يعلم أنه لو تشكل بصورة إنسان حكمته الصورة التى انتقل إليها، فإذا أطلقت عليه الرصاص أو طعنته بآلة حادة مات، وأنت تستطيع أن تمسكه وتفعل به ما تشاء ، لأنه إن كانت تسرى عليه قوانين الصورة، فإنه لا يعطى قدراتها ، فإذا تشكل الشيطان فى صورة بشر فإنه لا يعطى قدرات البشر ، ولذلك فإن الإنسان إذا تمكن من الإمساك به فقد يتغلب عليه بل ويقتله ، دون أن يملك الشيطان القدرة وهو فى صورته الآدمية أن يدفع الأذى عن نفسه(١) - ولذلك فإن الشيطان يخاف أكثر مما نخاف أن يظهر فى أى صورة مادية، لأنه يعرف أنه إذا ظهر بها تستطيع أن تمسكه وتقضى عليه، ولذلك فهو يتمثل كومضة ثم يختفى فى لحظة، وساعة يتمثل فى هذا الوقت الوجيز لا تستطيع أن تثق بشخصه ، وبهذا لا يمكن للشيطان أن يتمثل لك فى صورة ابنك بشكل يجعلك تثق أن هذا ابنك، أو فى صورة عالم أو صديق يمكن أن يثق الناس أن هذا هو العالم

(١) قال ابن أبى الدنيا: حدثنى عبد الرحمن ، حدثنى عمر، حدثنى أبو يوسف السروجى، قال: جاءت امرأة إلى رجل بالمدينة، فقالت: إنا نزلنا قريبًا منكم، فتزوجنى، فتزوجها، فكانت تأتيه بالليل فى هيئة امرأة، ثم جاءت إليه، فقالت: قد حان رحيلنا فطلقنى . فبينما هو فى بعض طرق المدينة إذ رآها تلتقط حبًا مما يسقط من أصحاب الحب. قال: أتبتغينه؟ . فرفعت عينها إليه ، فقالت له: بأى عين رأيتنى ؟ قال: بهذه. فأومأت بأصبعها ، فسالت عينه.

قال الصلاح الصفدى فى تذكرته: نقلت من خط الحافظ فتح الدين بن سيد الناس، قال: سمعت شيخنا الإمام تقى الدين ابن دقيق العيد يقول: سمعت الشيخ عز الدين ابن عبد السلام يقول : كان أبو بكر بن العربى ينكر تزويج الإنس والجن، ويقول: الجن روح لطيف، والإنس جسم كثيف لا يجتمعان. ثم زعم أنه تزوج امرأة من الجن، وأقامت معه مدة، ثم ضربته بعظم جمل، وأرانا شجة بوجهه وهربت. [آكام المرجان للشبلى].

أو الصديق، لأن هذه الومضة لا تكفى للوثوق من أى شئ، وبذلك ينتفى خطر الشيطان من هذه الناحية.

على أنه من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه وضع قيوداً لتشكل الجن تمنع الوثوق من أنه شخص معروف لك، فجعل هذا التشكل لابد أن يكون فيه مخالفة لطبيعة الصورة المتشكل فيها. فالجن قد يتمثل فى صورة رجل، ولكن إذا كشف عن قدميه تجدهما تشبهان قدمى الماعز، وقد وضع الله سبحانه وتعالى هذه المخالفة فى قدرة الجن على التشكل حتى يحس أنه يمكن أن يكتشف فى أية لحظة، وفى هذه الحالة فإنه يمكن لأى إنسان أن يقتله، ولذلك فإن الجن إذا تشكل يخاف منا أكثر مما نخاف منه، لأنه يعرف يقينا أن نهايته فى أن نمسك به، وقول الحق: ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ**﴾. [الأعراف: ٢٧] معناه أنه يراكم على حقيقتكم، وأنتم لا ترونه على حقيقته، لأنكم لا تستطيعون رؤيته إلا إذا تشكل، وهو إذا تشكل اختفى بعد لحظة فنعرف أنه شيطان.

❊ العداوة والبغضاء سببهما الشيطان ❊

نحن نعلم أمر العداوة المسبقة بين الشيطان وبين أبينا آدم عليه السلام ، منذ أن قال الله للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيس﴾. [البقرة: ٣٤]

وكان الشيطان موجودًا مع الملائكة، وكان الأَوْلَى أن يسجد هو؛ لأن الأمر إذا كان للجنس الأعلى وهو الملائكة، فيجب أن ينسحب على الأدنى. ومثال ذلك فى حياتنا اليومية أنه إذا دخل رئيس الجمهورية فى اجتماع يضم الوزراء ومعهم وكلاء الوزارات، فالوزراء يقومون لتحية رئيس الجمهورية، وكذلك يقف وكلاء الوزارات، وهكذا نفهم أن إبليس كان يجب أن يسجد ساعة أن جاء الأمر للملائكة بالسجود لآدم؛ لأن الأمر بالسجود ينسحب عليه أيضًا، لكنه عصى، وقال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ [الإسراء: ٦١]، إذن فالعداوة مسبقة بين آدم وبين الشيطان، فكيف إذن نقبل نحن أبناء آدم وسوسة الشيطان؟ وكيف نقبل نزغه؟ وكيف نقبل إغراءه ؟

لابد إذن أن نتجنب ذلك لأنه رجس حتى ننجوَ من كل سوء، ويأتى لنا كل فلاح. واقرأ قول الحق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾. [المائدة: ٩١]

ولنا أن نرى أن الحق لم يأت هنا بالأنصاب أو الأزلام، ذلك أن المؤمنين لا يعتقدون فيها وانتهوا منها، والخطاب مُوجَّه للمؤمنين. إذن، فلماذا قرن الحقُّ التكليفَ بالنهى عن الخمر والميسر بالأنصاب والأزلام ؟ لقد فعل ذلك لِيُبشِّعَ لنا الأمر، فوضع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام . هكذا نفهم أن الحكم بالنهى عن الخمر والميسر جاء ليقرنهما بالأنصاب والأزلام، وما داموا مؤمنين فلابد أنهم انتهوا من الأنصاب والأزلام.

والحق يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾، إن الإرادة هى تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه. والإرادة تتعلق بمريد، فهل يقدر على إنفاذ ما يريد أم لا يقدر ؟ إن كان يقدر على إنفاذ ما يريد، فالقدرة تكون من بعد الإرادة. إن الإرادة تكون أولاً، ثم تأتى القدرة لتبرز العمل الذى أرادته الإرادة، والحق سبحانه وتعالى حينما يريد، فالقدرة تبرز المراد. فقدرة الله لا تتخلف ولا مراد الله، لأن كل شىء منفعل له. أما الإنسان أو الشيطان، فالمسألة عندهما تختلف، فالإنسان يريد ولكن هل له القدرة على إنفاذ ذلك ؟ أحيانا تكون له بعض من القدرة على إنفاذ ما يريد، وأحيانا لا. والشيطان يريد، لكن أيقدر على إنفاذ ما يريد؟ الفعل لا يأتى إلى الوجود إلَّا إذا وافق الإنسان على طاعة الشيطان .

إذن فالإرادة إن كانت ممن يقدر على الإرغام والإبراز فهى تظهر العمل فورًا ، والقادر المطلق هو الله ، لذلك هو يأمر بما يريد، ولذلك يأتى قوله:
﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾. [يس: ٨٢]

لكن الخلق حين يريدون ؛ فالأشياء لا تنفعل لهم انفعالاً مطلقًا . إذ إن إرادة المخلوقات تقتضى أن ينفذ الإنسان على قدر طاقته ، وهى مهما زادت فهى محدودة . وإرادة الشيطان تحتال على الإنسان حتى يعمل ما يتمناه، والشيطان لا يستطيع أن يكره الإنسان قهرًا على عمل ما ، ولكنه يزين له العمل ، إنه يقدر فى حالة طاعة الإنسان له. وعلى ذلك تكون إرادة الشيطان من نوع أنه يحب أن تحدث المعصية من الإنسان ، ويتمنى ذلك ، ويخطط لذلك . فليس للشيطان سلطة الإكراه ليقهر الإنسان على عمل، وليس للشيطان قدرة على الإقناع أو الإتيان بأدلة تجعل الإنسان ينفذ مراد الشيطان وهو راض عن عمله .

ولذلك يقول الشيطان فى الآخرة للمذنبين : إن الذنب ذنبهم مع الوضع فى الاعتبار أن الذنب ذنبه أولاً ، وهو الملوم الأول : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم

مّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ ، إنه يعلن أنه غير قادر على البشر لا بالقهر ولا بالحجة ، إنما فقط زين لهم الأمر فمن كانت له شهوة، فالشيطان يزينها له فيرتكب الذنب. ويعلن الشيطان: ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] ، إنه يعلن أنه مهما صرخ مستغيثًا فلن يجد من يغيثه ، وكذلك أصحاب الذنوب الذين اتبعوه سيصرخون، ولن يجدوا من الشيطان عونًا ينجيهم من العذاب. و«أصرخ فلانا» أى ذهب ليزيل صراخه وينجده. إذن فقول الحق : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ [المائدة: ٩١] ، هذه الإرادة هى إرادة تزيين لا إرادة قدرة على القهر أو الامتناع . وإذا سمعت كلمة ﴿ يُوقِعَ ﴾ فافهم أن شيئين الأصل فيهما الالتحام، وهناك من يريد أن يجعل بينهما شيئًا يفصل هذا الالتحام ؛ ولذلك يقال: فلان مشى بالوقيعة أى أنه أراد أن يصنع فجوة وشرخًا بين اثنين الأصل فيهما الالتحام .

وكلمة ﴿ بَيْنَكُمُ ﴾ تفيد الانفصال، وهذا الانفصال هو الذى توضع فيه الوقيعة. . لماذا ؟ لأن المؤمنين إخوة، ولأن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص[1]، والشيطان يسعى بالخمر والميسر للوقيعة بين المؤمنين. ونحن نجد أن مجالس الخمر يحدث فيها هذا ، فالشاربون معا كثيراً ما تقوم بينهم المعارك ويدور بينهم السباب . ولاعبو الميسر يأخذون مال بعضهم البعض. وهكذا يتحولون من وحدة كالبنيان إلى فرقة ، بينهما العداوة والبغضاء . ما الفارق بين العداوة والبغضاء ؟ العداوة هى انفصال متلاحمين وفيها عدوان. والبغضاء هى انفعال القلب بشىء مكروه ، كأن البغضاء توجد فى الصدور أولاً ثم تعبر عنها العداوة. فكأن العداوة تكون المنطقة الوسط بين هذين الاثنين بعد أن استسلما لنزغ الشيطان. وهذان الاثنان كان يجمعهما من

(١) عن أبى موسى رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» وشبَّكَ أصابعه. أخرجه البخارى (٢٤٤٦) ومسلم (٢٥٨٥).

قبل الصفاء والمودة والحب والأخوة الإيمانية. والعداوة فى هذه الحالة تأخذ من مشاعر كل طرف، ذلك أن العداوة إن كانت من طرف واحد فعمرها قصير، ولكنها تطول إن كانت بين طرفين . ولذلك تكون المعركة شديدة بين عدوين إن استشعر كل منهما العداوة للآخر. وهى تكون عداوة متوهجة إن لم يتدخل طرف ثالث ليحسم بالحق بين الاثنين ، فيخزى الذى على الباطل وينصر صاحب الحق ، وبهذا تحسم العداوة وتنقضى . لكن إن لم يجد الطرفان رادًا ولا رادعًا تظل عداوة متوهجة . لذلك فحينما عرض الحق أمر موسى عليه السلام وأمر فرعون ، قال عن موسى :

﴿ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ** ﴾ [القصص: ٨]، والتقطوا موسى لماذا ؟ ﴿ **لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا** ﴾ فهل عرفوا هم من البداية أنه عدو ؟ لا ، لقد التقطوه ليكون قرة عين لهم. لكن الله أفسد مرادهم.

وأثبت الحق بذلك أن فرعون ليس إلهًا، وأن أتباعه كانوا قومًا غافلين، فلو كان فرعون إلهًا لكان قد عرف أن هذا الوليد الذى سيربيه سيكون عدواً. والعداوة هنا، هل هى من ناحية موسى فقط تجاه فرعون؟ لا، وإنما عداوةٌ بين الله وموسى كطرف، وبين فرعون كطرف؛ لذلك قال الحق: ﴿ **فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ** ﴾ [طه: ٣٩] ، ولم تنته هذه العداوة إلاَّ بغرق فرعون . والحق ينبهنا: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ** ﴾ [المائدة: ٩١] ، و ﴿ **فِي** ﴾ هنا هى للسببية، كقول الرسول ﷺ: « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها ، فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[1] ونحن نقول فى حياتنا اليومية : «أخذ فلان الحبس لمدة أعوام فى قطعة مخدرات» ، أى أنه أوقع

---

(١) أخرجه البخارى (٢٣٦٥) ومسلم (٢٢٤٢) واللفظ له من حديث عبد الله بن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : «عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار ، لا هى أطعمتها، ولا سقتها ، إذ هى حبستها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض» . وفى بعض الروايات «ربطتها بدلاً من حبستها».

نفسه فى المكروه بسبب شىء ما. وقول الحق: ﴿فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ دلَّت على أن العداوة والبغضاء مظروفة فى الخمر والميسر.

ويقول بعد ذلك: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] ، وذكر أى أمر يعنى أن يكون هذا الأمر فى بؤرة الشعور دائمًا ، ونعلم أن كل معلومة يذكرها الإنسان تكون فى بؤرة شعوره، ومن بعد ذلك تتحرك لتحل محلها معلومة أخرى . وعندما يكون بال الإنسان مشغولاً فهذا الشىء لا يتزحزح من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور إلَّا بعد أن يأتى أمر آخر يشغل البال . ولذلك نقول : إياكم أن تعتقدوا أن الذهن يفهم أى أمر من مرة واحدة أو من مرتين أو من ثلاث مرات . . لا . . إن الذهن يفهم من مرة واحدة كآلة التصوير ، والمهم أن يكون الذهن ساعة التقاط المعلومة خاليًا من غيرها ؛ ولذلك كنا نعرف أن إخواننا المكفوفين الدارسين معنا أقدر على الاستيعاب الحفظى منا نحن المبصرين - لأن المبصر عندما يكون بصدد مسألة فإن عينيه قد تنشغلان بشىء ، فتكون بؤرة شعوره مشتتة ، أما الأعمى فبؤرة شعوره تذكر فقط ما يسمعه ، وهكذا نعرف ما هو «الذكر».

والخمر تطمس العقل وتستره، فكيف يذكر الله إذن؟ وكذلك الصلاة وهى حيز الذكر، تسترها الخمر عنا، وكذلك الميسر الذى يلوح فيه الوهم بالكسب كالسراب، فيلهث اللاعب خلف اللعب لعله يكسب، ويفقد القدرة على ذكر الله والصلاة؛ ولأن العداوة مسبقة بين الإنسان والشيطان، فنحن نعلم أن الشيطان قد توعدنا جميعاً ، واقرأ قوله : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

وقد عرف الشيطان كيف يقسم، لقد أقسم بعزة الله ، فلو أن الله أراد عباده لما أخذهم الشيطان. ولذلك يقول الحق فى نهاية آية الخمر والميسر : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ ، هذا استفهام، والاستفهام هو طلب فهم الشىء ، هذا ما نعرفه عندما يكون الاستفهام من البشر، ولكن عندما يصدر هذا الاستفهام

من الله لنا، فهذا أمر من الآمر سبحانه وتعالى. كيف ؟ إن هناك أمرًا من الآمر هو حكم لازم. وهناك أمر يريده الله من المأمور نفسه أن يأمر به. إنها ثقة من الآمر الأعلى فى الإنسان المؤمن الذى يتلقى مثل هذا الأمر. ومثال ذلك فى حياتنا ـ ولله المثل الأعلى ـ يقول الأب لأحد أبنائه: إن إهمالك لدروسك سيجعلك تنال غضبى، واحتقار زملائك لك، وتأخرك عن غيرك، فهل ستنتهى من اللعب واللهو أم لا ؟ إن الأب لم يقل: انته عن اللعب. لأن الأب أراد أن يأتى بالحيثيات حتى يحكم الابن بنفسه، وحتى يدير المسألة بمقابلها، ولا يجد إلَّا أن يقول: «لقد انتهيت عن اللعب».

لقد جاءت هنا المسألة أيضًا على هذا الشكل ، إنها بدلاً من أن تكون حكمًا من الله أصبحت حكمًا من العبد المأمور، وهذه أبلغ أنواع الحكم . إن المتكلم يلقى بالأمر فى صيغة سؤال، فيدير المسئول كل جواب فلا يجد إلاَّ الذى يريده السائل. ومثال ذلك عندما فتر الوحى عن النبى ﷺ، وقال أهل قريش : إن رب محمد قد قلاه[1]، هنا نزل الوحى على رسول الله ﷺ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣]، ويتابع الوحى : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦]، وعندما يستقرئ النبى ﷺ هذه المسألة؛ فإنه يجيب بمعناه: نعم يا رب، أنت وجدتنى يتيمًا فآويتنى. وهذا يسمُّونه مشاركة المأمور فى علَّة الآمر. وهذا أبلغ أنواع الأمر ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] ، وهكذا علم المخاطبون ماذا يريد الله، فقالوا: انتهينا؛ ولذلك نجدهم قد قالوا كثيرا فى المبالغة فى هذا الانتهاء. فالإمام على رضى الله عنه يقول :«لو وقعت قطرة منها فى بحر، ثم جف البحر، ونبت فيه الكلأ، واندلع لسانى من الجوع ما قربته» ولم يكن هذا أمرًا مفروضا، ولكنها المبالغة فى الانتهاء على أقصى صورة .وها هو ذا الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: «لو وقعت قطرة منها على يدى لحرمتها على نفسى». وهكذا كان رد فعل قول الحق : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] ، وبذلك تم حسم مسألة الخمر.

---

(١) قلاه : أبغضه ، قال حديث بن عبد الله البجلى : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه فأنزل الله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٢٣)

* قال أنظرنى إلى يوم يبعثون *

حين رأى إبليس غضب الله علم أنه قد أصبح فى أسفل السافلين، ونال الذل والهوان ، وانتقل من المكان الذى كان ينعم فيه إلى مكان يهان ويذل فيه: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤]، ولو كان الكبر والاستعلاء اللذان دخلا نفس إبليس ليسا كبرًا واستعلاءً كاذبين؛ لكان قد رفض الخروج أو احتفظ بمكانته ، وبدلا من أن يعترف إبليس أنه أخطأ ويندم ويستغفر ملأ قلبه الحقد ؛ لأنَّه اعتقد كذبا أن آدم هو الذى أخرجه من المنزلة العالية التى كان يتمتع بها ، وأراد أن ينتقم: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الإنظار: هوطلب الإمهال، وعدم التعجيل بالموت ، أى أنه طلب من الله أن يمد فى عمره ولا يميته بسرعة . فما دام قد أصابه الذل والطرد والهبوط بسبب آدم ، فلابد أن ينتقم بأن يجعل آدم وذريته يعصون الله ، وإبليس فى طلبه هذا كان يريد أن يتعدى مرحلة الموت فيبقى حياً إلى يوم البعث ، ولكن الله يقول : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ، لذلك فإن إبليس لا يمكن أن يتعدى مرحلة الموت.

لذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾، وقال فى سورة الحجر : ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ ، هكذا بقى أجل إبليس مستوراً عنه ، فإن الله سبحانه وتعالى أجَّله إلى الوقت الذى يحدده الحق سبحانه وتعالى . والوقت المعلوم بالنسبة لإبليس لا بد أن يكون قبل النفخة الأولى فى الصور ، فكأن إبليس سيبقى ليغرى الناس بالمعاصى مادامت هناك حياة فى الأرض . فإذا انتهت الحياة يصعق إبليس ثم يبعث مرة أخرى ليحاسب .

ونحن نعرف أن للصور نفختين مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾. [الزمر: ٦٨]

إبليس كان يريد أن يبقى حيا حتى النفخة الثانية، وهى يوم البعث، ولكن الله قال: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر: ٣٨]، أى: قبل النفخة الأولى.

يمضى الحق سبحانه وتعالى ليبلغنا بما حدث: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦]، وهنا يجب أن نتوقف عند ﴿ أَغْوَيْتَنِي ﴾، الإغواء أو الغواية: هو الإغراء بالمعصية، وإبليس هنا يقول: بإغوائك يا الله لى سأفعل كذا وكذا، أى أنه نسب الإغواء إلى الله. ولكن الله لا يغوى ولكنه يهدى هداية دلالة لمنهجه، وهداية تمكين من الإيمان، فكيف تكون الغواية قد جاءت من الله لإبليس؟!، الغواية هنا فى أن الله قد خلق إبليس مختاراً، فلو أنه خلقه مقهوراً ما استطاع أن يعصى، ولكن الاختيار قد قاده إلى الكبر وقاده إلى المعصية. ولكن الله خلق الجن والإنس مختارين، وبين لهم طريق الهداية والتقوى، وبين لهم طريق الضلال والغواية، وجعلهما صالحين للطاعة وصالحين للمعصية، ووعد كل من يختار طريق الهداية أن يزيده هدى، فكأن نسبة الغواية إلى الله هنا ليست فعلا ولكن تمكينا، أى أن الله سبحانه وتعالى بما مكنه من المعصية غوى وضل، ولو أنه كان مقهوراً لما ضل ولما غوى.

قال تعالى: ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾. [الأعراف: ١٦]

القعود: لون من ألوان حركة الجسم؛ لأن الإنسان إما أن يكون قائمًا أو قاعداً أو مضطجعًا، أكثر الحالات راحة أن يكون الإنسان مضطجعًا، فإذا كان قاعداً فإنه يتحمل جهداً قليلاً، أما إذا كان واقفًا فهذا هو الجهد الكبير؛ لأن القدمين يتحملان كل ثقل؛ ولذلك عندما يكون الإنسان واقفًا نقول له:

اجلس لتستريح ، فإذا كان جالسًا نقول له: اضطجع لتستريح ، ولكن لماذا قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ ؟ لأن الشيطان فى غوايته للإنسان لا يكلّ ولا يملّ ولا ييأس، ولو أن الحق استعمل كلمة لأقفن لفُهِمَ منها أنها فترة قصيرة، ثم بعد ذلك يتعب الشيطان ويمضى، ولو قال: لأضطجعن لكان فيها التراخى والكسل وربما يغلبه النوم، ولكن ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ تفيد الاستمرارية مع عدم التعب أو الملل .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ ، أى: لا تتركوهم أبدًا، وأنت تقول: أنا جالس حتى يخرج، أى: لن أترك مكانى أبدًا حتى يخرج مَنْ أُريد. وغواية الشيطان للإنسان هى غواية استمرارية، فكأنه جالس متربص بالإنسان لا يتركه أبدًا، يغويه ويضلُّه باستمرار[1] . وقوله: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] ، معناها: أن الشيطان سيغوى ويضل مَنْ فى طريق الهداية ، أى أن أولئك الذين اتَّخذوا طريق الشيطان وضلوًّا، قد انتهت مهمة الشيطان معهم ماداموا هم فى الضلالة ، ولا يعود إليهم إلَّا إذا عادوا إلى طريق الهداية ، ولكن الذين يتبعون الصراط المستقيم هو لا يتركهم أبدًا .

لذلك يحرص الشيطان على أن يوسوس للناس فى الطاعات حينما يقرءون القرآن أو يؤدون الصلاة ليصرفهم عن القرآن وعن الصلاة ، والشيطان يتلصص على صاحب الدين ، واللص لا يحوم حول بيت خرب، ولكنه يحوم حول بيت عامر بالخير[2]. ولذلك تأتى وسوسة الشيطان فى الصلاة

---

(١) يوضح هذا المعنى ما رواه أحمد فى مسنده ٣/ ٢٩ من حديث أبى سعيد الخدرى . قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن إبليس قال لربه بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله بعزتى وجلالى لا أبرح أغفرلهم ما استغفرونى.
وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٨/ ٣٣٢) وحسنه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٥٠).

(٢) ورحم الله القائل: البيوت ثلاثة :
بيت السلطان : لا يقربه اللص لشدة الحراسة .
وبيت الفقير المدقع: ليس للص فيه حاجة =

وفى العبادات، وهذه الوسوسة هى ظاهرة صحية فى الإيمان؛ لأنه لو لم يكن الإيمان فى قلبه ، ولو لم يكن عملك خالصا ترجو قبوله من الله ما حاول الشيطان أن يفسده ؛ لأنه يريد أن يفسد عليك الطاعة؛ ولذلك أعطانا الله سبحانه وتعالى مانرد به وسوسة الشيطان، فقال جل جلاله: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] ، فالله هو الذى خلقك، وهو الذى خلق الشيطان، وأنت لا تستطيع دفعه لأنه يجرى منك مجرى الدم ، ويأتى لك بخواطر وأشياء فى وقت الصلاة، ويأتى لك بأعقد المسائل وأقوى الإغراءات، ولذلك فالشيطان لا يجلس فى الخمارة، ولا مع الذين اعتادوا المعصية والإجرام، وإنما يجلس على أبواب المساجد وأماكن العبادة، ماذا تفعل فى هذه الحالة ؟ تتجه إلى الله وتطلب منه العون، لأنه هو الذى أعطاه خاصية أن يدخل إلى نفسك وإلى خواطرك، وهو القادر على أن يمنعه ، فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، كلما خطر لك خاطر المعصية، أو حاولت وساوس الشيطان أن تفسد عليك طاعة من الطاعات، حينئذ ينصرف الشيطان عنك ، وإذا أكثرت من الاستعاذة بالله لن يجد الشيطان إلى نفسك سبيلاً .

ويحكى عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، أنه جاءه رجل كان قد خاف على ماله فدفنه فى الأرض، ثم نسى المكان الذى فيه المال، جاء الرجل إلى أبى حنيفة ليسأله: كيف يعثر على المال؟، فقال له أبو حنيفة: إننى رجل علم وليس فى سؤالك شىء من العلم. ولما أصر الرجل قال له أبو حنيفة: إذا جاء الليل فقم بين يدى ربك مصلِّيًا هذه الليلة، لعلَّ الله سبحانه وتعالى يبعث لك من جنوده من يخبرك عن مكان المال. وحانت صلاة العشاء فوقف

= وبيت أواسط الناس: وهو مناط نظر اللص.

والقلوب ثلاثة :

قلب صدّيق: عليه حراسة مشددة من الله، فلا يقربه شيطان.

وقلب زنديق: ليس للشيطان فيه حاجة.

وقلب أواسط الإيمان: وهو مناط نظر الشيطان.

الرجل مصلّيًا، ولما قام لصلاة الليل تذكر مكان المال، وقبل صلاة الفجر كان يدق باب أبى حنيفة ليقول له: إنه وجد المال، ويقول: ما بدأت فى الصلاة حتى تذكرت مكان المال، فقطعت صلاتى وذهبت فأحضرته، فقال له أبو حنيفة: والله لقد علمت أن الشيطان لا يجعلك تتم ليلتك مع ربك؛ ولذلك مابدأت الصلاة حتى جاء، وأخبرك بمكان المال؛ فهلاَّ أتممت الصلاة فى ليلتك شكراً لله ؟.

ونلاحظ هنا فى غواية الشيطان للإنسان أنه قال: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وفى آية أخرى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهنا الشيطان اختار القسم الذى يعينه على مهمته فى قوله ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾؛ لأن الله لا يحتاج لخلقه وهو غنى عنهم، عزيز لا يزيد فى ملكه طاعة، ولا ينقص من ملكه عصيان ،ولذلك فلو أراد الله عباده طائعين ما استطاع الشيطان أن يغوى واحدًا منهم، ولكن باستغناء الله عن خلقه جميعًا ترك لهم الحرية الكاملة، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، من هذا الباب دخل الشيطان ليغوى الإنسان، ولكن هل أعطاه الله هذه الغواية مطلقة ؟ لا.. ولذلك جاءت : ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣] ، أى: أن من يخلص العبادة لله لا يجعل الله للشيطان عليه ولاية، الذى يريده الله مهدياً لا يستطيع الشيطان أن يغويه ، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢] ولكى نفهم هذه الآية نقول :

إن لله فى الدنيا عبيدًا وعبادًا ، الناس كلهم عبيد لله، والعباد: هم الذين أخلصوا لله الطاعة واتبعوا منهجه . عباد الرحمن لا يستطيع الشيطان أن يغويهم ولا أن يكون له عليهم سلطان، والسلطان قسمان:

سلطان القهر: فى أن تقهر إنسانًا على أن يفعل بالقوة ودون إرادته.

وسلطان الإقناع: فى أن تقنعه بالحجة ليفعل الشىء عن اقتناع.

والشيطان لا يملك لا سلطان القهر، ولا سلطان الإقناع، ولكنه يزين السوء، والنفس هى التى تقع فى هذا التزيين فتفعل؛ ولذلك عندما يأتى الحساب فى الآخرة يبين لنا الله أن شهوات النفس هى التى قادت الإنسان إلى الطريق الذى زينه له الشيطان . فيقول جل جلاله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ . [إبراهيم: ٢٢]

وهكذا نرى أنه لابد من استجابة النفس البشرية لوسوسة الشيطان، فهو لا يملك سلطان الحجة، ولا يملك سلطان القهر.

إذن فكيف تتم الغواية ؟

الأبواب التى يدخل منها الشيطان للإنسان قد بينها الله لنا فى القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ . [الأعراف:١٧]

ومن بين أيديهم أى من أمامهم، والجهات الأربع هى مداخل الشيطان، الشيء الذى أمامنا هو ما نحن سائرون إليه، أى الدار الآخرة، يأتى الشيطان ليشككنا فى الآخرة.. هل تصدقون أنكم ستبعثون أو أنكم ستحاسبون . والمعروف أنه لا يقبل على منهج الله إلاَّ من يؤمن بلقاء الله فى الآخرة، حينئذ يأتى الشيطان ليوسوس إليك، خذ من الدنيا الشهوة واللذة، وكل ما تستطيع أن تغتصبه فليس هناك آخرة ولا بعث. ومادام الإنسان قد شك فى الآخرة، فهو يطلق لشهواته العنان. ولذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى ليعرض علينا قصة البعث فيقول: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥] ، هل عجز الله عن خلقكم أول مرة ليعجز عن إعادتكم إلى الحياة وبعثكم. إن الخلق الأول هو الأصعب؛ لأنه إيجاد من عدم، والإعادة أهون لأنها إيجاد من موجود ، فأيهما أسهل: الإيجاد من عدم أم الإيجاد من موجود ؟ فيأتى

الشيطان ليوسوس للناس بأن التراب سيختلط ببعضه وتضيع المعالم كلها .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤]، أى أن كل شيء مكتوب فى سجلات فلا تصدقوا أن شيئًا سيضيع . وهكذا أخبرنا الله سبحانه وتعالى مقدمًا بالإجابات عن وسوسة الشيطان. هذا عمن أمامهم تشكيك فى الآخرة .

أما ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ فما يتركه الإنسان خلفه هو ذريته، يأتى الشيطان ليخيفك على ذريتك: ستترك أولادك يضيعون ؟!.. اسرق، وانهب، وارتشِ، وارتكب كل ماحرمه الله؛ لتترك لأولادك ما يحفظهم من الضياع . ومعظم فساد الناس يأتى من هذه الناحية ، كل إنسان يريد أن يترك لأولاده ، وهذا من أعظم مداخل الشيطان ، وتكون النتيجة أن نلقى الله عاصين، ونترك المال الحرام لأولادنا فيفنى فى المعصية ، نعوذ بالله تعالى من الشيطان وحبائله .

أما قوله ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ فاليمين رمز العمل الحسن ورمز العمل الصالح؛ ولذلك يأتى لهم عن أيمانهم ليكرههم فى صالح الأعمال، فى الكسب الحلال بالجدِّ والعرق وفى الطاعات، ويأتى لهم عن شمائلهم ليزيِّن لهم المعصية (١).

---

(١) قال قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها، وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها، وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصى ودعاهم إليها وأمرهم بها، أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، ولم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله. وكذا روى عن إبراهيم النخعى والسّدى وابن جريج [عمدة التفسير] (٥/ ١٥٣).

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، قال: لم يكن رسول الله ﷺ، يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى: «اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى». رواه أبو داود (٥٠٧٤) وابن ماجة (٣٨٧١) وصححه الألبانى ، وابن حبان والحاكم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

وهكذا نرى أن من بين أيديهم تشكيكا فى الآخرة، ومن خلفهم تخويفهم من ضياع الذرية، والله سبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذا فيقول : ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا** ﴾ . [النساء:٩]

أى: إذا كنت تخاف على ذريتك، فاجعل الأمان فى يد الله وحده ، وإياك أن تعتقد أنك تستطيع أن تحقق الأمان لهم بمال حرام أو بمعصية، ولكن بعض الناس يتساءل: لماذا الأمام والخلف واليمين واليسار؟! ولماذا ترك الشيطان ما فوق الرءوس وماتحت الأقدام ؟ ولقد سئل بعض الورعين عن ذلك فقال: لقد سمعنا أن الله قال: إن عبدًا يرفع إلىَّ يده بالدعاء، ويسجد لى على الأرض فحقٌّ علىَّ ألاَّ أسلط عليه شيطانًا. فالمكان الأعلى هو مكان صعود الدعاء، والمكان الأسفل هو مكان السجود، وكلاهما لا يستطيع الشيطان أن يقترب منه، ولذلك لم يستطع أن يقول من أعلى ومن أسفل.

ثم تمضى الآية الكريمة تقول: ﴿ **ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾ . [الأعراف: ١٧]

تلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قد استخدم ﴿ **مِّنْ** ﴾، ولم يستخدم «عن»، فأنت تقول: جلست عن يمين فلان، وتقول: جلست على يمين فلان، وكلا التعبيرين يعنى جهة وجودك بالنسبة للشخص الجالس بجوارك، ولكن عندما تستخدم «على» ففيها استعلاء، عندما تقول جلست على يمينه أى مستعليًا على يمينه، فلا يستطيع أن يأتى أحد ليزحزحك عن مكانك، ولكن عن يمينه فيها انكسار وذلة، أى عن يمينه ربما بعيد قليلاً، وربما يأتى أحد ليزحزحك عن مكانك، وحيث إن الشيطان لا يملك أى علو؛ بل يملك الذلة فقد استخدمت «عن» بدلا من «على»، وليذكرنا الله سبحانه وتعالى بأن الشيطان لا يملك أى استعلاء بالنسبة لنا ، لذلك الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ [النساء: ٧٦]، ولأن كيد الشيطان ضعيف،

فقد عرفنا خطته فى إغوائنا، بأنه سيأتى لنا من هذه النواحى الأربع، ولو لم يحدد الشيطان خطته ربما كنا قد وقعنا فيها. ولكن الخطة محددة، والله أعطانا المناعة منها، بأن يبين لنا كيف نتقيها ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[1]، أى: أن الشيطان سيغرى الإنسان على الكفر بنعم الله، فلو التفت الإنسان إلى نعم الله عليه ما ضلَّ أبدًا . ولكن لأنه يأخذ النعمة على أنها حق مكتسب له ينسى المنعم ولا يشكره .

وهنا قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. [الأعراف:١٨]

الخروج هو مجاوزة المكان، وحالة خروج الشيطان هو أنه مطرود ملعون مهزوم مذموم، هذه هى حالة الخروج. . منتهى المهانة والذلة ، وتسلط عليهم كما تحب، فكل من كفر بالله واتبع الشيطان فالنار معدة له . والله سبحانه وتعالى لن ينتظر ليحصى من كفر ويعد لهم النار ، بل إن النار أعدت على أساس أن الخلق جميعًا كافرون ، والجنة أعدت على أساس أن الخلق جميعًا مؤمنون ، فكل إنسان منا له مكان فى النار ومكان فى الجنة ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن أصحاب الجنة : ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ . [المؤمنون: ١٠ - ١١]

ماذا سيرث أصحاب الجنة ؟ سيرثون الأماكن التى كانت معدة للكفار فى الجنة فيأخذونها هم. ولذلك فقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ، أى اعلموا أننى قد أعددت مكانا فى النار لكم جميعًا . ولذلك كل من اتبع الشيطان له مكان معد فى النار ينتظره يوم الحساب .

---

(١) قال ابن عباس يعنى: موحدين [تفسير ابن كثير الآية ١٧ من سورة الأعراف].
عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان ، منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله » رواه ابن ماجة [٤٣٤١] ، وصححه الألبانى . وانظر السلسلة الصحيحة رقم [٢٢٧٩] .

❊ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ❊

الله سبحانه وتعالى وضح للإنسان فى القرآن الكريم ما هى طرق إغواء الشيطان له فقال تعالى: ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾. [الأعراف: ١٦]

أى أن إبليس لا يبذل جهده لمن باع نفسه للمعصية وانطلق يخالف كل ما أمر به الله ، فالنفس الأمارة بالسوء ليست محتاجة إلى إغواء لأنها تأمر صاحبها بالسوء لذلك فإن إبليس لا يذهب إلى الحانات مثلاً أو ما شابه ذلك ويبذل فيها جهداً لأن هذه لاتحتاج إلى جهد منه ، فكل من ذهب إلى هذه الأماكن فإنما هو ذاهب إلى معصية وليس فى حاجة إلى إغواء.. وقد اختار هذا الطريق ، ولكن إبليس يذهب إلى مهابط الطاعة أو أماكن العبادة.. هؤلاء الذين يبذل إبليس معهم كل جهده أو كل حيله وإغوائه ليصرفهم عن عبادة الله ، ولذلك لم يقل إبليس فى حديثه لأقعدن لهم على الطريق المعوج ، لأن الطريق المعوّج لا يحتاج إلى جهد لأنه بطبيعته يتبع الشيطان، ومن هنا فإن إبليس يغوى أهل الطاعة لا أهل الشر والفساد.. بأن يزين لهم المعصية ، أو يغريهم بمد أيديهم إلى المال الحرام ، أو يزين لهم أمرًا من أمور الدنيا التى نهى عنها الله سبحانه وتعالى .

ولعل فى قصة إبليس وغوايته لآدم شرح كاف فى ذلك، فآدم عاش فى جنة يجد فيها كل ما يطلب بلا تعب، وبلا عمل، وحُرِّمت عليه شجرة واحدة من الجنة التى فيها ألوف الأشجار تعطى كل الثمرات، فجاء إبليس ليغرى آدم على المعصية، فأخذ يزين له هذه الشجرة، ويزين له مخالفة أمر الله، ويقول له : ﴿**مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾ ثم قال له : ﴿**هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى**﴾.

وهكذا كانت الغواية فى أن إبليس صور لآدم أن الله قد منعه عن هذه الشجرة ليمنع عنه خيرًا ، فلما صدق آدم إبليس عرف أن الله قد منعه من الشجرة لأنه يريد له الخير ، وكان هذا رحمة من الله سبحانه وتعالى أن يبلغنا إياه حتى نفطن إلى طريق إبليس فى الغواية ، فلا خير فى طريق يؤدى إلى النار ومعصية الله. ولا شر فى طريق يؤدى إلى الجنة وطاعة الله.

وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا لفتة كريمة إلى أنه اختار للإنسان طريق الخير والحياة الكريمة فى الأرض ورسمه له وبينه(1) ، ولكن الشيطان يأتى ويزين لنا طريق الباطل ، ويحاول أن يصور أن فيه خيرًا ، فإذا سقط الإنسان فى الشر هرب إبليس قائلا ﴿ **فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم** ﴾ تاركا الإنسان لينال جزاءه . فالذى يسرق مثلاً لا يعتقد أبدًا أن أمره سيكشف

---

(1) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، قال : كنا عند النبى ﷺ فخط خطًا ، وخط خطين عن يمينه ، وخط خطين عن يساره ، ثم وضع يده فى الخط الأوسط ، فقال : « هذا سبيل الله » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ . [الأنعام: ١٥٣]

[رواه أحمد (١/١٨٧ الفتح الربانى)، وابن ماجة رقم [١١] وصححه الألبانى]

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : خط لنا رسول الله ﷺ خطا ، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطا ، ثم قال : « هذا سبيل الله ، وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ . [رواه أحمد [٤١٤٢] وصححه الشيخ شاكر]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : القول الجامع فى تفسير الصراط المستقيم هو الذى نصبه الله لعباده على ألسنة رسله وجعله موصلاً لعباده إليه ولا طريق لهم سواه ، وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسله بالطاعة ، وهو مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله ، وترضيه بجهدك كله ، فلا يكون فى قلبك موضع إلا معمور بحبه ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته وهذا هو الهدى ودين الحق ، وهو معرفة الحق والعمل به ، وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به ، فقل ما شئت من العبارات التى هذا أحسنها وقطب رحاها .

[طريق الوصول إلى العلم المأمول ٢٧٢] .

ذلك أنه لو فكر لحظة واحدة فى أن أمره سيكشف، وأنه سيلاقى جزاءه لتردد كثيراً، ولكن الشيطان يقول له: مد يدك.. وخذ هذا المال.. إن أحداً لن يراك.. وتستطيع أن تفوز به دون عقاب.. ويدله على طريقة للتزييف والتزوير مثلاً.. ويقنعه بأن أحداً لن يكشفها. والقاتل حين يقدم على جريمته فإنه يُقدم عليها وهو معتقد أن أحداً لن يراه ولن يكشف أمره، ولذلك فإن الطرق الحديثة مثلاً فى مكافحة جريمة التخريب تقتضى أول ما تقتضى أن يبقى كل من فى المكان حتى ينتهى الاحتفال تماماً، لأنه من النادر أن يضع أحد قنبلة لينسف بها نفسه. لذلك فإنه إن لم يؤمن تماماً أنه سينجو فإنه لن يقوم بهذا العمل. وكذلك كل الجرائم الأخرى يزين الشيطان للإنسان أنه سيفلت منها، ويظل يوسوس له ويقنعه حتى يقتنع، ثم بعد ذلك ينكشف أمره، فيهرب الشيطان ويتركه يواجه مصيره(1).

ولو أن آدم تدبر أمره لعلم كذب منهج إبليس، فإبليس كما يدعى يدله على شجرة الخلد، ولو كان حقيقة أن هذه الشجرة هى شجرة الخلد لما قال إبليس لله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤] ولما طلب منه أن يبقى على حياته إلى يوم القيامة، بل لأكل من الشجرة ونال الخلد وأصبح غنياً عن الله سبحانه وتعالى. ولكن إبليس دخل من ناحية الغفلة فى النفس البشرية واستطاع أن يقود آدم إلى المعصية، وكما دخل إبليس من ناحية الغفلة لآدم، دخل من ناحية الغفلة لأبناء آدم فلو حكموا

---

(١) قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.
وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. [إبراهيم: ٢٢]

عقولهم وأن هناك عداوة مسبقة بين آدم وإبليس ، وأن إبليس يعرف أنه طرد من الجنة بسبب آدم ، وأنه طُرِدَ من رحمة الله بسبب آدم، ولذلك فهو عدو لآدم وذريته حتى يوم القيامة ، ولعرفوا أن إبليس طلب من الله سبحانه وتعالى ليمهله إلى يوم البعث لينتقم من آدم وأولاده بإبعادهم عن الطريق المستقيم وإغوائهم على معصية الله . فإذا عرفنا ذلك أخذنا حذرنا منه، وحين نأخذ حذرنا وتنكشف وسوسة الشيطان فإنه يهرب .

✻ الجهات التى يأتى منها إبليسُ ابنَ آدم ✻

وشرح إبليس كيف سيفسد الصراط المستقيم وقال : ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ يعنى من أمامهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ وهذه جهة ثانية: ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ وتلك جهة ثالثة: ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ وهذه جهة رابعة ، ولكن الجهات ست وليست أربعًا.. فما هما الجهتان الباقيتان اللتان لا يأتى منهما الشيطان لبنى آدم . هما : فوق وتحت . لماذا هرب إبليس من هاتين الجهتين بالذات، ولم يقل : «سآتى لهم من فوقهم أو من تحتهم» ؟ لأنه يعلم أن الجهة العليا تمثل الفوقية الإلهية.. ولذلك ابتعد عنها. وأن الجهة السفلى تمثل العبودية البشرية حين يسجد الإنسان لله.. ولذلك يبتعد إبليس عن هاتين الجهتين تمامًا(1). وأنت إذا

---

(1) عن سبرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك ؟! ، فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : تهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس فى الطِّول فعصاه فهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : تجاهد ؟! فهو جهد النفس والمال ، فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ؟! . فعصاه فجاهد ، فمن فعل ذلك كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، ومن قتل كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة وإن وقصته دابته كان حقًا على الله أن يدخله الجنة » .
ذكره الألبانى فى صحيح الجامع الصغير ـ رقم [١٦٥٢] . وأخرجه أحمد فى المسند [٢٠/ ٢٢ الفتح الربانى] ، والنسائى [٢٩٣٧] .
وقد تقدم قول قتادة : أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ، ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها ، وعن أيمانهم من قِبل حسناتهم بطأهم عنها ، وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصى ودعاهم إليها وأمرهم بها . أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك ، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.
وكذا روى عن إبراهيم النخعي والسدى وابن جريج [عمدة التفسير ٥/ ١٥٣] =

نظرت إلى ما يروجه الملحدون فى كل عصر . . تجد عجبًا، تجد كل هذه الجهات الأربع مذكورة عند الملحدين ما عدا الجهة العليا والجهة السفلى، فأحدهم يقول عن نفسه تقدمى . . جهة الأمام ، وآخر يقال عنه : ارجعى . . جهة الخلف، وآخر يقال عنه : يمينى . . جهة اليمين، وآخر يقال عنه: يسارى جهة اليسار. ولكن لا أحد من المذاهب الإلحادية يسمى نفسه فوقى، لأن المستوى الفوقى هو للألوهية، ولا يسمى نفسه تحتى . . مكان السجود للعبودية . ونحن نقول لكل أصحاب هذه المذاهب : نحن لسنا

= ووجدت لشيخ الإسلام إبن تيمية كلاما بديعا فى شر الشيطان والأسباب التى يعتصم بها العبد من شره ، قال رحمه الله: وينحصر شر الشيطان فى ستة أجناس لايزال بابن آدم حتى ينال واحدا منها أو أكثر:

(١) شر الكفر والشرك. (٢) ثم البدعة. (٣) ثم كبائر الذنوب.
(٤) ثم صغائرها. (٥) ثم الاشتغال بالمباحات عن الخير.
(٦) ثم بالعمل المفضول عن الفاضل.

والأسباب التى يعتصم بها العبد من الشيطان عشرة:

(١) الاستعاذة بالله منه. (٢) قراءة المعوذتين. (٣) قراءة آية الكرسى.
(٤) قراءة البقرة. (٥) قراءة خاتمة البقرة. (٦) قراءة أول ﴿حمٓ﴾ المؤمن إلى ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾. (٧) ولا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير (مائة مرة). (٨) كثرة ذكر الله.
(٩) الوضوء مع الصلاة. (١٠) إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس.

وليعلم أن مخالطة الناس أربعة أقسام:

أحدها: من مخالطته كالغذاء لا يُستغنى عنه فى اليوم والليلة وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه ، فهذا فى مخالطته الربح كله.

الثانى: من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض فمادمت صحيحا فلا حاجة لك فى خلطته، وهم من لا يُستغنى عن مخالطتهم فى مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه.

الثالث: من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه وهم من فى خلطته ضرر دينى أو دنيوى ، ومتى ابتليت بواحد من هؤلاء فلتعاشره بالمعروف حتى يجعل الله لك فرجا، ومتى تمكنت من نقله إلى الخير فهى فرصة تغتنم.

الرابع: من مخالطته الهلك كله بمنزلة السم، وهم أهل البدع والضلالة. [طريق الوصول إلى العلم المأمول ٢٧٤ - ٢٧٦] . جمعها فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى.

تقدميين ندعو إلى التحلل ، ولا رجعيين نرفض أن نتقدم خطوة إلى الأمام مع الزمن ، ولا يمينيين على عرف العصر ولا يساريين أيضًا على عرف العصر . وإنما نحن أمة مسلمة فوقية كل أمورها تأتى من الفوقية الإلهية(١) .

وقد يثور التساؤل . . لماذا قال الشيطان إنه سيغوى البشر ، ولماذا نشأت هذه العداوة الرهيبة ؟

أولاً : لأن الله فضل الإنسان على سائر مخلوقاته وجعله خليفةً فى الأرض وسخر له ما فى الأرض والسماء وأسجد له الملائكة وميَّزه باختيارية العبادة ، أى أنه يأتى إليه طائعًا مختارًا عن حب وود ،

---

(١) الدين الإسلامى هو صراط الله المستقيم ، وقد اختار الله ، تبارك وتعالى أمة الحبيب محمد ﷺ لتكون أمة وسطا وعدلا ، قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣] ، من أجل ذلك كانت هذه الأمة هى خير الأمم قاطبة ، قال تعالى :﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «يدعى نوح يوم القيامة ، فيقول: لبيك وسعديك يا رب . فيقول : هل بلَّغت ؟ . فيقول : نعم فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقول : من يشهد لك ؟ . فيقول : محمد وأمته ، فتشهدون أنه قد بلغ ، ويكون الرسول عليكم شهيدا . فذلك قوله عز وجل : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ ، والوسط العدل » . أخرجه البخارى [٤٤٨٧] . وأخرجه الترمذى رقم [٤٠٤٠] وقال : هذا حديث حسن صحيح .

فالأمة الإسلامية اختارها الله تبارك وتعالى لتكون أمة رائدة وأمة قائدة دونما إفراط ولا تفريط لأنهما يضران بالدين والدنيا ، والقائد دائمًا يقف فى الوسط ليستطيع السيطرة على أقصى اليمين ويستطيع السيطرة على أقصى اليسار أيضًا فى آن واحد .

والإسلام يرفض كل مبادئ الرجعية المتخلفة ، كما أنه يرفض التقدمية الإنحلالية ، بل يرفض كل مذاهب الكفر والإلحاد بشتى أشكالها ومبادئها ، وإنما يقبل الإسلام كل تطور هادف وبناء ويحث عليه طالما أنه حق يرضى الله تبارك وتعالى ، ولو كان هذا الحق يعيش فى خيمة فى سفح جبل ، ويرفض الباطل من أجل أنه باطل ولو كان يعيش بين ناطحات السحاب .

والشيطان يريد أن يفسد كل هذا لعداوته للإنسان .

ثانياً : أن امتناع إبليس عن الامتثال لأمر الله بالسجود لآدم كان سببا مباشرا فى طرده من رحمة الله تعالى .

وقد فاز آدم حين اتخذ سبيل التوبة طريقًا لغفران ذنب المعصية ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٢٧] ومضى إبليس فى تكبره واتخذ طريق الكبر والمكابرة . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد غفر لآدم ، إذن فآدم وإبليس دخلا فى المعصية ولكن بطريق مختلف أولهما هو آدم تاب إلى الله واعترف بذنبه وضعفه ، فأعطاه كلمات يتوب بها ويعود إلى منهج الله[1] ، وإبليس أصر على المعصية وأمعن فى المكابرة ، وبدلاً من أن يعود إلى الله قال لأغوين هذا الذى فضلته على .

---

(١) قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى : ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] ، قال : إن آدم لما أصاب الخطيئة قال : أرأيت يا رب إن تبت وأصلحت ؟ . قال الله : « إذن أدخلك الجنة » فهى الكلمات ، ومن الكلمات أيضًا : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ . [الأعراف: ٢٣] .

وعن مجاهد أنه كان يقول فى قول الله تعالى : ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ الكلمات : « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين » ، « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إنى ظلمت نفسى فارحمنى إنك خير الراحمين » ، « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إنى ظلمت نفسى فتب علىَّ إنك أنت التواب الرحيم » . [تفسير ابن كثير للآية ٢٧ من سورة البقرة].

❊ قابيل وهابيل ❊

الحق تبارك وتعالى يقول:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾. [المائدة: ٢٧ - ٢٨]

إننى أريد أن يقبل المؤمن على القرآن فيسأل : لماذا جاء هذا اللفظ ؟. إن الحق قال : ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾ إن القبول من الله ، وهى مسألة سرية عنده، فكيف نعرف نحن أن الله تقبل أو لم يتقبل ؟ لابد أن الله قد جعل للقبول علامة حسية. ونحن نعرف أن الإنسان قد يعمل عملاً فيقبله الله . ونجد إنسانًا آخر يعمل عملا لا يقبله الله والعياذ بالله . فمن الذى يعلمنا أن الله قد قبل عمل إنسان ، ولم يقبل عمل آخر، والقبول سر من أسرار الله ؟.

إننا لن نعرف علامة القبول إلا إذا كانت شيئًا مُحَساً، بدليل أن الحق قال: ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾ وقال الذى لم يتقبل الله عمله: ﴿ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾[1] كأن الذى تقبل الله قربانه قد عرف. والذى لم يتقبل الله منه

---

(١) فى كتاب قرة العيون المبصرة بتلخيص كتاب التذكرة للشيخ أبى بكر بن الشيخ محمد الملا الحنفى الإحسائى ما نصه : روى السدىّ عن أشياخه: أن آدم كان يزوّج غلام هذا البطن جارية البطن الآخر وجارية هذا البطن غلام البطن الآخر، فولد له قابيل وهابيل ، وكانت أخت قابيل أحسن من أخت هابيل ، فطلب هابيل أن ينكح أخت قابيل ، فأبى عليه فقربا قربانا ليقبل من أحقهما بالمستحسنة ، فقرب هابيل جذعة سمينة ، وقرب قابيل حزمة سنبل ، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل ، وتركت قربان قابيل ، فغضب ، وقال: ﴿ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾. =

قد عرف أيضًا . إذن فلابد أن هناك أمرًا حسياً قد حدث . فكأن العالم المحس قديمًا ينبئ بأن الله كان يخاطب خلقه على قدر رشد عقولهم حساً ومعنى، لقد كان الحق يخاطب البشر فى مراحلهم الأولى بالأمور المحسة. ولذلك كانت معجزاته سبحانه وتعالى للرسل السابقين لرسول الله، هى من الأمور المحسة . فالمعجزة التى آتاها الله لإبراهيم عليه السلام نار لا تحرق ، وعصا موسى عليه السلام تنقلب حية، وعيسى عليه السلام يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله، والمعجزة الحسية لها ميزة، أنها تقنع الحواس، ولكنها تنتهى بعد أن تقع لمرة واحدة. لكن المعجزة العقلية التى تناسب رشد الإنسانية؛ فهى المعجزة الباقية، وهى القرآن الكريم . وحتى

= روى مجاهد عن ابن عباس رضى لله عنهما: أنه لما قتله حمله على عاتقه مائة سنة، وإذا مشى تخط رجلاه الأرض، وإذا قعد وضعه إلى جنبه إلى أن رأى غرابين اقتتلا، فقتل أحدهما الآخر ، ثم بحث الأرض فواراه، فقال حينئذ : ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى، فأصبح من النادمين على حمله لا على قتله. فلما قتله هرب إلى اليمن، وحزن آدم على هابيل، فمكث مائة سنة لا يضحك، وقال شعرا:

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبرٌ قبيح

تغير كل ذى لون وطعم ... وقل بشاشة الوجه المليح

وقال مجاهد: قال عبد لله بن عمرو: إنا لنحدث أن ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار العذاب قسمة صحيحة، عليه شطر عذابهم. ويشهد لهذا القول ما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تقتل نفسٌ ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل».

أخرجه البخارى [٣٣٣٥] ومسلم [١٦٧٧] .

وقد حذرت هذه القصة من الحسد ، فإنه أخرج قابيل إلى القتل كما أخرج إبليس إلى الكفر، والقتل أمر عظيم، ففى "الصحيحين" من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « أول ما يقضى الله بين الناس يوم القيامة فى الدماء ». وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: « لن يزال المرء فى فسحة من دينه مالم يصب دما حراما ». أخرجه البخارى [٦٨٦٤] ومسلم [١٦٧٨].

وعن بريدة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا. وفى حديث آخر من أعان على قتل امرىء مسلم ولو بشطر كلمة لقى الله، مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله .[١٢, ١٣].

تظل معجزة باقية فلا يمكن أن تكون حسية .

إذن فعندما تأتى معجزة خالدة لرسول هو خاتم الرسل ، والذى سوف تقوم القيامة على المنهج الذى جاء به، هذه المعجزة لابد أن تكون ذات أمر ممتد، والامتداد يناقض الحسية؛ لأن الحسية تظل محصورة فيمن رآها، والذى لم يرها لا يستطيع أن يؤمن بها إلا على قدر توثيقه لمن أخبره بها. وابنا آدم قابيل وهابيل قرَّب كل منهما قربانًا ، والقربان هو شىء أو عمل بر يتقرب به الإنسان إلى الله ، و«قربان» مثلها فى اللغة مثل «غفران» و«عدوان»، . وقبول هذا العمل من البر سر من أسرار الله . فما الذى أدراهما أن قربان هابيل قد تَقَبَّلَهُ الله ولم يَتَقَبَّل قربان قابيل؟! ، لابد أن تكون المسألة حسية . إن قابيل وهابيل قد اختلفا ، ولكن القرآن لم يقل لنا على ماذا اختلفا ، إنها دعوى أن واحدًا منهما مقرب إلى الله أكثر، ولكن بأى شكل ؟ إن الشكل لم يظهره لنا القرآن ، ولو كانت المسألة مهمة لأظهرها الله لنا فى القرآن الكريم. لكن الذى ظهر لنا أن خلافًا قد وقع بينهما(١)، وأنهما قد حكَّما السماء. ومبدأ

---

(١) فى عمدة التفسير : يقول تعالى مبينا وخيم عاقبة البغى والحسد والظلم، فى خبر ابنى آدم لصلبه - فى قول الجمهور - وهما: قابيل وهابيل (*) ، كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله، بغيا عليه وحسدا له فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذى أخلص فيه لله عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة فى الدارين. فقال تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ أى : أقصص على هؤلاء البغاة الحسدة، إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابنى آدم، وهما هابيل وقابيل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف. وقوله ﴿ بِالْحَقِّ﴾ أى: على الجلية والأمر الذى لا لبس فيه ولا كذب ، ولا هم ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقصان. كما قال تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ . وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ . وقال: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ . وكان من خبرهما - فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف: أن الله تعالى شرع لآدم عليه السلام أن يزوِّج بناته =

(*) أما أنهما ابنا آدم لصلبه، فهو القول الثبت الصحيح، الذى يدل عليه سياق الآيات، مؤيدا بالسنة الصحيحة، كما سيأتى. وأما تسميتهما - "قابيل وهابيل" - فإنما هو من نقل العلماء عن أهل الكتاب ، لم يرد به القرآن ، ولا جاء فى سنة ثابتة، فيما نعلم، فلا علينا أن لا نجزم به ولا نرجحه. وإنما هو قول قيل.

تحكيم السماء لا يستطيع أحد أن ينقضه ، وكان لكل واحد منهما شبهة ،

= من بنيه لضرورة الحال. ولكن قالوا: كان يولد له فى كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوِّج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمةً، وأخت قابيل وضيئة، فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قربانا، فمن تقبل منه فهى له، فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل، فكان من أمرهما ما قصه الله فى كتابه(*) . وروى ابن أبى حاتم عن ابن خُثيم ، قال: « أقبلت مع سعيد بن جبير، فحدثنى عن ابن عباس قال: نهى أن تنكح المرأة أخاها تُوءمها، وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها، وكان يولد له فى كل بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة، وولد له أخرى قبيحة ودميمة، فقال أخو الدميمة: أنكحنى أختك وأنكحك أختى، فقال أنا أحق بأختى، فقربا قربانًا فتقبل من صاحب الكبش، ولم يتقبل من صاحب الزرع، فقتله، إسناده جيد (**) . وعن ابن عباس قال: [كان] من شأنهما: أنه لم يكن مسكين يُتصدق عليه، وإنما كان القربان يقربه الرجل، فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا: لو قربنا قربانا، وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله أرسل إليه نارًا فتأكله، وإن لم يكن رضيه الله خبت النارُ، فقربا قربانًا، وكان أحدهما راعيا، وكان الآخر حراثًا، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها، وقرب الآخر بعض زرعه، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع، وإن ابن آدم قال لأخيه: أتمشى فى الناس وقد علموا أنك قربت قربانًا فتقبل منك ورد علىّ؟! فلا والله لا ينظر الناس إليك وإلىّ وأنت خير منى، فقال: ﴿لأَقْتُلَنَّكَ﴾ ، فقال له أخوه: ماذنبى ؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ . رواه ابن جرير. فهذا الأثر يقتضى أن تقريب القربان كان لا عن سبب ولا عن تدارُىء فى امرأة، كما تقدم عن جماعة ممن تقدم ذكرهم. وهو ظاهر القرآن' ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فالسياق يقتضى أنه إنما غضب عليه وحسده لقبول قربانه دونه. وقوله' ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول له أخوه الرجل الصالح الذى تقبل الله قربانه لتقواه حين توعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه -: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾ أى: لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت =

(*) هذا من قصص أهل الكتاب، ليس له أصل صحيح. ثم قد ساق الحافظ المؤلف هنا آثارا كثيرة فى هذا المعنى، مما إمتلأت به كتب المفسرين. وقد أعرضنا عن ذلك، وأبقينا شيئا منها أجرد إسنادا، على سبيل المثال، ليس على سبيل الرواية الصحيحة المقبولة . .

(**) ورواه الطبرى: ١١٧٥١، مطولا، بإسناد جيد أيضا، وهو خبر - كما ترى - ليس من السنة النبوية ، بل ظاهره يدل على أنه مما أخذه ابن عباس من كتب أهل الكتاب. . و "التؤم" - بضم التاء وسكون الهمزة: التوأم، يقال للذكر والأنثى.

وعندما قامت الشبهة التى لقابيل ضد الشبهة التى لهابيل ، فلا إقناع من

= سواء فى الخطيئة ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: من أن أصنع كما تريد أن تصنع، بل أصبر وأحتسب. ولهذا ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: "إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار، قال: فقلت ، أو قيل يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه قد أراد قتل صاحبه"(*). وروى الإمام أحمد: "أن سعد بن أبى وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشى، والماشى خير من الساعى، قال: أفرأيت إن دخل علىّ بيتى فبسط يده ليقتلنى؟ فقال: كن كابن آدم" . وكذا رواه الترمذى، وقال: هذا حديث حسن. وقد رواه أبو داود بنحوه، وفى آخره: "قال: فقال رسول الله ﷺ : كن كابن آدم، وتلا" ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (**). قال أيوب السَّختيانى: إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة" ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ لعثمان بنُ عفان، رضى الله عنه . رواه ابن أبى حاتم. وروى الإمام أحمد عن أبى ذر ، قال: « ركب النبى ﷺ حمارًا وأردفنى خلفه، وقال: ياأبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك فكيف تصنع ؟ قال: الله ورسوله أعلم ، قال: تعفّف. قال: يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس موتٌ شديد يكون البيت فيه بالعبد - يعنى القبر - فكيف تصنع ؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: اصبر. قال: ياأبا ذر، أرأيت إن قتل الناسُ بعضُهم بعضًا، يعنى حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء، كيف تصنع ؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: اقعد فى بيتك وأغلق عليك بابك. قال: فإن لم أترك ؟ قال: فأت من أنت منهم فكن فيهم. قال: فآخذ سلاحى ؟ قال: إذًا تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك، حتى يبوء بإثمه وإثمك ». ورواه مسلم وأهل السنن سوى النسائى (***). وقوله : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩] قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : أى : بإثم =

(*) البخارى [٧٠٨٣] (فتح). ومسلم [٢:٣٦٢] - واللفظ له كلاهما من حديث أبى بكرة.

(**) المسند: [١٤٤٦: ١٦٠٩ شاكر]. والترمذى [٢١٩٥] . وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢/ ١٧٨٥]. وأبو داود: [٤٢٥٧] وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢/ ٣٥٨١]. ولكن الذى فيه أن الذى تلا هذه الآية هو يزيد بن خالد الرملى شيخ أبى داود. خلافًا لما يوهمه السياق هنا .

قوله: "كن كابن آدم" يعنى المقتول الذى رفض أن يبسط يده بالسوء.

(***) المسند : [٥: ١٤٩] . .

صاحب شبهة لصاحب شبهة ، لذلك ذهبا إلى التحكيم .

= قتلى وإثمك الذى عليك قبل ذلك. قال ابن جرير: وقال آخرون : يعنى ذلك ؛ إنى أريد أن تبوء بخطيئتى فتتحمل وزرها، وإثمك فى قتلك إياى، وهذا قول وجدته عن مجاهد، وأخشى أن يكون غلطا ؛ لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه. قلت: وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول، ويذكرون فى ذلك حديثا لا أصل له: ما ترك القاتل على المقتول من ذنب. وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثًا يشبه هذا ولكن ليس به، فروى عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ : « قتل الصبر لا يمر بذنب إلا محاه ». وهذا لا يصح. ولو صح فمعناه: أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه، فأما أن تحمل على القاتل فلا. ولكن قد يتفق هذا فى بعض الأشخاص، وهو الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل فى العَرَصَات، فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته، فإن نفدت ولم يستوف حقه أخذَ من سيئات المَقتول فطرُحت على القاتل، فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعتَ على القاتل. وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ فى المظالم كلها، والقتل من أعظمها وأشهرها. والله أعلم. وأما ابن جرير فقال: والصواب من القول فى ذلك أن يقال: إن تأويله: إنى أريد أن تنصرف بخطيئتك فى قتلك إياى، وذلك هو معنى قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي﴾ وأما معنى ﴿وَإِثْمِكَ﴾ فهو إثمه بغير قتله، وذلك معصيته الله عز وجل فى أعمال سواه. وإنما قلنا ذلك هو الصواب، لإجماع أهل التأويل عليه، وأن الله عز وجل أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه، وإذا كان هذا حكمه فى خلقه فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذًا بها القاتل، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرَّم وسائر آثام معاصيه التى ارتكبها بنفسه ، دون ما ركبه قتيله. هذا لفظه (*). ثم أورد على هذا سؤالاً حاصله: كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله وإثم نفسه، مع أن قتله له محرَّم ؟ وأجاب بما حاصله: أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله، بل يكف عنه يده، طالبًا إن وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه. قلت: وهذا الكلام متضمن موعظةً له لو اتعظ، وزجرًا له لو انزجر، ولهذا قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أى: تتحمل إثمى وإثمك ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ وقال ابن عباس: خوّفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر، وقوله تعالى ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ أى: فحسنت وسوّلت له نفسه وشجعته على قتل أخيه فقتله، أى: بعد هذه الموعظة وهذا الزجر. وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ . أى: فى الدنيا والآخرة، وأىُّ خسارة أعظم من هذه . وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ : =

(*) الطبرى [١٠:٢١٦ - ٢١٧] .

ونحن فى عصرنا الحديث عندما نختلف على شىء؛ فإننا نقول: هيا نعمل قرعة [١] . وذلك حتى لا يخضع إنسان لهوى إنسان آخر؛ بل يخضع الاثنان

= «لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كِفل من دمها ؛ لأنه كان أول من سَنَّ القتل ». وقد أخرجه الجماعة سوى أبى داود (*). وقوله: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال ابن عباس: جاء غراب إلى غراب ميت، فبحث عليه من التراب حتى واراه، فقال الذى قتل أخاه ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾. وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال الحسن البصرى: علاه الله بندامة بعد خسران. فهذه أقوال المفسرين فى هذه القصة، وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن، وكما نطق به الحديث فى قوله ﷺ: «إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سنَّ القتل ». وهذا ظاهر جلى. ولكن روى ابن جرير عن الحسن - هو البصرى - قال: كان الرجلان اللذان فى القرآن، اللذان قال الله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ - من بنى إسرائيل، ولم يكونا ابنى آدم لصلبه، وإنما كان القربان من بنى إسرائيل، وكان آدمُ أولَ من مات . وهذا غريب جدا، وفى إسناده نظر(**).

(١) أخرج النسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها . السنن الكبرى [٥/٨٩٢٩] .

(*) المسند: [٣٦٣٠، ٤٠٩٢، ٤١٢٣ . شاكر] ، وهو فى البخارى [٣٣٣٥، ٦٨٦٧، ٧٣٢١] . و"الكفل" - بكسر الكاف وسكون الفاء: الحظ والنصيب.

(**) الطبرى: ١١٧١٩ (ج١٠ ص٢٠٨). وقد رد عقيبه بما ملخصه: أن الله يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة. والمخاطبون يعلمون أن القربان لم يكن مشروعًا إلا فى بنى آدم، فلو كان المراد رجلين من بنى إسرائيل لم يكن فى قوله ﴿ابْنَيْ آدَمَ﴾ فائدة جديدة. ثم رده مرة أخرى (ص:٢١٩-٢٢٠) بأنه "خطأ، لأن رسول الله ﷺ قد أخبر عن هذا القاتل الذى قتل أخاه: أنه أول من سن القتل. وقد كان - لاشك- القتل قبل إسرائيل، فكيف قبل ذريته ! فخطأ من القول أن يقال: أول من سن القتل رجل من بنى إسرائيل". ثم رده مرة ثالثة (ص:٢٢٤)، عند قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية بأن " الرجلين اللذين وصف الله صفتهما فى هذه الآية، لو كانا من بنى إسرائيل، لم يجهل القاتل دفن أخيه ومواراة سوءة أخيه. ولكنهما كانا من ولد آدم لصلبه، ولم يكن القاتل منهما أخاه علم سنة الله فى عباده الموتى، ولم يدر ما يصنع بأخيه المقتول". وهذا كله كلام قوى نفيس. .

[عمدة التفسير ٤/١٢٣:١٢٩]

للقدر ، فيكتب كل منهما ورقة ثم يتركان ثالثًا يجذب إحدى الورقتين . أما هابيل وقابيل فيذكر القرآن الكريم : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾ إذن فكل واحد منهما كان له شبهة، ولم يقدر أحدهما على إقناع الآخر ؛ لذلك قال قابيل: ﴿ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾ فماذا قال هابيل قال: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ إذن فالذى تقبل الله منه القربان هو الذى سَيُقْتل . والذى يملؤه الغيظ هو الذى لم يتقبل الله قربانه، وهو الذى سوف يَقْتُل. فما الذى قاله صاحب القربان المقبول ؟ : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ إنه بالفعل هو الأهل لأن يتقبل الله قربانه. إنه إنسان متيقظ ضميره ، متبع لمنهج الله ، وهذه حيثية لتقبل القربان ؛ لأنه مصاحب لمنهج الله. وحتى لا نظن أن الآخر «قابيل» كله شر لمجرد أن الشهوة سيطرت عليه، لكن يُظهر الحق لنا أن فيه بعض الخير.

ودليل ذلك قول الحق: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠] ، هذا القول يدل على أنه تردد، فكأن الإيمان كان يعارض النفس ، إلا أن النفس قد غلبت، وطوعت له قتل أخيه .

وعندما قتل قابيل أخاه، وهدأت حدة الغضب وسعار الانتقام رأى أخاه مُلْقًى فى العراء: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١] وعلى هذا النسق قال اليهود : إن الله أوصانا ألا نؤمن برسول إلا بعد أن يأتى بمعجزة من المحسات.

وانتهى برسالة رسول الله ﷺ عهد الإعجاز بالمحسات. لقد جاءوا بالمحسات حتى يصنعوا لأنفسهم شبه عذر فى أنهم لم يؤمنوا فقالوا ما أورده

القرآن : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . [آل عمران : ١٨٣]

إن الحق فى هذه الآية علَّمنا أن القربان تأكله النار. ومن هذا نستنبط كيف تقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل . ذلك لنفهم أن القرآن لا يوجد به أمر مكرر .

* كلكم لآدم وآدم من تراب *

لو تواصل العهد من ذرية آدم والرسل الذين جاءوا من بعده إلى خاتم الأنبياء رسول الله محمد ﷺ لما صار الناس أممًا شتى ، تصيب بعضهم الغفلة، وينسون قدرة الخالق.

لكن الخالق الأكرم يعلم ذلك عن آدم ، ويعلم الغفلة التى تصيب أبناءه فيقول فى محكم كتابه : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ لذلك كان التواصل فى رسالات الله لتنبيه أبناء آدم من الغفلة ، حتى لا ينقضوا عهد الله ، ولا يقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأن يسيروا على منهج الله فلا يفسدوا فى الأرض. وعندما نتأمل قول الحق: ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ [البقرة: ٢٧] نجد أن أمر الخالق الأكرم أن نصل الرحم الذى يربطنا جميعًا ، نحن سكان الأرض بعضنا البعض. فكلنا أبناء آدم .. ورسول الله ﷺ فى حجة الوداع يقول لنا ما معناه: « كلكم لآدم وآدم من تراب »(1).

---

(1) أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر : أن النبى ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه ، فلما خرج لم يجد مناخًا ، فنزل على أيدى الرجال ، فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه وقال : « الحمد لله الذى أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها بآبائها، الناس رجلان برٌّ تقىٌّ كريمٌ على الله ، وفاجر شقىٌّ هيّنٌ على الله ، والناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب ، قال الله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] ، ثم قال : « أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . [الدر المنثور ٥٧٩/٧]

قلت : الحديث فى الترمذى [٣٢٧٠] وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٦٠٨] وعند عبد بن حميد برقم [٧٩٥ ـ المنتخب] .

هكذا نرى الرابطة الإنسانية كبيرة ، كل منا مرتبط بأخيه الإنسان لأننا جميعًا ننتسب لآدم . . وآدم ينتسب للتراب الذى خلقه الله منه ، ولنتأمل تلك الحكاية التى يحملها لنا التاريخ عن معاوية بن أبى سفيان : بعد أن أخذ معاوية الملك كان يجلس فى سلطانه فدخل عليه حاجبه وقال : يا أمير المؤمنين بالباب رجل يقول إنه أخوك . وتعجب معاوية فقال لحاجبه: ألِى الآن لم تعرف إخوتى؟! ثم أمر معاوية الحاجب أن يسمح للرجل بالدخول ، فدخل الرجل على معاوية وهنا سأله معاوية : أى إخوتى أنت ؟ قال الرجل: أخوك من آدم قال معاوية: رحم مقطوعة والله لأكونن أول من وصلها .

وهكذا نرى القضية الإيمانية ، وهى ارتباط الجنس البشرى كله برباط الأخوة الإنسانية ، التى فى جوهرها الحق رابطة إيمانية.

إن الإنسان المؤمن يصل رحمه مع أسرته وأهل قريته ، وتتسع دائرة الحنان لتشمل الوطن، وتتسع لتشمل الإنسانية كلها. . هكذا تكون النخوة الإيمانية. نعم إن للإيمان نخوة تربط بين المؤمن والمؤمن ، وتجعل المؤمن والمؤمن إخوة وتجعل المؤمنين جميعًا أسوة حسنة لغيرهم، وكتاب الله تعالى يقول : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هذا هو أمر الله لأهل الإيمان أن يرتبطوا معًا برباط الأخوة، إذن فكل ما يؤدى إلى قطع ما أمر الله به أن يوصل هو ظاهرة من ظواهر الفسق وخروج عن طاعة الله، وكل ما يؤدى إلى التحام المؤمنين ببعضهم البعض ويربطهم جميعًا بمنهج خالقهم ، كل ذلك هو اتقان لطاعة الله ومحافظة على عهد الله ، لذلك فالمجتمع الإيمانى نجده مترابطًا لا مفككًا (*).

(*) بعد أن انتهى سماحة الشيخ الإمام من سرد خواطره المباركة حول قصة نبى الله آدم وما فيها من الآيات والعبر ، وجدت من الفائدة أن أضع فى نهايتها شىء من الأحاديث التى يحتاج إليها المسلم ، والتى قد لا يجدها فى كثير من كتب القصص القرآنى وهى :

وفاة آدم عليه السلام : من حديث أبىّ بن كعب رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : =

= « لما تُوفِّى آدم غسلته الملائكة بالماء وتراً ، وألحدوا له ، وقالوا : هذه سنّة آدم فى ولده ».

[أخرجه الحاكم (٢/ ٥٤٥) وصححه ووافقه الذهبى ، والطيالسى برقم (٢٢٩٩) (٢/ ٨٢)] .

اشتهاء آدم ثمار الجنة عند حضور الموت

عن عتىّ بن ضمرة السعدى قال : رأيت شيخاً بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا : هذا أبىّ ابن كعب ، فقال : (ورفعه إلى النبى ﷺ) : « إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه : أى بنىّ إنى أشتهى من ثمار الجنة ، قال : فذهبوا يطلبون له ، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفؤوس والمساحى والمكاتل، فقالوا لهم : يابنى آدم ما تريدون وما تطلبون ؟ أو ما تريدون ؟ وأين تطلبون ؟ قالوا : أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة ، فقالوا لهم : ارجعوا فقد قضى أبوكم، فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم، فقال: إليكِ عنى فإنى إنما أُتيت من قِبلك ، فخلى بينى وبين ملائكة ربى عزّ وجلَ ، فقبضوه وغسلوه وكفنوه، وحنطوه ، وحفروا له ولحدوه ، وصلوا عليه ، ثم أدخلوه قبره ، فوضعوه فى قبره، ثم حثوا عليه ، ثم قالوا : يا بنى آدم هذه سنّتكم ».

[أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند (٥/ ١٣٦)، وابن سعد فى الطبقات (١/ ٣٣)، والحاكم (٢/ ٥٤٥)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٢٠٢) : رواه عبد الله بن أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عتى بن ضمرة وهو ثقة .

قال ابن كثير : إسناده صحيح إليه .

مكان آدم عليه السلام فى السماء :

من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: « فرج سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل عليه السلام ، ففرج صدرى ، ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً ، فأفرغه فى صدرى ، ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء الدنيا ، قال جبريل عليه السلام لخازن السماء الدنيا : افتح. قال : من هذا ؟ قال : هذا جبريل . قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم ، معى محمدﷺ. قال : أأرسل إليه ؟ قال نعم . ففتح ، قال : فلما علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أسودة ، وعن يساره أسودة . قال : فإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى . قال : مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح . قال : قلت : يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا آدم عليه السلام ، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه ، فأهل اليمين أهل الجنة ، والأسودة التى على شماله أهل النار ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر =

= قبل شماله بكى . قال : ثم عرج بى جبريل حتى أتى السماء الثانية قال لخازنها : افتح، قال: فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ، ففتح ... » الحديث.

[أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦٣٦ ، ٣٤٩ ، ٣٣٤٢) ، ومسلم برقم (١٦٣)].

استشعار آدم عليه السلام بذنبه يوم القيامة :

من حديث أبى هريرة وحذيفة رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « **يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة. فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ! لست بصاحب ذلك اذهبوا إلى ابنى إبراهيم خليل الله ...** » الحديث. [أخرجه مسلم برقم (١٩٥).]

آدم يخرج بعث النار :

من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **أول من يدعى يوم القيامة آدم، فتراءى ذريته فيقال : هذا أبوكم آدم . فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : أخرج بعث جهنم من ذريتك . فيقول : يا رب كم أخرج؟ فيقول : أخرج من كل مائة تسعة وتسعين . فقالوا يا رسول الله ، إذا أخذ منا من كل مائة تسعة وتسعون فماذا يبقى منا ؟ قال : إن أمّتى فى الأمم كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود** » لفظ البخارى.

[أخرجه البخارى برقم (٦٥٢٩) ، وأحمد فى المسند (٢/ ٣٧٨)]

ومن حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يقول الله يا آدم فيقول : لبيك وسعديك ، والخير فى يديك . قال: يقول أخرج بعث النار . قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين . فذاك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد . فاشتد ذلك عليهم فقالوا: يارسول الله أينا ذلك الرجل ؟ قال: أبشروا ، فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل . ثم قال : والذى نفسى بيده ، إنى لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة . قال : فحمدنا الله وكبرنا . ثم قال : والذى نفسى بيده إنى لأطمع أن تكونوا شطرأهل الجنة إن مثلكم فى الأمم كمثل الشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود ، أو كالرقمة فى ذراع الحمار** ».[أخرجه البخارى برقم (٣٣٤٨) (٤٧٤١ ، ٦٥٣٠ ، ٧٤٨٣ واللفظ له) ومسلم برقم (٢٢٢)] .

ومن حديث عمران بن حصين قال: « **كنا مع النبى ﷺ فى سفر فتفاوت بين أصحابه فى**=

= السير ، فرفع رسول الله ﷺ صوته بهاتين الآيتين : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ .. إلى قوله : ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ١-٢] ، فلما سمع ذلك أصحابه حثوا المطى وعرفوا أنه عنده قول يقوله ، فقال : " هل ترون أى يوم ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فذلك يوم ينادى الله فيه آدم فيناديه ربه فيقول : يا آدم ابعث بعث النار . فيقول : أى رب وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، فَيَئِسَ القوم حتى ما أبدوا بضاحكة ، فلما رأى رسول الله ﷺ الذى بأصحابه قال : « أعملوا وأبشروا ، فوالذى نفس محمد بيده ، إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شىء إلا كثرتاه ، يأجوج ومأجوج ، ومن مات من بنى آدم ، وبنى إبليس قال : فَسُرِّىَ عن القوم بعض الذى يجدون . قال : اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده ، ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعير ، أو كالرقمة فى ذراع الدابة ».

[أخرجه الترمذى برقم [(٣١٦٨) ، ٣١٦٩ واللفظ له وقال حسن صحيح] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٣/ ٢٥٣٤] وأحمد فى المسند (٤/ ٢٣٢ ، ٢٣٥)].

« حثوا المطى » أى حضوها على الجد فى السير . ولخلاف العدد : انظر فتح البارى (١١/ ٣٨٩ - ٣٩٠).

دخول الناس الجنة على هيئة آدم عليه السلام إكراماً له :

من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : « إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على أشد كوكب درى ، فى السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يتمخطون ، ولا يتفلون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة، - أى : بخورهم المسك - وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خُلُق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعاً فى السماء ». [أخرجه البخارى (٣٢٤٥ ، ٣٢٤٦ ، ٣٢٥٤ ، ٣٣٢٧) ، ومسلم برقم (٢٨٣٤)] .

احتجاج آدم وموسى عليهما السلام :

من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « حاجّ موسى آدم عليهما السلام ، فقال له : أنت الذى أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم . قال آدم : يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومنى على أمر قد كتبه الله علىَّ قبل أن يخلقنى ، أو قدّره علىّ قبل أن يخلقنى » ، قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى ».

[أخرجه البخارى برقم (٣٤٠٩ ، ٤٧٣٧ ، ٦٦١٤ ، ٧٢١٥ ، ٧٥١٥ واللفظ له) ، ومسلم (٢٦٥٢)] ، وأحمد فى المسند ٢/ ٢٨٧/ ٣١٤] . =

ومن حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « **قال موسى : يارب، أبونا آدم أخرجنا ونفسه من الجنة . فأراه الله آدم ، فقال : أنت آدم ؟ فقال له آدم : نعم . قال: أنت الذى نفخ الله فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك الأسماء كلها ؟ قال : نعم . قال : فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال له آدم : من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : أنت موسى بنى إسرائيل الذى كلمك الله من وراء الحجاب، فلم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه ؟ قال : نعم قال : فَتَلومُنى على أمر قد سبقَ منَ الله القضاءُ قَبْلى ؟ ، قال رسول الله ﷺ عند ذلك : " فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى** » .

[أخرجه أبو يعلى برقم (٢٤٣) ، وأبو داود فى سننه (٤٧٠٢) وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٩٣٥] ، ومالك فى الموطأ (٢/ ٨٩٨)] .

وهنا لابد لنا أن نورد هذا التوضيح بالنسبة لهذا الحديث والذى سبقه : قال ابن عبد البر: هذا الحديث أصل جسيم لأهل الحق فى إثبات القدر وأن الله قضى أعمال العباد فكل أحد يصير لما قدر له بما سبق فى علم الله ، قال: وليس فيه حجة للجبرية ، وإن كان فى بادىء الرأى يساعدهم.

قلت : قد يسبق إلى الأذهان عند الكثيرين عند الحديث عن القضاء والقدر أن معناهما للإنسان الجبر وفق ما قدر الله وقضى ، فيجعلون من هذا المعنى تكأة فى تبرير الذنوب التى يقترفونها ، فهو حجتهم فى تبرير ما يفعلون ، ويتجاهل هؤلاء أن القدر لا يحتج به على الله ولا على خلق الله، ولو جاز الاحتجاج بالقدر على هذا ، لم يعاقب ظالم لظلمه ولم يقم حد على مذنب ، وفى هذا فساد وإفساد للدنيا والدين.

لقد جاء الأمر للناس ليؤمنوا بالقدر وليس من أجل أن يحتجوا به . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : من لم يؤمن بالقدر فقد ضارع المجوس ، ومن احتج به ضارع المشركين ، ومن أقر بالأمر والقدر ، وطعن فى عدل الله وحكمته كان شبيهاً بإبليس ، فإن الله تعالى ذكر عنه أنه طعن فى حكمته وعارضه برأيه وهواه ، وأنه قال : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ . [الحجر: ٣٩]

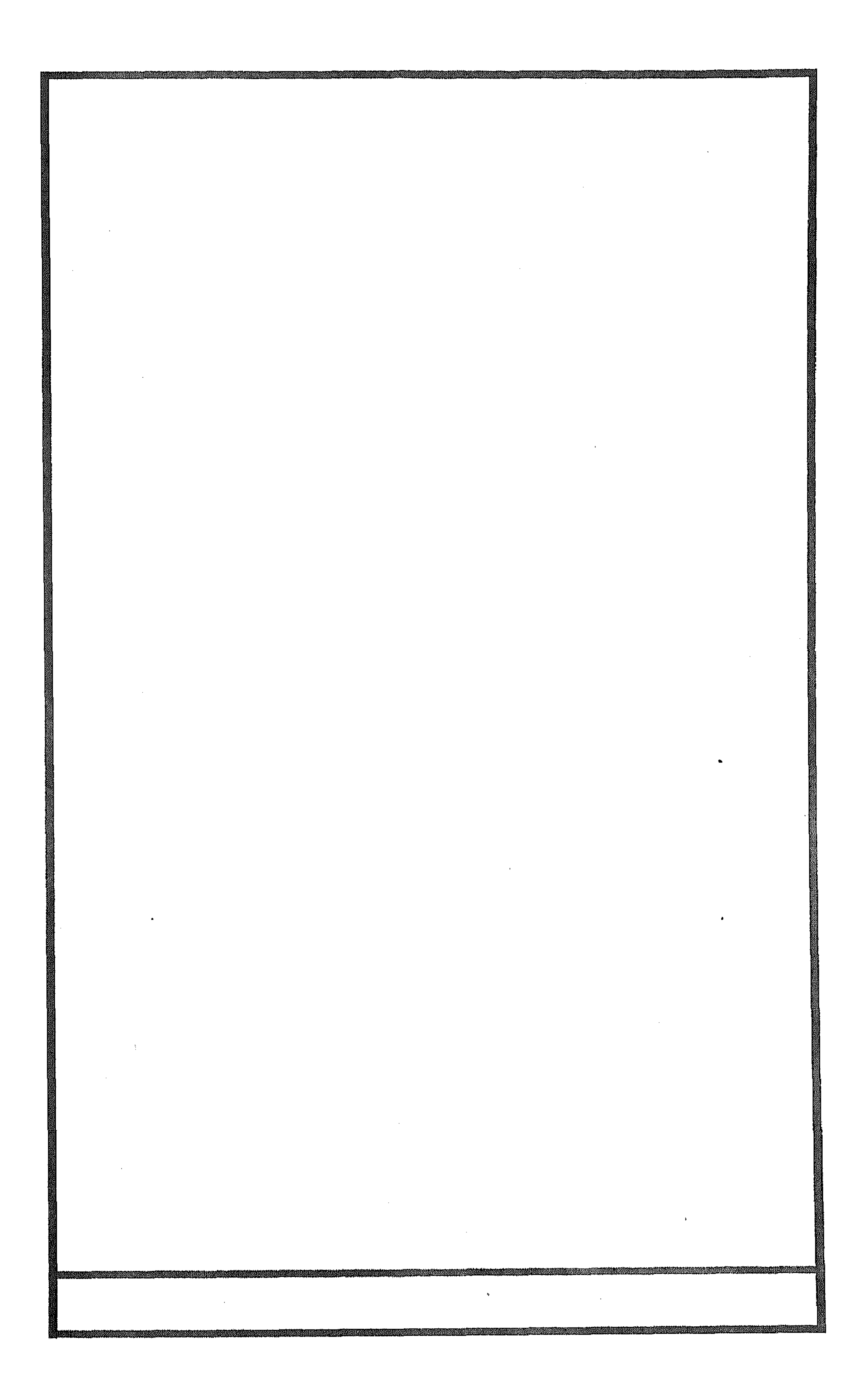
ويظن آخرون أن ما قدره الله وقضاه لابد أن يكون ، فما فائدة العمل إذن، وما جدوى الاجتهاد ؟!

ومثل هذا التساؤل صدر عن الصحابة الكرام ، والرسول ﷺ بين ظهرانيهم، فكان يجيبهم بما فيه هدى للقلوب، وشفاء للنفوس والمتتبع لأحاديث هذا الباب يجدها متفقة على أن القدر السابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال عليه ، وإنما يوجب الجد =

= والاجتهاد ، والأخذ بالأسباب مع التطلع إلى العون من القادر القاهر فوق عباده.
لقد وضح لهم ﷺ أن القدر السابق يجرى على الخليقة بالأسباب ، ولن يصل العبد إلى ما قدر له إلا إذا قام بالأسباب التى مُكن منها وهيئت له ، فإذا ما أتى بها ، دون أن تنازعها أسباب أخرى - وصل إلى القدر الذى سبق له فى أم الكتاب - والإنسان بفطرته حريص على الأسباب التى تقوم بها حياته الدنيوية ، لذلك يقبل على التعرف عليها ، ويجدُّ فى القيام بها بحسب علمه ودرايته ، وبمقدار جهده وطاقته ، فلو أدرك أيضاً أن مصالح آخرته مرتبطة بأسباب توصل إليها ، لكان أشد اجتهاداً فى فعلها منه فى القيام بأسباب دنياه، لأنها تؤدى به إلى نعيم مقيم ، وسعادة لا تنتهى.
وقال المازرى : لما تاب الله على آدم صار ذكر ماصدر منه إنما هو كالبحث عن السبب الذى دعاه إلى ذلك ، فأخبر هو أن الأصل فى ذلك القضاء السابق ، فلذلك غلب بالحجة.
وقد سلك الإمام النووى هذا المسلك فقال : معنى كلام آدم ، أنك يا موسى تعلم أن هذا كتب علىّ قبل أن أخلق فلابد من وقوعه ، ولو حرصت أنا والخلق أجمعون على رد مثقال ذرة منه لم نقدر ، فلا تلمنى فإن اللوم على المخالفة شرعى لا عقلى، وإذا تاب الله علىّ وغفر لى زال اللوم ، فمن لامنى كان محجوباً بالشرع ، فإن قيل فالعاصى اليوم لو قال هذه المعصية قدرت علىّ فينبغى أن يسقط عنى اللوم ، قلنا : الفرق أن هذا العاصى باق فى دار التكليف جارية عليه الأحكام من العقوبة واللوم ، وفى ذلك له ولغيره زجر وعظة ، فأما آدم فميت خارج عن دار التكليف مستغن عن الزجر ، فلم يكن للومه فائدة بل فيه إيذاء وتخجيل فلذلك كان الغلبة له.
وقال ابن القيم : فالنبى ﷺ أرشد الأمة فى القدر إلى أمرين هما سبب السعادة:
١- الإيمان بالأقدار فإنه نظام التوحيد.
٢- والإتيان بالأسباب التى توصل إلى الخير وتحجز عن الشر، وذلك نظام الشرع . .
والنبى ﷺ شديد الحرص على جمع هذين الأمرين لأمته ، وقد قال : « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز » فإن العاجز من لم يتسع للأمرين.
[انظر : مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية (١/٣٤٨ - ٣٥٤) ، «وشفاء العليل» لابن القيم ص (٢٨ - ٤١) ، وفتح البارى (١٣/٣٤٦ ـ ٣٥٣)] .

« تمت بحمد الله قصة آدم »


نبى الله
إدريس
عليه السلام



* نبى الله إدريس عليه السلام *

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٦-٥٧] إدريس عليه السلام هو أول نبى بعد آدم عليه السلام(١)، وهو إدريس ابن برت بن شيث بن آدم، وجاء بعده من الأنبياء نوح ثم الخليل إبراهيم ومنه سلسلة النبوات بعد ذلك عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

والصديق هو الذى يبالغ فى تصديق كل ما يجىء به الحق، ويجعل الله له فرقانًا ، بحيث إذا سمع الحق يصدقه ؛ لأن الكلام إذا كان موافقاً للحق ومن الحق فلا يتصادم معه شيطان فى الدخول على العقل ، فالشيطان يدخل بين الناس ولكن الشىء الوارد من الحق سبحانه لا يستطيع الشيطان أن يدخل فيه.

ومعنى ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ يقصد به مكاناً فى السماء ، أو رفعة معنوية ، أو حسية ؛ لأن الذى خلقه أخبرنا بذلك، فإياك أن تسأل عن ماهية الرفعة لأن هذه رفعة عند مَنْ رَفَعَه سبحانه وتعالى(٢).

---

(١) هذا الأثر رواه ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١/١٦) بسنده عن ابن عباس .

(٢) قال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال : إدريس رفع ولم يمت ، كما رفع عيسى ، عليهما السلام. إسناده صحيح ، رواه الطبرى [١٦/٧٣] وابن أبى شيبة [١١/ ٥٥٠] . وقال سفيان ، عن منصور عن مجاهد : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال : السماء الرابعة. وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ رفع إلى السماء السادسة فمات بها [هذا أثر مظلم لا تقوم به حجة ، إسناده مسلسل بالضعفاء ، رواه الطبرى ١٦/٩٦] ، وهكذا قال الضحاك. والحديث المتفق عليه أنه فى السماء الرابعة أصح، وهو قول مجاهد وغير واحد. وقال الحسن البصرى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: إلى الجنة، وقال قائلون: رفع فى حياة أبيه يرد بن مهلائيل والله أعلم.

وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح بل فى زمان بنى إسرائيل. =

= قال البخارى : ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس، واستأنسوا فى ذلك بما جاء فى حديث الزهرى عن أنس فى الإسراء : أنه لما مر به عليه السلام قال له: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح. قالوا: فلو كان فى عمود نسبه لقال كما قالا له.

وهذا لا يدل ولابد ؛ لأنه قد لا يكون الراوى حفظه جيداً، أو لعله قاله على سبيل الهضم والتواضع، ولم ينتصب له فى مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبى البشر، وإبراهيم الذى هو خليل الرحمن ، وأكبر أولى العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين. [قصص الأنبياء لابن كثير - ص٥٧].

قلت : قد روى الإمام أحمد فى مسنده ، (٤/٤٠٨) والبخارى فى صحيحه (٣٢٠٧) واللفظ له، ومسلم فى صحيحه (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة أن النبى ﷺ التقى بنبى الله إدريس فى السماء الرابعة ليلة الإسراء ، وذلك فى حديث الإسراء الطويل :

قال : « . . . فأتينا السماء الرابعة ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : من معك ؟ قيل : محمد ﷺ . قيل : وقد أُرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبًا به ولنعم المجىء جاء . فأتيت على إدريس فسلمت عليه فقال : مرحبًا بك من أخ ونبى . . » .

ومن حديث أنس بن مالك رضى الله عنه أن نبى الله ﷺ حدث لما عرج به إلى السماء قال: « . . ثم عُرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قال: وقد بُعث إليه ؟ قال: قد بُعث إليه . ففُتح لنا فإذا أنا بإدريس . . » . [البخارى ٧٥١٧ ، ومسلم ١٦٢ واللفظ له] .

قال الماوردى : واختلفوا فى موته على قولين :

أحدهما : أنه ميت فيها ، قاله مقاتل وقيل: إنه مات بين السماء الرابعة والخامسة .

الثانى : أنه حيّ فيها لم يمت مثل عيسى .

روى ابن إسحاق أن إدريس أول من أُعطِى النبوة من ولد آدم وأول من خط بالقلم [قال الحافظ فى الفتح (٧/ ٢١) وفى حديث أبى ذر الطويل الذى صححه ابن حبان أن إدريس كان نبياً رسولاً وأنه أول من خط بالقلم] وهو أخنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن آنوش بن شيث بن آدم . وحكى ابن الأزهر عن وهب بن منبه ، أن إدريس أول من اتخذ السلاح وجاهد فى سبيل الله وسبى ، ولبس الثياب وإنما كانوا يلبسون الجلود، وأول من وضع الأوزان والكيول ، وأقام علم النجوم والله أعلم . [تفسير الماوردى ٣/ ٣٧٨]. =

= وفى كتاب قرة العيون المبصرة ما نصه : قال تعالى ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ . [مريم: ٥٦].

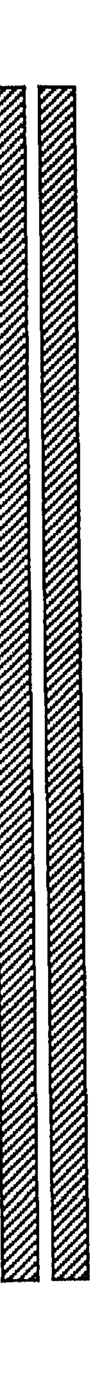
قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : هو أول نبى بُعث بعد آدم ، وكان يصعد له من العمل فى اليوم ما لا يصعد لبنى آدم فى السنة ، فحسده إبليس ، وعصاه قومه ، فرفعه الله مكانًا عليًا ، وأدخله الجنة .

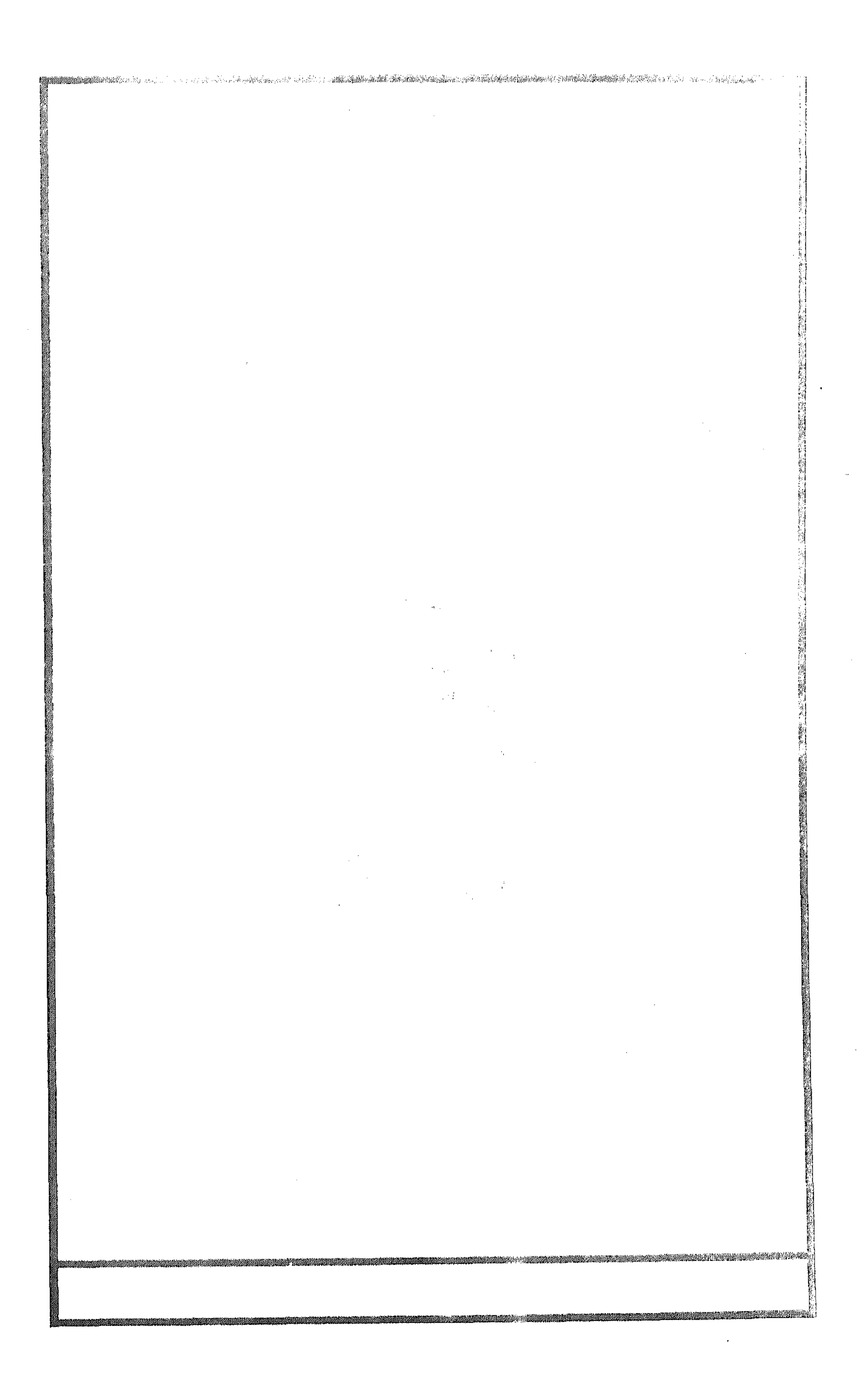
قيل : وهو أول من خط بالقلم ، وخاط الثياب ، ورفع وهو ابن ثلاثمائة وخمس وستين سنة فى السماء الرابعة ، وسبب صعوده إلى السماء أنه كان يصعد له من العمل بمثل ما يصعد لجميع بنى آدم ، فأحبه ملك الموت فاستأذن الله تعالى فى خلته ، فأذن له فهبط إليه فى صورة آدمى ، وكان يصحبه ، فلما عرفه قال : إنى أسألك حاجة . قال : ما هى؟ قال : تذيقنى الموت ، فلعلى أعلم شدته ، فأكون له أشد استعداداً ، فأوحى الله إليه أن اقبض روحه ساعة ، ثم أرسله ففعل ، ثم قال : كيف رأيت ؟ قال : كان أشد مما بلغنى عنه ، وأحب أن ترينى النار ، فحمله فأراه إياها . قال : إنى أحب أن ترينى الجنة فأراه إياها ، فلما دخلها ، وطاف فيها ، قال له ملك الموت : اخرج ، فقال : والله لا أخرج حتى يكون الله عز وجل يخرجنى ، فبعث الله عز وجل ملكاً يحكم بينهما ، فقال ما تقول يا ملك الموت ؟ فقص عليه ما جرى . فقال : ما تقول يا إدريس ؟ قال : إن الله تعالى يقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] . وقد ذقته . وقال : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١] . وقد وردت . وقال لأهل الجنة: ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨] . فوالله لا أخرج حتى يكون الله تعالى يخرجنى ، فسمع هاتفاً من فوقه يقول : بإذنى دخل ، وبإذنى فعل . فخلى سبيله . هذا معنى ما رواه زيد بن أسلم مرفوعا إلى رسول الله ﷺ.

قال علماء السير : وكان إدريس قد وصى قبل رفعه إلى السماء إلى ولده متوشلخ ، وكان ولدًا صالحًا ، وولد لمتوشلخ لـمَك ، وولد للملك نوح عليه السلام . [المجلس الثالث : ١٨، ١٩] .

« تمت قصة إدريس عليه السلام »


نبى الله
نوح
عليه السلام





❄ نبى الله نوح عليه السلام(*) ❄

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود:٢٥] عندما تقرأ اللام فى و﴿ ولَقَدْ ﴾ تعرف أنه قسم. و﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ معناها قول الحق تبارك وتعالى: وعزتى وجلالى لقد أرسلت نوحاً. إذن فاللام للقسم وباقى الآية جواب القسم فى أن الحق قد أرسل نوحاً إلى قومه. على أننا لابد أن نقف عند كلمة: «قوم» فبعض الناس يعتقد أن القوم هم القبيلة أو العشيرة أو أهل البلدة ، نقول: إن القوم هم الرجال خاصة من هؤلاء. والرجال هم المواجَهون بالرسالات السماوية ، والمرأة محتجبة مستترة تسمع إما من أبيها، وإما من أخيها، وإما من زوجها، ولقد احتجت النساء على ذلك فى عهد رسول الله ﷺ وقلن له : «غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من أيامك تعظنا فيه» (١) أى أن الاحتجاج جاء من أن رسول الله ﷺ كان وقتُه كله مع

(*) قال ابن كثير : هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ - وهو إدريس عليه السلام - ابن يرد بن مهلائيل بن قنين بن أنوش بن شيث بن آدم أبى البشر عليه السلام . [قصص الأنبياء لابن كثير : ٥٨] وهو أول الرسل إلى الأرض لقوله ﷺ فى حديث الشفاعة الطويل : « . . . فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض . . . » . [البخارى ٣٣٤٠ ، ٣٣٦١ ، ٤٧١٢ . ومسلم ١٩٤ واللفظ له] .
وكان بين نوح وآدم عليهما السلام عشرة قرون لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . أخرجه الحاكم [٢/٥٤٦] وقال صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه ووافقه الذهبى .

(١) الحديث عن أبى سعيد الخدرى قال: قالت النساء للنبى ﷺ : «غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك ؛ فوعدهن يوماً لقيهُنَّ فيه فوعظهن وأمرهن . .» الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠١) ومسلم فى صحيحه (٢٦٣٣) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٤) واللفظ للبخارى.

الرجال وأن النساء يردن أن يجلسن معه ويسألنه فى أمور دينهن، فجعل لهن يوماً، ولكن المفروض فى المرأة أنها ستر ، وأن الذى ينقل إليها المنهج إما زوجها،وإما أبوها،وإما أخوها، وهؤلاء يسمعون من رسول الله ﷺ ثم يذهب كل واحد منهم لينقل ما سمعه لأهله.

وإذا كان كلُ رسولٍ قد واجه قومه فمعنى ذلك : أنه قد واجه الرجال خاصة من قومه.. لماذا ؟ لأن «القوم» من قائم على كذا، أو قيّم على كذا، وهذا عمل الرجال، ولذلك قال الشاعر العربى:

وَما أَدْرى ولسْتُ أَخالُ أَدْرى ... أَقــومٌ آلُ حِصْـنٍ أَمْ نِسَاءُ

إذن فالقوم المراد بهم الرجال، والقرآن الكريم ينبئ بذلك فى قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات:١١] فكأن النساء لا يدخلن فى القوم والرجال هم الذين يواجهون دعوة الرسل بالمقاومة وبالتصلب ، وبالإنكار والجحود ؛ بل بالحروب.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ . [الأعراف: ٥٩]

نجد فى هذه الآية ثلاثة أحكام:

الأول: فى العقيدة - فى الإله - أنه إله واحد. وما دام إلهاً واحداً يأتى **الحكم الثانى**: وهو أن نعبده؛ لأنه لا إله غيره وهو واجب العبادة.. والعبادة هى أن نطيع أمره ونتنهى عما نهانا عنه ، وإذا لم نفعل ذلك يأتى ......

الحكم الثالث: وهو أننا سنواجَه بعذاب يوم عظيم ، هو عذاب يوم القيامة، أو عذاب يوم عظيم يسبق يوم القيامة، يوم أغرق الله قوم نوح بالطوفان، والخوف: هو شىء مستقبل نخشاه ونخاف أن نلقاه ، فكأن نوحاً

يُنَبّه قومه إلى أن العصيان سيأتى لهم بما يخشونه ومالا يستطيعون دفعه ، وأنه قَلِقٌ عليهم من ذلك ؛ ولذلك فهو يحاول أن ينجيَهم، وهكذا تتحدد الأحكام الثلاثة فى السورة وهى: أنه لا إله إلا الله، وما دام لا إله غيره فهو واجب العبادة، وعبادته تكون فى طاعة ما أَمَر به واجتناب ما نهى عنه، فإن لم نفعل فهناك عذاب عظيم ينتظرنا.

من هذه الأحكام الثلاثة.. مَن الذى يفزع ؟ الذى يفزع هم الطغاة والجبابرة والسادة وأعيان القوم ؛ لأن لهم السيادة، والباقون عبيد يطيعون أوامرهم، فإذا جاء هذا الدين ليساوى بين الناس فى عبادة إله واحد .. الكل عباده، فإنه سيأخذ العروش من تحتهم ؛ لأن الأمر سيكون لله والنهى والخضوع لله، ولا خضوع ولا أمر ولا نهى لعبد من العباد، لذلك فالذى يتصدى للوقوف ضد منهج الله دائماً هم السادة أو المترفون ؛ لذلك فإنهم أولُ مَنْ تصدى لدعوة نوح، وأول من يتصدى لأى دعوة من أى نبيٍ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ والملأ هم سادة قومه وأعيانهم وأشرافهم الذين يملأون العين هيبة، ويملأون القلوب هيبة ويتصدرون المجالس، هؤلاء خافوا على هيبتهم وعلى سلطانهم فماذا يفعلون؟ قلبوا الميزان وقالوا عن منهج الحق إنه ﴿ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ ، أى غيبة عن الحق، و ﴿مُّبِينٍ﴾ أى محيط بحيث لا تستطيع أن تبتعد ولا أن تُفلت منه.

ماذا قال نوح عليه السلام لقومه ؟ يخبرنا الحق سبحانه وتعالى أنه قال لهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ﴾ [الأعراف:٦١] ولكن هؤلاء الحكام الذين واجهوا دعوة الحق من أولها بالمقاومة قالوا:﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ وكان الرد يقتضى أن يقول نوح: أنا لست فى ضلال، ولكنه قال: ﴿لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ﴾ فلماذا استخدم الحق سبحانه وتعالى ﴿ضَلالَةٌ﴾ بدلاً من «ضلال».

حدث ذلك حتى نعرف أن كل حرف من القرآن يأتى على قدر المعنى تماماً، وأن هذا كلام الله وليس كلام بشر . هم يقولون لنوح: أنت ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ، فيرد عليهم : ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ .. لماذا؟ لأن الضلال يشمل ضلالات كثيرة، ولكن نوحاً لا يريد أن يَنفى عن نفسه الضلال فقط ، بل يقول: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أى ليس عندى ضلالة واحدة ، وهكذا نَفَى مجرد وجود ضلالة واحدة عنده، ونَفْيُ الأقل يعنى نَفْيَ الأكثر، كما تأتى لإنسان وتقول له: هل لديك تمر من تمر المدينة؟ فإذا قال لك: ليس عندى من تمر المدينة؟ فقد يكون عنده تمرة أو اثنتان أو ثلاث، ولكن: ليس عندى ولا تمرة واحدة، أى ليس عنده ولا تمرة واحدة من التمر، وبهذا يكون الأقل قد نفى الأكثر.

ولكن لماذا جاء هذا النفى القاطع فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ لأن منهج الله لم يأت به نوح من عنده، فنقول: إنه غلبه الهوى ولو فى ضلالة واحدة أو أن هناك شيئاً غاب عنه،ولكن المنهج جاء من عند الله سبحانه وتعالى، وما دام نوح هو الرسول المبلغ ، والله سبحانه وتعالى هو صاحب المنهج ، وما دام المنهج من عند الله فلا يمكن أن تكون فيه ضلالة واحدة ولا شبهة ضلالة ؛ ولذلك يأتى نوح عليه السلام بحيثيات أن ما يبلغه للناس من منهج ليس به ضلالة واحدة فيقول : ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦١ ـ ٦٢]
وهكذا جاءت الحيثية من أن المنهج الذى بلغه نوح لقومه ليس فيه ضلالة واحدة ولا شبهة ضلالة ؛ لأن نوحاً رسول وما دام رسولاً فهو مبلغ عن الله، والله منهجه هو الهدى، ونوح ليس رسولاً من ملك أو حاكم أو عظيم، ولكنه رسول من رب العالمين أى من سيد العالمين، أى من الذى خلق .. الذى خلق لكل خلقه مقومات الحياة.

ذلك أن كل نعم الحياة التى تحفظ للإنسان حياته على الأرض من ماء وهواء وشمس وقمر وزرع كلها من الله سبحانه وتعالى، ولا يستطيع مخلوق مهما بلغ شأنه أن يدّعى مجرد ادعاء أنه هو الذى خلق هذه النعم، وهذه النعم التى وضعها الله فى الأرض هى عطاء ربوبية، أى عطايا لكل خلق الله المؤمن منهم والكافر [1]، فالشمس لا تفرق فى أشعتها بين مؤمن وكافر والأرض تنفعل لمن يزرعها.. آمن بالله أم جحد وجوده ؛ وما دام الله قد أوجد هذه النعم وسخَّر كل هذا الكون لخدمة الإنسان فقد وضع له منهجاً ليصلح حياته فى الأرض ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق السماوات والأرض وأمدَّ الناس بأرزاقهم حتى الكافرين منهم لم يكن ليضع منهجاً إلا ليصلح حياة الإنسان الذى خلقه وجعل كل هذا الكون فى خدمته.

فكأن نوحاً عليه السلام بعد أن نفى أن هناك شبهة ضلالة فيما يقول قال : إن هذا الكلام ليس من عندى ولكنه من عند الله وما أنا إلا مبلغ، وذلك فى قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ والبلاغ هو إنهاء الأمر إلى صاحبه ، بلغت المكان الفلانى أى انتهيت إليه ، والبلاغة : هى النهاية فى أداء العبارة الجميلة ، ومعنى ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ أى أنهى إليكم ما حملنى الحق

(١) قال الله تعالى : ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ وقوله : ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ﴾ يعنى الكافرين الذين أرادوا الدنيا وبعدوا عن منهج الله ، والمؤمنين الذين أرادوا الآخرة وسعوا لها سعيها ، فلم يمنع الكافرين لكفرهم ، ولم يعطِ المؤمنين لإيمانهم.

وفى الحديث : «... وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ...» ، جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد [١/ ٣٨٧] عن ابن مسعود وضعفه الشيخ شاكر . وعن سهل بن سعد رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» أخرجه الترمذى [٢٣٢٠] وقال صحيح غريب ، وابن ماجه [٤١١٠] وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه رقم [٣٣١٨] ، وذكره فى الصحيحة (٦٨٦) .

سبحانه وتعالى من منهج هداية لحركة حياتكم، ولكن ألم يكن يكفى أن يقول نوح: رسالة ربى، بدلاً من أن يقول : ﴿رِسَالاتِ رَبِّي﴾ نقول : إن كل رسول من الرسل يأتى بمنهج يكون فى الأمور الثابتة محتوياً على منهج الرسل الذين سبقوه ؛ حتى لا يقال إن رسولاً جاء ليناقض رسالة رسول قبله، فالذى قاله آدم هو الذى قاله نوح ، هو الذى قاله شيث ، هو الذى قاله إدريس عن وحدانية الله وأنه لا إله إلا هو الواجب العبادة فى هذا الكون.

فمعنى قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي﴾ أن ما جعله الله منهجاً لأهل الأرض من الأمور الثابتة المستقرة سواء جاءت على لسان من سبقوا فى الرسالات، أو ستأتى على لسان الأنبياء الذين سيُرسلون بعد ذلك ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣] إذن ففى الأمور المستقرة الثابتة، والأحكام التى لا تتغير رسالات الله كلها واحدة، أو أن يكون معنى﴿رِسَالاتِ رَبِّي﴾ أنه يتلقى كل يوم رسالة من الله، وكلما جاءت رسالة بلغها إلى قومه ؛ لأنه لو قال رسالة ربى لكان من اللازم : إما أن تنزل الرسالة عليه مرة واحدة فى وقت واحد، وإما أن يبقيها عنده ولا يبلغها للناس إلا إذا اكتملت ، ولكن كلما نزل إلى نوح شىء من الله يقوم بإبلاغه فيكون كل بلاغ عن الله رسالة، وإما لأن موضوع الرسالات أمر يتشعب بقدر ما تحتاجه الحياة من مصالح، وهناك رسالة أوامر، ورسالة نواه، ورسالة للوعظ، وما تحتاج إليه الحياة من مصالح، وهناك رسالة للإنذار، ورسالة للقصص .. وهكذا تتعدد رسالات الله.

ولذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي﴾ ليشمل

كل هذه المعانى. أما قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ فذلك استكمال لبلاغ كل رسول ، فالبلاغ يقتضى أن يبلغ الرسول قومه بمنهج الله والمطلوب منهم ، ثم بعد ذلك ينصحهم أن يعملوا بهذا المنهج ؛ لينالوا رضا الله وينجوا من عذابه، فلابد بعد البلاغ من النصح، وإن كان النصح خارجاً عن معنى البلاغ ؛ لأن البلاغ معناه أن يبلغ رسالة الله وينتهى كل شىء، ولكن الرسول يظل يُرغِّب قومه فى المنهج ويحببه إليهم ويطلب منهم أن يتبعوه ويترفق معهم فى الكلام، والنصح: هو أن تبين للإنسان المصلحة فى العمل وتبين نيتك أمامه بأنها نية حسنة، وعندما تنصح إنساناً بأن يفعل كذا، فإنك إما أن تنصحه بعمل يعود نفعه عليك أو يعود النفع عليه هو، فإذا كانت النصيحة بأمر يعود نفعه عليك فهى لا تخلو من الغرض، وإذا كانت النصيحة فى أمر يعود عليه هو بالنفع، ففى هذه الحالة تكون نصيحة خالصة بنية صادقة، ولذلك لم يقل الحق أنصحكم، ولكن قال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ ؛ ليبين أن هذه النصيحة هى لصالح القوم، وأن الرسول لا يستفيد منها شيئاً، فما دام قد بلَّغ فهو قد أدى الأمانة، ولكن النصيحة زيادة فى هداية الناس إلى الطريق المستقيم وترغيبهم فيه.

ثم يبين الحق حيثيات النصح فيقول: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ .

أى أن نوحاً يقول لقومه: إننى أعلم من الله أشياء لا تعلمونها أنتم ، ولذلك فخوفى عليكم مما ينتظركم من الله لأنكم كفرتم بآياته قد جعلنى أنصحكم، ليست نصيحة أداء واجب، ولكنها نصيحة مَنْ يعلم مما علمه الله ، أى أن هذا العلم الذى علمه الرسول ليس علماً من إنسان حتى يكون مشكوكاً فى أنه قد يحدث أو قد لا يحدث، أو يكون قابلاً للصدق والكذب، أو يكون علماً غير مؤكد الحدوث، ولكن هذا علم يقينى من الله سبحانه وتعالى. وكثير من الناس يعتقد أن العلم الذى تبلغه الرسل هو كل ما أعلمهم به الله، ولكننا نقول : إن العلم الذى تبلغه الرسل للناس ليس هو كل علم الله ،

ولا هو كل ما علمه الله للرسل ، فهناك أشياء يخص الله سبحانه وتعالى بها رسله ويريهم ما يثبتهم ، وأن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ مقصود به : أن الله أعلم نوحاً بالطوفان الذى سيأخذ به الكفار والمكذبين من قومه ، وأن فى هذه الآية إشارة إلى ذلك.

ثم يقول الحق: ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الأعراف:٦٣] والحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ ﴾ وكان يمكن أن يقول أعجبتم باستخدام همزة الاستفهام، ولكن استخدام واو العطف معناه: أن هناك عطفاً على جملة قادمة، فلو استخدمت همزة الاستفهام لكان السياق يقتضى أن يقال: أكذبتم به وعجبتم من أن الله قد أنزل ذِكْراً على رجل منكم ، إذن فاستخدام الواو للعطف جاء أولاً، فالواو للعطف والهمزة للاستفهام، وقوله سبحانه : ﴿ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ نحن نعرف أن الذكر والتذكر ضد النسيان، وأن الشىء يكون على البال أو على اللسان فيذكره الإنسان ، أو يتجاوز بالى ولسانى فأنساه، ولكن الذكر فى القرآن له معان كثيرة، وعلى قمة هذه المعانى أن الذكر يراد به القرآن، وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران:٥٨] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] وقوله جل جلاله: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر:٦] .

إذن فالذكر يطلق ويراد به القرآن، ويطلق أيضاً فيراد به الشهرة والشرف العظيم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ لأن نزول القرآن على العرب شرف عظيم، وفضل القرآن ومعجزاته تظل تظهر حتى يوم القيامة، وبفضل القرآن عُرِف العرب فى العالم كله، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء:١٠] أى فيه شرفكم، فيه علوكم. ولذلك عندما يأتى الإسلام ويسوى بين الناس

وينزع القوميات ويؤاخى بين الجنسيات فى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] وهكذا محا القرآن القوميات وأصبح لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، ولكنه فى نفس الوقت أعطى شرفاً للعرب ؛ لأن القرآن نزل باللغة العربية، وسيظل باللغة العربية، إلا أن الشرف يأتى من انتساب هؤلاء الناس للأمة التى نزل فيها القرآن واللغة التى نزل بها القرآن.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١] فالقرآن مذكور دائماً، وشرفه دائم، وذِكره عالٍ فى الكون، ولذلك تعجب حين تجد بعض الذين لا يؤمنون بالقرآن ولا يؤمنون بالله مُسَخَّرين لحفظ هذا القرآن بشكل جميل جذاب، فنجدهم يتفننون فى طبع القرآن فى صفحة واحدة وعلى ورق فاخر، وهؤلاء لم يصنعوها فى كتبهم، ولكنهم صنعوها للقرآن ليعلو ذكره، وتجد أن الناس يسهون عن المنهج وينسونه ولكن القرآن لا؛ فتجد النساء يحملن آيات من القرآن فى سلاسل ذهبية، والرجل الذى لا يصلى حريص كل الحرص على أن يضع المصحف فى سيارته، وتجد أن القرآن مسجل على آلات تسجيل صنعها من لا يؤمن بالقرآن، ويدخل فى العقول الإلكترونية التى صنعها غير المسلمين، ويطبع فى اليابان وألمانيا وإيطاليا طباعة جميلة من غير المؤمنين به. . أليس هذا ذِكراً؟.

ويطلق الذكر أيضاً على ما أنزل على جميع الرسل. الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء:١-٢] ويقول جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء:٤٨] ويقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥] ويكون المراد بالذكر فى هذه الآيات: كل ما نزل

على الرسل من منهج الله ، ومرة يطلق الذكر ويراد به الاعتبار والتذكير والتذكر، وذلك فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] والمراد فى هذه الآيات بالذكر الاعتبار والتذكر وتثبيت منهج الله.

ومرة يراد بالذكر التسبيح والتحميد فى قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ [النور:٣٦-٣٧] والذكر هنا معناه التسبيح والتحميد، ومرة يطلق الذكر ويراد منه خير الله على عباده وذكر عباده له بالطاعة، فكأن الله يذكر عباده بالخير وهم يذكرونه بالطاعة، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥] إذن فهناك ذكر أقل من ذلك، فما هو الذكر الأقل؟ ذكر الله هو الأكبر، والذكر الأقل هو ذكر العباد لربهم بالطاعة، فالعباد يذكرون ربهم بالطاعة، والله يذكر عباده بالخير[1].

---

(١) يقول ابن القيم : قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

قيل : المعنى : أنكم فى الصلاة تذكرون الله وهو ذاكر من ذكره ، ولذكر الله - تعالى - إياكم أكبر من ذكركم إياه. وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبى الدرداء وابن مسعود، رضى الله عنهم.

وذكر ابن أبى الدنيا ، عن فضل بن مرزوق، عن عطية: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ، قال: هو قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ فذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه.

وقال ابن زيد وقتادة : معناه : ولذكر الله أكبر من كل شيء. =

هذه هى أنواع الذكر التى وردت فى القرآن الكريم، فإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ فأى معانى الذكر فيها وجه العجب؟ إن العجب هو إظهار الدهشة من حدوث شئ على غير ما تقتضيه مقدمات الأمور ، حينئذ تتعجب كيف حدث هذا؟ ولكن إذا كانت الأمور تسير بطريقة رتيبة، المقدمات تدل على النتائج، فلا توجد دهشة ولا يوجد عجب، وفى ذلك قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ . ما وجه العجب هنا؟ إن الله قد أرسل إلى القوم منذراً أى رسولاً من جنسهم. . ووجه العجب هنا أنهم كانوا يريدونه ملكا، ولكن ما هو الذى تعجبوا منه فى هذه الآية. . أن الرسول قد جاء ليبلغهم بأن هناك إلهاً واحداً واجب العبودية هو الله سبحانه وتعالى، وليس هذا أمراً عجيباً لأن الإنسان

= وقيل لسلمان :أى الأعمال أفضل؟. فقال: أما تقرأ القرآن: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ، ويشهد لهذا حديث أبى الدرداء رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : الا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الورق والذهب، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟. فقالوا: بلى يا رسول الله. قال: اذكروا الله. [أخرجه الترمذى (٣٣٧٧) وابن ماجه (٣٧٩٠) كلاهما من حديث أبى الدرداء وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى وابن ماجه] . وقال الحاكم فى مستدركه [١/ ٤٩٦]: صحيح الإسناد . وكان شيخ الإسلام أبو العباس قدس الله روحه يقول : الصحيح أن معنى الآية: أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، أحدهما أعظم من الآخر: فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى مشتملة على ذكر الله تعالى، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وذكر ابن أبى الدنيا عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل: أى العمل أفضل؟. قال: ذكر الله أكبر.

وفى السنن عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله تعالى. [أخرجه أحمد (٦/ ٦٤) وأبو داود (١٨٨٨) والترمذى (٩٠٢) وقال حسن صحيح . وقد ضعفه الألبانى فى ضعيفى الترمذى وأبى داود . وصححه الحاكم (١/ ٤٥٩) ووافقه الذهبى.

[كتاب الوابل الصيب- فوائد الذكر- الفائدة الخامسة والخمسون].

إذا تأمل فى الكون ورأى هذه الهندسة البديعة الحكيمة البالغة الدقة التى لم يُوجِدها الإنسان، وإنما وُجِدَ الإنسان ليجدها موجودة قبله وتخدمه، كان لابد أن يلفته هذا ليبحث عمن صنع هذا الكون البديع البالغ الدقة فى الصنع، فإذا جاء لهم رسول ليخبرهم بأن الله الذى خلق الكون بكل أجناسه، وسخر كل الأجناس لخدمة الإنسان، فأجناس الكون هى الجماد والنبات والحيوان والإنسان، الجماد يخدم النبات والحيوان والإنسان، والنبات يخدم الحيوان والإنسان، والحيوان يخدم الإنسان.

إذن فكل ما فى الكون مُسَخَّر لخدمة الإنسان، وكل ما فى الكون لم يُوجِده بشر، ولكنه خُلق أولاً ثم بعد ذلك خُلق الإنسان، كان يجب حينئذ أن يتنبه العقل لكى يبحث عن خالق كل هذه النعم، فإذا جاء رسول وقال : إن الله هو الذى خلق، فكان لابد للناس أن يرحبوا بهذا الرسول ويصدقوه ، ويؤمنوا بما يقول ؛ لأنه قد أعطاهم علماً لا يستطيعون الوصول إليه بعقولهم، وقد أفهمهم عن الكون شيئاً كانت عقولهم لابد أن تبحث عنه، ولكنهم بدلاً من أن يصدقوا الرسول ويؤمنوا برسالة الله ، إذا هم يتعجبون .. وما وجه العجب؟ لقد قلنا سابقاً إنه إذا سقطت طائرة بإنسان فى مكان ليس فيه من وسائل الحياة شئ فى صحراء جرداء، وجاع الإنسان فلم يجد طعاماً، وعطش فلم يجد ماء، وتعب فنام ثم استيقظ من النوم ليجد أمامه مائدة عليها أطايب الطعام والشراب، أفكان يأكل قبل أن يتساءل من الذى أحضر له هذه المائدة، فكأن هؤلاء الكفار يتعجبون من شئ الفطرة تقتضى وجوده.

فإذا عرفنا الله ، وعرفنا أن له منهجاً قد أنزله من السماء، فلابد أن نعرف أن هذا المنهج لفائدتنا، والله غنى عن العالمين. الله لا ينتفع بطاعتنا ولا بعبادتنا ولذلك فإن العبادة تعود علينا نحن بالخير، ولا تزيد فى ملك الله شيئاً . وإذا كانت العبادة فيها مشقات فى أنها تُقَيِّد الشهوات. إذن فمنهج الله فى نظر بعض الناس مشقة ومتاعب، هنا يبرز بعض الذين يضلهم الشيطان ليقولوا :

إننا سنحكم عقولنا، سنفعل ما نراه حسناً وما نراه سيئاً لن نفعله، وما لا نعرف إذا كان حسنة أو سيئة لا نفعله إلا مضطرين . نقول : إننا سنتجاوب معك فى منطقك الذى تدعيه، أنت تقول أن ما تراه حسناً ستفعله ولكنك لم تقل حسناً لمن. . لك أم لعدوك. . الحسن لك قد يكون سيئاً لعدوك، بل الحسن لك قد يكون سيئا لغيرك، فلنفرض أننا نملك قطعة قماش تكفى لشخص واحد، الحسن فى نظرى : أن آخذها أنا لنفسى، والسئ : أن يأخذها غيرى لنفسه ولا يعطينى شيئاً. إذن: اختلفت وجهات النظر باختلاف الأهواء وأصبحت هناك مشكلة لابد أن يُفصل فيها، مَنْ الذى يَفْصِل فى هذه المشكلة ويعطى كلَ ذى حقٍ حقَّه ولا يظلم أحدًا ، لابد أن نبحث عمن نتساوى عنده جميعاً ، فلا يُفَضِّل أحداً منا على الآخر ؛ لأنه قريبه أو صديقه أو شريكه أو له عنده مصلحة أو يميل إليه، ولا يتوافر هذا كله إلا فى الله سبحانه وتعالى فهو غنى عنا جميعاً. ولذلك لا يحابى أحدنا على حساب الآخر، ونحن أمامه سواء ؛ لأنه ربنا جميعاً وخَلَقَنا جميعًا، ليس له صاحبة ولا ولد، ولذلك فلا هوى له.

إذن فلابد من منهج الله يعصمنا من أهوائنا حتى لا تصطدم رغباتنا ويحدث الصراع والظلم فى الدنيا. نحن مثلاً : إذا كنا فى مدينة وكان فيها قصر جميل، كل واحد منا يريد أن يملكه، وكل واحد منا حَسَنٌ عنده أن يأخذ هذا القصر وقبيح عنده أن يملكه غيره. إذا كانت هناك امرأة ما قد أستحسنت أن أنظر إليها أو أستمتع بها. هذا حسن فى نظرى، ولكن هل هو حسن عند أهلها وأبيها وأخيها. هنا لابد أن يتدخل منهج الله ليفصل بالحق والعدل بين الناس، فالحق سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿**أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ**﴾ فما هو الداعى إلى التعجب، إن التعجب كان يجب أن يأتى إذا لم يأتِ لكم منهج من الله ينظم حركة حياتكم، حينئذ كان يجب أن تتعجبوا لأن خالق الكون هو القادر وحده على

أن يضع منهجاً فيه العدل بين كل خلقه، أم أن هذا العجب جاء لأن هذا الذكر نزل على رجل منكم.. الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ ولم يقل على لسان رجل.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران:١٩٤] كأن منهج الله مهمة صعبة يحملها رسله، ومشاق تبليغ المنهج لا تقف عند البلاغ بلسان الرسول، ولكن متاعب حمل الرسالة ومشاقها تشمل كل حياة الرسول ، والله حينما يختار رسولاً يختاره لمهمة شاقة متعبة، فكل الرسل عاشوا على الكفاف، وكل الرسل كانت حياتهم بعيدة عن أى نوع من أنواع الترف والرفاهية ، ولذلك لم يقل الحق على لسان رجل منكم، لأن المسألة ليست بلاغاً باللسان ولكنها دعوة تشمل حياة الرسول كلها فى كل لحظة من عمره.

على أن السؤال ما زال قائماً.. لماذا العجب؟ إذا كان التعجب من أن الله قد أبلغكم بمنهجه، فكان ذلك شيئاً لابد أن يحدث لتستقيم الأمور فى الكون. ولو أن الله لم ينزل منهجاً لطلب الناس منهجاً من الله يحقق العدل بينهم، وإذا كان العجب من أن هذا الرسول وهو رجل منكم، فلا مكان للعجب هنا، لأنه كرجل عاش معكم تعرفونه وتعرفون خلقه، وهل هو يكذب أو أنه صادق فى كل ما يقول، وكونه رجلاً منكم كان أدعى لأن ترحبوا به، وماذا كنتم تريدون؟ أن يرسل الله ملكاً. الملك له قدرات غير قدرات البشر، وفى هذه الحالة كنتم ستقولون: لا نستطيع أن نطبق المنهج لأنه نزل على من له قدرات فوق قدراتنا ، ثم كيف سترون هذا الملك وهو غيب عنكم؟، والبلاغ عن الله لابد أن تحدث فيه مواجهة.. أن ترى المبلغ ويكلمك، فإذا كان ملكاً فلن تراه إلا إذا تشكّل بشكل رجل ، كما كان جبريل عليه السلام يتشكل فى بعض الأحيان فى شكل رجل[1].

---

(١) جاء هذا فى حديث جبريل المشهور عن عمر بن الخطاب أنه قال : «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب. شديد سواد الشعر.»=

ولذلك فإذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٤] نقول : إن قول هؤلاء الناس فيه غباء ؛ لأن كون الرسول بشر فإن ذلك أدعى للتصديق والإيمان، فالرسول بشر منكم تعرفون ماضيه قبل أن يُكَلَّفَ بالرسالة، فلو كان له انحرافات قبل أن يكلف بالرسالة لما جرؤ أن ينهاكم عن شئ يستحله لنفسه ؛ ولذلك فلابد أن يكون الرسول معروفاً بالاستقامة والسلوك الحسن عند قومه قبل أن يكلف بالرسالة، فإذا كان لم يكذب فى أمور الدنيا، ولم يكذب على خلق الله ، أيكذب على الله ؟!، ثم الرسول قدوة، فهو مطبق للمنهج بقدرات البشر حتى لا يدعى أحد أن المنهج فوق طاقة البشر، وأن الله كلفنا فوق ما نطيق.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إذن فمهمة الرسول ثلاث مراحل:

الإنذار : وهو إخبار بما هو قادم حتى تستعد له. والبشارة: وهى إخبار بشئ سارٍ لم يأتِ زمنه بعدُ ، حتى يجند الإنسان كل قوته ، لكى يحصل على هذا الشئ السار الذى بشر به الرسول . أى أن مهمة الرسول أن ينبهنا لنتقى الشر ونأخذ الخير، ثم بعد ذلك يرشدنا إلى التقوى التى تؤدى بنا إلى الرحمة. إذن فهناك إنذار يؤدى إلى التقوى . . وتقوى تؤدى إلى الرحمة.

إذن قوله الحق: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قلنا: إن التعجب هنا مردود ؛ لأن فطرة الإيمان تقتضى أن تكون هناك رسالة من السماء تبين للناس منهج الحياة فى

= وفى نهايته قال ﷺ: « . . . فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ». أخرجه مسلم فى صحيحه (٨) وأحمد فى مسنده (١/ ٥٣).

الأرض، فهذا هو المنهج الوحيد الذى يقوم على العدل، والرسول لابد أن يكون بشراً ومن قومه حتى يكون قدوة لهم ويكون معروفاً لهم قبل النبوة بأنه على خلق كريم أمين لا يكذب على الناس. ذلك ليكونوا واثقين أن من لا يكذب على الناس لا يكذب على الله ، الكفار حين فوجئوا بأن حججهم كلها مردود عليها قالوا : إن كان لابد من وجود رسول بشر، فلماذا لا يكون من أهل الجاه والثراء وأصحاب النفوذ.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] ونسوا أن كل صاحب نفوذ وسلطان يريد أن يتميز على غيره من خلق الله ، وأنه لو كان النبى من أصحاب الجاه والنفوذ والسلطان، فإنه سينحاز إلى الفئة التى ينتمى إليها، فلم يوجد تشريع من الله تبعه أصحاب النفوذ ودعوا إليه، بل على العكس قاوموه؛ لأنه يمحو تميزهم ويساوى بين الناس، على أن تمنيهم أن ينزل القرآن على رجل عظيم اعتراف منهم بصدق القرآن، والمسألة كلها فى شخص النبى وليست فى المنهج، ولكن القرآن لا يشرف بأحد عظيماً كان أو غير عظيم، فهل القرآن يشرف بمحمد، عليه الصلاة والسلام، أم محمد يشرف بالقرآن؟ محمد يشرف بالقرآن ، ولكن أول من يتبع الدين ويؤمن بمنهج الله أولئك الضعفاء المظلومون الذين يرون فى هذا المنهج عدلاً يعيد إليهم حقوقهم ويرفع الظلم عنهم.

ولذلك نجد فى قصة نوح، عليه السلام، قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود:٢٧] نقول: إن عظمة الدين تكمن فى هذه النقطة بالذات ؛ لأنه لو انتصر دين الله بأصحاب النفوذ والجاه والسلطان لقالوا: اعتمد الدين على نفوذ الدنيا، ولو كان الدين قد نزل على هؤلاء الذين لهم

النفوذ والسلطان فى الأرض لاعتنق الناس الدين نفاقاً وتقرباً لأصحاب النفوذ وليس تقرباً لله ، ولكان الدين قد اتّبع نفوذ هؤلاء الناس، فإذا زاد نفوذهم ضاع دين الله فى الأرض، ولكن الحق لا يريد نفوذ الدنيا، ولكنه يريد قلوباً يملؤها الإيمان، قلوباً تتحمل المشقة لأنها تحب الله ، قلوباً تتحمل الاضطهاد والإيذاء طلباً لرضا الله ، قلوباً لا تطلب جاه الدنيا، ولكنها تطلب جنة الله فى الآخرة، وهذا لا يتأتى أبداً من الذى يؤمن بدين الله نفاقاً وطمعاً فى أن يكونوا قريبين من أصحاب النفوذ والجاه، ولا يتم مراد الله إلا إذا كان الإيمان بالله ولله دون غرض دنيوى. وقلنا إن مهمة الرسول ثلاث مراحل: فهو ينذر. . هذه هى المرحلة الأولى، والنفوس تتقى، هذه هى المرحلة الثانية، والتقوى تأتى برحمة الله فى الدنيا والآخرة، هذه هى المرحلة الثالثة.

ولكن قوم نوح لم يعجبهم المنهج، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الأعراف:٦٤] والحق لم يتكلم فى هذه الآية عن مراحل الإنجاء وكيف أن نوحاً تعلم النجارة وصنع السفينة ، وكيف أن قومه كانوا يَسْخَرُون منه وهو يصنع السفينة، والحق يقول: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود:٣٨] ثم الطوفان الذى حدث فى قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١١-١٢] كل هذا لم يأت فى هذه السورة وإن كان قد جاء فى سُوَر أخرى، ولكن الحق قفز بنا إلى النتيجة مرة واحدة فى قوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وكان هذا الإغراق هو أول عقوبة حدثت فى تاريخ الديانات فى العالم. ذلك أن نوحاً كان أول رسول تعرض لمثل هذا التكذيب والعناء، ولقد كان الله فى أول مراحل النبوة هو الذى يتولى تأديب الكافرين ، كان الرسل عليهم البلاغ فقط ، وليس عليهم أن يدخلوا فى أى نوع من التأديب كالحروب مثلاً أو غيرها، ولكن عندما

أرسل الله محمداً ﷺ كانت الإنسانية تكاد تبلغ رشدها، وعهد الله إلى أتباع محمد ﷺ أن يقوموا بنشر رسالة الله .

والحق فى قوله : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ لم يخبرنا فى الآية من ماذا أنجى نوحاً ولا كيف أغرق الكافرين بالطوفان، ولكن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ وهكذا أعطانا حيثية الإغراق، ولكن ما معنى ﴿عَمِينَ﴾ هناك أعمى وهناك عمى، فأعمى للبصر، وعمى للبصيرة، أى أنهم كانوا قوماً قد عميت بصيرتهم فلم يروا الحق رغم طول المدة التى قضاها نوح بينهم، يعظهم ويدعوهم إلى منهج الله .

* عناد قوم نوح وتكذيبهم للمرسلين *

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِين إِذ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُم نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٠٥-١٠٦] والقوم كلمة تطلق على الرجال ؛ لأنهم هم الذين يقومون بمصالح حركة الحياة، فالقوم غير النساء، ولذلك قلنا سابقاً: إن الله تعالى عندما أخبر آدم عليه السلام بأن الشيطان عدو له ولزوجته، فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه:١١٧] كان السياق يقتضى أن يقول: فلا يخرجنكما من الجنة فتشقيا ولكنه قال: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه:١١٧] لأن الرجل هو الذى يتعب ويشقى فى حركة الحياة، والإسلام كرَّم المرأة وأراحها من شقاء حركة الحياة وجعل لهما مهمة أخرى غير الشقاء !!

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَت قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِين﴾ قوم نوح كذَّبوا نوحاً فقط، فلماذا قال إنهم كذَّبوا المرسلين؟ قالوا: لأن رسل الله إنما جاءوا بأصول ثابتة تتصل بالعقيدة والأخلاق لا تتغير من رسول إلى رسول، فالأخلاق والعقائد وأصول الأحكام كلها أمور ثابتة، فمن كذَّب رسولاً، فقد كذَّب كل الرسل. ولذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥] والاختلاف فى مناهج الرسل هو اختلاف فى التشريعات التى تقتضيها تطورات المجتمعات، لكن العقائد والأخلاق وأصول الأحكام أمور ثابتة لا تتغير، فالذى يُكذِّب رسولا فى هذه الأشياء كأنه كذَّب كل الرسل.

وكلمة ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ معناها أنه واحد منهم ليس غريبًا عنهم، فهم

يعرفون نشأته وسلوكه وأخلاقه.

ولذلك الرسول ﷺ حينما قال: إنى رسولٌ ، فهناك أناس آمنوا به وصدَّقوه ؛ لأنهم كانوا يعرفون أخلاقه، ولم يجربوا عليه كذبًا. فمثلا السيدة خديجة رضى الله عنها آمنت به وصدَّقته، وكذلك أبو بكر وعليّ رضوان الله عليهما، كلهم آمنوا به قبل أن يسمعوا منه القرآن الكريم، فقد آمنوا به ؛ لأنهم أخذوا من تاريخه الذى يعرفونه قبل إعلان الرسالة، أنه لا يمكن أن يكذب على الله ؛ لأنه ما كذب على الخلق، فكيف يكذب على الخالق؟! ولذلك فإن السيدة خديجة رضوان الله عليها تعتبر أولَ فقيهةٍ فى الإسلام وعالمةَ أصولٍ ؛ لأن الرسول اشتكى لها أنه يخشى أن يكون ما رآه فى الغار رئياً من الجن ، قد يفسد عليه تفكيره وعقله، فماذا قالت له؟. انظروا إلى العظمة، قالت له: «إنك لتصل الرحم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتحمل الكَلَّ، والله لا يخزيك الله أبدًا»(1).

(1) عن عائشة رضى الله عنها، قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه- وهو التعبد- الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقْرأْ . قال: «ما أنا بقارىء». قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ. قلت : «ما أنا بقارىء» ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال: اقْرأْ. فقلت: «ما أنا بقارىء»، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال: ﴿اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ . [العلق:1-3].

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، فقال: «زملونى زملونى» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسى». فقالت خديجة: «كلا والله ، ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق..» أخرجه البخارى فى صحيحه (3) واللفظ له ومسلم فى صحيحه (160).

فإذا كان الرسول جاء إلى قومه وهو واحد منهم ، يعرفون ماضيه وسيرته فيهم واستقامته بينهم، كان يجب عليهم أن يسمعوا له، ويعطوا عقولهم فرصةً أن تسمع وتفهم ما يدعوهم إليه بعيداً عن الهوى ؛ لأن الذى يتعب الناس فى استقبال الحق أن جوفهم وقلبهم مشغول بباطل، وما دام القلب مشغولاً بالباطل فلا يمكن للحق أن يدخله ، ولكن إذا أردتَ أن تبحث مسألة أو قضية إخراج الباطل المعتقد من قلبك ، فابحثْ المسألة بعقلك، ثم أدخل ما ترتاح له وتقتنع به ؛ لأنه حتى فى الماديات لا يمكن لحيز أن يتسع لمادتين فى وقت واحد، فإذا أردت أن تملأ قارورة (زجاجة) بالماء لابد أن يخرج الهواء منها أولاً حتى يدخل الماء، ولذلك لو أدخلتها فى الماء تجد فقاعات الهواء تخرج منها، فقبل أن يدخل الماء لابد أن يخرج الهواء، فأنت قبل أن تُدخل الحق إلى قلبك ، لابد أن تخرج منه الهوى والزيغ.

فإذا كان هذا يحدث فى الأمر المادى فهو أيضاً يحدث فى الأمور المعنوية كالإيمان والكفر، ولسبب ما سُمى الانحرافُ هوى ؛ لأنه كما أن الهواء لو جاء من جهة واحدة يقتل ويدمر، فكذلك هوى النفس، ولذلك الذى يحفظ المبانى والجبال العالية وناطحات السحاب حتى لا تقع، هو وجود الهواء من كل جانب، ولو فُرِّغ الهواء من جهة لوقعت فى الحال. وهذا ما يسمى بتفريغ الهواء، فالهواء قوى ومدمر. فكذلك الهوى إذا مال مع الباطل يجعله قوياً يعاند الحق، ولذلك أخذ منه السقوط، فيقولون: هوى يهوى.

فكلمة ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ جاءت لتحنن قلوبهم وتعرفهم أن لهم به ماضيًا ، ويعرفونه ويعرفون أخلاقه وسلوكه، وهذا أدعى أن يؤمنوا به ويصدقوه.

نحن قلنا عن أبى بكر الصديق أنه صدَّق الرسول ﷺ وآمن به مِنْ أول لحظة، وقال: إذا كان لم يكذب على الخَلْقِ فلن يكذبَ على الخالق. والرسول ﷺ فيما روى عنه هو أيضاً يقول ما معناه : «كنت أنا وأبو بكر فى

كفرسى رهان - أى فى خصال الخير - فسبقته إلى النبوة فاتبّعنى ولو سبقنى لاتبعته» .

ولذلك حينما حَدَثَ الإسراء والمعراج وكذَّب الكثير من الناس، ذهبوا إلى أبى بكر وأخبروه بأن صاحبك يقول إنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس وعاد، فكيف يأتيها فى ليلة ونحن نضرب لها أكباد الإبل شهراً ؟! هنا أبو بكر لم يتوقف فى القضية ولكنه قال: إن كان قال : فقد صدق، أى إن هذا الكلام إن كان قاله الرسول فهو صادق. وعلَّل ذلك بقوله: إذا كنت أصدقه فى خبر السماء يأتيه بالوحى فى أى ساعة من ليل أو نهار ، فهل أكذبه فى أن الله أسَرى به إلى بيت المقدس وعاد فى ليلة ؟![1].

بعد ذلك تأتى العبارة التى قالها كل رسول لقومه وهى قول الله تعالى: ﴿أَلا تَتَّقُون﴾ وهذه الكلمة معناها اتقوا الله، مثلما تقول لابنك المهمل: ألا تستذكرُ، معناها استذكرْ. وهذا الأسلوب من أدوات التحضيض التى تحض على الفعل مثل: لولا تكرم أباك، هلا تنزل ضيفا عندى، ألا تستقبل أخاك بالبشاشة، كل هذه أساليب تحث على فعل هذا الشىء. إذن معنى: ﴿أَلا تَتَّقُونَ﴾ أنكر عليكم أن تكونوا غير متقين. لذا أطلب منكم أن تتقوا الله لأنكم أنكرتم التقى، ومادمتم أنكرتم التقى فأنتم تريدون الإثبات. ومعنى ذلك أن الله رحم غفلة القوم وأرسل لهم رسولاً أميناً، هذا الرسول جاءهم من عند الله ليعطيهم منهج حياتهم كما أراده الله الذى خلقهم. فالرسول يقول لهم: اتقوا الله الذى أرسلنى إليكم أحمل إليكم وسائل التقوى وأنا

(١) عن عائشة رضى الله عنها، قالت: لَمَّا أسرى برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا: هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به فى الليل إلى بيت المقدس. فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟. قال: نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة وروحة. فلذلك سُمّى أبا بكر الصديق «رواه البيهقى» فى دلائل النبوة (٢/٣٦١) . وذكره الألبانى فى الصحيحة (٣٠٦) .

رسول أمين، فخذوا أوامر الله ونواهيه واسمعوها منى حتى تتقوا الله وتطيعونى، قال تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ . كل رسول سيقول هذا الكلام، هنا الحق سبحانه وتعالى ذكر فى هذه الآية شيئاً لم يذكره فى الآيات السابقة مع موسى وإبراهيم عليهما السلام، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. حين تقول لإنسان : إنك لن تأخذ منه أجراً على شيء عملته له، فمعنى ذلك أن هذا العمل كان يستحق الأجر عليه ؛ لأنه شيء نافع لك، فأنا لن آخذ عليه أجراً لأنك ستقيمه بمقاييسك البشرية، وأنا لست زاهداً فى الأجر ولكنى سآخذ أجرى من الله. فهذا دليل على أنه عمل جليل لا يستطيع البشر أن يُقَيِّمُوه ؛ لأنى سآتيكم بهداية تسعدكم فى دنياكم وتسعدكم فى أخراكم.

وأنتم أيها البشر حينما تقيِّمون هذا الشيء ستقيِّمونه بمقداركم البشرى. ولكن تقييم الله أعلى وأوفى، فأنت ستعطينى أجرتى على قدرك وعلى قدر فهمك لهذا الشيء وعلى قدر إمكانياتك، ولكنى أنتظِر أجرى من الله العلىِّ الأعظم. وذات يوم حينما كنتُ فى الجزائر كنت أستقل سيارة أنا والمحافظ فى طريقنا إلى العاصمة، ونحن فى الطريق عند بلدة اسمها ـ مسطى غانم ـ قابلنا رجلٌ وقورٌ يقف على الطريق، فلما رأى العربة من بعيد أشار بيده، أى أنه يريد الركوب، المحافظ كان يقود السيارة وأنا أجلس بجواره وليس معنا أحد، فلما مررنا على الرجل ورأينا هيبته ووقاره، قلت للمحافظ: هاته نأخذه معنا فى الكرسى الخلفى لأنه خالٍ، فتوقفنا ورجعنا بالسيارة إلى الخلف حتى نصل إليه، ومددت يدى إلى الباب الخلفى لأفتحه له، فالرجل قبل أن يضع رجله فى السيارة سأل عن الأجرة وقال: ما الأجرة ؟ فضحك المحافظ وقال له: لِله يا شيخ، فقال الرجل: غليتها قوى . . فمعنى غليتها، أى جعلتها غالية ؛ لأن الأجر عند الله أغلى وأعظم من قيمة البشر. وكلمة أجر هنا تدل على أن ما يقدمه الرسول لأمته عمل نافع فى عرف العقلاء كان

يستحق أن يأخذ عليه أجراً، ولكن أجر البشر لن يناسب قيمة هذا العمل، ولكن الذى يعلم قيمة هذا العمل ويقدر على أجره هو الله وحده. ولذلك فأنا سآخذ أجرى من الله.

ولذلك الحق سبحانه يسأل رسوله ﷺ فى آية أخرى فيقول: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور:٤٠] مثل: هل طلبت منهم أجراً على الإيمان فلم يجدوا ما يدفعونه، ولذلك لم يؤمنوا؟ فأجر الرسول على الله لأنه هو الذى يستطيع أن يكافىء على هذا العمل ؛ لأنه الذى يعلمه، وكان من الممكن ألا يُعطىَ عليه أجراً لأن عبادتكم لن تنفعَه ومعصيتكم لن تَضُرَّه، ولكن لأن رب العالمين أجاد بالخلقِ من عدمٍ والإمداد من عدم، وخلق لكم الكون بكل ما فيه من نعم وسخَّره لكم وأعطاكم مقوماتِ حياتكِم وأسبغَ عليكم نِعمَه ظاهرةً وباطنةً، وأنزل إليكم ما يُصلحكم ويسعدكم فى دنياكم وأخراكم وهو غنى عنكم.. وهذا كله لأنه رب العالمين.. والربوبية تقتضى كل ما ذكرناه من خلق من عدم وإمداد من عدم.. إلخ.

ومعنى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. أى ما أجرى إلا على رب العالمين. وهذا الموضوع : مثلما يكون لك صديق عزيز وأرسل إليك هدية مع سائق تاكسى يعرفه وقال له: أوصلْ هذه الأمانة إلى فلان.. فحين يأتيك السائق بالهدية تريد أنت أن تعطيه أجرة التاكسى، فإن كان أمينًا يقول لك: شكرًا لأن الذى أرسلنى إليك بالهدية أعطانى أجرى. هذا مثل ولله المثل الأعلى فربنا سبحانه وتعالى يعطى الأجر على شىء لا يعود عليه بالنفع، ولكنه يعود على الخلق إذا آمنوا وأطاعوا ، فهذا كرم ما بعده كرم . وساعة يقول الرسول لقومه : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١١٠] ليس معنى هذا أنها طاعة ذاتية للرسول، ولكن يطيعونه لأنه رسول من عند الله، وطاعته طاعة لله.

بعد أن خاطب نوح قومه ودعاهم إلى طاعة الله، وأخبرهم أنه لا يطلب

منهم أجراً، ماذا كان ردهم عليه؟ قال تعالى : ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١] الأرذلون جمع رَذْل [1] : والرذل هو الردئ من الشيء. فهم يقولون له، كيف نؤمن بك وقد اتَّبعك ضعاف الناس وفقراؤهم؟ وفي آية أخرى قالوا له: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ وهم يقصدون بالأراذل، الناس الفقراء أصحاب الحرف الضعفاء الذين لا يؤبه لهم، وهؤلاء دائماً هم جنود الرسالة في البداية، لأنهم المطحونون من المجتمع الفاسد فيكونون متلهفين على واحد يأتي ليعدل موازين المجتمع.

وانظروا إلى عدم فهم القوم لدعوة نوح، عليه السلام، حيث قالوا له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ [الشعراء:١١١] مع أنه يدعوهم إلى الإيمان بالله وليس به هو، لأنه مجرد رسول يحمل إليهم منهج الله ودعوته. وقد يكون معنى ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ بمعنى نصدقك، لأن كلمة آمن تستخدم في معانٍ متعددة مثل: ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:٤]، ﴿آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة:٦٢]، ﴿فَآمَنَ لَهُ﴾ بمعنى صدقه، قال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:٨٣] وهناك في سورة يوسف يقول القرآن على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٦٤] وإخوة يوسف حينما سألوا أباهم قالوا له: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ [يوسف:١١].

وكلُّ رسول يأتي من عند الله كان يؤمن به ضعاف الناس وفقراؤهم في

---

(١) رَذْل والرذيل والأرذل : الدون من الناس ، وقيل : هو الرديء من كل شيء . وقوله عز وجل ، ﴿وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ . قال الزجاج نسبوهم إلى الحياكة والحجامة ، قال : والصناعات لا تضر في باب الديانات . [لسان العرب ١١/ ٢٨٠] .

البداية، وهذا شيء طبيعى لأنهم أكثر الناس اكتواء بنار الفساد الذى استشرى فى المجتمع. ومع ذلك نجد المتكبرين والمعاندين للرسول من الكفار والمشركين كانوا دائما يعيبون رسولهم بأن أتباعه من الضعفاء والفقراء وأراذل القوم. وحتى رسولنا ﷺ كان الكفار يغتاظون منه لأنه يجلس مع هؤلاء الضعفاءِ والفقراءِ ويسوى بينهم وبين سادة قريش، ولذلك حاربوا دعوته لأنها تسوى بين السادة والعبيد أمام الله تعالى.. أبو بكر الصديق رضى الله عنه حينما كان خليفة للمسلمين، كان يستأذن عليه كبار سادة قريش ممن أسلموا بعد الفتح مثل أبى سفيان وغيره، فلا يأذن لهم بالدخول ويتركهم ينتظرون بعض الوقت ويسمح للضعفاء مثل : عمار بن ياسر وبلال وابن مسعود وغيرهم بالدخول، فكان يغضب سادة قريش من ذلك، وكان والد أبى بكر لازال حياً فدخل عليه وقال له: يا بنى: لماذا تُدخل هؤلاء الضعفاء عليك وتترك سادة قريش، إنهم يغضبون لتفضيلك هؤلاء عليهم.. فقال له أبو بكر: يا أبى إن الإسلام قد رفع الخسيسة عَمَّنْ آمن به، أما هؤلاء فقلْ لهم: كلكم ورغم أنفه: أن يؤذن لفلان وأنتم لم يؤذن لكم، فماذا يكون موقفكم يوم يأذن الله لهم بدخول الجنة وأنتم تنتظرون! لأن هؤلاء من السابقين إلى الإسلام فلهم أولوية وأفضلية[1].

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو خمسمائة عام».

رواه الترمذى (٢٣٥٤). وقال حسن صحيح ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (١٩١٨)، وابن حبان فى صحيحه (٢٥٦٧ موارد)، قال المنذرى فى الترغيب (٤/ ١٣٩): ورواته محتج بهم فى الصحيح. وقوله: «بنصف يوم، وهو خمسمائة عام» فإن اليوم الأخروى مقدار طوله ألف سنة من سنى الدنيا، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فنصفه: خمسمائة وأما قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ . فمخصوص من عموم ما سبق، أو محمول علي تطويل ذلك اليوم على الكفار، كما يطوى حتى يصير كساعة بالنسبة للأبرار كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ .

نوح عليه السلام رد عليهم بقول الله تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء:١١٢-١١٥] أى أن الإيمان لا دخل له بالغنى والفقر والقوة والضعف، لأن الإيمان عمل وسلوك. وربنا هو الذى يحاسب الناس على أعمالهم، ومادام الحساب على الله وهؤلاء عجلوا بالإيمان، فلابد أن الله سيجزيهم خير الجزاء، كما أننى لا يمكن أن أطرد المؤمنين بالله، لأنى نذير من عند الله أنذركم بالشر قبل وقوعه. نفس هذا الموقف طلبه الكفار من الرسول ﷺ، قالوا له: اطرد هؤلاء الفقراء الضعفاء ونحن نتبعك، وبعضهم قالوا له: اجعل لنا يوماً نجلس فيه معك ولهم يومًا، فرفض الرسول ﷺ [1]،

= والفقراء السابقون إلى الإسلام استحقوا حسن العيش فى العقبى مجازاة لما فاتهم من التنعم فى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ . أى الماضية أو الخالية من المآكل والمشرب صياماً، أو وقت المجاعة.

(١) عن خباب رضى الله عنه قال : جاء الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، فوجدوا رسول الله ﷺ، مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً فى ناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حول النبى ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به، فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال : «نعم» فنزلت: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ﴾.

ثم ذكر الأقرع وصاحبه، فقال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ ، وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا ، فنزل: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾

أخرجه ابن جرير فى تفسيره (٢٠١/٧) وابن أبى حاتم وغيرهما. قال ابن كثير فى تفسيره (١٢٨/٢): هذا حديث غريب، فإن الآية مكية، والأقرع وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر . وفى مسند أحمد (٣٩٨٥ شاكر) بسند صحيح عن ابن مسعود قال : مر الملأ =

ونزل عليه قول الله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف:٢٨].

بعد ذلك يقول تعالى: ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ أى يبدو أنه لا فائدة من الكلام معك يا نوح، ولكن هذا إنذار لك: لئن لم تنته عما تدعيه من دعوتك إلى عبادة الله وتقريبك للأراذل من الناس لنرجمنك، وهذا تهديد لنوح من قومه، وهذا معناه أنهم قوم أقوياء لهم بطش وجبروت وطغيان. ولكن ماذا يفعل نوح عليه السلام؟ لابد أن يلجأ إلى ربه، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:١١٧-١١٨] انظر إلى أدب النبوة، شكا لربه من تكذيبهم ولم يشك من تهديدهم له بالرجم لأن الله عالم بحاله

= من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء؟ فنزل فيهم القرآن ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وعن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف، قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو فى بعض أبياته: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾، فخرج يلتمسهم فوجد قوماً يذكرون الله تعالى، منهم ثائر الرأس، وجاف الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم، وقال: «الحمد لله الذي جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم».

وفى قوله تعالى: ﴿ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾.

قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم، يعنى تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة. (تفسير ابن كثير ٣/ ٧٩). وعزاه إلى الطبرانى. وقال فى المجمع: رجاله رجال الصحيح (٧/ ٤٢).

ومطلع عليه، ولأنه يهمه أن يصدقه قومه ويؤمنوا بما جاء به. والفتح فى الشىء يكون إما حسياً وإما معنوياً. فالباب إذا كان مغلقا بالأقفال فمعنى فتحه: أن تزيل هذه المغاليق حتى يفتح، هذا بالنسبة للفتح الحسى، وقد ورد ذلك فى قضية إخوة يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف:٦٥] فهذا فتح حسى بإزالة الرباط الموجود على البضاعة.

وقد يكون الفتح فتحاً معنوياً مثل قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦] ومثل قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر:٢] فالفتح معناه إزالة الإغلاق، وقد يكون حسياً مثل فتح الباب والمتاع، وقد يكون معنوياً بمعنى أن يفتح الله عليك بالخير المادى والعلمى. وهناك قول الله تعالى: ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٦] لأن اليهود كانوا يعرفون صفات النبى ﷺ من التوراة التى أُنزلت عليهم ، ولكنهم أنكروا ذلك ولم يظهروه أو يعلنوه ؛ حتى لا يكون حجة للرسول ﷺ تجعل الناس يؤمنون به ويتبعونه، فكتموا هذه الصفات ولم يؤمنوا بالرسول وعاندوه، ومعنى ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ . أى بما علمكم من علم لم يعلموه[1].

---

(١) قال أبو العالية: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعنى بما أنزل عليكم فى كتابكم من نعت محمد ﷺ. وقال قتادة: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ كانوا يقولون: سيكون نبى، فخلا بعضهم ببعض فقالوا: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وعن مجاهد قال: قام النبى ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: يا إخوان القردة والخنازير، ويا عبدة الطاغوت. فقالوا: من أخبر بهذا الأمر محمداً ؟ =

وقد يكون الفتح بمعنى الخير مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ وقد يكون الفتح بمعنى الحكم مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾. [الأعراف:٨٩] وقد يكون الفتح بمعنى النصر، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر:١] فهناك قول نوح عليه السلام: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه يا رب احكم بينى وبينهم، ونجنى أنا والمؤمنين معى من كيدهم، فاستجاب الله لدعائه ونجاه من شرهم. قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾.

قصةُ نوحٍ وردت فى أكثر من سورة من سور القرآن الكريم وتوجد سورة باسمه فى القرآن؛ لأنه ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فاستحق أن تكون له سورة باسمه[1]. الفلك أى السفينة التى صنعها نوح لها قصة أنتم تعرفونها، فالله أمره بصنع السفينة وأرشده إلى طريقة صنعها، ويبدو أن صناعة الفلك لم تكن معروفة للناس فى ذلك الزمان، بدليل أنهم كانوا يَسْخَرون من نوح كلما مروا عليه وهو يقوم على صناعتها. قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود:٣٨].

= ما خرج هذا القول إلا منكم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما حكم الله للفتح ليكون لهم حجة عليكم.

وقال الحسن البصرى: هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم، مما فى كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم. (تفسير ابن كثير ١/١١١).

(١) هى سورة نوح، وهى سورة مكية، آياتها ثمان وعشرون، وترتيبها بين السور الحادى والسبعون.

فالله سبحانه كان يراقب نبيه نوحًا ويوجهه فى صناعة السفينة، قال تعالى:
﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾
فربنا لايترك خلقه يتصرفون من تلقاء أنفسهم، ولكن يوجههم ويراقبهم ولا يغيب عنه شيء، لأن بعض الجهلاء يقولون: إن الله زاول سلطانه فى ملكه مرة واحدة، فخلق الخلق وأعطاهم قوانينهم وتركهم لهذه القوانين، نقول لهم: لو كان هذا صحيحا لكان العالم ميكانيكياً، ولكننا نرى أن العالم ليس كذلك ؛ لأن قوانينه يتم خرقها بالمعجزات، فسنة تنزل الأمطار على مناطق كالسيول وسنوات يحدث الجفاف فى مناطق لم تعرف الجفاف أبداً، مما يدل على أن العالم ليس ميكانيكياً، ولكنه يسير بقيومية الخالق سبحانه.

فهذا الخالق الحيُّ القيوم على أمور خلقه يقول لعباده : ناموا ملء جفونكم لأن ربكم لا ينام، فماذا تريد أكثر من ذلك أيها المخلوق. ربك خلقك وأمدك بمقومات حياتك وسخر لك كل ما فى الكون لخدمتك، وهو سبحانه يحفظك ويرعاك ولا يغفل عن خلقه طرفةَ عينٍ. قال تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] فلأن له قيومية يقول لعباده ناموا واطمئنوا، وأنت إذا كان عندك خفير واعٍ تنام ملء جفونك، فما بالك إذا كان الحارس والحافظ هو رب العالمين.. وقيومية الخالق معناها أنه ينقض العزائم ويفسخ القوانين ويجعل النار برداً وسلاماً، ويحول الماء إلى جبل ويجعل الماء يتفجر من الحجر الأصم، وهذا على عكس الميكانيكا تماما.

وكلمة ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ دلت على أن الفلك قد يطلق ويراد به واحد، وكلمة مشحون تدل على أن نوحاً عليه السلام كان معه عدد كبير من الأتباع، لأن السفينة مادامت مشحونة فمعنى ذلك أنها كانت مكتظة بالناس وغيرهم من الأنواع الأخرى، وهذا يدل على أنها كانت مصنوعة لتتسع لعدد معين من الناس هم ثمانون رجلا وثمانون امرأة ومعهم الأصناف الأخرى من

الحيوانات والطيور وغيرها. وبعد أن ركب نوح وأتباعه السفينة تدفق الماء من السماء والأرض. قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١١-١٢] وبعد ذلك نجى الله المؤمنين وأغرق الكافرين.

ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٢١-١٢٢] أى أن فى هذا الذى حدث لأمر عجيب يجب أن يلتفت إليه الناس ولا يغيب عن بالهم هذا الأمر، وإذا كان المعاندون قد غرقوا جميعاً فعلى من بقى، أن يعتبر بما حدث لمن عاند رسولاً من رسل الله ومخالفته.. ومع ذلك فإن الله عزيز لا يغلب، رحيم يقبل توبة التائب مهما فرّط فى جنب الله.

❋ نوح تحمل الشدائد على مدى خمسين جيلاً ❋

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس:٦٩-٧١] لماذا جاء الله بقصة نوح والأنبياء فى هذا الموقف؟ ولماذا أراد أن يحدثنا عن موكب الرسالات؟ لأن الكلام حين يكون نظرياً، ليس له واقع فى الكون، فإنك قد تصدقه أولا تصدقه، مجرد نظرية ليس لها واقع يسندها. ولكن حينما تكون النظرية لها واقع فى الكون، فالواقع يؤيد الكلام النظرى ويجعلك تحس بيقينه.

الحق يريد أن يقص علينا فى القرآن الكريم موكب الرسل ؛ لنعرف جميعا ماذا حدث فى سجل التاريخ للرسل مع أقوامهم، المؤمنين منهم والكفار، ولندرك أنه ما من قوم افتروا على الله كذباً، وكفروا برسالات الله، وانتصروا على موكب الإيمان حتى لا يظن أحد أنه بكفره وعناده وافترائه على الله الكذب يستطيع أن يحقق شيئاً، إلا الحسرة وإلا العذاب. وإذا كانت رسالة محمد ﷺ خاتم الرسالات فى مواكب الرسل ، فإن الله يذكرنا بهذا الموكب من رسالة نوح إلى ختامه ، وحكم الله لا يتغير ولا يتبدل، ولا مبدل لكلمات الله . . ولذلك أتى لنا بموكب الرسالات من رسالة نوح عليه السلام.

ولكن لماذا لم يبدأ الحق بآدم أو إدريس؟ وقد كانا رسولين قبل نوح، هذه هى الشبهة التى جعلت بعض الناس يقول: إن آدم ليس رسولا، لقد ظن

الناس أن كلمة رسول تقتضى أن يبعثه الله إلى قوم موجودين فعلاً، ولم يفطنوا إلى أن آدم أول الخلق كان لابد أن ينزل بمنهج من الله يتبعه ويعلمه لأولاده الذين يعلمونه لأولادهم وهكذا، فلا يمكن أن ينزل آدم إلى الأرض ليعيش تائهًا بلا منهج من الله جل جلاله يعلمه فيه ماذا يفعل؟ وماذا يتجنب؟ وكيف يعبد ربه؟ وهكذا حمل آدم أول منهج من الله إلى الأرض، حمله بعد أن جعله الحق يمر بتجربة فيها أمر ونهى، بعد أن حذره وبين له بالتجربة العملية أن الشيطان عدو له، وأنه كاذب فى كل ما يعد به، وأن ما أمر به الله تبارك وتعالى هو الخير.

وكانت التجربة بأن أغرى الشيطان آدم بأن يأكل من الشجرة ، ووعده بالخلود، ووعده بملك لا يزول، وخضع آدم لإغواء الشيطان، فلم يجد شيئاً تحقق إلا السوء، ونزل آدم بعد هذه التجربة إلى الأرض وهو يعلم يقيناً أنه إن خالف أمر ربه واتبع الشيطان فإن مصيره عذاب أليم، وأنه إن أطاع أمر الله وعرف أن الشيطان عدو له، فإنه ينتظره نعيم لا ينتهى.. وهكذا أخذ آدم المنهج، ونزل إلى الأرض ليباشر مهمته.. كيف يباشرها؟ يطبق المنهج على نفسه أولاً وعلى زوجته، ثم بعد ذلك يعلمه لأولاده وأحفاده، وكل جيل ينقل المنهج إلى جيل آخر ، فكما علم الله آدم الأسماء كلها، طلب إليه أن ينقل ما علمه له من المنهج لأولاده. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه:١٢١-١٢٢] ما معنى ثم اجتباه؟ الاجتباء هو الاصطفاء، بماذا اصطفى الله آدم؟ بالرسالة لنفسه أولا، ثم بعد ذلك لذريته.

ولذلك إذا قرأنا قول الحق: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤] هذا الكلام موجه من الله لآدم، فمن أين أتى آدم وأولاده الهدى وهو المنهج، إلا أن يكون رسولاً حمل الرسالة ليتبعها ويبلغها

لأولاده، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء:١٥] إذن فآدم وكل الخلق الذين جاءوا بعده حتى نوح كان لابد أن يكون لهم رسول ليبشرهم وينذرهم حتى يستحقوا الجنة، أو يكتب عليهم العذاب، هؤلاء الذين جاءوا قبل نوح عرفوا منهج الله وأُبلغُ لهم بواسطة آدم.

وإذا قرأنا قول الحق: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] هنا لابد أن نسأل.. قربا قرباناً لمن؟ ومن الذى تُقبل منه؟ ومن الذى لم يُتقبل منه؟ قربا قرباناً لله سبحانه وتعالى، فمن الذى أخبر ابنى آدم بمنهج الله حتى يقربا قرباناً؟ ومن الذى أخبرهما بوجود الله سبحانه وتعالى؟ طبعا آدم، فلم يكن هناك من يخبر أولاد آدم إلا أباهم، ولكى نعرف يقيناً ذلك نسأل، من الذى أخبر ابنى آدم بأن الله يتقبل من المتقين، ولا يتقبل من غير المتقين؟ ومن الذى أعلم ابنى آدم أن هناك متقين وهناك عاصين؟ لابد أنه منهج الله الذى حمله آدم إلى الأرض.

ثم اقرأ قول الحق جل جلاله: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:٢٨] ولكى يخاف الإنسان الله لابد أن يكون قد عرف أن الله سبحانه شديد العقاب، فيخاف الله ويخاف عقابه. إذن فلابد أن يكون هناك منهج يقول ذلك، فالذين يقولون إن آدم ليس رسولا، نقول لهم: افهموا عن الله . وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ أى أن المنهج نزل إلى الأرض مع آدم، وولدا آدم ؛ قابيل وهابيل، عندما جلسا يتكلمان عن التقوى وعن الخوف من الله، من أين جاءا بهذا؟ من منهج الله.

ولكن لماذا لم يأت الله برسالة آدم، وأتى لنا برسالة نوح؟ ذلك أن آدم هو

الإنسان الأول، وهو قد نقل الرسالة إلى أولاده، وهم نقلوها إلى أبنائهم.. الأب حين ينقل الرسالة إلى أولاده الذين تعودوا أن يأخذوا منه كل الأشياء النافعة، فإنه لا يوجد معارضون، ولا يستطيع أحد أن يقول: إنه حين بلغ آدم المنهج إلى أولاده، هناك من عارضوه وكفروا به، ولكن نوحا أُرسلَ إلى قومه بعد أن نشأت الغفلة بالزمن، وابتعد الناس عن المنهج الذى جاء به آدم، فجاء نوح برسالته ؛ لينبه الغافلين والذين كفروا وحرفوا فى منهج الله ونسوه بفعل الزمن.

الحق يقول: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس:٧١] والنبأ هو الخبر الهام، الخبر الذى يلفت العقل، وليس مجرد الخبر، قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ إذن فكان هناك قوم، وهؤلاء القوم ابتعدوا عن منهج الله وضلوا، وجاء نوح، عليه السلام، ليعيدهم مرة أخرى إلى المنهج الحق وإلى عبادة الله، والرسول قبل أن يكون مرسلاً إلى الناس لابد أن يشهد على نفسه بأنه رسول، كلمة «قومه» المفهوم السطحى لها أنهم المعاصرون له، ولكن كلمة قوم لا تطلق فى اللغة إلا على الرجال ؛ لأنهم أهل القيام على الأشياء الذين تعتمد عليهم حركة الحياة. والقرآن الكريم يوضح لنا هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات:١١] إذن فمعنى قوم هم الرجال ؛ لأن المرأة مبنية دائما على الستر، أما الحركة فى الدنيا فهى للرجال.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه:١١٧] الخطاب هنا لاثنين.. آدم وحواء، ولكن الحق لم يقل فتشقيان، وإنما قال ﴿فَتَشْقَى﴾. ذلك لأن الشقاء والأعمال الشديدة فى الأرض التى تحتاج إلى قوة وبأس هى من شأن

الرجال، أما المرأة فهى لتحتضن الأبناء وتُريح الرجل وتهيئ له بيتًا يعينه على استمرار حركته فى الحياة. إذن فالكدح للرجل، وهذا يتطلب قياماً مستمراً، ولا يتطلب قعودًا؛ بل يتطلب حركة دائمة.. والشاعر العربى يقول:

وَمَا أَدْرى ولسْتُ أخالُ أَدرِى ... أَقوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ

فالقوم هم الرجال، الآية الكريمة تقول: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي﴾ يا قوم ، يسمونها إضافة تَحمُّل ، أى أن تأتى الإضافة التى تشعر مخاطبك بأنك أنت منه وهو منك، وأنك إن تغش أحدًا فلا تغشه ؛ لأنه من أهلك وعشيرتك، لذلك يقف المرشح ويقول: أهلى وعشيرتى وناخبى . يضيفهم لنفسه . أى اننى إن كنت أغش الناس جميعاً فلا أغشك أنت[1].

ولذلك نقرأ فى القرآن الكريم: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان:١٦] وقوله جل جلاله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧] وهذه الآيات مما رواه الحق عن وصية لقمان لابنه، وقد استخدم الحق هذا الأسلوب لأن الأب إن يَكُ ناصحاً صادقاً فى نصيحته، فلا يكون أكثر صدقاً إلا عندما ينصح ابنه ؛ لأنه لو غش الناس جميعًا لا يغش ابنه.. الآية الكريمة تقول: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ

(١) عن ابن عباس قال: صعد رسول الله ﷺ يوماً الصفا، فقال: يا صباحاه يا صباحاه. قال: فاجتمعت إليه قريش فقالوا له: مالك؟ فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مُصبحكم أو مُمسيكم، أما كنتم تصدقونى؟ فقالوا: بلى. قال: فقال: «إنى نذير لكم بين يدَىْ عذاب شديد. قال: فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تبًا لك. قال: فأنزل الله عز وجل : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد ١ - ٥] . رواه البخارى [٤٨٠١] فتح واللفظ له ، ومسلم [٢٠٨ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦] .

عَلَيْكُم مَّقَامِي﴾ [يونس:٧١] كبر تأتى بمعنيين، مرة كبُرت سنّه، أى تقدم فى العمر، ومرة كبر يكبر من العظمة والتعظيم، إلا أن التعظيم يأتى مرة ليبين عظم استنكار الإنسان للموقف مثل قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥] أى أن هذه الكلمة تستوجب استنكارًا شديدًا، وتثير فى نفس من يسمعها غضباً عظيماً.

والكلمة التى أشارت إليها الآية الكريمة هى قوله تعالى: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف:٤] ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٤،٥] أى أنها أوجدت استنكاراً عظيماً فى قلوب المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ﴾ [الشورى :١٣] أى كبر على المشركين وشق عليهم أنك تدعو إلى الله الواحد الأحد، وتنفى وجود شركاء له، سبحانه وتعالى، وهذا من ناحية الكافرين طبعًا، فإن كانت الكلمة مناقضة للإيمان كبرت عند المؤمنين، وإن كانت الكلمةُ مؤيدةً للإيمان كبرت على الكافرين. ونوح عليه السلام قال لقومه : ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي﴾ والمقام هو العمر الذى مكثه نوح مع قومه، وقد مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وظل يعظهم طوال هذه الفترة، وكأن طول الوقت قد جعل المسألة تثقل عليهم ، حتى أنها استوجبت استنكارًا عظيمًا فى قلوبهم، أن يظل نوح يدعوهم إلى الإيمان طوال هذه السنين ، محاولاً أن يخرجهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الله تبارك وتعالى، فكأن طول الوقت كان شاقاً عليهم. ونحن إما أن نأخذها على أنها طول الوقت، وإما أنهم قد ملأ صدورهم الكفر، فاستنكروا ما أتى به نوح من الهدى استنكاراً عظيماً. ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إذن فهى تحمل المعنيين، أنهم كرهوا

طول مدة الدعوة كراهية عظيمة، وكرهوا أيضا التذكير بآيات الله والدعوة لوحدانيته. إذن فقد أصبح وجود نوح ثقيلاً على قلوبهم، وكلامه ثقيلاً عليهم. وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما طُلبَ منه أن يولى ابنه عبد الله بن عمر الخلافة بعده قال: لا، حسب آل الخطاب أن يُسأل منهم عن أمة محمد رجل واحد، ثم قال: أنا والله أعرف أنكم مللتمونى لأنى شديد عليكم وأصبحت ثقيلاً عليكم[1].

نوح عليه السلام عندما قال لقومه: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فمعنى ذلك أن هناك قسمين: هو ومن آمن معه؛ لأن من آمن معه يحبون كلامه وتذكيره بآيات الله. أما الذين كبر ذلك فى صدورهم فهم الكفار.

إذن فانقسمت المسألة إلى قسمين: نوح والمؤمنين معه، والقوم الكافرين. وكان لابد أن يكون هناك اتجاهان متضادان.. موكب الإيمان.. وجماعة

---

(١) لما طعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، فقال له ابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: «أوص يا أمير المؤمنين، استخلف». وقال غيره: «يا أمير المؤمنين، ما يمنعك أن تصنع كما صنع أبو بكر». قال ابن حجر يحتمل أن يكون ذلك قبل أن يطعنه أبو لؤلؤة، فقد روى مسلم من طريق معدان بن أبى طلحة أن عمر قال فى خطبته قبل أن يطعن: «إن أقوامًا يأمروننى أن أستخلف»، فقال عمر رضى الله عنه: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض: فسمى عليًا وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شىء.
وقد صرح فى رواية المداينى بأسانيده أن عمر عد سعيد بن زيد فيمن توفى النبى وهو عنه راض، إلا أنه استثناه من أهل الشورى لقرابته منه وقد صرح بذلك "المداينى" قال: فقال عمر: لا أرب لى فى أموركم، فأرغب فيها لأحد من أهلى.
ووقع فى رواية الطبرى من طريق "المراغى" بأسانيده: فقال له رجل: استخلف عبدالله بن عمر، قال والله ما أردت الله بهذا، وأخرج ابن سعد بسند صحيح من مرسل إبراهيم النخعى نحوه قال: فقال عمر قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا، استخلف من لم يحسن أن يطلق امرأته. [فتح البارى ٧/٤٢٨، ٤٢٩] بتصرف.

الكفر.. نوح بيّن لهم أنه لن يتنازل عن دعوته مهما أصابهم من ضيق ومهما كبر عليهم ذلك، ما داموا سيظلون كافرين، ولذلك قال كما يروى لنا الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ نوح عليه السلام قال : إنه قد توكل على الله. ومادام قد توكل على ربه، فإنه قد استعان بمن سيحقق له النصر على الكافرين، فهو عليه السلام يعلن بإصرار أنه لن يتنازل عن الدعوة، وأن الله هو ناصره ورصيده، وهو الذى أرسله وسيظل يحمل دعوته.

ثم بعد ذلك يقول لهم: أما أنتم فأجمعوا أمركم، أى اجتمعوا وقرروا ما تريدون أن تصنعوه معى، وأنتم لن تضرونى شيئاً، خذوا أمركم كجماعة وليس كأفراد، اجتمعوا على قلب رجل واحد واتفقوا. إذن فقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ أى اجتمعوا على أمر رجل واحد، وإن كان بينكم خلاف فاتركوه وانتهوا إلى اتفاق، ويوضح لنا هذا المعنى قول الحق فى سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف :١٥] أجمعوا لأنهم كانوا مختلفين، قال واحد منهم: اقتلوه . وقال آخر: اطرحوه أرضاً فى وسط الصحراء . وقال ثالث : ألقوه فى الجب . ومن كلام إخوة يوسف نعرف أن الأخيار حين يتشاورون فى أمر تقل فيهم نزعة الشر، فمن القتل قلت نزعة الشر إلى الإلقاء فى الصحراء، ثم قلت النزعة إلى الإلقاء فى البئر لتلتقطه القوافل، وبين الأشرار تتصاعد أعمال الشر، فإذا جلسوا ليفكروا كيف ينتقمون من عدو لهم، بدأوا بأنهم سيضربونه، وانتهوا إلى الاتفاق على قتله.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ﴾ نوح عليه السلام ظل يدعوا

قومه إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما.. وهى مدة طويلة تتعرض لأجيال متعددة. والجيل العقلى ينقسم إلى عشرين سنة، أى عندما يبلغ الإنسان سن العشرين ينضج عقله ويستطيع أن يستوعب المنهج، فيدخل فى دعـوة نوح، فكم جيل من الأجيال حاول نوح أن يهديه؟ حوالى خمسين جيلا، ومع ذلك لم يؤمن به إلا من تحملهم سفينة واحدة، ومعهم الحيوانات والطيور أيضًا. ونوح خاطب أجيالا مختلفة، ولكنها كانت كلها متأثرة بما يقوله الآباء للأبناء، وبالبيئة التى نشأوا فيها.

أعلن نوح توكله على الله الذى أرسله لأنه سينصره.. ومادام توكل على الله فلن يجور عليه أحد من خلق الله؛ لأن الله فوق الخلق جميعا، والخلق كله: جماده ونباته وحيوانه، إنما سيكون من جنود الله، وإذا أردنا دليلاً واقعياً على ذلك، فهو قصة ابن نوح عندما خرج مع الكفار ورفض نصيحة نوح بأن يركب، وقال كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣] إذن فلابد أن ابن نوح نظر فرأى جبلا عالياً ظن أنه يستطيع أن يحميَه من الطوفان، ولكنه غفل عن جندى آخر من جنود الله وهو الموج الذى حال بينه وبين أبيه فأغرقه، وكل خلق الله هم من جنود الله، لأن له ما فى السماوات وما فى الأرض. ولكن الذى خرج عن المراد الشرعى لله فى الطاعة والمعصية للمنهج هو الإنسان، وخرج بمشيئة الله، أى أنه خرج؛ لأن الله أراده أن يكون مختارا.

طلب نوح عليه السلام من قومه أن يجتمعوا ويجمعوا أمرهم.. هذا يقول رأيه، وهذا يقول رأيه، إلى أن يتفقوا على أمر.. كيف يُنزلون الشر بنوح، ونوح عليه السلام فى هذا يتحدى قومه، فيقول لهم اجْتَمعُوا على أمر واحرصوا على أن تنفذوه، فهو حين يقول لهم: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾، ففى هذا تحدٍ؛ لأنه كان يجب أن يحرص على أن يكونوا مختلفين، حتى لا ينتهوا إلى رأى لأنهم أعداء له، ولكنه واثق من أنه مادام قد توكل على ربه، فإن أحداً لن يصل إليه، مثلما

تقول لإنسان: اركب أعلى ما فى خيلك . لأنك واثق أن رصيده من القوة لا يمكن أن يضرك، ولا أن يصل إليك. الإجماع هنا معناه الانتهاء إلى رأى، مثلما قال الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف : ١٠٢] ولم يقل لهم نوح عليه السلام: أجمعوا أمركم فقط، بل قال وشركاءكم، ومعنى وشركاءكم، أى ما تشركون به من دون الله، أى استعينوا بكل القوى التى تستعينون بها من دون الله، فإنها لن تفيدكم شيئا، والقول هنا بالاستعانة بالشركاء هو الاستهزاء بأى قوة يحاولون الاستعانة بها ؛ لأنها إفك وباطل لن يفيدهم شيئا.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ إذن فالتحدى الأول هو أن يجمعوا أمرهم، والتحدى الثانى هو أن يستعينوا بالشركاء الذين يمكن أن يعينوهم، والتحدى الثالث ألا يكون الأمر غمة، والغمة منها الغمام[1] ومنها الإغماء الذى هو فقد الوعى أو ستر العقل، فالغمة هى ستر الشىء، أى أن نوحًا قال لهم: لا تتعبوا أنفسكم وتحاولوا أن تختفوا فى مكان بعيد حتى تتفقوا، بل افعلوا ما تريدون فى العلن وأمام الجميع، ولا تخفوا علىَّ ما اتفقتم عليه، بل أعلنوه، لا تخافوا وافعلوا كل شىء بوضوح وصراحة وعلانية وتحد. ويقول تعالى: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ أى إذا وصلتم إلى قرار فنفذوه، وهناك فرق بين قضى إليه وقضى عليه. . ما هو الفرق؟ قضوا إليه. أى أنهم من الجائز أن يجمعوا الأمر ويصدروا الحكم، ثم بعد ذلك يتنازلون عن التنفيذ أو يؤجلونه. ولكن نوحًا يقول لهم اقضوا إلىَّ، أى : احكموا علىَّ حكمًا نافذًا ؛ لأن الحكم على الشىء لا يقتضى بالضرورة التنفيذ، بل يمكن أن يُقضى على شخص مع إيقاف التنفيذ. . إذن فالحكم شىء، والحكم والتنفيذ شيئان. . ولكن اقضوا إلىَّ، أى أصدروا

---

(١) وورد فى الحديث الذى أخرجه البخارى [١٩٠٦] فتح ، ومسلم [١٠٨٠] فى كتاب الصوم : « فإن غم عليكم » : أى ستره الغمام .

الحكم ونفذوا ما قضيتم به، أى لا تصدروا حكمكم، ثم تقولوا لا تنفيذ، لا تتراجعوا فى الحكم الذى أصدرتموه.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أى لا تؤجلوا الحكم إلى غد أو بعد غد، لا تمهلونى فى التنفيذ، بل نفذوا على الفور، وهل يوجد تحد أكبر من ذلك، تحد للخصم المعاند، وهم الأغلبية من قوم نوح، وهو تحد يقفل الباب أمام أيَّة مساومة، أو مصالحة أو عدول، بل يثير فى الخصم التحدى للتنفيذ، مع أن الخصم كثرة، ونوحًا والمؤمنين قلة، والإمكانات التى يملكها الكفار كبيرة وكثيرة، والإمكانات التى يملكها نوح والمؤمنون ضعيفة.. فلماذا هذا التحدى؟

أولاً: لأن نوحاً قد توكل على الله، فلا توجد قوة فى الكون تستطيع أن تصل إليه.

ثانياً: لأن نوحاً ظل يعظهم ويهديهم ألف سنة إلا خمسين عاما، ولم تنفع هذه المدة الطويلة فى هدايتهم أو جَعْلِهم يتركون الكفر ويتخذون طريق الإيمان.

ثالثاً: لأن الله أوحى إلى نوح أن هؤلاء القوم الكافرين لن يؤمنوا مهما دعاهم.

وفى ذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] وهكذا بعلم الحق سبحانه وتعالى الأزلى لم تكن هناك فائدة من استمرار الدعوة؛ لأن هؤلاء الكافرين قد ملأ الكفر قلوبهم وختم الله سبحانه وتعالى عليها، فهم لن يؤمنوا. إذن فكان لابد أن يأتى فاصل، وأن يكون الفاصل قوياً، وأن يعرف الكفار أن الله سبحانه وتعالى هو الحق، وأن ينالوا الجزاء على كفرهم وعنادهم، فليفعلوا كما يريدون، وليتآمروا كما شاءوا، فقد حق عليهم عذاب السماء.

* أجر الداعية على الله *

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ .....﴾ [يونس: ٧١ - ٧٢] قلنا . إن هذا التحذير هو تحد من نوح للكفار ؛ لأنه تحداهم أن يحضروا شركاءهم ويجمعوا أمرهم ولا يترددوا فى تنفيذه ويفعلوا كل ما فى وسعهم ؛ لأن نوحًا مؤيد من رب العالمين، كما يقال: إن فلانًا لا يهمه أحد ؛ لأنه يستند إلى إنسان قوى يستطيع أن يحميه من كل شىء. فإذا كان هذا بالنسبة للإنسان، فكيف بالنسبة لمن يحميه الله وينصره.

ثم بعد هذا التشدد فى الموقف أراد الحق أن ينبههم إلى أن ما جاء به نوح لا يحقق منه فائدة شخصية لنفسه، وإنما الفائدة تعود على من آمن به، ولذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢] أى أن نوحاً بعد أن تحداهم بأن يستعينوا بكل قوة يملكونها، كان هذا التحدى كفيل بأن يشعرهم أن نوحاً مؤيد من الله ولكن برغم هذا التحدى لم يؤمنوا، ولم يلتفتوا إلى أن ماجاء به نوح هو من الله ؛ لأنه لا يقدر على هذا التحدى ، والكفار كثرة والمؤمنون قلة، والكفار يملكون كل أسباب القوة، والمؤمنون ضعفاء، فلم يكن ليعلن هذا التحدى إلا وهو مؤيد بقوة لا تقهر، ولكنهم لم يفكروا بعقولهم، فالكافر عادة يملك غباءً إيمانيًا، ولولا هذا الغباء لكان الإيمان قد دخل قلوبهم ؛ لأن الإنسان إذا فكر بعقل سليم فلابد أن يصل إلى الإيمان، ولكنهم عاندوا وأصروا على الكفر ليحققوا بذلك نفوذاً دنيويًا.

وهنا جاءت لفتة أخرى من الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى عن دعوتى وعن دين الحق، فنوح لم يَدْعُهُم إلى عبادة مثيل لهم؛ بل دعاهم إلى عبادة الحق خالق كل شيء، وهو القهار فوق الجميع. ونوح لم يكن يبحث عن سلطة زمنية، أو سلطة دنيوية، أو يريد أن يصبح حاكماً، أو ذا نفوذ أو صاحب مال، حتى يمكن أن تكون له فائدة شخصية فى الدعوة، ولكنه يريد أن يضع أمامهم المنهج السليم الذى نزل من الله لسعادة البشر. ولذلك فقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أى ليست لى فائدة دنيوية اريد أن أحققها من وراء هذه الدعوة، وهنا لفتة إلى أن الإيمان بالرسول، أو عدم الإيمان به لا يزيد أجره أو ينقصه، فالرسول يحمل أمانة الدعوة، ومتى أبلغها فقد أدى مهمته بحيث أنه إذا لم يؤمن القوم وأصروا على الكفر، فإن ذلك لن ينقص من أجره شيئًا.

إذن فقوم نوح لا يقدرون على ضره، ولا يقدرون على نفعه ؛ لأن الحق يحميه من كل ضر، وهو لا يريد أن يحقق نفعًا خاصًا . كلمة ﴿أَجْرِيَ﴾ هنا الأجر هو ثمن المنفعة، والأثمان عادة إما أن تكون ثمنًا لعين، وإما ثمناً لمنفعة، كأن يكون إنسان يملك بيتاً وأنت تريد أن تشتريه.. إذن فأنت تشترى العين (البيت)، ولنفرضْ أن إنساناً عنده بيت لا يريد أن يبيعه فتقول له: اجعلنى أسكن فيه فإنك لم تأخذ البيت، ولكنك أخذت حق الانتفاع مقابل ما تدفعه من مال وهو الإيجار، والإنسان حين يأخذ أجراً أو يدفع أجرًا فإنه يفعل ذلك طلبا لمنفعة.. ومنفعة ملحة. نوح جاء بمنهج الحق ، والهداية واتباع المنهج هو منفعة لمن يؤمن، وليس منفعة لله. فالله غنى عن العالمين، ومنهجه جلَّ جلاله منفعة لمن يؤمن به. ومادام نوح يهدى قومه إلى الحق، فهو يهديهم إلى ما ينفعهم. ولذلك كان المفروض أن يأخذ أجرًا منهم على هذه الهداية مادام يقدم لهم النفع، ولكن نوحاً يلفتهم إلى أنه لا يطلب منهم أجراً، وإن كان يجب أن يكون هناك أجر على دعوة نوح فإن الأجر ليس

منكم، ولكن من الله سبحانه وتعالى.

إذن فنوح لا يريد أجر الدنيا، وليس معنى هذا أنه يفتقر إلى الذكاء الذى يجعله يحصل على أجر مقابل المنفعة، ولكنه يريد الأجر ليس على قدرات الإنسان، ولكن بقدرة الله ، إذن فهو أذكى منهم جميعا، ذلك أن عدم إيمان هؤلاء القوم وإصرارهم على الكفر يعطيهم مكاسب دنيوية، فهم يستبيحون ظلم الناس واغتصاب حقوقهم، والحصول على المال بالباطل، والوجود فى قمة النفوذ والسلطان، إنهم يريدون لهذه المكاسب الدنيوية أن تبقى لما تعطيهم من متعة دنيوية، ذلك أن دين الحق يساوى بين الناس ويمنع الظلم، ويعطى الناس جميعًا حقوقًا متساوية، وهذا ما يرفضه الكفار، ويعادون فى سبيله دعوة الحق، ولكن كل هذا النفع أو الأجر يكون على قدر أسباب الدنيا وبما تعطى، ونوح لا يريد هذا الأجر التافه، إنه يريد الأجر من الله، فالأجر من الله أى بقدرات الله بلا حدود، ذلك حتى لا يقول أحد: إن التمسك بالدين يتعب الإنسان. أقول: هذا الكلام يصدر عن عدم فهم؛ لأنك حين تترك إثمًا أو معصية أو ظلمًا لأنك تخشى الله، فإنك قد اخترت الأجر الكبير، فأنت لا تأخذ نفع الدنيا؛ لأنك تطلب الثمن من الله وتكون بذلك قد أخذت الثمن الأكبر والدائم.

واقرأ قول الله جل جلاله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ﴾ أى لا أريد الأجر منكم، ولكنى أريده من الله. ومن العجيب أنك تجد فى كل مواكب الرسل حين تخاطب أقوامها تخاطبهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٠٩] إلا فى قصتى إبراهيم وموسى عليهما السلام. واقرأ قول الحق فى سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن

يَقتُلُونِ قَالَ كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٩ - ١٧] أى أنهما دخلا فى موضوع الرسالة، ولم يقولا: «ولا نسألكم عليه أجراً» وفى قصة إبراهيم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧٤] لم يرد كذلك فى قصة إبراهيم: «وما أسألكم عليه من أجر» فإذا استعرضنا قصص الأنبياء غير إبراهيم وموسى نجد أن: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وردت فى كل قصص الأنبياء.

ففى قصة نوح اقرأ قول الحق ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٦ - ١٠٩] وفى قصة هود اقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وفى قصة صالح ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٢ - ١٤٦] وفى قصة لوط ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦١ - ١٦٤] وفى قصة شعيب ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦ - ١٨٠].

موكب الرسل كله ما عدا إبراهيم وموسى ، يقول: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ومن هنا كان يجب على الناس أن يفهموا أن الرسل حين يبلغون رسالة الله إلى الأرض فإنهم يقدمون منفعة للناس يستحقون عليها أجرًا، وأجرًا كبيرًا، ولكنهم يريدون الأجر من الله؛ لأنه هو الذى يعطى ويجزل العطاء ، وعطاؤه سبحانه بلا حدود، ورسول الله ﷺ قال لقومه: ﴿ قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٢] ولكن لماذا جاءت هذه الآية الكريمة فى قصص كل الرسل ما عدا قصتى إبراهيم وموسى؟. لأنك حين تأخذ أجراً على منفعة تقدمها لغيرك فلابد ألا يكون للغير معك منفعة وإلا تكون قد أخذت أجرك، نفرض أنك تتعامل مع أحد التجار، تبيعه أشياء ويبيعك أشياء، المنفعة هنا متبادلة فلا يوجد أجر. بالنسبة لإبراهيم أول من دعا للإيمان دعا عمه، وعمه شارك فى تربيته، أيمكن أن يقول إنه يريد أجراً على هذه الدعوة ؟. لا يمكن أن يقول ذلك ؛ لأن هناك منفعة متبادلة، وموسى رباه فرعون، وقالت إمرأة فرعون ستتخذه ولدا، حتى إن فرعون عيره بهذه المسألة وقال له كما يروى لنا القرآن الكريم : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨] ولذلك فإنه لم تأت فى قصتى إبراهيم وموسى مسألة الأجر.

الحق يروى لنا قصة نوح وكيف أنه قال: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وهكذا يلفتنا الحق إلى أن الأجر تحصل عليه ممن عملت من أجله ، ومادمت تعمل لله فأجرك على الله ، وهذا أمر منطقى وطبيعى، فماذا قال قوم نوح؟ يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ أى أن قوم نوح رفضوا أن يؤمنوا وأصروا على تكذيبه ، وهنا حق عليهم العذاب، ولكن الحق يقول: ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ سياق الكلام هنا أن العذاب كان سيلحق

بنوح ومن معه ؛ لأنه لا يقال نجيتك من كذا إلا إذا كان الأمر سيقع عليك فنجيتك منه، نقول: نعم، ذلك أن الطوفان عندما جاء ليغرق قوم نوح لم يكن هناك نجاة إلا لمن ينجيه الله تبارك وتعالى .

واقرأ وصف الطوفان فى القرآن الكريم: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١ - ١٢] والمفروض أنه حين ينزل المطر من السماء تتشربه الأرض، ولكن هذا ماء نازل من السماء، وماء خارج من الأرض ليغرق الجميع. ولكن الحق كان قد أعد لنوح والمؤمنين معه وسيلة النجاة، فعلَّم نوحاً كيف يصنع السفينة قبل أن يأتى الطوفان بفترة. فالحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ فكأنه عندما يحدث الطوفان كان من المفروض أن يغرق الجميع بما فيهم نوح والمؤمنون معه. ولكن الله بوحى منه أوجد سبل النجاة لنوح والمؤمنين معه، بأن علمه كيف يصنع السفينة التى ستكون هى وسيلة النجاة، وعلمه ذلك قبل حدوث الطوفان بفترة كافية وأن يصنع نوح السفينة بالشكل الذى يجعلها تنجيه ومَنْ معه ، مِنْ مؤمنين وحيوان وطير، فلو أن الطوفان فاجأ نوحاً دون أن يعلمه الله كيف يصنع الفلك ؛ لكان هو ومن معه قد غرقوا فى الطوفان.

ويلفتنا الحق بقوله: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ إذن فالنجاة من الطوفان كانت بفضل الله وأمره وتدبيره. الحق يقول: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ والفلك يطلق على المفرد وعلى الجمع، كقوله تعالى: ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ بصيغة الجمع تلفتنا إلى أن الحق حين يتحدث عن ذاته يتحدث بضمير الفرد، وحين يتحدث عن فعل له يتحدث بضمير الجمع، فالله يقول: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾

بضمير الفرد، وإذا جئنا للفعل يقول الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فكل شيء فيه فعل يأتي بضمير الجمع، وكل شيء فيه الذات يأتي بضمير المفرد.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ﴾ خلائف لمن؟ الخليفة هو الذى يأتى ليخلف من سبقه، والخلافة تأتى مرة للأدنى ومرة للأعلى، فعندما ركب نوح وقومه فى السفينة وغرق الباقون، نقول: إن المؤمنين قد خلفوا الكفار فى وراثة الأرض . فكأن الخلافة جاءت من الأدنى منزلة إلى الأعلى منزلة. ولكن عندما يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] فكأن غير الصالحين قد خلف الصالحين فى الأرض، فتكون الخلافة هنا من الأعلى إلى الأدنى. إذن فالخلافة إما أن تكون من صالح يخلفه غير صالح، وإما أن تكون من غير صالح يخلفه صالح، فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ خلف الصالحون غير الصالحين الذين أغرقهم الطوفان، أى أن المؤمنين خلفوا الكافرين، بينما فى آيات أخرى خلف الكافرون المؤمنين. إذن فهى تصلح للحالتين.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ . قلنا: إن الآيات إما أن تكون إعجازا فى الخلق يهديك إلى الإيمان بالقوة الخالقة، وهذه هى الآيات الكونية، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧] وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الروم: ٢٤] وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩] وكل شىء فى الدنيا يدلك على أنه مخلوق بعناية ولغاية محددة، ويؤدى المطلوب منه بنظام غاية فى الدقة، وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى ما لإرادتك فيه دخل فى هذا الكون وما لا يخضع لإرادتك، تجد

أن ما يخضع لإرادتك يقوم بمهمته فى غاية الدقة، فلا تتأخر الشمس لحظة فى شروقها، ولا يغيب القمر، ولا يأتى النهار بدلاً من الليل، ولا الليل بدلاً من النهار، وكلها تمضى فى نظام دقيق.

واقرأ قول الحق: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] هذا هو ما ليس لإرادة الإنسان فيه دخل، أما ما لإرادتنا فيه دخل فإننا نفسده بتدخلنا، فنقطع الأشجار ليملأ التلوث الأرض، ونلقى بالكيماويات فى الأنهار لنُحوِّلَ الماء الصالح للشرب إلى ماء فاسد، ونحارب آفات الزرع بالسموم ، فتدخل فى أجسادنا مع الطعام، هذه بعض إفسادات الإنسان فى الكون. الآيات إما أن تكون بمعنى الأشياء العجيبة فى الكون التى تنبهنا إلى وجود الله، وإما أن تكون معجزات يعطيها الحق لرسله كدليل على صدق بلاغهم عن الله، وإما أن تكون الآيات هى القرآن الكريم الذى فى كل آية منه معجزة. إذن فالآيات ثلاثة.. آيات الكون تلفتنا إلى الحق الأعلى وهو الخالق، وآيات تثبت صدق الرسل فى البلاغ عن الله، وآيات هى منهج- وهى التى يبلغنا بها أحكامه، فبأى نوع من الآيات كذبوا؟ إنهم كذبوا بكل الآيات، كذبوا بالآيات الكونية، فلم يلتفتوا إلى بديع صنعة الله وحكمة التكوين ودقة الأداء، وكذبوا بالمعجزات التى جاءت بها الرسل، وكذبوا بالآيات التى جاءت تحمل إليهم أحكام الله فى المنهج، فكأنهم كذبوا بكل الآيات.

ثم يقول الحق: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ الخطاب هنا لمن؟ لكل من يأتى من البشر وأولهم سيدنا رسول الله ﷺ. والحق يقول: ﴿فَانظُرْ﴾ ولا يقال انظر . إلا لشىء حسى توجه عينك إليه فتراه، ولكن هذه أمور غيبية وقعت مرة واحدة ثم أصبحت خبراً. ولذلك يكون تصديقك لها على قدر ثقتك فى قائلها. والمعجزات التى حدثت للرسل كانت كلها آيات حسية

أو كونية، الذى شاهدها آمن بها ، فمن شاهد الطوفان آمن به، ومن شاهد إبراهيم وهو يُلقى فى النار ولا يحترق آمن به، ومن شاهد موسى يضرب البحر بعصاه فينشق.. آمن به، ومن شاهد عيسى يحيى الموتى بإذن الله آمن بذلك. ولكن الذى لم يشاهد يكون إيمانه على قدر وثوقه بمن أخبر وتصديقه له.

ونحن آمنا بمعجزات الرسل ؛ لأن الله أخبرنا بها فى القرآن الكريم، ولكن المعجزة الحسية تقع مرة، والمقصود بها من رأوها. ولقد كانت معجزات الرسل السابقين لرسولنا محمد معجزات حسية. لماذا؟ لأن الرسالات السابقة لرسول الله ﷺ كانت موقوتة زماناً وموقوتة مكاناً، فجاءت لتؤدى مهمتها على قدر وقتها وزمانها. ولكن رسول الله ﷺ وهو الرسول الخاتم، جاء برسالة باقية إلى يوم القيامة، فكان لابد أن تأتى فيها آيات باقية لا تنتهى أبداً بحيث يستطيع من يدعو إلى دين محمد ﷺ قبل أن تقوم الساعة بلحظات أن يقول: محمد رسول الله وتلك معجزته، وهذا هو السبب فى أن القرآن الكريم جاء معجزة لرسول الله باقية يستطيع كل من يدعو إلى الإسلام أن يقول محمد رسول الله وتلك معجزته، والقرآن كما شهدنا ونشهد معجزة باقية فى كل عصر ، حتى فى عصرنا هذا وفى العصور التى ستأتى ، هناك إعجاز للقرآن فى كل عصر.

قول الحق: ﴿فَانظُرْ﴾ يجعل البعض يتساءل ماذا ينظر؟ والمسألة حدثت وانتهت. نحن نقول انظر لشىء موجود محس يمكن أن تراه ، نقول اقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] ونحن نعرف أن حادثة الفيل قد وقعت فى العام الذى ولد فيه رسول الله ﷺ، وهو لم يشاهدها بالطبع، فكيف يخاطب الحق رسوله ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] نقول: إنها رؤية إيمان،

ذلك أنه إذا قال الحق نأخذ ما قاله على أنه أقوى من رؤية العين، فالعلم المأخوذ من الله عن أمر غيبى لابد أن نتلقاه بثقة أكثر مما نثق فى رؤية العين، فالعين قد تخدع صاحبها، ولكن الله لا يخدع المؤمنين. إذن فالمعجزات التى أخبرنا الله بها، مَنْ آمن بالله فكأنه رآها، وإذا كانت الرواية على قدر صدق مَنْ رواها، فمَنْ أصدق منَ الله سبحانه وتعالى.

الحق قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ ولم يقل: الكافرين لماذا؟ لأن العقاب لا ينزل بقوم إلا بعد إبلاغهم بمنهج الله، وإنذارهم بالعذاب الذى ينتظرهم إذا لم يؤمنوا. واقرأ قول الحق: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥] فكأن الرسول يأتى أولاً لإبلاغ منهج الله وتحذير الكافرين والعاصين من عاقبة كفرهم، فإذا أصروا على الكفر حق عليهم العذاب لأنهم أنذروا. الحق يقول: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ [يونس: ٧٤] نحن نعرف أن البعث معناه : أن الشىء يكون موجوداً ثم ينتهى ، ثم يبعثه الله من جديد، فلماذا استخدم الحق كلمة «بعثنا» بالنسبة لموكب الرسل، نقول : لأن الحق حينما خلق آدم أعطاه المنهج لينزل به على الأرض، ولكن ذرية آدم بدأت تغير فى المنهج وتبدله حتى غيرت معانيه تماما، فكأنها أماتته، حينئذ بعث الله الرسل ليبعثوا المنهج الذى كان موجوداً ليطبق فى الحياة مرة أخرى، فالمنهج نزل مع آدم ؛ لأنه ليس من المعقول أن ينزل الإنسان إلى الأرض بدون منهج؛ بل لابد أن يعطيه الحق المنهج، ثم بعد ذلك تحدث الغفلة، فيعبد الناس الأصنام والشمس والقمر والنجوم وغير ذلك، فكأنهم أماتوا المنهج، فيرسل الله رسولاً ليبعث المنهج من جديد ويدعو لعبادة الله وحده.

قول الحق: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ﴾ أى من بعد نوح، ومسألة نوح أُخذت على أنه مقدمة موكب الرسل؛ بل قالوا: إن نوحاً كان رسولاً للناس جميعًا؛ لأن كل من كفر برسالته أغرق ولم يبق إلا الذين كانوا معه فى السفينة، هم

الذين نجوا، وهم الذين كانوا بداية جديدة للبشرية، وبداية إيمانية بأن الله أغرق الكافرين جميعًا، فكأنه فى آخر عهد نوح لم يكن على الأرض كافر، وذلك استجابة من الله لدعاء نوح عليه السلام فيما يرويه لنا القرآن الكريم: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] وهكذا كان نوح رسولاً عاماً بخصوصية المرسل إليهم، ولكن هل قص الله كل أخبار الرسل؟ لا.. لأن الحق يقول: ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾.

* بشرية الرسول ضرورة *

يقول الحق: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٥ - ٢٧] قول الحق : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ هذا الاعتراضُ حجةٌ عليهم وليس حجةٌ لهم، واعتراض فيه من غباء القوم وليس فيه شيءٌ من الفكرِ أو الحكمةِ. وقد سبق أن قلنا : إن بشرية الرسول ضرورية لإبلاغ الرسالة، فالرسول كبشر عاش مع قومه سنوات قبل أن يكلف بالرسالة، اشتهر خلالها بحسن الخلق والأمانة وكل خلق حميد، حتى يعرفه قومه ويعرفوا أنه لا يكذب، وأنه إنسان سوى يتصف بالصفات الحميدة حتى إذا كُلِّفَ بالرسالة كانت المقدمات تؤكد صدق بلاغه عن الله.

وكما قلنا: الرسول قدوة يطّبق المنهج عملياً أمام الناس، وهم يقتدون به، أى يفعلون مثله ولو كان من غير البشر. لو كان ملكاً مثلاً لقالوا يارب هذا مخلوقٌ من نورٍ، مجبرٌ على الطاعةِ لا يقرب معصية، طبيعة خلقه تعصمه من نزوات البشر. ونحن مَخْلُوقون من طين، لنا شهوات، ولسنا معصومين، كيف يمكن أن يكون المجبر على الطاعة المخلوق من نور قدوة لنا؟ ونحن مخلوقون من طين، مختارون فى الطاعة والمعصية، لا يمكن أن يكون هذا الرسول قدوة لنا. إذن فبشرية الرسول حتمية ومن تمام الرسالة.

ثم تمضى الآية الكريمة تقول: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ والأراذل هم نفاية الشىء أو أدناه، وهم القوم المطحونون

من الفساد، وهؤلاء بسبب ظلم الأغنياء والأقوياء لهم هم أول من يسارع إلى الإيمان بالرسول، لأنهم يرون فى منهج السماء الذى يحمله دفعا للظلم عنهم وإعادة لحقوقهم، وما من ثورة اجتماعية إلا كان أول الذين ينضمون إليها ويؤيدونها وتقوم على أكتافهم أولئك المظلومون المطحونون، أما المترفون فلماذا لا يؤيدون الثورة؟ هم يريدون أن يبقى الحال على ما هو عليه، لأنهم فى عزة وترف ومال. ولذلك فإن المترفين فى أى نظام هم الذين يهربون نجاةً بحياتهم من أى ثورة تتم، لأنهم هم المقصودون بالثورة لتوقف ظلمهم، وتنزع منهم مكانتهم الاجتماعية وتزيل ظلمهم عن الناس.

وقوله تعالى: ﴿بَادِىَ الرَّأْىَ﴾ أى ظاهر الرأى أو أول الرأى، أى أنهم آمنوا بمجرد إبلاغهم المنهج، ولم يناقشوه أو يتمهلوا ليدرسوه، ولكن هؤلاء الكفار الذين يتهمون أول من آمنوا بنوح بأنهم أراذل القوم وأنهم لم يتعمقوا فى المنهج ويدرسوه، نقول لهم: إنهم عند الله ليسوا أراذل، لأن المقاييس الحقيقية للأشياء ليست المقاييس التى عندكم وهى المال والجاه والسلطان وكل ما يعطيكم السيادة، فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه، وهؤلاء الأراذل، الواحد منهم أفضل عند الله من ألوف الكافرين. إذن فهم ليسوا أراذل كما تدعون، ولكن لهم مقام كبير عند خالقهم يوم القيامة، أما قولكم إنهم سارعوا إلى الإيمان ؛ فلأنهم وجدوه يدافع عن الحق ، ويساوى بين الناس ويخلص المجتمع من آفاته وشروره، فانطلقوا إلى الإيمان، وكان لهم رأى . إن المسألة ظاهرة واضحة لا تحتاج إلى تعمق أو جدل. ولكن أنتم بكفركم تريدون أن تختلقوا أسبابًا لعدم الإيمان، وتريدون أن تجادلوا بالباطل. إذن فمقاييسكم هابطة لأنكم ترون الحق ولا تؤمنون به، وليس هناك عند الله أراذل وعِلْيَةٌ من القوم إلا الإيمان. والحرفة الصغيرة تتعبك إذا امتنع صاحبها عن عمله. فلو لم يوجد ذلك الذى ينظف الطريق لامتلأ بالقمامة وأصبح مصدرًا لأمراضٍ تصيبنا جميعًا وتهلكنا؛ بل إن الذى يمسح لك الحذاء يقوم بعملٍ هامٍ ليحفظ

لك مظهرك اللائق فى المجتمع بدلاً من أن تمشى بحذاءٍ متسخٍ، وذلك الذى يقوم بتسليك المجارى لو أنه امتنع عن عمله ؛ لانتشرت الأمراض والأوبئة بين الناس، فإياك أن تحتقر أى عمل مهما كان صغيراً، فهذا العمل الصغير ومن يقومون به هو الذى يعطيك ترف الحياة ويجعل حياتك مريحةً. أنت سيدٌ فى بيتك، ولكن هذه السيادة هى من عمل الآخرين، هم الذين بجهدهم حققوها لك، ولو تخلوا عنك ما استطعت أن تكون سيداً، فلا تحقِّر أى عمل فى المجتمع.

ثم يقول الحق: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾. قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قول يوضح لنا فكر هؤلاء الكافرين البعيد عن الحقيقة، فكما بيَّنا فإن المترف صاحب النفوذ لكل الناس فضل عليه، ولكى تعرف أن منطق الكافرين واحد اقرأ قول الحق عن كفار قريش عندما أرادوا أن يوردوا حججهم بعدم الإيمان برسالة محمد قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] إذن فهم اعترفوا بصحة القرآن، ولكن سبب عدم إيمانهم: أنهم كانوا يريدون أن ينزل القرآن على واحد من أغنياء قريش وعظمائها ، وليس على رسول الله ﷺ (١).

ويرد الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢] الله هو الذى قسم

---

(١) قوله تعالى : ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ قال ابن عباس وعكرمة وقتادة والسُّدى ومحمد القرظى وابن زيد: يعنون مكة والطائف.
وقد ذكر غير واحد من السلف أنهم أرادوا بذلك (الوليد بن المغيرة) و (عروة بن مسعود الثقفى). وعن مجاهد : يعنون : (عتبة بن ربيعة بمكة) و (ابن عبد ياليل) بالطائف. [أ.هـ. من ابن كثير - بتصرف . جـ ١٢٩/٤] .

الحياة الدنيا بين الناس، ليكون كل واحد مسخراً لخدمة الآخر، وكل واحد رفعه الله فى شىء ورفع غيره عليه فى شىء آخر. ولكن قصور الفكر البشرى جعلنا ننظر إلى المرفوع فقط وهو الغنى، ولا ننظر إلى من هم كانوا السبب فى رفعه ؛ لأن الحياة الدنيا تحتاج إلى تكامل، وكل ما تشاهده من مهن صغيرة مرفوع عليها هى فى نفس الوقت رافعة. ولذلك فإنك تجد فترة من الزمن ينقلب المجتمع فيصبح السادة عبيداً والعبيد سادةً، فتجد فترة يكون فيها الجامعيون هم قمة المجتمع، ثم تنقلب الأمور فيصبح الحرفيون هم قمة المجتمع بالنسبة للغنى والمال.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ . لو علم هؤلاء الناس ما معنى الفضل ما قالوه، فالفضل هو الزائد على الحاجة، والفضل يقتضى فاضلاً ومفضولاً عليه. وكل إنسان فاضل ومفضول عليه، فكل منا فاضل فى مهنته أو حرفته أو ماله، وكل منا مفضول عليه فى مواهب أخرى.. هذا هو الفضل. فكل منا له فضل فى الأمر الزائد على حاجته، فيكون العالم كله مرتبط ارتباط تبادل منفعة وليس ارتباط سيطرة. ولذلك نقول لكل من يدعى أن له فضلاً وليس مفضولاً عليه : تواضع لأنك ما سيطرت إلا بمن لهم فضل عليك فى نواحٍ أخرى، فاستخدمتهم ليحققوا لك ما أنت فيه.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ الظن معناه نسبة راجحة وليس حكماً فى قضية، الراجح هو الظن ، والمرجوح هو الوهم، فهم يتحدثون ظناً وليس حقيقة، والله جل جلاله يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا﴾ . [يونس: ٢٤]

إذن فالإنسان حينما يتحدث عن الظن ، فهو لا يتحدث عن حقيقة واقعة، بل يتحدث عن أمر يعتقد عقله أنه صواب، دون أن يستطيع أن يثبت واقعه بالدليل، ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم: ٢٨] إذن فالظن غير الحقيقة(١)، ولذلك لم يقولوا نعتقد أنكم كاذبون، وإنما قالوا: وإنا لنظن أنكم كاذبون.

قول الحق: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ [هود: ٢٨] البينة هى التى جاءت من الله كهبة دون أن يكون للإنسان فضل فيها. والبينة هنا هى الرسالة ، أو منهج الله ، الذى هو النور والبصيرة والهداية والفطرة، والرحمة هى هدف الرسالة. والله يقول لنبينا ﷺ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] إذن فالبينة والرحمة هما من عند الله. ثم يقول الحق: ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أى عميت أبصاركم وإن كانت تنظر، إلا أنها لا ترى آيات الله. وقوله تعالى: ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ . أنلزمكموها : مكونة من الهمزة ونلزم وهى الفعل.. من الذى نلزمه؟ هو المخاطب، ونلزمه بماذا؟ بالإيمان بمنهج الله.

إذن فهناك استفهام وفعل وفاعل مطمور فى الفعل، ومفعول أول ومفعول

---

(١) الظن : ما يحصل فى النفس عن أمارة ، فهو شك فيه جانب اليقين أرجح، ويستعمل الظن بمعنى اليقين مجازاً كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ فيوسف عليه السلام، قطع بنجاة ساقى الملك وبقتل الخباز فقال : ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ فلا معنى للشك بعد ذلك، فتكون كلمة ﴿ ظَنَّ ﴾ فى الآية السابقة بمعنى: اعتقد، وهذا جائز فى اللغة العربية، وكثير من الناس يدَّعون اليقين ولا يفعلون ما يقتضيه، كما فى قوله: ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ بمعنى تيقنت ، ولو كان ظنا لعجلت بما يقتضيه خوف الحساب، والظن كاف للعمل دافع إليه، ولهذا عبر بقوله: ﴿ ظَنَنتُ ﴾ .

ثان. المفعول الأول هو كاف المخاطبة فى قوله ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ ، أى أنفرضها عليكم بالقهر وأنتم لا تريدونها وتكرهونها؟ طبعا لا. . لأن الإيمان بالنسبة للإنسان لابد أن يكون طواعية وعن اختيار، ولو أن الله سبحانه وتعالى أراد كل خلقه مكرهين لكانوا كذلك. ولكن الله يريد أن يأتيه الإنسان عن حب واختيار وليس عن قهر، لأن الإكراه هو إخضاع القوالب، والله يريد قلوباً تخشع وليس قوالب تخضع. ولو أن الحق يريد الإخضاع بالإكراه، لأخضعنا كما أخضع كل الكون وجعلهم مقهورين لأمره.

ولذلك نجد أن الله يسوق الحجج فى القرآن الكريم على أن عدم إخضاع الإنس والجن هو بناء على إرادة الحق، وليس على أنه غير قادر على إخضاعنا، فيقول سبحانه: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧] أى أن الله أخضع كل ما فى الكون ممن هم أقوى منكم مئات المرات، أخضع الشمس ، وأخضع القمر، وأخضع قوى الكون الكبرى التى هى أشد منكم، فلا تظنوا أن لكم اختيارا بإرادتكم؛ بل بإرادة خالقكم. ولذلك يقول الحق لرسوله ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٣ - ٤] الله يريد خشوع القلوب. ولذلك خلق القلب حرًا لا يخضع لأى ضغط أو إكراه، فأنت تستطيع أن تُخضعَ إنساناً بالقوة وتكرهه على عمل شىء، ولكنك لا تستطيع أن تكره إنساناً وتجعله يحبك، فمنطقة القلب تركت حرة حتى يكون الحساب عدلا. ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(١).

إذن فالدين لم يأت للإكراه، ولكنه جاء لنؤمن به طواعيةً واختيارًا. والحق يقول: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] والإيمان

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة : (٢٥٦٤) .

فطرى فينا، ولذلك فالإنسان لو حكم عقله بلا هوى لآمن. وبعض الناس يعتقد أن الدين يقيد حركة الإنسان فى الحياة، والحقيقة: أنه يقيدها لصالحك وليس لحرمانك، فعندما يقول الحق: لا تسرق.. فيكون قد منعك من سرقة مال غيرك، ولكنه منع الناس كل الناس من سرقتك. وإذا طلب منك ألا تعتدى على محارم غيرك.. يكون قد طلب من الناس كلهم ألا يعتدوا على محارمك. والناس يعتقدون أن معنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أنك لا تحث أحداً على الصلاة أو عمل الخير، نقول إن هذا ليس هو المعنى، ولكن المعنى هو عدم حملك على الإيمان بالقهر. فإذا أنت آمنت باختيارك نقول لك إياك أن تفعل ما ينقض إيمانك، لأنك إذا ارتددت بعد إيمانك وأصبحت كافراً وجب قتلك.

بعض الناس يقولون: ما دام ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فلماذا يقتل المرتد؟ نقول لا إكراه فى أن تدخل فى دين الله وتعتنقه. والله جعل عقوبة المرتد هى القتل، ليفكر كل منافق وكافر مائة مرة قبل أن يعلن إسلامه، لأن هذا الدين لا يعز بكافر أو منافق مهما كانت منزلته فى الدنيا، وإنما يعز بالمؤمن الحقيقى. ولكن بعد أن تكون قد فكرت أكثر من مرة، وناقشت القضية ثم آمنت، فالذى لم يدخل الدين ولم يؤمن به، قد يشرب الخمر ولا يتعرض له أحد، ولكنه متى آمن فإن شَرِبَ الخمر أقيم عليه الحد وجلد. بعض الناس يقول: إن هذا ضغط على حرية الفكر وحرية العمل. ونحن نقول لهم: هناك حرية فى أن تؤمن أو لا تؤمن. ولكن مادمت قد آمنت فإنك تصبح خاضعا لمنهج الله فى كل حدوده. ولذلك لابد أن يكون قلبك مطمئنا كل الاطمئنان قبل أن تعلن إيمانك، فإن أعلنته فاعلم أنك إن خرجت منه كانت عقوبتك القتل، وذلك حتى لا يدخل فيه منافق ولا كافر، ولا يكون هذا الدين مطية لأغراض الدنيا.

الحق يقول: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]

هذه الآية الكريمة وردت مع كل رسول ، قد جاءت بقوله تعالى:

﴿ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [هود: ٥١] مرة و﴿ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً ﴾ مرة، ما هو الفرق؟ لأن الرسول قد يسألهم أجراً لا يكون فيه مال كأن يسألهم تمراً أو شعيراً أو قمحاً أو غير ذلك. ومرة يسألهم مالاً ولا يسألهم أجراً عينياً. ولذلك نفى الله عن رسله أن يأخذوا أجراً أو يأخذوا مالاً، حتى تنتفى كل أنواع الاستفادة المادية. وهذا يدل على أن منهج الله الذى جاء به الرسول أمر نافع للناس، لأن الأجر لا يستحق إلا مقابل المنفعة، فالأشياء إما أن تأخذها، أى تشتريها، وإما أن تأخذ المنفعة وتظل العين لمالكها، وهذا يسمى استئجار، فكأن الذى قدمه الرسل كان يجب أن يكون له أجر، ولكن المنفعة الدنيوية ليست هى هدف الرسل؛ بل هم يريدون أجرهم من الله فى الآخرة، وهذا لأنه فى الآخرة الأجر من الله مباشرة، وبقدرات الله وهو أجر دائم أبدى عظيم.

قوم نوح قد طلبوا منه أن يطرد الفقراء الذين آمنوا، ويعدون بأنه إذا طردهم فإنهم سيتبعونه، انظر إلى الرد: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [هود: ٢٩] أى لن أطرد الذين أعلنوا إيمانهم لأنهم لا يعجبونكم، فهم عند الله أفضل منكم. ونجد هذه الحالة مع كل الرسل فالوجهاء وأصحاب النفوذ يشترطون لكى يدخلوا فى الدين الجديد أن يطرد النبى المؤمنين الفقراء. واقرأ قوله لرسوله ﷺ: ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢] إن الله جعل هؤلاء الفقراء البسطاء فتنة لكل من فى قلبه كبر وتكبر، ويقولون: نحن لا نتساوى مع هؤلاء، وفى ذلك يقول الله ، ويكشف لنا عما يدور فى عقول الكفار: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾.

وفى آية أخرى يقول الحق: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] (١) فالأساس هو الإيمان وليس الغنى، والأساس هو الآخرة وليس منازل الدنيا. ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا جلس فى مجلس يوزع نظره على كل جلسائه، حتى يظن كل جالس أن نظر رسول الله ﷺ لا يتحول عنه، وحتى لا يوجد شخص أو أشخاص من الفقراء البسطاء يعتقدون أن رسول الله ﷺ ينظر إلى وجهاء القوم ولا ينظر إلى فقرائهم. فلقد كان الجميع عنده سواء. ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ وهذا القول هو الذى رد به نوح عليه السلام على وجهاء قومه الذين طلبوا منه أن يطرد الفقراء، أى أنكم لم تفهموا مهمتى. إن هؤلاء القوم جاءونى على الإيمان والجزاء فى الآخرة، ولم يأتونى ليحققوا مالا أو ربحًا، ولو أنى طردتهم لكان هذا غير مقبول منى عند الله فأنا لم أجىء للمترفين وحدهم، وإنما جئت لأهدى كل الناس، وإن أكرم الناس عند الله ليس أغناهم ولكن أتقاهم(٢).

(١) عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: كنا مع النبى ﷺ ، ستة نفر، فقال المشركون للنبى ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه ، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .[الأنعام:٥٢] أخرجه مسلم فى صحيحه [٢٤١٣].

(٢) عن ابن عمر، رضى الله عنهما، قال: طاف رسول الله ﷺ ، يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن فى يده، فما وجد لها مناخاً فى المسجد حتى نزل ﷺ على أيدى الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت، ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: يا أيها الناس إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل برٌّ تقى =

ولذلك قال: ﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود: ٢٩] أى أن الذين جاءوا إلى نوح وطلبوا منه طرد الفقراء هم قوم جهلاء يجهلون مهمة نوح، ويجهلون الحقيقة، وهى أن منهج الله لا يفرق بين الناس بغناهم أو بفقرهم، فهذا عرض دنيوى زائل، ثم يأتى نوح بالحجة البالغة فى قوله تعالى: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٣٠] هناك تَذَكُّر، وهناك تَفكُّر، وهناك تعقل، وهناك تدبر. التذكر: أن يكون قد حدث لك شىء نسيته وتذكرته بسبب قول ما أو حادث ما. والتفكر: أن تستنبط شيئاً جديداً بعقلك. والتعقل: أن تستخدم عقلك فى فهم الأشياء، والتدبر: أن تكون هناك أشياء تقال لك فتتدبر فيها، لا تأخذ ظواهرها ولكن تأخذ حقائقها، وفى ذلك يقول الحق: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤] أى ألا يفكرون فى العطاءات والكنوز التى فى القرآن، أم يأخذون الظاهر ولا يفكرون فيه. والتدبر: هو الذى يأتيك بالمعانى الحقيقية. ولذلك كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول: «سوروا القرآن» ولذلك عندما يقال لك سور [1] السلعة، أى قلبها جيداً ولا تنظر لها نظرة سطحية؛ بل اختبر كل ما فيها، والقرآن الكريم لا تنقضى عجائبه.

إذن فنوح يقول لهم: من ينصرنى من الله إن خالفت منهجه، تذكروا هذا

= كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقى هَيِّنٌ على الله تعالى إن الله عز وجل يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ثم قال ﷺ: أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم. [تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٩)]. والحديث سبق ذكره وتخريجه فى صفحة (٢٤٦) تحت عنوان: كلكم لآدم وآدم من تراب.

(١) السور: هو حائط المدينة مذكر. وقول جرير يهجو ابن جُرْمُوز:

لما أتى خبر الزبير تواضعت   سور المدينة والجبال الخشع

فإنه أنث السور لأنه بعض المدينة. لسان العرب [٣٨٥/ ٤].

جيداً، لأنه لا ناصر من الله فى الدنيا والآخرة، ويذكرهم نوح ببشريته. واقرأ قوله تعالى: ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عندى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً﴾ [هود: ٣١] وهذا الرد سد منافذ الاعتراض على الكافرين، فقال: أنا لم أقل لكم إن عندى خزائن الأرض، فأطيعونى من أجل مالى، ولم أقل لكم إنى أعلم الغيب، فأطيعونى أقول لكم الغيب وأعلمه لكم، ولم أقل لكم إنى ملك ذو قوة أكثر من قوتكم، فأطيعونى خوفًا من بطشى وعذابى، ولم أدَّعِ أننى من جنس آخر متفوق عليكم، فإننى بشر مثلكم، وما دمت بشراً فأنا لا أزيد على أولئك الذين تزدرى أعينكم، وكلنا سنلقى الله فى الآخرة، وأنا أخاف هذا الموقف لأنى إن طردت المؤمنين سيحاسبنى الله على ذلك.

ثم يكمل الحق: ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ إِنِّى إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١] أى أن أولئك الذين تحتقرونهم وتزدرونهم بأعينكم، لا أقول لهم : إن الله لن يؤتيهم خيراً، فالخطاب هنا ليس موجهاً إلى هؤلاء الفقراء من المؤمنين، فقوله تعالى: ﴿وَلا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً﴾ كان السياق الظاهر للأسلوب أن يقول : لن يؤتيكم الله خيرًا. ولكن انتقل الخطاب إلى الغائب، فاللام التى يظنها الناس بأنها تؤدى القول لفلان. اللام هنا بمعنى عن، والمعنى المقصود: لا أقول عن الذين تزدرى أعينكم. فالكلام هنا ليس موجهًا إلى هؤلاء الفقراء من المؤمنين ولكنه عنهم، ونوح يقول عنهم للكفار، إذن فالأسلوب استقام.

وهذا له نظير فى قول الحق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] هل عندما جاء الحق خاطبوه بهذا الكلام؟ طبعا لا.. ولكنهم يقولون عن الحق أن جاءهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾

إذن فاللام تأتى بمعنى عن، واللام هنا لام الاختصاص، أى فيما يختص بهؤلاء الذين تزدرى أعينكم، وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٧] هم لا يقولون للحق ولا يستطيعون مخاطبته، ولكنهم يقولون عن الحق إنه سحر مبين.

نوح قال للكفار: إذا قلت للذين تزدرى أعينكم إن الله لن يؤتيهم خيرًا، أكون إذن ظالماً، وإذا طردتهم أكون أيضاً ظالـمًا، وهنا رد الكفار على نوح، واقرأ قوله: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هود: ٣٢] ونوح ظل يجادل قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، هذه الفترة الكبيرة قضاها فى حوار وأخذ ورَدٍّ مع قومه ليؤمنوا، والجدل هو المقاولة، هذا يقول كلاماً وذلك يقول كلاماً يقابله، وكل واحد من القائلين يريد أن يهدم حجة الآخر أو يضع فيها شبهة كى يسقطها. إذن فالمجادلة: مقاولة اثنين متقابلين فى الكلام، وكل من الطرفين يحاول أن يهدم حجة الآخر. والجدال مأخوذ من الجدل، ومعناه فتل الشىء، يقال نجدل الحبل لأن قشرة الحبل التى على السطح تكون هشة بفعل عوامل التعرية، فيجدلونها أى يفتلونها، أى يجمعونها مع بعضها البعض، والعضلات مثلا مفتولة لأنها متداخلة مع بعضها البعض، ومن الجدال أو من جنسه المراء. نمارى بعضًا : أى أنت تقول وأنا أقول. ولكن الخلاف بينهما : أن الجدل ؛ إنما يكون لإظهار حق ، والمراء يكون بعد ظهور الحق.

الله يقول: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] إذن فالجدال مطلوب لكى نصل إلى الحق، وهذا جدل حسن، والمراء: هو أنه بعد أن ظهرالحق نتجادل ، وهذا مأخوذ من : مرى الضرع ، والضرع هو : ثدى الناقة أو البقرة أو الجاموسة الذى به اللبن، ساعة يكون الضرع مملوءاً باللبن وتمسك حلمته لتحلبه ينزل اللبن منها بشدة وبقوة إلى أن ينتهى ما فى الضرع. فإذا استمر الحلب بعد انتهاء ما فى الضرع من لبن، فهذا اسمه

المرى، أى ظهر لك أن الضرع خالٍ من اللبن وهذه حقيقة، وأنت مستمر فى الحلب، فالمراء هو المجادلة بعد ظهور الحق، نقول لمن يفعل ذلك لقد انتهى اللبن. وظهر لك أنه انتهى، ورغم أنك عرفت هذه الحقيقة، فإنك مستمر فى عمليتك.

إذن فهناك جدال ومراء واحتكاك وتحكك وحجاج، والحجاج معناه : إظهار حجة الخصم على خصمه. الحق يقول: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] ومن غباء الكفار أنهم يستبطئون عذاب الله ، والله يتعجب منهم فيقول : ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا هو غباء الكافرين، لأن عذاب الله أليم وشديد ودائم وآت لا ريب فيه.

* من الذى يأتى بالعذاب ؟ *

نوح استمر يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، فاعتقدوا أن المسألة كلام فقط، وأن العذاب لن يأتيهم، وطلبوا من نوح أن يأتيهم بالعذاب إن كان من الصادقين، على ما زعموا، ولكن العذاب ليس فى يد نوح، فالذى يأتى بالعذاب والذى يمنع العذاب هو الله تبارك وتعالى. ولذلك رد نوح عليهم كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣] والله لا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما يريد، وقوله تعالى: ﴿وما أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أى لن تعجزوا الله، ولن تفلتوا منه أبداً، ولا تعتقدوا أن تأخير العذاب بسبب عجز أو عدم قدرة، وإنما كل شىء فى هذا الكون بمشيئة الله، وكل شىء له ميلاد وميعاد، فإذا جاء موعده أتاكم العذاب وأنتم لا تشعرون.

ثم يقول: ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] والكلام هنا لنوح. وقلنا إنه إذا أتى شرطان يكون الكلام للشرط الأخير، ويكون هو المقدم، فإذا قلنا إن التلميذ إذا طرده الناظر من المدرسة، وذهب يستعطفه فقال له: إن جئتنى أقبلك إن كان معك ولى أمرك، وقول الناظر: إذا كان معك ولى أمرك شرط متأخر، ولكن هذا الشرط المتأخر هو المتقدم. بمعنى أنه إن كان معك ولى أمرك أقبلك. وفى الآية الكريمة التى نحن بصددها ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ والمعنى إن كان الله يريد أن يغويكم فلا ينفع نصحى. قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ هل الله يغوى؟

إن الله يهدى، أقول إن معنى غوى أى تاه وضل عن الطريق. والله يقول عن نبيه ﷺ فى سورة النجم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ أى ما ضل عن الطريق وما تاه عنه. آدم عندما عصى الله واقترب من الشجرة المحرمة وأكل منها قال عنه الله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾. [طه: ١٢١].

والآفة فى فهم ألفاظ العقائد أن الناس يأخذونها على أساس ما اشتهرت به من معنى. لكن اللفظ له معان متعددة، فلابد أن نستعرض كل معانى اللفظ لنأخذ المناسب منها للآية. والحق يقول: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] والمعنى أنهم سيلقون عذاباً، لأن غيَّهم وابتعادهم عن الطريق هو السبب فى عذابهم، فسمى العذاب غيًّا باسم مسببه. والله يقول: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] أمطلوب منى أن أجارى السيئة بسيئة مثلها، أم أن الله يحسب السيئة بسيئة ويضاعف الحسنات ؟!!.

والغى يرد بمعنى الإغواء، وبمعنى الأثر الذى يترتب عليه وهو العذاب. والله فى كتابه الكريم أعطانا مفاهيم مختلفة للغى، مرة فى قوله تعالى ﴿عَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] . أى خرج عن الطريق الذى هداه الله له، وهو طريق الإيمان والطاعة. أمره الحق ألا يقترب من الشجرة المحرمة، ولكنه لم يطع، قال له ربه: ﴿وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] ولكنه لم يبتعد عنها كما أمره الله ؛ بل أكل منها. وقد فعل آدم هذا بسبب طبيعة بشريته لأنه مختار، صالح للطاعة وصالح للمعصية. والله يريد أن يعلمه أنه إن خالف منهج الله وأوامره، فستظهر عورته، أى يظهر السيىء منها. وأن كل مخالفة لمنهج الله تظهر عورات المجتمع.

والشيطان توعد أبناء آدم بالغواية، واقرأ قوله تعالى: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ

لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] كيف أغوى الله الشيطان؟ لأنه خلقه مختارًا صالـحًا للطاعة والمعصية، عندما أعطانا الله الاختيار، فقد ترك لنا أن نهتدى أو أن نغوى. إذا سرنا فى طريق الغواية نكون قد وجهنا أنفسنا إلى غير المراد منا، مع أننا صالحون لأن نفعل ما خلقنا من أجله. فأنت مثلا إذا أخذت ابنك إلى بلد فيه انحلال كباريس مثلاً، وقلت له لا تفارقنى، فيقول لك أريد أن أتجول وحدى، تعطيه المال فيذهب وينفقه فى معصية لأنه تعرض للغواية بملكيته لأسبابها : معه مال وأمامه مغريات كثيرة. وهو مختار يمكن أن يطيع ويمكن أن يعصى، حين يعود إلى أبيه يقول له لو أنك أصررت على أن أكون معك فى كل مكان ما ارتكبت هذه المعصية، ولكنك تركتنى لاختيارى، أى أنك أغويتنى بما أعطيتنى من اختيار لأفعل أو لا أفعل. إذن فالاختيار هو أساس الغواية، ولكنه أيضا أساس الهداية إذا اخترت طريق المنهج، وأنت قادر على أن تسلك طريق الهداية أو طريق الغواية.

إذن فالله لا يغوى أحدًا، بأن يبعده عن طريق الهداية، ولكن الإنسان إذا اختار طريق السوء يتخلى الله عن هدايته، ويتركه للشيطان الذى اتبعه. وقدرة الإنسان على الاختيار هى التى جعلته صالحاً للغواية، ولكن الفعل هنا منسوب إلى الله، نقول نعم.. لأنه لو لم يخلق الله الإنس والجن مختارين ما استطاع أحد أن يحيد عن طريقه، واقرأ قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٣-٤] إذن فأنت لا تسلك طريق الغواية رغماً عن إرادة الله ولكنك تسلكه لأن الله خلقك مختاراً، وهو يهديك إلى الطريق المستقيم، أى يبينه لك، ويقول هذا هو الطريق المستقيم ويرغبك فى جنته وينذرك بعذابه، ثم بعد ذلك يتركك للاختيار الذى وهبه لك، فأنت إما أن تهتدى، وإما أن تأخذ طريق الكفر والغواية، والعياذ بالله.

واقرأ قول الحق : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾

أى هديناهم للطريق المستقيم، إلا أنهم لم يتبعوه، وقول إبليس للحق: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦] أى بما خلقتنى مختاراً فى اتباع الإيمان أو الكفر، لأن الله لو أراد أن يقهر إبليس على الطاعة ما استطاع إبليس أن يكون عاصياً، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى هو الذى خلقكم وجعلكم مختارين وستعودون إليه سبحانه ليحاسبكم عما فعلتم.

وتنتقل الآيات الكريمة لترينا كيف حُورب منهج الله بالأكاذيب، فيقول جل جلاله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥] ولقد جاءت هذه الآية الكريمة فى صلب قصة نوح، ولكنهم قالوا لرسول الله ﷺ نفس الكلام ليرينا أن منهج الكافرين فى محاربتهم لدين الله لا يتغير[1]. الافتراء: هو الكذب المتعمد، وهو ما يناقض الحقيقة والواقع، وأنت إن أنكرت شيئاً مطلوباً منك، فأنكر مقابله المطلوب لك. فإذا قال الحق سبحانه وتعالى لاتسرق، فقد منعك من حرية الاعتداء على مال غيرك بدون حق، هذا هو ما أخذه منك المنهج. ولكن المأخوذ لك هو أنه منع الناس جميعاً من أن يعتدوا على مالك بغير حق. إذن فالمأخوذ لك أكثر من المأخوذ منك، ولا يمكن أن يكون هذا افتراء، لأن الافتراء يخالف واقعاً. وأنت ساعة يحمى الله مالك من الناس كل الناس، فهذا من مقاييس الاستقامة. ولذلك فعندما تنظر إلى تشريع يحد من حريتك، فتذكر كيف يحد من حرية الآخرين نحوك.. والآخرون أكثر منك.

وأوحى الله إلى نوح أن يرد عليهم: إن كنت افتريته فسيحاسبنى الله عما

---

(١) يقول الله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ اى اوَصَّى بعضهم بعضًا ؟! وهو سؤال استنكارى، بل هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم ، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم، وهكذا تجد ملة الكفر واحدة . [بتصرف يسير عن تفسير ابن كثير ٤/ ٢٣٩] .

افتريته عليكم، وإن لم أكن افتريته فأنتم تتحملون ذنب اتهامى بالباطل.. إذن فالذى يفترى هو الذى عليه الجرم، إن كنت افتريته فعلىَّ الجرم وأنتم بريئون منه، وإن كنتم أنتم افتريتم علىَّ، فعليكم الإجرام وأنا برىء. إذن فالأسلوب يحتاج إلى: مفترٍ، ومفترى عليه، ولذلك إذا أتى الافتراء فى جانب تكون البراءة للجانب الآخر، ولكن الآية لم تأت هكذا، لأن الأسلوب كان يقتضى أن يقال: إن كنت افتريته فعلىَّ إجرامى ولكم البراءة، ولكن معنى لكم البراءة حذف عندما يكون الافتراء من نوح.

وجاء بعد ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ فالإجرام جاء وحذفت البراءة، وهذا ما يسمونه الاحتباك، أى حذف الشق المقابل من شق آخر. واقرأ قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ . فئة قليلة جاءت على إطلاقها، فهى فئة قليلة فى العدد وفى العدة وفى كل لوازم الحرب. الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ كثيرة فى ماذا؟ هل فى العدد أم فى العدة؟ أم لديها الكثير من فنون القتال . وفى مقاييس الأسباب؟ إذا التقت فئة قليلة بفئة كثيرة، فالذى يلقى الهزيمة هو الفئة القليلة. ولكن قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قلبت الموازين لأن الله يكون دائمًا فى جانب الذين يقاتلون فى سبيله، وينصرهم لا بالأسباب ولكن بإرادة المسبب.

واقرأ قوله جل جلاله ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٣] فكأن القتال بين فئة مؤمنة تقاتل فى سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل فى سبيل الشيطان، وقوله تعالى: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دلت على المحذوف بأنها فئة مؤمنة، وقوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دلت على أن الفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان، هذا اسمه

احتباك كى لا يتكرر الكلام. ولكن فى نفس الموقف الذى تكرر مع سيدنا رسول الله ﷺ بنفس الاتهام وهو الافتراء. اقرأ قول الحق جل جلاله: ﴿قُل لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٢٥] ولم يقل الحق تبارك وتعالى: ولا نسأل عما تجرمون، نقول إن هذا ارتقاء فى الجدل، يناسب رحمة رسول الله ﷺ بالنسبة للعالمين.

❋ دعاء نوح على قومه ❋

الحق يقول: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلا مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هود: ٣٦] فبعد تسعمائة وخمسين سنة من الدعوة، هذه الفترة الزمنية الطويلة التى قضاها نوح فى تبليغ رسالة ربه ومجادلة الكافرين ونصحهم، وصل بذلك إلى قمة المجادلة جيلاً بعد جيل. قال الله له: انتهت مهمتك، فمهما فعلت ومهما دعوت فلن يؤمن لك إلا الذين أعلنوا إيمانهم فعلا. قوله تعالى: ﴿ إِلا مَن قَدْ آمَنَ ﴾ ﴿ إِلا ﴾ حرف استثناء، وساعة تقول ﴿ إِلا ﴾ يكون الذى بعدها خارجًا عما قبلها. فإذا قلت: جاء القوم إلا فلاناً. فمعنى ذلك أن القوم كلهم جاءوا وفلان لم يأت. ومادام لن يؤمن أحد من قوم نوح إلا من قد آمن، لا يكون هذا استثناء، ولكن تكون "إلا" بمعنى غير من قد آمن، أى لن يؤمن من قوم نوح غير الذين آمنوا، لأنه لا يوجد استثناء هنا، وهذه لها نظير فى قمة العقيدة.

واقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] هنا ﴿ إِلا ﴾ ليست استثنائية، ولكنها بمعنى غير، أى أنه لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا ، وهذه تعطى التوحيد. كذلك الآية الكريمة: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلا مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هود: ٣٦] أى غير الذين آمنوا. وقوله تعالى: ﴿ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦] أى لا تحزن عليهم بعد هذه السنوات الطويلة التى قضيتها معهم فلم يسلكوا طريق الإيمان. ولذلك ولطول مدة رسالة نوح وقومه يستهزئون به ويكذبونه[1]. جاءت

---

(١) ويستمر عناد قوم نوح معه حتى يوم القيامة فى الموقف العظيم لما روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ويجىء نوح وأمته ، فيقول الله:=

دعوته مناسبة لما لاقاه من عنت الكافرين طوال هذه المدة. لذلك دعا عليهم نوح كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ .

ولكن رسولنا ﷺ الذى هو رحمة للعالمين، قال فى موقف مماثل: «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» (1) ولقد أوحى الله لنوح أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن من قبل، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] أى لا تحزن لما فعلوه معك لأنهم كفار وليس بعد الكفر ذنب.

= هل بلغت ؟ فيقول : نعم أى رب ! فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا. ماجاء لنا من نبى ، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، وهو قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ . [البقرة: ١٤٣] . والوسط : العدل ، فيدعون ، فيشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم » .

وفى لفظ النسائى قال : « قال رسول الله ﷺ : يجىء النبى يوم القيامة معه الرجل ، ويجىء النبى معه الرجلان ، ويجىء النبى معه أكثر من ذلك . فيقال له :هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم ، فيدعون ، فيقال : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ، فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : أمة محمد ﷺ ، فتدعى أمة محمد ﷺ فيقال : هل بلغ هذا ؟ فيقولون : نعم ، فيقال : وما علمكم بذلك ، فيقولون أخبرنا نبينا ﷺ أن الرسل قد بلغوا فصدقناه ، فذلك قوله : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾. قال : عدلا لتكونوا شهداء على الناس » .

[البخارى ٣٣٣٩ ، ٤٤٨٧ ، ٧٣٤٩ ، والترمذى [٢٩٦١] ، وابن ماجه [٤٢٨٤] .

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين بالجعرانة قال : فازدحموا عليه فقال : « إن عبداً من عباد الله بعثه الله إلى قومه فكذبوه وشجوه، فجعل يمسح الدم عن جبينه ويقول : رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

قال عبد الله : « فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يمسح جبهته يحكى الرجل » اللفظ لأحمد . [١/٤٢٦ ، ٤٥٦].

وفى لفظ البخارى [٣٤٧٧ ، ٦٩٢٩] قال : « كأنى أنظر إلى النبى ﷺ يحكى نبيًا من الأنبياء ، ضربه قومه فأدموه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » . =

* سفينة نوح *

يعطى الحق أمره إلى نوح ليبنى السفينة، فيقول تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] وهكذا نعرف أن الحق أمر نوحاً ببناء السفينة؛ لأنه سيغرق الكفار، أما المؤمنون فسينجون. إذن فقد علم نوح فى هذه اللحظة بإغراق الكافرين. وقوله الحق: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [1] اصنع: معناها افعل صنع، وهناك الصنعة وهناك الحرفة. الصنعة هى التى توجد من موجود، فأنت تصنع كرسياً وتصنع أثاثاً وتصنع نجفاً وغير ذلك، والذى يقوم على صيانة هذه الصنعة نسميه «حرفى»، وهناك الزراعة والتجارة. إذن فنشاطات الحياة هى الزراعة لأن منها القوت، والصناعة وهى إنتاج السلع، والتجارة وتجمع كل نشاطات الحياة، الأرض تأتينى بالقوت المباشر، أما الصناعة فلا تأتينى بقوت مباشر، وإنما تأتينى بترف الحياة، لأنها آلات ترتقى بحياة الإنسان لتقلل المجهود والزمن، أما التاجر فهو وسيط بين الصانع والمستهلك.

والإنسان يوجد أشياء من موجود، والله وحده هو الذى يوجد من عدم، ونوح يصنع السفينة من أخشاب الشجر. والسفينة طولها ثلاثمائة ذراع

= والظاهر أن النبى الذى حكى النبى ﷺ حاله وهو يمسح الدم هو سيدنا نوح عليه السلام وهو الذى مال إليه عبيد بن عمير الليثى كما ذكر ذلك ابن إسحاق فى المبتدأ وابن أبى حاتم فى تفسير سورة الشعراء. انظر لمزيد من البيان : فتح البارى [٦/ ٥٢١].

(١) قال قتادة : أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أوائل هذه الأمة أورده الإمام البخارى تعليقًا فى ترجمة الباب ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ قبيل الحديث (٤٨٦٩) والنسائى فى الكبرى (١١٥٥٥) .

وعرضها خمسون ذراعًا وارتفاعها ثلاثون ذراعًا، وهو ارتفاع كبير لكى تسع كل المؤمنين والحيوانات ودواب الأرض وسباعها ووحوشها، وقيل إن نوحاً استخدم أخشاب شجرة واحدة فقط ليصنع السفينة. ويتساءل بعض الناس: هل شجرة واحدة تكفى لصنع السفينة؟ نقول: نعم، لأنها زرعت من مدة طويلة تقرب من ألف سنة ، وعمر الشجر تعرفه من الحلقات أو الدوائر التى فى جذعها. وكل دائرة تدل على حلقة من عمرها، ونوح أحضر الخشب وبدأ بناء السفينة.

قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أى أن الحق سيلهم نوحًا بوحيه كيف يصنع السفينة، وعلَّمه كيفية صناعتها. وقوله تعالى: ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُون﴾ [هود: ٣٧] فإن الله لا يقبل شفاعة فى هؤلاء الكافرين ؛ لأنهم ظلوا فترة طويلة وهم يعاندون نوحاً عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أى أن نوحاً وقومه لم يكونوا يعرفون صناعة السفن. ولكن الله هو الذى أوحى إلى نوح بكيفية صناعة السفينة، أى ألقى فى قلبه وفى عقله الخواطر التى تتيح له حسن صناعة السفينة. إن الله يقول لنبيه نوح: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أى بوحى منا وعلم بدليل قوله تبارك وتعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ وقول الله جل جلاله: ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى إنهم سيهلكون بالغرق.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨] كأن القوم الذين كانوا حول نوح مؤمنين أو غير مؤمنين لم يكونوا يعرفون لماذا يصنع السفينة؟؛ بل إنهم تعجبوا من هذه المسألة. وكلما مر الذين كفروا على نوح ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ لأنه يصنع شيئا غير معروف لديهم ومستغرب عندهم .

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣]
أى أنهم يربطون الألواح بالحبال، مثل الذى صنع من ورق البردى سفينة ليذهب بها إلى أمريكا، كلها مربوطة بالحبال محكم رباطها، فيأتى بأوراق البردى ويحكم ربطها بعضها مع بعض، لكى يكون الربط محكماً فلا يدخل الماء إلى السفينة ليغرقها. الله علّم نوحاً بأن يأتى بالخشب الجاف ويربطه بالحبال، وبعد ذلك عندما يكون الخشب فى الماء يزداد حجمه فيسد المسام بدقة أكبر، مثل الذين يصنعون البراميل ويضعون فيها الأشياء السائلة فلا ترشح من الخارج، لأن الخشب مدهون بالقطران الذى يسد المسام، والخشب من المواد التى تتمدد بالبرودة .

ولذلك فعندما يصنعون نجارة البيوت فى الصيف مثلا.. فعندما يأتى الشتاء ويتمدد الخشب فلا تغلق أبواب الدولاب، وإذا كانت مصنوعة فى الشتاء فإنها تأتى فى الصيف فتنكمش. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم، لأن أصل العقيدة هى الإيمان بالله، فإن أشركت به أو كفرت فإن ذلك يكون ظلمًا عظيمًا. وما دام الحق قال: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ وضحت تمامًا حكمة صناعة الفلك، لأن الذين ينجون هم نوح والذين آمنوا معه.

❊ قوم نوح يسخرون منه ! ❊

يقول الحق: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨] أنتم تأخذون ما نصنع بظاهر الأشياء، بأن المكان ليس فيه بحر أو بحيرات تستخدم فيها السفينة، ولكنكم لا تعلمون ماذا سيحدث لكم. لقد سخروا من نوح، وقالوا: بعد أن كان نبياً أصبح نجاراً، لو كان نبيًا حقاً ما لجأ إلى هذا، لقد قالوا: إن هذه السفينة بعيدة عن البحر، فكيف سينقلها؟ ولم يعرفوا أن الماء هو الذى سيأتيها، وهو الذى سيرفعها، لم يعرفوا أن طوفانًا قادمًا وأنهم مغرقون. ولذلك كلما مر عليه كبار قومه الذين لم يؤمنوا سخروا من نوح واتخذوه سخرية لهم، نبى يصنع سفينة وسط يابسة فى مكان بعيد جداً عن البحر، ولم يدركوا قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٣٩] أى أنكم لا تعرفون سر بناء السفينة الآن، ولكنكم ستعرفونها فى المستقبل.

استخدام «سوف» هنا استخدام "السين"، أن ذلك سيحدث فى المستقبل، لأن الفعل إما أن يكون ماضياً فيكون قد حدث فعلاً، مثل أكل فلان أو كتب فلان، أنت تنطق به بعد وقوع الحدث، وهناك الفعل المضارع وهو الذى يقال وقت حدوث الحدث، يقال فلان يكتب أو يذاكر، معناه أنه يقوم بالحدث فعلاً فى نفس لحظة كلامك، فإذا كان الفعل سيقع مستقبلا تضاف إليه السين "دلالة" على أنه لم يقع ولكنه سيقع، تقول: فلان سيذاكر.. معناه أنه لا يذاكر الآن وقت أن تتكلم، وإن كان سيذاكر مستقبلا، فإذا كان الفعل سيحدث بعد فترة طويلة نسبياً تقول سوف يذاكر، أى أنه لا يذاكر الآن ولن يذاكر فى المستقبل القريب ولكنه سيذاكر بعد فترة.

إذن فالحدث له عدة صور، فإذا تكلمت بالفعل الدال على الحدث، وكان كلامك بعد حدوثه يكون الفعل ماضيًا، وإن كان كلامك ساعة حدوثه يكون الفعل مضارعًا، وإذا كان سيقع فى المستقبل القريب يستخدم فيه حرف السين، وإن كان مسبوقًا بسوف فإنه يكون فى المستقبل البعيد. واستخدام الحق سبحانه وتعالى كلمة: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يدل على أن نوحًا صنع السفينة فى عدة سنوات[1]، وأنهم بعد هذه السنوات سيعلمون. ولذلك عندما قال نوح عليه السلام: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى سيمر وقت طويل حتى تعلموه. إذن فالآية الكريمة جاءت على أوسع مدى من الزمن، ولكن تعلمون ماذا؟ ما الذى سوف تعلمونه؟.

الحق يقول: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩] إذن فالطوفان الذى سيأتى، سيخزى هؤلاء الكفار، لأنهم كانوا يسخرون ويقولون ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، كلمة يحل ضد الرحيل، يعنى نزل إلى مكان للإقامة فيه بصفة دائمة، وضدها الرحيل أو الترحال، أى نزل إلى مكان ليقضى فيه فترة قصيرة ويرحل: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ يعنى عذاب دائم، عذاب لا يتركهم أبداً، بل يقيم معهم إقامة دائمة، هو معهم كل الوقت، لا يستطيعون دفعه ولا الفرار منه.

الحق يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] ﴿حَتَّىٰ﴾ تدل على الغاية، ﴿أَمْرُنَا﴾ أى الطوفان الذى سيأتيهم. الحق سبحانه يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ إذن فكم مرحلة؟ أمر من الله بصناعة الفلك، وتنفيذ نوح لأمر الله بصناعة الفلك

---

(١) قال ابن كثير : قال بعض السلف : أمره الله تعالى أن يغرز الخشب ويقطعه وييبسه فكان ذلك فى مائة سنة ونجرها فى مائة سنة أخرى. وقيل: أربعين سنة . والله أعلم . ا.هـ. تفسير القرآن العظيم [٢/٤٢٦] .

ثم انتظار نوح إلى أن يأتى الطوفان. إذن فهى عدة مراحل تحمَّل فيها نوح سخرية الكفار منه واتهامهم له بأنه ترك النبوة وأصبح نجارًا.

يقول الحق: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فار يعنى غلى مثلما يقال الماء فار أى غلى، والغليان هو أعلى سخونة للماء، والماء يكون فيه هواء. والدليل على ذلك، أن السمك يتنفس منه، عندما يغلى الماء تجد أن فقاقيع الهواء قد خرجت منه. وعندما تغادر فقاقيع الهواء الماء تحدث خلخلة فيه فيكون الماء ثقيلا، بعد أن تقذف النار بفقاقيع الهواء الموجودة فيه. والتنور هو المكان الذى يخبزون فيه، وخروج الماء من التنور، معناه أن الماء يخرج من مكان لا يتوقع أن يخرج منه[1]. والتنور أو المخبز هو مكان تشتد فيه الحرارة وتوقد فيه النار للخبيز. وكانت هذه هى العلامة التى أوحى بها الله إلى نوح، عليه السلام، فعندما يبدأ خروج الماء من المخبز، يسرع نوح إلى الذين كتب الله لهم النجاة من المؤمنين ليركبوا السفينة معه، ويحمل فيها من كل زوجين اثنين من مخلوقات الأرض، الذين كتب الله لهم النجاة، ولكن لماذا زوجين؟ لأن الله جعل التكاثر من ذكر وأنثى، فإذا نجا الذكور وحدهم، انقرضوا بعد فترة ولم يحدث تكاثر. وإذا نجا الإناث وحدهم انقرضن أيضاً ولم يحدث تكاثر، وهؤلاء الذين حملهم نوح فى سفينته، عندما ينتهى الطوفان سينزلون إلى الأرض ويتكاثرون من جديد حتى يعمروها مرة أخرى، فكأن وجود الزوجين ضرورة لتعود الحياة وتعمر الأرض.

ولقد كان من اللازم أن تكون هناك علامة لنوح عندما يرى التنور يفور فيه

---

(١) يقول ابن كثير : عن ابن عباس رضى الله عنهما : التنور : وجه الأرض . أى صارت الأرض عيونًا تفور حتى فار الماء من التنانير التى هى مكان النار صارت تفور ماءً . وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف . وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه : التنور : فلق الصبح وتنوير الفجر وهو ضياؤه وإشراقه . والأول أظهر . وقال مجاهد والشعبى: كان هذا التنور بالكوفة . وعن ابن عباس عين بالهند . وعن قتادة عين بالجزيرة يقال لها عين الوردة . وهذه أقوال غريبة . ا.هـ. تفسير القرآن العظيم [٢/ ٤٢٦] .

الماء، ويقولون إن أصل هذا التنور أو المخبز أن نوحًا كان يخبز فيه. وأن التنور كان مخبز سيدنا آدم، الذى يهمنا أنه كان علامة بين نوح وبين ربه يعرف بها قرب بداية الطوفان. وكان على نوح عندما يرى هذه العلامة ، أن يجمع من كل شىء زوجين، أى من كل ما تتطلبه حياة الناجين من المؤمنين، والناجون محتاجون إلى أشياء كثيرة، محتاجون إلى أنعام وطير وهوام ووحوش وسباع؛ بل هم محتاجون إلى خنزير أيضًا. ولذلك عندما يقال إذا كان لحم الخنزير محرمًا فلماذا خلقه الله؟ نقول إنه: لم يخلق ليؤكل، ولكن له مهام أخرى فى الدنيا، هى أكل القاذورات والقمامة حتى لا تتعفن وتملأ الدنيا بالجراثيم والأمراض.

ويقال إنه عندما حمل نوح من كل زوجين اثنين، لم يكن الخنزير موجودًا معه على السفينة، وعندما خرجت من الراكبين فى السفينة فضلاتهم، كانت الرائحة كريهة جداً لا يطيقونها. فالله أمر الأسد أن يعطس، فعطس فخرج من عطسته خنزير، هذا الخنزير راح يأكل الفضلات والقاذورات والزبالة فقضى على الرائحة الكريهة فى السفينة ونجا راكبوها من أمراض وجراثيم ربما كانت ستقضى عليهم، وخصوصاً أن الرحلة استمرت عامين (1) .

---

(1) روى ابن أبى حاتم بسنده . . عن زيد بن أسلم عن أبيه : أن رسول الله ﷺ قال : « لما حمل نوح فى السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه : وكيف تطمئن المواشى ومعها الأسد ؟ فسلط الله الحمى فكانت أول حمى نزلت فى الأرض ، ثم شكوا الفأرة فقالوا: الفُوَيْسِقَة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا ، فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها » . [تفسير ابن كثير ٢/٤٢٧] .
قلت : هذا إسناد ضعيف : رواه ابن أبى حاتم عن عبد الله بن صالح كاتب الليث ـ وهو ضعيف . ضعفه النسائى وأحمد وغيرهما . وانظر المجروحين لابن حبان [٢/ ٤٠، ٤١] تهذيب الكمال [١٥/ ١٠٢] وما بعدها ، وأسلم مولى عمر بن الخطاب لم يسمع من النبى ﷺ . إنما اشتراه عمر سنة ١١ لما بعثه أبو بكر فأقام الحج. التاريخ الكبير للبخارى [١/ ٢/ ٢٥] والصغير [٢١] وتهذيب الكمال [١/ ٥٣٠] .

* الطوفان وركوب السفينة *

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] يعنى من كل شيء زوجين، يردفه العدد، وكلمة زوجين اثنين دلت على أنهما اثنان.. لماذا جاءت كلمة اثنين؟ لأنه يشيع بين الناس أن الزوج مكون من اثنين. ولذلك يقولون عدد فردى وعدد زوجى، ولكن الحقيقة أن الزوج لا يعنى اثنين. ولكن يعنى واحدًا ومعه مثله، إياك أن تعتقد أن زوجًا معناه شيئان.. لا.. زوج يعنى واحدًا. والله يقول: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] أى زوج فرد ولكن معه مثله، ليكون الاثنان زوجين اثنين، فلا تعتقد أن زوجين يعنى أربعة، لأنك قد تأخذ الزوج على أنه اثنان، وتكون كلمة زوجين اثنين تعنى أربعة، كلمة زوجين تعنى اثنين ولكنهما متماثلان.

وإذا قرأت قول الحق فى سورة الأنعام: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤] إذن فالزوج يطلق على الفرد بشرط أن يكون له شريك يماثله. فإذا قلنا زوجين اثنين أى فردين، ولذلك جمعهم الحق ثمانية، ولو كان الزوج يطلق على اثنين لكانوا ستة عشر. ولذلك يقول

الحق: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧ - ٣٩] قول الحق جل جلاله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾ أى أن الذكر زوج والأنثى زوج، وهما معا زوجان اثنان. والله أراد بذلك استبقاء الحياة على الأرض وليس هلاكها. ولذلك طلب من كل زوجين اثنين لأنه ينجيهم بالسفينة من الغرق، فلابد أن يهىء لهم استبقاء الحياة وإلا انقرضوا، ويقولون: إن السفينة مكثت سنتين فى الماء، فلابد أن يكون فيها عوامل استبقاء الحياة.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ وهذه هى المرحلة الأخيرة فى قصة سفينة نوح..

المرحلة الأولى : أمر من الله لنوح بأن يصنع السفينة..

والمرحلة الثانية : هى قيام نوح بصناعة السفينة ، وظل نوح يصنع السفينة عدة سنوات

والمرحلة الثالثة : هى العلامة بأن يخرج الماء من التنور مكان مخبز معروف فى القرية..

والمرحلة الرابعة: أن يحمل نوح معه فى السفينة من كل شىء زوجين اثنين وأهله..

والمرحلة الأخيرة: لكل من أعدهم لركوب السفينة: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ القول من نوح: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ هو أمر من الله إلى نوح بأن يأمرهم أن يركبوا فى السفينة، والركوب أن يكون الراكب مستعليًا على ما يركبه، وتكون السفينة فى خدمة من ركبوها، فكأن تسخير الله للسفينة كى تخدم من ركبها وتطيعه. ولكن الحق قال: اركبوا فيها ولم يقل: اركبوا عليها، والركوب يكون على السفينة.

ولكن الحق يريد أن يعطينا لقطة بأن السفينة لم تصنع بطريقة بدائية على شكل ألواح خشب يركب الناس فوقها، ولكنها مصنوعة بأحدث نظام لصناعة السفن الآن. ولذلك فإنهم يركبون فيها لا يركبون عليها، ولم تكن من طابق ولكنها من عدة طوابق، وفيها عدة أدوار لأن فيها خلقًا مختلفًا، فيها حيوانات ووحوش وحشرات ودواب وبشر وغير ذلك، ولا يمكن أن يركب هؤلاء مع بعضهم البعض. إذن فلابد أن يكون فيها طوابق بحيث يركب كل جنس مع بعضه.

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ فالسفينة مصنوعة لكى تنجى الذين آمنوا وتنجى معهم من كل أجناس الحياة على الأرض زوجين اثنين، وبما أنها مصنوعة لتنجيهم من الغرق فلابد أن تسير بمن فيها إلى مكان عال لا يصله الماء. إذن فلابد من الجريان بمن فيها ولابد من الرسو. ولذلك فجريانها يكون بسم الله ومرساها يكون بسم الله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١] لأن الذين آمنوا مع نوح.. صحيح أنهم آمنوا ولكنهم ليسوا ملائكة؛ بل هم بشر، قد يكون منهم من أخطأ واستغفر، أو من أذنب وتاب، أو من آمن، ولكن إيمانه تشوبه أشياء صغيرة. ولكن الله قدر أنهم آمنوا، فغفرلهم هذه الذنوب والهفوات الصغيرة التى ارتكبوها ولم يأخذهم بذنوبهم.

ولذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ كما يقول القاضى باسم القانون أو باسم الدستور أو باسم الشعب، أى أننى لا آخذ حيثية الحكم من ذاتى ولكن باسم من خوّلها لى، فالذين سيركبون هذه السفينة، حيثية ركوبهم أنهم آمنوا بالله، لأن السفينة لله أمر، وللرسول صناعة، وكل هذا من الله.

ولذلك يقولون: كل شىء لا يبدأ بسم الله هو أبتر[1].. لماذا؟ لأن كل فعل

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل امر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع» وفى رواية: «فهو أجذم» أخرجه أبو داود (٤٨٤٠) وابن ماجه =

يحتاج إلى طاقات، فإذا كان فعلا عضليًا احتاج لقوة، وإن كان فعلا عقليًا احتاج إلى ذكاء وفكر، وإن كان فعلا قتاليًا احتاج لشجاعة، وإن كان فعلا للإصلاح بين الناس احتاج إلى صبر، فاحتياجات الأحداث لابد لها من طاقات مختلفة، وأنت إن أردت القوة تقول: باسم القادر أو باسم القوى، وإذا أردت علمًا تقول باسم العليم، وإذا أردت غنى تقول باسم الغنى، وإن أردت حلمًا تقول باسم الحليم، واذا أردت انتصارًا فى الحرب تقول باسم القهار.

ولكن هناك أحداثًا تحتاج لهذه الأشياء كلها، ولذلك علَّمنا الله أن نستعين باسم واجد الوجود، باسم الله.. ففيه كل صفات الكمال لله سبحانه وتعالى. فإذا قلت : بسم الله إن كنت تريد قوة للفعل أعطاك، وإن كنت تريد شجاعة وجدتها، وإن كنت تريد غنى يغنيك، وإياك أن تتهيب أن تستعين بالله لأن لك معاصى، فالله سبحانه وتعالى رحمن ورحيم. إذن فقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ معناه أن الله نجى من هم فى السفينة لأنه غفور رحيم.

وقوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢] تدلنا على أنها مسيرة بقدرة الله سبحانه وتعالى. ولذلك فإن هذه الأمواج التى وصفها الله أنها فى علوها وضخامتها كالجبال، هذه الأمواج التى لابد أن تغرق أضخم السفن وأقواها لم تفعل شيئا لسفينة نوح، فلم تضربها بقوة أو تقلبها أو تضرها على أى شكل من الأشكال؛ بل إن السفينة تجرى، أى تمشى بسرعة عالية بين أمواج كالجبال؛ بل إن طريقها الذى رسمه الله لها ليس فيه موج يعوقها أو يضرها، ولك أن تتخيل سفينة فى بحر هائل بين أمواج كالجبال، كيف يمكن أن تبحر حتى إذا لم تغرقها الأمواج، فإنها على الأقل لا تجعلها تسير بسرعة. ولكن لأن سفينة نوح تسير بأمر الله وبتخطيط من الله تبارك وتعالى، فإن هذه الأمواج لم تؤثر فيها.

= (١٨٩٤) وابن حبان فى صحيحه، قال السدى: الحديث حسَّنه ابن الصلاح والنووى وقد ضعفه الألبانى فى إرواء الغليل (١/ ٣٠). وفى ضعيف سنن ابن ماجه وأبى داود.

* ابن نوح مع الكافرين *

الحق يقول: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢] وانظر إلى عاطفة الأبوة، عندما بدأت السفينة رحلتها، رأى نوح ابنه لم يركب فى السفينة وعرف أنه سيغرق، فأسرع يناديه ويحاول أن ينجيه. واقرأ قوله جل جلاله: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ نصيحة أب يحاول أن ينجى ابنه من الموت، وابن نوح لم يؤمن، ومع ذلك فإن عاطفة الأبوة جعلت نوحًا يحاول أن ينقذه رغم أنه كافر. ولكن الكفر الذى يملأ قلب ابن نوح أعماه عن الحقيقة، فبدلا من أن يرد أمر النجاة إلى الله سبحانه وتعالى، رده إلى نفسه وإلى قدرته البشرية. فقال كما يذكر لنا القرآن الكريم: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ وهكذا ظن ابن نوح أن هناك قوة يمكن أن تنجيه من أمر الله، وهى قوة الجبل وارتفاعه وشموخه بحيث لا يصل الماء إلى قمته.

وحينئذ أراد نوح أن يرشد ابنه إلى الطريق الوحيد للنجاة: ﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] أى لا تعتقد أن هناك شيئا فى كون الله يمكن أن ينجيك من أمر الله ؛ لأن كل ما فى الكون خاضع لإرادة الله قهرًا. وهو ينفذ أمر الحق تنفيذًا دقيقًا، ولذلك فلا الموج ولا الجبل ولا كل من فى الأرض يستطيع أن ينجى إنسانًا من أمر الله، فماذا حدث؟ يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ .

أراد الله أن يُنهى الحوار بين نوح وابنه نهاية سريعة، فلم يترك نوحًا وابنه يتحاوران لفترة طويلة ؛ لأن وقت الإمهال قد انتهى. لقد أمهل الله قوم نوح

تسعمائة وخمسين سنةً، نوح يدعوهم إلى الإيمان وهم يصرون على الكفر، وكانت المهلة كافية جدًا لكل ذى عقل، أن يفكر ويتدبر ويقلب المسألة فى عقله وفى قلبه مرات ومرات. ثم جاء وقت العقاب فلا تأجيل ولا إمهال ولا إعطاء لفرصة أخرى، لأن من لم يؤمن طوال هذه الفترة الطويلة لا يمكن أن يؤمن فى دقائق أو ساعات، ثم إن الأمر انتهى وحسم، بأن كل كافر لابد أن يهلك فى هذه اللحظة التى حدث فيها الطوفان، ولا رجعة فى ذلك ولا تعديل.

وهكذا نفذ الماء أمر الله وأغرق الكافرين جميعًا بما فيهم ابن نوح الذى رفض الإيمان. والحق أراد أن يعطينا صورة لنهاية الطوفان الذى أغرق الأرض، فقال جل جلاله ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ البلع: هو مرور الشىء من الحلق ليسقط فى الجوف، يقال لك ابلع ما فى فمك، أى أدخله من الحلق إلى جوفك، والحق تبارك وتعالى وصف لنا الطوفان وكيف تم بأمر الله، فقال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١ - ١٢] هذه اللقطة وهى كيفية حدوث الطوفان لم تأت فى هذه الآية لنعرف أن القرآن يكمل بعضه بعضًا، ففيما حكاه الله سبحانه وتعالى لنا فى الآيات التى نحن بصددها، أعطانا سبحانه وصفًا إجماليًا للأحداث، وذلك فى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أعطانا اللقطة إجمالية ولم يقل لنا كيف حدث الطوفان.

ولكن فى آية أخرى أعطانا صورة كيف حدث؛ لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يربى فينا فطنة الإيمان، ونحن مشغولون بقضية إيمانية، هى ابن رسول لم يؤمن برسالة أبيه، كان لابد أن يبين لنا ماهو حكمه فى هذه الحالة، وهل

سيشفع لابن نوح أن والده نبى فينجيه الله بكرامة أبيه، أم سيلقى نفس المصير الذى لقيه من كفر برسالة نوح؟ فلو أعطانا الحق هذه التفاصيل وكيف بدأ وماذا حدث؟ لابتعدت أذهاننا عن اللقطة الإيمانية التى يريدنا الحق، أن ننتبه إليها.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ أى خذى الماء من السطح إلى جوفك، ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ أى امتنعى عن المطر. وهكذا يمتنع المطر وتبتلع الأرض الماء فينتهى الطوفان، لأنه لو كان عندنا مكان فيه مطر والبالوعة مسدودة فإن أول شيء نفعله هو أن نجعل البالوعة تعمل ، ثم ندعو الله بالنسبة للمطر، فنقول يارب حوالينا ولا علينا. وهكذا أمر الله الأرض أن تبتلع الماء فى جوفها، وأمر السماء أن تتوقف عن المطر. ونحن نرى كيف أنه فى الشتاء عندما تكون البالوعات لا تعمل والمطر ينزل يملأ الماء الشوارع ويتعطل المرور وحركة الحياة. والله يريد أن ينبهنا إلى ما نفعله ليمتنع امتلاء أى أرض بالماء حتى لا تتعطل حركة حياتنا فى الدنيا. والماء لابد أن نحافظ عليه ولا نسرف فى استعماله. ولكن الإنسان حين يتوضأ يبقى الصنبور مفتوحًا طوال الوضوء، فيهدر عدة جالونات من المياه، مع أن رسول الله ﷺ أمرنا بعدم الإسراف فى المياه حتى ولو كنا على شاطئ نهر جار [1]، ولو أن الناس أرادوا أن يطبقوا إيمانهم التطبيق الصحيح، لاقتصدوا فى استعمال المياه بقدر الضرورة ، فيأخذون قدرًا محددًا ، وبذلك تتوافر المياه لكل الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ [هود: ٤٤] مادة غاض تستعمل لازمة وتستعمل متعدية، أى تقول غاض الماء وغاض الله الماء يصح الاثنان، ولكن

---

(١) عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ، فقال: « لا تسرف » فقال : يا رسول الله أو فى الماء إسراف؟. قال: « نعم؛ وإن كنت على نهر جار ». رواه الإمام أحمد فى المسند (٢/ ٢٢١) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥) وضعفه الألبانى فى الإرواء (١٤٠) .

الحق قال: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ وبناها للمجهول، من الذى غوض الماء؟ الله سبحانه وتعالى، ثم يقول جل جلاله: ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] قضى أمر ماذا؟ أمر الله فى إهلاك الكافرين، ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أى استوت السفينة على الجبل، والجودى هذا جبل قرب الموصل ناحية الكوفة فى العراق.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] أى أن القوم الظالمين ابتعدوا بعدًا نهائيًا عن الإفساد فى الأرض، فهم قد ماتوا وانتقلوا إلى حياة البرزخ، وسيظلون فيها إلى أن تقوم الساعة ليلقوا جزاءهم. إذن فابتعاد القوم الظالمين الذين كفروا برسالة نوح عن الإفساد فى الأرض أصبح نهائيا، ولم يبق على الأرض إلا المؤمنون، ولكن هل هؤلاء وذريتهم سيظلون مؤمنين؟ أم ستدخل الغفلة إلى قلوب الذرية فيشركون ويكفرون ويفسدون فى الأرض؟ طبعًا كما نعلم من القرآن الكريم، فإن الذرية ستعود إلى الكفر والظلم، فيبعث الله رسولا جديدًا ليعيدهم إلى الإيمان، ويهلك الله الكافرين، وهذه عملية متكررة سببها الغفلة وعبادة الدنيا وطمع الإنسان ونسيانه حساب الله الذى ينتظره يوم القيامة، فلو أن العذاب كان مشهودًا، لامتنعت المعصية تمامًا من الأرض. فلو أنك جئت بأجمل نساء الدنيا، وجئت بشاب فى قمة شبابه وحيويته ثم قلت له سنجعلك تقضى الليلة مع هذه المرأة تتمتع بها ما تشاء، ثم فتحنا له بابًا صغيرًا فرأى جهنم. وقلنا له بعد أن تقضى ليلتك كما تريد، سنلقى بك فى هذه النار لتبقى خالدًا فيها، أكان يقبل على المرأة؟ طبعا لا، كان سيفر منها، ولكن لأن العذاب محجوب عنا فنحن نعتقد أننا سنفلت منه أو ننساه.

ثم يبدأ بعد ذلك تحليل عاطفة الأبوة لنعرف الحكم فى كفر ابن نبى، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ﴾ [هود: ٤٥] عاطفة الأبوة التى وضعها الله سبحانه وتعالى عاطفة محمودة، فهى التى تجعل الأب يعمل ويكد ويتعب ثم

يعطى ناتج كل شقائه وتعبه هذا لابنه ويكون سعيدًا إذا استمتع الابن بمال أبيه، ولو أن شخصًا آخر اقترب من هذا المال يريد أن يأخذه لتصدى له الأب وقاتله. ولكن إذا أخذ الابن المال كان الأب سعيدًا مسرورًا وهو يرى الابن يتمتع بماله. هذه العاطفة وضعها الله فى قلب كل أب وكل أم حتى يتحملا الشقاء فى تربية أولادهما بسرور. فالأب يتعب ليأتى بالمال، والأم ترضع وتطعم وتسهر على ابنها، كل هذا شقاء ولكنه شقاء يتحمله الإنسان وهو مسرور.

نوح عليه السلام فيه عاطفة الأبوة، وهى عاطفة تتناسب مع حاجة الابن تناسبًا عكسيًا، فالابن وهو صغير ضعيف، عاطفة الأبوة تكون قوية جدًا، فإذا قوى وكبر تقل. وإذا كان هناك أخوان أحدهما غنى والآخر فقير، تكون عاطفة الأبوين مع الفقير لأنه ضعيف، أو مع المريض لأنه يعانى، أو مع الغائب الذى يعمل فى بلد بعيد. إذن فطالما كان الابن فى حاجة إلى أبويه، كانت طاقة العاطفة نحوه أقوى، ونوح هنا رأى ابنه يغرق وعرف أنه سيعذب فى النار. . فماذا قال؟ الحق سبحانه وتعالى يخبرنا: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥] والله تبارك قد وعد نوحًا بأن ينجيه هو وأهله لأنه قال له: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠] وابن نوح من أهله، ولذلك فقد فهم أنه من الناجين، مادام ابنه بصرف النظر عن إيمانه أو كفره. نوح نادى ربه من هذا المنطلق ؛ لأن الله وعده بأن ينجى أهله، واقرأ قوله تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

حينئذ رد الحق تبارك وتعالى على نوح: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦] قوله تعالى: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لفتة من الحق جل جلاله إلى أن أهلية الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم، وإنما أهلية المنهج والاتباع، فأهل الرسول هم الذين آمنوا به واتبعوه. فإذا قاس نوح ابنه على هذا القانون لوجده أنه ليس من أهله، ألم يقل رسول الله ﷺ عن سلمان

وهو فارسى «سلمان منا أهل البيت» [1] ؟ إذن فالبنوة بالنسبة للأنبياء والرسل بنوة اتباع وليست بنوة نسب، ثم أعطاه الله حيثية ذلك ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ كأن أهل النبى هم الذين يتبعون صالح الأعمال. ومادام ابن نوح لم يعمل صالـحًا بل؛ كفر فهو ليس من أهل نوح. وهنا نلاحظ أن الذات منكرة، فالله سبحانه وتعالى لم يتحدث عن ابن نوح بنسبه ، بل تحدث عنه كعمل غير صالح، مثلما تقول: فلان شر ولا تقل شريرًا. إذن فقول الحق: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ معناه أنه لو عمل ابن نوح عملا صالـحًا، لكان من أهله بعمله الصالح، والله سبحانه وتعالى لم ينكر على نوح أبوته لابنه.

ثم يقول الحق جل جلاله: ﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] أى فكر جيدًا قبل أن تسأل مثل هذا السؤال، وهنا يأتى التصحيح من الله تربية لأنبيائه لأنه يدلهم على الحق، وحين فوجئ نوح بهذا الخطاب من الله انزعج، وقال كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] استعاذ نوح بالله سبحانه وتعالى أنه سأله أن ينجى ابنه، لأنه لم يكن يعرف أن أهل النبي هم أتباعه، ثم قال: ﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهذا اعتراف من نوح أن ما قاله هفوة ما كان يصح أن تكون. والآية الكريمة معناها أن يارب إنى أستعيذ بك أن تجعلنى أسألك بغير علم، وأنا لا أستطيع أن أمنع نفسى من هذا لأننى لا أعلم. ولكن أنت يا الله تستطيع أن تمنعنى من مثل هذا السؤال، لأنك العالم بكل شيء. والإنسان لا يستعيذ بالله إلا إذا كانت قوته وقدرته لا تقدر على هذا الشيء، فامنعنى بقدرتك من أن أسأل مالا أعلم.

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبرانى فى الكبير (٦/ ٢٦١) والحاكم فى مستدركه (٣/ ٥٩٨)، فى سنده كثير بن عبد الله المزنى : قال ابن معين: ليس بشئ ، ضرب أحمد على حديثه. وانظر ميزان الاعتدال (٣/ ٤٠٧).

* الخروج من السفينة لمباشرة مهام الرسالة *

بعد أن استسلم نوح استسلامًا مطلقًا لله جاءه الأمر: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨] اهبط بسلام: أى انزل من السفينة لتباشر مهمتك الإيمانية فى أرض فيها مقومات الحياة التى حملتها معك فى السفينة من كل زوجين اثنين وفيها المؤمنون كلهم، وقد شهدوا طوفانًا سيظل فى بالهم حينما يرون أنهم وحدهم الناجون منه، وقوله تعالى: ﴿أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ لأن نوحًا حمل معه فى السفينة من كل أمم الأرض زوجين اثنين. وهذه الأمم هى الوحوش والحيوانات والحشرات والطير والدواب وغير ذلك. ولكن الأمة الأساسية التى حملها نوح فى السفينة هى بنى الإنسان، أما باقى الأمم فهى تخدم الإنسان فى الأرض، ونوح فى هذا له مقومات الحياة على الأرض ، لأنه لا يوجد على الأرض ساعة هبوط نوح ومن فى سفينته إلا المؤمنون، أما الكافرون فقد أغرقهم الطوفان.

وقوله تعالى: ﴿بِسَلامٍ مِّنَّا﴾ أى بأمن واطمئنان ؛ لأنه لا يوجد على الأرض إلا المؤمنون، ولم يعد هناك من الكافرين من ينغص عليه أمره؛ بل إنَّ كل من معك شاهدوا صنع الله وهو ينجيك وينجيهم من الغرق والموت. وقوله تعالى: ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ أى أن البركة ستكون لك فى العطاء ؛ لأن معنى البركة أن يعطى الشيء أكثر مما هو متوقع منه. فإذا أحضرت الغذاء لاثنين وجاءك ضيوف فجأة، فأكلوا حتى شبعوا، تقول: هذا طعام مبروك، ونوح معه من كل زوجين اثنين سيتكاثرون بسرعة ويملأون المكان.

ثم يقول الحق: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . [هود: ٤٨]

أى أن الأمم التى معك سيدخلون الجنة، ثم بعد ذلك تأتى الأجيال التى بعدهم وتطرأ الغفلة على قلوبهم فينقلبوا كافرين. فعن حذيفة رضى الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن، ثم علموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت، ثم ينام نومة فتقبض الأمانة فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه منتبرًا وليس فيه شىء ، ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله. . .» [1]، والوكت هو الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه، يقال: وكت البسر إذا بدت فيه نقطة الإرطاب، وأثر المجل عندما تمكث علي يدك فترة من الوقت قطعة من الجمر فإنها تحدث فقاعة مليئة بالماء.

وقال حذيفة رضى الله عنه ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه. . .». الحديث بطوله [2] إذن فالغفلة تنسج كالحصير عودًا عودًا، تأتى بعود أولا ، ثم الثانى فالثالث، وهكذا كلما يزداد عودًا تزيد رقعة الغفلة، فأيما قلب أشربها أى دخلت فيه دخولا تامًا وحلت منه محل الشراب وأحبها كما قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣] أى حب العجل،

---

(١) متفق عليه أخرجه البخارى (٦٤٩٧). مسلم (١٤٣).

(٢) صحيح. أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) وأحمد فى مسنده (٥/٣٨٦، ٤٠٥).

قوله : « مُرْبَادًا » : الرُّبْدَةُ : البياض اليسير يخالط السواد . [لسان العرب ٣ / ١٧٠]

قوله : « مُجَخِّيًا » : يعنى مائلا ، أو مُنَكَّسًا . [لسان العرب ١٤ / ١٣٣] .

والمعنى: أن الرجل إذا تبع هواه وارتكب المعاصى وأحاطت به خطيئته خرج من قلبه نور الإسلام، والقلب مثل الكوز إذا انكب انصب ما فيه ولم يدخله شىء بعد ذلك فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، فنعوذ بالله من أثر فتنة الغفلة على القلوب.

قول الحق: ﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ [لقمان: ٢٤] المقصود: وهو متاع الدنيا، ثم بعد ذلك العذاب فى الآخرة. والغفلة تأتى جيلا بعد جيل وهى على طريقتين: إما أن تكون غفلة الإنسان نفسه، أو تخليده للغافلين من قبله. هؤلاء الغافلون هم الذين جاءوا بعد نوح، قوم عاد وثمود وقوم لوط قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩] كل هؤلاء من بعد نوح، غفلوا عن المنهج جيلا بعد جيل، ثم بعد ذلك تصبح الفتنة على قلوبهم كالران فى قوله تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾. [المطففين: ١٤] الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾. [هود: ٤٩] أى أن ما قصصناه عليك والحديث هنا إلى رسول الله ﷺ، تلك هنا تعنى قصة نوح والسفينة:

﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

معناها أنك لم تعاصرها ولم ترها، ولم يعلمها لك أحد لأنك لم تجلس إلى معلم ولا قرأت كتابًا. ولذلك نجد فى القرآن الكريم قول الحق جل جلاله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾. أى لم تكن معهم ولم تقرأ ولم تتعلم، إنما الذى علمك هو الله سبحانه وتعالى

كما قال : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ .

ثم يقول الحق جل جلاله: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩] وهكذا أعطى الله لرسوله ﷺ قصة لم يكن يعلمها هو ولاقومه، حتى لا يقال أبلغهم بهذه القصة فلان، أو سمع هذه القصة وفلان يحكيها.. ليس هذا ولا ذاك، فلا رسول الله ﷺ كان يعلمها ولاقومه حتى يقال سمع منهم، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فالله سبحانه وتعالى أراد بقصة نوح تثبيت رسوله ﷺ والتأكيد له بأن الله ناصره، وأن كل رسول يضع حركته المنهجية الإيمانية بعون من الله، ولا يسلمه الله لخصومه أبدًا، وقوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ لأن نهاية الصبر هو انتصار الإيمان، ولأن المؤمن ينال جزاءه فى الآخرة ويخلد فيها.

* امرأة نوح وامرأة فرعون *

يقول الحق: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠] .ليس المقصود بالخيانة هنا الخيانة الجنسية (١) ، ولكن ذلك لنستدل على أن الرسول وإن كان رسولا ليس له من القدرة على أن يقهر المرأة على عقيدة ، إنها تملك حرية الاعتقاد، فلا ولاية هنا للرجل على المرأة فى العقيدة ، حتى وإن ادعى الألوهية كفرعون، فها هى امرأة فرعون كما يقول القرآن: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١] هذه هى اللقطات التى تدلنا على أن قضية الإيمان

---

(١) قال ابن كثير : ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أى فى الإيمان لم يوافقاهما على الإيمان ولا صدقاهما فى الرسالة فلم يجد ذلك كله شيئًا ولا دفع عنهما محذورًا ولهذا قال تعالى ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ اى لكفرهما ﴿وَقِيلَ﴾ للمرأتين ﴿ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ وليس المراد بقوله ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فى فاحشة بل فى الدين فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة لحرمة الأنبياء ، قال سفيان الثورى عن موسى بن أبى عائشة عن سليمان بن قرم سمعت ابن عباس يقول فى هذه الآية ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال مازنتا أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه ، وقال العوفى عن ابن عباس قال كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به ، وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحدًا أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء. وقال الضحاك عن ابن عباس: ما بغت امرأة نبى قط إنما كانت خيانتهما فى الدين وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم .

تفسير القرآن العظيم . [٤/٢٩٣].

لا ينفع فيها النسب أو الزواج(1).

(1) يقول ابن القيم: قول الله تعالى ذكره: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ ، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ، ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ ، فاشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال: مثل للكفار ، ومثلين للمؤمنين، فيتضمن مثل الكفار: أن الكافر يعاقب على كفره، وعداوته لله ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب، أو صهر، أو سبب من أسباب الاتصال. فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على أيدى رسله، فلو نفعت صلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان، لنفعت الصلة التى كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما، ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ قطعت الآية حينئذ طمع من عصى الله، وخالف أمره، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبى، ولو كان بينهما فى الدنيا أشد الاتصال. فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية، ولم يغن نوح عن ابنه ولا إبراهيم عن أبيه ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما من الله شيئا. قال الله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة فى ادعائهم ، أن ما تعلقوا به من دون الله من قرابة، أو صهر، أو نكاح، أو صحبة ينفعهم يوم القيامة، أو يجيرهم من عذاب الله، أو يشفع لهم عند الله. وهذا أصل ضلال بنى آدم وشركهم، وهو الشرك الذى لا يغفره الله. وهو الذى بعث الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه بإبطاله، ومحاربة أهله، ومعاداتهم. وأما المثلان اللذان للمؤمنين:

فأحدهما: امرأة فرعون.

ووجه المثل: أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئا فى الآخرة وإن تضرر بها فى الدنيا بسبب العقوبة التى تحل بأهل الأرض، إذا أضاعوا أمر الله، فتأتى عامة. فلم يضر امرأة =

= فرعون اتصالا به، وهو من أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما وهما رسولا رب العالمين

المثل الثانى للمؤمنين: مريم التى لا زوج لها، لا مؤمن ولا كافر.

فذكر ثلاثة أصناف للنساء: المرأة الكافرة التى لها صلة بالرجل الصالح، والمرأة الصالحة التى لها صلة بالرجل الكافر. والمرأة العزب التى لا صلة بينها وبين أحد.

فالأولى: لا تنفعها صلتها ونسبها.

والثانية: لا تضرها صلتها ونسبها.

والثالثة: لا يضرها عدم الصّلة شيئا.

وفى ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضاً اعتبار آخر: وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً قذف أعداء الله اليهود لها، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأها الله منه، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين.

فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه.

وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه، ولا سيما أسرار الأمثال التى لا يعقلها إلا العالمون أ.هـ [إعلام الموقعين ج١ ص ٢٢٥ وما بعدها].

❊ ميراث النبوة ❊

إن الحق حينما وعد نوحًا بأن ينجيه من الغرق هو وأهله، ثم فوجئ نوح بأن ابنه من المغرقين، قال الابن: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣] ماذا فعل نوح؟ لقد نادى ربه طالباً نجاة ابنه ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] لكن الله يعلمنا من خلال رده على نوح، أن أهل الأنبياء ليسوا من جاءوا من نسلهم، إنما أهل الأنبياء هم من جاءوا على منهجهم. لذلك قال الحق لنوح عن ابنه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦] لماذا يكون ابن نوح ليس من أهل نوح؟ لأن أهل النبوة هم الذين يتبعون منهج النبوة، ولذلك لم يقل الحق لنوح عن ابنه: إنه عامل غير صالح، ولكن الحق قال عن ابن نوح: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ لقد جعله الحق عملا غير صالح.

إذن فالذين يرثون النبوة والسلالة الإيمانية للأنبياء هم التابعون لمنهج الله، ولذلك أوضحنا من قبل أن النبى ﷺ جاء بسلمان الفارسى، وقال ما معناه: «سلمان منا أهل البيت»[1] إن سلمان فارسى، وليس عربيًا، ومع ذلك يصفه الرسول فى مصاف أهل البيت. إذن فالحكمة فى أن الله فى أسلوبه القرآنى أوضح لنا أن الله لا يحب شخصًا لذاته، إنما لعمله وصفاته فلم يقل: من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحبه؛ لأن «الهاء» هنا ترجع إلى الذات.

---

(١) ضعيف جداً قاله الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير رقم (٣٢٧٢) والضعيفة رقم (٣٧٠٤).

والحق لا يحب الإنسان لذاته، ولكن لعمله الصالح، لذلك قال: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦] وذلك لإيضاح البيان، أن الله يحب عمل العبد لا ذات العبد، فإن حرص العبد على محبوبية الله له، فليحرص على أن يظل متبعًا لمنهج الله.

فالحق يعلم الخلق كلهم من خلال نوح وابنه، فيقول الحق ما معناه: لا.. إن المسألة ليست وراثة، لأن من ذريتك سيأتى من يكون ظالما لنفسه، لذلك لا تنطبق عليه أبدًا صفة الإمامة، لذلك يقول الحق: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقر: ١٢٤] إن الحق يعلمنا هنا قواعد إرث النبوة، وإرث النبوة هو المنهج والإيمان، وهذا هو نسب الأنبياء. إن نسب الأنبياء ليس دمًا، وكذلك الانتماءات الأخرى، فالدين مثلا ليس وطنًا فحسب.. إنه منهج وعقيدة، من اتبعهما نال الأخوة الإيمانية.. هكذا علم الله نوحا أن إرث النبوة ليس هو الدم.

* ذرية من حملنا مع نوح *

يقول الحق: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] هنا ذرية منصوبة، لأن هناك شيئًا اسمه الاختصاص لقصد المدح، أى أخصكم أنتم يا ذرية نوح، ولماذا نوح بالذات؟ لأن الله نجى الذين آمنوا به، من الغرق، وحافظ على حياتهم، فأنتم من ذريتهم، فلابد أن تذكروا هذه النعمة لله. إن بقاءكم الآن من بقاء آبائكم، وهذا البقاء راجع إلى الذرية الأولى ، التى كانت مع نوح حين نجاهم الله من الغرق فى الطوفان. فكأنه يمتن عليهم بهذه النعمة، ويقول لهم:

يا نسل من أكرمناهم بالنجاة مع نوح استمعوا إلى منهج الله ؛ لأن آباءكم جربوا ذلك مع الله، فى أن الذى يؤمن به سبحانه يكون له نجاة من كل شىء.

كما تبين الآية أن الله أكرم ذرية نوح لأنه كان عبدًا شكورًا. إذن فالعمل الصالح ينفع الذرية. فكأنه يقول لهم، إنه سيكرم ذرية نوح ؛ لأنه كان عبدًا شكورا. ولذلك فالله لن يتركهم يتخبطون بعيدًا عن المنهج، بل سيرسل لهم بالهدى الذى يبين لهم الطريق الصحيح. ونحن قلنا : إن الآباء دائما ينشغلون أولا بالقوت، فإذا توافر للواحد منهم قوت اليوم، اجتهد أن يجمع قوت سنة، وهكذا يجمع لأولاده، حتى تمر على الإنسان لحظة يكون فيها خير أبنائه أكثر من خيره. وحين يكون ابنه مريضًا أو متعبًا يود لو أن التعب انتقل إليه هو. ولذلك تجده دائمًا مشغولا بحاجات الأولاد ومستقبلهم ؛ لأنه يخشى أن يصير ضعيفًا بعد أن كان قويًا، فلا يقوى على جمع القوت لهم،

أو يخشى أن يموت فيتعبوا من بعده.

فإذا كنت تخشى على أولادك من بعدك، فاتركهم للذى لا يضعف ولا يموت. قال تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ [النساء: ٩] ونحن قلنا: إن الحق حينما يطلب منا ذلك، يعطينا صوراً واقعية يحكيها القرآن، فحينما التقى العبد الصالح مع موسى، مرة خرق السفينة، ومرة قتل الغلام، ومرة بنى الجدار، وفى قصة بناء الجدار طلب موسى عليه السلام والعبد الصالح الطعام من أهل هذه القرية، وطلب الطعام أصدق سؤال، فلو أن سائلا سألك أن تعطيه جنيها ربما ظننت أنه يأخذ هذه الأموال ويكنزها، ولكن لو سألك عن رغيف خبز ليأكله فهذا أصدق أنواع السؤال[1].

فإذا كانت القرية قد ضنت عليهما بالطعام، فمن باب أولى أن تضن عليهما بما فوق الطعام، فهى قرية لئيمة، وليست قرية كريمة. فالعبد الصالح رأى فى القرية جداراً يكاد أن يقع فقام ببنائه. فموسى عليه السلام أنكر عليه ذلك. وقال له هذه قرية لئيمة بخلت علينا بالطعام، وأنت تبنى لهم جداراً بدون أجر. وهكذا حكم بظاهر الأشياء ؛ لأن الذى يمنع عنك الطعام لا يصح أن تخدمه بدون أجر. فالعبد الصالح أراد أن يفهم موسى الحكمة من هذا العمل، فبيَّن له أن هذا الجدار لغلامين يتيمين فى المدينة، وتحت هذا الجدار كنز لهذين الطفلين اللذين لا يستطيعان الدفاع عن مالهما، فلو وقع الجدار، وظهر الكنز، لأخذه أهل هذه القرية اللئيمة، وضاع حق هذين اليتيمين، فهو حين بنى الجدار لم يقدم لأهل القرية خدمة، ولكنه رد على لؤمهم بأن حرمهم من نهب هذا الكنز، وحفظه لصاحبيه.

والعلة فى ذلك كله أن أباهما كان صالحا، ولذلك فهما فى رعاية ربهما، فالله يرسل من يحفظ لهما كنزهما، ويبنى الجدار، بحيث يستمر حتى

---

(١) إشارة إلى قول الله تعالى فى سورة الكهف : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ .

يكبر الطفلان، ثم يقع بعد ذلك فيستفيدا من هذا الكنز. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] إذن فصلاح الآباء ينفع الأبناء. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] فمن تكريم الله للآباء الصالحين أن يلحق بهم ذريتهم المؤمنة حتى وإن قصروا فى العمل عن آبائهم، مع عدم إنقاص عمل الآباء، فيأخذوا أجرهم كاملا.

إذن فقول الله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ .

أى ذرية من حملنا مع نوح، وقد كان نوح عبدًا شكورًا، حتى قالوا : إنه كان من شكره لا يتناول شيئًا من مقومات حياته، ومن ترفها ، إلا حمد الله عليه، فيحمد الله فى الأكل والشرب والكسوة، وعند ركوب الدابة، وفى كل شىء. ولذلك يقول الناس الصالحون: ما أكثر ما غفل الإنسان عن حمد الله فى نعمه، وبعض الناس الذين غفلوا عن حمد الله فترة طويلة من عمرهم حين يتوب الواحد منهم، ويرجع إلى الله، وكأنه يقوم بعمل حمد القضاء، مثل صلاة القضاء، حيث يقضى الصلاة التى فاتته، كذلك يحمد الله عن الفترة التى غفل فيها عن حمده فيقول: الحمد لله على كل نعمة أنعمت بها على يا رب ونسيت أن أحمدك عليها. ويظل يكررها بقدر ما يستطيع. ويتعدى ذلك إلى أن يحمد الله عن الناس الذين أنعم الله عليهم ولم يحمدوه فيقول: الحمد لله على كل نعمة أنعمت بها على عبد ولم يحمدك عليها. ولذلك يقولون: النعمة التى يحمد الله عليها لا يسأل الإنسان عنها يوم القيامة؛ لأنه أدى حقها من الحمد ومن الثناء.

والشكر فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ الشكر دائمًا شكر للمنعم وشكر للمعطى وثناء عليه، ولكنه تجارة للشاكر أيضًا ؛ لأن الحق

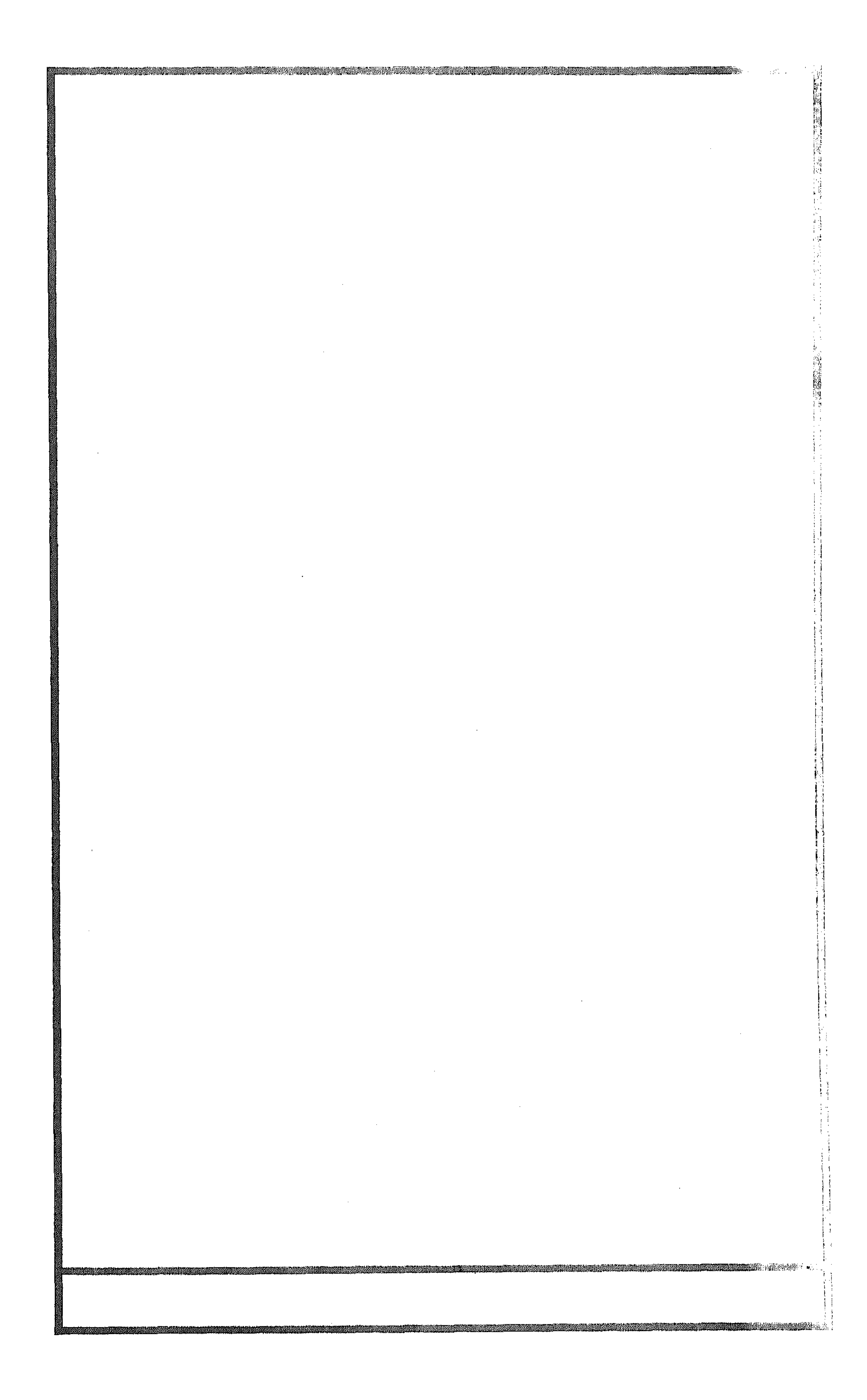
سبحانه يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم﴾ [إبراهيم: ٧] فربنا ليس محتاجًا لشكر خلقه، ولكن خلقه محتاجون إليه. فإن كنت تريد الخير لك فداوم الشكر، وإن أردت أن يمدك الله بالنعم فداوم على حمد الله. وهناك شاكر وشكور، وصابر وصبور(١). فالشاكر قد يشكر مرة، أما الشكور فهو الذى يداوم على الشكر(٢).

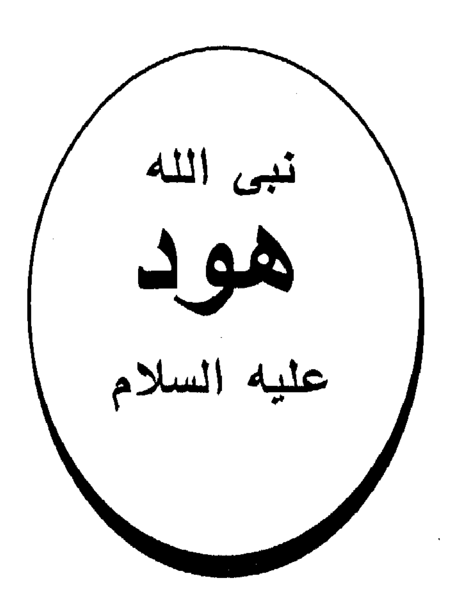
---

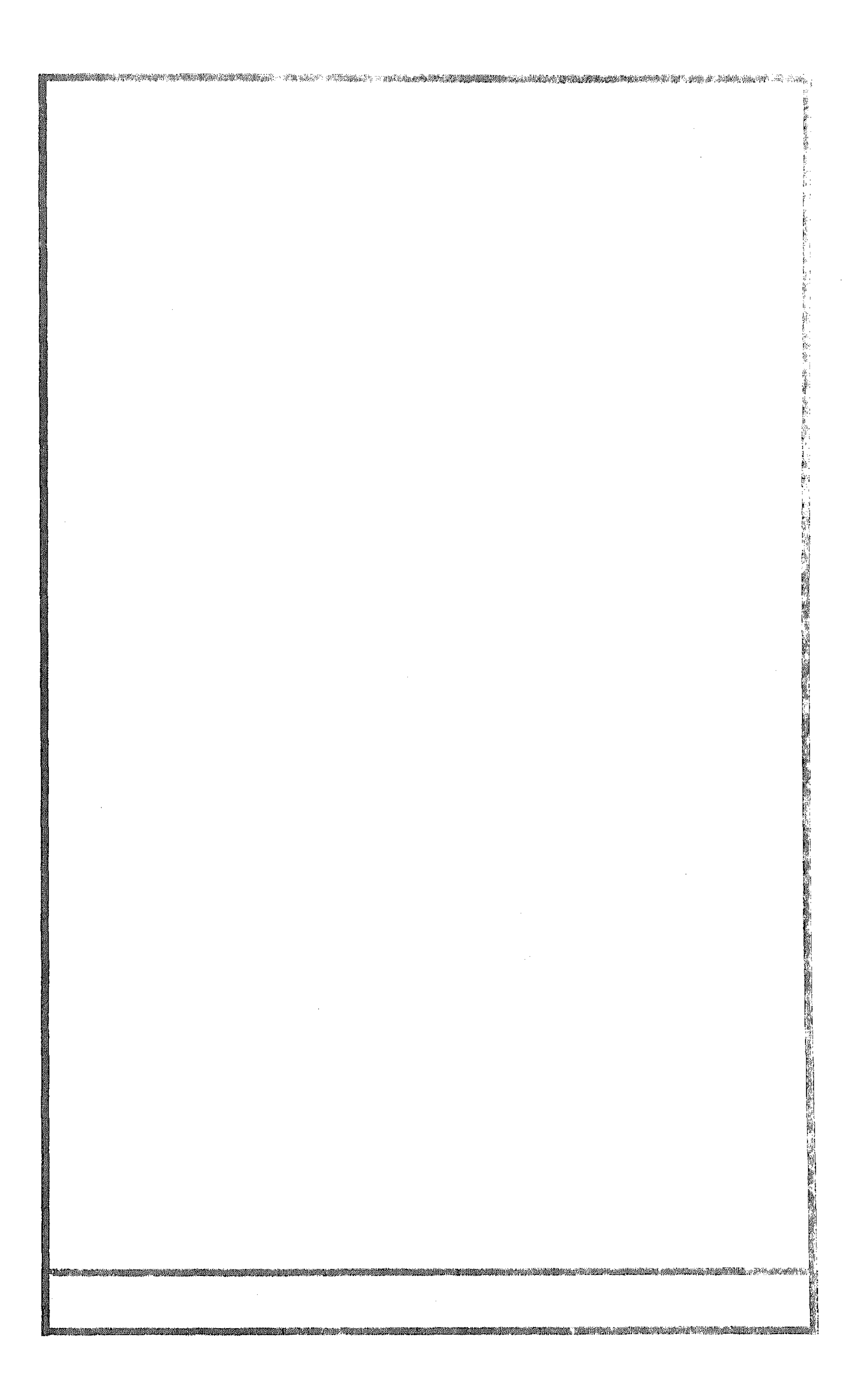
(١) والصابر اسم فاعل، والصبار صيغة مبالغة كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] أى كثير الصبر كثير الشكر. وكذلك صبور على وزن (فعول).

(٢) لما حضرت نوحا الوفاة أوصى ابنه : أمره بـ "لا إله إلا الله" و "سبحان الله وبحمده" لما روى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية ، عليه جُبَّةُ سيجانٍ ، مَزرورة بالديباج ، فقال : ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس ! ، قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس ، ويرفع كل راع ابن راع ! ، قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جُبَّته ، وقال: « ألا أرى عليك لباس من لا يعقل ! » ، ثم قال: « إن نبى الله نوحاً ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إنى قاص عليك الوصية: آمرك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين ، آمرك بـ « لا إله إلا الله » فإن السموات السبع ، والأرضين السبع ، لو وضعت فى كفة ووضعت «لا إله إلا الله» فى كفة ، رجحت بهن « لا إله إلا الله » ، ولو أن السموات السبع ، والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ، فصمتهن « لا إله إلا الله » ، و « سبحان الله ، وبحمده » ، فإنها صلاة كل شىء ، وبها يرزق الخلق ، وأنهاك عن الشرك والكبر » ، قال : قلت، أو قيل : يا رسول الله ، هذا الشرك قد عرفناه ، فما الكبر ؟ ، قال : أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان ؟ ، قال : « لا » ، قال : هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها ؟ ، قال : « لا » ، قال : الكبر هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟، قال: « لا » ، قال : أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه ؟ ، قال : « لا » ، قيل: يا رسول الله ، فما الكبر ؟ قال : « سفه الحق ، وغمط الناس » . رواه أحمد . وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح . [مسند أحمد ٣٥٨٣] .

« تمت قصة نوح عليه السلام »




نبى الله
هود
عليه السلام



* نبى الله هود عليه السلام (١) *

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [هود: ٥٠] رسول جديد جاء بعد أن عم فساد ذرية الذين نجاهم الله مع نوح، فانحرفوا عن المنهج، والرسول لا يأتى إلا عندما يعم الفساد، فلا يوجد من يصلح؛ لأن الله لا يبعث الرسل إلا إذا لم يوجد فى الأمة كلها من يرفع كلمة الله، وخلت من دعوة من سبق من الرسل لأن

(١) قال ابن كثير : وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، ويقال إن هودًا هو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، ويقال هود بن عبدالله بن رياح الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، ذكره ابن جرير.
وكان من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح، وكانوا عربيا يسكنون الأحقاف - وهى جبال الرمل - وكانت باليمن بين عمان وحضرموت ، بأرض مطلة على البحر يقال لها الشجرة ، واسم واديهم مغيث ، وكانوا كثيرا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمد الضخام، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ اى عاد إرم وهم عاد الأولى ، وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتى بيان ذلك فى موضعه ، وأما عاد الأولى فهم عاد ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ اى مثل القبيلة ، وقيل مثل العمد، والصحيح الأول كما بيناه فى التفسير.
ومن زعم أن "إرم" مدينة تدور فى الأرض ، فتارة فى الشام، وتارة فى اليمن، وتارة فى الحجاز ، وتارة فى غيرها، فقد أبعد النجعة، وقال ما لا دليل عليه ، ولا برهان يعول عليه ، ولا مستند يركن إليه، وفى صحيح ابن حبان عن أبى ذر فى حديثه الطويل فى ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه : "منهم أربعة من العرب : هود ، وصالح، وشعيب ونبيك يا أبا ذر " ، ويقال إن هودًا عليه السلام أول من تكلم بالعربية ، وزعم وهب بن منبه أن أباه أو من تكلم بها ، وقال غيره : أول من تكلم بها نوح ، وقيل آدم وهو الأشبه، وقيل غير ذلك ، والله أعلم.
ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام : العرب العاربة ، وهم قبائل كثيرة: منهم عاد ، وثمود ، وجرهم ، وطسم ، وجديس ، وأميم ، ومدين ، وعملاق ، وجاسم ، وقحطان ، وبنو يقطن ، وغيرهم ، وأما العرب المستعربة فهم =

المناعة الإيمانية فى النفس البشرية قد توجد مناعة ذاتية لمن تحدثه نفسه بالانحراف، فيعود إلى ربه، وهذه هى النفس اللوامة. ولكن إذا لم توجد هناك مناعة فى المجتمع، لا من أهله ولا من القريبين منهم الذين قد ينصحونهم، أى أن المناعة لا تتوافر لا فى ذاته ولا فى مجتمعه، فلابد أن تقوم حجة الله على الناس برسول جديد وبرهان سديد.

فبعد نوح حدث الانحراف وغرق فيه المجتمع كله، فأرسل الله تعالى هودًا إلى قومه عاد، والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ومادام أخاهم. فإنه لا يريد لهم إلا خيرًا، ومادام أخاهم يكون مأمونًا على ما يقول. ماذا قال هود لقومه؟ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ ولم يقل هود هذا الكلام إلا لأن الفساد قد عم، وجعلوا لله شركاءً وافتروا على الله كذبًا، أى تعمدوا الكذب على الله. ومادام أنه لا إله الا الله، فالافتراء الذى افتروه هو أنهم اتخذوا غير الله إلهًا، ثم قال هود: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [هود: ٥١] لأن الذى قد يتعبكم أننى أعطيكم منهجاً وأطلب مالا عليه كأجر، ولكنى لن آخذ أجرًا. ومادمت لن آخذ منكم

= من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم ، ولكن أنطقه الله بها فى غاية الفصاحة والبيان، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ.

والمقصود أن عاد - وهم عاد الأولى - كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ، وكانت أصنامهم ثلاثة : حمدًا وصمودًا وهرا . فبعث الله فيهم أخاهم هودًا عليه السلام فدعاهم إلى الله. وكان رسول الله ﷺ إذا ذكر الأنبياء بدأ بنفسه فقال : « رحمة الله علينا ، وعلى هود وعلى صالح » . أخرجه أحمد بإسناد صحيح فى المسند [٥/ ١٢٢] من حديث أبى بن كعب وفى حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : قال ﷺ : يرحمنا الله وأخا عاد . أخرجه ابن ماجه (٣٨٥٢). وضعفه الألبانى . ضعيف سنن ابن ماجه ٨٤٠ ، الضعيفة [٤٨٢٩] ، ضعيف الجامع الصغير [٦٤٢٧] .
[قصص الأنبياء لابن كثير : ٨٣ ، ٨٤]

أجرًا فلا توجد مشقة فى اتباع ما أقوله، وقال هود إننى لن آخذ منكم أجرًا لا لأننى غنىٌ، ولكننى أريد أجرى ممن أرسلنى وهو الله سبحانه وتعالى.

واقرأ قوله جل جلاله: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى﴾ [هود: ٥١] أى خلقنى معدًا لهذه الرسالة، فالفطرة هنا يعنى التكوين الأساسى لهود بأن يكون رسولا وأن يُعَدّ لما سيكلف به. وقوله تعالى: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أى ألا تستخدمون عقولكم وأنا لا أطلب أجرًا مقابل المنفعة، لأنك إما أن تأخذ أجر الشىء شراءً وبيعًا، وإما أن تنتفع به مقابل إيجار، أى إما تأخذه تمليكًا وإما إيجارًا. ومادامت قد جاءت كلمة ﴿أَجْرًا﴾ فكأن هود يقول لهم: كان من الواجب عليكم أن تدفعوا لى أجرًا، لأننى سأقدم لكم ما ينفعكم فى دنياكم وآخرتكم، والأجر يكون مقابل المنفعة، ولما كنت أعطيكم منفعة فى الدنيا والآخرة. كان الواجب أن يكون الأجر عليها كبيرًا، ولكنى لم أطلب منكم ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى﴾ ، لأنه هو وحده القادر على أن يعطينى الأجر، أما أنتم فلا تقدرون على الأجر الكبير الذى أستحقه. ويلاحظ أن قوله تعالى: ﴿لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أتت فى كل مواكب الرسل إلا إبراهيم وموسى.. إبراهيم لحكاية أبيه.. وموسى لأن فرعون هو الذى رباه.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود:٥٢] الاستغفار طلب المغفرة من ذنب وقع، والتوبة هى الرجوع إلى الله وعدم العودة للذنب أبدًا. والاستغفار ممافات، والتوبة هى عدم الإتيان بذنب جديد. ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ الإنسان حين يطلب المغفرة من الله، ويتوب ويبتعد عن الذنوب يغفر له الله ، ويتقبل توبته. ولكن الإنسان لأنه يعيش حياة رتيبة كل شىء

مسخر لخدمته، الأرض تنبت له الزرع، والسماء تمطر له الماء، والحيوان يخدمه فى الكون.. هذه النعم قد تنسيك واهب النعمة.

والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق:٦،٧] استغنى بماذا؟ بالأسباب، ولذلك نجد الناس حين تكون حضارتهم صغيرة تلفتهم إلى الله سبحانه وتعالى، وكلما اتسعت الحضارة بعدوا عن الله.. كيف؟ فى الماضى عندما كان الناس يذهبون إلى البئر ليشربوا، عندما لا يجدون ماء فى البئر يفزعون إلى الله طالبين المطر، والآن عندما لا تجد الماء فى الصنبور تتصل تليفونيا بشركات المياه لكى تعيد إليك الماء. إذن فكلما تزداد الحضارة يبتعد الإنسان عن الله لأن الأسباب تعطيه ظاهرا فينسى المسبب ويعبد الأسباب.

إذن فقول الحق: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٧] أى إننى لا أطلب منكم الأجر.. لماذا؟ مع أننى أقدم لكم نفعًا، ومن قدم نفعًا أخذ أجره. ولكن الرسول يقدم النفع دون أجر، لأن الأجر فى الدنيا على قدر صاحبه، فلو أخذ الرسل من الناس أجرًا. فلابد أن يكون بقدرات الناس. ولكن إذا أخذ الأجر من الله.. كان الأجر جزاءً وعطاءً من الله فيكون الأجر مضاعفًا مرات ومرات. والحق يقول بعد ذلك على لسان هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ والاستغفار لا يكون إلا عن ذنب سبق. ويأتى بعد الاستغفار أن يتوبوا إلى الله، كذلك تقول الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أى لا تفعلوا ذنوبًا جديدةً. ماذا لو فعلتم ذلك؟ ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ المدرار هو الذى يدرّ بتتابع لاضرر فيه، فمثلا فى الطوفان قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢]

ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم حوالينا ولا علينا» (١) حتى لا يغرق الماء القوم. ولكن ينزل على زرعهم. إذن فـ﴿مِّدْرَارًا﴾ معناها متتابعا تتابع إصلاح. فتخضر الأرض ويخرج الزرع فيزيد ما لنا وتزيد قوتنا.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ فنحن إن تولينا نكون قد أجرمنا فى حق أنفسنا، لأن إجرام العبد إنما يعود عليه. فلا تظن أن كفر ومعصية العبد يعود على أحد، إلا على نفسه. فهو الذى يشقى فى الدنيا، ويخلد فى العذاب فى الآخرة. كان هذا ما قاله هود لقومه، فردوا عليه بقولهم، كما يروى لنا القرآن الكريم :﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أى لم تأتنا بمعجزة دالة على صدق رسالتك. الله سبحانه وتعالى لم يذكر لنا فى القرآن الكريم ماذا كانت معجزة هود؟ ولكنه ذكر لنا المعجزة فى قوم صالح وهى الناقة. والمعجزة فى قوم نوح وهى الطوفان. كل رسول ذكر له معجزة. . فموسى مثلا شق البحر بعصاه، وإبراهيم ألقى فى النار فلم تحرقه، وعيسى أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله.

---

(١) جاء فى حديث أنس رضى الله عنه: أن رجلا دخل المسجد يوم جمعة، من باب كان نحو باب دار القضاء ، ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا ثم قال : يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا» قال أنس، ولا والله ما نرى فى السماء من سحاب ولا قزعة، وما بيننا وبين سلع، - يعنى الجبل المعروف بقرب المدينة من بيت ولا دار ، قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، فلا والله ما رأينا الشمس ستًا ، ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة ـ يعنى المقبلة ـ ورسول الله ﷺ، قائم يخطب فاستقبله قائمًا، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا، قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام- أى التراب المجتمع- والظراب- أى الجبال الصغار المنبسطة- وبطون الأودية ومنابت الشجر» فأقلعت وخرجنا نمشى فى الشمس قال شريك: فسألت أنس بن مالك أهو الرجل الأول ؟ قال: ما أدرى. أخرجه البخارى [١٠١٤] ومسلم [٨٩٧] .

ولذلك نجد أن نوحًا مثلا قد قال: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١] وفى هذا تحدّ من نوح؛ لأنه قال لهم: أنا أمامكم أحارب فساد الطغيان، وأنتم أهل سيطرة، وأهل جبروت، وأهل طغيان. تلك هى المعجزة العامة فى كل رسول يتحدى أهل الطغيان، فى أن يبطلوا منهجه، وأن يطفئوا نور الله، وأن يخلصوا الدنيا منه بأن يقتلوه مثلا. وتلك هى معجزة هود التى يقول عنها القرآن الكريم: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ هل صحيح أنه لم يأت ببينة؟ لا ؛ لأنه تحداهم أن يقضوا على رسالته، وهم أهل طغيان وبطش فلم يقدروا.

رسول الله ﷺ جاء بالمعجزة الجامعة الشاملة التى ستظل معجزة إلى قيام الساعة، وهى القرآن الكريم، وكل رسول جاء بمعجزة كونية حسيّة انتهى أمرها بحدوثها، ولولا أن القرآن حدثنا بها كان من الممكن أن نصدق أو نكذب. فمثلا عيسى أبرأ الأكمه والأبرص. . الذين شاهدوه من المؤمنين به هم المقصودون بالمعجزة. وموسى ضرب البحر بعصاه، الذى رآه آمن به، وهؤلاء هم المقصودون بالمعجزة. ولكن القرآن معجزة خالدة تعطى لكل جيل إلى أن تقوم الساعة. ورسول الله ﷺ أعطى معجزة باقية إلى يوم القيامة، لأنه لن يأتى بعده رسول. وعندما تحدى الكفار رسول الله ﷺ وقالوا كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٢] وغير ذلك من المعجزات الحسية التى طلبوها. فيرد الله سبحانه وتعالى عليهم: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ . [العنكبوت: ٥١]

اى أولم يكفهم أن بين أيديهم معجزة لا تنتهى إلى قيام الساعة. لو أن الله - سبحانه وتعالى - جعله صاحب جنة فيها أنهار أو كان يفجر إلينا فى الأرض ينبوعًا لحدث ذلك مرة واحدة وانتهى. ولكن الله أعطاهم معجزة لا تنتهى ومع ذلك كذبوا.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ [هود:٥٣] وهكذا يسمون الإفك الذى يعبدونه آلهة. وهذا مردود عليه بالقياس والمنطق، لأنها مادامت آلهة فلابد أن يكون لها منهج عبادة، تقول: افعل كذا ولا تفعل كذا.. فما هو منهج الأصنام؟ إذن فهى آلهة بلا منهج، ولا توجد عبادة بلا منهج. إنهم يعتقدون أن هذه الأصنام تضر وتنفع لأن هذه ديانة سهلة. فالآلهة التى ليس لها أوامر تكليفية تتركك لتتبع شهواتك كما تشاء، وهذا هو الدين الذى يتمناه الكفار، فلا يمنعهم من شىء، وفى نفس الوقت يدعون أنهم مؤمنون ولهم آلهة، وذلك ضد الفطرة، لأن الفطرة لا تعبد إلا إلهًا له منهج وله قوة، ولكنهم يعبدون آلهة لا تحد من شهواتهم. يقولون لهم: اشربوا الخمر واعملوا الفاحشة، واسرقوا أموال الناس، واظلموا.. فلا ذنب عليكم. ولذلك فإن كثيرا من المثقفين الذين اعتنقوا البابية والبهائية والقاديانية [1] لا يقيدون شهواتهم؛ بل يتركون لها العنان

---

(١) البابية : نسبة إلى الباب، وهو لفظ متداول عند بعض الفرق الباطنية وهو لفظ أطلقه على نفسه أحد دعاة البابية وهو (ميرزا على محمد الشيرازى) الهالك سنة ١٨٤٥م.

البهائية : نسبة إلى البهاء ، وهو لفظ أطلقه على نفسه أحد دعاة هذه النحلة بعد الشيرازى، وهو حسين على نورى ، الملقب ببهاء الله.

وأهم مبادى هذه البدعة.

أ- الحلول ، فهم يزعمون أن الله بعد ظهوره فى الأئمة الإثنى عشر ظهر فى أحمد الاصائى ومن جاءوا بعده.

ب- عدم ختم النبوة بسيدنا محمد ﷺ.

جـ-ظهور المعصوم ، وهو من أهم معالم بدعتهم.

د- عدم الاعتراف بالقيامة وما بعدها. =

لتعمل ما تشاء، ويدعون فى نفس الوقت أنهم متدينون؛ ولا يمكن أن يستقيم مثل هذا الدين.

الحق يقول: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود] ﴿عَن﴾ هنا بمعنى عن العادية. ولكن معناها: بسبب قولك، فعن هنا سببية، فهم قالوا لن نترك آلهتنا بسبب قولك: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ آمن تأتى بمعان متعددة، فإن عديتها بنفسها تكون أمنهم من خوف، وإن عديتها بالحرف، فإذا كان الحرف هو الباء.. يكون معناها اعتقدت مثل آمنت بالله، أى اعتقدت به، وإن عديتها باللام تكون بمعنى التصديق مثل: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ، أى بمصدقين. وعندما ذهب إخوة يوسف وتآمروا عليه بإلقائه فى الجب ثم عادوا إلى أبيهم فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ . بمؤمن أى بمصدق لنا.

وقوله تعالى عن قوم موسى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣] قولهم هنا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ

= هـ- إنكارهم معجزات الأنبياء مع قولهم بالنبوات.
و- الإسراف فى تأويل القرآن.
ز- مناصرتهم لكل عدو للمسلمين.
وقد صدرت عدة فتاوى بردة هذه الفئة الضالة المضلة.
القاديانية : وتنسب هذه النحلة إلى غلام أحمد القاديانى من بلاد الهند ادعى بأن الوحى نزل عليه وأخبره بأن أباه سيموت - وكان هذا بداية ادعائه النبوة.
ومن أهم مبادئ هذه النحلة.
أ- ادعاء زعيمهم بأن الوحى ينزل عليه فهو نبى.
ب- ادعاؤه بأن له معجزات تدل على صدقه.
جـ- غروره وتفضيله لنفسه على بعض رسل الله.
ء- تكفيره لمن لم يؤمن برسالته.
وقد أفتى الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشيخ جاد الحق على جاد الحق بأن القاديانية فرقة مرتدة وليس لها أن تدخل مساجد المسلمين.

بِمُؤْمِنِينَ إِن نَّقُولُ ﴾ [هود: ٥٣، ٥٤] أى وما نحن لك بمصدقين. و﴿ إِن ﴾ هنا شرطية: يأتى بعدها شرط، وبعده جواب شرط، فإن لم تكن كذلك تكون ﴿ إِن ﴾ هنا بمعنى النفى. واقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢] أى ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم. فى الآية التى نحن بصددها، ﴿ إِن ﴾ هنا بمعنى النفى ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ و﴿ إِلاَّ ﴾ أداة استثناء. إذن فلابد أن يوجد مستثنى منه، ومستثنى. نقول جاء القوم إلا زيدًا، المستثنى منه القوم، وزيد هو المستثنى، ومعنى قوله تعالى: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ أى ما نقول إلا هذا القول؛ لأنك سفهت آلهتنا وأبطلت ألوهيتهم، فغضبوا عليك وأصابوك بالسوء أى بالجنون.

ورد عليهم هود قال إنى أشهد الله الذى أرسلنى ويحمينى. فكل رسول يحميه الله ويحمى عقله، لكى يجيد كيفية الأداء والبلاغ عن الله، ولكنهم اتهموا هودًا بالجنون. وقالوا إن الجنون أصابه بسبب غضب آلهتهم عليه. ورسول الله ﷺ اتهمه الكفار بالجنون فرد عليهم الله بقوله: ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ١ - ٤] وهل يكون المجنون على خلق؟ ولذلك كان الرد مفحمًا.

والحق يقول: ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴾ هود أشهد الله وأشهدهم بأنه برىء مما يشركون من دون الله، ثم تحداهم فقال: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴾ وهذه هى معجزة هود. أنه تحداهم وهو واحد وهم كثرة طاغية متجبرة. وقال لهم: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾ وأنا معى قلة ضعيفة، وأنتم أقوياء جبابرة، ورغم هذا فلن تستطيعوا أن تمسونى بسوء. هذه معجزة هود، فى أنه تحدى،

ولا يوجد أحد يجارف بحياته وحياة المؤمنين بكلمة، ولكنه قالها لهم: اقتلونى ولا تنتظروا إن كنتم تستطيعون. وهود فى هذا مستند إلى قوة الله وقدرته. وهو الذى يستطيع أن يحميه لأنه قادر قهار، ولا إله إلا هو، فلا يوجد إله آخر.

ولذلك قال هود كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦] هود قال لقومه إنه توكل على الله الذى لن يمكن الكفار مهما كانت قوتهم وطغيانهم، لن يمكنهم منه، وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها. إذن فكل ما يدب على الأرض وله حركة، الله آخذ بناصيته. والناصية هى مقدم الرأس والشعر الأمامى منها، عندما تريد أن تهين أحدا تمسكه من مقدم رأسه. ولذلك يقول الحق: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١] الناصية التى هى مكان الفكر والشرف فى مقدمة الرأس. وذلك حتى يعرف الكفار أنهم لن يقدروا على هود لا بقوتهم ولا بقوة مخلوقات الله فى الأرض. كأن يسلطوا عليه الحيوانات المتوحشة، أو الحيات، أو الثعابين، أو الضباع، أو غير ذلك، حتى يقتلوه. فيرد عليهم أن كل ما يدب على الأرض خاضع لله لا يمكن أن يفعل شيئًا إلا ما قدره الله له، فلن تطيعكم هذه الدواب وتعتدى على نبى من أنبياء الله.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ولم يقل إن ربى وربكم على صراط مستقيم. لماذا اختلف السياق؟ فعندما ذكرت السيطرة قال ﴿رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ . أى أن الله - تعالى - مسيطر على الكون كله. لذلك قال ﴿رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ ، لأنكم وإن كنتم كافرين لا تستطيعون أن تخالفوا مراد الله فى كونه فى القهر والقدرة فهو سبحانه لا يفلت منه شىء. أما قوله : ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

لأن الصراط المستقيم هو طريق الله وحده. أما آلهتهم فليس لها صراط ولا استقامة ولا أى شىء، ولكن الله يقضى بالعدل ولا يستخدم القهر فى الظلم.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ فإن تولوا، خطاب للكافرين ومعناه: إن تتولوا، وفى اللغة: إذا ابتدأ فعل بتاءين، يقتصر فيه على تاء واحدة، أى أنهم عندما سمعوا كلام هود يتحداهم فى أن يقتلوه، ويحذرهم بأنهم لن يستطيعوا، ولو استعانوا بكل ما يدب على الأرض لم يكن لهم حجة ليردوا، أحسوا بضعفهم وهم كثرة، وبذلتهم وهم وجهاء القوم. فقرروا أن ينصرفوا عجزًا منهم. ولكن مهمة البلاغ كانت قد تمت، وأبلغ هود قومه ما أرسله الله به إليهم. إذن فلا عذر لهم إن نزل عليهم غضب الله سبحانه وتعالى. فالله جل جلاله يقول: ﴿ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣١] إذن فقد بلغهم هود رسالة الله، وهذا يعنى أنهم أنذروا وبلغوا.

وبعد ذلك يقول الحق: ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى سيهلككم ويأتى بقوم غيركم مؤمنين. والخلافة هنا أن يأتى قوم خلفًا لقوم، أى بعدهم. والحق - تبارك وتعالى - يقول: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩] ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ [هود: ٥٧] لأنه لا عبادة الناس تنفع الله جل جلاله، ولا عصيانهم يضره. وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى رقيب على كل أمور كونه؛ لأنه قيوم.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ ساعة تسمع: ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ تعرف أن هناك أمرًا، وأمرًا مطاعًا سينفذ. والآن حانت ساعة التنفيذ مجرد صدور الأمر من الله، يعنى التنفيذ؛ لأن الكون يأتمر بأمره. ونضرب لذلك مثلا أم موسى عليه السلام. وعندما أراد الله أن ينجى موسى من الذبح على يد جنود فرعون أمر أمه أن تلقيه فى البحر، فماذا قال؟ ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] قل لأى أم: إن كنت خائفة أن يذبحوا ابنك فألقيه فى البحر. طبعًا لا تصدق لأنها فى هذه الحالة تنقذ ابنها من موت مظنون إلى موت محقق، ولكن هل استقبلت أم موسى وحى الله بهذا الفكر؟ لا.. بمجرد أن صدر الأمر نفذته. ولذلك فإن الإلهام الوارد من الله لا ينازعه شك ولا شيطان. إنما ينفذ فى الحال لأنه أمر من القادر.

وفى قصة نوح يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أى جاء أمرنا بعذاب الكافرين. فى هذه الآية الكريمة يقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ ولكن هل العذاب عندما يأتى.. يأتى بشكل عام وقضية عامة تشمل المكذب والمصدق؟ لأنه عندما تأتى الكارثة وهى عامة.. كريح صرصر، أو صيحة، أو غير ذلك.. كيف تفرق بين المؤمن والكافر؟ نقول إن هذا شىء عام، صيحة، أو رجفة تصيب كل من كان موجودًا فى مكانها، فكيف تذهب فقط للمكذبين وتترك المؤمنين؟ نقول عندما تأتى الصيحة شديدة تخرق آذان الكافرين، ولا تخرق آذان المؤمنين. لأن الذى أرسل الصيحة أعطاها أوامره بأن تصيب فلانا ولا تصيب فلانا. إذن فالصيحة موجهة، تذهب إلى من شمله عذاب الله وتترك الناجين.

وفى سورة الفيل يقول الحق تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٣ - ٥] يأتى المتفلسفون كأنما يريدون أن يسهلوا المسألة على الله، فيقولون: أصابهم طاعون أو سلط عليهم الجراثيم. نقول لهم: إن الجراثيم تحتاج لحضانة وأن تبقى فى الجسد مدة طويلة. والميكروب ليس بمجرد أن ينزل يجعلهم كعصف مأكول. ثم كيف يأتى الميكروب أو الطاعون لجماعة أبرهة وتنجو منه قريش؟ نقول لهم إن عظمة الله أنه ينجى المؤمن ويعذب الكافر بشئ واحد. ولذلك فالحق كان أمره أن ينجى المؤمنين وأن يهلك الكافرين بالشىء نفسه. ونحن إذا أتينا بقطعة قماش سوداء ووضعناها فى الشمس ماذا يحدث لها؟ يجرب لونها وتبيض، ولكن وجوهنا حين تلفحها الشمس تسود.. لماذا؟ لأن الله تعالى يريد لهذه أن تسود، ولهذه أن تبيض، الفاعل واحد والمستقبل مختلف.

الحق يقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[1] إياك أن تقول كيف ينجى الله عدوًا من الناس من عذاب عام جامع؟ نقول إنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أى أن الداء لا يمس المؤمنين برحمة الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ إذن فهناك نجاتان: النجاة الأولى من عذاب الريح الصرصر، والنجاة الثانية من العذاب الغليظ الذى ينتظرهم فى الآخرة. ولكن لماذا غليظ؟ لأن الغلظة تعطينا مفهوم المتانة والقوة. والعذاب فى الدنيا موقوت بقدرات الدنيا وزمنها وعمرنا فيها. ولكن عذاب الآخرة بلا نهاية.

إذن فعندما جاء أمر الله نجى هودًا والذين آمنوا معه بالرحمة، ثم نجاهم من العذاب الغليظ فى الآخرة. وكأن نجاتهم من عذاب الدنيا الموقوت بشارة ومقدمة أنهم سينجون أيضًا من العذاب الغليظ فى الآخرة.

---

(١) اعتزل هود عليه السلام فى حظيرة هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة. [قصص الأنبياء لابن كثير ٩٩ نقلا عن ابن إسحاق]

❊ منهج الأنبياء واحد ❊

يقول الحق: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥] وساعة نسمع: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ نقول إنها كما قال الحق إنه أرسل نوحًا إلى قومه، فمادام هو أرسل والحق يقول لنا: إنه أرسل إلى عاد أخاهم هودًا، فتكون أخاهم مفعولا، على أن كلمة أخاهم تدلنا على معان كثيرة، أولا أنه من جنسهم ولغته من لغتهم، وعاش معهم وهم يعرفونه جيدًا، هذا هو الأنس بالرسول، لأنه لو كان أجنبيا عنهم لقالوا جاء أجنبى يحاول أن يأخذ السيادة علينا، ولو جاء بغير لغتهم لما تمكن من الحديث معهم، ولكن هناك بعض الآراء التى تقول إن هودًا لم يكن من قوم عاد.

نقول إن الأخوة نوعان: أخوة من الأب القريب، وأخوة من الأب البعيد وهو آدم. ولذلك قلنا إن معاوية دخل عليه الحاجب مرة وقال يا أمير المؤمنين رجل بالباب يقول إنه أخوك، فقال معاوية أدخله، وعندما دخل الرجل سأله معاوية أى إخوتى أنت؟ قال الرجل: أخوك من آدم، فقال معاوية رحم مقطوعة أى لا يصلها الناس والله لأكونن أول من يصلها.

ماذا قال هود لقومه.. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وإذا عدنا إلى قصة نوح نجد أنها متفقة من حيث الهداية مع قصة هود، فالحق يقول: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ وهذا أول اتفاق.. نوح إلى قومه وهود إلى قومه، ماذا قال نوح لقومه؟ ﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ وماذا قال هود: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾

الخلاف فقط فى أنه فى نوح قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَقَالَ﴾ وفى هود: ﴿قَالَ﴾ بدون الفاء، وهذا اختلاف لا يتنبه له الكثيرون، ولكنه دقة فى الأداء القرآنى لأن المتكلم هو الله، الفاء هنا فى رسالة نوح تقتضى التعقيب، أى كلما أتاه جبريل بوحى يبلغه لهم، وتفيد الإلحاح.. وهذا ما تبينه سورة نوح فى إلحاحه على قومه بدعوتهم للإيمان. ولذلك يقول الحق عن نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾. [نوح: ٥-٩] وهكذا نرى إلحاح نوح عليه السلام فى الدعوة لله وهو مناسب لاستخدام الفاء، أما هود فلم يكن هناك إلحاح فى الدعوة مثل نوح، ثم إن نوحًا عاش مع قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، مدة طويلة يدعوهم فيها سرًا وعلانية. ولذلك كان لابد من استخدام الفاء، أما هود فعاش مع قومه مدة أقل.

نأتى بعد ذلك إلى تشابه الأسس الثابتة فى الدعوة إلى الله ومنهجه، نوح قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهود قال ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥] فكأن هناك أسسًا ثابتة لمنهج الله ، أولها لا إله إلا الله، كل الرسل جاءوا ليبلغوا البشرية بهذه الحقيقة[1]، ولكن هودًا لم يقل ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ولكنه قال: ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ نقول: إن نوحًا كان أول الرسل بعد

(١) قال ﷺ : «افضل ما قلت أنا والنبيون عشية عرفة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شئ قدير» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) وقال : حديث غريب . وحسَّنه الألبانى وانظر السلسلة الصحيحة (١٥٠٣).

آدم، ولذلك أعلمه الله بما ينتظر الكافرين من عذاب، وبأن الله سيهلكهم حتى ينذر قومه بالعذاب الذى سيأتيهم ؛ لأنه لم تكن هناك سابقة عذاب من الله لتأديب الكافرين والمعاندين. ولكن عندما جاء هود بعد نوح كان الطوفان قد حدث ؛ وكان الناس عندهم سابقة علم بما حدث لمن سبقهم. ولذلك لم ينذرهم لأنهم علموا سلفًا ما حدث للمكذبين فى عهد نوح. ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية ولكم سابقة قد حدثت لقوم نوح.

* لماذا اختلف جواب قوم نوح عن جواب قوم هود؟ *

في قصة نوح قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] وفي قصة هود: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] ذلك لأن نوحًا حينما بدأ يبلغ رسالته للناس لم يكن هناك مؤمن واحد فى قومه، أما قوم هود فقد كان لهم فى قصة نوح وقومه عبرة، فعندما أبلغ رسالته آمن معه فى الحال عدد من قومه، ويقال إن الذى آمن معه واحد فقط، اسمه ابن سعد، ولهذا حدث الاختلاف فى السياق، على أننا نلاحظ أن جواب قوم نوح اختلف عن جواب قوم هود، قوم نوح قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ وقوم هود قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ الضلال هو البعد عن الحق، والسفاهة هى الطيش والخفة.

وأضاف قوم هود: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ والظن هنا إما أن يكون عدم يقين، بمعنى ولكننا نرجح أنك من الكاذبين، وإما أن يكون يقينا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] ولكن الظن هنا فى هذه الآية معناه أن الكافرين من قوم هود يقولون إننا نرجح أنك من الكاذبين.

ماذا كان رد نوح وهود؟ نوح قال: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١] وهود قال: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧]. ونوح قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي

﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢] وهود قال: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧ - ٦٨] الفرق هنا أن نوح قال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ وهود قال: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ ما هو الفرق؟ نقول: إن الفعل يدل على التجدد والاسم يدل على الثبوت، ونوح فى إلحاحه على قومه ليلا، ونهارًا، وجهرًا، وسرًا كان متجدد الدعوة. وهود كان ثابت الدعوة، ولذلك استخدم مع نوح الفعل ﴿أَنصَحُ﴾، ومع هود الاسم ﴿نَاصِحٌ﴾ على أننا نلاحظ أن ﴿لَكُمْ﴾ موجودة فى قول هود. وهذا يفيد أن كل رسالات الأنبياء هى لصالح البشر.

ونمضى فى المقارنة، قول نوح عليه السلام: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وهود قال: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ نجد أن تعجب القوم من رسالات السماء واحد، مع أننا كما بينا أن رسالات السماء تقتضيها فطرة الايمان. على أن الخلاف هنا أن الحق فى قول نوح قال: ﴿وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وفى قول هود لم يقل لتتقوا؛ بل قال فقط ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ نقول إنه فى قوم نوح لم تكن هناك سابقة عذاب، فكان لابد أن ينبه نوح قومه أن يجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية. ولكن فى سورة هود كان العذاب قد وقع. ولذلك أنذرهم هود بأن ذكرهم بالعذاب الذى وقع، فكأن قوم هود وهم خلفاء لقوم نوح كان لابد أن يتذكروا ما حدث لقوم نوح ويأخذوا منه العبرة، وكان ذلك أقوى من أن يطلب منهم أن يتقوا العذاب، دون أن يشير إلى سابقة حدثت فعلا لتجعلهم يتأكدون أن هذا العذاب واقع.

ثم بعد ذلك ذكر هود قومه برحمة الله عليهم ونعمه، وفى هذا يقول الحق: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهكذا يذكر هود قومه بنعم الله عليهم أنه أعطاهم الأرض من بعد قوم نوح، وأعطاهم أجساما فارهة قوية، وأعطاهم من النعم والخير الكثير، وكان يجب أن يشكروا الله على كل هذه النعم، ولكنهم بدلا من الشكر واجهوا هودًا بموقف عجيب، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ [الأعراف: ٧٠] فكأنهم أولا رفضوا حقيقة الوحدانية لله وهو أساس رسالات الله إلى أنبيائه ، وقالوا: لا نعبد الله وحده. فكأنهم اعترفوا بالألوهية لله، ولكنهم يريدون شركاء من صنعهم، يريدون أصنامًا ليعبدوها ليجعلوا منها شركاء لله، وهؤلاء الشركاء لا حول لهم ولا قوة، ولا نفع لهم ولا ضر، حتى إن الصنم إذا سقط على الأرض احتاج لمن يصلحه.

❋ عاد .. وفن العمارة ❋

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِين مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُون﴾ [المؤمنون: ٤٢، ٤٣] بعد هؤلاء القوم ﴿عاد﴾ أنشأ الله من بعدهم قرونا متتابعة أو متعاصرة، لأنه قد يتعاصر نبيَّان فى وقتٍ واحد كإبراهيم ولوط عليهما السلام، ومثل شعيب وموسى أيضًا، ومعنى ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُون﴾ أى أنه مادام هناك قرون ستأتى وكل قرن له رسولٌ ، وكلُّ رسولٍ له أجلٌ ينتهى عنده، مثل أجل الأفراد تماما لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، فحين تأتى حرارة الدعوة ويتمسك بها الناس ويحملونها إلى غيرهم، تنتشر الدعوة ويزيد أنصارها، وبعد ذلك تصيب الناس غفلةٌ وفتورٌ، وتدب بينهم الخلافات والصراعات،ويتفرقون ويختلفون ويضعفون، فيحدث لهم ما حدث للحضارات القديمة التى سادت ثم ضعفت شيئًا فشيئًا حتى انتهت، مثل حضارة الصين القديمة، والحضارة المصرية، والحضارة الفينيقية، والحضارة الرومانية وغيرها.

فكل حضارةٍ من هذه الحضارات أخذت حقها من الارتقاء والزهو. وبعد تلك الحضارة حدث نوع من الرخاوة والطراوة والكسل فى أصحابها، فتلين جلودهم، وتتراخى سواعدهم، فيتركون العمل وتضعف حضارتهم وتنتهى، وتأتى بعدها حضارة جديدة، ولك أن تتعجب من حضارات وصلت القمة ثم هُدمت فجأة ولم نرَ منها غير آثارها ، فمثلا: حضارة عاد بلغت القمة فى فن العمارة والنحت والتى قال الله عنها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ

ذِى الأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ١٠] فحضارة فرعون نراها الآن ممثلة فى الأهرامات وأبى الهول وغيره، والتى يأتيها أهل الحضارة الحديثة ويقفون أمامها مشدوهين مبهورين.

أما إرم ذات العماد فلم يكتشفها أحد حتى الآن، والله تعالى وصفها بأنها لم يخلق مثلها فى البلاد، دليل على أنها فاقت الحضارة المصرية القديمة. هذه الحضارات العظيمة لم تصنع لنفسها مناعة ضد الفناء، ولم تترك شيئًا يدل عليها حتى يعرف الناس سرها وتقدمها، مما يدل على أن الله أخذها أخذ عزيز مقتدر، فأى أمة لا يمكن أن تسبق أجلها، فتنتهى أو تقوض قبل أن يأتى أجلها ولا تستأخر عنه ؛ لأن الاستئخار بعد بلوغ الأجل مستحيل.

* لماذا اندثرت حضارة عاد ؟ *

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٢٣ - ١٢٥] لأن تكذيب رسولهم يعتبر تكذيبا لكل الرسل فى القضايا المتفق عليها من العقائد والأخلاق، والذى يتغير هو المسائل التى تناسب البيئات والمجتمعات، وعاد كانت قبيلة، والقبائل تنسب عادة إلى الأب صاحب الشهرة والنباهة، فعاد كان أبًا لهذه القبيلة، وقد يطلق على القبيلة (بنو فلان) أو (آل فلان) فهذا التكذيب من قوم عاد حدث عندما جاءهم أخوهم هود بدعوة من عند الله، وقال لهم : ﴿أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء] كأنه ينكر عليهم عدم تقواهم لله وهذا معناه ، أنه يطلب منهم أن يتقوا الله ، وهو يقول لهم كما قال غيره من الأنبياء: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . هذا القول من هودٍ لقومه يتفق مع ما قاله نوح لقومه.

ولكن موسى عليه السلام مثلا لم يقل لفرعون: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأن رد فرعون سيكون جاهزًا وسيقول له: أنا الذى قمت برعايتك طفلا صغيرًا حتى صرت رجلا، وتريد أن تأخذ منى أجرا بعد ذلك، فهذا كلام غير مناسب فى هذا الموقف. كذلك إبراهيم أيضا عليه السلام لم يكن ليطلب أجرًا من عمه ؛ لأنه أول من دعاه إلى الإيمان بما جاء به من عند الله، لذلك حكاية الأجر لم ترد مع إبراهيم ومع موسى عليهما السلام، ووردت مع باقى الرسل عليهم الصلاة السلام.

بعد ذلك يأتى للأشياء الخاصة بقوم عادٍ، فيقول لهم مستنكرًا فعلهم:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ . الريع هو المكان المرتفع. والآية فى البناء: أنهم كانوا يبنون قصوراً آيةً فى الإبداع والفن، والعمارة والتشييد ، والزخرفة والفخامة ، والاتساع والعلو، ويقيمون المصانع والمبانى الضخمة كأنهم مخلدون فى هذه الدنيا. هذه القصة وضَّحتها سورة الفجر، فنحن فى مصر لا نعرف عن عمارة عاد وحضارتهم شيئًا، ولكن نعرف الكثير عن حضارة فرعون ، ونشاهد الأهرامات التى بنوها كمقابر وذلك لأننا مصريون. ولازالت حتى الآن تبهر عقول العالم كله، وتعجز دول الحضارة الحديثة عن تفسير ألغازها ، حتى أن العلماء العالميين احتاروا فى معرفة كيفية بناء حجارة الأهرام بدون مواد البناء ، وأخيراً اهتدوا إلى أن هذا تم بتفريغ الهواء ؛ لأن مواد البناء عبارة عن طبقة طرية تملأ الفراغ بين الأحجار أو اللبنات وتفرغه من الهواء.

ولكن هذه الحضارة العجيبة حين نقارنها بحضارة عاد نجد أنها دونها ؛ لأن الله تعالى عندما تكلم عن حضارة عاد قال ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٨] فكأن حضارة الفراعنة لا تذكر بالنسبة لها، ربما يقول شخص ما : حضارة عاد هذه فى رمال الأحقاف بالقرب من حضرموت فى جنوب الجزيرة العربية ، التى يسمونها الربع الخالى، فأى حضارة فى هذه الجبال والرمال؟! نقول له: هذه الرمال أمر طرأ على هذه الحضارة فغطاها ، بعد أن كان فيها زروع وثمار وأشجار، ولذلك يتأكد الإنسان حين يسمع أنَّ إحدى القبائل حاولت أن تذهب إلى هناك ، فهبت عليها عاضفة من الرمل طمرت القبيلة كلها ، بجمالها ورجالها ونسائها وحيواناتها.

فهبات الرمال المتوالية على مر العصور بإمكانها أن تغطى أعتى الحضارات وتطمرها، ولو أنهم نبشوا هذه الرمال وأزاحوها لوجدوا أرضا مخصبة تنبت الزرع وتنبت كل شيء. ولذلك تجد كل اكتشافات الحضارات القديمة لابد أن يحفروا لها فى الأرض «حفريات» ؛ لأن عوامل التعرية قد تغطى أرضا بأكملها . فإذا كانت الحضارة الفرعونية فى مصر يتعجب الناس من براعتها

وتقدمها ويأتون من شتى بلاد العالم لزيارتها، وبعد ذلك يصف الحق سبحانه حضارة عاد بأنها ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ فمعنى ذلك أنها كانت حضارة أقوى وأعظم من حضارة قدماء المصريين.

وقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ نحن لم نشاهد هذه المبانى ولا يوجد الآن فى هذه الأماكن إلا رمال الصحراء، فهذه المبانى كلها مطمورة. والريع: هو المكان المرتفع، ويطلق على الارتفاع فى كل شىء ريع، ولذلك حين يقيمون عمارة أو أرضًا يقولون: كم ريعها؟ والمعنى أتبنون بكل مكان مرتفع آية فى المعمار، أى شيئًا عجيبا، فهم لا يبنون مجرد بيوت تقيهم حر الصيف وبرد الشتاء، ولكنهم يتفننون ويتكلفون فى البناء فوق الحاجة وفوق المسكن، ويبنون هذه الأشياء للعبث وصد الناس عن الإيمان بالرسول الذى بعثه الله إليهم. فكانوا يبنون شرفة عالية تكشف كل المنطقة المحيطة بمكان الرسول حتى يروا الناس عند ذهابهم إليه فيصدوهم عنه ، فهذا من العبث، لأنهم يصدون الذين يأتون الرسول ليسمعوا منه كلاما يلفتهم إلى منهج الحق. والآية تطلق على كل شىء فاق الجمال والفخامة والدقة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُون﴾ [الشعراء: ١٢٩] المصانع تطلق على موارد الماء ، وتطلق على الحصون لأنها تحتاج إلى بناء وصنعة غير عادية ؛ لأنها لا تبنى للإيواء الذى يحمى الإنسان من هموم الحياة العادية فقط، ولكن الحصون تحمى الإنسان من الأعداء الشرسين الذين يهددونه، فهم كانوا يبنون هذه الحصون ويبالغون فيها كأنهم سيخلدون فى هذه الدنيا ، مع أنها فى الواقع دار ممر وليست دار مقر، والإنسان فيها كراكب استظل تحت شجرة ثم راح عنها وتركها[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر فى جنبه، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً؟. فقال: (ما لى وللدنيا ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها). رواه الترمذى [٢٣٧٧] وقال : حسن صحيح ووافقه الألبانى (١٩٣٦)، وابن ماجه رقم [٤١٠٩] فى سننه.

جَبَّارِين﴾ [الشعراء: ١٣٠] البطش هو الأخذ بعنف ، ولذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] فهم يبطشون بعنف وجبروت أيضًا ، لأنك قد تأخذ عدوك بعنف، ولكن بعد ذلك يرق قلبك لذلته لك، فتخفف انتقامك منه، ولكن قوم عاد كانوا يبطشون دون رحمة ؛ لأنهم جبارون.

فهؤلاء الناس كانت فيهم صفاتٌ ثلاث ، وردت فى قول الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِين﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠] كل هذه الصفات تخدم صفة واحدة هى الكِبر والتعالى[1]، فهم يبنون فى العالى، ويشيدون الحصون الضخمة كأنهم مخلدون فى الدنيا، وإذا بطشوا بطشوا بعنف ودون رحمة . فهم يريدون أن يأخذوا صفات تقربهم من صفات الألوهية[2] ؛ لأنه ليس أعلى من الحق، كما أنهم يريدون أن يستديموا بهذه الصفات ؛ لأنهم يريدون علوًا واستبقاء خلود، ويبطشون متجبرين ؛ لأنهم يريدون التفرد على الغير، وهذا مخالف لما يريده الحق سبحانه من عباده فى الدنيا، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ . فإن كنت تريد أن تقدم خدمة فلا تقدمها للتعالى والتفاخر، ولكن قدمها لتيسِّر للناس مصالح الحياة، وأنت بذلك ترقى عملك وتثمره ثمرة أكثر ؛ لأنك إن

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يقول الله سبحانه: الكبرياء ردائى والعظمة إزارى، من نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم » ، رواه ابن ماجه تحت رقم (٤١٧٤). وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه رقم [٣٣٦٥] .
قيل: الكبرياء كونه متكبرًا فى ذاته، استكبره غيره أم لا، والعظمة كونه يستعظمه غيره. فالكبرياء صفة ذاتية ،وهى أرفع من العظمة، لكونها إضافية. فشبهت بالرداء الذى هو أرفع من الإزار. (محمد فؤاد عبد الباقى- سنن ابن ماجه].

(٢) منها البطش، قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ .

فعلت للرياء والتعالى فستأخذ حظ الدنيا فى التفوق والغلبة وتنتهى[1]، ولكن حين تفعل الخير وفى بالك ربك، وهدفك أن تيسِّر للناس مصالحهم، يظل أجرك مادام وجد العمل ينتفع به إلى أن تقوم الساعة فأنت بذلك تصون عملك وتنميه وتحفظه عند الله [2].

فقوم عاد كانوا يريدون علوًا وخلودًا أو استبقاء حياة، وكانوا يبطشون بغلظة دون رحمة ، ولكن من رحمة الله بالناس وبالخلق أنهم كلما غفلوا عن منهج من سبق من الرسل يبعث الله لهم رسولا يذكرهم بالمنهج، إذن هذا التوالى فى إرسال الرسل ليردوا على غفلة الناس، وينبهوهم إلى اتباع منهج الله، وهناك فى الحديث عن أخذ العهد القديم الذى أخذه الله على بنى آدم يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢] ونحن قلنا إن الحق سبحانه وتعالى ساعة يضع المناعة فى الإنسان ويعطيه منهجا

---

(١) عن جندب العلقى، رضى الله عنه، قال: قال النبى ﷺ: «مَنْ سمَّع سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به» أخرجه البخارى رقم (٧١٥٢)، وأخرجه مسلم رقم (٢٩٨٦) واللفظ له.
قال فى الفتح: (وقيل من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس، ولم يرد به وجه الله، فإن الله يجعله حديثا عند الناس الذين أرادوا نيل المنزلة عندهم، ولا ثواب له فى الآخرة. وقيل: معنى «سمع الله به» شهره أو ملأ أسماع الناس بسوء الثناء عليه فى الدنيا أو فى القيامة، بما ينطوى عليه من خبث السريرة).
وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه» أخرجه مسلم رقم (٢٩٨٥)، وكذا ابن ماجه رقم (٤٢٠٢). وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه رقم (٣٣٨٧) .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسَّرَ الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . .» أخرجه مسلم رقم (٢٦٩٩).

يتبعه، فقد يغفل عن المنهج أو تغلبه نفسه فينحرف عنه، فالله تعالى وضع فى الإنسان مناعة من الحق والخير ضد الباطل والشر، فإذا فسدت المناعة فى فرد، يعدله غيره ممن ينهون عن المنكر ويأمرون بالمعروف،ولذلك يصف ربنا فى سورة العصر كل الناس بأنهم فى خسر، أى خاسرون إلا الذين آمنوا ، لكن هل آمنوا وسكتوا؟ لا. وإنما قال: ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] .

فأنت إذا رأيت أحدًا على باطل فأوصه أن يتبع الحق ويترك الباطل. ومعنى ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أى تبادلوا التوصية ، فأنت إذا غفلت أنا أوصيك، وأنا إذا غفلت أنت توصينى. فالمناعة ليست فى الذات ؛ لأن الذات غفلت، ولكن المناعة فى المجتمع ، إذا اعوَّج أحد أو انحرف يعدله، لكن إذا فسدت المناعة فى الذات وأصبحت النفس أمارة بالسوء، وفسدت المناعة فى المجتمع، فلم يعد هناك من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما حدث فى بنى إسرائيل، قال تعالى: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ . فى هذه الحالة ماذا يكون الموقف؟ فلابد هنا أن يرسل الله رسولا جديدًا بمعجزة توقظ الناس من غفلتهم، ومن شرف أمة النبى محمد ﷺ أن الله أعطاها المناعة فى ذات نفوسها، فتجدهم توَّابين إذا فعل الواحد منهم معصية يرجع إلى نفسه ويحاسبها ويتوب إلى الله . وإن ظل عليها يجد فى المجتمع الإيمانى من يرده إلى الحق والصواب، وهذه لا تنتهى من هذه الأمة أبدًا.

ولذلك لن يأتى رسول بعده ﷺ ؛ لأن الرسول كان يأتى فى السابق بسبب فقدان المناعة الإيمانية فى الذات الإنسانية وفى المجتمع ، فلابد من معجزة ورسالة لإيقاظ الناس من غفلتهم وردهم إلى حظيرة الإيمان. لكن أمة محمد ﷺ شرَّفها الحق سبحانه بأن أبقى المناعة فى ذاتها بالنفس اللوَّامة ، فإذا فعل أحدهم شيئًا لام نفسه عليه ورجع إلى الله ، وإذا غفلت نفسه يجد المناعة فى المجتمع الإيمانى الذى يرده إلى طريق الجنة . قال تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

فهود عليه السلام يذكر قومه بأن من رحمة الله بهم أنه لم يتركهم على ضلالهم وكفرهم، ولكن الله أرسل إليهم رسولا يذكرهم بالله ويردهم إلى منهجه، ولذلك قال لهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ١٣١ ، ١٣٢] فهذه التقوى لله لن تذهب عنكم ما أعطاكم الله من أنعام وبنين وجنات وعيون؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، وليس العكس وأنا لا أطلب منكم أن تطيعونى لذات نفسى ، لأنى لن أستفيد من إيمانكم شيئًا . والله تعالى غنى عنكم ؛ لأنه سبحانه قبل أن يخلق الخلق كانت له صفة الكمال المطلق، فهو تعالى لم يصبح خالقا بعد أن خلق، ولا بالمقدور عليه صار قادرًا ، ولكنه خالق قبل أن يوجد مخلوق ، وقادر قبل أن يوجد مقدور عليه. فهذه الصفات له فى ذاته قبل أن توجد متعلقاتها.

فما تفعلونه لن ينفع الله ، ولن يضره ، ولكن ينفعكم أنتم، ولمصلحتكم أنتم الالتزام بتقوى الله تعالى الذى أمدكم بهذه النعم الكثيرة، فإن لم تفعلوها لأنها تفيدكم فى المستقبل، فاصنعوها شكرًا لله على ما أنعم به عليكم من النعم التى لا تحصى. فالإنسان طرأ على كون أُعدَّ له تمام الإعداد: من سماء فيها شمس وقمر ونجوم وسحاب ينزل منه المطر، فيسقى الإنسان والحيوان والزرع والطير، وأرض خصبة وهواء نقى .. إلخ. لقد خلق الله لكم كل هذا قبل أن توجدوا، ومن العجب أنه خلق لكم الذى يخدمكم من كل ما فى السموات والأرض وجعله أطول عمرًا منكم، فعليكم أن تطيعوا الله فيما أمركم به، فإن لم تفعلوها لأنها تفيدكم فيما بعد، فافعلوها شكرًا لله الذى أمدكم بهذه الأشياء، لأنه خلق لكم هذه النعم الكثيرة.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢ - ١٣٤] أى اتقوا الله الذى أعطاكم كل هذه النعم التى تعرفونها مثل الصحة والعافية، وأمدكم بأن كل مدرك فى الوجود له آلة تدركه بها، فالعين ترى المناظر، والأذن تسمع الأصوات، والأنف يشم الروائح، واليد تقضى بها المصالح والحوائج وتسلم بها وتلمس بها، واللسان تتكلم به وتتذوق الأشياء، والرجل تمشى بها وتذهب إلى المسجد وإلى مكان العمل.. إلخ . وفوق ذلك أمدكم بالأنعام والبنين والحدائق وعيون الماء والأنعام : هى الضأن والمعز والإبل والبقر التى تأكلون لحومها، وتشربون ألبانها، وتنتفعون بأصوافها، وأوبارها، وتحملون عليها متاعكم وأنفسكم ، وأمدكم بالأرض الخضراء ذات الأشجار المثمرة والحدائق الغناء، وعيون الماء التى تشربون منها وتسقون حيواناتكم، كل هذه النعم كانت موجودة فى جنوب الجزيرة العربية قبل أن تغطيها الرمال، وأنتم حين تطيعون الله وتتقونه فأنتم لا تشكرونه على نعمه فقط، ولكن تجعلون لأنفسكم وقاية من عذاب يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٥] فلا تظنوا أنكم أخذتم نعم الله وهربتم بها ؛ لا ، إنكم سترجعون إليه فيحاسبكم على أعمالكم(١)، فإن لم تشكر السابق من النعم، فخف اللاحق من النقم، فماذا كان ردهم عليه؟ قال تعالى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦ - ١٣٨] كلمة ﴿أَوَعَظْتَ﴾ تدل على أن الحق يجرى على لسان المكابر ؛ لأن الوعظ ليس تعليمًا ولكنه مرحلة تأتى بعد التعليم، فأنت علمت الحكم ولكنك أهملته ،

---

(١) والله سبحانه يقول : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥] ويقول: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

فأنا أعظك لتعمل به، فالوعظ لك دليل على أنك علمت المطلوب فغفلت عنه.

فما كان من قومه إلا أن أعرضوا عما جاءهم به وأصروا على كفرهم وضلالهم، وقالوا له: إنهم لن يستجيبوا له سواء استمر فى وعظه أو حتى إن لم يكن عنده وعظ يعظهم به، فالأمر يستوى عندهم، فكأنهم لم يسمعوا. فالذى نحن عليه الآن هو خلق الأولين (بضم الخاء) بمعنى أخلاق الأولين، وهناك قراءة تقول: ﴿إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ (بفتح الخاء) اختلقوا هذا الكلام من عندهم ونحن لن نؤمن به، أو أننا وجدنا آباءنا الأولين على هذا الوضع وسنكون مثلهم ولن نؤمن بما تقول . وإن كانت كلمة ﴿خُلُقُ﴾ بمعنى الأخلاق. فالخلق صفة ترسخ فى النفس تصدر عنها الأفعال بيسر وسهولة. والصفات التى يكتسبها الإنسان صفات لا تعطى مهارة من أول الأمر. بل تعطى مهارة بالتدريب، فإذا كان عملا ماديا يدويا يقال : العمل بالنسبة له أصبح آليا، ومادام صار كذلك فلن يتعب صاحبه ولا يحتاج منه إلى تفكير.

فكذلك الخلق المعنوى مثل الآلية فى الماديات، فمثلا الإنسان حينما يرى شخصًا محتاجًا يسأل الناس، يحدث نفسه أن يعطيه شيئًا مما أعطاه الله ، وفى بادئ الأمر ربما سأل هذا المحتاج عن ظروفه وما هى حاجته، ويتردد قبل أن يعطيه شيئًا، وبعد ذلك تتأصل فيه صفة الكرم، فساعة يجد أحدًا محتاجًا يعطيه دون أن يشعر به أحد ، كذلك الذى يتعلم الفقه مثل طلاب الأزهر مثلا ، إذا سألته عن حكم معين تجده يتذكر ما درسه فى هذا الموضوع ويورد على عقله ما يعرفه عن هذه المسألة ويستغرق وقتا حتى يصل إلى الحكم، ولكن بعد أن يدرسها تماما ويعقلها ويصبح ملما بتفاصيلها إذا سألته عنها يجيبك فى الحال بأنها كذا وكذا ؛ لأنه تمرن عليها وأصبحت آلية عنده.

فالخُلق صفة ترسخ فى النفس يصدر عنها الفعل بيسر وسهولة . فالرسل كلهم كانت عندهم هذه الأخلاق .ودعوا الناس إليها، وكان كثير من الناس يكذبونهم ويصفونهم بشتى الصفات ، ويرمونهم بشتى التهم ، من كذب وافتراء وسحر وجنون.. إلخ. والأخلاق السيئة كانت راسخة أيضًا عند الكافرين فى كل العصور فتجدهم دائماً يقولون : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.[الزخرف: ٢٣] وهذا كله جاء بعد قولهم : ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦] أى أن هذا أصبح خلقا وعادة عندهم لن يحيدوا عنها؛ لأنهم توارثوها عن آبائهم وأجدادهم وصارت صفة ملازمة لهم، فهم على كفرهم ثابتون وبضلالهم متمسكون.

ثم يقول سبحانه : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٣٩، ١٤٠] كان الحق تبارك وتعالى قبل الرسول محمد ﷺ، يؤيد الرسول بمعجزة ويجعله يبلغ منهجه إلى الناس لا يطلب منه أن يؤدب الناس، ولكن الله يتولى التأديب، لكن أمة محمد ﷺ أمنت على نفسها هذا التأديب ، لأن الله رحمها من عذاب الاستئصال الذى عاقب به الأمم السابقة قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(١)

فجعل الله من أمة محمد ﷺ مؤدبا لمن يخرج عن منهج الله ويتصدى لدعوة

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال .. قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . أخرجه البخارى رقم ٤٦٤٨.

الحق. قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾

ففى الأمم السابقة كان القوم إذا كذبوا رسولهم وعاندوه يهلكهم الله. وكلمة ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ دليل صدقها فى الوجود قائم فى أماكن كثيرة ، مثل إرم ذات العماد التى بلغت حضارتها القمة ولم تستطع أن تصون نفسها من الهلاك والاندثار، وكذلك الحضارات التى تواردت فى الكون لم توجد من بينها حضارة ظلت طوال الدهر. فلو كانت هذه الحضارات مبنية على قيم ثابتة، لاكتسبت مناعة ضد الزوال، ولكن لأنها حضارة مادية ليس لها رصيد من القيم والأخلاق، أخذها الله أخذ عزيز مقتدر، فتنتهى الحضارة دون أن يعرف الناس حتى أسرارها وسر تفوقها ، قال تعالى : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢] . ولذلك ربنا سبحانه يذكرنا بهذه الحضارات التى أصابها الهلاك فيقول تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ ، ١٣٨] (١) فأنتم أيها الناس لم تبلغوا مثلما بلغه أصحاب هذه الحضارات التى أهلكها الله بظلمهم وكفرهم، فإذا كانت حضارتهم القوية المتقدمة لم تمنعهم من أخذ الله لهم، فعليكم أيها الناس أن تتنبهوا وتعودوا إلى الله خاصة وأنكم أقل منهم حضارة وقوة حتى لا يكون مصيركم كمصيرهم، ومعنى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الآية هى الشىء العظيم الملفت؛ لأن الحضارات

---

(١) يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه بعثه إلى قومه فكذبوه فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومه ، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والريح وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾. [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] .

تفسير ابن كثير [٤/٢١] .

التى قامت وبلغت هذه القمة فى التقدم والقوة لم تستطع أن تحمى نفسها من الدمار مما يدل على أن الذى دمرها أقوى منها وأشد ، فعلى الإنسان أن يأخذ من ذلك العبرة والعظة حتى لا يقع فيما وقعوا فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أى إن ربك الذى رباك وجعلك على هذه الدرجة من الإيمان والاستقامة هو وحده العزيز الذى لا يغلب ؛ لأن المربى تعظم منزلته فى الربابة بمقدار كمال المربَّى (بتشديد الباء وفتحها) وكأن الله يقول : فأنا ربك الذى أكملت تربيتك وجعلتك على هذه القمة من الخلق والتربية ، فأنا رب عظيم. إذن المربِّى يبلغ القمة فى الربابة إذا صار من رباه عظيمًا. ولذلك لم يقل ربهم وإنما قال «ربك» فالذى يريد أن يرى قدرة الربوبية يراها فى تربيتك أنت أيها الرسول ، ولذلك يروى أن الرسول ﷺ قال : «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» (1) فكأن الحق سبحانه وتعالى يعطى نموذجًا لدقة تربيته ولعظمة تكوينه لما يصنعه على يديه بمحمد ﷺ ، وكأن محمداً ﷺ أكرم مخلوق مربى فى الأرض.

والعزيز هو الذى لا يغلب، ومع ذلك فهو ليس بجبار ولكنه رحيم بعباده، ولذلك قلنا إن الإسلام يربى الأمة الإسلامية على ألا تجمد عند خصلة ولا عند خلق ولا عند طبع ؛ لأن كل طبع فى الإنسان له مهمة ، ولذلك قال تعالى فى صفات المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] فالمسلم ليس مجبولا على الذلة ولا على العزة، وإنما

---

(1) حديث: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» "ضعيف": عزاه المتقى الهندى فى كنز العمال لابن السمعانى فى أدب الإملاء عن ابن مسعود، وعزاه السيوطى له أيضًا فى الدرر المنتثرة ، والعسكرى فى الأمثال ، وابن الجوزى فى الأحاديث الواهية من حديث على وقال: لا يصح. وضعفه الألبانى فى الضعيفة (٧٢) وقال: قال ابن تيمية فى مجموعة الرسائل الكبرى: معناه صحيح ولكن لا يعرف له إسناد ثابت. وأيَّده السخاوى والسيوطى. وقال السيوطى فى الدرر المنتثرة: أخرج ابن عساكر. . أن أبا بكر قال: يا رسول الله لقد طفت فى العرب ، وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك؟ قال: أدبنى ربى ونشأت فى بنى سعد. [ص : ٦٠]

الموقف يجعله ذليلا أو عزيزًا، فمع المؤمنين تكون الذلة والخضوع ولين الجانب والرأفة والرحمة، ومع الكافرين تكون العزة والشدة والقوة، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]

فالمسلم ليس مطبوعًا على الشدة ولا على الرحمة، لأن الرحمة فى غير موضعها خور(١).

(١) والشدة فى غير موضعها تعسف وتجبر.

* لماذا وقع غضب الله على قوم هود؟ *

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] أفصح قوم هود عن العلة فى شركهم، وفى هذا هم مقلدون لقوم ضلوا عن الحقيقة، فهم مقلدون لآبائهم، وليسوا مقلدين عن اقتناع، فلو أنهم ناقشوا المسألة مناقشة عقلية بسيطة لعرفوا أنهم فى ضلال، فالصنم الذى لا يستطيع أن ينفع أو يضر نفسه ، لا يمكن أن يكون إلها ينفع أو يضر غيره، وليتهم رفضوا النقاش فقط، بل تحدوا وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فكأنهم أغلقوا كل باب للاقتناع وزادوا على ذلك بأن طلبوا العذاب من الله كما حدث لقوم نوح الذين يعرفون قصتهم جيدا، هم طلبوه بأفواههم ، فماذا حدث؟ .

نزلت الرسالة من الله إلى هود، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١] فكأنهم وهم يناقشون هودا ويقولون: لن نعبد الله وحده ويصرون على الشرك ويتحدونه أن يأتيهم بالعذاب. جاء الخبر إلى هود بأنه قد وقع عليهم رجس وغضب من الله، والرجس هو التقذير ضد التطهير، الشىء تزكيه وتطهره، فإذا جاء له رجس امتلأ بالقذارة، وفى ذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] أى أنهم ازدادوا قذارة ودنسا، وجاءهم غضب من الله سبحانه وتعالى، أى أن الله غضب عليهم، أى أنهم وهم يجادلون هودا جاءه الخبر أن أخبرهم عن الله أنه قد وقع عليهم العذاب، أى حدث وجاءهم العذاب الذى طلبوه وتحدوا به.

ولكن كيف يقال إن العذاب قد وقع عليهم، ووقع فعل ماض بينما العذاب سيأتيهم ، أى أنه قادم فى المستقبل؟.

نقول: إن كلام الله سبحانه وتعالى مجرد عن الزمان ماضيًا وحاضرًا ومستقبلا، والله سبحانه وتعالى حين يقول قد وقع عليكم فكأنه حدث فعلا؛ لأنه لا أحد يملك أن يمنع قضاء الله ، فالله قادر على إنفاذ قضائه فى أى وقت، فمتى قضى فقد حدث. ولكن لماذا غضب الله عليهم وأنزل عليهم العذاب؟، يأتى ذلك فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ وهنا تظهر لنا المكابرة من الكفرة ؛ ذلك أن هؤلاء الناس صنعوا أصناما ثم أطلقوا عليها أسماء من عندهم، ثم قالوا: إنها آلهة ، مع أنها أسماء أطلقوها هم، فكيف يصنع المخلوق إلها ثم يسميه، ثم بعد ذلك يصر على عبادته، ولو أن الله سبحانه وتعالى أنزل عليكم سلطانًا بهذا ربما كان لكم العذر، ولكن ها هو رسول الله ينهاكم عن أن تفعلوا ذلك، ولكنكم ترفضون وتتحدون .

إذن فقد استحق عليكم العذاب، ﴿فَانتَظِرُوا﴾ أى انتظروا ما سيقع عليكم مستقبلا من عذاب الله : ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أى أن هودا رسول الله سيبقى معهم حتى يتحقق هذا العذاب، ويأتى تحديا لهم على ما سبق أن تحدوا به من الإصرار على الشرك وطلب العذاب من الله ، ولكن إذا كان الحق قد قال: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾ ثم يقول: ﴿فَانتَظِرُوا﴾ أى أن الأمر لم يأت ولابد لهم أن ينتظروا مجيئه ، نقول إن هذه الآية مثل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] أتى فعل ماض، ولا تستعجلوه أى أن زمن الفعل لم يأت بعد فلا تتعجلوا حدوثه، نقول: إنه مادام الله سبحانه وتعالى قد قال ﴿أَتَىٰ﴾ فقد وقع فعلا، فمع أنه لن يظهر لكم إلا فى المستقبل ، إلا أنه قد وقع وانتهى ومسألة حدوث الفعل لكم مسألة واقعة لا محالة ، لأن قضاء الله كما قلنا لا يستطيع أن يمنعه أو يوقفه أو يؤجله أحد.

* نهاية قوم هود *

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقص علينا نهاية قوم هود بعد تكذيبهم وطلبهم العذاب فقال : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢] ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يذكر لنا وسيلة النجاة في قصة هود كما ذكرها لنا فى قصة نوح حين قال: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ [الأعراف: ٦٤] أى أن وسيلة نجاة المؤمنين من قوم نوح كانت السفينة، فما هى وسيلة نجاة المؤمنين من قوم هود؟ لقد كان العرب قديما إذا أصابهم سوء يذهبون إلى الكعبة ليتضرعوا إلى الله ليذهب عنهم السوء، وحتى الكفرة منهم كانوا يفعلون ذلك.

وعندما بدأ عذاب الله يصيب قوم هود أصابهم الجدب فلم تنبت الأرض فأسرع جماعة منهم إلى الكعبة على رأسهم رجل اسمه القيس ورجل اسمه مرصد بن سعد وكان لهم أخوال يحكمون مكة من العماليق أولاد عمليق بن لاوث بن سام، فنزلوا عندهم فأكرموا وفادتهم وجاءوا لهم بالطعام والشراب ومجالس الطرب، وهؤلاء جاءوا من أرض جدباء، فاستمرءوا هذه الضيافة وظلوا شهرا يأكلون ويشربون دون أن يذهبوا إلى الكعبة . فتعجب معاوية بن بكر كبير العماليق من حالهم، فهؤلاء الجماعة جاءوا لينقذوا قومهم من الجدب، ولكنهم نسوا ما جاءوا من أجله ولم يذهبوا إلى الكعبة، وفكر معاوية كيف يلفت انتباههم لكى يذهبوا إلى الكعبة ، وفى نفس الوقت لا يقال إنه ضاق ذرعا بضيوفه فتكون سبة له بين العرب، وكانت عند معاوية مغنيتان فأخبرهما بهذا الأمر، فقالتا له: قل فى ذلك شعرا ونحن نغنيه لهم فيذكروا ما جاءوا من أجله؛ فعمل لهم شعرًا يعرض لهم فيه وأمر المغنيتين أن

تغنيهم به، فقال:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعـل الله يصبحنـا غمـامًا

فيسقى قوم عـاد إن عـادا قد امسـوا لا يبينـون الكـلاما

ثم أكمل الأبيات بأن قوم عاد أصابهم الجدب حتى فقدوا القدرة على الكلام فما عادوا يستطيعون كلاما، وظلت المغنيتان ترددان هذه الأبيات حتى تنبه القوم لما جاءوا له فانتهوا إلى الكعبة وجلسوا يبتهلون إلى الله أن يمطر أرض عاد، فسمع داعيهم وهو قيل بن عنز هاتفا يقول: اختر لقومك... هناك سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء فأى سحابة تريدها أن تذهب لقومك؟ فاختار السحابة السوداء اعتقادا منه أنها مادامت سوداء داكنة فلابد أن تكون مليئة بالمطر[1]، وعاد ومن معه إلى قومهم وأخبروهم بما

---

(١) عندئذ ناداه مناد: اخترت رمادًا رَمْدَدًا لا تبقى من عاد أحدًا لا والدًا يترك ولدًا ، إلا جعلته همدًا إلا بَنِى اللوذية الهمدا ، قال : وهم بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم، قال ومن بقى من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة [قصص الأنبياء لابن كثير : ٩٨].

وقد روى الامام أحمد فى المسند (٣/ ٤٨٢) والترمذى (٣٢٧٣ ، ٣٢٧٤) وابن ماجه (٢٨١٦) بسندهم عن أبى وائل عن الحارث بن حسان ويقال ابن يزيد البكرى قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها، فقالت لى : يا عبدالله إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة ، فهل أنت مبلغى إليه ؟ قال : فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا ؟

قال : فجلست ، قال : فدخل منزله - أو قال رحله - فأستأذنت عليه فأذن لى، فدخلت فسلمت فقال : "هل كان بينكم وبين بنى تميم شىء؟" فقلت : "نعم، وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك وهاهى بالباب" فأذن لها فدخلت ، فقلت : " يارسول الله : إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بنى تميم حاجزًا ، فاجعل الدهناء فإنها كانت لنا" قال : فحميت العجوز واستوفزت وقالت : يا رسول الله فإلى أين تضطر مضرك ؟. =

حدث واختيارهم للسحابة السوداء ، فلما رأوا السحابة السوداء قادمة عليهم استبشروا وقالوا: جاءنا المطر، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف: ٢٤] . حينئذ يرد الحق سبحانه وتعالى عليهم: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ هذه هى قصة العذاب الذى حدث لعاد قوم هود.

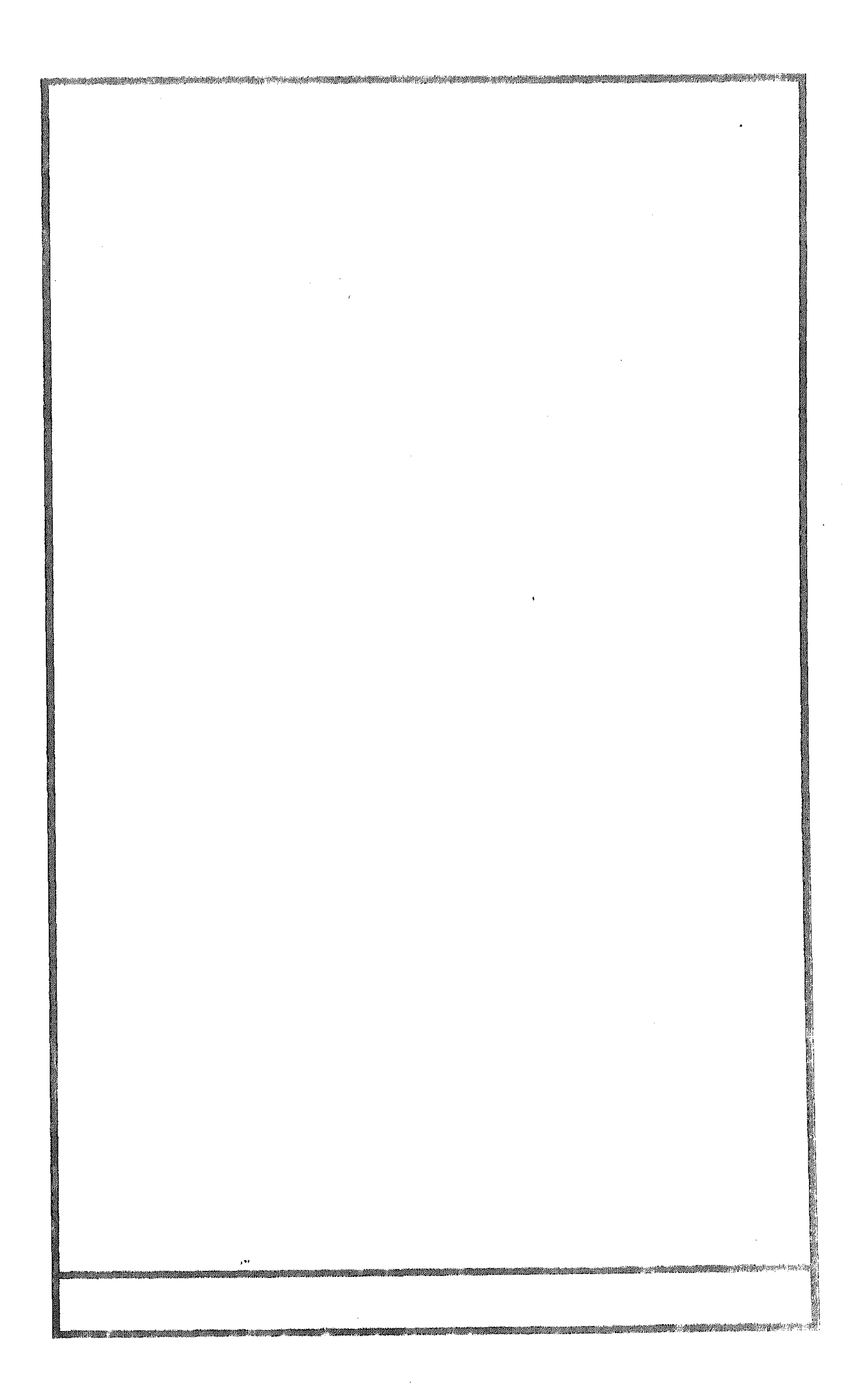
أما كيفية نجاة هود والذين آمنوا معه، فإنه حين رأى السحاب قادما سمع هاتفا يقول له: اخرج من هذا المكان فهذا السحاب فيه العذاب، فأخذ جماعة المؤمنين وانطلق إلى مكة وعاش هناك إلى أن لقى الله عز وجل.

= قال : فقلت : إن مثلى ما قال الأول : معزاء حملت حتفها ، حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لى خصمًا ، أعوذ بالله ورسوله ، أن أكون كوافد عاد.

قال : " هيه وما وافد عاد"؟ وهو أعلم بالحديث منى ولكن يستطعمه، قلت : إن عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم يقال له قيل، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة، فقال : اللهم إنك تعلم أنى لم أجئ إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سود فنودى منها : اختر فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودى منها : خذها رمادًا رمددا ، لا تبقى من عاد أحدًا ، قال : فما بلغنى أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا من الريح حتى هلكوا.

قال أبو وائل ـ وصدق ـ وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا : لا تكن كوافد عاد. وحسنه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى برقم (٢٦١١) . وصحيح سنن ابن ماجه برقم (٢٢٧٢) .

« تمت قصة هود عليه السلام »




نبى الله
صالح
عليه السلام

❊ نبى الله صالح عليه السلام وقومه(1) ❊

الحق سبحانه وتعالى يقص علينا موكبًا آخر من مواكب الرسالات فيقول : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [هود: ٦١] ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أى تلقوا أوامركم ونواهيكم من الله سبحانه وتعالى فى كل حركة من حركات الحياة. قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ أى أن الله تعالى لم يرسل رسولا غريبا عليهم، بل هو أخوهم الذى يعرفونه ويعيشون معه. يعرفون حسن سلوكه وسيرته الطيبة وعقله الراجح، وهذا حتى لا يكون للناس حجة على الله تعالى؛ لأنه لو جاءهم برجل غريب ربما قالوا : هذا رجل لا نعرفه، ولا نعرف صدقه أو كذبه أو سلوكه، ربما كان كذابًا أو لا خلاق له، جاءنا يكذب علينا لتكون له السلطة الدنيوية.

الحق سبحانه وتعالى يبطل هذه الحجة تمامًا ،بأن يأتيهم برسول منهم عاشوا معه ولم يعرفوا عنه كذبًا. بل عرفوا عنه الأمانة والصدق والإخلاص، لا يريد نفوذًا دنيويًا، ولم يسع إليه. فى هذه الحالة لا عذر لهم إذا كذبوه؛ لأنهم يعرفون كل شىء عنه، وكل ما يعرفونه عنه يعطيهم الثقة الكاملة فيه. ماذا قال صالح ؟ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ القوم يطلق عادة على الرجال ولكنه يشمل المرأة أيضا؛ لأن المرأة مستورة فى طى الرجل.

---

(1) قال ابن كثير [قصص الأنبياء : ١٠٤] : هم قبيلة مشهورة ، يقال لهم ثمود باسم جدهم ثمود اخى جديس، وهما ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح، وكانوا عربًا من العاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك ، وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، وكانوا بعد قوم عاد ، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك ، فبعث الله لهم رجلا منهم هو عبد الله ورسوله صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود بن عاثر بن إرم بن نوح .

ولذلك فليس كل حكم للمرأة يطالب به الرجل . والقوم من القيام. يعنى يا من تقومون بأمور الناس.

ومن الخطأ فى الفهم ما يقال فى معنى قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] فالناس تفهمها على أن معناها مسيطرون على النساء، ولكن قوامون تعنى: قائمين على أمورهن. ولذلك لو فهمنا الآية لعلمنا أنها تكليف للرجال بالقيام على كل أمور النساء. أى مطلوب من الرجل أن يخدم المرأة، ويوفر لها ولأولادها المسكن والطعام. بينما هى فى بيتها متفرغة لزوجها وأولادها. فالرجل يعمل ويشقى ليوفر لها كل شىء، ولكن العجيب أن بعض النساء يرفضن هذا المنطق ويطلبن المشاركة فى الشقاء الدنيوى الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يجنبهن إياه. ويعترضن على عدم الخروج، كما يكشفن وجوههن وأجزاء من أجسادهن للناس، وهن يعترضن على النقاب، بل إن هناك من يحاول منع النقاب. نقول لهؤلاء : إذا لم تنقد التهتك فى الملابس، وقلت إن هذه حرية شخصية ، فاجعل للنقاب الحرية أيضًا ، لماذا لم تتدخل فى العرى الموجود وتقول هذه حرية شخصية؟ ثم تعترض على النقاب، ولا تأخذه على أنه حرية شخصية.

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ الإنشاء هو الإيجاد من عدم وبدون واسطة، أنشأ أى أوجد وجود ابتداء دون الاستعانة بأحد . الذى يخترع آلة لا نقول أنشأها ؛ لأنه استعان بأشياء كثيرة كى يخترعها، استعان بالمادة ، واستعان بما وصل إليه الذين من قبله من علم، واستعان بنتائج عقول الآخرين، ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] ويقول : لماذا ؟ لأنه وحده سبحانه وتعالى الذى يخلق بغير موجود وبغير مثال سابق، ودون الاستعانة بأحد، فهو وحده الموجِد من عدم. والمنشئ من عدم. والإنسان فى اختراعاته قد يستطيع

أن يأتى بشىء جديد من شىء موجود وبالاستعانة بالآخرين، ولكن الذى يخترع يبقى على حاله، فإذا صنع كوب زجاج مثلا، فإنه لا يستطيع أن يصنع كوبًا ذكرًا وكوبًا أنثى يتكاثران ذاتيًا بقوانين الأسباب، ولا يستطيع أن يصنع كوبًا صغيرًا، ثم ينمو فيصبح كوبًا كبيرًا، فالله سبحانه وتعالى هو وحده الذى يقدر على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ الخطاب هنا لقوم صالح وهؤلاء لم يشهدوا خلق الإنسان من الأرض ؛ لأن آدم هو الذى خُلقَ من الأرض، ونحن ذريته . فنحن من الأرض مثله، ولو عدنا وتتبعنا التكاثر بين البشر لوجدنا أن التسلسل يوصلنا إلى آدم ؛ لأننى أنا من حيوان حى من أبى، وأبى من حيوان حى من أبيه. وهكذا حتى نصل فى النهاية إلى بداية الخلق. إذن فلابد أن تكون من حيوان حى خلقه الله سبحانه وتعالى وأوجده. وسلسلة الحياة استمرت من آدم حتى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة، وكل شىء يأتينا من الأرض، الطعام يأتينا من الأرض، والدم يأتى من الطعام، فكل شىء مرده إلى الأرض التى خلقنا منها ، ونموت فنعود إليها.

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ استعمركم .. ساعة أن ترى الألف والسين والتاء. اعرف أنها للطلب ، فاستخرج: يعنى طلب الإخراج ، واستفهم يعنى طلب الفهم، واستعمر يعنى طلب التعمير، ولذلك فمن الأخطاء الشائعة أن يقال عن الدول القوية التى كانت تحتل دولا ضعيفة دول الاستعمار؛ لأنه إذا كانت دول استعمار فهم يريدون أن يعمروا الأرض، ولكن الدول المستعمرة تنهب اقتصاد الدول الضعيفة. ولذلك لا يقال عنها دول استعمار، وإنما يقال دول استخراب.

قوله تعالى : ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ طلب منكم عمارتها. والتعمير ضد التخريب. وعمارة الأرض تقتضى :

أولا : أن يبقى الصالح على صلاحه، أو نزيده صلاحًا. ولقد كان الناس

فى الماضى يشربون من الآبار، ولكن الآن صار الماء فى كل بيت .

الثانى : أن ننميها بما يناسب التكاثر الذى يوجد؛ لأن مايتكاثر بالاستقبال يقل بالمضى. كل شىء يكثر. نحن تعدادنا الآن ستون مليون نسمة، وكنا قبل سنين أربعين مليونا، ثم من قرن مضى كنا عشرين مليونا. ومن قرنين كنا أقل. إذن فالعدد يتناقص إلى أن نصل إلى آدم. خذ العالم كله، إن سرت للخلف، أى الماضى يضيق، وإن سرت للأمام، أى المستقبل يتسع ويزيد. ولو رجعت إلى عدة قرون لوجدت عدد سكان العالم لم يكن يزيد على مائتين أو ثلثمائة والمائة أصلهم كانوا عشرة، والعشرة أصلهم اثنان.

لذلك يقول تعالى : ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر:٦] كلام صحيح بقانون الإحصاء، ونحن مؤمنون به قبل أن نعرف قانون الإحصاء ولا يمكن مخالفته. فالرقعة المعطية تتسع كلما تقدم الزمن؛ لأنى أنتفع بعمل من مضى، ومن سيأتى سينتفع بعملى. والذى يحدث الأزمات أننا نتكاثر ولاتزيد الرقعة التى ينتفع بها. ومن عظمة الله سبحانه وتعالى أنه يجعل الضعيف قويا. فأنا عندما أحاول رفع شىء ولا أقدر فإننى أحتاج إلى إنسان قوى ليرفعه عنى. أما أن أحصل أنا على القوة لأستطيع رفع هذا الثقل، فهذه لا يفعلها إلا الله سبحانه وتعالى ، فالله يهب كل الخلق من قوته قوة، ليفعلوا . ومن حكمته حكمة، ومن فضله فضلا ، ومن بسطه بسطا. فالله سبحانه وتعالى تجلى على الخلق بصفات من صفاته . وهذه الصفات جاءت موهوبة وليست بذاتيتنا . والدليل على ذلك أنها يمكن أن تتحول عنا. القوى يصبح ضعيفا والغنى يصبح فقيرا، لكى نفهم أنها هبة من الله وليست قدرة منا. ونحن ننتفع بفعل من سبقنا . فالفاكهة التى نأكلها اليوم مثلا زرعها بشرٌ من قبلنا ، ولذلك لابد أن نعمل مثلهم، وأن نزرع لمن سيجىء بعدنا.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ الاستغفار: طلب

المغفرة من الذنوب التى وقعت ، والتوبة: ألا تعود إلى هذه المعصية أبدًا. ولكنك تجد إنسانا يقول: أنا ذاهب للحج. والحج غفران للذنوب[1]، أفلا أرتكب ذنبين أو ثلاثة ثم أحج فيغفر الله لى ، نقول هل أنت تضمن أن تعيش حتى تحج؟ لا تضمن ، فحافظ على نفسك فإن الأجل ربما يأتى فجأة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ فمادمت استغفرت فقد سمعك لأنه قريب. ومادمت قد تبت فقد قبل توبتك لأنه مجيب[2].

الحق سبحانه وتعالى يقول وهو يروى لنا حوار الكفار مع صالح: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ [هود: ٦٢] ﴿كُنتَ﴾ أى فى الزمن الماضى قبل أن تكلف بالرسالة. مرجوا من قبل، يعنى نأمل على يديك الخير. فما الذى جعلك تقول: اعبدوا الله وحده. قد كنت تعين الضعيف وتعطى الفقير، وتملك كل خصال الخير قبل أن تنادى بأنه لا إله إلا الله ولا عبودية إلا لله وحده.

ويمضون فى مجادلتهم : ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٦٢] أى أتقول لنا إن عبادة آبائنا للأصنام أو الشمس أو غيرها كانت خاطئة ، وتطلب منا أن نتركها؟ ولو كان هؤلاء الناس يعقلون ، لسألوا أنفسهم: هل الآلهة التى يعبدونها تأمرهم بشىء أو تنهاهم عن شىء؟ طبعًا لا . إذن فلا

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من حج فلم يرفث ولم يفسق غفر له ما تقدم من ذنبه». أخرجه الترمذى رقم (٨١١) وقال: حديث أبى هريرة حديث حسن صحيح ووافقه الألبانى فى الصحيح (٦٥١). وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». أخرجه البخارى رقم (١٨٢٠) واللفظ له. وأخرجه مسلم رقم (١٣٥٠).

(٢) عن أبى موسى قال : كنا مع النبى ﷺ فى سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبى ﷺ : « أيها الناس اربعوا على أنفسكم، إنكم ليس تدعون أصم ولا غائبًا ، إنكم تدعون سميعاً قريبًا ، وهو معكم » رواه مسلم (٢٧٠٤) واللفظ له ، البخارى (٧٣٨٦).

منهج لها. وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢] والشك هو استواء الطرفين : الإثبات والنفى . إذن فهم ليسوا على يقين من آلهتهم والذى منعهم أن يكذبوا صالحًا تكذيبًا قاطعًا ، أنهم قالوا: ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ [هود: ٦٢] .(١)

(١) أى كنا نرجوك فيعقلك قبل أن تقول ما قلت . تفسير ابن كثير [٢:٤٣٢] .

* كذبت ثمود المرسلين *

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤١ - ١٤٤] هم كذبوا رسولهم صالح عليه السلام، ولكن الله وصفهم بتكذيب جميع الرسل؛ لأن الرسل جميعًا إنما يصدرون عن شيء واحد، هو سلامة العقيدة أولا. وهذه لا يختلف فيها رسول عن رسول ، ولكن الاختلاف بين الرسل يكون فى المسائل البيئية والاجتماعية التى تناسب العصر والبيئات المختلفة ، لكن أصل المنهج واحد، قال تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء:١٦٣] وقال أيضًا : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] (١).

إذن هناك قدر مشترك فى كل الرسالات ، هذا القدر المشترك: هو إيمان بإله له كل صفات الكمال المطلق، وأن هناك بعثًا ونشورًا وحسابًا. .إلخ. هذه الأساسيات يتفق فيها كل الرسل. فإذا كذب قوم رسولهم فكأنهم كذبوا

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الأولى والآخرة». قالوا: كيف يا رسول الله؟. قال: « الأنبياء إخوة من عَلات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد ، فليس بيننا نبى ». أخرجه البخارى رقم (٣٤٤٢)، مسلم رقم (٢٣٦٥) واللفظ له.

قال العلماء: أولاد العلات: هم الأخوة لأب من أمهات شتى، وأما الإخوة من الأبوين فيقال لهم أولاد الأعيان. وقال جمهور العلماء: معنى الحديث: أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة، فإنهم متفقون فى أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف. [شرح النووى على مسلم].

جميع الرسل. فثمود كذبوا المرسلين بتكذيبهم لنبيهم صالحًا عليه السلام، الذى دعاهم إلى تقوى الله فرفضوا ما جاءهم به من عند الله. مع أنه لم يطلب منهم أجرا على هدايتهم إلى منهج الحق، وقوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٥] يدل على أن هذا العمل فى عرف العقلاء يستحق الأجر عليه؛ لأنه يعمل لهم عملا يمد حياتهم بالسعادة إلى الآخرة.

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ، ١٤٧] الجنات معناها البساتين التى إذا دخلها الإنسان سترته لخصوبة أرضها ولارتفاع أشجارها، والجنات تحتاج دائمًا إلى الماء، والماء قال الله فيه ﴿وَعُيُونٍ﴾ تضمن بقاء الجنات واستمرار نموها، ثم يقول الحق عز وجل: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨] معلوم أن الجنات والزروع تشمل النخل وغيره، فلماذا ذكرت الآية النخل دون غيره من الزروع؟ لأن النخل شبهه رسول الله ﷺ بالمؤمن قال: «إن من الشجر شجرًا لا يسقط ورقه»[1] فظن الصحابة أنه شجر البوادى . فلما خرج عمر بن الخطاب ، وكان مع الجالسين قال له ابنه عبد الله بن عمرَ وكان مع أبيه : يا أبى لقد وقع فى ظنى أنها النخلة . لأنها مثل المؤمن كل ما فيها خير. جذعها يستعمل سوارى - أعمدة - وجريدها يسقف به وسعفها يستخدم فى أشغال الخوص، وليفها يستخدم فى عمل الحبال والمكانس وفائدتها الكبرى

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٨١١). واللفظ له عن عبد الله بن عمرَ رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم فحدثونى ما هى؟». فوقع الناس فى شجر البوادى . قال عبد الله هو ابن عمر رضى الله عنهما: ووقع فى نفسى أنها النخلة فاستحييت . ثم قالوا : حدثنا ما هى يا رسول الله . قال : فقال : « هى النخلة » . قال : فذكرت ذلك لعمر قال : : لأن تكون قلت : هى النخلة أحب إلىَّ من كذا وكذا .

فى ثمار البلح التى تطرحها[1].

وهناك فائدة أخرى اكتشفها العلماء الأمريكان مؤخرًا وهى أنهم أخذوا جزءا من مؤخر جريد النخل الذى يسمى «قحفًا» ووضعوا هذا الجزء فى تربة مشابهة لتربة الأرض التى ينمو فيها النخل ثم سقوها بالماء بحساب، وكانت النتيجة أنها أنبتت نخلة جديدة! والنبى ﷺ عندما قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها» كان على حق؛ لأن شجر النخل لا يسقط ورقه أبدًا حتى لو جف. لما قال ابن عمر لأبيه: لقد وقع فى ظنى أنها النخلة، ذهب عمر إلى رسول الله ﷺ وقال له ما قال ابنه عبد الله- فكان تعليق رسول الله : صدق ابنك. قال عمر: فوالله ما يسرنى من أن لولدى حين فطن إليها حمر النعم.

والنخلة عند بداية إثمارها يظهر منها «الكوز» وهو الذى تكون فيه مادة التلقيح فى ذكر النخل واسمه العلمى «طلع» وهو الذى قالت عنه الآية : ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨] والطلع عندما يكبر يتحول إلى شماريخ أو (القنوان) كما قال القرآن: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٩] ثم يكبر حتى يصل إلى نهايته ويجمد وبعدها يبدأ نمو ثمرة البلح. وعند حد معين يبدأ لونها فى الظهور ، وهو ما يقال عنه فى العامية عندنا «بأن النخل عفر» أى أن خضرة الثمرة شابها شىء من الحمرة. وبعد أن يكتمل لونه أحمر أو أصفر يصبح اسمه «بسر» - بضم الباء - وفى آخر مرحلة يصبح «رطبًا» ومعنى الرطب

---

(١) ومن فوائد النخلة أيضاً أنها دائما مظلة، ثم إنها ترمى بالأحجار فتعطى الثمار، وهى شامخة عالية والمؤمن يسمو بأخلاقه حيث يدفع عنه بالإحسان من أساء إليه، كما قال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: ما عاقبة من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] فإنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته الحسنة إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك. وشىء آخر: أن النخلة تشبه الإنسان، فالإنسان إذا قطعت رأسه مات، وكذلك النخلة إذا قطعت رأسها ماتت.

وفى كتاب « النخلة» لأبى حاتم السجستانى أن الله سبحانه وتعالى اختص ديار الإسلام بهذا النوع من الشجر - يعنى النخل - إذ لا توجد بديار الكفر نخلة واحدة .

يلين وتجف قشرته. فإذا كان الجو جافًا فإنه ييبس الثمر بعد الرطب. فإذا لم يجف الجو يسقط الثمر وهو رطب وإذا جف الهواء تحتفظ النخلة بالرطب حتى يتبخر ماؤه وتجف القشرة وتلتصق بالبلح ويصبح اسمه عند ذلك «التمر». وقوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨] يعنى غض، طرى، لين، يدل على خصوبة الأرض. والهضيم يعنى المهضوم أوسهل الهضم.

ثم تمضى آيات السورة فيقول الله عز وجل: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩] الذين شاهدوا مدائن صالح بجزيرة العرب رأوا كيف استطاع قوم صالح أن ينحتوا بيوتًا فى الجبال. لم يبنوا بيوتًا فى أرض فضاء، وإنما نحتوا بيوتهم فى الجبال، كما نقوم الآن بحفر نفق فى الجبل. ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ الفاره: هو النشط القوى صاحب الموهبة، يقال «فلان فاره فى كذا» أى قوى ونشط فى عمله(١). وبعد ذلك يقول تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المسرف هو الذى يتجاوز الحد، وتجاوز الحد له مراحل. الله حرم أشياء وأحل أشياء، وعمل لها حدودًا مرسومة. فالإسراف فيما شرع الله: هو أن تتجاوز الحد فى الحلال وتدخل فيه شيئًا من الحرام، أو تأتى بشىء من الحرام، وتدخل فيه شيئًا من الحلال.

قول الحق: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٢] نفهم منه أن الأرض مخلوقة على جهة الصلاح فى كل شىء، يأتى الإنسان بتدخله فيفسد فيها، فالله خلق الأرض على هيئة الصلاح، ومادامت كذلك، فإياك أن تتدخل فى إفسادها؛ ولكن حركتك يجب إما أن تنمى الصالح إلى أصلح بطاقة الله المخلوقة لك، أو تتركها على حالها. ولا تكن ممن قال القرآن فيهم: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾

---

(١) الفاره: الحاذق بالشىء، والفروهة والفراهة والفراهية: النشاط.
[لسان العرب: ١٣/٥٢٢].

الآية تقول: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٢] وذكرت الإفساد وعدم الإصلاح.. لماذا لم تكتف بواحد منهما؟ لأن الإنسان قد يفسد فى شىء ويصلح فى شىء آخر. لكن هؤلاء المسرفين لا يأتى منهم صلاح أبدًا. وإنما سائر أفعالهم تحث على الفساد.

بعد ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ . فى مسألة السحر هناك ، مُسَحَّر، وساحر، وسَحَّار. الساحر: هو الفاعل الذى يقوم بالسحر مرة واحدة، أو مرات متقطعة فى حياته. والمسحور: هو المفعول فيه السحر والمُسَحَّرُ :هو الذى توالى عليه فعل السحر، أى تعرض للسحر مرات متتالية. والسَحَّار هو الذى يقوم بالسحر بطريقة مبالغ فيها. يعنى يسحر ويسحر ويسحر بصفة متوالية، فهو محترف للسحر، وفى قصة فرعون: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧]. وقوله: ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أى تواتر السحر عليه مرات.

هذه التهمة التى وجهها قوم صالح لنبيهم، تناقضت فيها أقوالهم ، مرة وصفوه بأنه «ساحر» ومرة قالوا له: أنت «مسحور»، كيف يكون ساحرًا ومسحورًا فى نفس الوقت ؟ إذا كان ساحرًا فلا يصح أن يكون مسحورًا ؛ لأن الساحر يجعل لنفسه حصانة من السحر، وإلا فإنه لا يصلح أن يكون ساحرًا إذا لم يحم نفسه ، ومرة وصفوه بأنه مجنون يعنى يأتى بكلام لا يفهم معناه، وهكذا تضاربت أقوالهم ولم يتفقوا على وصف محدد. هل هو ساحر، أم مسحور، أم مجنون؟!! .

الآية التى نحن بصددها تقول : ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أى أجرى له سحرًا متواليًا عدة مرات، والذى فعل له السحر شخص آخر. إذا كان الأمر كذلك فإننا نسأل: من الذى سحره؟ هل هو منكم أم من أتباعه؟. إن كان الذى سحره منكم فإنكم تستطيعون معالجة الموقف وتفكون هذا السحر لتوقفوه على حقيقته، وإن كان الذى سحره من أتباعه، فهذا غير معقول

ولا يصدقه أحد؛ لأن الأتباع فى الغالب يعينون صاحبهم ولا يفعلون ما يعوق حركته ومهمته. فإذن قولهم إنّه من المسحَّرين زعم باطل، معناه أنهم يوجهون للنبى اتهامًا بلا دليل لمجرد ألا يتبعوه ولا يؤمنوا به.. لماذا؟.

الذين عبدوا الأصنام وقالوا عنها إنها آلهة اختاروا الأسهل لأن الصنم إله بلا منهج وبلا تكليف. لكن عابد الصنم أقنع نفسه وأرضاها بأنه متدين. كل الدجالين الذين ادعوا النبوة صدقهم بعض الناس، لماذا صدقوهم؟ لأنهم خففوا عنهم التكاليف، أباحوا لهم الاختلاط بين الرجال والنساء، وأسقطوا عنهم بعض الفرائض. والإنسان بطبيعته يحب من لا يثقل عليه بشىء ، فإن جاء من يسقط عنه التكاليف وقال له: أنا نبى واتبعنى فإنه يتبعه ؛ لأنه جاء بما تهوى نفسه.

ثم تقول الآيات: ﴿مَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] هم يستنكرون أن يكون الرسول بشرًا مثلهم.. وماذا كانوا يريدون؟. كانوا يريدون ملكا ينزل عليهم من السماء، وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٤] هب أن الله بعث إليهم ملكا رسولا. كيف يتعامل معهم. إن طبيعة خلق الملائكة تختلف عن طبيعة خلق بنى آدم. الملائكة مخلوقات نورانية لا يمكن رؤيتها بالعين. والإنسان مخلوق من طين يتجسد ويمكن رؤيته بالعين(١). ولو بعث الله رسلا من الملائكة لاستحال على بنى آدم رؤيتهم والتلقى عنهم. وحتى يمكن رؤيتهم فلابد أن تتغير صورتهم الملائكية إلى صورة بشر يمكن رؤيتهم والتحدث إليهم، ولو بعث الله ملكًا فى صورة بشر لظلت الشبهة موجودة فى أنه بشر، ومن كان سيدريهم أن هذا البشر أصله «ملك»؟ لو كنتم ملائكة لكان المنطق أن يبعث الله إليكم ملكًا، ولكنكم بشر لايناسبكم إلا إرسال نبى من جنسكم، من البشر.

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». أخرجه مسلم رقم (٢٩٩٦).

❊ الحوار بين صالح عليه السلام وقومه ❊

صالح عليه السلام رد على قومه كما يروى الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٦٣] ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: أى أخبرونى. كأنه ارتضاهم حكمًا، أخبرونى إذا كنت أنا على بينة من ربى، ويقين أنه أرسلنى وأيدنى. وأنا إن خدعت الناس كلهم لا أخدع نفسى.

قوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أى إن ربى أكرمنى باليقين . فماذا تطلبون منى. أن أترك يقين ربى وأستمع لكفركم!

وقوله تعالى : ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ التى هى المنهج والنبوة والرسالة.

وقوله : ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٦٣] عندما تجىء الآيات فى القرآن الكريم على صيغة الاستفهام ليس معناه أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يستفهم عن شىء ، ولكن الله جل جلاله واثق بأنهم لن يجدوا إجابة إلا ما يريدهم أن يقولوه ويعترفوا به لكى يكونوا شهداء على أنفسهم. وقول الحقّ ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أى المنهج والنبوة.

وقول الله عز وجل: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ أى إن أنا رضيت حكمكم، فقولوا لى من الذى يمكن أن ينجينى من الله سبحانه وتعالى إن عصيته؟ أى قولوا لى أين أذهب إن عصيت الله ؟ وكيف أتجنب عذابه، وأنا راض بحكمكم، والجواب الحتمى هنا: يكون لا أحد؛ لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفلت من حساب الله . أنتم تقولون إنكم تشكون فيما أبلغكم به، وأنا أقول إننى على يقين فإن أطعتكم وعصيت الله ، فلا أريد إلا خسرًا، أى فما تزيدوننى غير تخسير. وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾

ما هو التخسير[1]؟ إن الخسارة ضد المكسب، ومعنى الخسارة أن ينقص رأس المال. ومعنى المكسب أن المال يزداد ، إن أنا وافقتكم على ما تريدون، فسأخسر كل شيء ، الدنيا والآخرة. أى أننى لن أريد بطاعتكم إلا خسارة.

حينئذ وبعد أن وصل الحوار إلى هذه النقطة . كان لابد أن تأتى معجزة ليعرف هؤلاء الكفار أن صالحًا مرسل من ربه. وأن المنهج الذى يبلغه هو منهج الله سبحانه وتعالى.

---

(١) التخسير : الإهلاك . [لسان العرب : ٤/٢٣٩] .

﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ . أى : فما تزيدوننى باتقاء سوء ظنكم وارتيابكم غير إيقاعى فى الخسران ، بإيثار ما عندكم على ما عند الله ، واشتراء رضاكم بسخطه تعالى .

[تفسير المراغى : ١٢/٥٥]

❋ الناقة المعجزة ❋

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [هود: ٦٤] حينما يقال هذه ناقة الله . فهذا دليل على أنهم طلبوا من صالح معجزة[1]، وأن الله استجاب لرسوله. وأعطاه المعجزة التى طلبوها. إنهم قالوا: إن كنت رسولا حقًا، فأت لنا من هذه الصخرة بناقة. وسبب طلبهم الناقة من الصخرة، أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا. واقرأ قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩] ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩] فكان قوم صالح ينحتون من الجبال بيوتا، وعندما تذهب بين الشام والمدينة تجد مدائن صالح منحوتة فى الجبال . لقد قالوا له: نريد أن تخرج لنا من هذه الصخرة ناقة. هم اقترحوا الآية ، والله سبحانه وتعالى أجابهم، فانفلقت الصخرة وخرجت منها ناقة . والناقة حامل على وفق ما طلبوها. لم يكن فى استطاعتهم فى هذه الحالة أن يكذبوا الآية التى حدثت أمامهم؛ لأنها رؤية عين. . رؤية يقين، فهم لا يستطيعون التكذيب لما حدث أمامهم.

ولكنهم ينتقلون إلى الآية نفسها فيعقرونها، وهم يعتقدون أن هذا إبطال

---

(١) عن جابر قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح ، فكانت - يعنى الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفجّ فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فكانت تشرب ماءها يومًا ويشربون لبنها يومًا فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحدًا كان فى حرم الله عزو جل » قيل : من هُو يا رسول الله ؟ قال: « هو أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » . أخرجه أحمد فى المسند (٣/٢٩٦) واللفظ له، والطبرى فى التفسير(١٢/٦٧-٦٨) والبزار (١٨٤٤)، والحاكم (٢/ ٣٤٠ - ٣٤١)، وابن حبان (٦١٩٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/١٩٧) رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح.

للمعجزة؛ لأن الناقة بعد أن عقروها لا تستطيع السير، فيقولون : هذه آية باطلة. قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [هود: ٦٤] ساعة تسمع شيئًا منسوبًا إلى الله سبحانه وتعالى اعرف أن له عظمة من عظمة المضاف . عندما نقول مثلا: هذا بيت الله ، فإن المعنى ينصرف إلى الكعبة . والمسجد بيت الله؛ لأنه خصص له قطعة من الأرض ، لا يتم عليها إلا ذكر الله وعبادته ، ولذلك فهى أرض الله خالصة لعبادة الله ، ولا يزاول فيها أى عمل دنيوى. ولكن الفرق بين بيت الله فى مكة ، وبين مساجد الله فى الأرض أن الكعبة هى بيت الله باختيار الله ، والمساجد هى بيوت الله باختيار خلق الله ، ولذلك كان بيت الله باختيار الله قبلة لكل بيوت الله باختيار خلق الله. فعندما نقول ناقة الله . . فهى ناقة باختيار الله . ومادامت منسوبة إلى الله سبحانه وتعالى فإنها تأخذ العظمة المناسبة.

ابن أبى لهب مثلا. . كان متزوجًا من بنت رسول الله ﷺ وعندما اشتد العناد بين أبى لهب والرسول عليه الصلاة والسلام. قال له أبوه : لابد أن تطلق ابنة محمد ، فطلقها. فدعا عليه رسول الله ﷺ ، فقال: « أكلك كلب من كلاب الله» وسمع أبو لهب بدعاء رسول الله ﷺ . فقال : والله إنى لأتوجس شرًا. من دعوة محمد على ابنى، وخرج أبو لهب وابنه فى قافلة، وكانوا إذا جاء الليل أناموه فى مكان وحوله كل رجال القافلة، ويجندون الحرس حوله، لأنهم خائفون من دعوة رسول الله ﷺ . وبينما هم نيام، إذا بأسد يقفز من فوق الرجال، ويأكل ابن أبى لهب ، فتحققت دعوة رسول الله ﷺ . . يأكلك كلب من كلاب الله . . وكان كلب الله أسدًا (١).

---

(١) عن عروة بن الزبير عن أبيه عن هناد بن الأسود قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام فتجهزت معهما، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلق إلى محمد ولأذينه فى ربه سبحانه وتعالى، فانطلق حتى أتى النبى ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم فقال: يا محمد هو يكفر بالذى دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فقال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم "اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك" ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه فقال يا بنى ما قلت له ؟ فذكر له ما قاله، فقال : فما قال لك : قال : قال "اللهم سلط عليه كلبًا=

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [هود: ٦٤] معجزة طلبتموها فحققها الله سبحانه ، لا تستطيعون تكذيبها؛ لأنها حدثت أمامكم، وخرجت الناقة من الصخرة أمامكم، وخروج الناقة من الصخرة تحدٍّ لمراحل الخلق؛ لأن الكائنات الأرضية إما جماد وإما أن يأخذ الجماد صورة النمو فيصير نباتًا، أو يأخذ صفة الحس والحركة ، فيصير حيوانًا، أو يأخذ صفة الفكر فيصير إنسانًا. هذه أجناس الوجود، وكان من الممكن أن تخرج شجرة من الصخرة فيكون هذا إعجازًا.

ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يخرج نباتًا من الصخرة، بل أخرج حيوانًا، ناقة تحمل فى بطنها جنينًا، ومادامت ناقة الله معجزة طلبتموها فحققها الله لكم، وجعلها مشهودة منكم، فحافظوا عليها، لا تتعرضوا لها حين تشرب وحين تأكل، اتركوها. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦١] فهى ناقة الله اتركوها ترعى فى أرض الله وتأكل من خير الله وحافظوا عليها، ولا تمسوها بسوء ؛ لأنكم إن فعلتم ذلك فسيأتيكم عذاب الله وسيكون قريبًا.

= من كلابك" قال يا بنى والله ما آمن عليك دعاءه، فسرنا حتى نزلنا أبراه -وهى سدة- ونزلنا إلى صومعة راهب، فقال الراهب: يا معشر العرب ما أنزلكم هذه البلاد فإنها يسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم، فقال لنا أبو لهب إنكم قد عرفتم كبر سنى وحقى وإن هذا الرجل قد دعى على ابنى دعوة، والله ما آمنها عليه، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، وافرشوا لابنى عليها ثم افرشوا حولها، ففعلنا ، فجاء الأسد فشم وجوهنا، فلما لم يجد ما يريد تقبض، فوثب وثبة فإذا هو فوق المتاع فشم وجهه ثم هزمه هزمة فنسخ رأسه، فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد.

[ابن كثير ٤/ ٢٥٠]

* قتل الناقة *

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣] وهكذا نرى أن أساس رسالات الله إلى الأرض ، هو لا إله إلا الله ، واحد فى كل رسالات الأنبياء. وبعد أن ذكَّرنا الحق بأساس الرسالات التى يجب ألا ننساها وهو لا إله إلا الله ، انتقل بعد ذلك مباشرة إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ فكأن الرحمة والتقوى التى ذكرت فى قصتى نوح وهود لم تكرر هنا ؛ لأنها مفهومة من سياق ما قاله الرسولان السابقان. والله سبحانه وتعالى يريد أن يربى فينا ملكة الاستنباط؛ لاستقبال المعانى كما فى قصة سليمان عليه السلام والهدهد، حين قال سليمان للهدهد: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨] تأتى الآية التى بعدها: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩] وهكذا لم يأت فى القصة بأن الهدهد أخذ كتاب سليمان وذهب إلى سبأ وألقاه على قصر بلقيس، وأخذته بلقيس وقرأته، ثم استدعت قومها لتقرأه عليهم؛ لأن هذا يمكن استنباطه من سياق الكلام.

وكان صالح عليه السلام قد طلب من قومه أن يتقوا الله، وأنذرهم عذابه وبشرهم برحمته، وكل هذا مفهوم من السياق. ماذا قال قوم صالح؟ طالبوه بآية قال له السادة وذوو النفوذ : نقف نحن وأنت. نحن نستنجد بآلهتنا وأنت تستنجد بإلهك. استنجدوا بآلهتهم فلم يحدث شىء، حينئذ قالوا: يا صالح هناك صخرة منفردة على الجبل ، ادع ربك يخرج لنا منها ناقة عشراء (أى حامل) كالبخت وهو أحسن أنواع الإبل. فدعا صالح ربه فانشقت الصخرة

أمامهم عن الناقة ووجدوها عشراء وَبْرَاءَ (أى مليئة بالوبر)[1] وجاءها المخاض فولدت فصيلا (أى جملا صغيرًا)[2]، كل هذا حدث أمامهم ولم يستطيعوا أن يقولوا ناقة من هذه، فقالوا: ناقة الله.. وهكذا شهدوا المعجزة. قال لهم صالح: مادامت ناقة الله[3] والله يقول: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أى هى تشرب يوما وإبلكم يوما فوافقوا على ذلك.

وكانت المياه فى مدائن صالح قليلة، فكانت ناقة الله إذا شربت أخذت كل كميات المياه التى فى الآبار وأعطتهم كمية هائلة من اللبن، فتأتى إبل غير المؤمنين لتشرب فلا تجد ماء، أما المؤمنون فقد كان لبن الناقة يكفيهم جميعًا ويزيد بحيث لا يحتاجون إلى شيء. وكانت هناك امرأتان لهما إبل، فلم تجدا لها ماء؛ لأن المياه فى الآبار قلَّتْ جدًا، فذهبتا إلى رجل اسمه أحيمر ثمود وأغريتاه على قتل الناقة فقتلها[4] - فلما قتلت الناقة صعد فصيلها على

---

(١) هنا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [هود: ٦٤].

(٢) وهنا استطرد صالح عليه السلام قائلا: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]

(٣) أجمع علماء التفسير على أن الناقة لم تلد إلا بعد عقرها فيقول ابن جرير: وشد عليها (قدار بن سالف) بالسيف فكشف عن عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغاة واحدة تحذِّر سقبها، ثم طعن فى لبتها فنحرها، وانطلق سقبها- وهو فصيلها- حتى أتى جبلا منيعا، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا. (نقله ابن كثير فى تفسيره سورة الأعراف ٢١٩/٢).

وفى التفسير الوسيط: قال ابن إسحاق: فكمن لها (قدار بن سالف) فى أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فخرت ، ورغت رغاءً شديدا تَحذِّر سقبها- أى ولدها- من بطنها ثم نحرها. (التفسير الوسيط - سورة القمر). وانظر تيسير التفسير- الجزء التاسع- تفسير سورة القمر.

(٤) ذكر ابن جرير وغيره من علماء التفسير: « أن سبب قتل الناقة أن امرأة منهم يقال لها (عنيزة بنت غنم) وتكنى أم عثمان، كانت عجوزا كافرة، و كانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها (ذؤاب بن عمرو) أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها (صدقة) ذات حسب ومال وجمال، =

صخرة تسمى القارة ورغا ثلاثة أصوات. فقال صالح: يا قوم أدركوا هذا الفصيل لعل الله يرفع عنكم العذاب فذهبوا يبحثون عن الفصيل فلم يجدوه، حينئذ أبلغ الله صالحًا أن العذاب سيأتى بعد ثلاثة أيام.. أول يوم يروا سحابة مصفرة والثانى محمرة والثالث مسودة ثم يأتيهم العذاب(١).

= وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته، فكانتا تجعلان جعلا لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت (صدقة) رجلا يقال له (الحباب) فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها، فدعت ابن عم لها يقال له (مصدع بن مهرج) فأجابها إلى ذلك، ودعت عنيزة بنت غنم (قدار بن سالف) وكان رجلا أحمر أزرق قصيرًا، يزعمون أنه كان ولد زنية، وأنه لم يكن من أبيه الذى ينسب إليه وهو سالف وإنما هو من رجل يقال له ضيان ولكن ولد على فراش سالف وقالت له: أعطيك أى بناتى شئت على أن تعقر الناقة، فعند ذلك انطلق (قدار بن سالف)و(مصدع بن مهرج) فاستغووه غواة من ثمود، فاتبعهما نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨] وكانوا رؤساء فى قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكاملها، فطاوعتهم على ذلك....» (ذكره ابن كثير فى تفسيره سورة الأعراف ٢/٢١٩).

وعن عمار بن ياسر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لعلى: «ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين ؟» قلنا : بلى يا رسول الله. قال : « أحيمر ثمود الذى عقر الناقة والذى يضربك يا على على هذه - يعنى قرنه - «حتى تبل منه هذه » - يعنى لحيته. أخرجه الحاكم (٣/ ١٤٠-١٤١)، وأحمد (٤/٢٦٣) واللفظ له والنسائى فى الخصائص (ص ٢٨)، والطحاوى فى مشكل الآثار (١/ ٣٥١- ٣٥٢)، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبى، وله شاهد من حديث على ، إسناده حسن كما ذكر الهيثمى فى المجمع (٩/١٣٩)، وقال : رواه أحمد والطبرانى والبزار اختصار ، ورجال الجميع موثقون .

وعن عبد الله بن زمعة رضى الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذى عقرها فقال : ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ ، انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه مثل أبى زمعة» أخرجه البخارى برقم (٣٣٧٧ ، ٤٩٤٢)، ومسلم برقم (٢٨٥٥)واللفظ له ، وأحمد (٤/ ١٧).

(١) يواصل ابن جرير ذكر قتل ناقة صالح عليه السلام، فيقول: فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة، وبلغ الخبر صالحًا عليه السلام جاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] وكان تتلهم =

= الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة رهط عزموا على قتل صالح، وقالوا: إن كان صادقًا عجلناه قبلنا، وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل:٤٩] فلما عزموا على ذلك وتواطئوا عليه وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبى الله، فأرسل الله سبحانه عليهم حجارة فرضختهم سلفًا وتعجيلا قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس- وهو اليوم الأول من أيام النظرة- ووجوههم مصفرة، كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل - وهو يوم الجمعة- ووجوههم محمرة، وأصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه- عياذًا بالله من ذلك- لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس فى ساعة واحدة. (تفسير ابن كثير ، سورة الأعراف : ٢/٢١٩).

* موقف المستكبرين من قوم صالح *

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣] والبينة أى المعجزة الواضحة وهى الناقة المنسوبة إلى الله التى خلقها وأوجدها على مرأى ومسمع ومشهد منهم. وكان الواجب أمام هذه المعجزة أن يؤمنوا جميعا بصدق بلاغ صالح عن ربه. ولكنهم استمروا فى عنادهم وكفرهم رغم هذه الآية الواضحة، فقال لهم صالح: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] ثم ذكرهم بنعم الله عليهم وبإهلاكه للكافرين قبلهم.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى وهو يروى لنا ما قاله صالح من تذكيره لقومه نعم الله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤] أى تبنون قصورًا فى السهول وهى الأماكن المنبسطة التى لا صخور فيها ولا تلال. أما فى الجبال فتنحتون بيوتًا، لأن الواحد من قوم صالح كان يعيش حتى ينهدم البيت عليه عدة مرات فى العمر الواحد. فلجئوا إلى الجبال ينحتون منها بيوتًا حتى لا تنهدم على رؤوسهم، وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أى اذكروا نعم الله واتبعوا منهجه ولا تفسدوا فى الأرض بالظلم والطغيان وأكل حقوق الضعفاء.

ولكن قوم صالح خصوصًا أولئك الذين كانت لهم الثروة والنفوذ

والسلطان رفضوا الإيمان حتى بعد أن رأوا معجزة خلق الناقة، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٥ - ٧٧]

أى أن الذين آمنوا مع صالح هم المستضعفون، أما الذين استكبروا فى الأرض فقد أعلنوا كفرهم وقتلوا الناقة ثم قالوا لصالح فى تحد.. إذا كنت من المرسلين فأتنا بالعذاب الذى وعدتنا به، وهكذا لم يكن هناك كفر فقط؛ بل كان هناك كفر وتحدٍّ وطلب للعذاب.

* تخاصم قوم صالح عليه *

الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥] أى أرسلناه برسالة مؤداها: اعبدوا الله ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ساعة ترى الفاء وإذا فهذه تسمى إذا الفجائية مثل قولك: خرجت فإذا الأسد بالباب، أى أنك فوجئت بوجوده عند خروجك. ولكن ما المفاجأة التى حدثت من قوم صالح؟ هو قال لهم: اعبدوا الله، فكان منطق العقل والحق والفطرة السليمة أن يستقبلوا هذا الأمر بالتسليم، فما الذى دعاهم أن يختلفوا هذا الاختلاف؟ هذا الاختلاف كان لابد أن يحدث؛ لأن الأنبياء لا يأتون إلا على فساد فى المجتمع. والله سبحانه وتعالى خلق نفس الإنسان على ثلاثة أقسام: فهناك صاحب النفس اللوامة وهو أن يفعل الشىء ثم يعود إلى رشده وصوابه ويلوم نفسه. وهناك ناس يوغلون فى الفساد والمعصية فهؤلاء نفوسهم أمارة بالسوء، وناس آخرون نفوسهم مطمئنة فالنفس المطمئنة هى التى اطمأنت إلى أمر الله وارتضت حكمه فى (افعل ولا تفعل) لماذا؟ لأنه رب، ومن عادة الرب أنه يتعهد المربى ليؤدى غايته على الوجه الأكمل. أرأيتم مسلما يربى أولاده إلا لغاية شريفة وأهداف عالية. فمادام الله رب العالمين، فهو يأمرهم بما يصلحهم وينفعهم ولا شىء من طاعتهم يعود عليه بالنفع، ولا شىء من معصيتهم يعود عليه بالضرر لماذا؟ لأنه خلق الكون كله بصفات الكمال المطلق، فلم يوجد الكون لنفسه صفة كمال جديدة؛ لأنه سبحانه هو خالقه قبل أن يخلق الخلق، فكل شىء فى الكون لله صفة كمال فيه، فما يطلبه الله من خلقه من تكاليف هو لصالحهم.

فحين دعا صالح عليه السلام قومه إلى عبادة الله كانت الفطرة السليمة

يجب أن تستقبل هذا بالقبول، ولكنه فوجئ بأنهم انقسموا إلى فريقين يختصمون. وما داموا يختصمون فهناك فريقان: فريق معه وفريق ضده، أبرار وفجار. وقلنا إن التعبير القرآني في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥] النظرة السطحية تقول: كان يجب أن يقول: «فإذا هم فريقان يختصمان» لكن الذى يقول هذا لا يدرك أن كلمة فريق مع أنها مفردة فهى لجمع من الناس، فكل فريق جماعة. فحين يقول: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ فهذا صحيح. كما أن الخصومة بين الفريقين ليست خصومة فرد لفرد، ولكنها خصومة جماعة لجماعة. ولذلك قلنا إن القرآن الكريم يقول: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] سطحية العبارة كانت تقتضى أن يقول: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا.. أو اقتتلتا. نقول لهم: لا.. إن كلمة طائفة لا تعنى فردًا واحدًا، وإنما هى مفردة فى اللفظ، لكن مؤداها جمع، فكأنه يقول: وإن أفراد طائفة قاتلوا أفراد طائفة، فافعلوا معهم كذا وكذا، كما أنه حين ينشب خلاف بين طائفة وطائفة، فكل طائفة تتفق فى تقرير موقفها. فإن كان سيحدث قتال فتقرير القتال اتفقت فيه الطائفة كلها. فهذه الطائفة تقول: هيا بنا نقاتل طائفة كذا، والطائفة الأخرى كذلك. فأصبحوا جماعة يقاتلون جماعة. فساعة القرار كانوا على كلمة واحدة ورأى واحد، ولكن ساعة القتال تفردوا جماعات وأفرادًا يواجهون أفراد الطائفة المقابلة لهم. فصاروا جماعة، فيصح معهم اللفظ القرآنى ﴿اقْتَتَلُوا﴾ ولا يصح أن نقول (اقتتلا)؛ لأن الطائفتين ليستا رجلين يمسك كل منهما بسيفه، ولكن داخل كل منهما عدد كبير من المقاتلين كل منهم بسلاحه وشجاعته وجرأته وحميته.

ومعنى ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ أى فيهم مؤمنون به، وفيهم كافرون معاندون. الحق سبحانه وتعالى يعرض لنا هذه القضية فى موقف آخر فيقول تعالى:

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٢] أى اختصموا فى أمر ربهم.. الخصم الأول هم الذين كفروا، الذين ذكرت حالهم وجزاءهم الآيات السابقة. والفريق الثانى هم المؤمنون حيث يقول سبحانه بعد ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٣ ، ٢٤] فربنا سبحانه بيّن لنا كل فريق من الفريقين من هو؟ وماذا فعل؟ وما جزاؤه؟.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ الخصومة هنا بين مؤمن بالله وكافر بالله، هذه الخصومة تجمع الكفار فى جهة والمؤمنين فى جهة. فالمؤمنون متفقون فى إيمانهم، والكفار متفقون فى كفرهم. ولكن ميزة المؤمنين أن وفاقهم سيظل حتى نهاية العمر ثم فى لقاء الله فى الجنة، قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] فالمؤمنون اتفقوا فى الدنيا ويتفقون فى الآخرة. لكن الكفار ستقوم بينهم الخصومات والاختلافات خاصة فى الآخرة. فالمجرمون فى الآخرة سيكونون أعداء وخصومًا لبعضهم بعضًا. لكن المؤمنين متفقون، اتفقوا فى خطة العمل فى الدنيا، واتفقوا فى غاية الجزاء فى الآخرة.

ولذلك ربنا سبحانه يعرض لنا تخاصم أهل النار يوم القيامة فيقول تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ﴾ [ص: ٦٢] ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ [ص: ٦٣]. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤] فهم كانوا يعدون المؤمنين من الأشرار فيعجبون

يوم القيامة؛ لأنهم لم يروهم معهم فى النار، كانوا يعتبرون المؤمنين أشرارا ويعدون أنفسهم من الأخيار فهاهم اليوم فى النار والمؤمنون الأشرار فى نظرهم ينعمون فى الجنة. قبل هذه الآية يقول ربنا سبحانه عنهم: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [ص: ٥٥ - ٦١] ومعنى ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أى أنواع كثيرة من العذاب. ومعنى ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أى فوج داخل عليكم فى النار، فماذا قال الكفار لزملائهم فى الكفر، قالوا: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ لم يرحبوا بإخوانهم، فرد القادمون عليهم بقولهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ فأنتم الذين قدمتم لنا هذا المصير. فهم يتخاصمون فى النار، ويلقى كل فريق منهم المسئولية عما هم فيه من العذاب على الفريق الآخر، فهذا تخاصم أهل النار. إذن الخصومة فى الدنيا بين مؤمن وكافر، وتكون فى الآخرة بين الكفار وبعضهم، بين الذين أضلوا الناس وبين الذين اتبعوهم فى الضلال.

ثم يقول تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦] هذا الكلام يدل على أن هناك سيئة استعجلها القوم فيلومهم نبيهم على أنهم استعجلوا بالسيئة قبل الحسنة، فما هى السيئة؟ وما هى الحسنة؟ السيئة هى استعجالهم نزول العذاب عليهم عندما دعاهم نبيهم إلى الإيمان، فقالوا: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] وهذا دأب الكفار فى كل زمان ومكان، يستعجلون العذاب ولا يطلبون الهداية، لذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ

بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾ [الرعد: ٦] وقالوا أيضًا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فقوم صالح يستعجلون العذاب الذى وعدهم به إذا لم يؤمنوا، فهو يلومهم على استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنهم حين ينزل العذاب عليهم يستغفرون ويتوبون فيرفع الله عنهم العذاب، وهذه هى الحسنة التى أخروها. ولكن ذلك لن ينفعهم؛ لأن الاستغفار لا ينفع عند نزول العقاب؛ لأنه كان الأولى بهم أن يستغفروا ويتوبوا قبل ذلك. لذلك قال لهم نبيهم: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

فماذا كان ردهم عليه؟ قال تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧] هذه اللقطات من قصة قوم صالح لم تأت فيما سبق من آيات مثل سورة الشعراء وغيرها. كلمة اطير أى استعمل الطير، ومعنى استعمال الطير هو أن الإنسان كان حينما يسافر أو يذهب لقضاء مصلحة يمسك أى طير ثم يطيره فى الجو، فإن طار إلى اليمين يقبل على العمل، وإن طار إلى الشمال يتشاءم ويمتنع عن السفر أو يكف عن هذا العمل(١).

(١) التطير: أصله التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصد المتشائمين عن مقاصدهم، فنفاه الشارع وأبطله، وأخبر أنه لا تأثير له فى جلب نفع ولا دفع ضر. قال المدائنى: سألت رؤبة بن العجاج قلت: ما السانح؟. قال: ما ولاك ميامنه. قلت: فما البارح؟. قال: ما ولاك مياسره. والذى يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح، والذى يجيء من خلفك فهو القاعد والقعيد.
(كتاب فتح المجيد- شرح كتاب التوحيد- باب ما جاء فى التطير ص ٢٩٥ وقد عدَّ الإسلام التطير من أعمال الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعًا أو تدفع عنهم ضرًا إذا عملوا بموجبها، وهذا ينافى عقيدة التوحيد والتوكل على الله تعالى.
عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل» رواه البخارى فى الأدب المفرد (٩٠٩). الترمذى=

فهم قالوا: ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ ﴾ أى تشاءمنا منك، فقال لهم : هذا التطير ليس منكم ولكن طائركم عند الله؛ لأنه قضاء مقضى عليكم. فهل حركة الطير هى التى ستحكم فيكم وتحدد عملكم.. لا، بل طائركم عند الله فيما يقضيه وما يقدره.

وفى آية أخرى فى سورة يس يقول تعالى: ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [يس: ١٦ - ١٩] فإن قال: ﴿ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أى من كفركم، وإن قال: «طائركم عند الله» أى لأنه يقضى بعد كفركم بكذا وكذا. فالمعنى واضح هنا وهنا. ولكن لماذا تشاءم القوم من نبيهم وتطيروا به وبمن معه؟.

قال العلماء: لأنه بعد أن أرسله الله إليهم ودعاهم فلم يستجيبوا له أصابهم قحط شديد وبلاء. فقالوا: هذه المصائب بسبب هذا الرجل المشئوم. فلم يراجعوا أنفسهم ويقولوا هذا عقاب لنا على كفرنا وعدم استجابتنا لنبى الله صالح، ولكنهم اتهموا صالحا بأنه نذير شؤم لهم وجاء بكل المصائب. ومعنى: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ الفتنة: إما أن تكون بمعنى الاختيار، أو يفتنون عليها مثل فتنة الذهب على النار.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل: ٤٨] والرهط اسم جمع ليس له واحد من لفظه، ويطلق على العدد من ثلاثة إلى عشرة. فمعنى تسعة رهط كأنهم من قبائل أو أسر أو فصائل قبيلة فلان وفلان وفلان.. هؤلاء الناس كانوا يفسدون فى الأرض.

= (١٦١٤) وقال: حديث حسن صحيح ابن ماجه (٣٥٣٨)، وأبو داود (٣٩١٠) بلفظ «الطيرة شرك ثلاثًا، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل» وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود رقم (٣٣٠٩) . «وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل» من كلام ابن مسعود، ومعناه وما منا أحد إلا ويعتريه شيء منه لأول وهلة ثم يذهب عنه بعد التدبر والتأمل.

يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ فما الذى أفادته كلمة: ﴿يُصْلِحُونَ﴾ ؟ قالوا: قد يكون الإنسان مفسدًا فى أشياء، ولكنه يصلح فى شىء أو أشياء أخرى. ولكن هؤلاء الرهط كانوا يفسدون فقط، ولكن لا يصلحون فى شىء أبدًا.

ومعنى ﴿يُفْسِدُون﴾ أى يعمدون إلى الصالح فى ذاته فيفسدونه، وفوق ذلك لا يعملون أى عمل صالح. فطبيعتهم الفساد فقط، مع أن طبيعة الإنسان العادى أنه مرة يفسد، ومرة يصلح، مرة يعمل خيرًا، ومرة يقع فى الشر. لكن هؤلاء الناس ماداموا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون، فهذا تصميم منهم على الإفساد.. لماذا؟ لأن أى فساد فى الكون لابد أن له من ينتفعون به، فالمنتفع بالفساد ساعة يرى إنسانًا جاء ليصلح ويزيل هذا الفساد، سيتصدى له ويحاربه لأنه منتفع بهذا الفساد وأن مصلحته فى استمراره حتى ولو أضر المجتمع كله. ونضرب لذلك مثلا من واقع الناس : إن الإنسان المسلم المتمسك بدينه حينما يكون فى مصلحة أو مؤسسة فيها فساد ويقاومه يكون ذلك سببًا فى مشكلة للمنتفعين بالفساد فتجدهم يسخرون منه ويقولون عنه إنه حنبلى جدًا ، دعك منه ، ويسخرون منه ويتضايقون منه وربما تعرض للسخرية!! لماذا؟ لأنهم يعيشون على الفساد ويستفيدون منه، ولذلك أصحاب الاستفادة من الفساد هم الذين يقفون فى مواجهة الرسل؛ لأن الرسول جاء ليصلح الفساد ويقضى عليه فكأنه سيقضى على مكاسبهم التى يأخذونها فى ظل الفساد.

هؤلاء التسعة رهط المفسدون ماذا فعلوا؟ قال تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩] انظروا القِحَةَ وقلة العقل والسفاهة، يبيتون لقتل نبى الله صالح ويقسمون بالله ويتعاهدون مع بعضهم على فعل هذه الجريمة النكراء، فهم يتقاسمون بالله على قتل رسول الله، هذا مما يدل على غبائهم ووقاحتهم، وأنهم ليس عندهم

ذرة عقل حتى ولو فى خدمة ضلالهم. ومعنى ﴿تَقَاسَمُوا﴾ أى قالوا لبعضهم: هيا نحلف بالله أن نبيت لهذا الرجل ونقتله حتى نتخلص منه ومن دعوته. ومعنى: ﴿لَنُبَيِّتَنَّه﴾ المبيت هو ما يقطعك عن الحركة، ثم تعود فتبيت الليلة وتصبح فى الصباح لتواصل عمل يوم جديد، ولكن قولهم هنا: ﴿لَنُبَيِّتَنَّه﴾ يقصدون من ذلك أن يعدوا له بياتًا لا يقوم منه، فلا يخرج عليه صباح بعده أبدًا، وذلك بأن يقتلوه. وحينما يقتلونه لابد أن له أهلا وأقارب سينتقمون ممن قتله. ولذلك احتاط الكفار لهذا الأمر بأنهم سيقولون لأقاربه وأولياء الدم: إنهم لا يعرفون شيئًا عن هذا الأمر وليس لديهم فكرة عنه، هم دبروا ذلك وفهموا أن الله يسلم نبيه ويتركه لهم ليقتلوه ثم يتنصلوا من جريمتهم؛ ولكن الله كان لهم بالمرصاد.

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُون﴾ [النمل: ٥٠] أى مكروا [1]. وخططوا لقتل نبيهم صالح عليه السلام. وحين يأتى أهل الدم ليطالبوا به يقسمون لهم أنهم لم يشهدوا هذا الأمر، وأنهم لم يشهدوا مهلك أهل صالح، فمن باب أولى أنهم لم يشهدوا مهلكه هو.. هذا مكرهم، ولكن الله خير الماكرين. إذن هناك مكر شر ومكر خير، قال تعالى: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] فإذا مكرت بخير فهذا ليس مكرًا، ولكنه إبطال مكر للعدو حتى لا تتركه يمكر بك دون أن تقابل مكره بمكر خير يبطله، ولذلك قال ربنا عن نفسه سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ . فهم يمكرون على باطل ويمكرون لتبييت شر، ونحن نمكر لندفع هذا الشر، وما دمنا نمكر لندفع الشر حتى تصح الرسالة وينجح الداعى إلينا فهذا خير الماكرين.

والمكر أن تنوى فعل شىء وتداريه على الخصم وتظهر بما يخالفه تمامًا، ومنه شجرة ممكورة أى أن سيقانها وفروعها تلتف على بعضها فلا تعرف أين

---

(١) المكر : هو التدبير فى خفاء.

جذر هذه الساق من جذر غيرها، فالمكر مأخوذ من شجرة ممكورة. ومعنى ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] يفيد أن المكر يجب أن يكون محبوكًا ومتواريًا لا يحس به أحد، وإلا لو شعر به أحد أو علم به لما كان مكرًا. ونحن حين ننظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ وإلى قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ نعرف أن هناك أشياء فى ظاهرها مذمومة، لكن فى تحقيقها نجد منها ما هو مذموم ومنها ما هو محمود، لذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ فلك أن تظن شرًا بعدوك وتتوقع منه أن يغير عليك فى أى لحظة، ولا تأمن له وتستعد لكافة الاحتمالات، ولا تحسن الظن بأعدائك فتضيع، فالظن بعضه إثم ولكن فيه ما هو محمود ومطلوب. ولأن الناس أصبحوا يمكرون فى كلامهم ولا يقولون الحقيقة كاملة، صار هناك تعبير شائع يقول: الصراحة مكر القرن العشرين.

ولكن ماذا كانت نتيجة مكرهم؟ قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١] فكيف حدث ذلك؟ الكفار رصدوا تحركات صالح عليه السلام وعرفوا المكان الذى يبيت فيه ودخلوا عليه، فساعة دخلوا عليه ليفعلوا فعلتهم؛ استقبل كل واحد منهم حجرا لا يعرف من الذى رماه، كأن الله تعالى سخر ملائكة يضرب كل واحد منهم واحدًا من الكفار فهلكوا جميعًا، ونجا النبى ومن معه. أو أن الله صنع له حيلة خرج بها، وقالوا[1]: إنه ذهب إلى حضرموت، ولما ذهب إلى هناك مات، فسموها حضرموت من أجل ذلك. وقال بعض العلماء: إن الرهط ذهبوا لينتظروا صالحًا فى مكان، وجاءوا فى سفح جبل واختبئوا فيه حتى يمر صالح، فبينما هم يجلسون فى هذا المكان أسقط الله عليهم صخرة قضت عليهم. المهم هلكوا ودمروا سواء كان ذلك بالملائكة التى رمتهم بالحجارة، أو

(١) انظر: قصص الأنبياء - عبد الوهاب النجار - دار الجيل ص ٩٠.

بنجاته منهم إلى حضرموت، أو بوقوع الصخرة عليهم، فكل هذه جنود الله، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

فهم أرادوا أن يهلكوه هو وأهله، فأهلكهم الله هم وقومهم أجمعين، قال تعالى: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥١ ، ٥٢] والدليل على هلاكهم أنه لم يبق منهم أحد، وأصبحت بيوتهم خاوية لا أحد فيها[1]. هذه القصة إذا رأيت الأحداث التى فيها وقارنتها بالقصة الواردة فى سورة الشعراء، تجد أنها هنا جاءت بأشياء جديدة لم تذكر من قبل. ولكن هنا الآيات لم تذكر قصة الناقة وكيف عقروها.. إلخ. ولكن جاءت الآيات بلقطات جديدة لم تذكر فى سورة الشعراء. إذن القصة كررت لمعان جديدة.

---

(١) قال ابن أبى حاتم: لما عقروا الناقة قال لهم صالح: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥] قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث، وكان لصالح مسجد فى الحجر عند شعب هناك يصلى فيه، فخرجوا إلى كهف -أى غار- هناك ليلا، فقالوا: إذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم، فبعث الله عليهم صخرة من أهضب جبالهم، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم فى ذلك الغار، فلا يدرى قومهم أين هم ، ولا يدرون ما فعل بقومهم، فعذب الله هؤلاء ههنا وهؤلاء ههنا، وأنجى الله صالحًا ومن معه، ثم قرأ : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [النمل: ٥٠-٥٣] .

[ذكره ابن كثير فى تفسيره [٣/ ٣٥٥]

* فى انتظار العذاب *

أعطى الله ثمود العظات كلها، لقد أرادوا آية، فجاءتهم ناقة الله تحمل جنينها فى بطنها، كما طلبوا تماما. وكانت معجزة مشهودة.. وأمرهم ألا يتعرضوا لها أو يمسوها بسوء، وإلا أتاهم العذاب من الله سبحانه وتعالى. فالحق جل جلاله حين يطلب منه الكفار آية، ويحققها مشهودة لهم. ولا يؤمنون بها، يحق عليهم العذاب، فماذا فعلت ثمود؟ وجدوا الناقة تأكل من زرع الكفار فتمسحه مسحًا، وتأتى لزرع المؤمنين فلا تقربه، وإذا شربت كمية من الماء، شربت بحيث لم يبق فى الآبار إلا اليسير، فإذا ما آتوا ليرووا فى اليوم الثانى لم يجدوا ماء، ويأتى اليوم الثالث فتمتلئ الآبار بالماء. فقد حدد الله سبحانه وتعالى أن للناقة شرب يوم، ولهم شرب يوم.. فلما لم يستطيعوا الاحتمال فعقروها أنذروا بعذاب الله .

واقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥] عندما عقروا الناقة قال لهم صالح: تمتعوا ثلاثة أيام لن يمسكم فيها شىء، ثم يأتى وعد الله بالعذاب فى اليوم الرابع، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ [هود: ٦٦] ولم يقل فلما جاءت الصاعقة أو الصيحة، بل جاء الأمر من الله بالعذاب، وهو أمر مطاع؛ لأن الحق سبحانه وتعالى له الأمر كله. يقول للشىء كن فيكون. والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ الفاعل واحد. هو الله سبحانه وتعالى، والأمر واحد. فكيف ينجو المؤمنون ويهلك الكافرون؟ هذه هى عظمة الخالق سبحانه وتعالى، يبطل طبائع الأشياء أو يمضيها. وهكذا كانت الصيحة أو الريح أو الرجفة. القوم كلهم موجودون

فى مكان واحد، كافرهم ومؤمنهم. تأتى الصيحة فيهلك الكافر وبجواره المؤمن لا يحدث له شىء؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الآمر لكل خلقه.

ويسأل بعض الناس إذا كان الحق سبحانه وتعالى قد قرر إهلاكهم ، فلماذا الإمهال ثلاثة أيام، نقول: إن العذاب إذا جاء انقطع الألم الحسى؛ لأن الإنسان يموت وعند موته ينقطع الألم. والله تبارك وتعالى يريد أن يعيشوا ثلاثة أيام ليعانوا قرب تنفيذ الوعيد. الذى قال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] لأن الوعد هو بالنسبة لشىء قادم، شىء مستقبلى. والإنسان حين يعد بشىء فمن الممكن ألا يقدر عليه وقت التنفيذ، فقد يموت قبل تنفيذ الوعد وقد يمرض، وقد تقع أحداث تجعل تنفيذ الوعد مستحيلا، ولكن إذا كان الوعد من الله تبارك وتعالى فيكون وعدًا نافذًا غير مكذوب؛ لأنه لا توجد قوة فى هذا الكون تستطيع أن توقف تنفيذ أمر الله فإذا كان الأمر قد صدر من الله ، فإن قوى الكون كلها تعمل بأمره لتنفيذ ما وعد، ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعلمنا أن نتأدب فى كلامنا. فيقول جل جلاله: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ . بهذا تكون قد نسبت الأحداث إلى من يملك الأمر، وإلى من مشيئته نافذة وهو الله سبحانه وتعالى. . لماذا؟. لأنك لو قلت: سأفعل ذلك غدا، فإنك لا تملك القدرة لكى تفى بوعدك. فرد الأحداث إلى مشيئة الله القوى القادر حتى إذا لم تف بما وعدت تكون قد خرجت عن الكذب؛ لأن الله لم يشأ، فالفعل يقتضى فاعلا ومفعولا وقدرة، والإنسان لا يملك أى شىء من هذا، فمن له القوة والقدرة على الإنفاذ، ومن إذا قال فعل؟. هو الله تبارك وتعالى وحده.

الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾ فى دياركم معناه أنها ديار متعددة، فكأن الذين كفروا كانوا فى أكثر من مكان، بل إن المسافرين منهم لحقهم عذاب الله وتتبعهم حيثما كانوا، فكأن العذاب نزل على الديار وعلى الذين كانوا خارج الديار، ولم ينج من العذاب

إلا شخص واحد اسمه. أبو رغال، كان يحج بيت الله الحرام، لم يتتبعه العذاب فى بيت الله؛ لأن الله طلب منا أن نُؤمِّن من دخل بيته الحرام. فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦ ، ٩٧] فإذا كان الله جل جلاله قد أمرنا نحن عباده أن نؤمن من دخل بيته الحرام. فهو سبحانه أولى أن يؤمن من دخل ، ولذلك ظل الحجر الذى سيضرب به أو الصيحة التى ستودى بحياته إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه، فكل الكفار أهلكوا إلا هذا الرجل، ظل العذاب ينتظره حتى خرج من بيت الله الحرام فوقع عليه الحجر[1].

الله تبارك وتعالى فى طلبه منا أن نؤمِّن من دخل بيته الحرام، ولو كان قاتلا إلى أن يخرج ،فيجب علينا أن نضيق عليه وألا نسمح له بالماء ولا بالطعام إلى أن يخرج مضطرًا فيقع عليه القصاص حتى تظل حرمة البيت مصونة. والله جل جلاله فى تحريم البيت حرم المكان أن يروع من هم فيه[2]. فكل حدث من الأحداث يقتضى زمانًا ويقتضى مكانًا، لا يوجد حدث إلا وله زمان ومكان. فالعرب كانوا فى حروب مستمرة بينهم ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يحرم عليهم القتال زمانًا ومكانًا.. الزمان هو الأشهر الحرم وهى المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة.. والمكان هو بيت الله الحرام، وتحريم

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]

(٢) قال ابن جرير وغيره من علماء التفسير: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧] أى صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى، ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه، رضى الله عنهم، إلا أن رجلا يقال له: (أبو رغال) كان لما وقعت النقمة بقومه مقيما إذ ذاك فى الحرم فلم يصبه شيء فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله.

[ذكره ابن كثير فى تفسير سورة الأعراف بتصرف ٢/ ٢١٩]

القتال فى الأشهر الحرم يعطى هدنة يفيق فيها المتقاتلون مع حفظ الكبرياء الشخصية حتى يقال إنهم توقفوا عن القتال تنفيذًا لأمر الله .. زمانًا فى الأشهر الحرم، ومكانًا فى البيت الحرام، ويكون توقف القتال ليس عن هزيمة أو خوف، إنما تنفيذًا لأمر الله ، وعندما ينعم الناس بالسلام ويحسون بالراحة ربما يتغلب العقل وتنتهى الحرب(١).

---

(٣) قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]

وعن أبى شريح العدوىّ أنه قال : إن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : «... إن مكة حرّمها الله ولم يحرّمها الناس، فلا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ولا يعضد بها شجرةً ، فإن أحدٌ ترخّص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا : إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم ...» الحديث رواه البخارى [١٠٤] واللفظ له ومسلم [١٣٥٤] .

* بماذا أهلك الله عز وجل ثمود ؟ *

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿جَاثِمِينَ﴾ (١) أى حين جاءت الرجفة أخذت كلا منهم على الحالة التى كان عليها، فالذى كان واقفًا ظل على وقوفه، والذى كان قاعدًا ظل على قعوده، والذى كان نائمًا ظل على نومه، أخذوا جميعًا على هيئاتهم. مع أن الحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن صالحًا كلمهم بعد أن أخذتهم الرجفة وعاتبهم وقال لهم إنى نصحتكم ، فكيف كلمهم وهم أموات؟ الميت يسمع كلام الحى، ورسول الله ﷺ خاطب القتلى من كفار بدر، وقال لهم إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟. قال المسلمون: يا رسول الله أتكلمهم وقد جيفوا؟. أى أصبحوا جيفة. قال رسول الله ﷺ : «والله ما أنتم بأسمع منهم ولكنهم لا يتكلمون».(٢) وهكذا كان صالح يخاطب قومه بعد أن أخذتهم الرجفة فيقول

---

(١) جثم الطائر: تلبد بالأرض، وبابه: دخل وجلس، وكذا الإنسان (مختار الصحاح) جثم جثومًا : لزم مكانه لاصقًا بالأرض. قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ كناية عن موتهم بحالتهم فهم هامدون لاصقون بالأرض.

[القاموس القويم للقرآن الكريم إصدار مجمع البحوث الإسلامية]

(٢) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثًا، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: « يا أبا جهل بن هشام!، يا أمية بن خلف!، يا عتبة بن ربيعة!، يا شيبة بن ربيعة! أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًا ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقًا ». فسمع عمر قول النبى ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف يسمعوا وأنَّى يجيبوا وقد جيفوا؟ ـ أى: =

لهم : لقد أبلغتكم رسالة الله ونصحتكم ولكنكم لم تقبلوا نصحى.

هؤلاء هم قوم صالح، ثمود، أخذتهم الرجفة أى الهزة التى تحدث رجة فى المهزوز. ويعطى لنا القرآن الكريم صوراً مختلفة لتأديب الله لثمود، فمرة يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ ومرة يقول : ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] ومرة يقول : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧] وسماها فى سورة أخرى «الصاعقة» فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] والرجفة والطاغية والصيحة والصاعقة كلها تؤدى معنى الحدث .. وهو عذاب يفاجئهم ولا يمكنهم النجاة منه.

على أننا لابد أن نتنبه إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧] وكان القياس السطحى يقتضى القول: وأخذت الذين ظلموا الصيحة، ولكن الذى يتكلم هو الله الذين يقولون: كان لابد أن تكون أخذت بالتأنيث نقول لهم: إن الصيحة ليس معناها أنها حدثت مرة واحدة؛ لأن التاء هنا تستخدم عندما تكون حدثت مرة واحدة ، ولكنها صياح وليس صيحة. والصياح فيه عزيمة الرجولة . ولكن أراد الله سبحانه وتعالى أن يجمع الأمرين تكون صيحة وقوة . ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ ولم يقل أخذت؛ لأنها حدثت مرات متعددة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أى ملقين على ركبهم وجباههم هامدين بلا حراك، وقوله سبحانه: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: ٦٨] مادة غنى كلها سواء، غنى وغنيٌّ وغناء كلها تؤدى نفس المعنى. واقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ

= أنتنوا وصاروا جيفًا ـ قال: «والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم. ولكنهم لايقدرون أن يجيبوا». ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا فى قليب بدر. أخرجه مسلم رقم ٢٨٧٤.

قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] ﴿تَغْنَ﴾ يعنى أنها لم تكن موجودة بالأمس . إذن فالغنى معناه الوجود وضده العدم.

وقوله تعالى فى الآية الكريمة: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾

معناها: كأنهم لم يقيموا فيها، أى كأنها أصبحت خالية ولم تكن مليئة بالحياة منذ ساعات [1].

---

(١) قال فى مختار الصحاح: غنى بالمكان: أقام به وقال فى القاموس القويم للقرآن الكريم: غنى القوم فى ديارهم: طال مقامهم فيها، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: ٦٧، ٦٨].

عن ابن عمر قال: نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك، نزل بهم الحِجْر، عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التى كان يشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم، حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا، قال: « إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم ».

أخرجه مسلم برقم (٢٩٨١)، والبيهقى فى الدلائل (٥/٢٣٤)، وابن حبان (٦٢٠٢)، وأحمد فى المسند (٢/١١٧) واللفظ له

وعنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم» أخرجه البخارى برقم (٤٣٣، ٤٧٠٢، ٤٤٢)، ومسلم برقم (٣٩٨٠) واللفظ له.

وعن عمرو بن سعد وقيل عامر بن سعد رضى الله عنه قال: لما كان فى غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى فى الناس "الصلاة جامعة" قال: فأتيت النبى ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول: « ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم» فناداه رجل منهم نعجب منهم يا رسول الله؟ قال: « أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم =

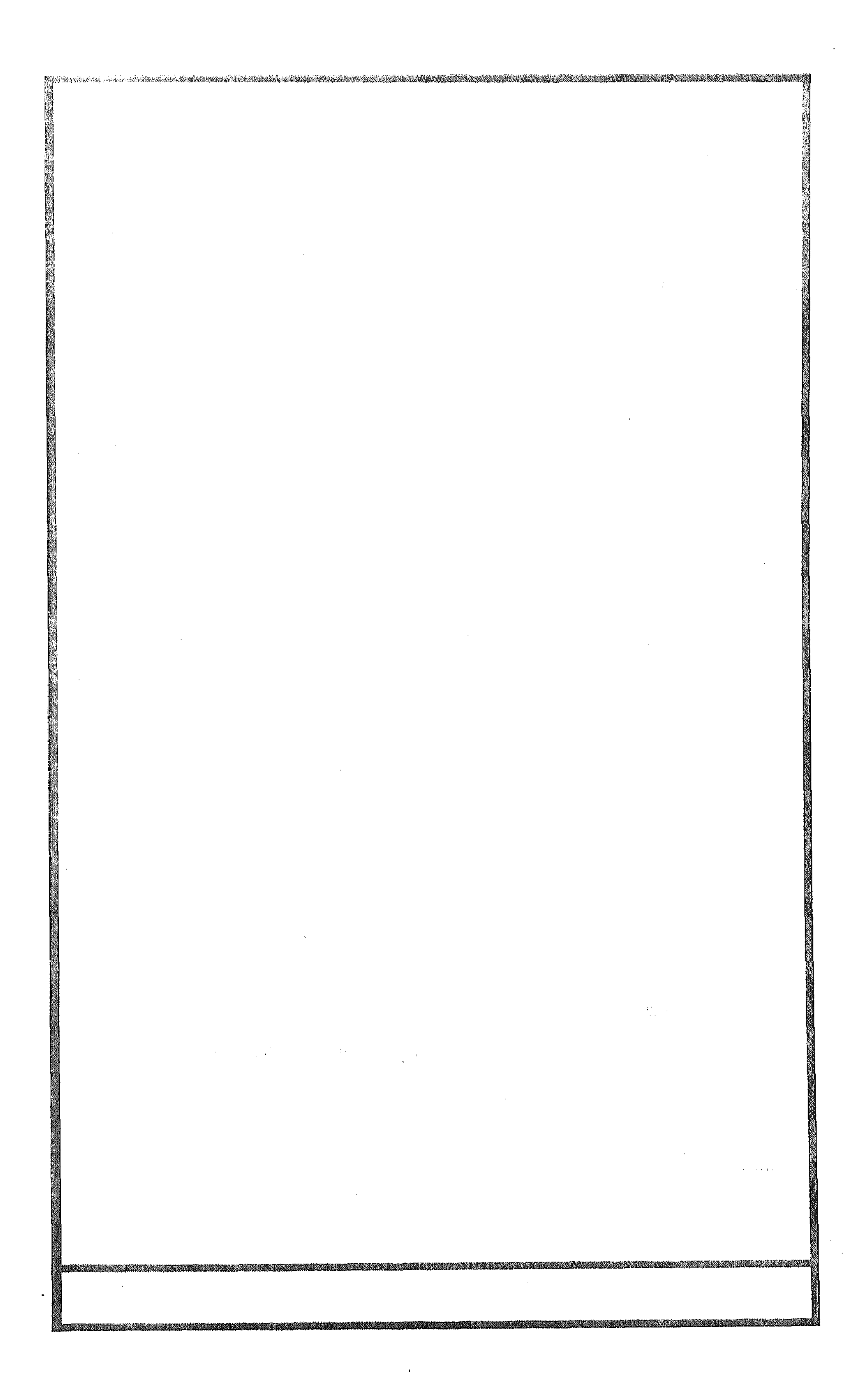
وقوله تعالى ﴿أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ هذه حيثية إهلاكهم بالصاعقة وهم لعنوا فى الدنيا والآخرة ، وقد قلنا: إن الحق سبحانه وتعالى أعطانا بشاعة جريمتهم حتى نعرف أن القصاص عدل ومناسب لبشاعة الجريمة.

وقوله تعالى : ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ عادةً يقال كفروا بربهم، ولكن الحق تبارك وتعالى قال: ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أى أن هناك فرقًا بين المعنيين . . كفروا، أى ستروا وجوده وأنكروه، وكفروا بربهم أى لم يؤمنوا به مع اعترافهم بأنه موجود، هذا هو الفرق، وعندما نرى الذنب الكبير الذى ارتكبوه نعرف أن إهلاكهم كان عدلا، ونقول كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ .

= فاستقيموا وسددوا ، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئًا ، وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم بشىء » أخرجه أحمد فى المسند (٤/ ٢٣١).

« تمت قصة صالح عليه السلام »


نبى الله
إبراهيم
عليه السلام



❋ الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام[1] ❋

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٤١]. إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو أبو الأنبياء وهو القمة؛ لأن الله حينما مدحه قال عنه ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٠].والمقصود بأنه كان أمة قالوا: إنه

(١) قال ابن كثير : هو إبراهيم بن تارخ (٢٥٠) بن ناحور(١٤٨) بن ساروغ (٢٣٠) بن راغو (٢٣٩) بن فالغ (٤٣٩) بن عابر (٤٦٤) بن شالح (٤٣٣) بن أرفخشذ (٤٣٨) بن سام (٦٠٠) بن نوح عليه السلام، هذا نص أهل الكتاب في كتبهم، واسم أمه "أميلة" وقيل اسمها "بونا" بنت كربتا بن كرثى وكان إبراهيم يكنى أبا الضيفان.

وفى هيئته عليه السلام: عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال: «عرض علىّ الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال، كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهًا عروة بن مسعود ، ورأيت إبراهيم صلوات الله عليه فإذا أقرب من رأيت به شبهًا صاحبكم "يعنى نفسه" ورأيت جبريل عليه السلام ، فإذا أقرب من رأيت به شبهًا دحية». أخرجه مسلم واللفظ له (١٦٧) ، والترمذى (٣٦٤٩)، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى رقم (٢٨٨٥) وفى الشمائل (١٢) ، وابن منده (٧٢٩)، وأحمد فى المسند (٣/ ٣٣٤).

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : عن النبى ﷺ قال : «أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فرجل آدم جعد على جمل أحمر مخطوم بخلبة، كأنى أنظر إليه إذا انحدر فى الوادى يلبى» . ولفظ الإمام أحمد قال : «ونظرت إلى إبراهيم، فلا أنظر إلى إرب من آرابه إلا نظرت إليه منى ، كأنه صاحبكم » . أخرجه البخارى (٣٣٥٥)، (٣٤٣٨)،(٥٩١٣) ومسلم (١٦٦) واللفظ له ، وأحمد (١/ ٢٤٥، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٧٧، ٣٧٤) .

أما فى كنيته بأبى الضيفان التى وردت فى قصص الأنبياء لابن كثير: فهو عليه السلام أول من أضاف الضيف لما ورى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «كان أول من أضاف الضَّيف إبراهيم، وهو أول من اختتن على رأس ثمانين سنة ، =

لا يوجد فرد يحتوى على خصال الكمال ومواهب الفضل كلها؛ لأن مواهب الفضل وخصال الكمال أكبر من أن يحتويها فرد، لكن المجموع يحتويها، فهذا شجاع وقوى البنية، وهذا ذكى وهذا نظره قوى، وهذا سمعه مرهف، وهذا قوى الذاكرة، وهذه كلها وغيرها مواهب متفرقة، ولا يستطيع فرد أن يجمع كل هذه المواهب فكل فرد يمكن أن تكون فيه لمسة موهبة ، وكذلك كل كمال موزع فى خلق كثيرين ، إلا إبراهيم فقد كان أمة.

فكأنه أخذ المواهب والكمالات الموجودة فى أمة كاملة. وكلمة صديق من مادة صدق، وصدق معناها : تكلم بواقع، وكذب معناها : تكلم بغير واقع، والذى صدق يسمى صادقا أى يتكلم كلامًا له واقع ويوافق الواقع.

= واختتن بالقدوم». أخرجه الطبرانى فى الأوائل برقم (١٠)، وإسناده حسن ورجاله كلهم ثقات معروفون ، وزاد السيوطى عزوه لابن أبى الدنيا فى قرى الضيف.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قيل يارسول الله من أكرم الناس ؟ قال : «أكرمهم أتقاهم» فقالوا : ليس عن هذا نسألك قال : «فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله قالوا : نعم قال : «فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا». أخرجه البخارى برقم (٣٣٥٣ ، ٣٣٧٤ ، ٣٣٨٣ ، ٣٤٩٠ ، ٤٦٨٩)، ومسلم برقم (٢٣٧٨)، والبخارى فى الأدب المفرد برقم (١٢٩)، والدارمى (١/ ٧٣)، وأحمد (٢/ ٤١٦ ، ٤٣١) والنسائى فى الكبرى (١١٢٤٩ بندارى) (٦/ ٣٦٧).

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ قال : «الكريم ابن الكريم ابن الكريم، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». أخرجه البخارى برقم (٣٣٨٢ ، ٣٣٩٠ ، ٤٦٨٨)، وأحمد فى المسند (٦/ ٩٦).

وأنزلت عليه الرسالة فى أول ليلة من ليالى رمضان: عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضت من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان».

أخرجه الطبرانى فى الكبير (٢٢/ ٧٥) رقم (١٨٥ ، ١٨٦)، والبيهقى فى السنن (٩/ ١٨٨) والطيالسى برقم : (١٩١٨)، وفى الأسماء والصفات (١/ ٣٦٧)، وأحمد فى المسند (٤/ ١٠٧) وإسناده حسن ورجاله ثقات. وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٤٦) : فيه عمران القطان ضعفه يحيى ، ووثقه ابن حبان وبقية رجاله ثقات.

والصدِّيق هو الذى بلغ الغاية فى تصديق ما يأتى من الحق، فهو يأخذ أمر الله دون مناقشة ، ولذلك قال ربنا سبحانه وتعالى على لسان أم موسى ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]. بالله عليك أى أم لو قال لها أحد: إذا خفت على ابنك فألقيه فى البحر هل توافقه؟ وكيف تلقى بابنها فى الهلاك بنفسها فتنجيه من موت مظنون، خشية أن يمسكه جنود فرعون ويقتلوه إلى موت محقق بإلقائه فى اليم ؟ فكيف يقبل أحد هذا الكلام؟، لكن لأن الأمر من الله تعالى فساعة جاءها الأمر لم يعارضها خاطر معارض لأمر الله، ووارد الله لا يعارض بوارد شيطان أبدًا، ولذلك أخذتها قضية مسلمة.

إذن الصدِّيق هو الذى بلغ النهاية فى تصديق الحق، فيورثه الله شفافية وإشراقًا، فإذا سمع الشيء عرف الحق من الباطل ،بمجرد أول نظرة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال : ٢٩] أى يعطيك موازين تفرق بها بين الحق والباطل دون أن تبحث المسألة وتتعب فيها، ومن هنا لُقِّبَ أبو بكر رضى الله عنه بالصدِّيق، فالصدّيق ليس صادقًا فقط، ولكنه يصدق كل ما يقال له موافقًا للحق، ولذلك لما أخبروه أن صاحبه محمدًا يقول أنه أسرى به إلى بيت المقدس، وعرج به من بيت المقدس إلى السماء قال: إن كان قال فقد صدق(١) فهو لا يناقش ما قاله

---

(١) عن ابن شهاب قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس لقى فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وإنه أتى بقدحين: قدح من لبن وقدح من خمر فنظر إليهما، ثم أخذ قدح اللبن، فقال جبريل: أصبت وهديت للفطرة لو أخذت الخمر لغوت أمتك، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة فأخبر أنه أسرى به فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه. [وقال ابن شهاب: قال أبوسلمة بن عبد الرحمن: فتجهز-أو كلمة نحوها - ناس من قريش إلى أبى بكر، فقالوا: هل لك فى صاحبك، يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة فى ليلة واحدة، فقال أبو بكر: أَوَ قَالَ ذلك؟. قالوا: نعم، قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق؛ قالوا: فتصدقه فى أن يأتى الشام فى ليلة واحدة، ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟. قال: نعم. أنا أصدقه بأبعد من ذلك،=

الرسول ﷺ، والفيصل عنده أن يكــون الرسول قال هذا الكلام، والقرآن الكريم يقول عن السيدة مريم: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] إذن مريم صديقة، بعض الناس يقول : صديق يعنى يَصدُق فى كل أقواله وأفعاله. نقول له: الصدّيق هنا هو الصادق، لكن الصدّيق هو الذى يصدّق كل ما قيل موافقًا للحق، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام كان صديقًا ونبيًا.

= أصدقه بخبر السماء. قال أبو سلمة: فبها سمى أبو بكر الصديق. رواه البيهقى فى الدلائل. ج ٢/ ٣٦٠].

وروى أيضًا من حديث عائشة رضى الله عنها ، قالت: لما أسرى برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس مما كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا: هل لك فى صاحبك، يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس فقال: أوَ قَالَ ذلك؟. قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟. قال: نعم. إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة. ولذلك سمى أبوبكر الصديق [تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢] وهذا الحديث رواه الحاكم فى المستدرك [٣/ ٦٢] ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى ومن طريقه أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة ٢/ ٣٦٠-٣٦١.

* موقف إبراهيم عليه السلام من أبيه آزر *

وهناك فرق بين الصدِّيق والنبى. فالصدِّيقية هذه ذاتية عنده وإشراقية من الله فيه، أما النبى الرسول فجاءه تشريع من عند الله، فقد يكون الإنسان صديقًا ولكن ليس عنده تشريع يقوله لنفسه ، ولكن النبىّ الرسول يأتيه تشريع وهدى من الله ، لم يقل تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٢ ، ٤٣] فإبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يقل هذا الكلام بوصفه صديقًا، ولكن قاله بوصفه نبيًا رسولا جاء ليعدّل سلوك الناس واتجاهاتهم.

وكلمة ﴿لِأَبِيهِ﴾ لم يذكر القرآن اسم العلم المشخص لوالد إبراهيم عليه السلام، فالأب هنا وصف ولكن اسمه لا نعرفه، وكل الآيات التى وردت فى إبراهيم ذكرت أنه قال لأبيه كذا وكذا، إلا فى آية واحدة قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤] وهذه الآية دار حولها خلاف؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «مازلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»[1] فكل السلسلة إلى آدم طاهر متزوج من طاهرة فلو أن

---

(١) عن محمد بن على بن حسين، أن النبى ﷺ قال: «إنما خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم، لم يصبنى من سفاح أهل الجاهلية شىء، لم أخرج إلا من طهرة».

السِّفَاح: الزنا. رواه ابن سعد فى الطبقات [١/ ٣١، ٣٢] باب ذكر أمهات رسول الله ﷺ.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ماولدتنى بغى قط منذ خرجت من صلب آدم، ولم تزل تنازعنى الأمم كابرًا عن كابر، حتى خرجت من أفضل حيين =

إبراهيم كان أبوه آزر ، ومحمد ﷺ من ذرية إبراهيم عليه السلام والقرآن ذكر أن إبراهيم نصح آزر ودعاه فلم يستجب، وأصر على الكفر فهو غير طاهر، فيكون قد دخل فى نسبه ﷺ غير طاهر، هذا هو الإشكال. وقد ورد هذا فى قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] ونحن إذا نظرنا إلى الآيات التى تعرضت لموقف إبراهيم عليه السلام مع أبيه، وجدناها لم تذكر اسمه إلا فى آية واحدة ذكرت أن اسمه آزر، وحين نستعرض القرآن الكريم نجد أنه حينما تكلم عن الأبوة ، تكلم عن الأبوة المباشرة والأبوة غير المباشرة، فالأبوة المباشرة يكون فيها الإنسان من صلب أبيه فهذه أبوة مباشرة، والجد أيضًا أب ولكن فيه واسطة، والعم يشترك مع الأب فى الجد فهو أب غير مباشر، إذن فهم يطلقون على العم أبًا.

وإذا استعرضنا نصوص القرآن الكريم نجد أنه جاء بنصين: نص يسرد الآباء المباشرين (الابن عن الأب عن الجد عن أبِ الجد) وذكر آية أخرى مخالفة فجاء بالأعمام وأدخلهم فى الآباء، ففى سورة يوسف مثلا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] فهذان السجينان اختارا يوسف بالذات ليفسر لهما رؤياهما، لأنهما توسما فيه الصلاح والإحسان، فكأن الإحسان له

= من العرب: هاشم وزهرة» رواه ابن عساكر (السيرة الشامية).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح» رواه ابن سعد فى الطبقات - ج١ - باب ذكر أمهات رسول الله ﷺ. قال ابن الكلبى: كتبت للنبى ﷺ خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحًا ولا شيئًا مماكان من أمر الجاهلية. المصدر السابق.

وذكره القاضى عياض فى الشفا - ج١- الباب الأول ، فى ثناء الله تعالى عليه ﷺ.

مقاييس معروفة حتى عند غير المحسن. فهما حينما تعرَّضا لأمر يتعلق بهما لم يذهبا إلا إلى هذا الرجل الطيب الصالح، وهذا يدلنا على أن مقاييس الكمال محترمة حتى عند فاقد الكمال.

فلما قالا له: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] عرف أنهما يتتبعان حركاته وأفعاله بدليل أنهما عرفا أنه محسن فأراد أن يعرفهما أكثر بنفسه ويقربهما إليه فقال لهما: ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧] فكأنه أراد أن يقول لهما: أنا لست مستقيم السلوك وطيب الخلق فقط، ولكن عندى أشياء أخرى طيبة، وهما يريان فيه إحسانًا فصدقاه فى أن عنده أشياء أكثر، وبعد ذلك ترك الإجابة عن السؤال وتكلم فيما يخصه كإنسان داعية لدينه فقال: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٧، ٣٨] أى أن ما سأخبركما به ليس ذكاءً منى أو تفوقًا عليكما، ولكنه من فضل الله عَلَىَّ وتعليمه لى[1].

---

(١) يوسف عليه السلام، دخل السجن بعد مؤامرة خسيسة من امرأة العزيز، ودخل معه السجن فتيان الأول: رئيس السقاة عند الملك، والثانى: رئيس الخبازين.. عايشاه فى السجن فعرفاه محسنًا فى أخلاقه، محسنًا فى علمه، محسنًا فى كلامه وتصرفاته؛ ولذلك أقبلا عليه يستفتيانه فى رؤيا رأياها، كل واحد منهما يريد من يوسف أن يتكلم، كانت أعينهما مسلطة على فم يوسف، كانا يلتقطان كل كلمة يتفوه بها يوسف.

إنهما سألاه عن الرؤيا، فأجاب هو عن الدين والعقيدة والدعوة والرسالة، وهذا أسلوب ينبغى أن يتعلمه الداعية إلى الله، إذا رأى أن الناس فى حاجة إليه، ومقبلون عليه يريدون منه أن يتحدث فليتحدث أولا فى الأهم، ثم يتحدث بعد ذلك فى الأقل أهمية، وبهذا الأسلوب ينجح الداعية ويستفيد الناس جميعًا.

بدأ يوسف عليه السلام يخبرهما ببعض معجزاته: ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف:٣٧] لايأتيكما طعام ترزقانه، من أى جهة كان إلا أخبرتكما =

ثم يغريهما بأن يكون لهما دين، فيبين لهما كيف ترك ملة القوم الكافرين واتبع ملة الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب . فهذه الميزة التى رأيتسوها ليست من عندى ،ولكنها جاءت من أنى تركت ملة الكفر واتبعت الدين الحق فهذا هو الموضوع الذى يهمه[1] ، ولذلك سيؤخر إجابته عن سؤال الرؤيا الذى سأله السجينان حتى يقول ما عنده من دعوة لهما، ثم قال لهما: أنتما يا من لكما أرباب متعددة جئتما تسألان من له رب واحد، فالأرباب لم تنفعكما ولكن الرب الواحد نفعكما، ثم بين لهما فضل اتّباع الرب الواحد على الأرباب المتعددة ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ . وبعد أن أنهى عظته فقط انتهز فرصة حاجتهما واستماعهما له،من أجل حاجتهما لأنهما ينتظران أن يجيبهما عن سؤالهما.ولأنه لو أجابهما منذ البداية لانصرفت آذانهما عن سماعه، فأخر الإجابة ليربط أسماعهما بكلامه حتى يقول ما يريد، أجابهما عن سؤاليهما فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

فهنا كلمة آبائى فى قوله: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾ [يوسف: ٣٨] فهى جمع أب وهؤلاء الآباء هم: إبراهيم، ثم ابنه إسحاق، ثم ابنه يعقوب. فالآباء جمع

= بنوعيته قبل أن يأتيكمافى أى وقت وربما ظن السجينان أن يوسف عليه السلام كاهن أو عراف، فبين لهما أنه ليس كاهنًا وليس عرافًا، وإنما هو مُعَلَّمٌ من الله عز وجل، فقال: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧] هذا العلم ليس من عندى، وإنما هو من تعليم الله، عز وجل، لى.

(١) بين لهما أن هذا العلم الذى علمه الله إياه بسبب نبذ الشرك وعقائده واتبع ملة آبائه المؤمنين الموحدين دراسة مقارنة بين ملل الشرك كلها فتركها، وملة التوحيد فاتبعها، فهو ليس مقلدًا، فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٧ ، ٣٨].

أب، فذكر القرآن الآباء وعدد الآباء المباشرين فيوسف بن يعقوب، ويعقوب ابن إسحاق ،وإسحاق بن إبراهيم عليه السلام (1) .

والآية الأخرى هى قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وإذا كان إبراهيم هو جد يعقوب وإسحاق والده، فما دخل إسماعيل هنا ؟ هو عم يعقوب فاعتبر العم أبًا. إذن فالقرآن اعتبر العم أبًا،فلو قال الحق فى كل آيات القرآن بالنسبة لإبراهيم كلمة ﴿لأَبِيهِ﴾ [الأنعام: ٧٤] كان الأمر سينصرف لأبيه الحقيقى، إنما ذكر فى مرة واحدة أن أباه آزر، ولا يؤتى بالعلم بعد الأبوة إلا إذا كان مطلقًا على العم.

هب أن واحدًا يسأل ابنًا عن أبيه سيقول له: هل أبوك هنا ؟ فيقول له مثلا: ليس هنا. لكن إذا أراد أن يسأل عن أب غير حقيقى عم مثلا يقول له: هل أبوك محمد هنا؟. إذن لا يأتى بالعلم إلا حين يراد غير الأب الحقيقى. لكن لو كان يريد الأب الحقيقى فإنه يكتفى بقوله هل أبوك هنا؟ فكأن الأبوة شائعة بين الأب الحقيقى وبين العم. إذن فقول الله فى آية واحدة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤] حتى يثبت أن آزر ليس هو الأب الصلبى لإبراهيم وإنما هو من العمومة ، وبذلك يسلم لرسول الله ﷺ أنه نقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات، وقول الحق سبحانه عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا﴾ . كلمة ﴿يَا أَبَتِ﴾ التركيب اللغوى العربى لها: يا أبى، إلا أنهم يحذفون ياء

---

(1) عن ابن عمر رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال: «الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام». أخرجه البخارى [٣٣٩٠] ، وأخرجه أحمد فى المسند رقم [٤١٦/٢]

المتكلم، ويأتون بدلا منها بالتاء فهى عوض عن ياء المتكلم، وهذه لها ملحظ حيث إن وضع التاء بدل ياء المتكلم يراد منها إثبات أنه وإن كان أبا ، إلا أن فيه جنان الأبوين (الأب والأم) فجاء بتاء التأنيث لتشير إلى هذا، ولذلك فهى لا تقال إلا فى الحنانية المطلقة، وانظر إلى أدب الدعوة فإبراهيم يستفهم منه ويترفق به قائلا: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم : ٤٢] فجاء بها على صيغة الاستفهام، فكأنه يريد أن يستفهم منه برفق عن سبب عبادته لهذه الأصنام، فكأنه حلل الشيطان أولا إلى عناصره سواء كان صنمًا أو غير ذلك، فالعلة فى أننا نتجنب الأصنام والأوثان ـ خاصة وأن بيئة إبراهيم كانت بيئة أوثان ـ إنها لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى شيئًا ، والمفروض فى الإله الذى يستحق العبادة أن يكون له أمر ونهى؛ لأن العبادة هى إطاعة عابد لأمر معبود، فماذا قال الصنم للناس الذين يعبدونه !؟ لأنهم كى يعبدوه لا بد أن يطيعوا أوامره ويجتنبوا نواهيه.

ولذلك فالذين يعبدون الشمس نقول لهم: متى قالت الشمس لكم افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا حتى تعبدوها؟ وماذا أعدت لمن لم يعبدها؟ لا شىء. فكيف تعبدون إلهًا من غير منهج وتقولون إنه معبود؟هذا لا يصلح، وإبراهيم عليه السلام كرر كلمة ﴿يَا أَبَتِ﴾ [مريم: ٤٢] ليثير فى عمه غريزة الحنان والرحمة والمودة فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٣ ، ٤٥]

أى يا أبت لا تظن أننى متعال عليك أو أننى أحسن منك ، أو أننى أذكى منك وآتيك بكلام من عندى، ولكنى آتيتك بكلام من عند من هو أعلى منى ومنك فلا غضاضة فى ذلك، فأنا جاءنى علم لم يأتك فالمسألة ليست ذاتية ولد وعمّه أو ذاتية ولد وأبيه، لكن المسألة فوق الجميع، ولذلك قلنا فى سورة الكهف : إن العبد الصالح عذر موسى عليه السلام وقال له :

﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ . لأن عندى علمًا ليس عندك مثله، فلن تصبر على شىء ليس عندك علم به.

وكذلك قال إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ . والصراط السوى هو الطريق الذى يصل إلى الغاية بأقل مجهود وأقصر وقت ، وكلمة : ﴿لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾. فالشيطان يسمع ويبصر، وإبراهيم سبق أن قال لعمه: لمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر؟ وهذا يسمع ويبصر، قالوا: لأن الشيطان هو الذى يسوِّل للإنسان أن يعبد الصنم فالمسألة كلها مردها للشيطان، ولكن إبراهيم حلل المسألة المباشرة، فعمه يعبد صنمًا لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى شيئًا ، وهذا بشهادة عُبَّاد الأصنام أنفسهم قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢ ، ٧٣] هذا استفهام، ولا يستفهم مجادل من يجادله عن شىء إلا وقد علم أن الجواب لابد أن يكون فى صفه؛ لأنه ائتمنه على الجواب. ﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾. إذن العبادة لغير الله مردها إلى إغواء الشيطان الذى يجعل الإنسان يعبد صنمًا أو وثنًا أو شمسًا أو شجرة أو غير ذلك.

ومعنى ﴿عَصِيًّا﴾ : أى يعصى أوامر الله بِلَدَد[1]، وهذه مذكورة من امتداد قصة آدم. ثم قال له: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم : ٤٥] المس: هو الالتصاق الخفيف. ولم

---

(١) اللَّدَدُ: الشدة فى الخصومة، قال فى مختار الصحاح: رجل ألد: بيِّنُ اللدد، أى شديد الخصومة.

قال فى القاموس القويم: لَدَّ الرجل: اشتد فى الجدل والخصومة.

والألَدُّ: اسم تفضيل، أى الأشد خصومة وجدلا، قال تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

يقل له يصيبك العذاب ولكن تلطف معه وقال: يمسك. مثلما تقول لإنسان عزيز عليك أنا أخاف عليك من نسمة الهواء، ومعنى أخاف تفيد أن أمرك يهمنى فأخاف عليك أن يصيبك مكروه، والولى هو التابع والقريب، فولى الشيطان تابعه والقريب منه، ومثلما يعذب معه، أخشى عليك أن تعذب مثله. انظر إلى منطق الداعى كيف رتب الأمور هذا الترتيب الذى لا يثقل على أذن المجادل، لكن المجادل له لدد، ولذلك مطلوب منك حينما تجادل أحدًا، أن تجادله بالتى هى أحسن، لأنك تجادله لتخرجه عن الفساد الذى هو فيه، وما دام عن فساد فهو اشتهى الفساد أولا ثم اعتاد الفساد بالفعل ثانيًا ، فاشتهاه واعتاده فأصبح متمكنًا منه وعزيزًا عليه، فحين تأتى لتخرجه من الفساد لا تخرجه بقسوة، ولكن لابد أن تحتال عليه وتتلطّف معه وتترفق به، لأنك إذا نهرته فستجعله يعرض عنك، وإذا أعرض عنك فلن يسمع لنصحك، وإذا لم يستمع للنصح سيظل على فساده قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ . ولذلك قالوا: النصح ثقيل فلا ترسله جبلا، ولا تجعله جدلا، والحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان.

بعد ذلك يأتى رد آزر على إبراهيم فى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦] كلمة ﴿أَرَاغِبٌ﴾ يختلف معناها إلى المقابل بحرف الجر الذى يأتى بعدها تقول: رغب فى كذا أى أحبه، ورغب عن كذا أى كرهه واعتزله، مع أن المادة اللغوية واحدة هنا يقول: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ والمعنى هل تريد آلهة غيرها يا إبراهيم؟ وهناك آية تقول: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] فرغب عنه أى تركه وذهب إلى غيره، ورغب فيه أحبه. إذن أنت راغب فى كذا ولكنك لم تأخذ الوسيلة إليه، فالرغبة فى الشيء لا تفيد إلا إذا رغبت فى الطريق الموصل إليه من الخير،

ولذلك تجد قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة القلم فى قصة أصحاب الجنة، ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ [القلم: ٣٠ - ٣٢] أحسّوا بالندم على ما فعلوا من عزمهم على منع الفقراء والمساكين من دخولهم جنتهم، وعدم إعطائهم شيئًا من ثمرها الذى كانوا ينوون جمعه فى هذا اليوم.

فلما ذهبوا إلى الجنة ووجدوها قد تحطمت واحترق ثمرها وأشجارها شعروا بالندم على فعلتهم، ورجعوا إلى الله وتمنوا أن يبدلهم خيرًا منها وقالوا: ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ [القلم: ٣٢] لأنك إذا أحببت الله فلا تقل إنى راغب فى الله، ولكن ارغب فى الطريق الذى يوصلك إلى ربك؛ لأن الرغبة فى الله لها ثمن وهو سلوك الطريق الموصل إلى الله من الطاعات وفعل الخير والصدقات والالتزام بالمنهج، وهنا آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨].

فهؤلاء لا يحبون الله ولكنهم يحبون عطاء الله، بدليل أن العطاء حينما امتنع صرفوا نظرهم عن الطاعة والالتزام، ومعنى﴿ يَلْمِزُكَ ﴾أى يعيبك، ولكن الحق سبحانه يريد أن يعدل لهم المنهج فيقول تعالى بعد ذلك: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩] أى أنهم سيرضون بعطاء الله ورسوله ويأملون فيما عند الله ؛ لأنه خير وأبقى، ويرغبون فى طريق الله تعالى؛ لأنه الوسيلة التى توصل إليه .

إذن هناك فى اللغة رغب عنه، ورغب فيه، ورغب إليه. فالذى يرغب فى حب الله يرغب فى الطريق الموصل إلى الله، وقوله: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ

﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] أى إن لم تنته عن موقفك هذا من آلهتنا سأرجمنك، والرجم: هو الضرب بالحجارة. ويبدو أن الرجم كان طريقة التعذيب الشديدة فى ذلك الوقت، ويبدو أنها كانت طريقة متبعة فى هذه الأزمنة، فالحق سبحانه يقول فى قصة أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠] وكلمة اهجرنى أى ابتعد عنى، وكلمة ﴿مَلِيًّا﴾ الملىّ (١)، هى البرهة الطويلة من الزمن، وهى من الملاوة التى هى الفترة الطويلة من الزمن ومنها سمى الليل والنهار الملوان.

ولكن ماذا قال إبراهيم ردًا على هذا الكلام القاسى؟

إنه لم يخرج عن سمته العادل فى عرض دعواه وأدبه مع عمه، ولذلك رد عليه قائلا ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] فكأنه أراد أن يؤكد كلامه الذى قاله له سابقًا لأنه ينبه أنه يقول: وإن لم يستغفر له سيكون مصيره مؤلمًا فذكره بالله وأنه سيستغفر الله له لأنه لا يرضى له بهذا المصير. فقال له: سلام عليك لأنه سيستغفر له ربه، وحين يستغفر له ربه فهو يعلم أن ربه حفى به وكريم معه ولن يرد له طلبه، وظل يستغفر له وقد نزل فى ذلك قول الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ . فكأن سيدنا إبراهيم يقول لعمه إن السلام منى لا يكفى، ولكن المهم السلام من الله.

---

(١) قوله: ﴿واهجرنى مليا﴾ قال مجاهد: يعنى دهرًا، وقال الحسن البصرى: زمانًا طويلا، وقال السدى: ﴿واهجرنى مليًا﴾ قال: أبدًا، وقال ابن عباس: ﴿واهجرنى مليًا﴾ قال: سويًا سالما، قبل أن تصيبك منى عقوبة. [تفسير ابن كثير٣/٥ ١٢١]

قال الصابونى: قول ابن عباس رضى الله عنهما قال به الضحاك وقتادة وأبو مالك، واختاره ابن جرير [مختصر تفسير ابن كثير].

فأنا لن أنهرك ولن أتعرض لك، ولكن من أجل أن السلام من الله فإنى سأستغفره لك، أى أننى لن أرد على تهديدك لى وردك القاسى على دعوتى لك، فلك منى السلام فلن أقابل موقفك بالمثل وأرجو أن يكون لـك سـلام مـن الله، ولذلك سأستغفر لك ربى، وآمل أن يستجيب لى ؛ لأنه «حفىَّ» بى، ولا يرد لى طلبًا.

والفعل حفى مثل رضى، ويحدد معناها حـرف الجـر الذى يأتى بعدها مثل حفىَ فلان بفلان، ومعنى حفَى به أى بالغ فى إكرامه إكرامًا يستـوعب كل متطلبات سعادته، ولذلك يقولون: قابلوه بحفاوة أى أكرمـوه إكرامًا يتناسب مع ما يحقق له سعادته ، وتحقيق السعادة يختلف باختلاف الناس. فهناك من يسعد بأن تجلسه على مصطبة وتفرش له حصيرة، وهناك من يحتاج فى استقباله إلى زينات وأنوار وورود ورياحين . . إلخ.

فمعنى كان الله به ﴿حَفِيًّا﴾ : أى يزيد فى إكرامه إكرامًا يحقق سعادته ، ومن سعادته أن يغفر الله لعمه الذنب الذى عمله.

فهو هنا يضخم شيئين : يضخم الذنب الذى فعله عمه، ويعظم الرب الذى سيستغفر لعمه عنده، وما دام ربى ﴿كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ سيكرمنى، ودليل إكرامه لى أنه جعلنى نبيًا، وهو فى كل ذلك يؤكد معنى الصدق فى كلامه فيقول له : اسمع كلامى لأننى ذو مكانة عند ربى.

ومن معانى الحفاوة أيضًا : « حفىَ » فلان عن فلان أى بالغ فى البحث عنه إلى أن يعرف خبره وقصته وأن يصل إليه، وذلك حتى فى المعنى العامى يقولون: أنا حفيت حتى وصلت إليك. إذن « حفىَ » به تختلف عن «حفىَ» عنه. « حفىَ » به بالغ فى إكرامه إكرامًا يسعده، « حفىَ » عنه بالغ فى البحث عنه ليعرف أخباره ويتقصاها ، ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أى أنهم

يسألونك عن الساعة كثيرًا. لأنهم يفهمون أنك معنىّ بأمرها ومغرم بالبحث عنها ومعرفة موعدها، مع أن علمها عند الله. لأن ﴿حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أى مهتم بها وتبحث عنها بدأب فقل لهم: إن علمها عند ربى وإذا أطلعنى الله على شىء منها فسأقوله لكم. فهنا إبراهيم قال لعمه: سلام عليك أى منى، ولكن السلام الذى يجب أن يكون لك سلام من ربى وربك، وهذا السلام يعوقه ما قلته من صد عن سبيل الله لكنى أطمئنك أننى سأستغفر لك.

وأطمئنك اطمئنانًا آخر: إن ربى « حفىّ » بى، يزيد فى إكرامى ولن يضن على بأن يغفر لك بشرط أن ترجع عن موقفك وكلامك الذى قلته لى. فهو يريد أن يحنن عمه فى اتباع الإيمان، كما أنه لم يستغفر له فى نفس الوقت، ولكنه وعده بأنه سيستغفر له فى المستقبل، لأنه يريد أن يبرئ هذا الاستغفار من المجاملة والنفاق والخداع لعمه. لأن الدعاء وأنت بعيد عن المدعو له يكون دعاء عن ظهر غيب وهو أرجى للقبول عند الله؛ لأنه ليس فيه نفاق أو رياء أو مجاملة بل هو بعيد عن عيون الناس جميعًا[1].

ثم يقول بعد ذلك: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم : ٤٨] كلمة اعتزال معناها ترك صحبة إلى خير منها ولو كان ذلك فى اعتقاده هو. فمثلا لو أن هناك مجموعة من الشباب يتعاونون على أداء الصلاة والتمسك بتعاليم الإسلام، وكان بينهم

---

(١) عن أم الدرداء رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يقول: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل» أخرجه مسلم رقم[٢٧٣٣].

قال الإمام النووى: قوله: "بظهر الغيب" فمعناه: فى غيبة المدعو له، وفى سره، لأنه أبلغ فى الإخلاص. وقال: لو دعا لجماعة من المسلمين حصلت هذه الفضيلة، ولو دعا لجملة المسلمين فالظاهر حصولها أيضًا، وكان بعض السلف إذا أراد أن يدعو لنفسه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدعوة ؛لأنها تستجاب ويحصل له مثلها .

شاب أشد تمسكًا والتزامًا، ولكنه بعد ذلك وجد من هو أكثر تمسكًا والتزامًا من هؤلاء فقال أنا أعتزلكم، فاعتزلهم إلى خير منهم ولو فى نظره هو، وقد يكون العكس.

إذن الاعتزال هو ترك صحبة إلى صحبة أخرى لأنه يراها خيرًا منها ، والحق سبحانه وتعالى يعلمنا فى هذا أن الإنسان حين يمارى فى قضية حق وباطل، ويجد الذى أمامه عنده لَدَدٌ فى الباطل لا يطيل معه الكلام حتى لايؤصل فيه العناد؛ لأنه لو أصل فيه العناد تنتقل المسألة إلى كبرياء الغلبة فيترك الحق، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يعلّم المعاصرين لرسول الله ﷺ ألا يبحثوا بحث جمهرة، فلا يجلس ألف ويقولون : ما رأيكم فى محمد ويعملون مظاهرة لماذا ؟ لأن الغوغائية أو الجمهرة الكثيرة يتوارى فيها الناس فى الناس، فلو هتف أحدهم بهتاف لا يعرف من هو فى هذا الزحام بل يتوارى كل واحد فى الآخرين، وتصبح المسألة غوغائية لا يحكمها منطق أو عقل.

فالله سبحانه وتعالى يُعلّم المعاصرين لرسول الله ﷺ حين يريدون بحق أمر رسول الله ﷺ ليأخذوا منه موقفًا فيقول لهم على لسان الرسول ﷺ، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] أى إياكم أن تناقشوها مناقشة جمهور ؛ لأن الجمهور ليس له عقل إذ عقله فى أذنيه، وكما قلنا سابقًا لما انهزمت كليوباترا وحليفها وصوروها على أنها انتصرت ، وهذا يحدث كثيرًا مع الشعوب المقهورة حين يصور الحكام المنهزمون أنفسهم على أنهم منتصرون. والشاعر يقول:

انظر الشعب ديون	كيف يوحون إليه
ملأ الجوَّ هتافًا	بحياتى قاتليه
أثّر البهتان فيه	وانطلى الزور عليه
يا له من بّبغاء	عقله فى أذنيه[1]

(١) من مسرحية "مصرع كليوباترا" لأمير الشعراء أحمد شوقى.

إذن فالجمهرة لا تعطى رأيًا ، ولكن كلما كان العدد أقل كان النظام والهدوء أكثر، واستطاع الإنسان أن يفكر بروية، والقرآن أمر المشركين بذلك في مناقشة أمر الدعوة، فحين يخلو الإنسان إلى نفسه ويفكر بهدوء يمكن أن يهتدى إلى الصواب، وكذلك الاثنان أيضًا ، فالقرآن طلب منهم أن يقوموا لله مثنى وفُرادى، ثم يتفكروا هل يمكن أن يكون محمد مجنونًا؟ وكيف يكون المجنون صادقًا وأمينًا ومخلصًا وصاحب خُلُقٍ كريم.

وإذا كان ساحرًا كما تقولون، فلماذا لم يسحركم جميعًا لتؤمنوا به وتنتهى المسألة؟!، فإذا أردت أن تصل إلى الحق فى مسألة من المسائل ، اترك الناس يتناقشون فيها اثنينَ اثنينَ. أو واحدًا بمفرده إن كانت عنده قدرة على استعراض الآراء، فيجلس ويستعرض الآراء ويصفّيها ، وفى حالة الاثنين يمكن أن تتصارع الأفكار ويغلب رأى واحد على الآخر، ففى هذه الحالة لا يكون هناك ثالث لِيُعَيِّر أحدهما أمام الآخر لضعف حجته وقلة إدراكه، لكن فى الاثنين صاحب الرأى المغلوب استفاد أنه عرف الحقيقة ولم ينتقص من قدره شيء ولم يعيره أحد.

إذن فالاعتزال أمر مطلوب إن وجد الإنسان البيئة غير صالحة لنقاش الباطل من الحق حتى لا نؤصل الجدل، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء : ٩٧] أى لماذا لم تعتزلوا هؤلاء المجرمين الطغاة الذين لا يعبدون الله ولا يؤمنون به؟. وانظروا إلى التعبير القرآنى ﴿أَرْضُ اللَّهِ﴾ وأرض الله فى كل مكان فى العالم وليست فى دولة دون أخرى، ومن هنا كان المفروض إيمانيًا أن تترك الأرض كلها بلا حواجز، والذى يضيق بـه مكان يذهب إلى غيره ولا يجد مانعًا، ولكن هذا لا يوجد الآن. فالحق سبحانه وتعالى حينما وضع المبادئ للإنسانية أخبرنا أن الأرض واسعـة، وأن

الأرض كلها للناس جميعًا، فالذى يضيق به مكان يذهب إلى مكان آخر، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ [الرحمن: ١١] فأى أرض وأى أنام ؟ الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام. إذن فالفساد الحادث فى الدنيا، من هذه الحواجز والحدود التى صنعها البشر وفصلوا بها بين أرض الله وعبادالله، ولذلك تجد هناك أراضٍ بلا رجال تحتاج إلى من يعمرها وهناك رجال بلا أراضٍ . فلو أن هؤلاء الرجال عمروا هذه الأرض لاستقامت الأمور وتحسنت أحوال الدنيا، والذى نؤكد عليه أن الاعتزال لا يكون إلا لله لأنه قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم : ٤٨] فالمسألة مبدأ إيمانى، ولاحظوا أنه لم يقل وأعتزلكم وما تعبدون، ولكنه قال ﴿وَمَا تَدْعُونَ﴾ . وذلك لأن الإنسان لا ينصرف عن ربه وعن حقيقة الألوهية الواحدة إلا حين يستغنى لكن يمر عليه ظرف من الظروف فلا يجد سببًا ينقذه إلا أن يقول: يا رب.

إذن فالعبادة ستصل قطعًا إلى الدعاء[1]، وما دمت ستضطر إلى الدعاء فخذها من البداية، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ

---

(١) عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ . أخرجه الترمذى رقم [٣٣٧٢] وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه رقم [٣٨٢٨]، وقال الألبانى فى صحيح [٢٦٨٥].

قال الطيبى: معنى الحديث: أن تحمل العبادة على المعنى اللغوى إذ الدعاء هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله والاستكانة له، وماشرعت العبادات إلا للخضوع للبارى وإظهار الافتقار إليه، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ حيث عبر عن عدم التذلل والخضوع والاستكبار، ووضع ﴿عِبَادَتِي﴾ موضع دعائى وجعل جزاء ذلك الاستكبارِ الصغارَ والهوانَ . ا.هـ [تحفة الأحوذى].

مَسَّهُ﴾ [يونس:١٢] فكلمة الدعاء وردت بدل العبادة؛ لأنك تعبد الله فى الرخاء، وإذا حدثت لك شدة لا تجد فى العبادة إلا هو لتدعوه.

ومعنى ﴿عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًا﴾ [مريم : ٤٨] أى عسى الا أكـون شقيًا بسبب دعائى لربى وعبادتى له، بعد ذلك يأتى المقابـل فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم:٤٩، ٥٠] فالقرآن ذكر إسحاق ويعقوب ولم يذكر إسماعيل، فكأن الحق سبحانه يتكلم عن إسحاق ويعقوب اللذين منحهما الله لإبراهيم جزاء صبره ونجاحه فى ابتلاء الرؤيا وذبح إسماعيل. ورد ذلك فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] فحينما صبر إبراهيم عليه السلام، على الابتلاء فى ذبح ابنه إسماعيل، وصدق الرؤيا وأطاع هو وابنه أمر الله، فَدَى اللهُ له إسماعيلَ وبشّره بإسحاق أيضًا، وإسحاق سيكون من ذريته يعقوب فبشره الله به أيضًا وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢] لأن إسحاق هو الابن الثانى لإبراهيم، ويعقوب هو ابن إسحاق ، وحفيد إبراهيم.

فكأن الحفيد نافلة فى عطاء الذرية، وقوله: ﴿وَكُلا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩] تفيد أن الامتنان هنا ليس لأن إسحاق ولد أو يعقوب ولد، ولكن الامتنان بأنهما سيكونان نبيين، فبشر إبراهيم بأنهما سيكونان نبيين ؛ لأن هذا هو حظ إبراهيم أن يرى الدعوة حيًا، ويريد أن تنشأ ذريته على هذه الحال امتدادًا للدعوة إلى دين الله، ليس من أجل الكثرة والعزوة، ولكن للقيام على أمر الدعوة واستمرار منهج الحق، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حينما قال:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] أى أن الله تعالى اختبره بتشريعات فأتمها على وجهها الصحيح، فلما أتمها علم الله شدة حبه للتكليف؛ لأنه أتمها على الوجه الأكمل. فكان جزاؤه أن الله جعله للناس إمامًا .

ولكن رغبة إبراهيم فى امتداد هذا الشرف فى الذرية جعلته يطلبها لذريته أيضًا، أى أنه يريد أن يكون من ذريته أئمة ، فوضع الله تعالى مبدأ هو: أن النبوة ليست ميراثًا فالله يعطيها ميراثًا مرة وبغير ميراث مرة، وهذا كله فى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أى أن الظالمين لا ينالون عهد الله.

ومن هنا علم إبراهيم أن دعاءه أن تكون الإمامة فى ذريته لم يجبه الله إليه، ولكنه وضع له مبدأ وهو: أنهم إن كانوا ظالمين فلن ينالهم العهد وإن كانوا صالحين سينالهم عهد الله، فإبراهيم حينما كان يسأل ربه كان يحتاط لهذه المسألة، حتى أنه حينما سأل ربه قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] فاحتاط حتى فى طلب الرزق لأهل مكة الذين أقاموا بجوار البيت الحرام، فقصره على من آمن منهم بالله واليوم الآخر. فربنا سبحانه علمه أنه لا مجال للقياس هذه المرة؛ لأن الله علمه أن عطاء القيم والأخلاق لا يكون إلا للصالحين، ولكن المسألة هنا فى الرزق، وهذا الرزق أعطاه الله للكافر وللمؤمن على حد سواء وللطائع وللعاصى.

فإبراهيم قال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فقال له الحق سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى أن رزق الله ليس مقصورًا على المؤمنين، ولكنه للكافر

والعاصى أيضًا [1]. إذن فهناك فارق بين أمرين عطاء الإمامة فى مذهب الدين وعطاء الرزق للناس. قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ ويقول تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ .

«ووهبنا لهم من رحمتنا» المقصود بها النبوة، ولذلك لما قال أهل الجاه والعظمة والسلطان فى عهد رسول الله ﷺ ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. رد عليهم الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢].

إذن فعطاء الله فى النبوات رحمة، فربنا أشاع هذا العطاء فى ذرية إبراهيم عليه السلام. ومعنى لسان صدق: كلمة الصدق تعنى كلمة حق ثابت ومطابق للواقع؛ لأن الصدق معناه كلام يطابق الواقع ، ولسان صدق هذا مدح لهم وثناء عليهم. فالمؤمنون فى كل زمان ومكان يذكرون إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل وكل الأنبياء والصالحين، استجابة لدعوة إبراهيم حينما دعا ربه أن يجعل له لسان صدق فى الآخرين.

---

(١) قال ابن عباس رضى الله عنهما : «كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أيضًا أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أأخلق خلقًا لا أرزقهم؟! أمتعهم قليلا ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير» ثم قرأ ابن عباس: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

أخرجه ابن مردويه [وذكره ابن كثير فى تفسير سورة البقرة ١/ ١٦٦].

وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء" رواه الترمذى [٢٣٢٠] وقال : حديث صحيح غريب من هذا الوجه، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [١٨٨٩].

* الذى خلقنى فهو يهدين *

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٨٩] إن خليل الله إبراهيم عليه السلام يحاور أهله عبدة الأوثان مقارنًا بين الأوثان والخالق الأعلى، والأوثان تكسرت، ولم يتأمل واحد من البشر أنهم يعبدون أحجارًا لا تنفع ولا تضر. وإذا كان خليل الرحمن قد اتخذ هذه الأوثان عدوًا له ، لا لشىء إلا أنه فكر وتدبر وتأمل الكون، ولم يقصر عقله على التقليد الميراثى، إن الخليل إبراهيم أول المسلمين أراد بالعقل أن يهتدى إلى معرفة الحق رب العالمين خالق الناس، ومالك نواصيهم من طعام وشراب ومرض وشفاء وحياة وموت، وثواب فى يوم القيامة أو عقاب.

وعندما يصل إبراهيم الخليل إلى معرفة الله الحق ،فإنه يطمع فى أن يغفر له يوم القيامة عن هفوات الدنيا التى كانت قد صدرت منه. وتزداد حرارة دعاء أبى الأنبياء وأول المسلمين ، فيرجو الله أن يلحق بالصالحين فى الجنة. وأن يكون لسانه هو لسان الصدق فى كل قول. ويتمنى إبراهيم أن يكون من أهل الجنة، وأن يُغفر لأبيه الذى كان من الضالين . لكن الله لم يقبل طلبَ إبراهيم الخليلِ المغفرةَ لأبيه.

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] . ولم يكن دعاء إبراهيم أول المسلمين لأبيه إلا بناء على وعد من إبراهيم لأبيه رجاء إيمانه، لكن أبا إبراهيم أصر على الشرك بالله فتبرأ منه إبراهيم الخليل، وكان الخليل إبراهيم كثير الدعاء.

* إبراهيم وأسرار الملكوت *

إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء وله مكانة عند اليهود وعند النصارى وعند الكفار، كل فئة من هؤلاء تريد أن تأخذ إبراهيم إلى صفها. فاليهود ادّعوا أن إبراهيم كان يهوديًا والنصارى قالوا إنه كان نصرانيًا، والعرب كان فضل إبراهيم بالنسبة للكعبة يعطيهم العزة ويعطيهم المكانة[1]. ولقد جاء الإسلام ليواجه هؤلاء جميعًا سواء أكانوا من اليهود أو النصارى أو كفار قريش، فجاءت قصة إبراهيم لتعطينا قضية العقائد وتوضحها للجميع، توضيحًا يجعلهم يفهمون أن كل هذه القوى فى الكون هى خلق الله سبحانه وتعالى، لا تقدس لذاتها ولذلك يقول الحق: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾. [آل عمران ٦٥ - ٦٨]

قال ابن عباس رضى الله عنه : «اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديًا. وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيًا، فأنزل الله: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ ﴾ الآية أخرجه البيهقى فى الدلائل [٥/ ٣٨٤].

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبى ولاة من النبيين، وإن وليّى أبى وخليل ربى» ثم قرأ: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .. أخرجه الترمذى [٢٩٩٥] وذكره الألبانى فى صحيح الترمذى رقم [٢٣٩٤] .

فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤] وهكذا وصف القرآن أولئك الذين يعبدون الأصنام بأنهم فى ضلال مبين.

وما الضلال؟.. الضلال هو أن تضل الطريق إلى غاية تريد أن تصل إليها، والغاية هنا أنهم أرادوا العبادة.

والضلال هنا أنهم ضلوا الطريق للخالق الحقيقى لهذا الكون، فلم يتقدموا بالولاء والخضوع والشكر لمن خلق لهم الكون وأنعم عليهم بنعمه ، ولكنهم ضلوا الطريق فاتخذوا من الأصنام ومن الحجارة آلهة، مع أن الإنسان فى بداية الخلق جاء إلى عالم مخلوق من أجله فيه الشمس، وفيه القمر، وفيه الجبال وفيه النجوم، وفيه المطر يُنبت الأقوات، وكان الواجب عليه فى هذه الحالة أن يلتفت إلى هذه المسألة ويفكر فيها التفكير السليم.

هذه الأشياء الهائلة فى الكون لا بد أن تحتاج إلى صانع ، إن كل شىء فى هذا الكون له صانع حتى الأشياء البسيطة . الكوب الذى نشرب فيه الماء له صانع وله صناعة أخذت مراحل متعددة ،باكتشاف مادة الزجاج أولا ، ثم صهرها كيمائيًا، ثم تشكيلها حتى تصل إلى الكوب، والمصباح البسيط الذى يعطينا ضوءًا خافتًا له صانع، ووراءه أبحاث سبقت وجوده وإمكانات مالية وعلمية ضخمة إلى أن تحققت صناعة هذا المصباح.

فإذا كانت هذه هى الحقيقة فماذا نقول عن الشمس التى تضىء الدنيا كلها والتى لا تحتاج إلى تغيير ولا إلى قطع غيار، والتى لا تتوقف يومًا واحدًا إلى ملايين السنين؟!. ألا نتساءل عن القدرة الهائلة التى صنعتها؟! .. لقد ملأوا كتب العلم حديثًا عن أديسون الذى اكتشف المصباح الكهربائى، فإذا لاحظنا الفرق الهائل بين قوة المصباح وقوة الشمس لا بد أن نعرف أن الفرق هائل بين صانع المصباح وخالق الشمس، ونحن نرى فرق القوتين اللتين لا تقارنا. إن الوقوف عند هذه النقطة يقتضى منا وقفة عقلية سطحية، بينما نحن لو تَتَبَّعنا أسباب الكون نصل دائمًا إلى خالق الأسباب، فكل شىء فى الكون

لو سلسلته يصل إلى الله. الخشب تصنع منه الأثاث جئت به من أين؟ من التاجر، والتاجر جاء به من السويد، والسويد جاءت به من الغابة، والغابة زرعها الناس من شتلات صغيرة، والشجرة الأولى التى أنتجت هذه الشتلات من أين جاءت ؟ من الله.

وهكذا كل بحث عقلى فى الكون يعود بنا إلى الخالق ، وإذا كنا ونحن نتأمل فى الكون قد وصلنا إلى هذه الحقيقة وعرفنا أن الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شىء ، فلابد أن يخبرنا الله كيف نعبده ونشكره على هذه النعم.

ماذا يريد الله تعالى منا مقابل هذا الكون العظيم الذى خلقه لنا ؟ التشريع الذى يريده الله لا يمكن أن نصل إليه بعقولنا، ومن هنا كان لابد أن يرسل الله سبحانه وتعالى رسلا ليخبرونا عن هذه الأشياء ، وليقولوا لنا إن الله سبحانه وتعالى يريد منا منهجًا معينًا لكى نعبده ونشكره.

ذلك أن العقل مهما ارتقى واستطاع أن يصل إلى أن وراء هذا الكون قوة هائلة هى التى خلقت وأبدعت ، إلا أنه لا يستطيع ولا يمكنه أن يحدد ماهى هذه القوة الهائلة، وما مطلوباتها ليبين لنا هذا. وهكذا كان مجىء الرسل رحمة من الله سبحانه وتعالى بالعقل البشرى ورحمة منه بالإنسان.

وكان أول ما يجب أن يُحَسم بالنسبة للإنسان هو: من الذى خلق هذا الكون العظيم؟. وجاء الرسل وأبلغونا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق السموات والأرض،وسخر لنا الشمس والقمر والنجوم وغيرها، حينئذ برزت قضية الخلق: إما أن يكون الرسل صادقين فى بلاغهم، وإما أن يكونوا غير صادقين. وقضية الخلق محسومة، فالله سبحانه هو الذى أخبرنا أنه خلق، ولم يجرؤ أحد فى هذا الكون على أن يدعى أنه هو الخالق. إذن فالمسألة محسومة لا يستطيع أحد أن ينازع الله سبحانه فيها ؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يقول ولو كذبا إنه هو الذى خلق نفسه أو خلق هذا الكون.

ولكى نقرب هذا إلى الأذهان نقول: إنه إذا وجدنا شيئًا كحافظة نقود مثلا

دون أن نعرف صاحبها، ثم قام أحد الحاضرين وقال: إن هذه نقودى، ولم يجرؤ أحد آخر على أن يقول غير ذلك.

حينئذ تكون القضية محسومة، ويكون الذى قال هو صاحب النقود ، على الأقل حتى يدعى آخر أنه صاحبها ، وما دام ادعاء الخلق ولو كذبًا لا يستطيعه أحد فى الكون فالقضية محسومة لله(1).

ثم تمضى الآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] وإذا سمعت كلمة (كذلك) فاعلم أن الحق يريد أن يلفتنا إلى أنه كما اهتدى إبراهيم إلى أن عبادة الأصنام ضلال مبين. فإن الله سيكرمه ما دام قد ارتبط بالإله الحق، وسيريه أسرارًا فى الكون، والملكوت: من صيغ المبالغة، فهناك رحمة ورحموت، ورهبة ورهبوت؛ وعندما تضاف التاء تدل على المبالغة. والذى يتبع الأسباب المشهودة فى الكون ،يرى المُلك أى أن المُلك هو ما تحسه وتشهده أمامك،أما الملكوت فهو ما وراء هذا المُلك، ولذلك نلاحظ أن إبراهيم عليه السلام عندما تحدث عمن يتخذه بعض الناس ويدعون أنهم شركاء لله. قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٧ - ٨٠] ما جاء على لسان إبراهيم هنا لابد أن نلاحظ الأساليب المختلفة التى جاء عليها قول إبراهيم لقد قال: ﴿الَّذِى خَلَقَنِى﴾ . ولم يقل الذى هو خلقنى؛ لأن الخلق قضية محسومة لله سبحانه وتعالى لا يستطيع أحد أن يدعيها.

إذن فهى قضية مسلَّم بها لا تحتاج إلى تأكيد ولكن فى قوله : ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ . استخدم « هو » للتأكيد ؛ حتى لا يدعى أحد من البشر كذبًا أنه

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ . [العنكبوت: ٦١].

جاء بمنهج هداية للناس، فاستخدام كلمة ﴿فَهُوَ﴾ تأكيد بأن الله سبحانه وتعالى بيده وحده الهداية. وإذا جاء قول الحق : ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ . نجد أن هناك عودة لاستخدام كلمة « هو » ؛ لأن هناك أسبابًا وضعها الحق جعلت للإنسان عملا فى الطعام والشراب.

فالإنسان يحرث الأرض هذا عمله فى الطعام، والإنسان ينقل الماء من مكانه وهو النهر أو النبع... إلى آخره، إلى محل إقامته أو عمله، ولذلك جاءت ﴿هُوَ﴾ لتأكيد أن خالق الطعام والشراب هو الله سبحانه وتعالى. وقول الحق :﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ؛ لأن الطبيب يعالج وبعض الناس تفتن بالأسباب وتقول: إن الطبيب أو الدواء هو الذى يشفى، ولكنك إذا انتقلت من ظواهر الأسباب إلى باطن الملكوت تجد أن الطبيب يعالج فقط، وأنه أحيانًا يكون علاجه خطأ فيؤدى إلى الموت، وأحيانًا تسأل عن الطبيب الذى يعالجك فيقال لك: إنه قد مات بمرض كذا، فلو كان يشفى لشفى نفسه، ومن العجيب أنك تجد أن أطباء القلب مثلا يموتون غالبًا بمرض القلب.

إذن فالطبيب يعالج ، أما الذى يشفى فهو الله سبحانه وتعالى.

وقول الحق: ﴿وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٨١] لأن الموت والحياة بيد الله وحده لا ينازعه فيهما أحد.

هذا هو بعض الملكوت الذى يعالج قضية العقيدة، وهناك ظواهر أخرى، حيث إن إبراهيم عليه السلام أخذ سلطانًا كبيرًا فى هذه الناحية فالله قال فيه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ﴾ [النجم ٣٧](1) تأمل قول الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) قال سعيد بن جبير : ﴿وَفَّى﴾ اى عمل بما أُمر به وبلغ رسالات ربه. وهذا معنًى حسن قال مجاهد: ﴿وَفَّى﴾ بما فرض عليه. [تيسيرالتفسير]. =

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (١)
كأن الله قد ائتمنه على الدين فجعله إمامًا للناس . حينما سمع إبراهيم ذلك قال ببشريته ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي يا رب اجعل من ذريتى أئمة

= وعن أبى أمامة.. قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ . قال: «أتدرى ما وفى ؟.» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «وفى عمل يومه بأربع ركعات من أول النهار» رواه ابن أبى حاتم [تفسير ابن كثير٤/ ٢٥٩].

وعن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: « الا أخبركم لِمَ سمى الله تعالى إبراهيم خليله الذى وفَّى؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم: ١٧].أخرجه ابن أبى حاتم وابن جرير، وأخرجه الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدى عن أبيه رقم [٣/ ٤٣٩]، وقال الهيثمى فى المجمع [١٠/ ١٢٠] : فيه ضعفاء وثقوا.

(١) قال عكرمة عن ابن عباس ، أنه قال: ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ ، قلت له: وما الكلمات التى ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن؟. قال: الإسلام ثلاثون سهمًا منها عشر آيات فى براءة: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ﴾ [التوبة: ١١٢] إلى آخر الآية، وعشر آيات فى أول سورة: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦] ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج: ١] وآخر عشر آيات فى الأحزاب: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية فأتمهن كلهن فكتبت له براءة. قال الله تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ [النجم: ٣٧] .
[تفسير ابن كثير ١/ ١٥٧] .

وقال محمد بن إسحاق عن ابن عباس، قال: الكلمات التى ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن: فراق قومه فى الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجته نمروذ فى الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذى فيه خلافه، وصبره على قذفه إياه فى النار ليحرقوه فى الله على هول ذلك من أمرهم، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده فى الله حين أمره بالخروج عنهم، وما أمر به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله، وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه، فلما مضى على ذلك من الله كلمه وأخلصه للبلاء قال الله له: ﴿ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١] . [تفسير ابن كثير ١/ ١٥٧، ١٥٨].

وحينئذ أراد الله أن يلفته إلى الملك والملكوت فلا يتحدث بظواهر الأمور فقال الحق سبحانه ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ إذن فالمسألة أن إبراهيم عليه السلام اعتقد أن مسألة الإمامة وراثة دم أخذًا بالأسباب، فأعلمه الحق أن النبوة لا تُوَرَّث ولكن يأخذها من يستحقها ويتبع المنهج ويطيع الله .

ولفتة أخرى: عندما أخذ إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل وامرأته هاجر وتركهما بجوار الكعبة، حيث لا زرع ولا ماء قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧] نجد بعد ذلك فى سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ هنا نرى كيفية تعليم الملكوت . ففى الآية الأولى عندما طلب إبراهيم من الله تعالى أن يجعل من ذريته أئمة، أخبره الله أن الإمامة لا تكون إلا بالتقوى والإخلاص فى العبادة، ولذلك لن ينالها من ذريتك ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الذين يخالفون المنهج، فلما أراد إبراهيم أن يطلب من الله الرزق احتاط لما تعلمه فى الدعاء الأول الخاص بالإمامة فقال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ . هنا أراد الحق أن يبين لإبراهيم جانبًا من الملكوت بأنه يجب أن يفرق بين خلافة النبوة وبين عطاء الربوبية، فى الطعام والشراب.

فعندما طلب إبراهيم الرزق لمن آمن فقط من ذريته قال الحق ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ . أى أن الحق يريد أن يلفت إبراهيم إلى أنه يرزق الكافر أيضًا بالطعام والشراب ومقومات الحياة؛ لأن هذا الرزق عطاء ربوبية وما دام الله سبحانه هو الذى استدعانا جميعًا للوجود - المؤمن منا والعاصى - فلا بد أن يعطينا جميعًا مقومات هذا الوجود، فالله رب لكل الناس. وهكذا أراد الحق

أن يبين لإبراهيم الفرق بين عطاء الربوبية وعطاء الألوهية.

فعطاء الربوبية لا علاقة له بالمنهج يُعطى للبشر جميعًا، وعطاء الألوهية لا يُعطى إلا للمؤمنين[1] وهكذا فإن الإمامة لا تعطى إلا للمؤمنين، ولكن الرزق الدنيوى يعطى للمؤمن والكافر.

ونلاحظ فى الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام : ٧٥]. والموقنون جمع أَقَلُّه ثلاثة ؛ لأن اليقين ينقسم إلى ثلاث مراحل.

يقين بعلم من تثق فيه: أى إذا أخبرك فلان بشىء وأنت تثق فى هذا الإنسان فإنك توقن بأنه صادق، ويقين بعين ما تخبر به، ثم يقين بحقيقة ما تخبر به.

فلو أنك سافرت إلى بلد وعدت لتحدث أصدقاءك عن فاكهة عجيبة، لها لون البرتقال وحجم البطيخ وطعم المانجو ورائحة التفاح، وكنت صادقًا عندهم فهم سيصدقون وجود هذه الفاكهة (هذا علم يقين) فإذا أحضرت حبة من هذه الفاكهة أمامهم أصبح علم اليقين عين يقين؛ لأنهم رأوها فإذا شققتها لهم وأطعمتهم منها أصبح حقيقة يقين وفى ذلك يقول الله ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ١ - ٦] فى هذه السورة الكريمة ذكر الحق لنا مرحلتين من مراحل اليقين هما: علم اليقين بأنه ما دام الله سبحانه هو الذى أخبر ، ثم مرحلة عين اليقين حين نرى النار فى الآخرة رؤية عين، ولكن حقيقة اليقين لم تأت فى سورة التكاثر

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه...» جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد [١/ ٣٨٨] ،وضعفه الشيخ شاكر.

بل جاءت فى سورة الواقعة فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩٠] فإذا كان علم اليقين لا يكفى وعين اليقين لا يقنع. أتى حق اليقين ليؤدى هذه المهمة.

❊ وليكون من الموقنين ❊

إبراهيم عليه السلام كان من الموقنين؛ لأن الله أعلمه بمظاهر الملك وحقيقة الملكوت؛ فحين أُخذ إبراهيم ليُحرق فى النار، فى مثل هذه الحالة يلتمس الإنسان أية وسيلة للنجاة من الموت حرقًا، يلتمس أى طريق ينجيه ، ولكننا نجد أن جبريل جاء إلى إبراهيم عليه السلام فى هذه اللحظة الحرجة والحاسمة ، وقال: له هل لك حاجة ؟ وهنا رد إبراهيم: أما إليك فلا. إبراهيم موجود والنار مشتعلة متأججة . ويأتى إليه جبريل ليسأله: هل لك حاجة؟. فيقول إبراهيم: أما إليك فلا. مسألة لا تتفق مع مظاهر الملك، كيف يفتح جبريل لإبراهيم عليه السلام الباب، وإبراهيم يغلقه مسألة لا تتفق مع منطق الأسباب[1].

ولكن هنا يدخل عالم الملكوت، فإبراهيم يعرف أن النار ليست محرقة بذاتيتها، ولكن الحق الذى خلقها أعطاها خاصية الإحراق ، ويستطيع الذى أعطاها هذه الخاصية أن يجعلها غير محرقة، هذا هو معنى ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] فاليقين هنا بمراحله الثلاث قد دخل نفس إبراهيم ورسخ فيها.

فعلم يقينًا أن الله الذى جعل النار محرقة، يستطيع أن يجعلها غير محرقة، ولذلك فلم يكن الهدف أن ينجو إبراهيم من النار، وإلا فلو كان

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ » .
أخرجه البخارى برقم [٤٥٦٣ ، ٤٥٦٤].

هذا هو الهدف لكان من الممكن أن يختفى إبراهيم عليه السلام، ولا يعثر عليه خصومه، وكان من الممكن أيضًا أن يعثر خصوم إبراهيم عليه ويوقدوا النار فيرسل الله مطرًا يطفئ النار، ولكن المسألة لم تكن نجاة إبراهيم، ولذلك جعل الله خصومه يعثرون عليه ، وجعلهم يوقدون النار فتتوهج وتملأ الدنيا لهيبًا، ثم جعلهم يلقون بإبراهيم عليه السلام فى النار ، ولو أن إبراهيم هرب لقالوا: لو لم يهرب لأحرقناه، ولو أن المطر نزل لقالوا: لو أن السماء لم تمطر لأحرقناه، ولكنهم وجدوا إبراهيم، والنار اشتعلت، وألقوه فيها، وإذا بالله سبحانه وتعالى يسلب النار خاصية الإحراق ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء ٦٩].

وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يذل الكفار ، وما يتخذون من آلهة على مشهد من الجميع، فقد كانت عملية إحراق إبراهيم انتقامًا ؛ لأنه حطم الأصنام وكان إحراقه على مشهد من الناس جميعًا، وكان الفهم الخاطئ أن آلهة هؤلاء الكفار ستنتقم من إبراهيم بالحرق، فإذا بإبراهيم يُلقى فى النار فلا تمسه بأذى على مشهد من الجميع[1] وهكذا أراد الله أن يبيّن لهؤلاء الناس أن

---

(١) قال كعب الأحبار: لم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه. وقال ابن عباس: لما ألقى إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله، قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] وقال: لولا أن الله عز وجل قال: ﴿وَسَلامًا﴾ لآذى إبراهيم بردها. [تفسير ابن كثير ٣/ ١٧٩].

وقال قتادة : فما أحرقت النار منه إلا وثاقه، وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ جعل الله فيها بردًا يدفع حرها ، وحرًا يدفع بردها ، فصارت سلامًا عليه.

قال أبو العالية : ولو لم يقل: ﴿سَلامًا﴾ لكان بردها أشد عليه من حرها، ولو لم يقل ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ لكان بردها باقيًا على الأبد . [تفسير الماوردى ٣/ ٤٥٣ ، ٤٥٤].

وعن أم شريك رضى الله عنها أن النبى ﷺ أمرها بقتل الأوزاغ» . أخرجه البخارى [٣٣٠٧] و مسلم [٢٢٣٧] . =

ما يعبدونه هو إفك وضلال، وأن آلهتهم لا تملك حولا ولا قوة أمام النار وخاصية الإحراق ليريهم بالمعجزة الحسية والبرهان أن إلـه إبراهيم هو الحق، علَّهُمْ يهتدون، حتى إذا ظلوا على ضلالهم وشركهم يكون عذابهم فى الآخرة عدلا.

وتمضى الآيات تقول: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ [الأنعام ٧٦] كلمة ﴿جَنَّ﴾ تفيد الستر والتغطية، ولذلك فإن الجنون ستر للعقل ، ﴿جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ ، بمعنى أظلم وستر ما حولـك، فغيـرك لا يراك وأنت لا ترى غيرك. والجنة سميت بهذا الاسم؛ لأن فيها أشجارًا تستر من يمشى فيها، أما كلمة ﴿كَوْكَبًا﴾ فمعناها أنه يأخذ ضوءه من مصدر آخر، ولقد أتى الله بهذا المثل؛ لأنهم فى وقت إبراهيم عليه السلام كانوا يعبدون القمر والنجوم والشمس والأصنام.

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٦ ، ٧٧]

هنا وقف العلماء عند هذه الآيات وتساءلوا: كيف يجرى إبراهيم على لسانه لفظ الشرك ؟ وبدأ العلماء يبررون ويفسرون هذا ، ونحن نقول لهم: إن الذى قال عن إبراهيم إنه قال: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام ٧٦] هو الذى قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ﴾ [النجم ٣٧] وهو الذى قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ

= وعن عائشة رضى الله عنها قالت: « ... فإن رسول الله ﷺ حدثنا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقى فى النار ، لم تكن فى الأرض دابة إلا تطفئ النار عنه ، غير الوزغ كان ينفخ عليه، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله ». جزء من حديث. أخرجه أحمد فى المسند [٦/ ٨٣ ، ١٠٩ ، ٢٠٠] واللفظ له وابن ماجه [٣٢٣١] وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٢٦١٦]، وابن حبان موارد [١٠٨٢] ، الإحسان [٥٦٠٢] والنسائى فى المجتبى [٥/ ١٨٩] ، وأبو يعلى [٤٣٥٧] والحديث صحيح لشواهده .

بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾(١) [البقرة:١٢٤] إذن فمقولة إبراهيم هذه لا تخدش وفاءه الإيمانى، ولكن لابد أن لها معنى آخر، ذلك أن القوم كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر، ويريد إبراهيم أن يلفتهم إلى فساد العقيدة ولكن يلفتهم بأدب النبوة، وليس بالشتائم ولا بالسب، ولذلك فإن هذا الأسلوب يقتضى أن يذكر الشيء وفيه نقص والناس لا تلتفت إليه ولكن سياق الحركة يدل عليه.

ولنضرب مثلا يقرب ذلك إلى الأذهان ، نفرض أن لك ابنة طويلة القامة وجاءها قزم ليخطبها ماذا تقول الابنة ؟ تقول باستنكار أهذا خطيبى ؟ أى أن الفتاة تنكر أن مثل هذا القزم يمكن أن يكون خطيبها، فكأن إبراهيم حين يقول هذا ربى يبدى استنكاره أن يكون هذا الكوكب إلـهًا ، وهو يتهكم على

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤] قال : ابتلاه الله بالطهارة ، خمس فى الرأس وخمس فى الجسد. فى الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس. وفى الجسد : تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل مكان الغائط، والبول بالماء. أخرجه الحاكم فى المستدرك [٢/ ٢٦٦] وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وابن أبى حاتم وابن كثير فى التفسير، والطبرى وقال الشيخ شاكر : إسناد ابن أبى حاتم فى هذا لابن عباس صحيح.

وعنه رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقص شاربه ، وكان أبوكم إبراهيم من قبله يقص شاربه ، رواه أحمد فى المسند [١/ ٣٠١] واللفظ له . وصححه الشيخ شاكر [٢٧٣٨] والترمذى [٢٧٦٠] وقال: حديث حسن غريب ، وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى [٥٢٤].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « اختتن إبراهيم عليه السلام، وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم»، أخرجه البخارى [٣٣٥٦] واللفظ له ومسلم [٢٣٧٠].

قال الإمام النووى رحمه الله : الذى وقع هنا وهو ابن ثمانين سنة هو الصحيح، ووقع فى الموطأ وهو ابن مائة وعشرين سنة موقوفًا على أبى هريرة، وهو متأول أو مردود (مسلم بشرح النووى ٨/ ١٣٦).

الذين يعبدونه. والدليل على ذلك هو سياق الحوار حين يقـول: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ [الأنعام ٧٦] وأفول النجم والقمر وغروب الشمس ، أمور قد شهدها إبراهيم قبل ذلك مئات المرات، فلا يمكن أن يكون قد فوجىء بأن النجم قد أفـل، أو أن الشمس قد غابت ولكنه كان يعلم ذلك جيدًا، ولذلك فإن كل حواره كان سخرية منهم وتهكمًا عليهم؛ لأنه كان يعلم مقدمًا أن الشمس ستغيب وأن القمر لن يبقى فى السماء طوال الليل والنهار، ولذلك أراد أن يلفتهم إلى هذه الحقائق التى غابت عن فطنتهم، ويقول لهم كيف يمكن أن يغيب إلـه عن خلقه؟ وفى هذه الحالة يكون المنطق الذى قاله يحقق نيته فى إنكار هذه الألوهية.

وهناك أشياء يجعلها الحق سببًا مبررًا لارتكاب أشياء أخرى فقوله تعالى ﴿إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل ١٠٦] فلو أن إنسانًا جاء يهددك بالقتل فأجريت على لسانك كلمات الكفر والعياذ بالله ، بينما قلبك مطمئن بالإيمان فقد نجاك الله من الكفر[1] وهنا، يمكن أن

(١) عن أبى عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبى ﷺ وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه، فلما أتى رسول الله ﷺ قال : " ما وراءك؟" قال : شر يا رسول الله ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. قال : "كيف تجد قلبك ؟" قال : مطمئن بالإيمان، قال : "إن عادوا فعد". أخرجه الحاكم فى المستدرك [٢/٣٥٧] وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. قال ابن عباس: نزلت فى عمار بن ياسر، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه وأمه سمية وصهيبًا وبلالا وخبابا، فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين ووجئ قلبها بحربة، وقيل لها: إنك أسلمت من أجل الرجال. فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين قتلا فى الإسلام. وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها، فأخبر النبى ﷺ بأن عمارا كفر، فقال: «كلا إن عمارا ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه» فأتى عمار رسول الله ﷺ =

نضيف أنه ربما أجرى الله هذه الكلمات على لسان إبراهيم لكى ينجى أمة بأسرها من عبادة الأصنام والكواكب والشمس والقمر.

إذن فقول إبراهيم عليه السلام: ﴿هَذَا رَبِّى﴾ [الأنعام ٧٦] يؤخذ على محملين:

المحمل الأول: هو التهكم والسخرية فَلِمَ يقول الله سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِى﴾ [القصص ٦٢] فهل لله تبارك وتعالى وتعظم شركاء ؟ طبعًا لا، والله سبحانه وتعالى أعلم العالمين ولذلك فهذا القول من الله سبحانه وتعالى تهكم وسخرية من الكفار. عندما يأتى الله سبحانه وتعالى ويقول للكافر فى الآخرة، وهو يعذب فى النار : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان ٤٩] أى عز وأى كرم فى المهانة التى يراها الكافر فى النار ولكنه كلام تهكم، كلام سخرية كذلك قول إبراهيم ﴿هَذَا رَبِّى﴾ تهكم وسخرية ؛ والدليل على ذلك أنه استخدم حقائق معروفة له من قبل ليسخر من الكفار ، فهو يعلم من قبل أن الكواكب تظهر ليلا وتغيب نهارًا، وهو يعلم أن القمر يظهر ويختفى، وهو يعلم أيضًا أن الشمس تشرق وتغرب.

= وهو يبكى، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ، وقال : « إن عادوا لك فعد لهم بما قلت » . فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وأخرج نحوه ابن أبى حاتم، وفيه: فأما عمار فقال لهم كلمة، أعجبتهم تقية، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ حدثه، فقال: «كيف كان قلبك حين قلت، أكان منشرحًا بالذى قلت؟». قال: لا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بِالإِيمَانِ﴾ .

[لباب النقول للسيوطى].

قال ابن كثير فى تفسيره: ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل. [تفسير ابن كثير ٢/ ٥٦٨]

إذن فهذه الحقائق التى استخدمها إبراهيم فى تفنيد ألوهية هذه الأشياء كانت معروفة له ولم يفاجأ بها حتى تأخذ الكلام بجدية، ولكنه أراد أن يتهكم ويسخر من الكفار ويقول لهم: إن بدهيات الكون تنفى ألوهية هؤلاء. لأنها ظواهر تظهر وتغيب والخالق لا يغيب عن مخلوقه، فلو أنكم فكرتم بالبدهيات لعرفتم أنه لا يمكن أن يكون هؤلاء آلهة.

على أننا لا بد أن نلاحظ ملاحظة هامة فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى﴾ [الأنعام ٧٨] المنطق اللغوى كان لابد أن يقول: «هذه» لأن الشمس مؤنث، يمكن أن يكون السياق هنا على أساس قوله هذا عن الكوكب وعن القمر ،فحمل الأمر على السياق أو الحال ويمكن أن يكون لأن الشمس ضياء ، ويكون المعنى هذا الضياء. والله سبحانه وتعالى أراد أن ينزه كلمة الرب أن تلحق بها علامة التأنيث؛ لأن التأنيث فرع للتذكير ويمكن أيضًا أن نقول إن الشمس مؤنث مجازى.

والعلماء يفطنون إلى هذه المسألة فى كل الصفات التى تتحدث عن الحق سبحانه وتعالى، فأنت إذا أعطيت أحدًا صفة العلم تقول فلان عالم، وإذا أردت أن تعطيه صفة أكبر فى العلم تقول عليم، ولذلك يقول الحق﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف ٧٦] فإذا أردت أن تعطيه وصفًا أكبر - وصف المبالغة - تقول علامة ، ولكن عندما يتحدث الله عن نفسه يقول: ﴿علام الغيوب﴾[المائدة :١٠٩] ووصف الحق بأنه علام فرارًا من أن نلحق به تاء التأنيث ولو كانت للمبالغة. وينهى إبراهيم قوله بعد أن رأى النجوم والقمر والشمس تغيب أو تأفل ﴿يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام ٧٨] فلماذا قال إبراهيم إنى برىء مما تشركون ولم يقل لهم كونوا جميعًا برآء مما تشركون؛ لأن طبيعة المنذر أو المبشر أو المبلغ أو الرسول أن يحمل نفسه أولا على الأمر قبل أن يحمل مخاطبيه ، وألا يأمرهم بأمر يخالفه هو؛ ذلك لأن

الإنسان إذا غش الناس فإنه لا يغش نفسه.

ولذلك فإن المرأة البلچيكية التى قرأت أن رسول الله ﷺ كان يحرسه أصحابه خوفًا عليه من أعدائه وأعداء هذا الدين، فلما نزلت هذه الآية الكريمة ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِين﴾ [المائدة ٦٧] صرف الرسول ﷺ حراسه وقال لهم انصرفوا عنى؛ لأن الله قد عصمنى من الناس[1]، هنا توقفت الباحثة البلچيكية عند هذا التصرف وقالت: لابد أن يكون هذا الرجل نبيًا يوحى إليه من الله؛ لأن هذا الرجل لو خدع الناس جميعًا لما خدع نفسه وعرض حياته للخطر. فلو أنه لم يكن متأكدًا من أن الله يعصمه ما كان يقول : إن الله قد عصمنى؛ لأنه فى هذه الحالة يمكن أعداءه منه فيقتلونه، ولذلك فإن الإنسان لو خدع الناس جميعًا فإنه لا يخدع نفسه ويعرض حياته للخطر، ولذلك فإن هذه الباحثة البلچيكية أعلنت إسلامها.

وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُون﴾ [الأنعام ٧٨] البراءة من الشرك هى التخلى عن المفسد أو الانقطاع عن العمل المفسد والدخول فى العمل الصالح، أما قول إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام ٧٩] فمعنى ذلك أننى توجهت لله الإله الحقيقى لهذا الكون الذى خلق السمٰوات والأرض . ولكن لماذا استخدم إبراهيم عليه السلام السمٰوات والأرض كمظهر للكون، ولم يقل مثلا إنى توجهت للذى خلق النجوم والكواكب والشمس والقمر.

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان النبى ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِين﴾ [المائدة ٦٧] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم : « ياأيها الناس انصرفوا ، فقد عصمنى الله ».

أخرجه الترمذى رقم [٣٠٤٦] واللفظ له ، وقال: هذا حديث غريب. ورواه الحاكم فى مستدركه - رقم [٢/ ٣١٣] وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى. وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٤٤٠].

أولاً : لأن هذا التعبير أعم.

وثانيًا : لأنه ظاهر للناس جميعًا لا يحتاج إلى دليل.

وثالثًا : لأنه لا أحد من البشر يستطيع منذ بدء الخليقة حتى نهايتها أن يدعى أنه هو الذى خلق السمٰوات والأرض ، فالسمٰوات والأرض وكل الخيرات فيها مسخرة لخدمته.

ورابعًا : لأن خلق السمٰوات والأرض يشعر بالقدرة الخارقة للإله الذى خلق هذا كله ، وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾. [غافر: ٥٧].

* أتحاجوني في الله وقد هدان ؟ *

حين أعلن إبراهيم عليه السلام وبين للناس أن ما يعبدون هو مجرد إفك، وأن ما اتخذوه آلهة لا ينفع ولا يضر ولا يخلق شيئًا؛ بل هو مخلوق أو مما صنعته أيديهم هل اقتنع القوم بذلك؟ لا، بل أخذتهم العزة بالإثم. وفى ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ هنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن قوم إبراهيم مصرون على الضلال، ولذلك فقد بدأوا يجادلونه فى نقاش، كل واحد يدلى بكلامه ليحاول أن يُبطل كلام الآخر، وهم هنا يجادلون إبراهيم فى الله جل جلاله، وكأنه قد عز عليهم أن يعلن إبراهيم أنه توجه إلى الله الذى فطر السموات والأرض ، أى يريدون أن يصرفوا إبراهيم عن دينه الحنيف.

ما هى حجتهم؟ وهل يملكون حجة ؟ طبعًا لا، لا يملكون حجة عقلية. إذن فكيف يواجهون إبراهيم وماذا يقولون ؟ إنهم لا يستخدمون الحجة والمنطق؛ بل يستخدمون الخرافة، ولذلك فإن الجدل هنا يقوم على أساس التخويف أى يقولون لإبراهيم لو كفرت بآلهتنا فإنك ستتعرض لانتقامها وستفعل بك هذه الآلهة كذا وكذا، وسيحل بك غضبها وسخطها فتمرض ولا تشفى، أو تجوع ولا تجد طعامًا أو تسلبك الحياة.

هذه هى الحجة التى يقولها من لا حجة له، ولذلك ترينا الآية أنهم أرادوا أن يحرقوا إبراهيم، ويهددوه ؛ لأنه رد عليهم وقال: ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ وما دام قد جاءت كلمة الخوف ونفاها إبراهيم عليه السلام عن

نفسه فكأنه حدث تهديد وقالوا له: إن آلهتنا لن تتركك. حتى يخوفوه ليترك عبادة الله، إنهم ينذرونه بأشد العواقب. وهنا يرد إبراهيم عليهم بالحجة ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ . أى أن هذه الكواكب والأصنام والشمس والقمر لا تنفع ولا تضر ولا تخيف أحدًا ؛لأنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا ، ويلفتهم إبراهيم عليه السلام إلى أن كل هذه الأشياء خاضعة لمشيئة الله ﴿إلا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أى أن هذه الكواكب لا تضر ولا تنفع إلا بمشيئة الله، كأن يسقط كوكب على مدينة مثلا فيهلك سكانها، ليس هذا من فعل الكوكب ولكنه بمشيئة الله، فالكوكب لم يسقط بأمر نفسه ولكن أسقطه الله. إذن فالضار والنافع هو الله سبحانه وتعالى، وهنا تتجلى بلاغة ودقة تعبير القرآن.

ذلك أن إبراهيم يقول للكفار إنه قد يحدث الضر لى، ولكن الضر هنا لا يأتى من آلهتكم التى تحاولون إخافتى منها؛لأن النافع والضار هو الله. فإن أصابنى الضر فهذه مشيئة الله وليست مشيئة أحد غيره. إذن فكل ما تخيفوننى به لا أساس له؛ لأن النافع والضار هو الله فلو شاء بى الضر حدث، ولو لم يشأ لم يحدث، إذن فاذكروا جيدًا وفرّقوا بين فعل يقع من فاعل، وفعل يقع من إله أو وسيلة يسخرها الله لهذا الفعل.

فالمسدس الذى تستعمله مجرد آلة، ولكن الذى حرك الزناد وأطلق الرصاص هو الذى قام بالفعل ، كذلك كل ما فى الكون. فإذا وقع على إنسان صخرة، فليست الصخرة هى الفاعلة ، ولكن الله هو الذى أمر وهو الذى فعل.

ثم يقول إبراهيم عليه السلام : ﴿أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ كلمة، ﴿أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تدل على أن قضايا العقائد مأخوذة بالفطرة ، ولكن إقبال النفس على الشهوات هو الذى يحاول أن يغطى هذه الفطرة فليس مطلوبًا من الإنسان أن

ينشىء فكرة عقائدية ،ولكن المطلوب منه فى قضايا الإيمان أن يتذكر فقط[1] لماذا ؟ لأن الإنسان هو خليفة الله فى الأرض ، وقد تناسل منذ عهد آدم حتى الآن، وسيظل يتناسل حتى قيام الساعة، وآدم نزل إلى الأرض ومعه منهج من الله ينظم به حركة الحياة وكان المفروض أن آدم يُلقن المنهج إلى أولاده، وأولاده لأولادهم وهكذا.

إذن فلماذا انطمس المنهج وعَمَّ الفساد فى الأرض؟ لأن منهج الله يضع قيودًا على شهوات النفس، والنفس بطبيعتها تريد أن تمضى فى شهواتها بلا تدخل ولا تنظيم، فالقوى يستعبد الضعيف، والغنى يأخذ مال الفقير، والقادر يبغى على غير القادر.

هكذا كل نفس تغتر بقوتها أو سلطانها فتريد أن تستعبد الآخرين وتأخذ حقوقهم، والله رب الجميع، وعدله يأبى إلا أن يعطى لكل عباده حقوقًا متساوية، فعندما ينتشر الظلم والفساد وتصبح شهوات الناس وأهواؤهم هى القانون وهى المتحكم ،يرسل الله رسولا ليلفت الناس إلى المنهج الذى نسوه، وإلى أن لهم حقوقًا متساوية، ويلفتهم إلى قدرة الله وعدله، ويهديهم إلى المنهج الذى لا تستقيم الحياة بدونه، فمجرد التذكرة بمنهج الله سبحانه وتعالى

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ .» ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ . [الروم: ٣٠] .

أخرجه البخارى رقم [٤٧٧٥] واللفظ له ، ومسلم رقم [٢٦٥٨]

وعن عياض بن حمَّار: أن النبى ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته: «إن ربى - عزوجل - أمرنى أن أعلمكم ماجهلتم مما علمنى فى يومى هذا: كل مال نحلته عبادى حلال، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانًا...».
الحديث بطوله أخرجه الإمام أحمد [٤/ ١٦٢]

يجعل كثيرًا من الأنفس تفيق وتتجه إلى منهج الإيمان، ومجرد التذكير بآيات الله فى الكون ونعمه تذكرنا بقدرات الخالق، وتجعل الفطرة الإيمانية فينا تستيقظ.

ثم يمضى إبراهيم عليه السلام فى حجته : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام ٨١] وهنا يعطى الله إبراهيم عليه السلام الحجة على الكفار فيقول لهم: أنتم عبدتم ما لا يضر ولا ينفع، وأنا آمنت بمن يضر وينفع. فمن منا الذى يخاف ؟ الذى أشرك بالذى يضر وينفع أم الذى آمن به؟ ومن منا فى أمان؟ وهنا لابد لنا من ملاحظة لنعرف أدب القرآن الكريم ، ساعة يكون هناك جدل تستيقظ الذاتية فى المجادلة، أى أنه حين يكون هناك جدال وينتصر أحد الطرفين على الآخر لأنه يمثل جانب الحق يستنكف من هو على باطل أن يعترف بالحق ، ليس لأنه لم يقتنع، ولكن لأنه لا يريد أن ينهزم أمام الناس ، فيكون متيقنًا أن الحق ليس معه ولكنه لا يعترف بذلك.

وهنا يريد الله سبحانه وتعالى أن نصل إلى الحقيقة دون أن يحرك ذاتية المخاصم التى تأبى أن تنهزم. وكان إبراهيم يستطيع بدلا من أن يقول: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ﴾ كان يستطيع أن يقول : أنا أم أنتم أحق بالأمن ؟ ولكنه لم يقل هذا ؛ بل قال : أى الفريقين أحق بالأمن ؟ حتى لا يتشبث الناس بالباطل ، ويشعرون أنهم قد انهزموا فى المناقشة ، وهذا يظهر فيما علمه الله لرسوله الكريم ﷺ إذ يقول :

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] وهل يمكن أن يكون رسول الله ﷺ فى ضلال مبين؟ طبعًا مستحيل ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا الحيدة فى الجدل، فيرينا صورة منه فى هذا الجدل

القائم بين رسول الله ﷺ والكفار.

رسول الله ﷺ يقول: إن منهجى لا يتفق مع منهجكم، فأحدنا على هدى وأحدنا على ضلال مبين ، ولكنه يريدهم أن يتراجعوا عن كفرهم مع المحافظة على كرامتهم بأن يعطيهم صورة تسهل عليهم هذا التراجع فيقول: أحدنا على هدى والثانى على ضلال ، ولكنه لا يحدد من الذى على الضلال؛ لأن المسألة ليست محتاجة إلى تحديد، فلو استخدموا عقولهم لعرفوا أنهم على ضلال.

يريد الله أن يجذبهم إلى الإيمان دون أن يهيج فيهم الذاتية التى قد تجعلهم يمتنعون مع اقتناعهم.

مثل آخر . قول الحق سبحانه: ﴿قُل لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ [سبأ: ٢٥]

وهل رسول الله والمؤمنون يجرمون ؟ لا. ثم يخاطب الكفار . لا يقول لهم: ولا نسأل عما تعملون؛لأن الحق هنا واضح وليس محتاجًا إلا إلى مناخ يجعل دخول هؤلاء الناس فى الإيمان ميسرًا وسريعًا.

* معجزة إبراهيم عليه السلام *

لكل نبى قصة يذكرها الحق لتتضح القصة فى ذهن الناس، ويأتى الله بالمثل فى المصطفين الأخيار الذين اصطفاهم الله لهداية الناس[1].

وفى قصة إبراهيم عليه السلام ، الحق سبحانه وتعالى يبتليه فى أول حياته بالإحراق بالنار، يحدث ذلك وإبراهيم شاب أى فى وقت الامتلاء بالأمل فى الحياة[2] فماذا كان من إبراهيم؟ جبريل يأتيه ويسأله: أليس لك حاجة؟. فيقول إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا، إنها عظمة التوقع من الله وذلك القول يظل أثره فى نفس السامع عقديًا. إن الحق لو أراد نجاة إبراهيم من النار فلماذا إذن تركهم يتمكنون منه ؟ ولما تركهم سبحانه ، وتمكنوا منه وألقوه فى النار، لماذا لم يأمر الله السماء بأن تمطر لتطفىء النار؟ إن ذلك لم يحدث كله لماذا؟ لتكون حجة الحق واضحة ، وحتى يكون كيد الله كاملا لهؤلاء الكافرين . إن إبراهيم لم يهرب منهم ولا السماء أمطرت ؛ بل ظلت النار نارًا، ولكن الحق سبحانه عطل ناموس النار حين ألقى إبراهيم فيها.

فيقول الحق: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء ٦٩][3]

---

(١) وقد ورد فى كنز العمال تحت رقم [٣٢٢٨٢] .. خيار ولد آدم خمسة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وخيرهم محمد" وقال : رواه ابن عساكر عن أبى هريرة.

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: مابعث الله نبيًا إلا شابًا، ولا أوتى العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٠] أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس [تفسير ابن كثير ٣/١٧٨ - وورد فى كنز العمال تحت رقم ٣٢٢٣٣].

(٣) يقول فى التفسير الوسيط: أى قلنا للنار حين ألقى فيها إبراهيم: كونى بردًا وسلامًا عليه، والمقصود من هذا الأمر الكريم: أنه سبحانه سلب منها طبيعتها وهى الإحراق، وجعلها باردة غير ضارة ببرودتها بحيث تكون سلامًا عليه، فلا يصيبه منها أذى فى =

وفى هذا غيظ ودحض لمكر الذين مكروا بإبراهيم(١). إن الحق يعطينا فى القصص القرآنى المثل لنجمع من حياة كل رسول العبر لنستفيد منها لنكون بحق خير أمة أخرجت للناس .

= جسده ولا فى نفسه، فجمع له الله فى تلك النار بين السلامة الحسية والسلامة النفسية، فكان مشروح الصدر مطمئن القلب، سليم البدن. ا.هـ.

(١) ويقول فى التفسير الوسيط: ذكر أصحاب الأخبار قصة تحريق إبراهيم عليه السلام مرة مطولة، وأخرى موجزة، ونحن نسوقها باختصار فيما يلى: لما اجتمع نمروذ وقومه لإحراق إبراهيم بنوا له بنيانًا كالحظيرة، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧] ثم جمعوا له الكثير من صلاب الحطب، وأوقدوا نارًا عظيمة ثم اتخذوا منجنيقًا ووضعوا فيه إبراهيم مقيدًا مغلولا، وقذفوه فى النار، فأتاه جبرائيل - عليه السلام - وقال: يا إبراهيم هل لك حاجة؟. قال له: أما إليك فلا. قال جبرائيل: فاسأل ربك، قال: حسبى من سؤالى علمه بحالى، فقال الله تعالى :
﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء ٩٦] وبهذا رد الله كيدهم إلى نحورهم.

قال أبو حيان فى (البحر): قد أكثر الناس فى حكاية ماجرى لإبراهيم عليه السلام، والذى صح هو ماذكره الله تعالى، من أنه عليه السلام ألقى فى النار فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا، وبقول أبى حيان نقول والله أعلم : هم أرادوا بإبراهيم عليه السلام، مكرًا عظيمًا فى الإضرار به، عقابًا له على دعوة التوحيد التى جاء بها، وظنوا أنهم سينالون مايريدون، وأخذوا لذلك أسباب إهلاكه، من إشعال النار وطرحه فيها، ولكن ضل سعيهم، وباء عملهم بالفشل الذريع، فقد جعل الله النار عليه بردًا وسلامًا، وكان ما فعلوه هو البرهان القاطع على أنه عليه السلام على الجادة والصراط المستقيم، وهم على الباطل، فجعلهم الله بذلك أخسر الخاسرين، وأتعس الماكرين المبطلين. ا.هـ.

* الذى حاج إبراهيم فى ربه *

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة ٢٥٨] وساعة تسمع ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فيجب أن تعلم أنها مكونة من ثلاثة هى : الهمزة «أ» وحرف نفى هو « لم » وفعل منفى هو « تَرَ ». والهمزة تأتى هنا لشىء اسمه الإنكار، والإنكار نفى بتقريع ، كأن تقول للابن على سبيل المثال: أتضرب أباك؟!. إن الهمزة هنا جاءت لا لتستفهم وإنما لتنكر الفعل المثبت بعدها. وما دام الإنكار نفيًا وقد دخلت الهمزة على فعل منفى فهى «نفى النفى» ونفى النفى إثبات.

إذن فقول الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يكون المقصود به ـ أنت رأيت. وقد يسأل سائل: ولماذا لم يقل الحق «أرأيت»؟ والرد على مثل هذا السائل هو: إن الحق سبحانه وتعالى أورد هذا المعنى بأسلوب نفى النفى من أجل أن يكون أثر المعنى أوقع فى نفس السامع؛ لأن مجىء الإثبات فقط قد يعطى أثر التلقين. ومثال ذلك فى الحياة اليومية – ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ عندما يلتقى أحد الأصحاب بك فيقول لك: أنت لا تسأل عنى وأنت تهملنى، فترد أنت عليه بالنفى قائلا : ألم آخذ بيدك وأنت مريض ، ألم أساعدك وأنت ضعيف. والواقع أنك تكون ـ بالفعل ـ قد أخذت بيده مريضًا وساعدته ضعيفًا. إذن فنفى النفى إثبات.

وعندما يقول الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾. فالمخاطب الأول بالقرآن الكريم هو الرسول ﷺ ، فهل رأى الرسول الكريم حادث الرجل

الذى حاج إبراهيم فى ربه؟ طبعًا لا [1] فكأن ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هنا تأتى بمعنى «ألم تعلم»، وقد يقول قائل: ولماذا لم يقل الله «ألم تعلم»؟ والرد على مثل هذا القول: إن الله يخبرنا بخبر، فلننظر إلى هذا الخبر بتصديق له كأننا رأيناه بعيوننا.. لماذا؟ لأن العين وهى حاسة قد تخدع، ولكن ربك لا يخدع أبدًا. إذن فمجيء ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هنا تكون بمعنى «ألم تعلم علم اليقين بأن هناك رجلا قد حاج إبراهيم فى ربه؟». ولقد ضربنا من قبل المثل بواقعة عام الفيل، فقد قال فيها الحق سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] إن الرسول ﷺ لم ير هذه الحادثة، ولكن الله يخبره بها. إذن فعندما يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فلتعرف أيها المؤمن أن المقصود بها «ألم تعلم» ويكون علمك بالخبر القادم من الله كأنك تراه؛ لأن ربك أوثق من عينيك. وعندما نسمع نحن الفعل ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فإننا نسأل أين «المفعول به». ولكن الحق سبحانه يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ﴾.

(١) قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ﴾ هو النمرود بن كنعان، وهو أول من تجبّر فى الأرض وادّعى الربوبية. [تفسير الماوردى ١/٣٢٩]. وانظر غرر التبيان (ص ٢٢٠)، والبحر المحيط [٢/٢٨٦].

وقال الإمام البقاعى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أى تعلم بما نخبرك به علما هو عندك كالمشاهدة لما لك من كمال البصيرة وبما أودعناه فيك من المعانى المنيرة. ولما كان هذا المحاج بعيدا من الصواب كثيف الحجاب أشار إلى بعده بحرف الغاية فقال: ﴿إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾.

أى الذى هو أبو العرب وهم أحق الناس بالاقتداء به ﴿فِى رَبِّهِ﴾. الضمير يصح أن يعود على كل منهما أى فيما يختص به خالقه المربى له المحسن إليه بعد وضوح هذه الأدلة وقيام هذه البراهين إشارة إلى أنه سبحانه أوضح على لسان كل نبى أمره وبين عظمته وقدره مع أنه ركز ذلك فى جميع الفطر وقادها إلى بحور جلاله بأدنى نظر فكأن نمرود المحاج للخليل ممن أخرجته الشياطين من النور إلى الظلمات ولما كان ذلك أمرا باهرا معجبا بين أن علته الكبر الذى أشقى إبليس. [نظم الدرر ٤ : ٤٧، ٤٨، ٤٩].

ولمن أراد التوسع فى معرفة حرف الجر (إلى) مراجعة كتاب الجنى الدانى فى حروف المعانى للحسن بن قاسم المرادى [٣٨٥/٣٨٩].

واستعمال حرف ﴿ إِلَى﴾ هنا يشير إلى أمر عجيب قد حدث ، ومثال ذلك أن نقول فى حياتنا العادية: ألم تر إلى زيد يفعل كذا، كأن ما فعله زيد أمر غاية فى العجب؛ لأن « إلى» تستعمل للغاية. وكأن الحق سبحانه يلفتنا هنا إلى أمر ذلك الحادث العجيب الذى يتطلب شوطًا طويلا وبعيدًا من العجب. إنَّ ﴿ إِلَى﴾ قد جاءت هنا لتدل على أن هذا الأمر الذى يحدثنا عنه الحق قد بلغ من العجب غاية بعيدة.

ولنا أن نلتفت هنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى لم يحدد لنا اسم الرجل الذى حاج إبراهيم فى ربه . فإذا ذهب بعض المفسرين إلى القول إنه ملك واسمه نمروذ، فلنقل لهم: شكرًا لاجتهاداتكم ، ولكن لو شاء الله تحديد اسم الرجل لأورد لنا الاسم . إن الذى يهمنا هنا أن واحدًا قد خرج على خليل الله إبراهيم عليه السلام، وأقام معه جدلا. وقد قلنا من قبل فى أحاديث سابقة إن الحق سبحانه وتعالى حينما يريد شيوع أمر وإمكان حدوثه فى أى زمان ومكان فإنه لا يشخص الأمر ؛ لأن التشخيص يفسد المراد.

تمامًا كالذين يحاولون أن يعرفوا زمان قصة أهل الكهف وأسماء أهل الكهف ومكان أهل الكهف؛ إن الذين يحاولون ذلك إنما يفسدون دون دراية المراد من قصة أهل الكهف ؛ لأن الحق سبحانه لو أراد أن يحدد القصة زمانًا لفعل، ولو شاء أن يحدد القصة مكانًا لفعل، ولو شاء أن يحدد الأشخاص لفعل. ولكن الحق سبحانه وتعالى إنما أبهم القصة زمانًا ومكانًا وشخوصًا حتى يمكن لنا أن نفهم إمكان تكرارها فى أى زمان وأى مكان ومع أى أشخاص. إننا إن حددنا أشخاص قصة أهل الكهف لقال واحد: وأين لنا بمثل قوة إيمان هؤلاء. ولو حددنا زمان القصة لقال آخر: لقد كان ذلك النوع من الزمان يصلح لتلك القصة، أما زماننا فمختلف. ويحدث ذلك أيضًا لوحددنا المكان سيخرج من يقول: إن ذلك هو المكان اللائق بهذه الحكاية.

ولذلك قلت : لننظر إلى دقة الحق حين ضرب مثلا للذين كفروا بامرأة

نوح وامرأة لوط، حين قال جل وعلا: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠] ولم يحدد الله اسم أية امرأة من هاتين المرأتين، بل ذكر الأمر المهم فقط وهو أن كلا منهما زوجة لرسول كريم، ولكن كلا منهما أصرت على الكفر فدخلتا النار. ولكن الحق سبحانه وتعالى حين أراد التخصيص بحادث لن يتكرر فى أى زمان أو مكان، جاء ذكر السيدة مريم بالتشخيص والتحديد الواضح حين قال: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] تحديد الحق هنا لمريم بالاسم والحادث لماذا؟ لأن الواقعة غير قابلة للتكرار مع أية امرأة أخرى. إننى حين أكرر هذا القول إنما أهدف إلى تثبيت حقيقة إيمانية وهى أن الحق سبحانه إن أراد أن يشخص فهو يفعل ولا راد لمشيئته. وحين يريد ألا يشخص فذلك ليبقى الأمر ماثلا أمام عيوننا نراه ونتيقن من إمكان حدوثه ونستفيد من الدروس التى فى معانيه . وحين لم يرد الحق ذكر اسم ذلك الإنسان الذى حاج إبراهيم فى ربه، فذلك معناه الواضح أن أى محاجة فى الله تظل مدحوضة بما أورده الله، وبما يريده الله من ثبات الإيمان فى بعض القلوب المؤمنة.

وعندما ننظر إلى كلمة ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ . فإننا نجد أن كلمة ﴿حَاجَّ﴾ أصلها «حاجج» مثلما نقول: «قاتل» و«شارك»[(١)]. وفى اللغة العربية عندما يكون فى الكلمة حرفان متماثلان نقوم بتسكين الأول ونضغم الثانى فيه. ومثال ذلك «حاجج» فننطقها «حاج» وهى من مادة «فاعل» وتأتى

(١) يقال: حاججته أحاجه حجاجًا ومحاجة حتى حججته أى: غلبته بالحُجج التى أدليت بها. [لسان العرب ٢/ ٢٢٨].

للمشاركة. وما معنى المشاركة فى اللغة؟ إنها مثلما نقول: «قاتل زيد عمرًا» والمعنى هنا يتسع لأن يكون عمرو قد قاتل زيدًا.. لماذا؟ لأن كليهما قد تقاتلا، وكليهما من حيث المعنى فاعل ومفعول به فى نفس الوقت. لكننا نغلب الفاعل فى جانب ونغلب المفعول فى جانب آخر. وعادة ما نغلب الفاعلية فيمن بدأ بالفعل ونغلب المفعولية فى الثانى.

ولتسمحوا لى أن أضرب هذا المثل وإن كان صعبًا ، إن الشاعر حين أراد أن يشرح حال إنسان يمشى فى مكان فيه حيات كثيرة قال :

وقد سالم الحيات منه القدما ... الأفعوان والشجاع القشعما

إن الشاعر هنا يصف لنا إنسانًا سار فى مكان مليء بالحيات ، وعادة ما يتحرج الإنسان أن تلدغه حية ، لكن هذا الإنسان الموصوف فى هذا البيت من الشعر نجد أن الحيات قد سالمت قدمه ، أى لم تلدغه لأنه لم يهجها . والثعابين عادة لا تلدغ إلا من يبدأها بالإهاجة . ونجد هنا أن الفاعل هو الحيات لأنها سالمت قدمه ، ويصح أيضًا أن نقول : إن القدم هى التى سالمت الحيات . ونحن نعرف من قواعد اللغة العربية وما درسناه قديمًا ، ما يسمى بالبدل . والبدل يأخذ حكم المبدل منه ، إن كان المبدل منه مرفوعًا جاء البدل مرفوعًا ، وإن كان المبدل منه منصوبًا جاء البدل منصوبًا ، وإن كان المبدل منه مجرورًا جاء البدل كذلك . هنا جاءت - الحيات - فى البيت من الشعر مرفوعة ولكن الأفعوان فى الشطر الثانى من البيت منصوبة مع أنها بدل من مرفوع هو الحيات .. لماذا ؟ لأن الشاعر لاحظ فيها المفعولية فأتى بها منصوبة . كما أن بالإمكان أن نقرأ - الحيات - بالنصب و - القدم - بالرفع ؛ لأن كلا منهما فاعل ومفعول من حيث المسألة .

وكذلك فى قول الحق سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ﴾ نحن نلاحظ أن ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ تأتى فى الآية الكريمة منصوبة بالفتح، أى يغلب عليها المفعولية فمن إذن الذى حاج إبراهيم ، إنه شخص ما ، وهو

الفاعل ؛ لأنه الذى بدأ بالمحاجّة، هكذا تدلنا الآية الكريمة وتصف الآية ذلك الرجل: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أى أن الرجل قد وهبه الله الملك وحاج هذا الرجل إبراهيم فى ربه، فكان جواب إبراهيم على هذه المحاجّة ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ومن هذا الجواب نفهم أن الرجل قد حاج إبراهيم بأن سأله: من ربك؟. ومن براعة القرآن الكريم أنه يترك الثقة للسامع فى أن يرد كل شىء إلى أصله، لذلك لم يورد الحق سؤال الرجل الذى حاج إبراهيم إنما أورد جواب إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ولأن إبراهيم صادق الإيمان بالله ، لذلك فلننظر إلى ولاية الله له.

ألم يقل الحق من قبل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة ٢٥٧] والولاية هى النصرة والمحبة والمعونة ، فهيا نرى كيف أعان الله إبراهيم على هذا الرجل ؟ إن الرجل الذى آتاه الله الملك يدخل مع إبراهيم عليه السلام فى محاجة بهدف السفسطة أى إطالة الجدل، فألهم الله إبراهيم أن يقول هذا القول الحكيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ لماذا جاء إبراهيم عليه السلام بهذه الحجة ؟ لأن أحدًا لم يجرؤ أن يدعى القدرة على الإحياء والإماتة ، بل ولم يدّع أحد أنه شريك فيها حتى الذين امتلأوا بالغلو فى الكفر عندما يسألهم أحد من الذى خلق الإنسان ؟ فإنهم يجيبون صاغرين «إنه الله». إن الخلق والإحياء والإماتة أمور ثابتة لا جدال فيها، إلا أن الخصم الذى حاج إبراهيم يريد ألا ينهى الجدل فقال الرجل ناقلا المحاجّة إلى لون من السفسطة: أنا أُحيى وأُميت، فسأله إبراهيم عليه السلام: كيف تحيى وتميت؟!، فقال الرجل: إن عندى من المسجونين عددًا واستطيع أن أقتل منهم من أشاء ، وأن أمتنع عن قتل من أشاء، فمن لم أقتله كأنى أحييته، ومن قتلته فأنا أمته. لم يقل له إبراهيم عليه السلام: لنتفق أولا ما الحياة ؟ وما الموت؟. ذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يرد أن يطيل هذه المجادلة ، إنما أراد أن يأتى بالحجة التى تسقط للرجل كل ما يحاجج به.. فجادله بما يلْجمه. لقد كان من

الممكن أن يدخل إبراهيم مع الرجل فى جدل، فيقول إبراهيم عليه السلام للرجل: ما الحياة؟ ولم يكن قادرًا على أن يجيب بأن الحياة بالنسبة للإنسان هى إعطاء المادة ما يجعلها متحركة حساسة مريدة مختارة . إذا سأل إبراهيم الرجل: ما الموت؟ فما كان الرجل بقادر على التفرقة بين الموت وبين القتل. فالرجل قد ظن أن الموت إخراج الروح من الجسد بجرح أو بنقض بنية بأن يهشم لإنسانٍ ما رأسه، إن هذا هو القتل وليس هو الموت؛ لأن الموت هو إخراج الروح من البدن بدون جرح أو نقض بنية أو أى عمل فى بدن الإنسان، ولا يقدر على ذلك إلا واهب الحياة الحق بأن يقول بقدرته للإنسان مت فيموت. ولذلك فالحق قد جعل القتل مقابلا للموت حين قال:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ . لقد أوضح لنا الله سبحانه وتعالى الفرق بين الموت والقتل وجعل كلا منهما مقابلا للآخر، فعندما أشيع أن رسول الله ﷺ قد قُتل فى ـ غزوة أُحد ـ همَّ بعض المسلمين بالارتداد إلى الكفر، فأنكر الله عليهم ذلك قائلا : إن محمدًا رسول من عند الله قد مات من قبله المرسلون ، أفإن مات أو قُتل رجعتم عن الإيمان إلى الكفر؟ ومن يفعل فإنما يضر نفسه، والثواب عند الله للثابتين على منهج الله الشاكرين لنعمه[1]. وأوضح لنا الحق أن موت أى إنسان لا يمكن

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ﴾ الآية. أخرج ابن المنذر عن عمر قال: تفرقنا عن رسول الله ﷺ يوم أحد فصعدت الجبل فسمعت يهود تقول: قتل محمد، فقلت: لاأسمع أحدًا يقول قتل محمد إلا ضربت عنقه، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ والناس يتراجعون، فنزلت: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ﴾ الآية.

وأخرج البيهقى فى الدلائل [٣/٢٤٨ ، ٢٤٩] عن ابى نجيح عن أبيه أن رجلا من =

أن يحدث إلا بإذن الله، وقد كتب الله ذلك فى كتاب مشتمل على الآجال.

ويريد الله أن ينبهنا ويلفتنا إلى حقيقة هامة وهى: أن الرسل فى جدلهم مع أممهم أو مع المناقشين لهم لا يكون الهدف للنبى أن يظفر بالغلبة، وإنما يكون الهدف بالنسبة للرسول أو للنبى أن يصل إلى الحقيقة. ولذلك لم يتوقف إبراهيم عليه السلام مع الرجل الذى يحاجه فى الله عند نقطة الإحياء والإماتة؛ لأنه رأى فى مناقشة الرجل لونًا من السفسطة. ولكن علينا ونحن نتدبر آيات القرآن الكريم بالخواطر الإيمانية أن نفهم الفرق بين الإماتة والقتل، الصحيح أن الإماتة والقتل يشتركان فى أمر واحد وهو خروج الروح من الجسد. والإماتة تختلف عن القتل بأنه لا يقدر عليها إلا واهب الحياة الذى وضع مقومات خاصة فى البنية الإنسانية حتى تسكنها الروح، وهو القادر على أن يسلب الروح بأمر غير محس. أما القتل فهو يحدث بأمر محس، عندما يقوم الفاعل بفعل يجعل القوانين اللازمة لبقاء الروح فى الجسم مختلة.

= المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحط فى دمه، فقال له: يافلان أشعرت أن محمدًا قد قُتل؟!. فقال: الأنصارى إن كان محمد قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. [آل عمران: ١٤٤].

وأخرج ابن راهويه فى مسنده عن الزهرى: أن الشيطان صاح يوم أحد إن محمدًا قد قتل. قال كعب بن مالك: وأنا أول من عرف رسول الله ﷺ رأيت عينيه من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتى: هذا رسول الله فأنزل الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ﴾ الآية. [نقلا من لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى]وقال ابن كثير: لما انهزم من المسلمين يوم أحد، وقُتل من قُتل منهم، نادى الشيطان الا إن محمدًا قد قتل، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمدًا؟ وإنما كان قد ضرب رسول الله فشجه فى رأسه، فوقع ذلك فى قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل وجوّزوا عليه ذلك كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء، فحصل وهن وضعف وتأخر عن القتال، ففى ذلك أنزل الله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ﴾.

[تفسير ابن كثير ١/ ٣٨٦]

فالحق سبحانه وتعالى لم يجعل الروح مطلقة من القوانين. لا . إن الروح لا تحل إلا فى مادة لها مقومات خاصة، فإذا انتهت هذه المقومات الخاصة أو اختلت فإن الروح لا تظل فى هذه المادة. فإن ضرب القاتل القتيل على رأسه بآلة حادة فهو يصنع الاختلال فى القوانين الخاصة ببقاء الروح فى المادة. وأضرب مثالا للتقريب - ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد - إن النور الصادر من المصباح الكهربائى لا يصدر إن كسرنا زجاج المصباح؛ لأن المصباح مجهز بوسائل وقوانين تسمح بأن يظل المصباح مصدرًا يرسل ضوءًا، أما إذا اختل القانون بكسر المصباح فإن المصباح لا يُرسِل نورًا أو ضوءًا. والجسد الإنسانى إذا هدم فيه أحد البنية بأمر محس، فإن الأمر الغيبى لا يسكن فى هذا الجسد. وهكذا يمكننا أن نعرف الفرق تمامًا بين الموت والقتل.

ولنتأمل ما حدث فى المحاجة بين إبراهيم عليه السلام وبين الرجل الذى آتاه الله الملك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ . ولننظر إلى الطغيان!! إن الرجل قد آتاه الله الملك فجعل نعمة الله وسيلة للتمرد على من أنعم عليه بالنعمة ، إنه لم يشكر النعمة، إنما خالف المنعم. لقد أبطره الملك ولم يهده إلى طريق الصواب وسواء السبيل . قد يقول قائل: وكيف يؤتى الله الملك واحدًا غير مؤمن به؟. إن لنا أن نعرف أن الملك بمعنى الأمر والنهى، إنما يكون للمبلغ عن الله، أما الملك الآخر الذى يتولى فيه فرد شئون الناس، فمن الجائز أن يكون هذا الإنسان مؤمنًا أو أن يكون كافرًا.

وكان يجب على الرجل الذى آتاه الله الملك أن يعرف أن هذا الملك لم يأت إلا من جانب الله فيطيع الله، وكان يجب أن يعرف أن الملك قد أعطاه الله

من قبل لمن هم أقوى وبعد ذلك انتهى ملكهم . لكن هذا الرجل الذى حاج إبراهيم فى ربه كان من الذين ينطبق عليهم قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾. هذا الرجل قد بدل نعمة الله كفرًا ، فدخل مع إبراهيم عليه السلام فى محاجات بقصد السفسطة، فأراد إبراهيم خليل الرحمـٰن أن ينتقل إلى مجال آخر غير غيبى ولا يختص بأمر الروح.

انتقل خليل الرحمـٰن بالحوار إلى أمر مشهود ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وهكذا نرى نصرة الله للذين آمنوا، ويرينا الحق كيف يكون وليًا لهم ؟ وكيف يخرجهم من الظلمات إلى النور ؟ بعكس الذين كفروا اتخذوا الطاغوت أولياء لهم ليخرجوهم من النور إلى الظلمات[1]. والقياس العقلى يرى أن الظلمات جمع والنور مفرد. والطاغوت كما قلنا إما شيطان أو متجبر أو كاهن أو ساحر[2]. لذلك نرى أولياء الطاغوت وما يحدث لهم، أنهم

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

(٢) الطاغوت: مصدر يدل على المبالغة، مأخوذ من الطغيان وهو مجاوزة الحد، والتاء تزاد فى المصادر للمبالغة، ويسمى به الشيطان والصنم وكل ماعبد من دون الله، وكل مايغرى بالشر، والداعى للضلال والفتنة.

والطاغوت يتمثل فى أشياء كثيرة لا تكاد تحصى، نذكر منها ما أخرجه البخارى فى صحيحه [٢٨٨٧]، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال: « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة . زاد فى رواية : والقطيفة إن أعطى رضى، وإن لم يعط سخط. تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش. . » . الحديث بطوله.

والطاغوت: للواحد والجمع، والمذكر والمؤنث.

يخرجون من النور وهو مفرد ومصدره واحد، إلى ظلمات متعددة الأبواب وهكذا نجد أن الذى حاج إبراهيم فى ربه قد واجه أمرًا لا قبل له به . لقد بهت الذى كفر ولم يجرؤ على الرد على مقولة إبراهيم عليه السلام، بأن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب. إنه يكون غاية فى الذكاء ؛ لأنه إذا كان قد علم أن الله يساند إبراهيم عليه السلام ، لذلك لم يقل : ما دام الله يأتى بالشمس من المشرق فاجعله يأتى بها من المغرب، إنه فى هذه الحالة يعلم قدرة الله وإن كان قد أنكرها وأعلن الكفر بها. وقد يكون هذا الذى حاج إبراهيم غبيًا، لذلك لم يرد على إبراهيم ويقول: ما دام الله يأتى بالشمس من المشرق فاجعله يأتى بها من المغرب، وهو فى هذه الحالة قد فقد القدرة على مراجعة إبراهيم. . لقد بهت لأنه كفر.

والبهت يأخذ ثلاث صور :

الدهشة أولا، ثم الحيرة ثانيًا ، ثم الهزيمة ثالثًا. لقد انتقل الذى كفر من القدرة على المواجهة إلى مفاجأة الدهشة، هذه هى الصورة الأولى. ومن المفاجأة والدهشة انتقل إلى التحير ؛ لأنه يبحث عن مخرج لنفسه فلم يجد مخرجًا من ورطته. وهكذا تلقى النتيجة وهى الهزيمة. ويلخص لنا الحق كل ذلك فى جملة واحدة: ﴿ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وحدوث البهت لمن كفر أمر ليس بعجيب ؛ لأنه بلا ولاية من الله، إنما أولياؤه هم الطاغوت. إن الله ولى إبراهيم، أما الطاغوت فولى الذى حاج إبراهيم ، لذلك فالطاغوت يؤدى إلى البهت، ولا يتلقى من والى الطاغوت مددًا من الله ؛ من برهان أو دليل أو حجة . ولذلك يقول الحق:

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ والآية فى بعض منها تتناول أمر الحياة والموت. وخليل الرحمن إبراهيم قد أورد مسألة مجىء الشمس من المشرق بإرادة الله، لا ليفر من الكلام فى أمر الحياة والموت إنما ليبهت من كفر.

* ابتلاء إبراهيم فى ولده *

إبراهيم عليه السلام لم يبتل بالنار وحدها؛ بل ابتلى فى آخر أيامه بأن أمره الله بذبح ولده الوحيد. والإنسان فى أول حياته تكون ذاتيته هى المسيطرة على نفسه ولكنه فى أواخر حياته تكون ذاتية أولاده فوق ذاتيته. فقد اقتربت حياته من النهاية ولذلك فهو يريد أن يعطى أولاده كل شىء، ويريد أن يحقق لهم مالم يحققه لنفسه، وهكذا عندما كبر إبراهيم وصار شيخًا جاءه الابتلاء الثانى بأن يذبح ولده. ولنبين قوة هذا الابتلاء على نفس إبراهيم نقول: إن إبراهيم أصبح فى سن كبيرة. وحسَب عالَم الأسباب من المشكوك فيه أن يرزقه بولد آخر ، إذن فإسماعيل هو كل عزوة إبراهيم فى الدنيا. وإذا بالأمر يصدر من الله ليس بأن يقتل إسماعيل، فربما كان ذلك هينًا على النفس بأن يعطى إبراهيم ولده لعدد من الناس يأخذونه بعيدًا عنه ويقتلونه. كان فى ذلك نوع من الرحمة فى القضاء، ولكن الله سبحانه وتعالى أمر إبراهيم بأن يأخذ ابنه ويذبحه بيده، ابتلاء كبير جاء عن طريق رؤيا لإبراهيم ورؤيا الأنبياء حق.(١)

إبراهيم عليه السلام يعلم يقينًا أن الحق سبحانه وتعالى لا يطلب من خلقه إلا الاستسلام لقضائه؛ ولذلك إذا رأيت إنسانًا طال عليه القضاء فى أى شىء فى مرض، فى مصيبة، فى مال، فاعلم أنه لم يرض بما وقع له، ولو أنه رضى لانتهى القضاء، فلا يرفع قضاء حتى تكون نفس من ابتلى به راضية،

---

(١) قال عبيد بن عمير : رؤيا الأنبياء وحى، ثم تلا هذه الآية: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] [تفسير ابن كثير ١٦/٤] ، وانظر البخارى رقم [١٣٨] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءًا من النبوة ». أخرجه مسلم [٢٢٦٥/٩] .

وما دام عدم الرضا موجودًا والناس هم الذين يطيلون على أنفسهم أمد القضاء؛ لأنهم لا يرضون به، فإذا قال لك إنسان أنه راض بقضاء الله وأن القضاء لم يرفع عنه ، فاعلم أنه يقول ذلك بلسانه ولا يرضى عنه بقلبه.

إبراهيم عليه السلام عرف هذه القضية من علم الملكوت، عرف أنه لا يرفع قضاء حتى يرضى به فامتثل لأمر الله ، ولكن حب إبراهيم لابنه جعله لا يريد أن يجعل إسماعيل يمر بفترة سخط فلا يفوز برضا الله، ولذلك لم يأخذه رغمًا عنه ويذبحه؛ لأن في هذه الحالة قد يكون إسماعيل غير راضٍ، فيحرم من الجزاء على هذا الابتلاء . فيقول إبراهيم عليه السلام لولده: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات ١٠٢] وهكذا يريد إبراهيم لابنه أن يأخذ ثواب الاستسلام بقضاء الله، وهذا يرينا حب إبراهيم لابنه ؛لأنه لا يريد أن يحرمه في هذا الابتلاء من الثواب. ماذا يقول الابن ؟ يقول له: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] ولم يقل إسماعيل لأبيه يا أبت افعل ما تريد بل قال له: افعل ما تؤمر؛حتى يأخذ الابن ثواب عبودية الطاعة، ويمضي الابتلاء ويقول الحق: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٣ - ١٠٧] إذن فعندما صدق إبراهيم الرؤيا نزل الذبح العظيم من السماء ليفتدى به إسماعيل؛ بل وأكثر من ذلك نزلت معه البشارة بأن إبراهيم سيرزق بولد آخر مصداقًا لقول الحق ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢] هكذا لم تكن البشرى فقط من الله بإنجاء إسماعيل من الذبح؛ بل كانت أيضًا بأن إبراهيم سيرزق بولد ثان، وهذا الولد سيكون نبيًّا من الصالحين.[1]

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره [٤/١٨-٢٠]: ذهب أهل الكتاب وجماعة من أهل العلم إلى =

أن الذبيح هو إسحاق، وحكى ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضًا، وليس ذلك فى كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك متلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب وأخذ ذلك مُسَلَّمًا من غير حجة ، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل فإنه ذكر البشارة بغلام حليم فى قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات ١٠١] ، وذكر أنه الذبيح فى قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ . ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

ويقول ابن القيم فى [زاد المعاد فى هدى خير العباد] الجزء الأول فى فصل نسب الرسول ﷺ: وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهًا وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه - يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره - وفى لفظ - وحيده، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده ، والذى غر أصحاب هذا القول: أن فى التوراة التى بأيديهم: [اذبح ابنك إسحاق]. قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم ؛ لأنها تناقض قوله: [اذبح بكرك ووحيدك] ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم ويحتازوه دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب فقال تعالى عن الملائكة إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود : ٧٠ ، ٧١] فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب داخل فى البشارة، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب فى لفظ واحد، وهذا ظاهر الكلام وسياقه.

ثم يقول: ويدل عليه أيضًا أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى سورة الصافات قال: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ

ويعرفنا نهاية الأشياء، وأن كل قضاء لله له حكمة ولو لم نعرفها. فمن

بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٣ - ١١٢] فهذه بشارة من الله تعالى على صبره على ما أُمر به، وهذا ظاهر جدًا فى أن المبشر به غير الأول؛ بل هو كالنص فيه.

ثم يقول: وأيضًا فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ؛ ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها كما جعل السعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار تذكيرًا لشأن إسماعيل وأمه وإقامة لذكر الله ، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكان الذبح وزمانه بالبيت الحرام الذى اشترك فى بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذى كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زمانًا ومكانًا، ولو كان الذبح بالشام - كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم - لكانت القرابين والنحر بالشام لابمكة.

وأيضًا فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليمًا ؛ لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه ، ولما ذكر إسحاق سماه عليمًا فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ وهذا إسحاق بلاريب ؛لأنه من امرأته وهى المبشرة به، وأما إسماعيل فمن السرية.

وأيضًا فإنهما بُشِّرا به على الكبر واليأس من الولد وهذا بخلاف إسماعيل فإنه ولد قبل ذلك.

وأيضًا فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ووهبه له ، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذه خليلا، والخلة : منصب يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة ، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد ، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبق فى الذبح مصلحة إذ كانت المصلحة إنما هى فى العزم وتوطين النفس فيه فقد حصل المقصود، فنسخ الأمر وفدى الذبيح وصدق الخليل الرؤيا وحصل مراد الله. ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود ولم يكن ليحصل فى المولود الآخر دون الأول؛ بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة مايقتضى الأمر بذبحه، وهذا فى غاية الظهور. =

أصيب بمصيبة فما عليه إلا أن يرضى ، وما دامت المصيبة لا دخل لحركة الإنسان فيها وإنما أجراها عليه الله، فلابد أن نعلم أنه لا يوجد خالق يفسد ما خلق، ولا صانع يفسد ما صنع. إذن فلابد أن تكون هناك حكمة للخالق وإن لم نفهمها، إذن فإن طريق الخلاص من أى نائبة من النوائب هو بالرضا، وما دام يوجد رضا حقيقيًا ينتهى كل شيء ، ولكن الذى يحزن أننا عندما نصاب بمصيبة لا نرضى، ونفتح باب الحزن ولو كنا حقيقة نعقل ونفكر لأغلقنا باب الحزن وفتحنا باب الرضا، ولكنَّا قد علمنا أن ما أخذ منا فنحن معوضون بخير منه لو رضينا ، ولذلك يقال : إن المصاب ليس من حدثت له مصيبة وإنما المصاب من حرم الثواب، فتكون النتيجة أننا فقدنا عزيزًا نحبه ثم لا نأخذ عليه ثوابًا بالجنة ، ولو أنك كنت تحب هذا العزيز الذى فقدته، لكان لابد أن تأخذ بسبب فقده الجنة ، تلك هى حقيقة القضاء فى عالم الملكوت.

= وأيضًا فإن سارة امرأة الخليل إبراهيم عليه السلام غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولد إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة ، فأمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها فى أرض مكة ليبرد عن سارة حرارة الغيرة، وهذا من رحمته ورأفته، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحاله؟. هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية؟!؛ بل الحكمة البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية، فحينئذ يرق قلب السيدة على ولدها وتتبدل قسوة الغيرة رحمة ، ويظهر لها بركة هذه الجارية وولدها ، وأن الله لايضيع بيت هذه وابنها منهم، ويرى عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد، آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواطئ أقدامها مناسك لعباده المؤمنين ، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه ، أن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره ، قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥] وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. ا.هـ [بتصرف يسير]

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ [هود ٦٩] ﴿رُسُلُنَا﴾ جمع رسول ، والرسول بشر يرسله الله ليهدى الناس إلى منهج الله ، والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ . إذن فهناك اصطفاء واختيار من الملائكة الذين ينقلون المنهج إلى البشر، وهناك رسل من الناس يهدون البشر، ذلك أن التلقى من الخالق إلى البشر لا يحدث لماذا؟ لأن القوة فى التلقى عن الله لابد أن تكون قوة عالية ، والإنسان لا يقدر أن يتلقى عن الحق مباشرة. ولذلك يختار الله من ملائكته من يعطى المنهج للمختارين من البشر وهم الرسل، وليس كل ملك يتلقى عن الله، ولا كل بشر يتلقى عن الملك، بل من يختارهم الله سبحانه وتعالى .

ولابد أن يؤهل الله الضعيف وهو البشر للأخذ عن الأقوى وهو الملك . تمامًا كما تضع فى بيتك مصباحًا كهربائيًا صغيرًا ليدلك على الطريق إذا قمت ليلا وأنوار البيت مطفأة، وحتى لا تصطدم بما فى البيت من أثاث فأنت محتاج إلى ضوء بسيط يدلك على مواقع الأشياء أو مواقع مفاتيح النور، وهذا النور البسيط تسير على هداه حتى تستطيع أن تنير الحجرة، ولابد أن يكون ضوؤه ضعيفًا حتى لا يقلقك أثناء النوم، ولكنك لا توصل هذا المصباح الضعيف بالتيار مباشرة وإلا احترق، لابد أن يكون هناك محول يأخذ من التيار القوى ويعطى للضعيف.

الله سبحانه وتعالى جعل منهجه يصل إلى رسله على مراحل حتى يستطيع الرسول وهو بشر ضعيف أن يتلقى عن القوة العليا وهو الله سبحانه وتعالى، فيختار من الملائكة من يتلقى عن الله، وهؤلاء مخلوقون من نور، منزلتهم

عالية تتحمل التلقى من الله مباشرة، وينقل الملَك منهج الله وكلامه إلى الرسول ، والملَك فى قوته يكون أقل من المتلقى عن الله مباشرة. والبشر رغم أنه يتلقى عن الملَك فإن هذا التلقى يرهقه ويتعبه. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾. [الشورى ٥١] .

قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ . والبشرى : هى الإعلام بخبر سار سيقع فى المستقبل. إذن فالحق جل جلاله حين أرسل ملائكته إلى إبراهيم أرسلهم ببشرى ، وعندما دخل الملائكة على إبراهيم قالوا سلامًا . ونلاحظ هنا استخدام النصب بدلا من الرفع ؛ لأن سلامًا دلت على أن هناك فعلا نسلم سلامًا والفعل يدل على التجدد بينما سلام يدل على الثبوت لك منا سلام. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود ٦٩] وهناك آيات كثيرة قد تعرضت لقصة إبراهيم عليه السلام فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، نجد آيات عن قصة أبى الأنبياء إبراهيم، بعض الناس يظن أنها تكرار.. نقول لهم.. إنها قصة متكاملة تعطى كل آية منها لقطة لم تات فى الآية التى قبلها، فإذا جمعت كل اللقطات تعطينا القصة كاملة.

واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ . هذه لقطة ، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى ﴾ . هذه لقطة تعطينا التربية اليقينية التى رباها الله سبحانه وتعالى لإبراهيم ، فلما وصل إلى اليقين ذهب إلى أقرب الناس إليه وهو عمه. واقرأ قوله تعالى: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ ﴾ [مريم ٤٢] عندما أصر عمه على الكفر قال له: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم ٤٧] فلما رأى أن عمه مصر على الكفر والإنكار تبرأ منه هذه لقطة أخرى، ثم ذهب إلى النمروذ،

وهو الملك الذى ذهب إليه إبراهيم ليهديه. واقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة ٢٥٨] هذه لقطة تعطينا ماذا حدث بين إبراهيم عليه السلام وبين النمروذ ، عندما قال إبراهيم : إن الله هو الذى يحيى ويميت ، جاء النمروذ برجل وقال: اقتلوه. ثم قال : عفوت عنه. والتفت إلى إبراهيم وقال : أنا أحيى وأميت . وأقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾. [آل عمران : ١٤٤].

إذن فالموت غير القتل، الموت لا يأتى بهدم بنية الإنسان، ولكن فى القتل لابد من هدم البنية، أما الموت فهو مغادرة الروح للجسد دون هدم البنية . والروح لا تسكن الجسد إلا إذا كانت بنيته سليمة . والقتل يجعل البنية غير سليمة فتخرج منها الروح. إذن فإن النمروذ حين قال : أنا أحيى وأميت ، نقول له : إنك لا تميت ولكنك تقتل . ولكن الله وحده هو الذى يُحيى ويُميت. ولكن إبراهيم لم يشأ الدخول فى جدل مع النمروذ ، فجاء له بآية كونية لا يمكن أن يسيطر عليها وهى الشمس، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾. [البقرة: ٢٥٨]

وفى لقطة أخرى من قصة إبراهيم عليه السلام، يقول القرآن الكريم: ﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء ٧٨ - ٨٠] وهذه تربية يقينية، ويقول للكفار : أنتم تعبدون آلهة مزيفة، وأنا لا أعبد إلا الذى خلقنى ؛ لأنه هو الذى يهدين ، فصانع الصنعة يضع قانون صيانتها، ولا يوجد إنسان يصنع شيئًا ثم يأتى غير الصانع من البشر ليضع له قانون حياتها. فالذى اخترع الثلاجة أو الغسالة أو التليفزيون

هو الذى يضع لها قانون صيانتها ، على أننا نلاحظ أن القرآن الكريم استخدم عبارة: «هو يهدين» ولم يقل الذى خلقنى يهدين لماذا؟ لأن هناك من سيخرج ويدعى أنه يضع قوانين للبشر ليتبعها ، بدلا من قوانين الله سبحانه فتعطيه حياة أفضل . فالشيء الذى يشك أن يشارك خلق الله فيه، يقول: «هو» لكى تكون مقصورة على الحق سبحانه وتعالى، إنما الشيء الذي لا يستطيع أحد أن يدعيه يذكر بدون كلمة هو، مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾. ولم يقل هو يُميتنى ؛ لأنه لا يوجد بشر يُميت بشرًا أو يُحييه. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء ٨٠] تخصيص بأن الحق سبحانه هو الشافى ؛ لأنه يمكن أن يقال إن الطبيب يشفى، الشيء الذى يمكن أن يشارك الخلق فيه، تأتى كلمة هو لنعرف أن الأمر لله وحده.

ثم يعطينا لفتة أخرى فى قصة إبراهيم حين قال الله : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ثم يعطينا قصة رفع القواعد من البيت فى الكعبة المشرفة فيقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة ١٢٧] وهكذا تأتى قصة إبراهيم فى سور مختلفة وآيات مختلفة ، ولكنها تكمل بعضها بعضًا لتعطينا القصة الكاملة . الحق يقول: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود ٦٩] وفى آية أخرى يقول : ﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر ٥٢] وكل فعل من الأفعال له مقدمات ، هذه المقدمات إدراك الشيء ثم النزوع إليه. وبعد ذلك إما تقول وإما تفعل، ولقد ضربنا لهذا مثلا. . فإذا سرت فى حديقة ورأيت وردة جميلة، هذه الوردة أنت أدركتها بعينك ، هذا هو الإدراك وهو مباح، فسررت بها وملأت قلبك بالإعجاب ، هذا هو الوجدان وهذا أيضًا مباح ، ثم مددت يدك لتقطعها، هذا هو النزوع . ساعة امتدت يدك لتقطع نقول لك هذا غير مباح ؛ لأنها لا تخصك فهى ملك لغيرك.

الشرع لم يتدخل فى الإدراك ولم يتدخل فى الوجدان، إنما تدخل ساعة النزوع، إلا فى شىء واحد هو المرأة. فى كل شىء لا يتدخل الشرع إلا عند النزوع ، فيقول لك هذه لا تخصك.. استأذن صاحبها أولا.. إلا فى المرأة فإنه يتدخل من بداية الإدراك ، فأنت إذا رأيت الجمال فى المرأة ، هذا إدراك لا يبيحه الشرع. وإذا أعجبت بها واستقرت فى وجدانك ، فهذا أيضًا لا يبيحه الشرع، فإذا نزعت لتستمتع بجمالها نقول أيضًا لا ، هذا لا يبيحه الشرع. وذلك لأن الإدراك والوجدان والنزوع بالنسبة للمرأة ملتصقة ببعضها البعض لا تستطيع أن تفصلها ، كل منها يقودك إلى الآخر أحيانًا رغمًا عنك. ولذلك يتدخل الشرع من أول الأمر، من الإدراك فيحجبها عنك رحمة بك ؛ لأنك إن أدركت استقرت فى وجدانك ، وإن استقرت فى وجدانك نزعت إليها، ولذلك يحجبها عنك أولا. إذن فالشرع لا يتدخل فى الإدراك والوجدان ، إلا بالنسبة للمرأة لأنك متى أدركت حسنها ستحاول أن تصل إليها ، فيقول لك من أول الأمر: لا أريد أن أعرضك لهذا، ولذلك يمنع عنك أن تدركها أو تنظر إليها.

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ . وفى آية أخرى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود ٧٠] هذا معنى الوجدان، قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ ، ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ . أى ما مرت فترة . بمجرد أن دخلوا وسلموا أحضر العجل، والعجل هو ولد البقرة، أى أحضر عجلا صغير السن و ﴿حَنِيذٍ﴾ معناها مشوى على الحجارة. فالشواء: يشوى مرة على اللهب ومرة يشوى على الفحم، ومرة يشوى على الحجر، بأن يُعرض الحجر للهب شديد حتى يحمر ثم يشوى عليه العجل . هم يسمونه فى البلاد العربية بالسلاج، يأتون بحجر رقيق مثل الصاج، ويضعونه على النار حتى يُحمى، ويُصبح لونه أحمر من شدة الحرارة ، ثم يلقون عليه اللحم. ذلك أن الحجر

لا يتفاعل مع اللحم، ولكن الحديد واللهب والفحم تخرج منه تفاعلات . ولذلك فإن الشواء على الحجر هو أنظف أنواع الشواء، و﴿حَنِيذٍ﴾ قد تَعنى كثرة الدهن يسيح فوق اللحم.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ تدلنا على أن الخليل إبراهيم ، أنه كان يحب الضيوف. واليوم الذى كان لا يأتيه فيه ضيف يحزن، وساعة رأى وجوهًا جديدة قدمت عجّل بالطعام، وهذا أيضًا يمثل الكرم ؛ لأنه عندما يأتيك ضيف لم تعرف كم ساعة مضت عليه وهو لم يأكل ، فتأتى له بالطعام بعد أن يدخل عندك، فإن كان جائعًا أكل، وإن كان شبعان لم يأكل. وعندما قدَّم إبراهيم لضيوفه العجل المشوى ، لم يمدوا أيديهم للأكل. ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ وما داموا لم يمدوا أيديهم إما أنهم غير جائعين، وإما أنهم جاءوا يقصدون شرًا، فيرفضون ما يقدم إليهم.

ولذلك يقول الحق : ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] ولكن هؤلاء كانوا من الملائكة ، لم يمدوا أيديهم للأكل من العجل، والضيف إذا جاءك وقدمت له طعامك فأكل فقد أستأمنك على طعامه، أى أمن لك أوجاءك يقصد خيرًا ، أما إذا قدمت له الطعام ولم يأكل فإنه لا يستأمنك على طعامه أو جاء يقصد شرًا. فعندما لاحظ إبراهيم عليه السلام أنهم لا يأكلون خاف منهم. ولكن هذا الخوف ظل حبيسًا فى نفسه ولم يقم بأى فعل يظهر خوفه. كأن يتحرك فى المجلس ويمشى أو ينادى على أتباعه أو يفعل أى فعل آخر. ولكن الملائكة أحسوا بخوف إبراهيم، فأرادوا أن يطمئنوه بأنهم لم يأكلوا، ليس لأنهم جاءوا يقصدون الشر. ولكن لأنهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون، جاءوا لينفذوا مهمة كلفهم الله بها. فقالوا كما يروى لنا القرآن الكريم: ﴿قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾. ولكنهم لم يقولوا: إنا رسل ربك . مثلما قالوا للوط عليه السلام. وعندما

قالوا لإبراهيم: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ فَهِم أنهم ملائكة، مع أنهم كانوا فى هيئة رجال. والملائكة يتشكلون بشكل الرجال، فجبريل عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ على هيئة رجل . والجن أيضًا لهم قدرة على التشكل، ولكن الجن إذا تشكل تحكمه الصورة التى تشكل بها. ولكن الملك لا تحكمه الصورة، فإذا تشكل الجنى على هيئة رجل حكمته صورة الرجل، وتستطيع أن تقتله بالرصاص أو أن تمسك به وتخنقه، أو تضربه بسكين فتقتله، أو تفعل به ما تفعله بأى رجل، تستطيع أن تقتله بأى طريقة يقتل بها الإنسان.

ورسول الله ﷺ أمسك بجنى تمثل له فى صورة رجل، وقال : « هممت أن أربطه فى سارية المسجد ليتفرج عليه صبيان المدينة، ولكنى تذكرت دعوة أخى سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾. فتركه [1]. فالجن إذا تشكل تحكمه الصورة التى تشكل بها ، ولكن المَلك إذا تشكل لا تحكمه الصورة. وهذا هو الفرق بين تشكل الملائكة وتشكل الجن. ولولا أن الجن إذا تشكل تحكمه الصورة لصارت حياتنا جحيمًا ؛ لأنهم كانوا سيتشكلون لنا ويفزعوننا. ولكن حكم صورة التشكل بالنسبة للجنى تجعله يخاف أن يتشكل أمامنا حتى لا نقتله ؛ لأننا فى هذه الحالة نكون قادرين عليه مثل قدرتنا على أى بشر فيخاف منا، ولو كان قانونهم غير ذلك لأفزعوا الدنيا كلها.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] مادة النون والكاف والراء معناها أنه لم يعرفهم، وهناك نكر وأنكر، وتأتى بالاشتقاق. قوم منكرون، مفعول من أنكر، فمرة أحضر الفعل ومرة أحضر اسم المفعول

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إن عفريتًا من الجن تفلت علىَّ البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع علىَّ الصلاة ، فأمكننى الله منه ، فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخى سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ . قال رَوْحٌ : فرده خاسئا . أخرجه البخارى [٤٦١] .

« منكرون » وهى الاشتقاق. والشاعر العربى يقول:

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت   منى سوى الأحداث فى الصلع

أى رأتنى فأنكرت الصلع، والاستعمال اللغوى يدل على أن المقابح نسميها منكرات، يعنى ينكرها الإنسان عندما يشاهدها. وقوله تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وفى آية أخرى: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ . الآية الأولى التى نحن بصددها كشفت الانفعال النفسى، والآية الثانية أحضرت المعنى النزوعى والاثنتان وجدتا ؛ لأنه قبل أن يقول : شعر فى نفسه بالخوف ، ثم قال: إنا منكم خائفون ـ فلما : ﴿قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ عرف إبراهيم عليه السلام أنهم من الملائكة. وأنهم أرسلوا ليعذبوا قوم لوط خصوصًا أن امرأة إبراهيم كانت قد قالت له: ألا تضم ابن أخيك لوطًا إلى كنفك ؛ لأن قومه يوشك أن يعمهم الله بالعذاب. ولذلك عندما سمعتها الملائكة سرت من فراستها فضحكت .

قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] هذه البشارة بينت لإبراهيم أنهم لم يأتوا لعذاب عنده ، ولكنهم جاءوا لعذاب قوم يكرهونهم وهم قوم لوط. ولقد بشرت الملائكة امرأة إبراهيم بشىء كانت تتمناه وإن كان وقته قد فات ؛ لأنها كانت قد بلغت من العمر مائة وعشرين عامًا . بشروها بأنها بعد هذا العمر الطويل ستلد ابنًا ، وأنها ستكون جدة وسيكون لها ابن ابن هو يعقوب. فكم بشارة بشرتها بها الملائكة.. البشارة الأولى: أن الملائكة لم يحضروا لعذاب قوم إبراهيم ؛ لأنهم لم يرتكبوا مخالفات. والبشارة الثانية :أنهم جاءوا لقوم مجرمين هم قوم لوط الذين اتعبوا نبيهم وفسدوا فى الأرض. والبشارة الثالثة: بشروها بغلام، ومسألة الغلام كانت تتمناها منذ زمن طويل ؛ لأنها عاقر. استقبلت البشارة الأولى بالضحك، والثانية بالاطمئنان، والثالثة بالدهشة، قالت كما يروى القرآن الكريم : ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ

وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢] ساعة تقول يا ويلتى فإنك تفهم أن الفاجعة صعبة عليها، كيف سيحدث لها أن تحمل وهى عجوز وزوجها شيخ كبير.

نلاحظ أن زكريا عليه السلام حينما طلب من الله الولد قال: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] ولم يأت بسيرة زوجته. ولكن زوجة إبراهيم قالت: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ ؛ لأن النساء هذه طبيعتها. فالرجل يستر امرأته ولا يعيرها بأنها عاقر أو عجوز - ولكن كان لامرأة إبراهيم موقف آخر يوضحه لنا القرآن : ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ أى إن مهمتى انتهت فى الحمل. ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ يعنى زوجى شيخًا. ودقة التعبير أن البعل هو الذى يقوم بأمر المبعول. وكذلك الزوج يقوم بأمر الزوجة ولا يعوزها لأحد. والبعل: هو النخل الذى لا يحتاج إلى زارعه ليسقيه، وإنما يكتفى بما يمتصه من الأرض وما ينزل من مطر السماء . قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ الشىء العجيب : هو الذى يقع على غير انتظار ، ويخالف سنة من سنن الكون.

هناك لفتة تلفتنا إلى السلوك الدينى ، عندما جاءت الملائكة إبراهيم على هيئة بشر لم يطلبوا طعامًا ولكن إبراهيم جاء بالطعام دون أن يطلبوه، والدليل على أنهم لم يطلبوه أن أيديهم لم تمتد إليه، وهذا يرينا خلق الدين فى أنك إذا جاءك ضيف لابد أن تأتيه بما يأكل وما يشرب فإذا امتنع عن الأكل تلح عليه، كما قال إبراهيم للملائكة: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧] ولذلك يقولون إنه عندما قال إبراهيم للملائكة : ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ . قالت الملائكة : لا نأكل إلا إذا دفعنا ثمنه ، فقال إبراهيم مما علمه الله من حكمة النبوة ، ثمنه أن تبدأوا باسم الله ، وأن تنتهوا بقولكم الحمد لله ، فالثمن باسم الله أولا ، والحمد لله آخرًا ، فتكون قد أديت الطعام حقه، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ

﴿يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] كل نعمة بدأتها باسم الله وختمتها بالحمد لله لا تسأل عنها يوم القيامة[1]

(١) قال السدى: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشى فى صور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم أجلَّهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فذبحه ثم شواه فى الرَّضف ـ وهى الحجارة التى حميت بالشمس أو النار ـ وأتاهم به فقعد معهم وقامت سارة تخدمهم. فذلك حين يقول - وامرأته قائمة وهو جالس - فى قراءة ابن مسعود : ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧] قالوا : يا إبراهيم إنا لا نأكل إلا بثمن ، قال: فإن لهذا ثمنا. قالوا وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره . فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا. [ابن كثير ٢/ ٤٣٣] . وانظر تفسير الماوردى [٥ / ٣٧٠] .

* عطاء الله لإبراهيم *

ويريد الحق سبحانه أن يلفتنا إلى عطاءاته للمؤمنين التى تتم بغير أسباب الدنيا، ذلك لأن عطاء الله مستمر للمؤمن. فيقول الحق : ﴿ووَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤] حينما تسمع قول الحق: ﴿ووَهَبْنَا﴾ تعرف أن العطاء لم يأت بالأسباب، وإنما يعطى بلا أسباب .

فإذا عملت عملا وأخذت أجرًا عليه فهذا ليس هبة، ولكنه أجر وحق، أما إذا أعطيت مالا دون أن تعمل فهذا هبة، والله سبحانه وتعالى قد جعل التكاثر البشرى هبة من عنده، فقال: جل جلاله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى ٤٩، ٥٠] إذن فالذرية هى هبة من الله لخلقه يهب لمن يشاء ذرية، ومجرد الزواج أو التقاء الرجل بالمرأة لا يأتى بالذرية، ولكنها هبة من الله ؛ لأنها ليس فيها مشقة العمل.

وهكذا تخرج من منطق الأجر إلى منطق الهبة، وكذلك العقم الذى يتم فى حياة أى زوجين هو أيضًا هبة؛ ذلك لأنك إذا استقبلت العقم بالحمد، ولم تنظر إلى أبناء الغير بالحقد والحسد، يجعل الله من تراه ابنًا لك. هذا يخدمك وهذا يخدمك ، هذه هى هبة العقم.

أما هبة الإناث فإنك لو رضيت بها، تجد أن الله يبعث إليك رجالا يتزوجون بناتك، ويصبح هؤلاء الرجال أفضل لك وأكثر طاعة من أبنائك.

إبراهيم عليه السلام وزوجته لم يكونا ينجبان، وتزوج إبراهيم هاجر،

وأنجب منها إسماعيل ، ربما كان ذلك أخذًا بالأسباب ؛ لأن إبراهيم فى هذا الوقت قد أصبح شيخًا ولكن عندما كبر إبراهيم وزوجته سارة عقيم لا تلد، وهبه الله إسحاق لتكون هذه الهبة مع عجز الأسباب ، دليلا على طلاقة القدرة، وإسحاق تزوج وأنجب يعقوب.

ما هذه القضية ؟ الإنسان منا يعلم بواقع قوانين الله فى الكون أنه ميت . وعندما يكبر الإنسان يتمنى له ابنًا ليستمر اسمه فى الحياة. فإذا جاءه ولد فكأنما ضمن استمرار حياته جيلا ، فإذا جاءه حفيد ضَمن استمرار حياته جيلين ، فإذا جاءت التقوى والصلاح فى الأبناء كان ذلك قرة عين للأب. ولذلك فإننا نطلب دائمًا النسل الصالح، فنجد زكريا حينما دعا ربه قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ . أى أنه يجب ألا نطلب الولد فقط، ولكننا نطلب الولد الصالح الذى يحمل منطق الخير للناس ، وهنا لابد أن نلتفت إلى قول الحق: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام : ٨٤] إذن فمكافأة إبراهيم عليه السلام على طاعته لله ودعوته للمنهج كانت الولد الصالح. فلم يعط الولد والحفيد فقط، ولكنه أعطيهما مهديين نبيين ، ونعم الهبة الولد الصالح.

ولم تكن هبة الله لإبراهيم مقصورة على ذلك، بل جعل فى ذرية إبراهيم الأنبياء داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس.

عندما نلتفت إلى أسماء الأنبياء التى ذكرت فى هذه الآيات، نجد أن القرآن قد بين لنا أن هبة الله لإبراهيم لم تقتصر على هؤلاء بل قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام : ٨٧] المذكورون فى قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ

﴿وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ . [الأنعام: ٨٣ - ٨٦] من الرسل ثمانية عشر، وهناك سبعة من الأنبياء لم يذكروا فى هذه الآيات ، وذكروا فى آيات أخرى من القرآن الكريم وهم إدريس وهود وشعيب وصالح وذو الكفل وآدم ، ثم سيد الأنبياء محمد رسول الله ﷺ ، وأطول آية ذُكر فيها عدد الرسل هى هذه الآية من سورة الأنعام.

ننظر إلى حكمة التقسيم من هؤلاء الأنبياء المذكورين : اثنان كانا ملكين هما سليمان وداود ، وذلك ليعطينا الله الدليل على أنه إذا أراد أن يقهر خلقه على شيء فعل . فإذا أراد أن يكون هناك من الأنبياء ملوك فعل ، ورسول الله ﷺ قال: «خيرت بين أن أكون نبيًا أو ملكًا فرضيت أن أكون نبيًا»[1]. الله أعطى سليمان وداود سعة الملك والسلطان. فماذا أعطى أيوب؟ أعطاه الابتلاء والصبر على البلاء ليكون نموذجًا للصبر، ويوسف جمع بين البلاء والملك، وموسى وهارون أعطاهما شهرة الاتباع ، ولذلك لا نكاد نعرف شيئًا من الأديان إلا اليهودية والمسيحية، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس أعطاهم الزهد، فهؤلاء أخذوا ملكة الزهد، وإسماعيل زهرة الحياة، ولذلك لا نعرف لهم أتباعًا ونأتى بعد ذلك إلى خاتم الأنبياء رسول الله ﷺ فقد أعطاه الهدى الذى يقتدى به خلق الله كلهم .

حين جاءت كلمة عيسى وقف العلماء عند قول الله سبحانه : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ [الأنعام : ٨٤] أى من ذرية إبراهيم وهل عيسى من ذرية أحد؟ نعم، العنصر البشرى فى عيسى، وهو الأم مريم عليها السلام من ذرية إبراهيم .

---

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال: « خيرت بين أن أكون ملكا نبيا أو نبيا عبدا، فقيل لى تواضع فاخترت أن أكون نبيا عبدًا. . .». الحديث. وقال: رواه البزار والطبرانى فى الأوسط، ورجال البزار ثقات .
[مجمع الزوائد ٩/ ١٩٥]

وهذا ما احتج به أبو جعفر محمد الباقر حين قال له الناس فى موسم الحج: أنتم تدعون أنكم من نسل رسول الله، مع أن رسول الله ﷺ لم ينجب ذكورًا ؟ قال لهم: كأنكم لم تقرأوا القرآن، فى قول الحق ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ إلى أن تصل إلى ﴿عِيسَىٰ﴾، وعيسى ولد بغير ذكورة، وبأنوثة فقط، إذن فنحن من ذرية محمد ﷺ.

رب اجعل هذا بلدا آمنا

الحق عز وجل يقول: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ [إبراهيم: ٣٥] القرآن نزل من أجل إعلام سادة قريش الذين يجلسون فى الكعبة، ولهم السيادة على الجزيرة ولهم المهابة التى تجعلهم يذهبون إلى رحلة اليمن، فلا يتعرض لهم أحد، ورحلة الشام ولا يمسهم أحد بسوء لماذا؟ لأن لهم مهابة، والمهابة جاءت لهم من البيت . جاء القرآن فصرخ فى آذانهم وتكلم الحق سبحانه وتعالى عن النعمة العامة لكل كائن موجود تنتظر أذنه نداء الإسلام فتحدث عن النعم الكلية.

ثم بعد ذلك تناول هؤلاء الخاصة من قريش فذكرهم بالنعم التى أنعم الله بها ، عليهم فأنتم يا من تكفرون بمحمد وتعاندونه، اذكروا حين قال إبراهيم: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾[1] [البقرة: ١٢٦] لأن ﴿ إِذْ ﴾ إذا سمعتها تكون ظرفًا

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : خرجنا مع نبى الله ﷺ (أظن أنه قال) حتى قدمنا عسفان، فأقام بها ليالى، فقال الناس: والله! ما نحن هـهنا فى شىء ، وإن عيالنا لخلوف، ما نأمن عليهم، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : «ما هذا الذى بلغنى من حديثكم؟ (ما أدرى كيف قال؟) والذى أحلف به، أو والذى نفسى بيده! لقد هممت أو إن شئتم (لا أدرى أيتهما قال) لآمرن بناقتى ترحل، ثم لا أحل لها عقدة حتى أقدم المدينة».
وقال : «اللهم إن إبراهيم حرَّم مكة فجعلها حرمًا، وإنى حرمت المدينة حرامًا، ما بين مأزميها، أن لا يهراق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال ولا يخبط فيها شجرة إلا لعلف، اللهم بارك لنا فى مدينتنا، اللهم بارك لنا فى صاعنا، اللهم بارك لنا فى مدنا. اللهم بارك لنا فى صاعنا اللهم بارك لنا فى مدنا. اللهم بارك لنا فى مدينتنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين، والذى نفسى بيده، ما من المدينة شعب ولا نقب إلا عليه ملكان يحرسانها حتى تقدموا إليها». ثم قال للناس: «ارتحلوا» فارتحلنا، فأقبلنا إلى المدينة، فوالذى نحلف به، أو يحلف به (الشك من حماد) ما وضعنا رحالنا حين دخلنا=

= المدينة، حتى أغار علينا بنو عبد الله بن غطفان، وما يهيجهم قبل ذلك شيء" .
أخرجه مسلم برقم [١٣٧٤] اللفظ له ، والطحاوى فى شرح معانى الآثار [٤/ ١٩٢]، وأحمد فى المسند [٣/ ٢٣].
ومن حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبى ﷺ فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال : «اللهم بارك لنا فى ثمرنا، وبارك لنا فى مدينتنا، وبارك لنا فى صاعنا، وبارك لنا فى مدنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإنى عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإنى أدعوك للمدينة، بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه» قال: ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر. أخرجه مسلم [١٣٧٣] واللفظ له ، والترمذى [٣٤٥٤] والنسائى فى الكبرى [١٠١٣٤ بندرى] وابن السنى [٢٨٠] وأحمد فى المسند [٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١].
ومن حديث عبد الله بن زيد بن عاصم، أن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإنى دعوت فى صاعها ومدها، بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة » .
أخرجه مسلم [١٣٦٠] واللفظ له ، وقد جاء تحريم المدينة من طريق عدد من الصحابة منهم : أنس. أخرجه البخارى [٢٨٨٩ ، ٢٨٩٣ ، ٣٣٦٧ ، ٤٠٨٤ ، ٧٣٣٣] ، ومسلم [١٣٦٥]، ومالك فى الموطأ [٢/ ٨٨٩] وأحمد فى المسند [٣/ ١٤٩، ١٥٩، ٢٤٣, ٣٩٣] والترمذى [٣٩٢٢] وأبو يعلى رقم [٣٧٠٢] والطحاوى فى شرح معانى الآثار [٤/ ١٩٣] والبيهقى فى السنن [٥/ ١٩٧] والدلائل [٤/ ٢٢٨].
شرح الغريب :
* وإن عيالنا لخلوف : ليس عندهم رجال ولا من يحميهم.
* ترحل : أى يشد عليها رحلها.
* ثم لا أحل لها عقدة : معناه أواصل السير ولا أحل عن راحلتى عقدة من عقد حملها ورحلها حتى أصل إلى المدينة، لمبالغتى فى الإسراع إلى المدينة.
* إنى حرمت المدينة حرامًا : جعلت حرامًا ما بين.
* ما بين مأزميها : المأزم هو الجبل ومعناه ما بين جبليها.
* لعلف : العلف اسم الحشيش والتبن والشعير ونحوها.
* شعب ولا نقب : الشعب : الفرجة النافذة بين الجبلين، وقيل الطريق فى الجبل، والنقب : مثل الشعب وهو الطريق فى الجبل قال الأخفش : أنقاب المدينة طرقها وفجاجها. =

بمعنى اذكر ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ ساعة تأتى آية فى القرآن لابد أن تبحث عن نظائرها فى الأسلوب حتى تستطيع أن تجعل لكل وضع فى آية معناها الحقيقى الذى لا يصطدم بالآية الأخرى ، ولذلك قد يقول قائل: فى سورة البقرة قال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ وهنا يقول ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وما دام الذى يتكلم هو الله ، فلابد أن يكون الكلام بميزان .

نقول له: نعم كلمة بلد ماذا تعنى؟ هذا بلد، وهذا كَفْر، وهذه عزبة، وهذه ضيعة ، هذه التسمية كيف جاءت؟ البلد: هو الذى يقيم فيه الإنسان ويجد فيه حاجاته ومتطلباته وأول هذه الحاجات والمتطلبات أن تكون وسائل الرزق فيه ميسرة، وأن يكون فيه أمن، فلا يكون فى منطقة فيها وحوش، أو أعاصير ولا تكون فيها هبَّات الرمال الزاحفة التى تطمر الأماكن والبيوت، فلابد أن تكون منطقة فيها مقومات الحياة ومقومات الأمن، هذه أسماها (بلد)[1].

فنبى الله إبراهيم حينما دعا: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] أى أن يجعله بلدًا ويريد له وصف أنه آمن ، فالله سبحانه وتعالى أجاب دعاء خليله

= * ما وضعنا رحالنا حين دخلنا المدينة .. إلخ : معناه أن المدينة فى حال غيبتهم عنها كانت محمية محروسة كما أخبر النبى حتى أغار بنو عبدالله بن غطفان ..

* ما يهيجهم : ما يحركهم شىء.

* صاعها ومدها : أى فيما يكال بهما ؛ لأن الدعاء إنما هو للبركة فى الطعام المكيل لا فى المكاييل، والمد مكيال دون الصاع.

(١) جاء فى لسان العرب [٣/ ٩٤] : البلدة أو البلد : كل موضع أو قطعة مستحيزة عامرة كانت أو غير عامرة ، الأزهرى : البلد كل موضع مستحيز من الأرض ، عامر أو غير عامر ، خال أو مسكون ، فهو بلد والطائفة منها بلدة ، وفى الحديث : أعوذ بك من ساكن البلد. البلد من الأرض : ما كان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء ، وأراد بساكنه الجن ؛ لأنهم سكان الأرض، الجمع بلاد وبلدان . والبلدان : اسم يقع على الكور ، قال بعضهم : البلد جنس المكان كالعراق والشام ، والبلدة الجزء المخصص منه كالبصرة ودمشق ، والبلد مكة تفخيمًا لها كالنجم للثريا والعود للمندل.

إبراهيم حين قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ فجعله بلدًا بالفعل، وجعله آمنًا أمنًا عامًا ؛ لأن الإنسان فى أى بقعة من الأرض، لا يتخذ مكانًا يقيم فيه إلا إذا ضمن لنفسه أسباب الأمن من مقومات الحياة، وعدم الخوف، وهذا أمن مطلوب لكل مكان ولكل إنسان فى أى أرض، فإبراهيم عليه السلام حين جاء إلى هذا المكان قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ وكلمة ﴿هَذَا﴾ لا تشير إلى البلد ؛ لأنه لم يكن قد وجد بعد ، وإنما تشير إلى المكان الذى نزل فيه الخليل إبراهيم وهو وادٍ غير ذى زرع، وليس فيه شىء من مقومات الحياة فقال يا رب اجعله بلدًا آمنًا، مثل الأمن الذى تجعله على الناس كلهم لكن الدعاء الثانى قال فيه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

هذا الدعاء جاء بعد أن صار بلدًا، ولكن لماذا قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ مع أن الأمن تحقق مع الدعوة الأولى؟ نقول: هذا الأمن الذى يطلبه الخليل إبراهيم للبلد الحرام، هو أمن خاص يتميز به عن كل بقاع الأرض.

ففى غير هذا المكان يقطع الناس الأشجار كما يريدون، ويصطادون الحيوان والطير كما يشاءون ، ولكن فى هذا البلد جعل الله الأمن يشمل الأشجار فلا تقطع، والحيوان فلا يصطاده أحد ، وحتى فاعل الجريمة لا يتعرض له أحد مادام فى كنف البلد الحرام.

فالرجل كان يلقى قاتل أبيه فلا يقربه حتى يخرج منه ، إذن فهذا أمن خاص. ومن هنا عرفنا أن هذ دعاء، وهذا دعاء، الأول دعاء أن يصير هذا المكان المقفر بلدًا آمنًا أمنًا عامًا مثل أى بلد آخر، أما فى الثانى وبعد أن صار بلدًا آمنًا أمنًا عامًا طلب إبراهيم من ربه أن يجعله آمنًا أمنًا خاصًا كما ذكرنا .

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ لماذا قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ﴾ ولم يقل يا الله؟ لأن الرب هو الخالق والمربى وهذه من ضمن المطلوبات ؛ لأن الإله عطاؤه تكليف ولذلك حين يقول: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فمعنى ذلك يا رب

أعطنا من عطاء الربوبية ما يقيم حياة القائمين ليقيموا الصلاة، إذن فالله سبحانه استجاب لدعاء إبراهيم وجعله بلدًا آمنًا ، أمنًا عامًا وأمنًا خاصًا.

بعض الناس ممن لا يفهمون يقولون : هذا الأمن لم يتحقق بدليل أن بعض الأحداث وقعت فى الحرم ولم يأمن الناس فيه نقول لهم : هذا الدعاء ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ هل معناه أن يجعله جعلا كونيًا أو جعلا تكليفيًا وشرعيًا ؟ لأن هناك فرقًا بين الأمر الكونى الذى لا يتخلف ، والأمر التكليفى الذى هو عرضة لأن يطاع أو يعصى.

إذن فهو أمر تكليفى بمعنى يا مسلمون ، من يدخل هذا البلد اجعلوه آمنًا ولذلك لما وقعت بعض الأحداث فى الحرم ظن الناس أن هذا يتناقض مع قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ . لأن الذين دخلوا الحرم لم يكونوا آمنين وصاروا مفزَّعين وتعرضوا للقتل نقول: غم عليكم أن تفهموا أن الأمن هنا ليس أمرًا كونيًا، ولو كان أمرًا كونيًا فلن يتخلف أبدًا ، ولكنه أمر شرعى تكليفى. والأمر الشرعى عرضة لأن يطيعه الناس أو يعصوه.

إذن فقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ معناه أننا شرعنا وكلفنا بأن يكون هذا المكان حرمًا آمنًا ، مثلما يقوم رجل عند شعوره بالموت بجمع أولاده ويوصيهم قائلا: هذا بيت يكرم فيه من دخله، أى أكرموا من يأتيكم من الضيوف كما عودتكم، فهل هذا أمر نافذ بالفعل؟ لا ، ولكنه يعطيهم رغبته ووصيته ربما نفذها البعض وتركها الآخرون.

إذن فهناك فرق بين الأمر التكليفى والأمر الكونى ، والذين تعرضوا لهذه المسألة لم يفرقوا بينهما وبالنسبة لقوله ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] فإياك أن تظن أنه كائن كينونة كونية لا، وإنما المعنى من دخله فأمنوه.

* واجنبني وبني أن نعبد الأصنام *

يقول سبحانه : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ هذه من التنبؤات ، إن المكان لم يحدث فيه شىء بعد فما معنى قوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ هذه التنبؤات تعطينا مناعة ، وتحذرنا من أنه سيحدث شرك وعبادة أصنام ، فيا رب جنبنا هذه المعاصى التى ستأتى بعد ذلك على يد عمرو بن لحى بعد نبى الله إبراهيم بزمن، وهذه التنبؤات من علامات نبوءة إبراهيم، وهنا ربما يقول قائل : كيف يطلب إبراهيم من ربه أن يجنبه عبادة الأصنام مع أنه نبى، والأنبياء معصومون من ذلك ؟ نقول له : وهل العصمة تمنع الإنسان من أن يدعو ربه بدوام ما هو عليه؟ فربنا سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] فما داموا قد آمنوا فكيف يقول لهم ﴿آمِنُوا﴾ ؟

نقول : إن معنى هذا هو المداومة على الإيمان والطاعة ، ومع ذلك فقد عرض ربنا هذه القضية القرآنية فى قصة نبى الله شعيب حين قال: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] فأنت لا تدرى ما يفعل الله بك غدًا ؟ لأن هذه طلاقة قدرة، والضراعة إلى المنعم مطلوبة فليس معنى أنه أنعم عليك بهذه النعم أنك ملكتها ، وكونها لا تزال بيد الله عز وجل فعليك بالضراعة إلى الله ليحفظ عليك نعمه. قوله سبحانه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] هناك صنم ، وهناك وثن فالذى يكون على هيئة إنسان مثلا فهو صنم والذى يكون مجرد حجر: فهو وثن(١) ، كما أن الشرك نوعان

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون =

شرك جلى وشرك خفى، الشرك الجلى هو أن تجعل لله ندًا وشريكًا له فى ملكه، أما الشرك الخفى فهو أن تحترم السبب بشدة وتعطيه فوق ما يستحق[1]،

= الخزاعى : « يا أكثم رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف يجر قَصَبَهُ فى النار، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ، ولا بك منه » فقال أكثم : عسى أن يضرنى شبهه يا رسول الله ؟ قال : «لا ، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامى».

أخرجه ابن هشام فى السيرة [٧٦/١] بإسناد حسن، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث فزالت شبهة التدليس وقد جاء من حديث أبى هريرة مختصرًا عند البخارى [٤٦٢٣] ومسلم [٢٨٥٦]، وأحمد فى المسند [٢/ ٢٧٥ ، ٣٦٦] وأخرج الحديث بطوله الحاكم [٤/ ٦٠٥] وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «أول من غير دين إبراهيم عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف أبو خزاعة».

أخرجه الطبرانى فى الكبير [١٠٨٠٨] وفى الأوسط برقم [٢٠٣][١/ ١٦١]، وقال الهيثمى فى المجمع [١/ ١٢١]: رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، وفيه صالح مولى التوأمة، وضعفه بسبب اختلاطه، وابن أبى ذئب سمع منه قبل الاختلاط، وهذا من رواية ابن أبى ذئب عنه والإسناد حسن والله أعلم، وله شاهد من الحديث الذى قبله.

شرح الغريب :

* السائبة : الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر، سيبت فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها ثم خلى سبيلها مع أمها فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف كما فعل بأمها فهى البحيرة بنت السائبة.
* البحيرة : بنت السائبة.
* الوصيلة : الشاة إذا أتأمت عشر إناث متتابعات فى خمسة أبطن ليس بينهن ذكر، جعلت وصيلة، قالوا : قد وصلت ، فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون الإناث، إلا أن يموت منها شىء فيشتركوا فى أكله ذكورهم وإناثهم.
* الحامى : الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره فلم يركب، ولم يجز وبره، وخلى فى إبله يضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك.

(١) الشرك الجلى : أن تدعو لله ندًا ، أو تجعل مع الله ندًا ، أى شريكًا ، قال تعالى ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] . =

ولا يصح أن يكون إبراهيم من هؤلاء وقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ مع أن الذين جاءوا بعد إبراهيم، وهم المخاطبون بهذا الكلام عبدوا الأصنام، أما قوله ﴿وَبَنِيَّ﴾ فمعناه : الذين يصلون إلى مرتبة الرسالة والنبوة مثلى ، وقد يكون الذين من ذرية إبراهيم لم يعبدوا الأصنام ، وإنما عبدوها غيرهم فهذا جائز وهذا جائز.

= قال ابن كثير : يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه فى جميع الحالات فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا من مخلوقاته . تفسير ابن كثير [١/٤٦٨].

وعن عبد الله قال : سألت رسول الله ﷺ : أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : "أن تجعل لله ندًا وهو خلقك" قال : قلت له : إن ذلك لعظيم، قال : قلت : ثم أى ؟ قال: "ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك" قال : قلت : ثم أى ؟ قال : "ثم أن تزانى حليلة جارك" أخرجه مسلم [٨٦].

والشرك الخفى : سُمى خفيًا لأن صاحبه يُظهر أن عمله لله وقد قصد به غيره.

[فتح المجيد ص ٣٥٩]

وعن أبى سعيد الخدرى قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال : : "ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال ؟ قال : قلنا : بلى ، فقال : الشرك الخفى أن يقوم الرجل يصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل" أخرجه ابن ماجه [٤٢٠٤] ، وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٣٣٨٩].

❊ كفالة الرزق للمؤمن والكافر ❊

يعلمنا الحق عن سيدنا إبراهيم كيف أدبه ربه، وجاء إبراهيم ليطلب سعة الرزق لأهل بيته الذين جعل إقامتهم مكة قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ ﴾ [البقرة:١٢٦] إن إبراهيم عليه السلام يطلب الرزق للمؤمنين بالله فقط من ذريته ، وهنا نتوقف عند درس يلقيه الله علينا جميعًا من خلال إبراهيم عليه السلام. إن الحق ينبه إبراهيم عليه السلام إلى أن فى هذا القول مخالفة ، فالرزق ليس حقًا لمن آمن فقط. إن الحق يتكلم عن أهلية المنهج ، ورزق أهل الأرض كافرهم ومؤمنهم هو اقتيات الحياة، واقتيات المؤمن والكافر مكفول من الله لماذا؟ لأن الله هو الذى خلق المؤمن والكافر.

لذلك قال الحق: ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ إن الحق هنا يعلم إبراهيم ومن خلاله كل الخلق، أن الرزق مكفول لمن آمن ولمن كفر.

إن الاقتيات المادى حق لكل الخلق لذلك فلا يصح أن نخلط بين الاقتيات المادى وبين الإيمان، لذلك قال الحق: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ لكن عذاب الكفر له ميعاد آخر، لذلك فأولى الناس بإبراهيم عليه السلام ليس من انحدر من سلالته. لكن ما ينطبق عليه قول الحق ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨] إن أولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه واتبعوا النبىّ محمدًا ﷺ . والذين اتبعوا رسول الله ﷺ هم أولى الناس بإبراهيم،

لذلك فالحق ينبه أهل الكتاب بأنهم ليسوا أبناء إبراهيم . ولا أولى الناس به وإنما أولى الناس بإبراهيم وأجدر الناس به وأحقهم فى النسب إليه هم الذين اتبعوه، وهذا النبىّ محمد ﷺ، والذين آمنوا برسالته ﷺ ، والله ولى المؤمنين جميعًا.

* هجرة إبراهيم وهاجر إلى مكة *

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] التعبير هنا أن هذا الوادى لا يصلح فيه الزرع ؛ لأنه أرض صخرية ولو أنها كانت أرضًا رملية أو نصف رملية مثلا لكان من الممكن أن نستصلحها ونزرعها إذن قوله: ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ أى لا أمل فى المجهود الإنسانى لزراعتها ولا يوجد إلا العطاء الربانى، ولكن هل سيدنا إبراهيم هو الذى اختار هذا المكان القفر الذى لا زرع فيه ولا ماء ولا حياة؟ أو أن الله هو الذى اختار له هذا المكان؟[1]

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبلُ أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل - وهى ترضعه - حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء ، فقالت له ذلك مرارًا ، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : "نعم" قالت : "إذن لا يضيعنا" ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال :﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] .
وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدًا ، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت =

= المروة فقامت عليها ، فنظرت هل ترى أحدًا ، فلم تر أحدًا ، ففعلت ذلك سبع مرات .
قال ابن عباس: قال النبى ﷺ : « فذلك سعى الناس بينهما » .
فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت : صه ـ تريد نفسها ـ ثم تسمعت أيضًا فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعدما تغرف .
قال ابن عباس: قال النبى ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال : لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عينًا معينًا » .
قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فإن هاهنا بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ـ أو أهل بيت من جرهم ـ مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائرًا عائفًا ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريًا أو جريين فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا ـ قال وأم إسماعيل عند الماء ـ فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ فقالت : نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء . قالوا : نعم . قال ابن عباس: قال النبى ﷺ : « فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الإنس » فنزلوا ، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم ، وانفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشرٍّ ، نحن فى ضيق وشدة ، فشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا ، فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا ، فأخبرته أنَّا فى جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك .
قال ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، الحقى بأهلك ، فطلقها وتزوج منهم أخرى .
فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله ، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : =

بالإقامة فيه ولذلك قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ عبارة ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ هى حيثية الرضا بالتكليف

= فما شرابكم؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء .
قال النبى ﷺ : « ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ » ولو كان لهم دعا لهم فيه ، قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، ومُريه يثبت عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ـ وأثنت عليه ـ فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنَّا بخير ، قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى وأنت العتبة، أمرنى أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله . ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولد بالوالد . ثم قال : يا إسماعيل ، إن الله أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك . قال : وتعيننى ؟ قال: وأعينك . قال : فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتًا ـ وأشارا إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ـ قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له . فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ . انتهى .

أخرجه البخارى [٣٣٦٣، ٣٣٦٤، ٣٣٦٥] واللفظ له. والنسائى فى الكبرى [١/٨٣٧٩]
وفى حديث أبى جهم : « كان إبراهيم يزور هاجر كل شهر على البراق يغدو غدوة فيأتى مكة ، ثم يرجع فيقيل فى منزله بالشام » قال الحافظ فى الفتح [٧/٥٦] : وروى الفاكهى من حديث على بإسناد حسن نحوه .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «فناداها جبريل فقال : من أنت ؟ قالت : أنا هاجر أم ولد إبراهيم، قال : فإلى من وكلكما ؟ قالت : إلى الله قال : وكلكما إلى كاف». أخرجه الطبرى بإسناد حسن كما قال الحافظ فى فتح البارى [٧/٥٣].

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : "لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل، ومعهم شنة فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها=

فكأنه أحب هذا المكان رغم قفره ، طاعة لله سبحانه. مثلما تقول لأحد: اذهب إلى مكان كذا لتقابل فلانًا فيقول لك: يا أخى المكان بعيد ، والمواصلات صعبة ، ولكن سأذهب من أجل فلان هذا ؛ لأنى أحبه وأتمنى خدمته.

إذن فهناك أمر تكليفى سينفذ بعشق وسيأخذ صاحبه ثوابين ثواب حب التكليف وثواب القيام بالتكليف.

وحب التكليف مثل الرجل الذى قال : اللهم إنى عصيتك ، ولكنى أحب من يطيعك، فاجعلها قربة لى ؛ لأنه يفرح بتنفيذ التكليف ولو من غيره ؛ لأن فى تنفيذه حتى من غيره مصلحة له ؛ ولذلك فإن ربنا سبحانه حين علمنا أن نناجيه فى فاتحة الكتاب فى أول الصلاة قال سبحانه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ١ - ٥] ومع أن المصلّى الذى يقرأ الفاتحة فى الصلاة فرد وليس مجموعة، فإنه لم يقل إياك أعبد؟ وإنما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فحشر نفسه فى زمرة العابدين ؛ لعل الله يقبلهم من أجل واحد

= على صبيها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة، ثم رجع إبراهيم إلى أهله فاتبعته أم إسماعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه : يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال : إلى الله قالت : رضيت بالله . . "

وفى لفظ آخر : " . . فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء ، فقالت له ذلك مرارًا ، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم، قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت . . ".

أخرجه البخارى [٣٣٦٣ ، ٣٣٦٤ ، ٣٣٦٥] واللفظ له ، والنسائى فى الكبرى [٨٣٧٩ ، ٨٣٨٠] ، والبيهقى فى الدلائل [٢/ ٤٧ - ٥٢] .

وقد عزاه الحافظ فى النكت الظراف على الأطراف [٤/ ٤٣٩]، لسعيد بن داود فى تفسيره، وللطبرى فى تفسيره [١٣/ ١٥٣ - ١٥٤]

وأما فى فتح البارى [٧/ ٥٠ - ٥١] فقد عزاه لابن السكن والإسماعيلى والفاكهى والأزرقى وعمر بن شبه فى كتاب مكة، وأبو نعيم فى المستخرج.

فيهم، فتكون الصفقة رابحة فكأنه يقول : يا رب اقبلنى وأنا عاص من أجل هذا الجمع من عبادك الصالحين، ولذلك فإنهم يقولون : إن الذى يفعل معصية لا يغضب من الطائعين بل يفرح بهم ؛ لأن فرحته بالطائعين دليل على حب التكليف لكنه لا يقدر على نفسه فكأنه يقول : مادمت أحب التكليف ؛ فيا رب أكرمنى من أجل ذلك . لماذا نقول هذا الكلام؟ لأن قوله ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ يعنى أن إبراهيم لم يأت إلى هذا المكان من نفسه وإنما جاء تنفيذًا لأمر الله سبحانه وتعالى، ولذلك ستقول له زوجته بعد ذلك : ما الذى جاء بك إلى هذا المكان؟ هل هو أمر ربك؟ أو من عندك؟ فيقول لها : ربنا هو الذى أمرنى بهذا . فتقول له : مادام الله هو الذى أمرك بهذا فلن يضيعنا.

أما معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فمعناه أن هذه ليست شهوة سياحة، وإنما ليقيموا الصلاة، فمادام هذا المكان هو بيت الله المحرم فلابد أن يعبد فيه . ربما يقول أحد: بيوت ربنا كثيرة، فنقول له : هناك فرق بين بيت الله باختيار خلق الله، وبين بيت الله باختيار الله ، فإن خلا بيت من بيوت الله التى أقيمت باختيار خلقه فليس هذا كما يخلو بيت لله باختيار الله. فبيت الله باختياره يجب أن تتصل فيه العبادة.

إذن فالحيثية أننا نأخذ أمر الوجود فى هذا المكان الذى ليس فيه من أسباب الحياة ولا مقوماتها شىء ، على أن الله أمر وما دام قد أمر فلماذا فى هذا المكان بالذات؟

قال : لأن هذا بيت باختيارى ولا يصح أن يخلو من مصلين وعابدين لى ولذلك أرى ألا نمكن أحدًا من الإقامة فى هذا البيت إلا العابدين الموجودين للعبادة فقط، فإن جربنا على أحدهم معصية واحدة نقول له : لا تسكن فى هذا البلد ونعمل سياجًا حول الحرم فمن يريد أن يعيش عيشة حرة يخرج منه

لأن هذا المكان كما قال الحق سبحانه: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ وما دام قد قال: ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ فلابد لمقيم الصلاة من إقامة حياة، والمقوِّم الأول فيها أن يأكل ويشرب لذلك قال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أفئدة جمع فؤاد ، والفؤاد : هو القلب ، والأفئدة تطلق على الطائفة أيضًا.

لكن ما علاقتها هنا (بالفؤاد) الذى هو القلب؟ قالوا : لأن الهوى فى الحجيج هوى قلوب، وليس هوى جيوب. فالإنسان يكون غير قادر على نفقات الحج، ومع ذلك يحرم نفسه ويستدين حتى يحج.

فالفريضة الوحيدة التى يدخل الناس أنفسهم فيها وهم غير مطالبين بها هى الحج، تجد الإنسان غير مستطيع ماليًا ومع ذلك يظل سنوات يحرم نفسه ويدخر حتى يحقق رغبته فى أداء الحج. إذن فهى مسألة قلوب وبذلك تتضح علاقتها بقوله ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ وكلمة ﴿تَهْوِي﴾ (الهاء والواو والياء) لها معان متعددة .

(هَوِى يهوَى) بالكسر أى : سقط على مكان ولا إرادة له فى السقوط فساعة يسقط حجر من أعلى كأنه مقهور على السقوط. إنما (هوَىَ يَهوَى) بالفتح بمعنى : أحب إذن : فهذا ميل قلوب، وذلك ميل قوالب وقوله سبحانه: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ يعنى أنهم سيكونون فى مكان ليس فيه زرع ولا شىء من مقومات الحياة.

ومع ذلك فقد شاءت إرادة الله أن يكون هذا المكان القاحل المقفر، شيئًا آخر تمامًا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] فكانت كل خيرات الدنيا تأتى إلى هذا المكان حتى قبل أن يُكتشف البترول ويَعُم الخير، وإياك أن تفهم أن ذلك باختيار الذين يأتون البيت الحرام ؛ لأن الله قال: ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وكلمة ﴿يُجْبَىٰ﴾ كأنها جباية أى أمر مفروض ففى الطائف مثلا أنواع كثيرة من الفاكهة والثمار حينما

تذهب إلى السوق لتشترى يقولون لك : هذه ثمار مكة ، اشتراها من مكة شىء عجيب!! وقوله سبحانه ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كلمة ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ هذه إن جعلتها فى الثمرات فإنك إن سافرت إلى البلد الحرام تجد فيه فاكهة الشتاء موجودة فى الصيف ، وفاكهة الصيف موجودة فى الشتاء وهكذا.

لأن هذه الثمار جاءت لها من كل بقاع الأرض فهى نتيجة كل البيئات والأجواء ، ليس ذلك فقط بل هى الآن تنمو بالنمو الحضارى لأن ثمرات العقول المفكرة تذهب إلى هناك حتى أنهم جعلوا من مدينة جدة، المدينة النموذجية فى العالم فهذه ثمرات الأفكار وثمرات التخطيط والهندسة والإمكانات . كنا فى الماضى حين نذهب للحج نأخذ الزاد والملح والإبرة والخيط ولكن بعد ذلك حين ذهبنا ومكثنا فى البعثة أصبحنا نأتى بكماليات الحياة من هناك من مكة فقوله سبحانه: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ . قال بعض الصالحين : لو قال الحق سبحانه فاجعل أفئدة الناس أو قال: فاجعل الناس يهوون إليهم لو كان النص كذلك لما وُجِد لأحد به مكان ولو لم يقل ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ لكان النصارى واليهود يذهبون ليحجوا ثم يقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ بعد أن اطمأن على أنه أصبح بلدًا، وتحقق له الأمن العام والأمن الخاص، واطمأن على أنه سيأتيه الرزق، والخيرات عاودته الدوافع إلى المجىء لهذا المكان ؛ لأنه سيترك زوجته هاجر وابنها إسماعيل فأصبح مشغولا بهما ولذلك قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ .

الضمير هنا بالجمع وبعض المفسرين يقول: قوله : ﴿تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ . أى : ما أخفى من الحب لهاجر وإسماعيل ، وما نعلن أى من الجفاء أمام

سارة لهاجر وابنها كأن المعانى النفسية عاودته عندما هم بالرحيل نقول له: قوله: ﴿مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ دليل على أنها ليست مسألة سهلة أن يترك هاجر ووليدها فى مكان ليس فيه زرع ولا ماء ولا بشر.

فهى مسألة صعبة على النفس ولذلك فإن هاجر صبرت مدة طويلة لم تسأل إبراهيم عن شىء حتى هم بالرحيل فقالت له : كيف ستتركنا فى هذا المكان؟ هل هذا من رأيك أو أمر ربنا؟ فقال لها : ربنا هو الذى أمر فقالت له إذن فلن يضيعنا.

وتأكدت لها هذه المسألة عمليًا ؛ فيعطش ابنها وينفد الماء الذى فى السقاء ، ويتألم الرضيع من العطش فماذا تفعل؟ تقوم بمجهود بشرى، نظرت إلى الوادى، جبال هنا وهناك فتجرى إلى الجبل لعلها ترى شجرة عندها ماء أو أحدًا قادمًا معه ماء، فقصارى ما تفعله امرأة فى هذه السن أن تجرى بين الصفا والمروة سبع مرات هذا أكمل مجهود بشرى، ولكن هذا المجهود البشرى لم يأت بنتيجة ، وبعد هذا التعب وجدت الماء عند قدمى وليدها.

إذن فصدق قولها: لن يضيعنا، وإلا فلو أنها وجدت الماء عند الصفا أو عند المروة لما كان لقولها لن يضيعنا، مدلول ولكنها أخذت بالأسباب ولم تجد الماء ، ثم وجدته عند قدمى إسماعيل.

❋ أول بيت وضع للناس ❋

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦]
إن بعض الناس يظن أن إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى البيت. ولمثل هذا القائل نرد: لنفهم القرآن معًا. إن مثل هذا القول يناقض القرآن ؛ لأن القرآن قد قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ وهذا يوضح أن إبراهيم كان من قبله أناس سابقون له. إذن فكيف لا يكون للناس من قبل إبراهيم بيت ، وكذلك للناس من بعد إبراهيم(١).

---

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول؟ قال : «المسجد الحرام»، قال : قلت : ثم أى؟ قال : «المسجد الأقصى»، قلت : كم كان بينهما؟ قال : «أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله، فإن الفضل فيه» أخرجه البخارى برقم [٣٣٦٦ ، ٣٤٢٥] واللفظ له ، ومسلم برقم [٥٢٠]، وابن ماجه برقم [٧٥٣]، والبيهقى فى الدلائل [٢/ ٤٤]، وأحمد فى المسند [٥/ ١٥٠].
وعن خالد بن عرعرة قال : سأل رجل عليا رضى الله عنه، عن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركًا ، هو أول بيت وضع فى الأرض؟ قال : لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة والهدى، ومقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنًا ، وإن شئت أنبأتك كيف بناؤه. "إن الله تبارك وتعالى ، أوحى إلى إبراهيم عليه السلام : أن ابن لى بيتًا فى الأرض، فضاق به ذرعًا ، فأرسل الله عز وجل إليه السكينة، وهى ريح خجوج لها رأس ، فأتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت ثم تطوقت إلى موضع البيت تطوق الحية، فبنى إبراهيم، فكان يبنى هو ساقًا كل يوم، حتى إذا بلغ مكان الحجر، قال لابنه: ابغنى حجرًا فالتمس ثَمَّ حجرًا حتى أتاه به، فوجد الحجر الأسود قد ركب، فقال له ابنه : من أين لك هذا؟ قال : جاء به من لم يتكل على بنائك، جاء به جبريل عليه السلام، من السماء فأتمه. قال : فمر عليه الدهر، فانهدم، فبنته العمالقة، قال : فمر عليه الدهر، فانهدم، فبنته جرهم، فمر عليه الدهر، فبنته قريش، ورسول الله ﷺ، يومئذ رجل شاب، فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه، فقالوا نُحكِّمُ بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة، فكان رسول الله ﷺ، أول من خرج عليهم، فقضى بينهم أن يجعلوه فى مرط، ثم ترفعه جميع القبائل كلهم» .
خجوج : شديدة . =

إن الذين كانوا يعيشون قبل مجيئ إبراهيم عليه السلام لهم نفس الحقوق عند الله التى وضعها لمن بعد إبراهيم ؛ لذلك فلابد أن الله قد جعل بيته لهم، والنص القرآنى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ وما دام قد جاء الفعل مبنيًا للمجهول فواضعه غير الناس. هل هم الملائكة؟ قد يصح ذلك ، وأن يكون الملائكة قد تلقوا الأمر من الله بمزاولة هذا البناء ، لكن قول الحق: ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ فهذا البيت أيضًا هدى للملائكة لأنهم عالم، وهذا يعنى أن البيت قد وضعه الله من قبل ذلك ، ولا أحد يقدر أن يصنع الكون على قدر العقل البشرى.

إن على العقل البشرى أن يكون فى ركاب الكون ، وإياك أن تجعل أيها المؤمن الكون فى ركاب عقلك، أما مسألة أن إبراهيم قد بنى الكعبة فهذا عدم فهم للنص القرآنى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] ما هو الرفع؟ فى الآية إيجاد بعد الارتفاع، فأين الطول والعرض؟ إن وجود الطول والعرض سابقان للارتفاع دليل على وجود البيت قبل أن يقيم إبراهيم عليه السلام ارتفاع

= أخرجه الحاكم فى المستدرك [٢/٢٩٣] ، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى، وأخرجه ابن جرير فى التفسير [٣/٦٩، ٧١]، والبيهقى فى الدلائل [٢/ ٥٥ ، ٥٦]، والأرزقى فى تاريخ مكة [١/ ٢٤، ٢٥]. وزاد السيوطى عزوه فى الدر [١/١٢٦] ، لابن أبى شيبه وإسحاق بن راهويه فى مسنده وعبد بن حميد ، والحارث بن أبى أسامه وابن أبى حاتم.

وقد صححه ابن حجر رحمه الله فى فتح البارى [٧/ ٦٢] بقوله : أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبى حاتم ، وغيرهما بإسناد صحيح.

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : "جاء إبراهيم عليه السلام فوجد إسماعيل يصلح له بيتًا من وراء زمزم فقال له إبراهيم : يا إسماعيل إن ربك قد أمرنى ببناء البيت، فقال له إسماعيل : فأطع ربك فيما أمرك، قال : فأعنّى عليه، قال : فقام معه فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة، ويقولان : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أخرجه الحاكم فى المستدرك [٢/٥٥٢]، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبى وله شواهد من الأحاديث التى قبله.

البيت. إذن فالذى كان مطموسًا هو القواعد والارتفاع، إن وجود الطول والعرض هو الذى يحدد المكان أما البنية فهى التى تحدد (المكين) وعندما انهدم البيت الحرام، كان الناس يتجهون إلى نفس المكان. وعندما نصلى نحن فى الطابق الثالث فى الحرم فإننا نتجه إلى الهواء الموجود من فوق الكعبة، ولو حفرنا نفقًا تحت الأرض بألف متر ، وأردنا أن نصلى فإننا سنتجه إلى أساس الكعبة. إذن فجو الكعبة (كعبة) فعمل إبراهيم عليه السلام كان فى إيجاد المكين لا المكان، لقد رفع البيت.

ولتقرأ بالفهم الإيمانى ما حدث لإبراهيم عليه السلام، لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل وخرج بهما ليضعهما فى هذا المكان ، فماذا قالت هاجر لزوجها : هل أنزلك الله هذا المكان أم أنه من اختيارك؟ إنها تعرف أن مكونات الحياة هى المياه والهواء والقوت، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه. لذلك قالت هاجر سائلة إبراهيم: كيف تتركنا هنا ؟ وهل أنزلتنا هنا برأيك أم بتوجيه من الله ؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام : إنه توجيه من الله. لذلك قالت: لقد اطمأننت والله لا يضيعنا أبدًا . إنه الإيمان العالى، لذلك لم تقلق هاجر ؛ لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره الله.

هكذا نرى الإيمان فى قمته، ولو لم يكن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأى قلب لأم تترك الزوج يذهب بعيدًا عنها ويترك ابنها فى هذا المكان الذى لا يوجد به طعام أو ماء، إنها لا تؤمن بإبراهيم، ولكنها تؤمن برب إبراهيم.

وعندما تقرأ القرآن الكريم تجد قول الحق على لسان إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ هكذا نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت محرم، وعندما نقرأ عن رفع البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده ، بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام. ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ

﴿الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ هكذا نعلم أن إسماعيل عليه السلام كان قد نضج بصورة تسمح له أن يساعد والده خليل الرحمن إبراهيم فى إقامة قواعد البيت الحرام، لكن عندما كان إسماعيل طفلا فقد أسكنه والده إبراهيم عند البيت الحرام.

هكذا نتيقن أن البيت المحرم كان موجودًا من قبل إبراهيم عليه السلام، وعندما ندقق النظر فى معنى كلمة (بكة) التى وردت فى هذا القول الكريم ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦] ونحن نعرف أن هناك اسمًا لمكان البيت الحرام هو (بكة) وهناك اسما آخر هو مكة ، وبعض العلماء يقول : إن (الميم) و(الباء) يتعاونان ، ونلحظ ذلك فى الإنسان الأخنف أو المصاب بزكام أنه ينطق (الميم) كأنها (باء) و(الميم) و(الباء) حرفان قريبان من طريق النطق والألفاظ منها تأتى مع بعضها.

ولننظر إلى اشتقاق (مكة) واشتقاق (بكة)، إننا نقرأ (بك المكان) أى ازدحم المكان، وهكذا نعرف أن قول الحق: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾. أى أنه المكان الذى ازدحم ، وهو مكان الازدحام الذى يأتى إليه كل الناس وكل الوفود ؛ لتحج بيت الله الحرام، ولا أدل على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء يختلطون بعضهم بالبعض، والإنسان يطوف بالبيت الحرام ولا يدرى أنه يسير وقد يلمس امرأة أثناء الطواف. و(بكة) هى المكان الذى فيه الطواف والكعبة . و(مكة) هو اسم مكان البيت الحرام، إن (بكة) هو اسم مكان البيت الحرام و(مكة) اسم البلد الذى يوجد به البيت الحرام ، و(مكة) مأخوذة من (ملك الفصيل الضرع) أى امتص كل ما فيه من لبن والفصيل كما نعرف هو صغير الإبل أو صغير البقر، وما دام الفصيل قد امتص كل ما فى الضرع من لبن ، فمعنى هذا أنه جائع، وكما نعرف أن مكة ليس فيها مياه والناس تكاد أن تمتص المياه

القليلة عندما تجدها[1].

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ وفى كلمة (مباركًا) نجد أنها مأخوذة من (الباء والراء والكاف) والمادة كلها تدور حول شيء اسمه الثبات. و(الثبات) هل هو الثبات الجامد أو الثبات المعطى النامى الذى مهما أخذت منه فإنه ينمو أيضًا ؟ ، ونحن فى حياتنا العادية نقول: إن هذا المال فيه بركة مهما صرفت منه فإنه لا ينتهى . أى أنه ثابت لا يضيع ويعطى ولا ينفد. وكلمة (بِرْكَة) فى حياتنا تعنى أنها تجمعٌ من الماء نأخذ منه بعض الماء ولكن الماء يأتى إليها مرة أخرى وكلمة (تبارك الله) تعنى (ثبت الحق) ولم يزل أزلا ولا يزال هو واحد إنه الثبوت المطلق. وهكذا نجد أن الثبات فى معنى البيت الحرام، إن البيت الحرام مبارك ، وإذا سأل أحد كيف؟ نرد على هذا القائل : أليست تضاعف فيه الحسنة[2] ؟ وهل هناك بركة أحسن من هذه؟، وهل هناك بركة أفضل من أنه بيت تجبى إليه ثمرات كل شئ ولا تنقطع. فقد كان الراحل إلى البيت الحرام يأخذ معه حتى الكفن، ويأخذ الإبرة والخيط، والملح، والآن فإن الزائر لبيت الله الحرام يذهب ليأتى بكماليات الحياة من هناك.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ ما هو الهدى؟ قلنا : إن الهدى هو الدلالة الموصلة للغاية ؛ ومن يزر البيت الحرام

---

(١) بكة : بالباء هى مكة : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ .
سميت بكة ؛ لأنها تبك أعناق من يعتدى عليها ، كما سميت القاهرة لأنها تقهر من يعتدى عليها ، أو سميت بكة لأنها تبك أعناق الأنعام التى تذبح ضحايا وهَدْيًا للكعبة.
من بكَّ الشىء : هشمه ومزقه ، أو من بكه : أى زحمه ، وتباكَّ الناس تزاحموا ؛ لأن الناس يتزاحمون فيها . وقيل : مكة سائر البلد ، وبكة : مكان البيت .
[القاموس القويم للقرآن الكريم]

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » . أخرجه البخارى رقم [١١٩٠] .

يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه[1]، فهل اهتدى للجنة أم لا؟ إنه يعرف بحج البيت الحرام الطريق إلى الجنة. وحينما ننظر إلى هذه المسألة نجد أن الحق سبحانه وتعالى لما تكلم عن البيت، لم يتكلم إلا عن آية واحدة فيه مع ، أن فيه آيات كثيرة قال الحق: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. [آل عمران : ٩٧] إننا نجد أن صيغة الجمع موجودة فى قول الحق ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ وبينات هى وصف الجمع، وبعد ذلك قال الحق: ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ إن الحق لم يذكر إلا مقام إبراهيم بعد الآيات والمقام آية واحدة، وهكذا نجد أن ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ تدل على الآيات البينات، وقد يقول قائل: أليس فى المقدور أن نضيف الأمان الممنوح لمن دخل البيت مع مقام إبراهيم ؛ لتكون هذه هى الآيات الموجودة فى البيت الحرام ؟ لكن الآيات فى البيت الحرام أكثر من هذا بكثير ؛ بل إننا عندما نرى مقام إبراهيم نجد فيه الآيات البينات، ونحن نقرأ ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ بفتح الميم الأولى فى كلمة (مقام) ولا ننطقها (مقام) بضم الميم الأولى ؛ لأن (المُقام) بضم الميم تعنى مكان إقامة إبراهيم، أما (مَقام) بفتح الميم فهى مكان القيام.

لماذا كان قيام إبراهيم عليه السلام؟ لقد كان إبراهيم يقوم ليرفع قواعد البيت الحرام، وكان إبراهيم يقوم على (حجر) وعندما تنظر إلى ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ فإنك تجد فيه كل الآيات الدينية لماذا؟ لأن الله طلب من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت، وكان يكفيه حين يرفع قواعد البيت أن يعطيه الارتفاع الذى يؤديه طول يديه وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أدى مطلوب الله، لكن إبراهيم عليه السلام تعود مع الله أن يؤدى كل

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه » . وفى رواية : « كيوم ولدته أمه » .
أخرجه البخارى رقم [١٨١٩] ، [١٨٢٠] .

تكليفات الله بحب وإكمال وتمام ، لذلك تساءل إبراهيم عليه السلام، ولماذا لا أرفع البيت أكثر مما تطول يداى؟ ولم تكن هناك فى ذلك الزمن القديم فكرة (السقّالات) ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام إلا إسماعيل ، وأحضر إبراهيم عليه السلام حجراً ووقف عليه، وعندما يأتى إبراهيم بحجر يضعه تحت قدميه ليقف عليه ، فإنه يرفع القواعد قدر الحجر.

إذن فإبراهيم خليل الرحمن أراد أن ينفذ أمر الله بالرفع للقواعد لا بقدر الاستطاعة البدنية له ، ولكن بقدر الاستطاعة البدنية وبقدر الاحتيال على أن يرفع القواعد فوق ما يطلبه الله ، وهذا يوضح لنا معنى ما يقوله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أى أنه أدى مطلوب الله أداءً كاملا ، ولا أدل على الأداء من أنه أخذ الحجارة وأتى بحجر منها ليقف عليه وليزيد من ارتفاع البيت قدر هذا الحجر، ،نحن نعرف أن إسماعيل قد شارك فى رفع القواعد للبيت الحرام ، وعندما ننظر إلى الحجر نجده لا يسع إلا وقوف إنسان واحد عليه. وهكذا نفهم أن إسماعيل كان يساعد ويناول والده الأحجار.

أما مكان الأقدام الموجودة فى هذا الحجر فهذا يعنى أن إبراهيم عندما كان يقف ويحمل حجراً من المفروض أن يحمله اثنان كان لابد من ثبات القدمين فى مكان آمن، وكان إسماعيل يساعد فقط فى نقل الأحجار وكان إبراهيم هو الذى يحمل الحجر ، وعندما يحمل إبراهيم وزنًا لا يحمله إلا اثنان ويقف ليرفعه فلعله خاف أن يقع من على الحجر ، فهل يا ترى أن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته ساعة أن رأى إبراهيم يحتال هذه الحيلة قال لخليله - سأكفيك مئونة ذلك، وجعل الحق القدمين تغوصان فى الحجر غوصًا يسندها إن هى زلت ، والذى لا يتسع ذهنه إلى أن الله ألان لإبراهيم الحجر، نقول له : إن إبراهيم قد احتال وخاف أن ينزلق أو تزل قدمه من على الحجر

فنحت مكانًا فى الحجر على قدر قدمه ، وحتى يثبت قدمه فى الحجر وحتى يستطيع أن يحمل ويرفع الحجر الذى يحمله اثنان، وهذه آيات بينات، والذى يرجح هذا أننا نجد أن مكان القدم فى الحجر هى تعليمة مستوية ؛ لأن الإنسان حين يضع رجلا فإن للرجل بصمة خاصة، لكن المكان للقدمين فى حجر إبراهيم مستوٍ ولمن لا يتسع ذهنه أن الله ألان له الحجر، فليتسع ذهنه إلى أن إبراهيم حفر بنفسه مكانًا للقدمين فى الحجر[1].

وليفهم كل إنسان على قدر فهمه إما أن الله أقدر وأعان إبراهيم ؛ لأن إبراهيم فكر أن يبنى القواعد ويرفعها أكثر مما تطول يداه، ولذلك أعانه الله ونحن نعلم أن الهداية تكون هداية الدلالة وهداية المعونة ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ . [محمد: ١٧]

وإما أن يكون إبراهيم عليه السلام هو الذى صمم مكان القدم فصارت له.

(١) قال أبو طالب فى قصيدته اللامية المشهورة :

وموطئ إبراهيم فى الصخر رطبة على قدميه حافيًا غير ناعل

* قصة بناء الكعبة *

أوضح الحق لنا فى قرآنه الكريم أن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام قد استحق الإمامة بنجاحه فيما ابتلاه الله من تكليفات ، قام إبراهيم عليه السلام بأدائها وأتم القيام بها بإتقان وتمام محبا لتكليف الله، ولذلك كافأ الحق سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام وجعله إمامًا.

وأراد خليل الرحمن أن تستمر الإمامة فى الأرض ؛ لتكون الإمامة سمة على وجود خلق يتمسكون بمنهج الله على طريق الوفاء والإكمال والإتمام، لكن الحق جل وعلا وهو أعلم بكل خلقه ، عرف أن بعضًا من ذرية إبراهيم سيكونون على غير عهد الله وسيخالفون المنهج، ولسوف يدَّعون لأنفسهم الأفضلية والتمايز على كل البشر ؛ لمجرد أنهم من نسل إبراهيم خليل الرحمن.

لذلك أخبر الحق جل وعلا إبراهيم خليل الرحمن أن عهده لا يناله الظالمون، ولهذا جاء قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] إذن فهذه الآية دلت على أن الله أنبأ إبراهيم من قديم الزمن على أن بعضًا من ذريته سيكون ظالـمًا، وما دام بعض ذرية إبراهيم سيكون ظالـمًا بالخروج عن منهج الله ، ويدعون لأنفسهم أنهم خير خلق الله لمجرد أنهم ينتسبون لإبراهيم عليه السلام ، ويدعون لأنفسهم أنهم شعب الله المختار، وأنهم موطن النبوة ، والإمامة تكون فيهم وحدهم، وكان هذا البعض من ذرية إبراهيم هم بنو إسرائيل ، لذلك جاء القول الفصل من الحق: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لقد كان هذا القول الفصل إشعارًا بأن من

ذرية إبراهيم من سيصير ظالـمًا، ولقد أوضحنا أن النبوة لها بنوة تختلف عن البنوة فى سائر البشر. إن البنوة فى البشر العاديين تعنى الانتماء الدموى أو النسبى أو الجنسى، أما البنوة فى الأنبياء فهى الانتماء للعقيدة والمنهج الذى يجئ به النبى المرسل من عند الحق سبحانه وتعالى ، ولنا أن نعرف أن الانتماءات فى ذلك الكون متعددة.

ومعنى الانتماء هو أن يحسب الإنسان نفسه على شئ، وهذا الشئ يطلب من الإنسان أن يسير على مقتضاه ، فمثلا: قد ينتمى الإنسان إلى الأرض، ولنا أن نعرف أن كلمة (الوطنية) قد خرجت إلى الكون من أجل انتماء الإنسان إلى الأرض ؛ لذلك يقول المصرى مثلا (وطنى مصر) وقد ينتمى الإنسان إلى الجنس فيقول الإسرائيلى - أنا من أبناء إسرائيل- وهذا يعنى أنه يختص نفسه بمقولة أنه من أحفاد يعقوب عليه السلام ابن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وقد يقول العربى : أنا عربى . وهذا يعنى أنه ينتمى إلى العروبة، ولنا أن نفرق بين انتماء الإسرائيلى إلى بنوة يعقوب ذلك أن الاحتفاظ بسلالة نقية عبر عصور طويلة أمر غاية فى الاستحالة ، أما الانتماء للعروبة رغم أنه بدأ من سلالة إسماعيل عليه السلام ، إلا أنه انتماء لا يضيق بساكن للمنطقة التى ينطق أهلها اللغة العربية.

وقد يكون الانتماء إلى مذهب ، ومثال ذلك: أن سكان البلاد الغربية تتبع حكوماتهم وأغلبيتهم النظام الرأسمالى ، وسكان البلاد الشرقية الخاضعة لحكومات شيوعية ينتمون إلى هذا المذهب الشيوعى.

إذن فمعنى الانتماء هو الجهة التى يحسب الإنسان نفسه عليها ليخدم قضيته، وليس عند الله لون من الانتماء من تلك الأنواع. إن الانتماء المعترف به عند الله هو الانتماء القيمى أى الانتماء لمنهج الله ، فالإسلام لا يفرق بين وطن ووطن ، أو جنس وجنس ، أو دم ودم. إن الإسلام يُعرف بالقيم التى يرتبط بها الإنسان أيًا كان لونه وأيًا كان جنسه، وأيًا كان مذهبه. إن الإسلام انتماء قيمى، إذن فقول الحق : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ هذا القول يحدد

موقع الانتماء فى البشر ، وبعد ذلك أراد الحق أن يصفى أيضًا قضية بيت المقدس والقبلة ، فأثبت الحق لنا أن بيت المقدس بيت حديث من إنشاء داود وسليمان ، لكن الكعبة هى بيت من اختيار الله فأيهما إذن أولى فى الاتجاه إليه؟ أنتجه إلى البيت القديم باختيار الله، أم نتجه لبيت هو لله أيضًا، ولكنه باختيار خلق الله ؟! .

إذن فالقضايا التى كان يتاجر بها اليهود المعاصرون لرسول الله على المؤمنين الأوائل فى الإسلام، إنما كان الهدف منها أن يصرفوا المؤمنين بالإسلام عن دينهم، ولذلك أراد الله أن يبطل هذه المتاجرة ، لذلك نزل حكمه الكريم بقوله تعالى : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] . البيت معناه يطلق على الدار وعلى المنزل ؛ لأن الإنسان يخرج إلى العمل والسعى للزرق فى الأرض ثم يعود إلى البيت ليأوى إليه ، وقد جعله الله مثابة للناس، أى ليثوب الناس إليه ويرجعوا ؛ لأنه بيت ربهم.

فإذا أفزعك شئ فاذهب إلى بيت رحمة ربك لتجد رحمة ربك فى استقبالك ؛ فيزيح عنك كل ما يمكنه أن يتعبك فى الحياة ، وما دام الإنسان يثوب إلى الله فلابد أن يكون فى أمن، ومادام الإنسان فى بيت الله فلا فزع، وقلنا: إن الله قد جعل بيته آمنًا فليس ذلك إخبارًا منه لنا ، ولكنه طلب من الحق إلى المؤمنين به أن يجعلوا البيت الحرام آمنًا ، فإن أطاعوا الله جعلوا البيت آمنًا ، وإن لم يطيعوا الله جعلوا الناس يفزعون فيه.

ونأتى إلى قول الحق: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وهكذا كان الأمر الإلهى الصادر بأن نجعل من مقام إبراهيم خليل الرحمن

مصلى، والمصلى معناه مكان الصلاة، والصلاة تطلق ويراد بها الدعاء[1]، وفى ذلك يقول الحق جل وعلا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣] وهذه الآية الكريمة تتضمن التوجيه الصادر من الله إلى الرسول الكريم أن يأخذ من أموال التائبين صدقات تطهرهم بها من الذنوب والشح ، وترفع درجاتهم عند الله ، وأن يدعو الرسول لهم بالخير والهداية. فدعاء الرسول تسكن به النفوس وتطمئن به القلوب ، والله سميع للدعاء عليم بالمخلصين فى التوبة، وتطلق الصلاة أيضا على الصلاة على رسول الله ﷺ عندما نقول فى التشهد: (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد)[2] وتطلق الصلاة أيضا على الصلاة الشرعية التى نعرفها جميعا وهى التى نفتتحها بالتكبير ونختتمها بالتسليم وبشرائطها المخصوصة[3] ، وحين نأتى إلى المعنى العام فى الصلاة ، فإننا نقصد الصلاة الشرعية فهى تشمل دعاءً إلى الله، وصلاةً على رسول الله ﷺ وتشمل الشكل والمضمون ، والمراد المخصوص بالصلاة الذى أراده الله سبحانه وتعالى.

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «مَن صلّى عليَّ واحدةً، صلّى الله عليه عشرًا». أخرجه مسلم [٤٠٨]، وأبو داود [١٥٣٠] واللفظ لهما، والترمذى [٤٨٥] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٤٠٢] .

(٢) عن كعب بن عُجرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا : قد عرفنا كيف نسلّم عليك، فكيف نصلّى عليك؟ قال : «قولوا : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» . أخرجه مسلم [٤٠٦] كتاب الصلاة.

(٣) عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مفتاح الصلاة الطّهور ، وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم » . أخرجه أبو داود [٦١٨] وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٥٧٧]

وقد يسأل أحد: ما معنى كلمة « مقَام »[1] ؟، إن كلمة « مقَام » تأتى أحيانًا مفتوحة الميم كما فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وتأتى كلمة « مقَام » فى أحيان أخرى مضمومة الميم كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا﴾ وقد نزلت هذه الآية فى بعض من ضعاف النفوس والمنافقين الذين حاولوا أن يهربوا من مواجهة العدو، وكان ضعاف النفوس هؤلاء من أهل المدينة ؛ لذلك ادعوا أن بيوتهم عورة ولابد من حراستها ، وكان ذلك تغطية للهرب من المعركة [2] ولنا أن نعرف أن « مقَامِ » المفتوحة الميم هى اسم مكان من قام، أما « مقَامِ » المضمومة الميم فهى اسم مكان من أقام وهكذا نفهم أن قول الحق: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ كان ذلك القول مقصودًا به اسم مكان، مأخوذا من الفعل قام. أى أن الحق ينبهنا إلى أن المكان الذى قام إبراهيم عليه السلام عليه ليعيد بناء الكعبة هو المقصود بتلك الجملة، أى أن الحجر الذى نراه فى الكعبة ، وعليه أراد إبراهيم أن يرفع قواعد البيت الحرام. هذا الحجر يمكن الصلاة حوله وفيه ، ونحن متجهون بوجوهنا إلى الكعبة فالمسلمون الأوائل كانوا يتحرجون من الصلاة فى هذا المكان ؛ لأن المقام كان موجودًا بين المصلى وبين الكعبة ، وكان الناس يتحرجون أن يقيموا

---

(١) المَقَام والمُقَام : قد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضوع القيام؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم، وقوله تعالى ﴿لا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أى : لا موضع لكم، وقرئ ﴿لا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بالضم أى : لا إقامة لكم. [لسان العرب ١٢/٤٩٨].

(٢) يقول الله تعالى مخبرًا عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون فى غاية الجهد والضيق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالا شديدًا ، فحينئذ ظهر النفاق وتكلم الذين فى قلوبهم مرض بما فى أنفسهم.. إلخ. انظر تفسير ابن كثير [٣/ ٤٥٥ - ٤٥٦] .

الصلاة وبينهم وبين الكعبة شئ ، لذلك كان هذا المكان يخلو من المصلين فلا يصلى فيه أحد ، وهنا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرسول الله ﷺ: (ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى؟) لقد أراد ابن الخطاب رضى الله عنه أن تعم الصلاة كل المكان بحيث لا توجد جهة من جهات الكعبة إلا وفيها صلاة وهنا أنزل الحق تبارك وتعالى هذا القول الحكيم: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وكان هذا القول الحكيم من المواضع التى وافق فيها القرآن الكريم عمر، وهناك أكثر من موقف وافق فيها القرآن عمر بن الخطاب.

ها هو ذا ابن الخطاب رضى الله عنه يقول لرسول الله ﷺ "يا رسول الله إن من زوار بيتك البار والفاجر ألا أمرت نساءك بأن يحتجبن؟"، وينزل القرآن الكريم بآيات الحجاب، وهناك أكثر من موقف نزل فيه القرآن ليؤيد رأيًا لعمر بن الخطاب(١) ، ونحن نلحظ أن الموافقات القرآنية لها ملحظ تشريعى ، وعمر بن الخطاب بشر غير مؤيد بالوحى ، وكأن الله يريد أن يثبت للناس أن الفطرة إذا سلمت وإذا صفت ، فإنها بذاتها تستطيع أن تهتدى إلى حكم الله ، فكأن الله لم يكلفنا بأى شئ تعنتًا إنما هو يكلفنا بما يهدينا إلى الفطرة الصافية السليمة ولكن ما أقل أن تصفو الفطرة.

---

(١) عن أنس قال : قال عمر رضى الله عنه : وافقت الله فى ثلاث ـ أو وافقنى ربى فى ثلاث ـ قلت: يا رسول الله! لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى. وقلت : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ؟ فأنزل الله آية الحاجب. قال : وبلغنى معاتبة النبى ﷺ بعض نسائه ، فدخلت عليهن قلت : إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله ﷺ خيرا منكن حتى أتيت إحدى نسائه ، قالت : يا عمر أما فى رسول الله ﷺ ما يعظ نسائه حتى تعظهن أنت ؟ ! . فأنزل الله ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ﴾ . أخرجه البخارى [٤٤٨٣].
وأخرجه الترمذى مختصرا بلفظ : عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصل ؟. فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. الترمذى [٢٩٦٠] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى رقم [٢٣٦٠] .

إننا عندما نتحدث عن عدالة عمر وحزم عمر، إنما نتحدث عن الفطرة فى قمة صفائها، ولقد أراد الله لنا أن يكون أمر الفطرة الصافية واضحًا فى واحد من الخلفاء الراشدين ، وأحد صحابة رسول الله ﷺ المؤيد بالوحى والذى اختاره الله أسوة حسنة. إنها فطرة إنسان مؤمن تستطيع أن تصفو وأن تصل إلى حكم الله ، هكذا كان أمر اتخاذ مقام إبراهيم مصلى، ومقام إبراهيم عليه السلام كان مكان قيام إبراهيم عليه السلام ببناء البيت(١).

لقد أمر الحق إبراهيم وإسماعيل أن يرفعا القواعد ، وأن يطهرا البيت ولم يكن هذا الأمر قابلا للتنفيذ ، إلا بعد أن أوجد الله البيت وبعد ذلك ترفع فيه القواعد. إن الحجر الذى كان يقوم عليه إبراهيم عليه السلام ليرفع القواعد من البيت هذا هو المقام، ويريد الله أن يلفتنا إلى أشياء هى أحداث قصة هذا المقام.

إن العلماء قد اختلفوا فى بداية البيت الحرام بعضهم قال: إن البيت الحرام قد تم بناؤه فى عهد إبراهيم عليه السلام، وبعضهم قال: إن البيت الحرام قد تم بناؤه فى عهد آدم عليه السلام، وبعضهم قال: إن البيت الحرام قد أوجده

---

(١) يقول ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ .

وقد كان هذا المقام ملصقًا بجدار الكعبة قديما ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر يمنة الداخل من الباب ، فى البقعة المستقلة هناك ، وكان الخليل عليه السلام، لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة ، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك ، ولهذا ـ والله أعلم ـ أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف ، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه ، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين ، الذين أمرنا باتباعهم ، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ : « اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر » ، وهو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين [١/ ١٦٢].

أخرجه الترمذى عن حذيفة بن اليمان ، رقم [٣٦٦٢] ، [٣٨٠٥] عن ابن مسعود رضى الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : « اقتدوا باللذين من بعدى من أصحابى ؛ أبى بكر وعمر ، واهتدوا بهدى عمار ، وتمسكوا بعهد ابن مسعود » . وذكره الألبانى فى صحيح الجامع الصغير تحت رقم [١١٤٤] .

الله قبل آدم عليه السلام ، ولننظر بالمنطق والاستقراء العقلى أى الآراء الثلاثة هو الصحيح [1].

إن العلماء الذين قالوا: إن البيت الحرام قد تم بناؤه فى عهد إبراهيم عليه السلام لابد أن نقول لهم: لقد أقمتم الدليل على رأيكم من قول الحق: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ . لابد هنا أن نفرق بين الرفع والبناء، إن البناء يستدعى ألا يوجد البيت ثم يتم بناؤه بعد ذلك. أما الرفع فهو الإعلاء والصعود ، أى أن البيت الحرام كان موجودًا قبل إبراهيم عليه السلام ، وأقام البيت: أى جعل له ارتفاعًا، وصار بذلك له طول وعرض وارتفاع أى صار له حجم [2].

كأن الحق تبارك وتعالى حين يقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ . كان المقصود والمفترض من ذلك القول ، أن خليل الرحمن أقام الجدران فقط أما الطول والعرض فقد كانا موجودين قبل إبراهيم عليه السلام، وهكذا نعرف أن قواعد البيت قد انطمست بالسيل أو عوامل التعرية أو امتدادات الزمن. إن الحق أراد أن يُظهر لنا المكين : وهو مكان البيت الحرام أى المساحة التى أقام عليها إبراهيم جدران الكعبة، والحق يوضح لنا أن قواعد البيت كانت معلومة لإبراهيم عليه السلام، ونحن نعرف أن الناس تصلى فى أى مكان فى العالم وتتجه إلى المكين ، وهو البيت الذى كان

---

(١) وقال عبد الرزاق أيضًا أخبرنا معمر عن قتادة قال: وضع الله البيت مع آدم ، أهبط الله آدم إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند وكان رأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض فكانت الملائكة تهابه فنقص إلى ستين ذراعًا فحزن آدم إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم، فشكا ذلك إلى الله عز وجل ، فقال الله : يا آدم إنى قد أهبطت لك بيتًا تطوف به كما يطاف حول عرشى ، وتصلى عنده كما يُصلى عند عرشى، فانطلق إليه آدم فخرج ومد له فى خطوه، فكان بين كل خطوتين مفازة فلم تزل تلك المفازة بعد ذلك، فأتى آدم البيت فطاف به ومن بعده من الأنبياء. انظر تفسير ابن كثير [١/ ١٧٠].

(٢) يقال : ارتفع الشيء ارتفاعًا بنفسه إذا علا . لسان العرب [٨/ ١٢٩] .

موجودًا قبل إبراهيم وأقام جدرانه إبراهيم عليه السلام. إن المكين هو مساحة البيت الحرام التى نتجه إليها عندما نقيم الصلاة ؛ سواء كنا فى بطن الأرض أو فى الفضاء أو فى نفق تحت الأرض أو على سطح الأرض. دليل آخر على أن المكين كان موجودًا قبل إبراهيم عليه السلام ، هذا الدليل هو غيرة سارة عندما لم تطق وجود هاجر معها بابنها إسماعيل، كانت سارة بغير ولد وكانت هاجر لها ولد هو إسماعيل ، وكان من الطبيعى أن تغار سارة من هاجر ، وأخذ إبراهيم عليه السلام هاجر وابنها إسماعيل إلى الكعبة إلى مكان البيت الحرام وهنا يقول الحق: ﴿رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم : ٣٧] وهكذا نفهم أن إبراهيم أسكن ابنه إسماعيل وهاجر عند البيت الحرام ، ولم يكن مكان البيت الحرام محدد بالضبط لإبراهيم ، إنه يعرف المنطقة لكنه لا يعرف المساحة ولا يعرف حدود المكين .

وتأتى بعد ذلك مرحلة ثانية يحددها الرحمن الحق بقوله: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لا تُشْرِكْ بِى شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦] هنا يحدد الحق أنه أرشد إبراهيم عليه السلام إلى المكين ، أى إلى مكان البيت الحرام ومساحته بالضبط ؛ ليبدأ بعد ذلك إقامة البيت ومعه إسماعيل عليه السلام بعد أن كبر قليلا ليعاونه فى رفع البيت الحرام.

إذن نتعرف هنا على الترتيب التالى:

أولا : إن المكين كان موجودًا من قبل إبراهيم عليه السلام .

ثانيًا : إن إبراهيم عليه السلام كان يعرف المنطقة التى يوجد بها البيت الحرام ـ المكين ـ وإن كان لم يتعرف بعد على مساحته بالتحديد .

ثالثًا: إن إبراهيم عليه السلام أسكن هاجر وابنها إسماعيل فى هذه المنطقة.

رابعًا : صدر أمر الحق لإبراهيم أن يقيم البيت الحرام بعد أن أوضح له مكانه بالضبط. لقد أوضح الحق مساحة المكين والذى يجب عليه أن يقيم القواعد له هو وابنه إسماعيل عليهما السلام .

خامسًا : إننا عندما نبحث أى أمر أو قضية فى القرآن الكريم فإننا نجمع كل ما يتعلق بها من القرآن ، حتى لا نبحث فى آية بمعزل عن أخرى والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ ومعنى ذلك أن الحق قد أوضح لنا أن هناك بيتًا للناس هو أول بيت وضعه الحق للخلق[1] من قبل أن يهبط آدم إلى الأرض ، ذلك أن الناس هم آدم وزوجه وأبناؤه إلى أن تقوم الساعة .

إن الحق يوضح لنا أن البيت وضع للناس قبل أن يوجد الناس، وهكذا نعرف أن البيت الحرام كان موجودًا قبل إبراهيم عليه السلام ؛ بل وقبل آدم عليه السلام، إن آدم لم يضع البيت ولكنه نزل إلى الأرض ليجد البيت[2] ، وهكذا يرد الحق على الخلق بأنه هو الذى أمر الملائكة أن تقيم البيت ليستقبله آدم وأبناؤه من بعده ؛ ليصير البيت مثابة للناس جميعًا من أول آدم، وعندما

---

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت: يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول؟ قال : "المسجد الحرام" قال : قلت : ثم أى ؟ قال : " المسجد الأقصى" قلت : كم كان بينهما؟ قال : "أربعون سنة . ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصلِّه ، فإن الفضل فيه". رواه البخارى [٣٣٦٦] واللفظ له ، ومسلم [٥٢٠] ، وأحمد [٥/ ١٥٠].

(٢) قال صاحب سبل الهدى والرشاد [١/ ١٤٦] فى عدد المرات التى بنيها البيت :

الأولى : عمارة الملائكة :

روى الأزرقى عن على بن الحسين رضى الله عنهما أن رجلا سأله ما بدء هذا الطواف بهذا البيت ؟ لم كان ؟ وأنى كان ؟ وحيث كان ؟ . فقال : أما بدء هذا الطواف بهذا البيت فإن الله تعالى قال للملائكة : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ـ وساق القصة إلى أن قال : فوضع الله سبحانه وتعالى تحت العرش بيتا على أربع أساطين من زبرجد وغشّاهن بياقوته حمراء ، وسمى البيت الضُّراح ، ثم قال للملائكة : طوفوا بهذا =

جاء إبراهيم عليه السلام إلى (المكين) كان يعرف أن هناك أرضًا لبيت وضعه الله للناس ليثوبوا إليه، وبعد أن كَبُرَ إسماعيل قليلا تلقى إبراهيم العلم عن الله بمكان البيت الحرام ليقيمه مع ابنه إسماعيل.

إن قصة البيت الحرام تبدأ منذ اللحظة التى أراد فيها الحق أن يجعل فى الأرض خليفة، خلق الله الأرض وقدر فيها أقواتها ، وأعد الله لآدم وزوجه بيتًا ؛ ليثوب إليه آدم وأبناؤه من بعده ليكونوا فى أمان.

وتلقى إبراهيم عن الحق العلم بمكان البيت فأقام جدرانه ، فقام إبراهيم بإتقان المهمة التى كلفه بها الحق. لقد أقام إبراهيم جدران الكعبة على قدر ما تطول يداه ، فذلك الزمن لم يكن به أدوات بناء كالتى نعرفها حاليا بل كان زمانًا بدائيًا؛ لذلك أراد إبراهيم عليه السلام أن يحتال بالعقل البشرى وأراد أن يزيد ارتفاع جدران البيت فأوجد الحجر الذى يقف عليه ليزيد فى الارتفاع.

إذن فاتخاذ المقام الذى وقف عليه إبراهيم وهو يبنى ، إنما هو دليل على أن

= البيت ودعوا العرش . فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش فصار أهون عليهم ، وهو البيت المعمور الذى ذكره الله تعالى ، يدخله كل يوم وليلة سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبدا . ثم إن الله سحبانه وتعالى بعث ملائكة فقال : ابنوا لى بيتا فى الأرض بمثاله وقدره . فأمر الله سبحانه وتعالى من فى الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور .

المرة الثانية : عمارة آدم ﷺ.

روى البيهقى فى الدلائل عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: « بعث الله تعالى جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا لى بيتا . فخط لهما جبريل ، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أجابه الماء ونودى من تحته : حسبك يا آدم. فلما بناه أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به ، وقيل له : أنت أول الناس ، وهذا أول بيت وضع، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح ، ثم تناسخت القرون ، حتى رفع إبراهيم القواعد من البيت . وانظر [أول من بنى الكعبة] ص ٥٧٧ فيها العمارة الثالثة ، والرابعة .

ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير والطبرانى موقوفا . وزادوا : زعم الناس أن آدم بناه من خمسة أجبل : من حراء ولبنان وطور زيتا وطور سيناء والجودى . وذكر الحديث المتقى الهندى فى كنز العمال برقم [٣٤٧١٨] وعزاه للبيهقى وابن عساكر ، قال : وقال البيهقى: تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعًا . [المصدر السابق] .

إبراهيم عليه السلام لا يؤدى تكليفات الحق أداءًا شكليًا إنما يؤدى أداء المحب.

لقد أحب إبراهيم عليه السلام تكليف الرحمن له فحمل حَجَرًا يبنى به الجدران للبيت الحرام، وهو حجر من حجم متوسط يستطيع أن يحمله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام.

ولذلك فعندما يرى المسلم الحجر الذى وقف عليه إبراهيم ليعلى جدران البيت الحرام ، فإنه يجد أن ذلك الحجر من ناحية الحجم والوزن ، فى طاقة الإنسان أن يحمله مع ابنه.

إن هذا الحجر هو سمة المحبة لإكمال التكليف ، وكان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ينقلان هذا الحجر من مكان إلى مكان ، يضع إبراهيم الحجر فوق الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار، ولقد وجد الناس فى مقام إبراهيم غورًا يشبه القدمين وليس فيه النتوءات التى توجد فى القدم وعندما سُئلت عن سر عدم وجود النتوءات قلت بالاجتهاد البشرى : يمكننا أن نظن أن خليل الرحمن قد حفر هذا القدر فى الحجر ليثبت به قدميه وهو يرفع الحجر فوق الحجر ليعلى من جدران البيت الحرام، وهكذا جعل الحق هذا المقام سمة وآية بينة ؛ لنرى الدليل على حب التكليف الربانى.

إن كل منهج الله بالنسبة لخلقه هو تكليف ، ويريد الحق أن يبقى مقام إبراهيم خليل الرحمن سمة لحب التكليف الربانى، وكأن الحق يريد أن يعلم الخلق أن إبراهيم كان بشرًا قد أحب التكليف فأتمه وأكمله، ولذلك كان أمر الحق أن نجعل هذا المقام مصلى، وبعد ذلك يأتى قول الحق: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. ولنا أن نسأل كيف يصدر أمر الحق إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت رغم أنهما قد أكملا بناءه فورًا ؟

ألم يكن المكان طاهرًا؟ إن هذا السؤال يدلنا على أن البيت الحرام قبل أن يطهر ، كانت الناس تذبح فيه الذبائح وتترك فيه بقايا الدم وغير ذلك،

ولذلك صدر أمر التطهير للبيت[1] ولكن لمن يتم تطهير البيت الحرام ؟.

إن الحق تبارك وتعالى يحدد الفئات الثلاثة التى يتم من أجلهم تطهير البيت الحرام.

الفئة الأولى: هم الطائفون أى : الذين يطوفون حول البيت ، وكان تطهير البيت الحرام من بقايا القاذورات أو الأصنام التى تخلفت من عهود وثنية سابقة على تكليف إبراهيم عليه السلام بإقامة البيت الحرام[2].

والفئة الثانية: هم العاكفون والمقصود : المقيمون حول البيت الحرام.

والفئة الثالثة: هم الركع السجود : أى المصلون ، ويستطيع الإنسان أن يكون من الفئات الثلاثة فى آن واحد حين يحج أو يعتمر إلى بيت الله الحرام فهو يدخله طائفًا ويجلس فيه عاكفًا ، ويقيم الصلاة فيه ، فيصبح من الراكعين الساجدين.

كأن الحق قد أوكل إلى خليله إبراهيم أن يطهر هو وابنه إسماعيل البيت الحرام ؛ لأنه سيكون قبلة لكل مؤمن يطوف به أو يعكف فيه ، أو راكع ساجد فى أى مكان فى الدنيا.

---

(١) قال صاحب سبل الهدى والرشاد [١/ ١٥٥] :
وفى حديث أبى جهم (عند ابن سعد): وحلَّقت السَّكنية كأنها سحابة على موضع البيت فقالت : ابن علىَّ . فلذلك لا يطوف بالبيت أحد أبدًا كافر ولا جبار إلا رأيت عليه السكينة . فبنى إبراهيم البيت فجعل طوله فى السماء تسعة أذرع وعرضه ثلاثين ذراعا ، وطوله فى الأرض اثنين وعشرين ذراعا ، وأدخل الحِجْرَ وهو سبعة أذرع فى البيت ، وكان قبل ذلك زَرْبًا لغنم إسماعيل ، وإنما بناه بحجارة بعضها على بعض ولم يجعل له سقفًا ، وجعل له بابين ، وحفر له بئرًا عند بابه خزانة للبيت يلقى فيها ما يهدى للبيت وجعل الركن عَلَمًا للناس .

(٢) قلت : وكذا تطهير البيت من زَرْبِ غنم إسماعيل عليه السلام ، كما جاء فى حديث أبى جهم المذكور بالتعليق السابق .

وبعد ذلك يقول الحق: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦] وكأن الحق يريد أن يذكرنا هنا بأن البيت الحرام الذى كلّف الخلق بأن يجعلوه آمنًا ، هذا البيت هو بدعاء إبراهيم مطلوب له دوام الأمان.

إن الحق قد قال من قبل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ . وهكذا يكون مطلوب إبراهيم بالدعاء وهو طلب لاستمرار تكليف البشر بدوام الأمان فى البيت الحرام، إنه طلب لموجود أى طلب لدوام ذلك المطلوب ، ومثال على ذلك قول الحق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ . [النساء : ١٣٦]

إن الحق يكلف المؤمنين به بأن يديم كل منهم الإيمان بالله ورسوله والكتاب الذى أنزله على رسوله، والكتب السابقة المنزلة على الرسل. إذن فإذا كان المطلب موجودًا ، فلنا أن نفهم أن ذلك يعنى أن يظل الموجود دائمًا، وأن يتواصل التكليف الإيمانى من جيل إلى جيل . ويمكننا أن نفهم دعاء إبراهيم ، على أنه دعاء بالاطمئنان للمقيمين حول البيت ، ذلك أن بيت الله الحرام موجود بواد غير ذى زرع ، لذلك فقد يعيش فزعًا وغير آمن ؛ لأن قوت بدنه غير موجود ، وإمكانية استخراج هذا القوت بالزراعة غير متوافرة.

فإن أردنا الأمن المطلق فلنعلم أن الله حين يخاطب المؤمنين بطلب الإيمان فمراد ذلك الدوام على الإيمان ، وإن أردنا الأمان على نوع خاص فإبراهيم يدعو ربه بأن يجعل من بلد بيته الحرام بلدًا آمنًا على وجه الخصوص ، ولنا أن نلحظ أن دعاء إبراهيم فى هذه الآية جاء بكلمة (بلد) نكرة أى بدون ألف ولام تسبقها، وجاءت فى آية أخرى وهى معرفة أى تسبقها ألف ولام فى

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم : ٣٥] . إن دعاء إبراهيم يختلف فى الآيتين حتى نفهم فضل الله على العباد. فالدعاء الأول هو فضل تحقيق ما تمناه إبراهيم ، فهذا المكان لم يكن بلدًا، إنما كان مكانًا مطمورًا فيه البيت الحرام من غفلة الناس، والدعاء الثانى هو أن يديم الله الأمن على هذا البلد بعد أن أصبح بلدًا بالفعل. ولنا أن نعرف أن كلمة (بلد) حين نسمعها ، فإن الذهن ينصرف إلى المدينة التى بها بيوت وأسواق وخلاف ذلك من المرافق، وكلمة (بلد) مأخوذة من الأثر الذى ينشأ فى الجلد فيتميز عن بقية الجلد، وانتقلت التسمية إلى الأرض التى تقام عليها المبانى وغيرها ؛ لأن المبانى تصبح واضحة كالندوب أو العلامات التى توجد فى الجلد[1] .

ولنا أن نلحظ فطنة النبوة فى دعاء إبراهيم حين قال ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إن دعاء إبراهيم عليه السلام يوضح أنه حصر مطلبه فى رزق المؤمنين بالله واليوم الآخر، هذا الدعاء يوضح أن إبراهيم عليه السلام قد استوعب الدرس الذى سبق أن لقنه له الله ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لذلك فعندما جاء إبراهيم ليطلب الرزق لأبنائه ، طلبه للمؤمنين منهم وطلب رزق الثمرات لهم وحدهم.

هكذا كانت اليقظة فى استقبال التكليف عن الله ، وهكذا كان أدب التعلم عن الله ، لكن رحمة الله لا تتوقف. إن رحمة الله قادرة على استيعاب المؤمن والكافر معًا . إن الرزق فى الأرض مقدر للمؤمن وللكافر، إن الحق ينبه إبراهيم ويصحح له: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ

---

(١) بلد: قال الأزهرى : كل موضع مستحيز من الأرض عامر أو غير عامر ، خالٍ أو مسكون. فهو بلد والطائفة منها بلدة . وفى الحديث: أعوذ بك من ساكن البلد.
لسان العرب [٣/ ٩٤] .

﴿النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ إن الحق يبلغ إبراهيم أن المؤمن من ذريته له رزق الدنيا وجنة الآخرة ، ولهم فى الدنيا الإمامة فى القيم أما فى رزق المادة من طعام وشراب فذلك منحة للمؤمن ومنحة للكافر رغم أنى أعذبه فى الآخرة(١).

كأن الله يقول لإبراهيم : إننى حين استدعيت الخلق إلى الدنيا استدعيت المؤمن والكافر ، وسخرت ما فى الأرض للمؤمن والكافر، وما دمت قد استدعيت المؤمن والكافر فلابد أن أضمن له مقومات حياته ، لكن حساب القيم يختلف ، إن للمؤمنين أن تظل فيهم الإمامة ؛ لأن الإمامة هى اتباع المنهج والتكليف الإيمانى بحب. أما الكافرون فلهم عذاب الجحيم فى الآخرة.

نسأل الله أن ينجينا من عذاب الآخرة وأن يهدى قلوبنا إلى اتباع منهجه.

---

(١) قال الله تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ .

قوله تعالى : ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ﴾ أى الكافرين ترتيبا على الآية الأولى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ و ﴿وَهَٰؤُلاءِ﴾ الثانية يعنى المؤمنين ترتيبا على الآية الثانية ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ﴾ . فعطاء الله فى الدنيا مكفول للكافر والمؤمن لم يحظره الله سبحانه على أحد من خلقه ليقيم حرية اختيار العقيدة وعدم الإكراه عليها كما قال تعالى : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ فلو أن الله تعالى حرم الكافرين لكفرهم لدخلوا الإسلام جبرا ، ولو أن الله حرم المؤمنين انتظارا لثواب الآخرة لكفروا قهرا ، وهذا ليس مراد الله تعالى إذ قال : « من شاء فليؤمن ـ وله الجنة ـ ومن شاء فليكفر ـ وله النار ».
وانظر تفسير ابن كثير [٣/ ٣٣]

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يُحبّ ومن لا يحبّ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحبّ ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه. . . » . جزء من حديث. أخرجه الإمام أحمد [١/ ٣٨٧]. وضعفه الشيخ شاكر فى المسند [٣٦٧٣].

* أول من بنى الكعبة *

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج ٢٦]

إنك ساعة تسمع كلمة ﴿ وَإِذْ ﴾. فافهم أنها ظرف زمان لحدث يأتى بعدها الخبر الذى حدث فى ذلك.

فإذا قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ ﴾ فإنه يخاطب رسوله قائلا اذكر هذا الوقت الذى قيل فيه لإبراهيم هذا الكلام.

إذن فكل كلمة ﴿ وَإِذْ ﴾ فى القرآن الكريم معناها خطاب لرسول الله ﷺ بحدث وقع فى ذلك الوقت وكلمة ﴿ بَوَّأْنَا ﴾ من المباءة ومعناها الرجوع ، يقول الله تعالى: ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة ٦١] أى رجعوا بغضب من الله، والمكان المتبوأ بقعة من الأرض يختارها الإنسان ليرجع إليها من متاعب حياته ، ويجعلها مستقرًا له يعود إليه بعد قضاء مصالحه وأثناء عمله .

فالمباءة هى المكان الذى يرجع الإنسان إليه من حركة حياته ، ولا يرجع الإنسان إلى مكان يختاره من حركة حياته ، إلا إذا كانت فيه كل مقومات الحياة، ولذلك يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٦]

إذن قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ أى جعلناه مباءة يرجع إليه من حركة حياته، وأعلمناه بمكان البيت ، ونحن قلنا : إن المكان دائمًا غير المكين. فالمكان هو البقعة التى تقع فى المكين.

مسألة بناء البيت تكلم فيها العلماء كثيرًا ، وبعضهم ذهب إلى أن أول من

بنى البيت هو إبراهيم عليه السلام[1] ، ونحن نقول : إن معنى أن الله بوأ لإبراهيم مكان البيت أى بينه له. فكأن البيت كان موجودًا والذى يشهد لذلك أن الله تعالى يقول فى هذه القصة ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم ٣٧] وهذا السكن كان حينما كان إسماعيل رضيعًا صغيرًا، وتركه أبوه إبراهيم مع أمه هاجر فى هذا المكان المقفر الموحش.

وبعد ذلك كبر إسماعيل وساعد أباه فى رفع قواعد البيت ، فهذا يدل على أن البيت كان موجودًا قبل إبراهيم عليه السلام .

والقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران ٩٦] ولكن من هم الناس؟ هم آدم وذريته إلى أن تقوم

---

(١) قال صاحب سبل الهدى والرشاد فى عدد المرات التى بنيها البيت :
المرة الثالثة : عمارة أولاد آدم عليه السلام . . .
المرة الرابعة : عمارة سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : وجزم ابن كثير بأن الخليل أول من بنى البيت مطلقا ، وقال : إنه لم يثبت خبر عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل. انتهى . وفيه نظر لما ذكر من الآثار السابقة واللاحقة .
قلت : والبيت موجود قبل إبراهيم عليه السلام وقد حجه هود وصالح عليهما السلام لما ورد فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بوادى عسفان حين حج، قال : "يا أبا بكر أى واد هذا"؟ قال : وادى عُسفان. قال : "لقد مر به هود وصالح على بكرات حمر، خطمها الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق"
أخرجه أحمد فى المسند [١/ ٢٣٢] وضعفه الشيخ شاكر فى المسند [٢٠٦٧] ، وقال ابن كثير فى قصص الأنبياء [١/ ١١٤] : إسناد حسن، وزاد السيوطى عزوه فى الدر [٣/ ٩٧] لأبى يعلى وابن عساكر.
كما حجه موسى ويونس عليهم السلام بعد إبراهيم لما ورد فى صحيح مسلم [١٦٦] وابن ماجه [٢٨٩١].
* عسفان : اسم موضوع بين الجحفة ومكة على طريق المدينة إلى مكة المكرمة.
* بكرات : جمع بكرة : وهى الفتية من الأبل.
* الخطم : جمع خطام وهو الحبل الذى تقاد به الناقة.
* النمار : جمع (نمرة) وهى الشملة المخططة من مآزر الأعراب كأنها أخذت من لون النمر . [سبل الهدى والرشاد [جـ١/ ١٤٨]] .

الساعة. إذن آدم من الناس، فإذا كان البيت قد وضع للناس فلابد أن يكون قد وضع لآدم أيضًا ، فوضع البيت كان قبل آدم ؛ لأن البيت موضوع للناس وآدم من الناس، ومن هنا فمن قال: إن الملائكة هى التى بنته فقد صدق، ويكون إبراهيم قد ذهب إلى هذا المكان بوحى من الله.

إذن هناك فرق بين إقامة مكين على مكان فالبيت موجود، ولكن الطوفان لما جاء جرف معالم البيت ، فلما ذهبت معالم البيت ، أوحى الله لإبراهيم أن يبنيه فى هذا المكان من الوادى، وقالوا: إن الله سبحانه بعث سحابة ظللت المكان ونطقت وقالت: يا إبراهيم خذ على قدرى[1] . إذن ننتهى إلى أن البيت كان قبل إبراهيم ؛ لأن إبراهيم لم يكن عمله فى المكان وإنما كان عمله فى المكين لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة ١٢٧] وكلمة يرفع معناها أن يوجد البعد الثالث ؛ لأن المساحة لها طول وعرض ، والارتفاع هو البعد الثالث ، فكأن الذى بوأه الله له هو المساحة طولا وعرضًا، وبعد ذلك أمره برفع القواعد وبدأ فى رفعها هو وإسماعيل عليهما السلام، وهما قد أتيا إلى هذا المكان ؛ ليبنيا البيت ويقيما الصلاة لله سبحانه ، ويجب عليه أن يطهر هذا المكان من أى شىء يشعر بالشرك أو القذر .

---

(١) روى البيهقى ، عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال : « لما أغرق الله الأرض رفع البيت فوضع تحت العرش ، ومكثت الأرض خرابا ألفى سنة ، فلم تزل على ذلك حتى كان إبراهيم ﷺ فأمره الله سبحانه وتعالى أن يبنى بيته ، فجاءت السكينة كأنها سحابة فيها رأس يتكلم ، ولها وجه كوجه الإنسان ، فقالت : يا إبراهيم خذ قدر ظلى فابن عليه ولا تزد شيئا ولا تنقص . فأخذ إبراهيم قدر ظلها ثم بنى هو وإسماعيل البيت ، ولم يجعل له سقفا . . . » .

وفى رواية عند الأزرقى فى أخبار مكه ، عن على ، رضى الله عنه : « قال الله تعالى لإبراهيم : قم فابن لى بيتا . قال : يا رب وأين أبنى ؟ . فبعث الله سبحانه وتعالى سحابة فيها رأس تكلم إبراهيم ، فقالت : يا إبراهيم إن ربك يأمرك أن تخط قدر هذه السحابة ، فجعل ينظر إليها ويأخذ قدرها ، فقال له الرأس : قد فعلت » .

راجع سبل الهدى والرشاد ـ جـ ١ [١٥٥ - ١٥٦] .

هنا أول أمر صدر إلى إبراهيم عليه السلام فى الآية الكريمة ﴿أَن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦] فأول أمر هو عدم الشرك . وهل كان معقولا أن يدخل إبراهيم فى الشرك؟ فليس معقولا أن يحدث منه هذا، ولكن الله سبحانه حين يرسل رسولا يصدر أمره إلى الرسول أولا . فهو أول من يتلقى الأمر من الله ليطبقه على نفسه ثم يبلغ به أمته بعد ذلك ، حتى لا يأمرهم بأمر هو عنه بنجوى . فمثلا حينما يقول الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الاحزاب:١] ثم يأتى النبى ليقول لنا اتقوا الله يكون الأمر سهلا علينا؛ لأن الله أمر به رسوله قبل أن يأمرنا به.

بعض الناس يفهمون أن كلمة اتق الله، لا تقال إلا لمن حدث منه ما يخالف التقوى، وهذا ليس صحيحًا ؛ لأن المعنى المقصود هنا، ابدأ حركة حياتك بتقوى الله، والحق سبحانه قال : ﴿أَن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ فذكر كلمة شيء لينفى أقل مظهر من مظاهر الشرك وألوانه ، من شجر أو حجر أو وثن مرسوم أو نجوم أو كواكب أو غير ذلك.

ومعنى ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ يشمل الطهارة الحسية والطهارة المعنوية معًا ؛ لأن الطوفان كان قد ضيع معالم البيت الحرام وجرف إليه الرمال وأعواد الحطب وغيرها ، فلابد أن يطهره مكانًا بأن ينظفه من هذه الأشياء التى جاء بها السيل، ثم يطهره عبادة بأن تكون العبادة فيه خالصة لله تعالى ، وهذا التطهير من أجل الطائفين الذين يطوفون بالبيت ثم يرحلون عنه ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ أى المعتكفين فى البيت للعبادة والصلاة ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦] هم الذين يذهبون فى وقت الصلاة[1].

---

(١) فى تفسير ابن كثير [٣/٢٠٩ ، ٢١٠] :- ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ قال قتادة ومجاهد: من الشرك ﴿للطائفينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أى اجعله خالصًا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، فالطواف به معروف وهو أخص العبادات عند البيت فإنه =

فهناك ثلاث حالات: إما أن يذهب الإنسان ليطوف ثم يخرج ، وإما أن يقيم فيه معتكفًا، وإما أن يأتى إليه وقت الصلاة ليؤديها ، والركع السجود هم المصلون.

وبعد ذلك قال سبحانه: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج: ٢٧]. البيت بيت الله، والخلق كلهم خلق الله فلماذا تقتصر رؤية العين لبيت الله على من قدر على الذهاب والإقامة عند البيت مثل إبراهيم عليه السلام ؟

لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى لعباده أن يذهبوا لرؤية بيته الحرام ؛ لأن هذا هو بيت الله باختيار الله فهو سبحانه الذى اختاره ووضعه للناس، ومساجدنا هذه هى بيوت الله أيضًا ، لكنها بيوت الله باختيار خلق الله ، فالحق سبحانه أراد أن ينشر هذا الفضل على كل خلقه حتى يذهبوا لرؤية بيت الله الذى اختاره لهم . كلمة ﴿ وَأَذِّن ﴾ معناها: أعلم بفتح الهمزة وكسر اللام ، والعلم أول مرتبة من مراتبه، الوسيلة فيه السماع بالأذن، ولذلك الأذان هو الإعلام. مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] فمعنى أَذِّن : أى أعلم وكلها جاءت من الأذن ؛ لأنها وسيلة السماع الأولى والخطاب البدئى الذى به نتعلم كيف نقرأ، فقبل أن نقرأ لابد أن نسمع.

حينما قال الحق : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ [الحج: ٢٧] لم يكن بجوار البيت الحرام أحد إلا إبراهيم وزوجه وابنه إسماعيل ، فى واد غير مسكون ولا مأهول ، والناس بعيدون عنه ، فإبراهيم سأل ربه ومن الذى سيسمع صوتى بالأذان يا رب؟ فقال له الحق سبحانه : عليك أن تؤذن وعلى أن أبلغ

= لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿ وَالْقَائِمِينَ ﴾ أى فى الصلاة ولهذا قال ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ فقرن الطواف بالصلاة ؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت فالطواف عنده والصلاة إليه .. إلخ).

الآذان كلها[1]، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾. ولذلك قالوا: فى أصلاب بنى آدم وفى أصلاب الذرية كلها بعد إبراهيم عليه السلام كل من سمع فى عالم الذر أذانًا وقال: لبيك اللهم لبيك. فقد حج مرتين ، وإن قال: لبيك اللهم لبيك ، وأخذ يكررها يحج بمقدار ما لبى ؛ لأن معنى كلمة لبيك أى إجابة بعد إجابة (نجيبك يا رب فى هذه) والله سبحانه طلب منا أشياء كثيرة، ولكن الأركان فى الإسلام، أول ما نشهد ، نشهد أن لا إله إلا الله. وأن محمدًا رسول الله، وهذه مرة واحدة فى العمر لندخل بها فى الإسلام ، ثم بعد ذلك نقيم الصلاة ونزكى ونصوم ونحج[2].

انظروا إلى هذه الأركان تجدوا الركن الوحيد الذى يدخل المسلم نفسه فيه دون أن يكون مستطيعًا. فيحرم نفسه ويحاول أن يستكمل المال اللازم لنفقات هذا الأمر وهو الحج، ولا يتكلف هذه المشقة فى عبادة أخرى أبدًا، وذلك لأن الله تعالى حكم وقال: وأذن . . .، . . يأتوك ، فهم يأتونه مسرعين إلى هذا المكان الطاهر مصداقًا لدعاء إبراهيم عليه السلام فى قول الله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

---

(١) قال أبو جهم : وأمر إبراهيم بعد فراغه من البناء أن يؤذن فى الناس بالحج ، فقال : «يا رب وما يبلغ صوتى ؟ قال الله جل ثناؤه : أذن وعلى البلاغ . . . .».
سبل الهدى والرشاد ـ [جـ ١/١٥٧] .
وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : رب قد فرغت فقال : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ قال : رب وما يبلغ صوتى ؟ قال : أذن وعلىّ البلاغ . قال : رب كيف أقول ؟ قال قل : يا أيها الناس كتب عليكم الحج ، حج البيت العتيق فسمعه من بين السماء والأرض ، الا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون » .
أخرجه الحاكم فى المستدرك [٢/٣٨٨ ـ ٣٨٩] ، وقال : حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » . البخارى رقم [٨].

فالقلوب تهوى إلى هذا المكان والهُوِىُّ أمر لا يملكه الإنسان باختياره ؛ لأن الإنسان ساعة يكون فى مكان مرتفع ثم يسقط ويَهْوِى إلى أسفل لا يكون له اختيار فى ألا يسقط ، فتجد الإنسان يكون فقيرًا وقد يدخر من قوته وقوت عياله ويحرم نفسه من متع الحياة ؛ ليوفر من المال ما يساعده على السفر لأداء فريضة الحج ، ولا يفعل ذلك فى أى ركن من أركان الإسلام بالذات. وفى الأمور الأخرى طَلَبُ الله من الناس قد يطاع فيها أو لا يطاع، لكن فى هذه القضية حكَم المولى سبحانه فقال: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ .

إذن صدق القضية موجود ، بعض أهل الفهم قالوا: هل الأمر بالآذان للحج كان لإبراهيم أو لأحد غيره؟ قالوا: الأمر كان لأحد غير إبراهيم عليه السلام لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود ﴾ ومعنى ﴿ إِذْ ﴾ كما قلنا أى اذكر يا من أنزل عليه كتابى إذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت وأذّن فى الناس بالحج. إذن الأمر هنا للرسول محمد ﷺ.

هل تجد نصرانيا أو يهوديا يأتى إلى الكعبة ؟! . لا . فهذا النسك لا نشاهده فى أمة من الأمم الأخرى إلا فى أمة محمد ﷺ مع أنه ثبت أن موسى عليه السلام حج إلى الكعبة(١). إذن فعل الأمر ﴿ وَأَذِّن ﴾ إن أخذته على هذا المعنى كان المقصود به النبىّ محمدٌ ﷺ .

نقول: صحيح. إننا لا نجد أحدًا من الأمم السابقة يحج إلى بيت الله الحرام، ولذلك نحن نحتج عليهم حين يزعمون أن الذبيح هو إسحاق ونقول

---

(١) عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة فمررنا بواد فقال : « أى واد هذا ؟ » . قالوا : وادى الأزرق . قال : « كأنى أنظر إلى موسى ﷺ - فذكر من طول شعره شيئًا لا يحفظه داود - واضعا إصبعيه فى أذنيه، له جؤار إلى الله بالتلبية مارا بهذا الوادى » . قال : ثم سرنا حتى أتينا على ثنية فقال : « أى ثنية هذه ؟ . » . قالوا : ثنية هَرْشَى أو لفت . فقال : « كأنى أنظر إلى يونس على ناقة حمراء عليه جبة صوف ، وخطام ناقته لِيفٌ خُلْبَةٌ ، مارا بهذا الوادى ملبيا» . أخرجه ابن ماجه[٢٨٩١]، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه برقم [٢٣٣٨] .

لهم. لو كان إسحاق هو الذبيح لكانت عملية الذبح والفداء ورمى الجمرات وغير ذلك عندكم فى الشام، ولكنها هنا فى مكة ؛ لأن إسماعيل كان هنا فى هذا المكان ، ثم تذكروا جيدًا أنكم قلتم فى كتبكم فى الإصحاح [٢٣، ٢٤ من سفر التكوين] إن الله سبحانه وتعالى أوحى لإبراهيم أن يصعد على جبل فاران وأن يأخذ ولده الوحيد ويذبحه.

فولده الوحيد هو إسماعيل وليس إسحاق ؛ لأن الله تعالى أخبرنا فى القرآن الكريم ، أنه فدى إسماعيل وبشر إبراهيم بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِين﴾ فربنا يقول الصدق ويؤيد الحق ويجعل له منافذ تخفى على من يكذب، ولذلك يقولون: إن الذى يرتكب جريمة لايمكن أن يصنع الجريمة الكاملة أبدًا ؛ لأن الله تعالى يجعل فيها منفذًا للحق يمكن من خلاله الإمساك بالمجرم ومعاقبته. فمعنى الجريمة لا تفيد: أنك لا تستطيع أن تحتاط للجريمة أبدًا ؛ بل لابد أن تترك فيها منفذًا يدل عليك ويجرك إلى العقاب ، وهذه مهمة القاضى الفاهم الذى يستطيع بذكائه أن يكشف المجرم.

مثل القاضى الذى جاءه أحد الناس يشكو إليه من صديق كان يجلس معه فى مكان معين وأعطاه أمانة ليحفظها له، ولما طلبها منه أنكر أنه أخذها، فلما سأله القاضى: أين الأمانة التى أعطاها لك فلان فى مكان كذا؟ أنكر أنه ذهب معه إلى هذا المكان أو أخذ منه شيئًا. فقال القاضى لصاحب الأمانة: اذهب إلى المكان الذى كنتما فيه وابحث جيدًا ؛ فربما كنت قد نسيتها هناك وظننت أنك أعطيتها له، أو ربما يكون أخذها منك ونسيها فى هذا المكان.

فلما ذهب الرجل إلى هذا المكان وتأخر قال القاضى للمتهم : فلان تأخر، فقال المتهم: المكان بعيد . فقبض عليه وعلم أنه أخذ الأمانة فعلا. فالمسألة تحتاج إلى فطنة القاضى وبصيرته حتى يصل إلى الحق.

ومعنى ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾ كلمة رجال بعض الناس يفهم أنها جمع رجل ولكنها جمع راجل[1] ، وهو الذى يمشى على رجليه، والضامر[2] أى الذى يركب فرسًا والفرس الضامر هو النحيف من كثرة الجرى، ومن ضمن تأكيد الفعل ﴿يَأْتُوكَ﴾ أنه ذكر الماشين قبل الراكبين، والفج هو الطريق المتسع، والعميق هو الطويل الممتد.

ثم يقول تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨] فالحجاج يشهدون فى الحج منافع لهم، هذه المنافع هل هى دينية أخروية أم دنيوية؟ هذه المنافع تشمل الناحيتين معًا ، فالذى يحج يستعد لهذه الرحلة فيجهز وسيلة ركوبه مثلا ، ويحضر لمن يعولهم مصالح حياتهم حتى يعود ، وبعد ذلك يذهب إلى الأماكن المقدسة ليؤدى المناسك فى هذا الوادى الذى ليس فيه زرع ، فينفق ويشترى من البائعين فهذا يبيع وهذا يشترى.

فإذا نظرت إلى المنافع المادية تجدها موجودة ، وكذلك الذى يحج حينما يذهب إلى هناك يأكل ويشرب وينام. فلابد أنه سيؤجر البيت الذى سيقيم فيه هذه الفترة، هذه الأجرة يستفيد بها صاحب البيت ويعيش عليها فترة بعد موسم الحج. والحاج نفسه لكى يجمع هذه الأموال أدى حركة حياة فى الكون وعمل واجتهد ليحصل عليها، هذه الحركة كان فيها نفع لغيره من المجتمع وإن لم يشعر بها . فمثلا حينما يشترى الحاج خروفًا ليذبحه فى الحج، هذا الخروف اشتراه تاجر وجاء به ليبيعه للحجاج ، وهو اشتراه من منتج يربى هذه الأغنام ويتعهدها بالرعاية . فهذا المنتج انتفع والتاجر انتفع ، وكذلك الراعى انتفع والسيارة التى نقلت هذه الأغنام انتفع صاحبها أيضًا، وحتى الذى سيذبحه انتفع أيضًا فكل هذه وغيرها منافع دنيوية ورزق

---

(١) الرِّجال : جمع راجل أى ماشٍ ، والراجل خلاف الفارس. [لسان العرب: ١١/٢٦٩].

(٢) الضُّمْرُ والضُّمُر : الهزال ولحاق البطن . [لسان العرب: ٤/٤٩١] .

يسوقه الله إلى أهل هذه البلاد الطيبة.

وهناك أيضًا البضائع التى يشتريها الحجاج من هناك من ملابس وهدايا وحلى؛ والمصريون مشهورون بهذه الصفة ، فقبل أن يؤدى الحاج المصرى نسكه تجده يشترى ما يحب من ملابس وسجاجيد للصلاة ومسابح وغيرها من الهدايا الأخرى.

فهذه وغيرها من المنافع المادية التى يشهدها الحاج حينما يذهب إلى هذه الأماكن ، كذلك فإن الحاج منذ أن ينوى الحج ويبدأ فى تجهيز نفسه والإعداد لهذه الرحلة تجده يسمو بنفسه فى ملكوت الطاعة ، ولا يمكن أن يفكر فى معصية ، بعد ذلك حينما يحضر الملابس وينوى السفر ويرتدى ملابس الإحرام نقول له : انتبه هناك أشياء كانت مباحة لك قبل ذلك ، أصبحت غير مباحة لك الآن، فملابسك وهندامك[1] الذى كنت تفتخر به لابد أن تنساه حتى نهاية الرحلة ؛ لأن الناس يتميزون عن بعضهم بهندامهم فأنت تعرف قدْر الناس عادة من ملابسهم.

فالحق سبحانه يريد أن ينهى هذا التميز والاختلاف بين عباده المؤمنين فيجعل الجميع يلبسون شيئًا واحدًا هو ملابس الإحرام ، وبعد أن كنت ترتدى من الثياب أفخرها وأجملها وأطيبها، ومن العطور أذكاها ، وتذهب إلى الحلاق لتقص شعرك ، أصبح كل هذا ممنوعًا عليك. وهذا كله نوع من الأدب والالتزام والمساواة بين الناس أمام الخالق سبحانه.

فاستعداد المسلم للحج يجعله إنسانًا آخر لا يفكر فى معصية ؛ بل يسعى فى الطاعة ويسمو إلى أفعال الخير ؛ لأنه يجهز نفسه لهذه الرحلة التى يمحو الله بها ذنوبه وخطاياه ويطهره من كل معصية ، وبعد ذلك تجد أن إزالة التمييز بين الناس فى ملابسهم وهندامهم يجعلهم كلهم سواء ، فكلهم

---

(١) هندم : قال الأزهرى : الهِندام الحسن القَدّ. انظر لسان العرب [١٢/ ٦٢٤].

يرتدون ملابس الإحرام وكلهم شعثٌ غبرٌ [1] مثل بعضهم ، ثم يؤدب الله جوارحهم فيأمرهم بعدم قتل الصيد أو قطع الشجر ، وعدم الحلق أو التقصير أو حتى خلع شعرة واحدة وعدم التطيب إلى غير ذلك[2].

فهذا انضباط أقوى من انضباط الجنود فى الجيش. فالحاج تأدب أولا مع بنى جنسه فى أن كل تميز أو فوارق بينهم انتهت ، ثم تأدب مع جوارحه فكل جارحة لها عمل تلتزم به ، ثم تأدب مع النبات فلا يخلعه أو يقطعه ، ثم تأدب مع الحيوان فلا يصطاده أو يتعرض له بأذى، فهو بذلك تأدب مع كل الأجناس ولم يبق إلا الجماد فقط هذا الجماد الذى تعتبره أدنى الأجناس سيأخذ منك دوراً، فتأتى للحجر الأسود لابد أن تستلمه وتجتهد فى أن تقبله[3].

---

(١) فى الحديث ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه . أن النبى ﷺ كان يقول: « إن الله عز وجل يباهى ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة ، فيقول : انظروا إلى عبادى أتونى شعثا غبراً » .
رواه أحمد فى مسنده [٢/ ٢٢٤] وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح .
الشَّعثُ : المغبر الرأس ، المتنشف الشعر الذى لم يدَّهن . [لسان العرب : ٢/ ١٦٠].
غبراً : أغبر الشيء : علاه الغبار ، أى التراب . (والمعنى ركبهم غبار الطريق لطول السفر ، وعدم الاعتناء بالمظهر) . [لسان العرب : ٥/ ٥] .

(٢) قال عبد الرحمن الجزيرى : نهى الشارع المحْرِمَ عن أشياء بعضها لا يحل فعله، وبعضها يكره فعله: يحرم على المحرم عقد النكاح، وكذا الجماع ودواعيه، ويحرم الخروج عن طاعة الله بأى فعل محرم، وتحرم المخاصمة مع الرفقاء والخدم وغيرهم، ويحرم التعرّض لصيد البر بالقتل أو الذبح، ويحرم استعمال الطيب كالمسك فى ثوبه أو بدنه، وقلْم الظفر، ويحرم على الرجل أن يلبس مخيطًا، أو محيطًا ببدنه، أو ببعضه : كالقميص والسراويل، والعمامة والجبة، ويحرم أن يزيل شعر رأسه بالحلق أو القص أو غيرهما كما يحرم إزالة شعر غير الرأس. [الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٦٥٤،٦٥٥،٦٥٦،٦٥٧].
روى سالم عن أبيه قال : سأل رجلٍ رسول الله ﷺ : ما يترك المحرم من الثياب ؟ فقال: "لا يلبس القميص، ولا البُرنُس، ولا السراويل ولا العمامة، ولا ثوبًا مسّه ورسٌ، ولا زعفران ، ولا الخفَّين، إلا لمن لا يجد النعلين، فمن لم يجد النعلين فليلبس الخفين وليقطعهما حتى يكونا أسفل من الكعبين" . أخرجه أبو داود [١٨٢٣] وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [١٦٠٧].

(٣) عن ابن شهاب عن سالم أن أباه حدثه قال : قبَّل عمر بن الخطاب الحجر ثم قال : =

والحجر رمزية الجماد ؛ لأن الجماد كل شيء ليس فيه النمو أو الحس فنجد الحاج الذى لا يتمكن من تقبيل الحجر الأسود يحزن ويشعر أن شيئًا قد نقص من حجه ويحاول ويتعب ويزاحم حتى ينال هذا الشرف ويقبل الحجر.

فانظر إلى انكسار نفس هذا الإنسان ، وهو السيد الأعلى لجميع الأجناس يتأدب مع كل الأجناس ويأتى لأدنى الأجناس ليقبله ، فانظر إلى طمأنينة النفس البشرية إلى أدنى أنواع أجناس الأرض.

إن المنافع التى يشهدها الحجاج تشمل المنافع الدينية والدنيوية ؛ لأن الحاج يظل فى طاعة لله ومراقبة له وهو يقول: «لبيك اللهم لبيك» ومعنى لبيك ، أى أن كل مشاغل الدنيا تطلبنى وأنت يا رب طلبتنى ، فأنا ألبيك أنت أولا ؛ لأنك خالقى وخالق الأشياء التى تشغلنى عنك، والأيام المعلومات : هى أيام التشريق.

معنى ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٨] أى يذكرون الله ويشكرونه على الرزق الذى أعطاه لهم من بهيمة الأنعام استمتاعًا بها أكلا، واستمتاعًا بأثمانها بيعًا ، وقبل ذلك تشكر الله على أنه سخر لك هذه الأشياء[1] ؛ لأن الله سبحانه وتعالى خلق خلقًا ذلله لنا قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾. [يس: ٧١، ٧٢] فأنت لم تأخذ هذه المخلوقات وتطوعها لخدمتك بقوتك أنت ؛ بل لأن الله هو الذى ذللها لك، ولذلك الحق سبحانه يترك بعض خلقه غير مستأنس ولا مذلل ؛ ليبين لك أنه لولا أن الله سخر لك هذا وذلله ما كنت تستطيع أن تنتفع به.

= أمَ والله لقد علمت أنك حجر ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك".
أخرجه مسلم رقم [١٢٧٠] وفى لفظ "رأيت رسول الله بك حفيا".

(١) يعنى الإبل والبقر والغنم كما فصلها سبحانه وتعالى فى سورة الأنعام ﴿ثمانية أزواج﴾. فى تفسير ابن كثير [٣/ ٢١١] .

وكنت ضربت لكم مثلا بالبرغوث وهو حشرة ضئيلة ، ولكن لأن الله لم يسخره لك ، فهو يستطيع أن ينغص عليك عيشك، يحرمك من النوم ويحرمك من الراحة ، كذلك أى ثعبان صغير يستطيع أن يفزع مجموعة من الناس ويرعبهم ومثله أى ذئب أو حيوان مفترس ، لكن انظر إلى الجمل هذا الحيوان الضخم الذى يقوده طفل صغير لماذا؟ لأن الله سخره لك وذلله.

فالله تعالى يريد أن يذكرك أنك لم تذلل لنفسك هذه الأشياء ولكن الله هو الذى ذللها لك وسخرها لخدمتك .

مع أن هذا الجمل أو هذه الجاموسة أو البقرة ، لو هاجت لما استطاع أحد أن يقف فى طريقها ، ولكن أنت تستخدمها وتستفيد بها وتشرب ألبانها وتأكل لحومها ؛ لأنها مسخرة لك من الله.

ومنتهى التذليل أن الحيوانات التى أحلها الله لك تظل تنتفع بها طوال عمرك ، فإذا حدث لها أى شىء يزهق روحها تجدها تمد رقبتها طالبة الذبح، والفلاحون عندما يقولون : « البهيمة طلبت الحلال » فكأنها تقول لك أنا لم أعد أنفعك فى حياتك ، فاجتهد أن تأكل لحمى بتذكيتى .

والحيوان الذى لم يُبح الله لنا أكله تجده يموت دون أن يمد رقبته للذبح فسبحان الله! فالشكر لله يكون على أنه خلق لنا هذه الحيوانات النافعة وذللها لنا مع أن منها ما هو أضخم وأقوى منا ، ونحن لم نستطع أن نذلل ما هو أضعف وأصغر منها.

ولذلك الفلاح يستخدم حماره فى حمل مخلفات وروث المواشى إلى الحقل لتسميد التربة ، ويحمل عليه الغلال إلى السوق ثم يركبه ويقضى به مصالحه فى المدينة ، والحمار فى كل ذلك مطيع لصاحبه لا يكل ولا يمل ولا يتمرد لأنه مذلل.

وقوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ مع أن الذبح فى

الحج مقصود به إطعام الفقراء والمحتاجين من أهل الحرم ، إلا أن الله تعالى فى هذه الآية قدم الأكل على إطعام البائس الفقير ، وذلك لأن السادة من العرب قبل الإسلام كان الواحد منهم إذا ذبح ذبيحة للفقراء والمساكين يستنكف أن يأكل منها ، وما دام يستنكف أن يأكل منها فلا يهمه أن تكون سمينة مليئة بالشحم واللحم ، أو أن تكون نحيفة مهزولة ليس فيها شىء من ذلك، لكن لو عرف أنه سيأكل منها لابد أن يختارها سمينة وملئة باللحم[(١)].

والبائس[(٢)] هو الذى يبدو على شكله وهيئته أنه مسكين ، لكن الفقير قد لا يملك شيئًا ولكن هنا لا يمنع أن تكون ملابسه نظيفة وهيئته معقولة، والأكل يكون من لحوم الهدى التى تتطوع بها دون أن يكون عليك شىء ، مثل القران أو دم التمتع، أو دم لجبر مخالفة من المخالفات فى الإحرام فتجبره بدم ، مثل التعطر خلال فترة الإحرام ، أو تقليم الأظافر ، أو قص الشعر ، أو تقصيره ، كل هذه تستوجب الكفارة بدم[(٣)].

---

(١) وقال سفيان الثورى عن منصور عن إبراهيم ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم ، فرخص للمسلمين فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل.
انظر تفسير ابن كثير [٣/ ٢١١]

(٢) البؤس والبأس والبأساء : الشدة والمكروه إلا أن البؤس فى الفقر والحرب أكثر ، والبأس والبأساء فى النكاية . معجم مفردات ألفاظ القرآن للأصفهانى [٣٢].

(٣) الدماء فى الحج:

١- دم هدى : وهو ما يهدى من النعم للحرم ، ويكون من الإبل ماله خمس سنين فأكثر ومن البقر ما له سنتان فأكثر، والغنم ما له سنة فأكثر ، وهو واجب على من ترك واجبًا من واجبات الحج أو العمرة كالتمتع والقران أو ترك الحلق أو التقصير.

٢- الهدى المنذور : وهو واجب بالنذر.

٣- هدى التطوع وهو ما يتطوع به المحرم وفى الهدى خلافات كثيرة مفصلة فى كتب الفقه.

والأشياء التى إذا تركها الحاج لزمه دم :

١- عند ترك الإحرام من الميقات. =

فالأكل يكون من لحوم الهدى التى تتطوع بها للبيت دون أن يكون عليك شىء ، لكن إن نذرت هديًا لا تأكل منه ، وإن كان دم قران لا تأكل منه ، وإن كان دم تمتع لا تأكل منه، وإن كان دم جبر لذنب صنعته فى الإحرام لا تأكل منه. وإنما تأكل من الصدقة المحض أو التطوع المحض .

وانظر إلى رحمة الله تعالى فى أنه أراد أن يجعل الغنى القادر هو الذى يشترى الجمل أو البقرة أو الخروف ، ثم يذبحها ويبحث عن البائس الفقير المحتاج ليأكل منها.

فالغنى هو الذى يتعب ويبحث ويشترى ويذبح ، والفقير لا يكلف نفسه عناء شىء من ذلك ، وما عليه إلا أن يأكل ويشكر الله ، فكأن الله تعالى يقول للفقير: أنا لم أحرمك ولكن سخرت لك من يتعب من أجلك.

= ٢- عند ترك طواف الإفاضة.
٣- عند ترك طواف السعى.
٤- عند ترك طواف واجب من واجبات الحج - الرمى - المبيت بمنى - الوجود بالمزدلفة.
٥- عند فعل ما يبطل الحج فعليه دم وعليه القضاء.
٦- دم الإحصار : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾. [البقرة : ١٩٦]
٧- التمتع : ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾.
٨- القران : لحديث رواه الشيخان : أن النبى ﷺ ذبح شاتان وكان قارنا.
٩- دم قتل الصيد : لقول عمر لمن قتل ظبيًا "اعمد إلى شاة فاذبحها وتصدق بلحمها واسق إهابها"
ومن احتاج إلى الحلق وهو محرم فهو مخير بين ثلاثة.
١- صوم ثلاثة أيام.
٢- إطعام عشرة مساكين.
٣- ذبح شاة للفقراء.
لقوله تعالى ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾
- من تصيد صيدًا فقتله عامدًا عالـمًا فعليه مثل ما قتل من النعم - أو إطعام مساكين أو عدل ذلك صيامًا .

بعد ذلك يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩] القضاء إما أن يكون قضاء من الله على الإنسان بأمر لازم محكوم به ، وإما أن يكون قضاء من إنسان بين اثنين متخاصمين والقضاء يقطع الخصومة أولا.

إذن القضاء هنا معناه القطع أى : ليقطعوا تفثهم ، ولكن ما هو التفث؟ قال العربى : والله ما عرفنا كلمة التفث فى لغتنا إلا فى القرآن الكريم، فلم تكن كلمة معروفة ودائرة على ألسنة العرب. فلما سألوا رجلا من البادية عن معنى التفث قال: هو الوسخ الذى يأتى على الجسم من التراب والعرق مثلا؛ لأن الحاج يظل مدة بلباس الإحرام لا يتطيب ولا يحلق شعره أو أظافره أو شاربه فكل هذا من التفث فبعد أن يتحلل من إحرامه يقطع هذا التفث[1].

فمعنى ﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُم﴾ أى يقطعون ويزيلون الأدران التى لحقتهم من التزام موجبات الإحرام، وإن كان على أحدهم نذر فليوفه، ثم يطوفون بالبيت العتيق طواف الإفاضة، والطواف هو أن تدور حول شىء فتبدأ من نقطة وتنتهى عندها ؛ الطواف حول الكعبة معروف .

والبيت العتيق: هو الكعبة المشرفة ، وكلمة عتيق تستخدم فى اللغة استعمالات واسعة ، والعتيق بمعنى القديم، وما دام هو أول بيت وضع للناس فهو قديم.

والعتق يُمدح ؛ لأن الشىء حين يكون قديمًا فمعنى ذلك أنه هام ومحافظ

---

(١) التفث : هو نتف الشعر، وقص الأظفار، وتنكُّب كل ما يحرم على المحرم، وكأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال. [لسان العرب : ٢/ ١٢٠] .

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ . قال ابن عباس : التفث : حلق الرأس ، وأخذ من الشاربين ، ونتف الإبط وحلق العانة ، وقص الأظفار ، والأخذ من العارضين ، ورمى الحجارة ، والموقف بعرفة والمزدلفة . [تفسير الطبرى : ١٧/ ١٤٩] .

عليه، ولا يحافظ على شيء إلا إذا كان مهمًا أو له مكانه فى النفوس، ومن ذلك الآثار والتحف، والعتيق أيضًا هو الشيء الجميل الحسن، والعتيق هو المعتوق من سيطرة الغير مثل عتق العبد أيام وجود الرق والاستعباد ، فبيت الله عتيق لقدمه ؛ لأنه أول بيت وضع للناس، وعتيق بمعنى نفيس ومهم ؛ لأننا حينما نزوره يطهرنا الله من الذنوب، وهذا شيء يحبه ويتمناه كل مسلم ، كما أنه بيت الله، وهو أيضًا معتوق من سيطرة الغير ؛ لأن الله يحميه من سيطرة الجبابرة وتحكمهم[1]. فأبرهة حين أراد أن يهدم الكعبة أهلكه الله ودمر جيشه بأن سلط عليه أضعف جند من جنود الله وهى الطير الأبابيل ، وجعله عبرة لكل طاغية يحاول أن يمس بيت الله بالسوء. وحتى الفيل وهو حيوان أعجمى كانوا إذا وجهوه إلى الكعبة برك [2]. وقد ذكر أن الفيل كان اسمه محمود وقيل له فى أذنه: ابرك محمود وارجع راشدًا فإنك فى بلد الله الحرام، فرفض الفيل أن يتحرك خطوة واحدة إلى الأمام .

وحينما ذهب عبد المطلب إلى أبرهة ليكلمه فى الإبل التى أخذها جيشه قال له أبرهة متعاليًا: كنت قد تهيبتك لأنك سيد قريش ، وبعد ذلك تأتِ لتكلمنى فى مائة بعير أصبتها لك ولا تذكر أى شيء عن البيت الذى فيه

---

(١) عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما سُمِّى البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار » . أخرجه الترمذى [٣١٧٠] واللفظ له ، وقال : هذا حديث حسن صحيح، وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى رقم [٦١٩] ، وأخرجه الحاكم فى المستدرك [٢/ ٣٨٩] وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه.

والبيت العتيق بمكة لقدمه ؛ لأنه أول بيت وضع للناس، قال الحسن : هو البيت القديم، دليله قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦] وقيل لأنه أعتق من الغرق أيام الطوفان، دليله قوله تعالى : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ وهذا دليل على أن البيت رفع وبقى مكانه.

وقيل : إنه أُعتق من الجبارة، ولم يدَّعه منهم أحد .

وقيل : سمى عتيقًا لأنه لم يملكه أحد، والأول أولى. لسان العرب [١٠/ ٢٣٦].

(٢) برك البعير : إذا أناخ فى موضع فلزمه. لسان العرب [١٠/ ٣٩٦].

مجدكم والذى جئت لأهدمه؟! لقد سقطت من نظرى. فما كان من عبد المطلب إلا أن قال له: أنا رب هذه الإبل ، وللبيت رب يحميه. وهذه حجة قوية فهو لم يترك البيت لمصيره خوفًا أو ضعفًا ، وإنما تركه ؛ لأنه يعلم يقينًا أن له ربا يحميه ويدافع عنه، وهذا الكلام زلزل أبرهة وأغاظه[1].

---

(١) قصة أصحاب الفيل معروفة متواترة ، وجعلها العرب مبدأ تاريخ يؤرخون به ؛ فيقولون: حدث ذلك عام الفيل ، أو بعد عامين من عام الفيل ، وهكذا .

والقصة كما تروى : أن أبرهة بن الصباح ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشى ، بنى كنيسة فى صنعاء تسمى (القُلَّيس) ، وعزم على أن يصرف حج العرب إليها كما يُحج إلى الكعبة بمكة ، فخرج رجل من بنى كنانة فقعد فيها ليلا ، ويقال : إنه قضى بها حاجته أو أنه أحرقها ، فأغضب الملك ذلك ، فحلف ليهدمن الكعبة .

فخرج بالأحباش راكبا فيلا عظيما قويا كبير الجثة لم ير مثله ، يقال له (محمود) ، ويقال : كان معه اثنا عشر فيلا غيره لإرهاب العرب قاصدا مكة متغلبًا على كل من وقف فى طريقه ، حتى وصل إلى المغمس قرب مكة ومعه رجل من ثقيف يقال له : (ابورغال) دليلا . ثم أرسل أبرهة رجلا من الحبشة يقال له : الأسود بن مقصود ليغير على الأمكنة القريبة، فساق إلى أبرهة أموال قريش ، ومنها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وبعث حناطة الحِمْيَرى إلى مكة ليأتى له بسيد هذا البلد وشريفهم ، ليخبره أنه لم يأت لحربهم وإنما أتى لهدم البيت العتيق .

ويقال : إن عبد المطلب أقبل على أبرهة ـ وكان رجلا جسيما حسن المنظر ، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعظمه واكرمه ، فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ . فقال : حاجتى أن يرد علىّ الملك مائتى بعير أصابها لى ، فلما قال له ذلك ، قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه ، لا تكلمنى فيه ؟! .

قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه ، وقال : ما كان ليمتنع منى ، قال : أنت وذاك .

ثم رجع عبد المطلب وأخبر قومه بضرورة الخروج من مكة والتحصن والتحرز بالجبال ، وذهب هو إلى البيت يدعو ويلح فى الدعاء .

وعبأ أبرهة جيشه فى الصباح ، وهيأ فيله ، فلما وجهوا الفيل (محمود) إلى مكة =

. . . .

= أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه ، فقال : ابرك محمود ، أو ارجع راشدا من حيث جئت ، فإنك فى بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى صعد الجبل ، فكانوا كلما وجهوا الفيل إلى جهة البيت برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى اليمن أو الشام أو الشرق أسرع وهرول .

وفى اليوم الثانى أرسل الله عز وجل جنده بحجارة من سجيل على جند أعدائه ، فتناثر لحمهم وتساقط ، وهلكوا فى كل طريق ودرب ؛ وحفظ الله بيته وحمى حرمه ، وجعل نفيل يقول :

أين المفر والإله الغالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

قال السهيلى فى الروض الأنف : إنه سمع من يقول : إن الفيلة صنفا منها يبرك كما يبرك الجمل .

[راجع كتب: السيرة لابن هشام [١/١٦٣] ، والروض الأنف للسهيلى ، وسبل الهدى والرشاد للشامى [١/٢١٤] ، والتفسير الكبير للفخر الرازى [٣٢/٩٦] وغيرها].

* ملة إبراهيم *

قال تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٤] هذا القول موجه لمن يدَّعون الانتساب بالدم أو العرق إلى اتباع إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب(١).

هذا القول الكريم يحدد أن خير تلك الأمة الكريمة بإيمانها لايمتد إلى الذين حرفوا التوراة واكتفوا بنسب الدم امتيازًا فوق البشر ولا يتبعون منهج الحق. إنهم سوف يقولون بعد ذلك : إن إبراهيم عليه السلام كان حنيفًا مسلمًا، إن بعضًا من اليهود يدعون المسلمين إلى ترك منهج الله الحق، واتباع ملة اليهود المحرفة وبعضًا من النصارى يفعلون مثلما يفعل اليهود. وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥] إن الآية الكريمة تحدد ثلاثة

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما : «أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقى عالمًا من اليهود فسأله عن دينهم فقال : إنى لعلى أن أدين دينكم فأخبرنى، فقال : لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد : ما أفر إلا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنَّى أستطيعه ؟ فهل تدلنى على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال زيد : وما الحنيف؟ قال : دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانيًا ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقى عالمًا من النصارى، فذكر مثله، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئًا وأنَّى أستطيع؟ فهل تدلنى على غيره؟، قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا. قال: وما الحنيف؟ قال : دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله. فلما رأى زيد قولهم فى إبراهيم عليه السلام خرج، فلما برز رفع يديه فقال : اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم» . أخرجه البخارى برقم [٣٨٢٧].

من العناصر كل منها يكذب الآخر: بعض من اليهود الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله، بعض من النصارى الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله ، بعض من المشركين الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله. لكن الحق يحدد الهدى الصحيح أنه ملة إبراهيم الذى عرف التوحيد بالإله الواحد الحق. وجاء رسول الله بالرسالة النورانية ، رسالة الإسلام ، وأكد الإسلام ما جاء به موسى وتوراته الصحيحة فآمن المسلمون بموسى والتوراة الصحيحة ، كما أكد الإسلام ما جاء به عيسى وإنجيله الصحيح.

لقد جاء رسول الله ﷺ ليؤمن بكل الرسل، وما جاء به الرسل من كتب سماوية . ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فمعنى ذلك أن الإسلام ينظر إلى الوحدة الإيمانية المعقودة بين كل من يؤمن بالله . وعلى ذلك فالإسلام هو الدين الجامع لجوهر المنهج الحق. ومن يدَّعى غير ذلك فله عقابه على عدم اتباعه لمنهج الحق.

إن الذين يدعون بتوراة محرفة، أو إنجيل لم ينقل إلى العهود التالية بكل صوابه، هؤلاء مدعوون إلى أن يعودوا إلى الأصل ملة إبراهيم. إن إبراهيم هو الأصل وهو القدر المشترك بين الكل ؛ سواء من أبناء إسماعيل أو أبناء إسحاق.

إن الحق يردهم إلى الأمر المتفق عليه. وهو : ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾. إن المعنى اللغوى للحنف[1] هو ميل فى كل ساق وقدم، إلى الساق والقدم الأخرى، فالرِّجل اليُمنى تميل إلى الرجل اليسرى . قد يقول قائل: إذا كان

---

(١) الحنف : الاعوجاج فى الرِّجل ، وهو أن تقبل إحدى إبهامى رجليه على الأخرى . وقيل : هو انقلاب القدم حتى يصير بطنها ظهرها . وقيل : ميل فى صدر القدم . [لسان العرب : ٩/٥٦] .

الحنف اعوجاجًا فى الأرجل فكيف يرمز بالحنف إلى الصراط المستقيم؟

وهنا نقول : إن الرسل لا يبعثهم الله إلا حين تكثر الغفلة عن منهج الله . إن الحق يُرسِل الرسول ويوجد من أتباع الرسول من يحمل منهج الله الذى جاء به الرسول .

ويوجد أيضًا أناسٌ تتحول بدعوة الرسول أو أتباعه بعيدًا عن المنكر. هذا التحول فيه الخير كل الخير ؛ ونحن نعرف أن الشر فى النفس البشرية يكون أحيانًا على لونين :

لون ذاتى فى النفس: بمعنى أن الإنسان قد يصنع شرًا مرة فيصحو ضميره ليؤنبه على ذلك ، ويعود مؤمنًا تائبًا إلى الله وذلك ما نسميه النفس اللوَّامة.

أما إذا تأصل الشر فى النفس البشرية ؛ فإن هذه النفس لا تأمر بالسوء ولكن تحترف السوء . ويوجد فى المجتمع نفوس أخرى مؤمنة مطمئنة تدعو صاحب النفس الأمارة بالسوء إلى التوبة وهنا يكون الوازع من خارج النفس[1].

فإذا فقد المجتمع كله النفس اللوامة وأصبحت النفوس كلها أمَّارة بالسوء ولا يتناهى أى واحد منهم عن منكر إلا ويفعله ، هنا يتدخل الحق . . إذن فالحق يترك العملية ذاتية فى النفس البشرية ، إن كانت فيها ناحية خير وناحية شر ، هنا تقوم النفس اللوامة بالتقويم والهداية. وإذا فسدت نفس واحدٍ ووجدت فى المجتمع نفوس أخرى ، فإن النفوس المؤمنة تقوِّم النفس الأمارةَ بالسوء، أما إذا فسدت كل النفوس فعند ذلك يتدخل الحق بإرسال رسول جديد.

* إبطال دعوى اليهود والنصارى فى إبراهيم *

يقول الحق عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥] إن الحق يسألهم - لماذا يكون جدالكم فى إبراهيم خليل الله؟ إن اليهود منكم ينسبون أنفسهم إلى موسى والنصارى منكم ينسبون أنفسهم إلى عيسى .

إذن فإبراهيم لا يمكن أن يكون يهوديًا كما يدعى اليهود ؛ لأن اليهودية جاءت من بعد إبراهيم ؛ والنصارى منكم لا يمكنهم الادعاء بأن إبراهيم كان نصرانيًا ؛ لأن النصرانية جاءت من بعد إبراهيم فلمَ المحاجة إذن؟ ، لقد أنزلت التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم. أليس لكم عقل تعقلون به هذه المسألة ؟ لقد جاء إبراهيم من قبل التوراة والإنجيل ، فكيف يكون تابعًا للتوراة والإنجيل؟! ثم يقول تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦]

لقد جادلتم فيما بقى عندكم من التوراة ، أم أنكم تريدون أن تأخذوا الجدل على أنه باب مفتوح وتجادلون فى كل شىء ، إنكم لا تعلمون ما يعلمه الخالق الرحمٰن علام الغيوب.

ويقول الحق بعد ذلك: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ . لم يكن إبراهيم يهوديًا؛ لأن اليهودية جاءت من بعده، ولم يكن إبراهيم نصرانيًا ؛ لأن المسيحية جاءت من بعده ، لكنه خليل الرحمٰن ﴿وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

إن إبراهيم هو أبو الأنبياء، ولو لم تكن التوراة قد حُرفت ، وكذلك الإنجيل لكان من المقبول أن يكون اليهود والنصارى على ملة إبراهيم ؛ لأن الأديان لا تختلف ولكن الشرائع هى التى قد تختلف ، لكن إبراهيم لا يمكن أن يكون يهوديًا ، باعتبار وضع التحريف الذى حدث ، وكذلك لا يمكن أن يكون نصرانيًا لنفس الأسباب لكنه ﴿كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى أنه مائل عن طريق الاعوجاج.

قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله إن إبراهيم كان على طريق الاستقامة بشكل مباشر؟ تكون الإجابة : حتى لا يضل أحد ويظن أن هذا اللون من الاستقامة مشابه لما كان موجودًا فى عصره. إنه مسلم ، وكلمة مسلم تقتضى مُسَلَّمًا إليه وهو الله. إنه أسلم زمامه إلى الله، ومسلِّمًا : هو نحن، ومسلمًا فيه : وهو الإيمان بالمنهج، ولذلك نسمى شريعتنا المسلمة : الحنيفية السمحة، أى التى مالت عن زيغ . كما يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] وذلك يعنى أن نكون مائلين عن كل زيف أو زيغ.

إذن كان إبراهيم عليه السلام ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ أى أنه كمسلم ألقى زمامه إلى مسلَّم إليه ، فى كل ما ورد فى "افعل" و"لا تفعل". يعنى التكليف أكررها مرة أخرى لتستقر فى الوجدان :

المسلم هو الذى ألقى زمامه فى كل شىء إلى مُسلَّم إليه فى كل ما ورد فى "افعل" و"لاتفعل" يعنى التكليف ، وإذا ما طبقنا هذا الاشتقاق على الأنبياء فهل كان آدم مسلمًا أم لا ؟.. إنه مسلم، وكل الأنبياء الذين سبقوا رسول الله ﷺ كانوا مسلمين . ولكنهم كانوا مسلمين للمنهج الذى كان فى أيامهم، أما الأمة التى تأخرت لتختم بها رسالات الله وهى أمة المسلمين ،

لم يعد هناك أمر جديد بـ "افعل" و"لاتفعل" حتى يأتى أحد ليشرع إسلامًا لله غير ما نزل على رسول الله ﷺ . إذن غاية الإسلام ونهايته كمنهج مسبق لذلك صار الإسلام علمًا عليها. إن الأمة المسلمة ـ أمة محمد ﷺ ـ هى التى لا يُستدرَك عليها شىء فيما بعد... لماذا؟ لأننا أسلمنا وجهنا لله. لقد كان الإسلام صفةً لكل الأنبياء والمؤمنين بكتب سابقة، ولكن الإسلام أصبح علمًا علينا ؛ لأن الذين أسلموا مع الأنبياء السابقين من لدن آدم وحتى عيسى عليهم السلام، إنما أسلموا لله فى المنهج الذى أنزله الله على أنبيائهم، فلما تغير بعض التشريع فى المنهج وجاءت الرسالة الخاتمة رسالة محمد ﷺ وجئنا فأسملنا ، أيأتى بعد ذلك شىء جديد ليسلم أُناس فيه؟.. لا. لذلك فنحن أمة رسول الله ﷺ الذين وصلنا إلى كلمة الإسلام لله وإلى نهايته، ولذلك كانت أمة محمد ﷺ هى الأمة الخاتمة كما كان نبيها ﷺ خاتم الأنبياء.

* الأمر باتباع ملة إبراهيم *

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .[آل عمران: ٩٥] إن اليهود والنصارى لم يُحضروا التوراة ليبحثوا فيها ، ولذلك يبلغ الحق رسوله ﷺ : ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ ويدعوهم الحق: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ . ونحن نعرف أن ملة إبراهيم هى التى سمّت كل المؤمنين بالله المسلمين . والدعوة إلى الإيمان بملة إبراهيم هى لإيضاح أن جوهر الإيمان لا يحتمل الخلاف ؛ لأن ركب الإيمان والرسل والأنبياء هو ركب واحد(١).

وكلمة "اتبعوا" توضح أن هناك مقدمًا كما أن هناك تابعًا، (والملة) تشمل المعتقدات والتشريعات العامة ، ونحن نعرف أن الشريعة تشمل الأحكام والدين يوضح العقائد . إذن فالملة تشمل الشريعة والعقيدة ، وعرفنا من قبل أن كلمة ﴿ حَنِيفًا﴾ تعنى وضعًا للذى يسير على خط مستقيم ، ونحن نسمى ملتنا (الحنيفية السمحة).

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

صدق الله، نعم ؛ لأن الصدق هو أن يطابق القول ما وقع فعلا ، وحين يتكلم الحق فلابد أن يوافق ذلك ما هو واقع ، فليس من المعقول أن يتكلم الله كلامًا يأتى على لسان رسول ، وعلى لسان أتباع الرسول، وبعد ذلك يأتى واقع الحياة مخالفًا لهذا الكلام.

---

(١) يقول الله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ الآية [الشورى: ١٣] .
عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الأولى والآخرة». قالوا : كيف يا رسول الله ؟ . قال : « الأنبياء إخوة من عَلات وأمهاتهم شتى ، ودينهم واحد ، فليس بيننا نبى » . أخرجه مسلم [٢٣٦٥].

إن الحق العليم أزلا ينزل من الكلام ما هو فى صالح بقاء الدعوة ؛ لذلك فحين يطلق الله قضية من قضايا الإيمان ، فإنه يعلم تمام العلم أنها سوف تحدث على وفق ما قال ، وإن كان الظرف الذى قيلت فيه لا يشجع على أن يصدق الإنسان أنها تحدث.

إن المؤمنين كانوا فى أول الأمر مضطهدين ومرهقين وإذا لم يكن لأحدٍ منهم عشيرة تحميه فهو يهاجر عن البلاد ، وإن لم يستطع الهجرة فإنه يعذب ويضطهد ، وفى هذه الأثناء وفى قمة اضطهاد المؤمنين ينزل القول الحق: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] وعندما يسمع عمر عليه رضوان الله هذا القول يتساءل ـ أى جمع هذا؟ . إن الواقع لا يشجع على التصديق، وبعد ذلك جاءت بدر، وهزم المؤمنون الجمع وولوا الدبر(١) وهذا دليل على أن الله أطلق قضية وضمن أنها ستحدث كما قال وكما أخبر، وهذا مطلق الصدق. إن الإنسان يمكنه أن يستبعد الصدق لو أن الذى قال غير الذى خلق، لكن الذى قال ذلك هو الذى خلق ويخلق ويعلم(٢) فمن أين

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنه: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ . قال : كان ذلك يوم بدر ، قال : قالوا ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر : ٤٤] قال : فنزلت الآية . أخرجه ابن جرير [٢٧/١٠٩].

وعن ابن عباس قال : قال النبى ﷺ يوم بدر : « اللهم أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تُعبد» فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك . فخرج وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ . البخارى [٣٩٥٣] .

وعن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قال عمر رضى الله عنه: أى جمع يهزم ؟ . قال عمر رضى الله عنه : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول ﴿سيهزم الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ . [الفتح ٨/١٦] .

(٢) قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ . وقال تعالى : ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] . سبحانه وتعالى جل شأنه .

يأتى التناقض ؟ وهذا معنى القول الكريم: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] إذن قول الحق : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٥] إنه قول الحق جاء من عند العليم أزلا.

ومن العجيب أن أهل الكتاب من يهود ونصارى يتمسحون فى إبراهيم؛ لذلك قال بعضهم: إن إبراهيم كان نصرانيًا. لذلك كان يجب أن يفهموا أن اليهودية والنصرانية إنما جاءت من بعد إبراهيم فكيف يكون يهوديًا أو نصرانيًا وهذه الملل قد جاءت من بعده ؟! لذلك جاء القرآن الكريم يقول: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾(1) وقد أوضح الحق بعد ذلك دين إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧] فكيف يمكن أن يختلفوا على إبراهيم أنه كان يهوديًا أو نصرانيًا ، إنه كلام لا يصدر إلا من أغبياء ، وعندما يقول الحق عن إبراهيم ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فهل أهل الكتاب مشركون؟ نعم ؛ لأنهم حين يؤمنون بالبنوة لعزير عند اليهود ، ويؤمنون بالبنوة لعيسى عند النصارى فهذا إشراك بالله ، وأيضًا كان العرب عبدة الأصنام يقولون : إنهم على ملة إبراهيم ؛ لأن طقوس الحج جاء بها إبراهيم لذلك ينزه الحق إبراهيم عن ذلك ويقول : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وذلك يدل على أن ملة إبراهيم وما جاء موافقًا لملة إبراهيم ، وما جاء إجابة لدعوة إبراهيم ، داخل فى ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ﴾.

---

(1) روى ابن إسحاق بسنده إلى ابن عباس ، قال : اجتمعت نصارى نجران ، وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا .
وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ الآية .
أخرجه البيهقي في دلائل النبوة [٥/ ٣٨٤] وذكره الماوردي [١/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠] .

* ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا *

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]. قيم مأخوذة من القيمة[1] ، أى إن هذا الدين فيه كل القيم التى تقوم عليها الحياة، فقيمًا تؤخذ من القيمة ومن القيام على الأمر أى مباشرته بما يصلحه، كذلك جاء الدين ليصلح للناس حركة حياتهم ، فأعطاهم القيم التى تصلح الحياة ، وهذا الدين قائم عليهم ، أى كلما اختلفوا فى شىء ردوه إليه ؛ لذلك فقيامه مستمر لا ينتهى.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ نجد أن الله فى كثير من أمور الدين يأتى لنا بإبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، لماذا؟ لأن إبراهيم فيه القدر المشترك الذى يجمع كفار مكة واليهود والنصارى، فاليهود والنصارى يتمسحون فيه، فاليهود يقولون : إبراهيم كان يهوديًا ، والنصارى يقولون : كان نصرانيًا، ولكن الله يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧] [2].

---

(١) القيمة : واحدة القيم، وأصله الواو ؛ لأنه يقوم مقام الشىء، والقيمة : ثمن الشىء بالتقويم. تقول : تقاوموه فيما بينهم، وإذا انقاد الشىء واستمرت طريقته فقد استقام لوجهه. [لسان العرب ١٢/ ٥٠].

(٢) إن أصحاب الديانات فى العالم كله خاصة الذين يدَّعون كذبا نسبهم إلى إبراهيم عليه السلام ، لو أنهم نظروا إلى إبراهيم نظرة صادقة وبقلب خالص وعقل راجح ؛ لعلموا يقينا أن إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء جميعا ، والله عز وجل يقول : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ =

فاليهودية والنصرانية جاءت بعد إبراهيم هذه هى حكاية اليهود والنصارى فماذا عن المشركين من أهل مكة؟ . هؤلاء كان البيت كل حركة حياتهم؛ تجارتهم، زعامتهم، غناهم، نفوذهم بين العرب والبيت ، من آثار إبراهيم فهو الذى ترك ذريته عنده ، ولم يكن هناك زرع ولا ماء عند البيت، وفى ذلك يقول الحق: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وإبراهيم هو الذى رفع القواعد من البيت مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ . إذن فكل المهابة هى من آثار إبراهيم، ولذلك كان المشركون يدَّعون زيفًا أن ما يتبعونه هو دين إبراهيم، والحقيقة أنهم يعيشون فى آثار خيرات إبراهيم ولكنهم لا يتبعون دينه.

= اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ . [البقرة: ١٣٠ - ١٣٣]

إذن فلنلتزم جميعا بملة إبراهيم عليه السلام ومن حاد أو بعد عنها فهو سفيه ، فالسفهاء هم الذين صدوا عن ملة إبراهيم ، وهم الذين بعدوا عن ملة إبراهيم .

* ولكن ليطمئن قلبى *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠] . إبراهيم عليه السلام مؤمن بقدرة الله، لكنه يريد أن يعرف الكيفية. إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكا ؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾» (١) ونحن المسلمين لم نشك فى هذا الأمر. إذن فإبراهيم عليه السلام لم يشك من باب أولى. إن الرسول الكريم قال ما معناه: إن كان هناك شك فنحن أولى بالشك من إبراهيم ، وإبراهيم عليه السلام لم يشك بدليل منطق الآية السابقة.

إن إبراهيم عليه السلام يسأل ربه : ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ ؟ أى إنه يطلب الحال التى تقع عليها عملية الإحياء. إن إبراهيم عليه السلام لا يتكلم فى القدرة على الإحياء، ولنضرب هذا المثل فى حياتنا ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ والمثل لتقريب المسألة من العقول ؛ لأن الله منزه عن أى تشبيه . إن أحدنا يقول للمهندس المعمارى : كيف بنيت هذا البيت؟ إن صاحب السؤال يشير إلى حدث وإلى محدَث هو البيت وقد تم بناؤه. إن صاحب السؤال يريد أن يعرف الكيفية . ولنا أن نسأل : وهل معرفة الكيفية تدخل فى عقيدة الإيمان؟ إن الإجابة هى: أن معرفة الكيفية لا تدخل فى عقيدة

---

(١) أخرجه البخارى [٤٥٣٧] ، واللفظ له ، ومسلم [٢٣٧٠] كلاهما عن أبى هريرة رضى الله عنه.

الإيمان، إنها ترف زائد عن عقيدة الإيمان. إن عقيدة الإيمان هى أن يعلم المؤمن أن الله يحيى الموتى، أما كيف يحيى الموتى؟ فلا مدخل لها فى قضية الإيمان.

ولذلك نجد أن بعض السطحيين قالوا - والعياذ بالله - عن إبراهيم قال: أرنى كيف تحيى الموتى، فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ قال إبراهيم: ﴿بَلَى﴾ إن كلمة ﴿بَلَى﴾ حين نسمعها هى جواب بما بعد النفى. إنها جاءت هنا بمعنى محدد هو : بلى أنا مؤمن بقدرتك سبحانك على الإحياء والإماتة. وهذا هو القدر الكافى فى العقيدة الإيمانية، أما محاولة إبراهيم عليه السلام أن يعرف الكيفية فذلك لا مدخول لها فى قضية العقيدة .

هذا البعض من الناس قال: إذا كان إبراهيم مؤمنًا ، والإيمان كما نعرف هو اطمئنان القلب إلى قضية ما ، بحيث لا تطفو لتناقش من جديد، ولذلك نسمى هذا الأمر عقيدة، أى أمر معقود ، فكيف يقول إبراهيم عليه السلام : ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾؟ أليس هذا القول دليلا على أن قلبه لم يكن مطمئنًا؟ ومعنى عدم اطمئنان القلب هو خلو القلب من الإيمان. لكن الرد على مثل هذا القول: هو سؤال محدد: إلى أى شىء أراد إبراهيم أن يطمئن قلبه؟ إن إبراهيم عليه السلام أراد أن يطمئن إلى الكيفية ، ويطمئن إلى أنه أدار بفكره الكيفيات التى يكون عليها الإحياء. إنه لم يعرف على أى صورة يكون الإحياء. إن الاطمئنان هنا قادم لمراد فى كيفية مخصوصة تخرجه من متاهات كيفيات متصورة ومتخيلة.

هنا قال الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠] إن الحق يعلم أن إبراهيم عليه السلام مؤمن تمام الإيمان، ولكنه يسأل عن الكيفية ، والكيفية لا يمكن أن يتم شرحها بكلام إنما يتم شرحها بعملية واقعية. إن الحق يأمر إبراهيم عليه السلام أن يأخذ أربعة من الطير الحى ويضمهن إلى صدره ليتأكد من ذوات الطير، حتى لا يقول إن الحق سبحانه ربما أحضر إليه طيرًا آخر .

وقال المفسرون : إن الأربعة من الطير لم تكن من نوع واحد ؛ بل مختلفة ففيها غراب وطاووس وديك وحمامة، وكل نوع له شكلية مخصوصة.

وأمر الحق سبحانه إبراهيم أن يجعل على كل جبل من هذه الطيور جزءًا، بعد أن يذبحهن ويقطعهن، ثم يوجه إلى هذه الطيور الدعوة، فتأتى الطير إلى إبراهيم عليه السلام سعيًا. هذه العملية.. هل قام بها إبراهيم أم لم يقم بها؟ هل اكتفى إبراهيم بما شرحه الله له بالكيفية ؟ إن القرآن الكريم لم يتعرض لهذه المسألة ، فإما أن يكون الله قد قال لإبراهيم عليه السلام الكيفية فقال إبراهيم عليه السلام : بدلاً من أن أقوم بهذه العملية فأنا مصدق لقولك يا ربى سبحانك وتعاليت ، وإما أن يكون إبراهيم عليه السلام قد قام بهذه العملية. إن الأمر فى الحالتين جائز ؛ لأن القرآن الكريم لم يتعرض لذلك.

وعندما يقول الحق: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ وقد يقول قائل: ألم يكن من المقرر أن يقول الحق «يأتينك طيرانًا» ؛ لأن الحديث يدور حول الطير، والطيران من خصائصه وليس السعى. إن الحق أراد بذلك أن يوضح الأمر بصورة محددة ؛ لأن الطير جاء طيرانًا، فهو يطير فى الجو، وقد يقول إبراهيم، إن الطير قد اختلط على بعضه وجاء إليه، إنما المجىء للطير بالسعى هو إيضاح كامل . وذلك ليكون إبراهيم عليه السلام متأكدًا بالكيفية. فجاءت الطير من أنواع مختلفة ، وهو الذى قام بذبحها وتقطيعها، وهو الذى وضع على كل جبل جزءًا ، وهو الذى دعا الطير.

وهنا ملحوظة فى طلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى، وهى فى الفرق بين القدرة الواجبة لواجب الوجود، وهو الحق سبحانه وتعالى، والقدرة الممنوحة من واجب الوجود لممكن الوجود، وهو الإنسان. إن الحق له قدرة، قدرة الحق واجبة ذاتية لا حدود لها. والإنسان له قدرة، وقدرة الإنسان ممكنة وهى قدرة محدودة مستمدة من خالق كريم. والإنسان من البشر حين تكون له قدرة ويكون هناك واحد لا قدرة له، أى عاجز، يستطيع القادر من البشر أن يعدى[1] آخر قدرته إلى العاجز. بمعنى آخر.. الواحد منا قد لا يستطيع

(١) التَّعدى : مجاوزة الشىء إلى غيره . [لسان العرب : ١٥/٣٣] .

بمفرده أن يحمل كرسيًا ثقيلا، ولكن هناك إنسانًا آخر يستطيع أن يفعل ذلك له. إن هذا الآخر قد عدى للعاجز أثر قدرته ، وقدرة القادر مازالت معه، إنه يحمل الكرسى للضعيف. لكن الحق سبحانه وتعالى يقول ما معناه : أنا أعدى من قدرتى إلى من لا يقدر، فيقدر. أنا أقول للضعيف كن قادرًا فيكون[1] . وهذا خلاف واضح بين قدرة الحق وقدرة الخلق.

إن البشر قد يستطيعون أن يعدوا أثر قدرتهم للعاجزين منهم. أما الحق سبحانه فحين يريد أن يعدى أثر قدرته إلى العاجز ، فهذا معناه أن يصبح العاجز قادرًا ، فإن القوة توجد فيه. وهذا ما نفهمه من قوله سبحانه لإبراهيم: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ إن إبراهيم كواحد من البشر عاجز عن كيفية الإحياء، ولكن الحق يعطيه القدرة على أن ينادى الطير ، فيأتى الطير سعيًا .

وهذا هو الفرق بين القدرة الواجبة وبين القدرة الممكنة. إن قدرة الممكن لا يعديها الإنسان لخال منها ، ولكن قدرة واجب الوجود يعديها إلى من لا يقدر فيقدر.

ولذلك يأتى القول الحكيم ، بخصائص عيسى ابن مريم عليه السلام : ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩] إن خصائص عيسى ابن مريم

---

(١) قال الماوردى : قوله عز وجل : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ . فيه وجهان :
أحدهما : معناه أن يأمر فيوجد .
الثانى: ما قاله قتادة : أنه ليس شىء أخف فى الكلام من ﴿كُن﴾ ولا أهون على لسان العرب من ذلك . فجعله الله تعالى مثلا لأمره فى السرعة. [تفسير الماوردى: ٥/ ٣٤].

لا تكون إلا بإذن من الله. فقدرة عيسى عليه السلام أن يصنع من الطين ما هو على هيئة الطير ، وإذا نفخ فيه بإذن الله لأصبح طيراً . وكذلك الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، إن ذلك كله بإذن ممن ؟ بإذن من الله. ونفس الأمر ينطبق على قول الحق لإبراهيم عليه السلام كواحد من البشر عاجز عن ذلك، ولكنه بأمر من الله يستطيع ذلك. إن إبراهيم حين طلب أن يرى قدرة الله فى إحياء الموتى ، كان مؤمنًا إيمان الاستدلال . وذلك واضح فى قول الحق: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ ﴾ .

إن إبراهيم مؤمن إيمان الاستدلال، والمطلوب له الكيفية ؛ لأنه يجهل الحالة التى تكون عليها كيفية الإحياء. إذن فقول إبراهيم: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ أى إنه يطلب الاطمئنان لقلبه على حالة من الكيفية تخرجه من متاهة تخيل كيفيات أخرى. ويكون الأمر من الإله الحق: ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ إن الله عزيز أى : لا يغلبه أحد. إن الله حكيم أى يضع كل شىء فى موقعه . وحين يعدى الحق سبحانه أثر قدرته إلى إبراهيم حين قال له: ﴿ ادْعُهُنَّ ﴾ فهذا يدل على الحكمة فى أن القدرة الواجبة يعديها صاحبها إلى من لا يقدر[1].

---

(١) ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ قرأت الجماعة بضم الصاد، وقرأ حمزة وحده بكسرها، واختلف فى الضم والكسر على قولين :

أحدهما : أن معناه متفق ولفظهما مختلف، فعلى هذا فى تأويل ذلك أربعة أقاويل:

أحدها : معناه انْتِفْهُنَّ بريشهن ولحومهن، قاله مجاهد.

والثانى : قَطِّعْهن، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير ، والحسن، قال الضحاك : هى بالنبطية صرتا، وهى التشقق.

والثالث: اضْمُمْهن إليك، قاله عطاء، وابن زيد.

والرابع : أَمِلْهُن إليك، والصور : الميل، ومنه قول الشاعر فى وصف إبل: =

* واتخذ الله إبراهيم خليلا *

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء : ١٢٥] ما هى حيثيات الخلة؟ أن يتبع أفضل دين، وأن يسلم وجهه لله، وأن يكون محسنًا ، ويتبع الملة ، وأن يكون حنيفًا . . هذه هى حيثيات الخلة. وكان إبراهيم عليه السلام فيه كل هذه الصفات. فإبراهيم عليه السلام قد أسلم وجهه لله بدليل أن قومه عندما ألقوه فى النار وجاءه جبريل عليه السلام وقال له : ألك حاجة - أى ألك حاجة تطلبها. فقال إبراهيم : أما إليك فلا - أى أنه لا يطلب من جبريل بذاته شيئًا وفى ذلك قمة الإسلام لله.

ونحن نعرف مدى أنس الناس بأبنائهم، ونحن نعلم أن إبراهيم قد جاءه ولد فى آخر حياته ، وقد ابتلاه الله فيه ، وكان الابتلاء غاية فى الصعوبة بأن يذبح إبراهيم ابنه. إن الابن لا يموت ولا يقتله أحد ، ولكن يقوم الأب بذبحه. ولنتأمل كم درجة من الابتلاء مر بها إبراهيم عليه السلام؟ إن إسماعيل هو الابن الوحيد الذى جاء إلى أبيه على كبر. ويكون الابتلاء بالقتل على نوع مخصوص . . أن يقتله الأب. وسار إبراهيم لتنفيذ أمر الله، ولذلك نقرأ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ

= تظَلّ مُعقّلات السوق خرسًا تصور أنوفها ريح الجنوب

والقول الثانى : أن معنى الضم والكسر مختلف، وفى اختلافهما قولان:

أحدهما: قاله أبو عبيدة أن معناه بالضم : اجْمَعْهن، وبالكسر : قَطّعْهُنّ.

والثانى : قاله الكسائى ومعناه بالضم أَمِلْهُنّ، وبالكسر : أقْبِلْ بهن.

[تفسير الماوردى ١/ ٣٣٤ ، ٣٣٥]

فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] ويجعل الحق ذلك رؤيا فى المنام لا بالوحى المباشر. ولننظر إلى ما قاله إسماعيل عليه السلام ، إنه لم يقل: افعل ما بدا لك يا أبى ، ولكنه قال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٢ ، ١٠٣] أى إن إسماعيل وإبراهيم أسلما معًا لأمر الله . فماذا كانت النتيجة ؟ قال الله تعالى : ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ . كان الفداء لإسماعيل ، والبشارة بإسحاق ، جزاء الصبر على الإبتلاء .

قول الحق: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء : ١٢٥] كلمة خليل(١) . . جلس العلماء ليبحثوا عنها اشتقاقًا ، ويبحثوا عنها فى كل الأساليب التى وردت فيها. إن كلمة «خليل» مأخوذة من «الخاء واللام» و«الخَلُّ» : هو الطريق فى الرمل، وهو ما نسميه فى عرفنا «مدَّق»، والمدق عادة يكون ضيقًا، وحينما يسير فيه اثنان فهما يتكاتفان إن كان الود بينهما عاليًا، وإذا لم يكن بينهما ود، فأحدهما يمشى فى الأمام والآخر يمشى فى الخلف. ولذلك سموا الاثنين اللذين يسيران متكاتفين «خليل». فكلاهما متخلل فى الآخر أى متداخل فيه. والخليل هو من يسد خلله آخر ويسد هو خلل صاحبه. والخليل هو الاتحاد فى الخلال والصفات والأخلاق. والخليل هو من يتخلل إليه

---

(١) الخليل : كالخل. وقولهم فى إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام : خليل الله ؛ قال ابن دريد : الذى سمعت فيه أن معنى الخليل الذى أصفى المودة وأصحها، قال: ولا أزيد فيها شيئاً لأنها فى القرآن ، يعنى قوله : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ ، والجمع أخلاء، وخُلان، والأنثى خليلة والجمع خليلات. قال الزجاج : الخليل : المحب الذى ليس فى محبته خلل، وقوله عز وجل : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ ، أى أحبه محبة تامة لاخلل فيها. [انظر لسان العرب ١١/٢١٨].

الإنسان فى مساتره، ويتخلل هو أيضًا فى مساتر الإنسان .

وكلمة خليل هنا معناها : أن الله سبحانه وتعالى اصطفاه اصطفاءً خاصًا ، فالحب قد يشارك فيه، فهو قد يحب واحدًا وآخر وثالث ورابع. والحق سبحانه يحب كل المؤمنين. فالحق قد قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ . والحق يقول: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦] وهو سبحانه يعلمنا: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ .[آل عمران: ١٤٦] وهو يعلمنا: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨] والحق أيضًا يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ولكن الحق اصطفى إبراهيم خليلا ، أى لا مشاركة لأحد فى مكانته . فالحب يعم، ولكن الخلة لا مشاركة فيها. ولذلك فنحن نرى رسول الله ﷺ يخرج على قومه قائلا : « ألا إن ربى اتخذنى خليلا » (١).

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكنه أخى وصاحبى ، وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا » . أخرجه مسلم [٢٣٨٣] .

عن جندب رضى الله عنه قال : سمعت النبى ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول : «إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذنى خليلا، كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذًا من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إنى أنهاكم عن ذلك». أخرجه البخارى برقم [٣٦٥٦ ، ٣٦٥٧ ، ٣٦٥٨]، ومسلم برقم [٥٣٢] واللفظ له ، والترمذى [٣٦٥٥] ، والدارمى [٢٩٠٥] ، الحاكم [٢/ ٥٥٠]. وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى رقم [٢٨٨٩] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا خير البرية ! فقال رسول الله ﷺ : «ذاك إبراهيم عليه السلام». أخرجه مسلم [٢٣٦٩] واللفظ له ، وأبو داود [٤٦٧٢] وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود رقم [٣٩٠٦] ، والترمذى [٣٣٥٢]، وأبو نعيم فى الحلية [٧/ ٢٤٧]، وأحمد فى المسند [٣/ ١٧٨ ، ١٨٤] .

وإسماعيل صبرى الشاعر المصرى الذى كان أسبق من أحمد شوقى ، وكان شيخ القضاة يلتقط هذا المعنى من الألفاظ التى دارت عليه فيقول:

ولما التقينا قـرب الشوق جهده   خليلين زادا لوعة وعتابا

كأن خليلا قـد خلا لـه خليله   تسرب أثناء العناق وغابا(*)

(*) وبعد أن أتم شيخنا خواطره الإيمانية حول قصة خليل الله إبراهيم جمعنا شيئا من الأحاديث النبوية الصحيحة والتى لم ترد فى سياق القصة لعل الله ينفع بها وهى :

موطن هجرة إبراهيم الخليل عليه السلام :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ستكون هجرة بعد هجرة ، ينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم ، لا يبقى فى الأرض إلا شرار أهلها تلفظهم أرضوهم ، تقذرهم نفس الله ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير... » . [رواه أحمد [٢/١٩٩ ، ٢٠٩] وصححه الشيخ شاكر [٦٨٧١ ، ٦٩٥٢] ، « تقذرهم نفس الله » ، يقال : قذرت الشئ أقذره ، إذا كرهته واجتنبته وهى من الصفات التى يجب الإيمان بها دون تأويل أو إنكار من غير تشبيه ولا تمثيل .

من هذا الحديث يتبين لنا أن الأرض التى اختارها الله تعالى لمهاجر خليله إبراهيم هى خير الأرض عنده سبحانه ، وهذه الأرض هى بلاد الشام ؛ لما جاء فى الحديث الصحيح الذى أخرجه أحمد والطحاوى فى مشكل الآثار وغيرهما من حديث عبد الله بن حوالة الأزدى عن النبى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « سيصير الأمر إلى أن تكون جنود مجندة ، جند بالشام ، وجند باليمن ، وجند بالعراق » . فقال ابن حوالة : خر لى يا رسول الله إن أدركت ذاك . قال : « عليك بالشام ؛ فإنه خيرة الله من أرضه يجتبى إليه خيرته من عباده ، فإن أبيتم فعليكم بيمنكم ، واسقوا من غدركم ، فإن الله عز وجل قد توكل لى بالشام وأهله » .

أخرجه أحمد فى المسند [٤/ ١١٠] واللفظ له ، والحاكم فى المستدرك [٤/ ٥١٠] وصححه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية فى فضائل الشام ص [٨٠] : « فقد أخبر أن خيار أهل الأرض من ألزمهم مهاجر إبراهيم ، بخلاف من يأتى إليه ثم يذهب عنه ، ومهاجر إبراهيم هى الشام » .

تعليم إبراهيم عليه السلام مناسك الحج :

عن أبى الطفيل رضى الله عنه قال : قلت لابن عباس رضى الله عنهما : يزعم قومك أن رسول الله ﷺ رَمَل بالبيت ، وأن ذلك سُنّة ؟ فقال : صدقوا وكذبوا ! قلت : =

= وما صدقوا وما كذبوا ؟ ! قال : صدقوا ، رمل رسول الله ﷺ بالبيت ، وكذبوا ، ليس سنة ، إن قريشًا قالت زمن الحديبية : دعوا محمدًا وأصحابه حتى يموتوا موت النغف ، فلما صالحوه على أن يقدموا من العام المقبل ويقيموا بمكة ثلاثة أيام ، فقدم رسول الله ﷺ والمشركون من قبل قعيقعان ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « ارملوا بالبيت ثلاثًا » وليس بسنة ، قلت : ويزعم قومك أنه طاف بين الصفا والمروة على بعير، وأن ذلك سنة ؟ فقال : صدقوا وكذبوا ! فقلت : وما صدقوا وكذبوا ؟ ! فقال : صدقوا ، قد طاف بين الصفا والمروة على بعير ، وكذبوا ، ليست بسنة ، كان الناس لا يُدْفَعون عن رسول الله ﷺ ولا يَصْدِفُون عنه، فطاف على بعير ، ليسمعوا كلامه ، ولا تناله أيديهم ، قلت: ويزعم قومك أن رسول الله ﷺ سعى بين الصفا والمروة ، وأن ذلك سنة ؟ . قال : صدقوا : إن إبراهيم لما أُمر بالمناسك عَرَض له الشيطان عند المسعى، فسابقه ، فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة ، فعرض له شيطان ، (قال يونس : الشيطان.) ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى ، فرماه بسبع حصيات ، قال : قد تَلّه للجبين ، (قال يونس : وثم تَلَّه للجبين .) ، وعلى إسماعيل قميص أبيض ، وقال : يا أبت ، إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفننى فيه ، فعالجه ليخلعه ، فنودى من خلفه ﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ فالتفت إبراهيم فإذا هو بكبش أبيض أقرن أعين .
قال ابن عباس : قد رأيتنا نبيع هذا الضرب من الكباش ، قال : ثم ذهب به جبريل إلى الجمرة القصوى ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم ذهب به جبريل إلى منى ، قال : هذا مِنى (قال يونس : هذا مناخ الناس . .) ، ثم أتى به جمعاً فقال: هذا المشعر الحرام ، ثم ذهب به إلى عرفة، فقال ابن عباس : هل تدرى لم سميت عرفة ؟ قلت : لا ، قال: إن جبريل قال لإبراهيم : عرفتَ ؟ قال يونس : هل عرفت ؟ قال : نعم ، قال ابن عباس : فمن ثَم سُمِّيت عرفة . ثم قال : هل تدرى كيف كانت التلبية ؟ قلت: وكيف كانت؟ قال: إن إبراهيم لما أمر أن يؤذن فى الناس بالحج خفضت له الجبال رؤوسها، ورفعت له القرى، فأذن فى الناس بالحج » .
أخرجه أحمد فى المسند [١/٢٩٧ ـ ٢٩٨ ـ ٣٠٦] ، وصححه الشيخ أحمد شاكر برقم [٢٧٠٧ ، ٢٧٠٨] .

* النغف : دود يسقط من أنوف الغنم و الإبل . والعرب تقول لكل ذليل حقير : ما هو إلا نَغَفَة ، تُشبَّه بهذه الدودة . ويقال للرجل الذى تحتقره : إنما أنت نغفة. [لسان العرب: ٩/٣٣٨] .
* الصُّدُوف : الميلُ عن الشى ، ويَصدفون، أى: يُعرضون. [لسان العرب: ٩/١٨٧].
* تله : صرعه وألقاه . =

=
الوقوف بعرفة من إرث إبراهيم عليه السلام :
عن عمرو بن عبد الله بن صفوان عن يزيد بن شيبان قال : أتانا ابن مربع الأنصارى ونحن بعرفة فى مكان يباعده عمرو عن الإمام فقال : أما إنى رسول الله ﷺ إليكم ، يقول لكم : « قفوا على مشاعركم فإنكم على إرثٍ من إرث أبيكم إبراهيم » .
أخرجه أبو داود [١٩١٩] واللفظ له ، والنسائى فى المجتبى [٥/ ٢٥٥] ، والترمذى برقم [٨٨٣] ، وابن ماجه [٣٠١١] ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه رقم [٢٤٣٨]، وأحمد فى المسند [٤/ ١٣٧] .
دعوة إبراهيم عليه السلام أن يبعث الله فى أهل مكة رسولا منهم : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ .
عن العرباض بن سارية قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم عليه السلام لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى بى ورؤيا أمى التى رأت وكذلك أمهات النبيين ترين » .
أخرجه أحمد فى المسند [٤/ ١٢٧] .
وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قلت يا نبى الله ما كان أول بدء أمرك قال : « دعوة إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرج منها نور ، أضاءت منه قصور الشام» .
أخرجه أحمد فى المسند [٥/ ٢٦٢] ، وقال الهيثمى فى المجمع [٨/ ٢٦٦] : وإسناد أحمد حسن وله شواهد تقويه منها حديث العرباض بن سارية وميسرة الفجر .
بناء قريش للكعبة وقصورها عن قواعد إبراهيم :
عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن النبى ﷺ قال لها : « يا عائشة ، لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم ، فأدخلت فيه ما أخرج منه ، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين باباً شرقياً وباباً غربياً ، فبلغت به أساس إبراهيم » .
أخرجه البخارى برقم [١٥٨٣ ، ١٥٨٦ ، ٣٣٦٨ ، ٤٤٨٤] واللفظ له ، ومسلم برقم [١٣٣٣].
مناداة إبراهيم عليه السلام الناس للحج :
عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما بنى إبراهيم البيت أوحى الله إليه أن أذّن فى الناس بالحج ، قال فقال إبراهيم : ألا إن ربكم قد اتخذ بيتًا وأمركم أن تحجوه فاستجاب له ما سمعه من حجر أو شجر أو أكمة أو تراب لبيك اللهم لبيك .
أخرجه الحاكم [٢/ ٥٥٢] وصححه ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل [٢/ ٥٤] ، وقال الحافظ فى الفتح [٧/ ٥٩] ، أخرجه الفاكهى بإسناد صحيح . =

....

= **نفى الاستقسام بالأزلام عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام :**

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ لما قدم أبَى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت ، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما الأزلام ، فقال رسول الله ﷺ : « قاتلهم الله ، أما والله قد علموا أنهما لم يستقما بها قط » فدخل البيت فكبر فى نواحيه ، ولم يصل فيه .

أخرجه البخارى برقم [١٦٠١] [٣٣٥١] [٣٣٥٢] [٤٢٨٨] واللفظ له ، وأبو داود [٢٠٢٧] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود رقم [١٧٨٤] ، وأحمد فى المسند [١/ ٣٣٤ ، ٣٦٥] وصححه الشيخ شاكر برقم [٣٠٩٣ ، ٣٤٥٥] ، والحاكم فى المستدرك [٢/ ٥٥٠] .

قصة إبراهيم الخليل مع ملك مصر :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : ثنتين منهن فى ذات الله عز وجل ، قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ .

قال: بينا هو ذات يوم وسارة ، إذ أتى على جبار من الجبابرة ، فقيل له : إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه ، فسأله عنها ، فقال : من هذه ؟ قال : أختى . فأتى سارة فقال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، وإن هذا سألنى ، فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى ، فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده ، فأُخذ ، فقال : ادعى الله لى ، ولا أضرك ، فدعت الله ، فأطلق ، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقال : ادعى الله لى ، ولا أضرك ، فدعت ، فأطلق ، فدعا بعض حجبته ، فقال : إنكم لم تأتونى بإنسان! إنما أتيتمونى بشيطان ! فأخدمها هاجر فأتته وهو قائم يصلى فأومأ بيده : مهيم ؟ قالت : رد الله كيد الفاجر فى نحره ، وأخدم هاجر » .

قال أبو هريرة : « تلك أمكم يا بنى ماء السماء » .

* مهيم : ما الخبر .
* تلك أمكم يا بنى ماء السماء: كأنه خاطب به العرب لكثرة ملازمتهم للفلوات التى بها مواقع القطر لأجل رعى دوابهم ، ففيه تمسك لمن زعم أن العرب كلهم من ولد إسماعيل.
* أخدمها هاجر : وهبها لها لتخدمها ؛ لأنه أعظمها أن تخدم نفسها .
* رد الله كيد الفاجر : هذا مثل تقوله العرب لمن أراد أمرًا باطلا فلم يصل إليه .

ولابد هنا من توضيح حول قضية الكذب : =

= أورد الحافظ ابن حجر فى الفتح [٧/ ٤٠ ـ ٤١] : قال ابن عقيل : دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم ، وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغى أن يكون موثقًا به ليعلم صدق ما جاء به عن الله ، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه ، فكيف مع وجود الكذب منه ، وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع ، وعلى تقديره ، فلم يصدر ذلك من إبراهيم عليه السلام ـ يعنى إطلاق الكذب على ذلك ـ إلا فى حال شدة الخوف لعلو مقامه ، وإلا فالكذب المحض فى مثل تلك المقامات يجوز ، وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعًا لأعظمهما ، وأما تسميته إياها كذبات ، فلا يريد أنها تذم ، فإن الكذب وإن كان قبيحًا مخلا لكنه قد يحسن فى مواضع وهذا منها .

ولمزيد من التوضيح ينظر جواب لجنة الفتوى وتعليقها على هذه المسألة فى تعليقها على قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص [١٢٠ ـ ١٢٢] .

أخرجه البخارى برقم [٢٢١٧ ، ٢٦٣٥ ، ٣٣٥٧ ، ٣٣٥٨ ، ٥٠٨٤ ، ٦٩٥٠] واللفظ له ، ومسلم برقم [٢٣٧١] والترمذى [٣١٦٦] وأبو داود [٢٢١٢] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود رقم [١٩٣٢] .

وعن كعب بن مالك عن أبيه رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :« إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً » . قال الزهرى : فالرحم أن أم إسماعيل منهم .

قال الهيثمى فى المجمع [١٠/٦٣] : رواه الطبرانى بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح .

وصية النبى عليه السلام بأهل مصر خيرًا لأجل هاجر رضى الله عنها :

عن كعب بن مالك عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا » .

قال الترمذى : فالرحم أن أم إسماعيل منهم . أخرجه الحاكم فى المستدرك [٢/٥٥٣] وقال الهيثمى فى المجمع [١٠/٦٦] : رواه الطبرانى بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمة ورحماً » أو قال : (ذمة وصهرًا) فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها فى موضع لبنة فاخرج منها». قال : فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة يختصمان فى موضع لبنة فخرجت منها .

أخرجه مسلم برقم [٢٥٤٣] واللفظ له ، وأحمد فى المسند [٥/١٧٣ ، ١٧٤] . =

= * القيراط : جزء من أجزاء الدينار أو الدرهم وأهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به .

* ذمة : الحرمة والحق ، وهى هنا بمعنى الذمام .

* رحمًا : الرحم تكون هاجر أم إسماعيل منهم .

* الصهر : لكون مارية رضى الله عنها أم إبراهيم ولد رسول الله ﷺ منهم .

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ قال : « يرحم الله أم إسماعيل، لولا أنها عجلت لكانت زمزم عيناً معيناً » .

أخرجه البخارى برقم [٣٣٦٢ ، ٣٣٦٣] واللفظ له ، والنسائى فى الكبرى [٨٣٧٩] ، وأحمد فى المسند [١/٢٥٣ ، ٣٤٧ ، ٣٦٠] ، وصححه الشيخ شاكر برقم [٢٢٨٥ ، ٣٢٥٠ ، ٣٣٩٠] .

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال : عن النبى ﷺ قال : « نزل جبريل إلى هاجر وإسماعيل ، فركض عليه موضع زمزم بعقبه فنبع الماء ، قال : فجعلت هاجر تجمع البطحاء حوله لا يتفرق الماء ، فقال رسول الله ﷺ : « رحم الله هاجر لو تركها كان عيناً معيناً » .

أخرجه أحمد فى المسند [٥/١٢١] ، والنسائى فى الكبرى برقم [٨٣٧٦ ، ٨٣٧٧] واللفظ له . والإسناد صحيح .

الصلاة على إبراهيم مقرونة بالصلاة على نبينا محمد ﷺ :

عن ابن أبى ليلى ، قال : لقينى كعب بن عجرة رضى الله عنه فقال : ألا أهدى لك هدية ؟ إن النبى ﷺ خرج علينا ، فقلنا : يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك ؟ . قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

أخرجه البخارى [٣٣٧٠] [٤٧٩٧] [٦٣٥٧] واللفظ له ، ومسلم برقم [٤٠٦] ، وأبو داود [٩٧٦ ، ٩٧٧] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود رقم [٨٦ ، ٨٦٢]، والترمذى [٤٨٣] ، والنسائى فى عمل اليوم والليلة [٣٦١]، وفى المجتبى [٣/٤٧ - ٤٨] ، وابن ماجه [٩٠٤] .

وعن أبى مسعود الأنصارى قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن فى مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله تعالى أن نصلى عليك . يا رسول الله ! فكيف نصلى عليك، قال: فسكت رسول الله ﷺ. حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ :=

= « قولوا : اللهم ! صلِّ على محمد وعلى آل محمد . كما صليت على آل إبراهيم . وبارك على محمد وعلى آل محمد . كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد . والسلام كما قد علمتم ».
أخرجه مسلم برقم [٤٠٥] واللفظ له ، وأبو داود [٩٨٠] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود رقم [٦٨٥] ، والنسائى فى المجتبى [٣/ ٤٥] ، والترمذى [٣٢٢٠].
عن أبى حميد الساعدى رضى الله عنه أنهم قالوا : يا رسول الله ! كيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم ! صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ».
أخرجه البخارى [٣٣٦٩ ، ٦٣٦٠] واللفظ له ، مسلم برقم [٤٠٧] ، والنسائى فى المجتبى [٣/ ٤٩] ، وابن ماجه [٩٠٥] ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه رقم [٧٣٨] . ومالك فى الموطأ [١/ ٤٦٥] .
عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قلنا يا رسول الله هذا التسليم ، فكيف نصلى عليك ؟
قال : « قولوا : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك ، كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم » .
أخرجه البخارى برقم [٤٧٩٨ ، ٦٣٥٨] واللفظ له ، وابن ماجه [٩٠٣] ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه رقم [٧٣٦] . والنسائى [٣/ ٤٩] ، وأحمد [٣/ ٤٧] .
كفالة إبراهيم عليه السلام لذرارى المسلمين يوم القيامة :
عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : عن النبى ﷺ قال : « ذرارى المسلمين فى الجنة يكفلهم إبراهيم عليه السلام » .
أخرجه أحمد [٢/ ٣٢٦] واللفظ له ، وابن حبان [١٨٢٦] ، والحاكم [٢/ ٣٧٠] ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ووافقه الذهبى وهو كما قالا ، وحسنه الشيخ شاكر برقم [٨٣٠٧] .
عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعنى مما يكثر أن يقول لأصحابه : « هل رأى أحد منكم من رؤيا » ؟ قال : فيقص عليه ما شاء الله أن يقص وإنه قال لنا ذات غداة : « إنه أتانى الليلة آتيان وإنهما ابتعثانى وإنهما قالا لى : انطلق ، وإنى انطلقت معهما ، وإنا أتينا على رجل مضطجع ، وإذا آخر قائم عليه بصخرة ، وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر هاهنا ، فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل به المرة =

= الأولى . قال قلت لهما : سبحان الله ما هذان ؟ قال : قالا لى : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه ، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد ، وإذا هو يأتى أحد شقى وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه » . قال: وربما قال أبو رجاء: فيشق ، قال : « ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل مثل ما فعل بالجانب الأول ، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى . قال قلت : سبحان الله ما هذان ؟ قال : قالا لى : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا على مثل التنور » قال : وأحسب أنه كان يقول: « فإذا فيه لغط وأصوات . قال : فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة ، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم ، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوْا قال : قلت لهما : ما هؤلاء ؟ قال قالا لى : انطلق انطلق . قال : فانطلقنا فأتينا على نهر » حسبتُ أنه كان يقول : أحمر مثل الدم ، وإذا فى النهر رجل سابح يسبح ، وإذا علىٰ شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً فينطلق يسبح ثم يرجع إليه ، كلما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجراً . قال : قلت لهما : ما هذان ؟ قال قالا لى : انطلق انطلق ، قال : فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآة كأكره ما أنت راء رجلاً مرآة ، وإذا عنده نار يحشها ويسعى حولها ، قال قلت لهما : ما هذا ؟ قال قالا لى: انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة فيها من كل لون الربيع ، وإذا بين ظهرى الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً فى السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط . قال قلت لهما : ما هذا ، ما هؤلاء ؟ قال: قالا لى : انطلق انطلق ، فانطلقنا فانتهينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن . قال: قالا لى : ارْقَ ، فارتقيت فيها، قال: فارتقينا فيها فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا ، فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء ، قال : قالا لهم : اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر ، قال: وإذا نهر معترض يجرى كأن المحض من البياض ، فذهبوا فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا فى أحسن صورة ، قال : قالا لى : هذه جنة عدن وهذاك منزلك ، قال: فسما بصرى صعداً ؛ فإذا قصر مثل الربابة البيضاء قال : قالا لى: هذاك منزلك قال : قلت لهما : بارك الله فيكما ، ذرانى فأدخله ، قالا: أما الآن فلا ، وأنت داخله ، قال : قلت لهما : فإنى قد رأيت منذ الليلة عجباً ، فما هذا الذى رأيت ؟ قال : قالا لى : أما إنا سنخبرك: أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه=

= بالحجر فإنه الرجل يأخذ بالقرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة . وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق. وأما الرجال والنساء العراة الذين فى مثل بناء التنور فهم الزناة والزوانى . وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجر فإنه آكل الربا، وأما الرجل الكريه المرآة الذى عند النار يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم . وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فإنه إبراهيم ﷺ . وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة » قال: فقال بعض المسلمين : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وأولاد المشركين ، وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسناً وشطر قبيحاً ، فإنهم قوم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم » .

أخرجه البخارى [٨٤٥، ١١٤٣، ١٣٨٦، ٢٠٨٥ ، ٢٧٩١ ، ٣٢٣٦، ٣٣٥٤، ٤٦٧٤، ٦٠٩٦ ، ٧٠٤٧] مطولا ومختصرًا واللفظ له ، ومسلم برقم [٢٢٧٥] ، والترمذى [٢٢٩٤]، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى رقم [١٨٧٠].

أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة غرلا. ثم قرأ : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ فأول من يكسى إبراهيم. ثم يؤخذ برجال من أصحابى ذات اليمين وذات الشمال ، فأقول أصحابى ، فيقال : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم ، فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم : ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ . قال محمد بن يوسف الفربرى : ذكر عند أبى عبد الله عن قبيصة قال : هم المرتدون الذين ارتدوا على عهد أبى بكر ، فقاتلهم أبو بكر رضى الله عنه .

أخرجه البخارى [٣٣٤٩ ، ٣٤٤٧ ، ٤٦٢٥ ، ٤٦٢٦ ، ٤٧٤٠ ، ٦٥٢٤ ، ٦٥٢٥ ، ٦٥٢٦] واللفظ له ، ومسلم برقم [٢٨٦٠] ، والنسائى فى المجتبى [٤/ ١١٤] ، والترمذى [٣١٦٧] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى رقم [٢٥٣٣] .

عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : « أول من يكسى من الخلائق إبراهيم - يعنى يوم القيامة » .

أخرجه البزار كما فى كشف الأستار [٢٣٤٨] [٣/ ١٠٣] ، « وقال البزار إسناد حسن»، وفيه ليث ضعيف وله شاهد من حديث ابن عباس الذى أخرجه الشيخان وغيرهما وهو الحديث السابق قبل هذا الحديث . =

= حال والد إبراهيم يوم القيامة :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة ؛ فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم: يا رب ! إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد . فيقول الله تعالى: إنى حرّمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم تحت رجليك ! فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه ، فيلقى فى النار » .

الذيخ : ذكر الضباع .

أخرجه البخارى برقم [٣٣٥٠ ، ٤٧٦٨ ، ٤٧٦٩] واللفظ له ، والنسائى فى الكبرى برقم [١١٣٧٥] .

مكان إبراهيم عليه السلام فى السماء :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن مالك بن صعصعة رضى الله عنهما قال : قال النبى ﷺ : « .... فأتينا السماء السابعة ، قيل من هذا . قيل : جبريل . قيل : من معك ؟ قيل : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ مرحباً به ولنعم المجىء جاء ، فأتيت على إبراهيم فسلمت ، فقال : مرحباً بك من ابن ونبى . فرفع لى البيت المعمور ، فسألت جبريل فقال : هذا البيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم ... » .

أخرجه البخارى برقم [٣٢٠٧ ، ٣٣٩٣، ٣٤٣٠ ، ٣٨٨٧] واللفظ له ، ومسلم برقم [٢٦٤/ ١٦٤] ، والترمذى مختصراً [٣٣٤٦] وقال هذا حديث حسن صحيح ،وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى رقم [٢٦٦٦] ، وأحمد فى المسند [٤/ ٢٠٧، ٢٠٨] .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى حديث الإسراء والمعراج : أن رسول الله ﷺ قال : « .... ثم عرج إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بُعث إليه . فُفتح لنا فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ... » .

أخرجه مسلم برقم [١٦٢] واللفظ له ، والترمذى [٣١٥٧] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى رقم [٢٥٢٤] .

تبيلغ السلام من إبراهيم عليه السلام لأمة محمد ﷺ :

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لقيت إبراهيم ليلة أسرى بى فقال : يا محمد أقرىء أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، =

= عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » .
أخرجه الطبرانى برقم [١٠٣٦٣] ، وفى الصغير [١/١٩٦] ، والترمذى [٣٤٦٢] واللفظ له ، وقال الترمذى : حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود. وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى رقم [٢٧٥٥] . وقال الهيثمى فى المجمع [١٠/٩٤] : وفيه عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبة الكوفى وهو ضعيف .
ولكن الحديث حسن لشواهده منها : حديث ابن عمر أخرجه الطبرانى وابن أبى الدنيا وسكت عنه المنذرى . وقال الهيثمى [١٠/١٠١] : فيه عقبة بن على وهو ضعيف .
ومنها حديث أبى أيوب أخرجه أحمد [٥/٤١٨] ، وقال الهيثمى [١٠/ ١٠٠] : رجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وهو ثقة .
وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لقيت إبراهيم ليلة أسرى بى ، فقال : يا محمد أقرىء أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء، وإنها قيعان، وإن غراسها، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر».
سبق تخريجه

اشتداد الأمر على الناس حتى يرغبوا إلى الله دون استثناءومنهم إبراهيم عليه السلام :

عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال : كنت فى المسجد ، فدخل رجل يصلى : فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر ، فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعًا على رسول الله ﷺ . فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه ، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرآ ، فحسن النبى ﷺ شأنهما، فسقط فى نفسى من التكذيب . ولا إذ كنت فى الجاهلية . فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشينى ضرب فى صدرى ، ففضت عرقاً . وكأنما أنظر إلى الله عزّ وجلّ فرقاً . فقال لى : « يا أبى ! أرسل إلىّ : أن اقرأ القرآن على حرف ، فرددت إليه : أن هون على أمتى ، فرد إلىّ الثانية: اقرأه على حرفين ، فرددت إليه : أن هون على أمتى ، فرد إلى الثالثة : اقرأه على سبعة أحرف ، فلك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها. فقلت : اللهم اغفر لأمتى . اللهم ! اغفر لأمتى . وأخرت الثالثة ليوم يَرْغَبُ إلىّ الخلقُ كلهم . حتى إبراهيم ﷺ ».
أخرجه مسلم برقم [٨٢٠] واللفظ له ، وأبو داود [١٤٧٧ ، ١٤٧٨] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود رقم [١٣١٠ ، ١٣١١] . والنسائى فى المجتبى [٢/١٥٢، ١٥٤] ، وأحمد فى المسند [٥/١٢٧ ، ١٢٩] . =

مكانة النبى إبراهيم عليه السلام فى الشفاعة يوم القيامة :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أُتى رسول الله ﷺ يوماً بلحم ، فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسة ثم قال : « أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون مم ذلك ؟ يُجمع الناس الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس...... » . فذكر حديث الشفاعة .

« ... فيأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته . نفسى نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى موسى ... » .

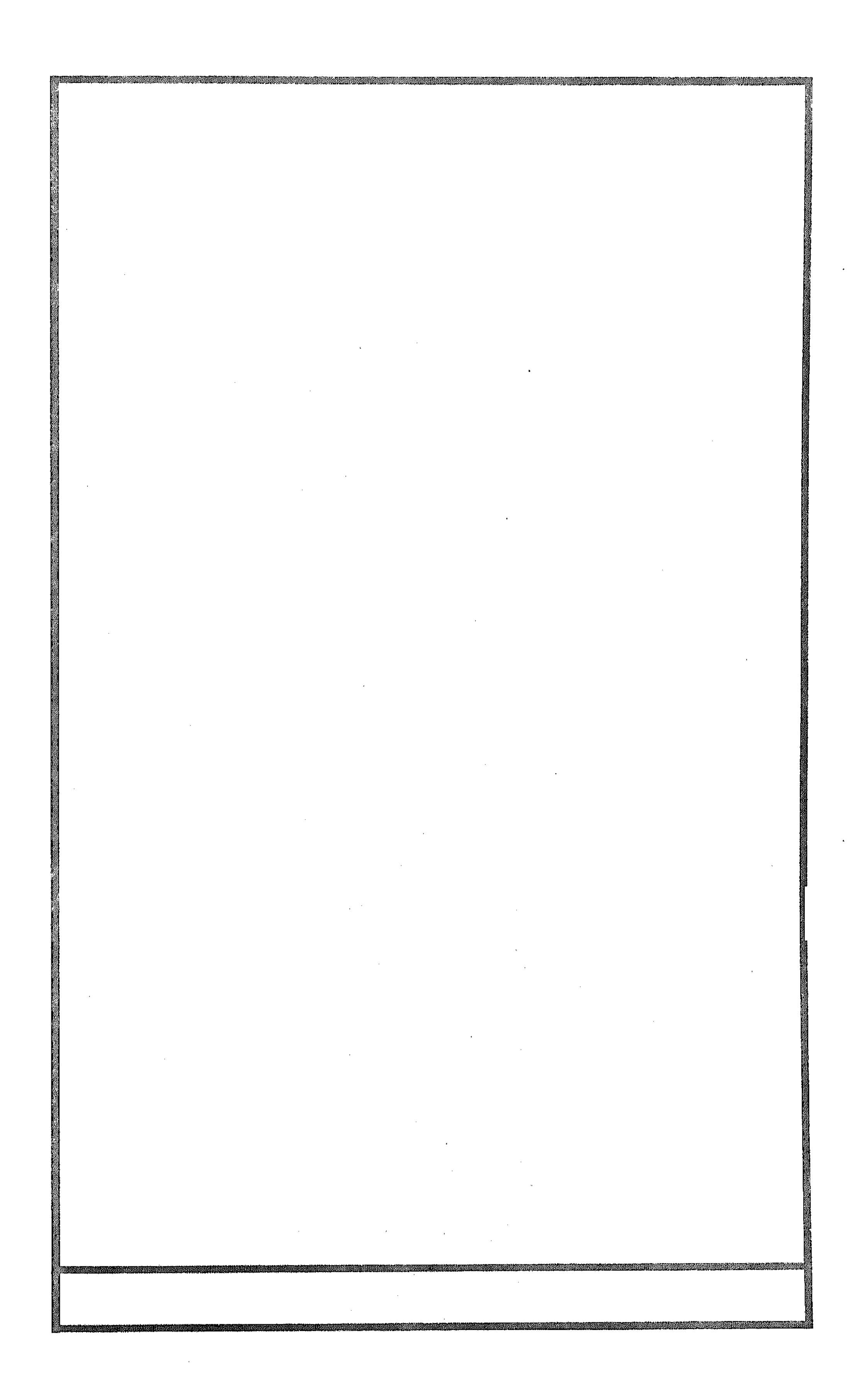
أخرجه البخارى [٣٣٤٠ ، ٣٣٦١ ، ٤٧١٢] واللفظ له ، ومسلم [١٩٤] والترمذى [٢٤٣٤] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى رقم [١٩٨٢] . وأحمد فى المسند [٢/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦] والنسائى فى الكبرى [١١٢٨٦] .

علو درجة إبراهيم الخليل فى الجنة :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة قصرًا من لؤلؤة ليس فيها فصم ولا وهن ، أعده الله تعالى لخليله إبراهيم ﷺ نزلا » .

أخرجه البزار كما فى كشف الأستار [٢٣٤٦] [٣/ ١٠٢] . وقال الهيثمى فى المجمع [٨/ ٢٠٤] : رواه الطبرانى فى الأوسط والبزار بنحوه ورجالهما رجال الصحيح .

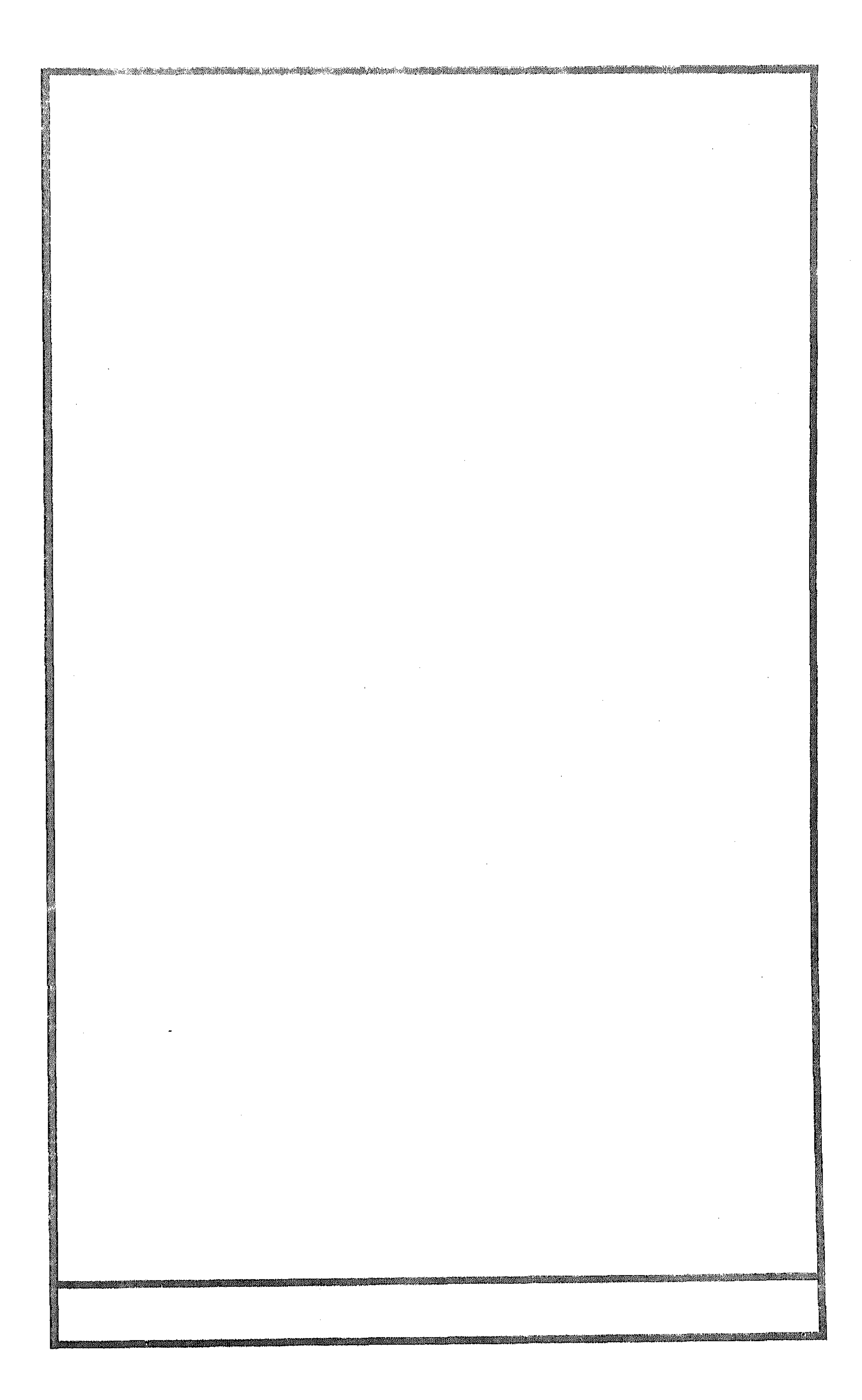
« تمت قصة إبراهيم عليه السلام »



نبى الله

إسماعيل

عليه السلام



❊ صبر إسماعيل عليه السلام ❊

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٥ - ٨٦] هؤلاء الأنبياء كانوا من الصابرين ، فكأن الصبر حيثية فى الرسل الذين يرسلهم الله تعالى. وهؤلاء الثلاثة اشتهروا بهذه الصفة ، فإذا ذكرنا صبر إسماعيل عليه السلام، نجد أنه صبر فى ذاته على أن يذبحه أبوه برؤيا منامية وقال له : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] فهل بعد هذا الصبر من صبر!! يوافق أباه على أن يذبحه لمجرد رؤيا[1] ويصبر فينجيه الله.

وقبل ذلك يعيش فى واد غير ذى زرع ويتحمل الحياة الصعبة فى صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء. وحتى عندما كبر واشتد عوده لم يبحث له عن منطقة خصبة ذات رزق وفير، ولكنه ظل بجوار بيت الله الحرام يرعى شئونه ويعظمه ويقيم فيه الصلاة ويرضى بالقليل من الرزق. ونتيجة لهذا الصبر من إسماعيل فإن الله يعطيه ما هو أفضل من الزروع والثمار ومتاع الدنيا كله، ويكفى أنه من ذريته محمد بن عبد الله ﷺ سيد الأولين والآخرين .

---

(١) أخرج البخارى فى باب التخفيف فى الوضوء حديث رقم (١٣٨) بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما : « ... قلنا لعمرو : إن ناسًا يقولون إن رسول الله ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه ، قال عمرو : سمعت عبيد بن عمير يقول : رؤيا الأنبياء وحى . ثم قرأ : ﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] .

قال ابن حجر فى الفتح : القائل سفيان ، وعبيد بن عمير من كبار التابعين ولأبيه عمير ابن قتادة صحبة ، وقوله : « رؤيا الأنبياء وحى » . رواه مسلم مرفوعًا . ووجه الاستدلال بما تلاه من جهة أن الرؤيا لو لم تكن وحيًا لما جاز لإبراهيم عليه السلام الإقدام على ذبح ولده. [فتح البارى كتاب الوضوء الحديث ١٣٨] .

* صدق الوعد فى النفس والرضا بالقضاء *

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤-٥٥] فالحق هنا يقول إن إسماعيل عليه السلام كان صادق الوعد، ومع أن كل الأنبياء كانوا صادقين فى وعودهم، ولكن هناك صفة تبرز فى شخصه وإن كانت موجودة فى غيره؛ لأنك من الممكن أن تصدق مع إنسان فى موعد أو لقاء أو قضاء مصلحة، ولكن إسماعيل صدق الوعد فى حياته التى هى أغلى شئ عند الإنسان ، فحينما أخبره أبوه أنه رأى فى المنام أنه يذبحه، لم يتردد لحظة وقال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. فهذا صدق وعد حقيقى؛ لأن الإنسان يصدق الوعد فيما يملكه ، لكن أن يصدق الوعد فى أمر يتعلق بحياته وهو أمر رآه غيره ولم يره هو، ورآه فى رؤيا ، والرؤيا لا يثبت بها الحكم إلا عند الأنبياء ، فشجع أباه على تنفيذ ما رأى، ووعده أنه سيكون من الصابرين وأسلم له رقبته ليذبحه .

فلما رأى الحق سبحانه وتعالى أن إبراهيم سلم لله وكذلك إسماعيل رحمهما الله من هذا العذاب، وعفا عن إسماعيل وفداه بكبش من أكباش الجنة[1]، فالله تعالى إبتلاهما بهذا البلاء العظيم فلما أظهرا الرضا بقضاء الله

---

(١) قال ابن كثير : والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أيمن أقرن ، رآه مربوطًا بسمرة فى بثير ، قال الثورى عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفًا .

وقال سعيد بن جبير : كان يرتع فى الجنة حتى تشقق عنه بثير وكان عليه عهن أحمر .

وعن ابن عباس : هبط عليه من بثير كبش أيمن أقرن له ثغاء فذبحه ، وهو الكبش الذى قربه ابن آدم فتقبل منه . [انظر تاريخ الطبرى ١/ ٢٧٧ معارف] =

وقدره ، فدا الله الذبيح إسماعيل من الذبح ووهب لإبراهيم ولدا آخر هو إسحاق. وهذه لقطة قرآنية تعطينا فكرة: أن الإنسان إذا استسلم لقضاء الله وقدره ، يرفع الله عنه البلاء . والذى يزيد من عذاب الابتلاء على الناس أنهم لا يرضون به. لكن الذى يرضى بالقدر إما أن يرفعه الله عنه، أو يبين للمقدور عليه خير هذا القدر .

ومن هنا نعلم أن كل شئ ينزل علينا من قضاء الله لا رفع له إلا بالرضا فلا يُرفع قضاء عن خلق إلا إذا رضوا به. والرضا بقدر الله يكون فى كل شئ؛ مثل الموت وأقضية الحياة التى لا تسر الإنسان ولا تسعده. فلو أن أحداً أقل منك كفاءة فى العمل ولكن جعله الله رئيساً عليك فلا تناصبه العداء وتحقد عليه،لأنه لا أحد يأخذ ملك الله غصبا عنه سبحانه ، فإذا لم تحترم

= وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، حدثنا منصور ، عن خاله مسافع ، عن صفية بنت شيبة قالت :أخبرتنى امرأة من بنى سليم ولدت عليه أهل دارنا قالت : أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة ، وقالت مرة : إنها سألت عثمان : لِمَ دعاك رسول الله ﷺ ؟ قال : قال لى رسول الله : « إنى كنت رأيت قرنى الكبش حين دخلت البيت ، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى » .
قال سفيان : لم يزل قرنا الكبش معلقين فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا .
وكذا روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقا عند ميزاب الكعبة قد يبس .
وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل ؛ لأنه كان هو المقيم بمكة ، وإسحاق لا نعلم أن قدمها فى حال صغره والله أعلم .
وهذا هو الظاهر من القرآن ، بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل ؛ لأنه ذكر قصة الذبيح ، ثم قال بعده : ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. ومن جعله حالا فقد تكلف ، ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات .وكتابهم فيه تحريف ،ولا سيما هاهنا قطعا لا محيد عنه ، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفى نسخة من المعربة : بكره إسحاق ، فلفظة إسحاق هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة ، لأنه ليس هو الوحيد،لا البكر إنما ذاك إسماعيل .
وإنما حملهم على هذا حسد العرب ، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ ، وإسحاق والد يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ الذى ينتسبون إليه ، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم ، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . [قصص الأنبياء لابن كثير ١٤٢ ، ١٤٣]

هذا الإنسان فاحترم قدر الله فيه. ولذلك الرسول ﷺ يقول : «اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة» (١) .

والمقصود بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ ﴾. قد يكون هذا شيئًا عاديا بالنسبة للأنبياء، ولكن ربنا سبحانه حين يذكر خصلة فلابد أنها كبيرة عنده تعالى. فمن أراد أن يأخذ خصلة من خصال النبوة فليأمر أهله بالصلاة، واختص الأهل بهذا الأمر؛ لأنهم البيئة المباشرة التى إن صلحت للرجل صلح له كل بيته، وصلحت له كل ذريته ؛ لأنه إذا كان يأمر أهله بأن يذكروا ربهم خمس مرات فى اليوم والليلة فهذا لا يجعل للشيطان مجالا للدخول بينهم . ولذلك الرسول ﷺ يقول : «رحم الله امرأ استيقظ من ليل فصلى ركعتين ثم أيقظ أهله، فإن أبت ينضحها بالماء لكى تقوم، ورحم الله امرأة قامت من ليل فصلت ركعتين ثم أيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه الماء» (٢) ولذلك كل مسلم يستطيع أن يكون خليفة للرسول فى أهله وعشيرته إذا قام من الليل فصلى وأيقظ أهله .ولكن العلماء يذكرون الناس ويعلمونهم ما جاء به الرسول ﷺ ، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ

---

(١) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « اسمعوا وأطيعوا ، وإن استعمل عليكم عبد حبشى ، كأن رأسه زبيبة » . أخرجه ابن ماجه برقم [٢٨٦٠] وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه برقم [٢٣٠٩].

وعن أم الحصين قالت : حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع . قالت : فقال قولاً كثيرًا ، ثم سمعته يقول: إن أمرٌ عليكم عبد مُجَدَّعٌ (أى مقطوع الأطراف) أسود يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا» . أخرجه مسلم [١٨٣٨] .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح فى وجهها الماء . رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها ، فإن أبى نضحت فى وجهه الماء » .

رواه أبو داود [١٣٠٨] . وقال الألبانى فى صحيح سنن أبى داود [١١٦٠] : حسن صحيح .

عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة: ١٤٣] (١) ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ ﴾ هنا القرآن ذكر أن إسماعيل عليه السلام كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، فلماذا تقرن الصلاة دائما بالزكاة؟ قالوا : لأن الصلاة تأخذ بعض الوقت، والزكاة تأخذ بعض المال، والمال فرع العمل، والعمل يحتاج إلى وقت، فكأن الزكاة محتاجة إلى وقت أيضاً، فإذا كانت الزكاة تأخذ شيئاً من نتيجة الوقت، والصلاة تأخذ الوقت نفسه تجد أن الصلاة فيها زكاة أقوى من الزكاة ، فكما أن الزكاة نماء فكذلك الصلاة .

وإياك أن تقول: لا أعطل نفسى عشر دقائق من أجل الصلاة ؛ لأن هذه الدقائق سيعوضك الله عنها بركة فى وقتك كله، فكما أن الزكاة نماء مع أنها فى ظاهرها نقص فى المال، ولكنها نماء وطهارة للمال فكذلك الصلاة. لأنك إذا أرسلت أى جهاز إلى صانعه لابد أنه سيعود إليك أفضل مما كان عليه، فأنت صنعة الله ، فإذا وقفت بين يديه خمس مرات فى اليوم والليلة لابد أنك ستتزود بطاقة إيمانية تعينك فى حركة حياتك وتساعدك فى عملك وأدائك لواجبك؛ لأن الصنعة التى يطلع عليها صانعها خمس مرات فى اليوم لا يمكن أن يوجد بها عطب أبداً . وإذا كان إسماعيل يأمر أهله بالصلاة والزكاة فهو يؤديها من باب أولى؛ ولأجل هذه الصفات المذكورة فيه فهو

---

(١) جاء فى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يدعى نوح يوم القيامة . فيقول: لبيك وسعديك يارب . فيقول : [هل بلغت ؟] فيقول : نعم. فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ . فيقولون : ما أتانا من نذير . فيقول : [من يشهدلك؟] . فيقول : محمد وأمته ، فيشهدون أنه قد بلغ ، ويكون الرسول عليكم شهيدا . فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾. والوسط : العدل .

أخرجه البخارى [٤٤٨٧] واللفظ له ، وأخرجه الترمذى [٢٩٦١] وقال : حديث حسن صحيح .

مرضىٌّ عند الله، وهو مرضىٌّ أيضاً لأن الله اختاره رسولا (*).

(*) ورد عن نبينا ﷺ فى شأن أبينا إسماعيل عليه السلام أحاديث كثيرة منها ما تقدم فى قصة أبى الأنبياء خليل الرحمن وها نحن نذكر طرفاً من بعضها لم يتعرض له الشيخ إذ من المعلوم أن هذا الكتاب من خواطر فضيلته الإيمانية حول الآيات القرآنية والتى نزلت فى شأن قصص الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام :

❏ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان النبى ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول : « إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » .
أخرجه البخارى برقم [٣٣٧١] ،وأبو داود برقم [٤٧٣٧] ، والترمذى برقم [٢٠٦٠] ، وابن ماجه [٣٥٢٥] ، وأحمد فى المسند [١/ ٢٣٦ ، ٢٧٠] .

❏ وعن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال :مرّ النبى ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون ، فقال النبى ﷺ : « ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميًا ؟! ارموا وأنا مع بنى فلان» قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال رسول الله ﷺ : « مالكم لا ترمون ؟ » قالوا: كيف نرمى وأنت معهم ؟ فقال النبى ﷺ « ارموا فأنا معكم كلكم».
أخرجه البخارى برقم [٢٨٩٩ ، ٣٣٧٣ ، ٣٥٠٧] واللفظ له، وأحمد فى المسند [٤/ ٥٠] ، والحاكم [٢/ ٩٤] ، والطبرانى فى الكبير برقم [٦٢٩٢ ، ٦٢٩٣] .

❏ وعن ابن عباس رضى الله عنهما (وهو الحديث الطويل الذى سبق أن ذكرناه) : « . . .فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الإنس ، فنزلوا ، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشبَّ الغلام وتعلم العبرية منهم . . . ».
سبق تخريجه .

❏ وعن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من فُتِقَ لسانه بالعربية المبينة إسماعيل » .
قال الحافظ فى الفتح (٧/ ٥٥) : تكون أوليته فى ذلك بحسب الزيادة فى البيان لا الأولية المطلقة فيكون بعد تعلمه أصل العربية من جرهم ألهمه الله العربية الفصيحة المبينة فنطق بها.

❏ وجاء فى فيض القدير (٣/ ٩٢ ٩٣) : ما نصه : قال الديلمى أصل الفتق الشق أى أنطق الله لسان إسماعيل حتى تكلم بها ، وكان أول من نطق بها كذلك ، وقال فى المصباح : يقال العرب العاربة هم الذين تكلموا بلسان يعرب بن قحطان وهو اللسان القديم، والعرب المستعربة هم الذين تكلموا بلسان إسماعيل بن إبراهيم وهى لغة الحجاز وما والاها. انتهى.
أخرجه الشيرازى فى الألقاب كما عزاه إليه السيوطى فى الجامع الصغير ، وزاد ابن حجر عزوه فى فتح البارى (٧/ ٥٥) إلى الزبير بن بكار فى النسب وحسن إسناده ، وقد ذكر ابن حجر أن الطبرانى والديلمى قد أخرجاه من حديث ابن عباس وحسنه ابن حجر أيضاً . =

= قلت : وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع برقم [٢٥٨١] .

❑ وعن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عزّ وجلّ اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشًا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

أخرجه مسلم برقم [٢٢٧٦] ، والترمذى [٣٦٠٥ ، ٣٦٠٦] ، وأحمد فى المسند [٤/١٠٧] ، والخطيب فى تاريخه [١٣/ ٦٤] .

تمت بعون الله تعالى قصة

نبى الله إسماعيل عليه السلام

وبها تم المجلد الأول من :

قصص الأنبياء

لسماحة الشيخ الإمام داعية الإسلام

محمد متولى الشعراوى

ويليه بحول الله وقوته المجلد الثانى وأوله :

نبى الله إسحاق عليه السلام

ولله الفضل والمنة

من مؤلفات الشيخ الإمام
محمد متولي الشعراوي

السيرة النبوية

وهى سيرة سيد الخلق ﷺ من القرآن الكريم والصحيح المسند من الأحاديث النبوية والصحيح المعتمد من كتب التاريخ والسيرة .

نداءات الرحمن ١ / ٢

الجزء الأول :

عبارة عن كل ما ورد من الأوامر والنواهى الإلهية فى القرآن والأحاديث القدسية والتى تتمثل الدستور لأمة المصطفى ﷺ .

الجزء الثانى :

عبارة عن نداءات الإنسان فى القرآن والحديث النبوى التى توجه بها إلى مولاه وخالقه الأعظم سبحانه وتعالى راجيًا ومناجيًا .

الإعجاز العلمى فى القرآن

موسوعة علمية عظيمة ودرة من درر الشيخ الإمام يكشف فيها أيده الله الكثير من كنوز القرآن الكريم إمتثالا لقول الحق سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ .

قصص الحيوان فى القرآن

ليس كتاب قصص فقط ولكنه كتاب جامع لكل الأحكام الفقهية المتعلقة بالحيوانات التى ورد لها ذكر فى القرآن الكريم .

فهرس موضوعات المجلد الأول